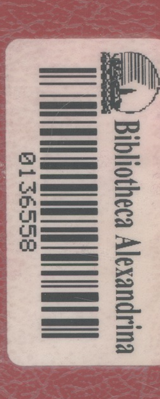

Bibliotheca Alexandrina
0136558

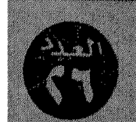
# كتاب الهلال

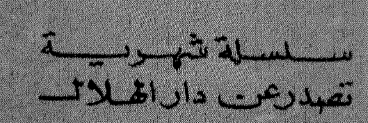
أم الرسول محمد

# آمنة بنت وهب

تأليف

الدكتورة بنت الشاطئ






# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٢٦ شعبان ١٣٧٢ – مايو ١٩٥٣

No. 26 — May 1953

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
( المبتديان سابقا ) القاهرة

**المكاتبات**

كتاب الهلال – بوستة مصر العمومية – مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) – مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا – سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا – الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ – فى الامريكتين ٥ دولارات – فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنا

# كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

أمّ الرسول "محمد"

# آمنة بنت وهب

---

تأليف

الدكتورة بنت الشاطئ

« إنمــا أنا ابنُ امــرأة من قريش تأكل القــديد »

محمد رسول الله

# مناجاة

أماه « آمنة » ...

ما تلوت من وحى السماء الى وحيدك الحبيب ، حديثه الجهير عن بشريته :

« انما أنا بشر مثلكم .. »

« سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا ؟ » .

الا ذكرت أن نبينا الكريم ، هو الانسان الذى حملته جنينا فى أحشائك ، ووضعته كما تضع كل أنثى من البشر ...

ولا تدبرت معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا »

الا تنبهت الى أن لهؤلاء القادة الرسل أمهات ، وأن المرأة التى أنجبت البطل فى كل صورة ، وفى كل حين ، هى التى قامت عن « عيسى بن مريم » الذى قالوا انه اله ، وهى التى جاءت « بمحمد بن آمنة » رسول الله وخاتم النبيين

وهذا صوت وحيدك يملأ سمع الزمان على مر الآباد :

« انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » فيحقر كبرياء الملوك ، ويسمو بأمومتك الى أفق لا يتطاول اليه

ترف الغنى ولا جاه المادة ، اذ يجعـــل منك أيتها الأنثى الوديعة المتواضعة ، والأم الطيبة الرءوم ، مبعث أنسه ، وروح انسانيته ، وآية محبته ، وموضع إجلاله واعتزازه

□

أماه « آمنة » ...

هو أبدا مجد الأمومة الذى خلد واهبات الحياة على الدهر، وصانعات التـــاريخ منذ الأزل والى الأبد ، وقد توجك وحيدك العزيز بتاج سماوى من هذا المجد الأزلى الأبدى ، حين هتف قائلا :

« الجنة تحت أقدام الأمهات »

وهو أبدا فخر الأنوثة التى حمت سر الوجود فى هـــذا الكون ، وحفظت حياة الانسانية فى هذه الدنيا ، اذ حملت أجنة البشرية وهنا على وهن ، فأى شـــعور غامر كان يملأ قلب ولدك ، حين أوصى الـــذى سأله عن أحق النـــاس باكرامه: أكرم أمك، ثم أكرم أمك ، ثم أكرم أمك، ثم ... أباك ؟ !

□

أماه « آمنة » ...

عن مجد الأمومة فيك ، وبطـــولة الأنوثة منك ، جئت أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التى جادت على الانسانية

بوليد وحيد ، حملت الملايين رايته فى أرجاء الأرض على مر الزمن ..

يتيم ، اعتز به الآباء الصيد والأصول الأمجاد ..

فقير ، حييت باسمه الدنى وفاضت الخيرات

وماذا كنت تبلغين من ذلك يا أماه ، لو أنك كنت ملكة متوجة ، أو فارسة مغـــوارة ، أو عالمة مبتكرة ، أو زعيمة قائدة ثم لم تلدى « محمدا : رسول الله » ؟

وأى عمل لك يا أماه أجل وأمجد ، من أنك كنت المنجبة لهذا الرجل الرجل ، ووالدة ذلك الرسول البطل ؟

□

وهأنذى أقف خاشعة أمام صورتك ، وقد حفت بها من أمومتك أضواء باهرة السـنا ، فيكاد جلالك يثنينى عن اطالة النظر اليك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم « محمد » الذى أصر على الاعتراف ببشريته ، فكان هذا الاعتـراف منه ، آية عظمتك وسر خلودك !

# الكتاب الاول

# سيدة الأمهات

١ ــ هذه السيرة ومصادرها

٢ ــ أنوثة وأمومة

٣ ــ أمهات الأنبياء

# هذه السيرة ومصادرها

بدأت هذه المحاولة فى درس سيرة السيدة «آمنة» وأنا أعى أتم الوعى، نقص المصادر والاخبار التى تحدث عن تلك الأم المنجبة ، لكنى لم أجزع لذاك ، اذ قدرت أنى انما أحدث عن والدة الرسول العظيم ، وأم البطل الذى هو فى حساب الحياة صفوة جنسه وخلاصة قومه ، ومن ثم مضيت ألتمس ملامحها ، فى صورة ابنها العظيم الذى أوته أحشاؤها ، وغذاه دمها ، واتصلت حياته بحياتها ، فلقد كان « محمد » هو الأثر الجليل الذى خلفته « آمنة » فليس بعجيب أن أراها فى ضوء هذا الأثر ، وأن يكون فهمى لها عن طريق تأمل عملها الفذ ، ممثلا فى ولدها العظيم

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرا هاما نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركت فيه من أثر واضح ، وما نقلت اليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل ، وما حملته اليه من خصائص الأرومات الأولى التى اعتز بالانتساب اليها فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام : ان الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشا من العرب ، فهو خيار من خيار من خيار

أو قوله :

« أنا ابن العواتك من سليم »

□

ثم كان لى الى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبار آباء «آمنة» وأجدادها نساء ورجالا، وما حفظ لنا من طابع البيئة التى نشأت فيها ، وما عرفت الحياة من صورة الأنوثة والأمومة عند قومهـــا ، وما اطمأن اليه العلم من ترابط الأسباب وتناسق الأصول ومجرى الوراثة ، وفى هذا كله ما يجلو شخصية « آمنة » كما عرفتها دنيـاها ، وصنعتها بيئتها ووراثتها وظروفها ..

ذلك أن « آمنة » لم تكن سوى ثمرة للبيئة والوراثة ، قد جرت فى عروقها دماء الأصول الأولى ، ونمتها العوامل التى تركت طابعها الخاص فى كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان

أجل هى ثمرة طبيعية ، يستطيع الدارس المحقـــق أن يلتمس جذورها الأصيلة الممتدة فى أعماق منبتها وأعراق آلها ، وأن يستبين ملامحها ومعارفهـا فى الهـــــواء الذى تنفسته والجو الذى عاشت فيه ، فاذا لديه تفسير مقبـول لأكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغتـــة ومفاجآت عجيبة ، ناسين أنها أم الرســـــول الكريم الذى أصر على الاعتراف ببشريته ، ولم يكن ليرضيه قط أن تبرأ أمه من هذه البشرية ، أو أن يضاف اليها ما يشذ بها عن سنة الله التى فطر الناس عليها ، أو أن تلون شخصيتها بما يجعل

ولدها كائنا عجيبا لم ينمه عرق ، ولا أمده أصل ، ولا غذته وراثة ، ولا نهضت به بيئة ••

□

على أني حين مضيت في تتبع الأصول البعيدة لآمنة ، ولمح المشخصات الواضحة لدنيـــاها ، ألفيت الى جانب ما يطمئن اليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشدا من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الأول ولا هى من واديه ••• آثار يحرص كثير من الدارسين على تجاهلها ، اذ يرون فيها طابع الخيال وظل الوضع ، وفاتهم أن ينتبهوا الى دلالتها الاجتماعية التى لا تكذب ، والتى تمد الدارس بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المـــادى من عالم نفسى ، وتكمل ما تتركه الأخبار من ثغرات فى فهم طبيعة المجتمع

تلك الآثار ، هى ما خلفه لنا قوم رأوا فى السيدة « آمنة» صورة الكمال المطلق لأم رسول ، فتحدثوا عنها بوحى من قلوبهم المعجبة ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا فى ذلك ولا مانوا ، ولا خدعوا ولا خانوا ••

ولغيرهم من أهل العلم والتحقيق أن يقولوا ما يأذن به الدرس المنهجى وراء سور الوجدان ، وبعيـــدا عن عالم القلوب ، ودون أفق الحب والايمان ، ولا بأس على هؤلاء ولا أولئك ، مما يقال هنا باملاء العقل ، أو يقال هنـــاك بلسان العاطفة والايمان ••

وكذلك يلتقي العلم والفن ، لا يعدوان على حقيقة ولا

يجوران على صواب ولا يتهمان بكذب ، فاذا قال الدارس عن « آمنة » ما قال ، مستنبئا الوراثة ، مستلهما البيئة ، متتبعا المؤثرات والآثار فى الأصول والفروع ، فهو محق صادق غير متهم ..

واذا قال فيها المحب الوامق والمؤمن الواثق ما قال بلسان الوجدان ، مفسرا بذلك ما يشعر به من عظمتها ، معبرا عن صورتها عنده ، وحقيقتها فى وزنه ، وجوهرها فى قلبه ، فهو صادق محق كذلك ، لا يسىء الى الواقع الخارجى فى شىء ، لأنه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يحدث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة، وما عشق من بطولة، وما أحس من الانفعال بجمال تراه بصيرته ، وجلال يهز مشاعره ، وتلك دنياه لا يشركه فيها أحد ، ولا يزاحمه فى آفاقها أحد مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترام ...

□

وأحسبنى بهذا القول ، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا، من عنايتى البالغة بكل ما قيل عن السيدة «آمنة»، لم أقتصر فى ذلك على الخبر التاريخى الثابت ، بل لم يكن اهتمامى به أكثر من اهتمامى بروايات أخرى قد يقرؤها الدارس بعين العلم فيجم، أو يسمعها المؤرخ باذن التحقيق فيبرم، وينسيه عالمه الواقعى ما وراءه من عوالم أخرى لأناس آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم الرسول » كما شاءت قلوبهم المحبة ، وكما رسمته لهم قواهم الفنية وطاقاتهم التعبيرية وتأملاتهم

الروحية ، فقدموا لنا بذلك كله صـــورة « آمنة » فى نفوسهم ، وفسروا بذلك تاريخ الحياة كما فهموه وأدركوه

وما أحسب المؤرخ الذى وهب حياته كلها للدرس المحقق، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها اليها ، وكيف تمثلها أبناء جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها فى الأدهار وسارت على الأجيال

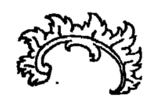
فأنباء « آمنة » فى زوجيتها ، وحملها ، ووضـــعها ، وأمومتها ـ تلك الأنباء التى يحسبها بعض المحدثين من أساطير الأولين ـ تصور للمؤرخ حياة هذه الأم فى نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها ، ومنه ينتزع تحليلهـم النفسى لشخصيتها ... وأنىّ لمؤرخ أن يســـتغنى عن ذلك فيما يعانى من تاريخ محقق ؟

□

وأرانى الآن قادرة على أن أبسط منهجى فى فهم سيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيأت القارىء لفهم هذا المنهج: لقد بدأت أول ما بدأت بدرس بيئتها وبيتها ، وتتبـــع الأصول البعيدة والملامح العامة للحياة العربية ، وحيـــاة المرأة حينذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن اليه الحق التاريخى فى حياة « آمنة بنت وهب »

وثانى الأمرين مما عمدت اليه فى هذه السيرة ، هـــو

ما يحلو لكثير من الدارسين ــ والمستشرقون منهم بخاصة ــ أن يسموه أساطير وأقاصيص ، ذلك أنى وجدت فى تلك الأساطير ، صورة أحداث التاريخ فى نفوس الذين عاشوا فى بيئة أم الرسول ، أو اتصلوا بها وتمثلوها • وكان هذا الفهم النفسى للأحداث ، معينا لى على تبين شخصية «آمنة» وتقديرها تقديرا يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها • كما كان الذى رووه من أحلام « آمنة » ورؤاها ، أو تصوروه من أمانيها وآمالها ، صورا نفسية بشرية ، تمثلهــا المتمثلون لأمومتها وحيويتها ، وتلك مادة للتــاريخ الحق ، وان بدت فى صورة الخيال المجنــح ، والسرد القصصى الذى لا أراه يجور على الحقيقة بحال



# انوثة وامومة

« تخــيروا لنطفكم
فان العرق دساس »

حديث شريف

لا نرى أن نمضى فى الحديث عن احدى صانعات التاريخ، قبل أن نلم بمكانة الأم فى الجزيرة الى عهد « آمنة »

ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة فى الجاهلية قد كانت ـ فى خير حالاتها ـ متاعا للرجل ، وأنها عانت من صنوف الاستعباد والاستبداد ما أنقذها منه الاسلام · وعلى الرغم مما نقل الينا من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية فى الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع الســـنين والقرون ، الا أن تلك الأخبــــار لم تذع فينا كما ذاعت الأخبار الأخرى التى تتحدث عن وأد البنات وانتقــــال الزوجات بالميراث من الآباء الى الأبناء ، وما الى ذلك من مظاهر الضعة والهوان

▭

ولا نقول اننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية فى تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين والرواة القدامى

لم يضنوا عليها بتسجيل ما تناقلته الأخبار من مآثرها ، وكل عملنا هنا ، أن نختار من ذاك الذى سجلوه ، بعض ما يصحح فكرتنا الشائعة عن الأنوثة والأمومة فىالجزيرة قبل الاسلام ، وأن نضع الى جانب الروايات المشهورة عما لحق بها من ظلم وعسف وهوان ، بعض ما تحدثوا به عن منزلتها الرفيعة ، وعزتها التى صينت بالدماء ، وافتديت بالمهج والأرواح ..

ويعنينا هنا بوجه خاص ، ما اختص بالأمومة أو كان منها بسبب ، لنلتمس منه ضوءا يكشف عما « لآمنة » من فضل فى انجاب خاتم الرسل والأنبياء ، وما كان لها من أثر فى تكوين ولدها الخالد الذى قال :

« تخيروا لنطفكم فان العرق دساس »

▭

يروع الذى يتصل عن قرب بما كتب الأقدمون عن الجزيرة ، حرص العرب فى جاهليتهم البعيدة على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهم « أكثم بن صيفى » :

« لا يفتننكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فان المناكح الكريمة مدرجة الشرف »

وقال شاعرهم :

وأول خبث الماء خبث ترابه
وأول خبث القوم خبث المناكح

ونقل « أبو عمرو بن العلاء » عن أحدهم :

« لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدى منها » • قيل له : « كيف ذاك ؟ » قال : « أنظر الى أبيها وأمهـا فانها تجر بأحدهما »

وقال قائلهم لبنيه :

« قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا » • قالوا : « وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد ؟ » • فأجاب: « اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها »

ومثله ما أنشده « الرياشى » :

وأول احسانى اليكم تخـيرى
لماجدة الأعـراق باد عفافهـا

ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، يفسر لنـا كراهتهم للسباء

حدثوا أن « فاطمة بنت الخرشب » رمت بنفسـها من الهودج حين أسرت ، فماتت لساعتها وهى تردد المثل :

« المنية ولا الدنية »

وربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلها من نفسـه وقومه أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها مرارة الأسر • من ذلك ما رووه من أن رجلا من العرب اسـتبى امرأة فولدت له سبعة بنين ، ثم قالت له يوما : « أزرنى أهلى ليذهب عنى ذل السباء »

ففعل ، فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجهـا وثنائها عليه

وكذلك فعلت « سلمى الغفارية » زوج « عروة بن الورد العبسى » وكان شاعرا بطلا كريما ، أصاب « سلمى » يوم خرج « بنو النضير » يريدون « خيبر » ، بعد أن أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن « المدينـــة » • وكانت « سلمى » ذات جمال ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولادا ، وحلت من نفسه وقلبه أعز مكان ، اذ كان شديد الحب لها والحرص على ارضائها ، لكن ذلك لم ينسها مذلة السباء ، فقالت له يوما: « ألا ترى ولدك يعيرون بأمهم ويســمون بنى الأخيذة ؟ » قال : « فماذا ترين ؟ » قالت : « أرى أن تردنى الى قومى حتى يكونوا هم الذين يسلموننى اليك ! »

فاستجاب لها وهو لا يشك فى أنها ســعيدة راضية ، صادقة الرغبة فى العيش معه

وخرج بها فحج ثم عرج على أهلها زائرا فتحايلوا عليـه بالخمر حتى رضى أن يخيروها بين الاقامة فيهم والعودة معه، فاختارت « سلمى » أهلها وهى تقول :

« يا عروة ، أما انى لأقول فيك ـ وان فارقتك ـ الحق: والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يدا وأحمى لحقيقة • لكن ، ما مر علىّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه أحب الىّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أشأ أن أســمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا • والله لا أنظر الى غطفانية أبدا ، فارجع راشدا الى ولدك وأحسن اليهم »

فانصرف عنها حزينا حسيرا ، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور :

سقونى الخمـــر ثم تكنفونى (١)
عداةُ الله من كـــــذب وزور

ولا أكاد أعرف ـ فيما قرأت ـ أمة قديمة بلغت كرامة الأمومة عندها ما بلغتـــه عند العـــرب ، وقد روى «المبرد» فى « الكامل : جـ ١ ، ص ٢٥١ » أبياتا للسليك بن السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود اماء قد أذلهن الرق وأزرى بهن التبذل، مع قصور يده عن افتدائهن جميعا ، كرامة لأمه ـ وكانت جارية حبشية ـ فذلك قوله:

أشـــاب الرأسَ أنى كل يوم
أرى لى خالة بين الرحـــال
يشق علىَّ أن يلقين ضـــيما
ويعجز عن تخلصـــهن مالى

□

ولأبناء العقائل الكريمات حديث ـ أشبه بالقصص ـ عن حرصهم على عزة الأمومة وصيانتها بالمهج والأرواح ،ولعله يكفينا هنا أن ننقل مثلا واحدا ، ما رواه صاحب(الأغانى) من أن « عمرو بن هند : ملك الحيرة » قال يوما لجلسائه :

« هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى؟»

فقالوا : « نعم ! أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » . قالوا : « لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمهـا كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها

(١) الاغانى جـ ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب

عمرو بن كلثوم وهو سيد قومه وليث كتيبتهم »

فأرسل « عمرو بن هند » الى « عمرو بن كلثوم » يستزيره ، ويسأله أن تزور أمه أمَّه ، فأقبل « ابن كلثوم» من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت « ليلى » فى ظعن منهم

وأمر « عمرو بن هند » برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل « ابن كلثوم » رواق الملك ، وأدخلت « ليلى » الى « هند » فى قبة من جانب الرواق ، وكان بين الاثنتين صلة نسب

قالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أمه أن تنحى الخدم اذا دعا بالطرف، وتستخدم « ليلى » ، فلما فعل قالت«هند» لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

ـ ناولينى يا ليلى ذلك الطبق

فقالت « ليلى » فى نفور :

ـ لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ..

فأعادت « هند » عليها وألحت ، واذ ذاك صاحت ليلى :

« واذلاه يا لتغلب ! »

فسمعها ابنها فثار الدم فى وجهه وانتفض انتفاضة المحموم وقال :

« لا ذل لتغلب بعد اليوم ! »

ثم نظر حوله فاذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فوثب اليه وأطاح به رأس « ابن هند » ، ونادى فى بنى تغلب فانتهبوا ما فى الرواق

والروايات تقول انه أنشد يومئذ معلقته المشـــــهورة مرتجلا ، وفيها يصيح بالملك :

أبا هند فلا تعجـــل علينــــا
وأنظرنا ، نخبـــرك اليقينـــا
بأنا نورد الرايات بيضــــــا
ونصدرهن حمرا قد روينـــا
ألا لا يجهلنْ أحــــد علينــــا
فنجهل فوق جهل الجاهلينـــا
بأى مشيئة ( عمرو بن هنـد )
تطيع بنا الوشاة وتزدرينـــا ؟
تهـــددنا ، وأوعدنا ، رويدا !
متى كنا لأمك مقتوينــــــا ؟

وهو القائل أيضا :

على آثارنا بيض حســــــان
نحاذر أن تقسّـــم أو تهـــونا
اذا لم نحمهـــن فلا بقينـــا
لشيء بعــــدهن ولا حيينـــا

ثم لم تكتف تغلب برأس الملك ثمنا لكرامة السيدة الأم، بل قام « مرة بن كلثوم » ـ أخو عمرو ـ بعد ذلك وقتل ولد النعمان ، وأخاه ، ليطفىء جذوة من الغضب هاجهـــا تعمد المهانة لأمه

وظلت «تغلب» تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم وكبارهم على تتابع الأجيال ، كما ظل مقتل « عمر بن هند» مفخرة لهم يباهون بها ما عاشوا ...

قال الفرزدق :

* قوم هم قتلوا ابن هند عنوة *

وقال صريم التغلبى :

لعمرك ما « عمرو بن هند » وقد دعا
لتخـــدم « ليلى » أمه بموفق

فقام «ابن كلثوم» الى السيف مصلتا
فأمسـك من ندمانه بالمخنق

وجلله « عمرو » على الرأس ضربة
بذى شطب صافى الحديدة رونق

وقال « الأخطل التغلبى » لجرير يفخر « بعمرو ومرة : ابنى كلثوم » :

أبنى كليب ان عمى اللـذا
قتـلا الملوك وفككا الأغلالا

الى مثل ذلك الحد ، بلغت غيرتهم على الأمومة ، وما يمنع أن تكون حادثة «ليلى أم عمرو» من أقاصيص السماروإضافات الرواة ، لكنها لن تفقد ـ فى أى وضع رضيناه لها ـ دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الأمومة فى الجاهلية

▭

وقد شهد الرواة ـ الى جانب هـذا ـ للأم العربيـة بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب فى عظمة بنيها،فهم يذكرون ـ فيما روى «القالى» بالأمالى ج٢/١١٨ طبعة بولاق ـ أن « أم الفضل بنت الحارث » كانت ترقص ولدها « عبد الله بن عباس » قائلة :

ثكلت نفسى وثكلت بكـــــرى
ان لم يســـد فهرا وغير فهــــر
بالحســـب العـــــد وبذل الوفر
حتى يوارى فى ضريح القبــــر

وأن « ضباعة بنت عامر » كانت ترقص ولدها « المغيرة ابن سلمة » بقولها :

نمى به الى الذرى هشـــــــام
قـــــــوم وآباء له كـــــرام
جحاجح ، خضارم ، عظـــــام
من آل مخـــزوم ، هم الأعـــلام
الهـــامة العليــــــاء والســـنام

ويعترفون بأن « حاتما الطائى » انما ورث الجـــود عن أمه ، ويروى صـــاحب الأغانى ( ٩٣/١٦ ) أنها كانت لا تبقى على شىء ، فلما رأى اخوتها اتلافها أمسكوا عنهـا مالها ، حتى اذا ظنوا أنها وجدت ألم ذلك ، أعطوها طائفة من ابلها،فجاءتها امرأة من « هوازن » تسألها على ما تعودت أن تفعل كل سنة ، فقالت لها : دونك هذه الابل فخذيها ، فوالله لقد عضنى الجوع فلن أضيع سائلا :

لعمرك قدما عضنى الجـوع عضـــة
فآليت ألا أمنـــع الدهر جائعـــا
فقولا لهذا اللائمى : اليــــوم أعفنى
وان أنت لم تفعل ، فعض الأصابعـا
فماذا عساكم أن تقـــولوا لأختكم
سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا ؟

وماذا ترون اليـــوم الا طبيعـــة
فكيف بتركى يا ابن أمّ الطبائعا ! ؟

□

كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب فى الجزيرة، فشادوا بذكر « المنجبات » من عقائل العرب ، مثل :

ـ فاطمة بنت الخرشب : أنجبت الكملة لزياد العبسى ، وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمـــارة الوهاب ، وأنس الفوارس

قيل انها سئلت يوما : أى بنيك أفضل ؟

فبان عليها التردد وهى تقول فى حيرة :

« الربيع ، لا . . بل قيس » ثم هتفت : «ثكلتهم ان كنت أدرى أيهم أفضل ! هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها»

ـ وأم البنين، ابنة عامر بن‌عمرو ، زوج مالك بن‌جعفر . أنجبت له : ملاعب الأسنة، وطفيل الخيل، وربيع‌المقترين، ونزال المضيف ، ومعوذ الحكماء !

ـ وخبيئة بنت رياح الغنوية ، أنجبت ثلاثة كعشرة : خالدا ، ومالكا ، وربيعة

ـ وعاتكة بنت هلال السلمية ، أنجبت لعبد مناف بن قصى : هاشما ، وعبد شمس ، والمطلب

ـ وريحانة بنت معديكرب الزبيدى ـ أخت عمـــرو بن معديكرب ـ كان « الصمة بن عبد الله الجشمى » سباها ثم تزوجها فولدت له دريدا ، وعبد الله، وعبد يغوث ، وقيسا، وخالدا

واياها عنى أخوها « عمرو » بقوله :

أمن « ريحانة » الداعى السميع
يؤرقنى وأصحابى هجوع
اذا لم تستطع شيئا فدعه
وجاوزه الى ما تستطيع

وليس ببعيد عن مظاهر مجد الأمومة ، وما كان من اعزازهم لها ، أن عددا غير قليل من قبائل العرب وبطونها، نزع الى أمه وآثر الانتساب اليها ، كبنى «الخندف» ــ وهى ليلى بنت عمران القضاعية ، زوج الياس بن مضر ــ وعنها انشعب كثير من بطون العرب ، كهذيل ، وكنانة ، وأسد

وأم « الخندف » ، هى « ضرية بنت ربيعة بن نزار »التى ينسب اليها « حِمى ضُرية »

ومن القبائل التى انتسبت الى أمهاتها : بنو جديلة « بنت مدركة بن الياس » واليها تنتسب قبيلة عدوان

وكذلك بنو جندلة ، وبنو بجيلة ، وبنو العبدية ، ورقاش ، ومزينة ، وعاملة ، وعفراء ، وباهلة ، وسلول

ومن الملوك من نسبوا الى الأم ، كعمرو بن هند ، والمناذرة بنى « ماء السماء » وهى ماوية بنت عوف بن جشم

وكثيرا ما سمعنا الشعراء يمدحون كبار الرجال بأمهاتهم ، قال « حذيفة بن غانم » أخو بنى عدى بن كعب ابن لؤى ، يبكى « عبد المطلب بن هاشم » ويذكر فضل قصى « على قريش » :

ولا تنس ما أسدى « ابن لبنى » فانه
قد اسدى يدا محقوقة منك بالشكر

وأمــــك سر من خزاعة جــــوهر
اذا حصل الأنساب يوما ذوو الخبـــر

الى سبأ الأبطـــــال تنمي وتنتمي
فأكرم بها منســـوبة فى ذرا الزهر

وقال « بشر بن أبى حازم » يمدح « أوس بن حارثة بن لام » :

الى أوس بن حـــــــارثة بن لام
ليقضى حاجتى ، ولقـــد قضـــاها

فما وطىء الحصا مثل «ابن سعدى»
ولا لبس النعـــال ولا احتــــذاها

ولهذه الأبيات قصة بالغة الدلالة على اعتراف القوم بما للأم من أثر فى صنع أبنائها وتوجيههم • حدثوا أن قوما أغروا « بشر بن أبى حازم » بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه بلسانه حتى ضاق به فبعث من يشتريه من مولاه بالغـا ما بلغ ثمنه ، فلما جىء به خيره بين قطع لسانه وحبسـه حتى يموت ، أو قطع يديه ورجليه وتخليه سبيله

ثم دخل « أوس » على أمه « ســعدى » فكرهت رأيه ، وأمرته أن يحسن عطاءه ففعل، فملأ « بشر » عراض الآفاق بمدائحه فى « ابن سعدى »

□

ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها في جليـــل الأحداث ، من ذلك ما رواه « ابن هشام فى الســيرة : ١/١٣٩ » عن دور المرأة فى حلف المطيبين الذى كان بين

بنى عبد مناف ومن انضموا اليهم فى خلافهم مع بنى عبد الدار بعد وفاة « قصى بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا

وقيل ان التى أخرجت لهم الجفنة ، هى « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله وتوأمة أبيه »

□

وأكثرنا يعرف للعرب حرصهم المفرط على الأنساب وولعهم بذكرها من قديم ، الى حد أن صار النسب عندهم علما يعنى به الحفاظ وتؤلف فيه الكتب ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدى وقد قيل انه « من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة » ومثل « أبى بكر الصديق » الذى « كان أنسب العرب »

نعرف هذا ، لكنا حين يذكر النسب ، يتجه تفكيرنا — غالبا — الى الآباء والأجداد دون الأمهات والجدات ، مع أن نسابى العرب لم يغفلوا عن ذكرهن،وتكفى المامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكى ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الأمهات

وهذه العناية غير مستغربة من قوم كان لهم مثل ذاك الحرص على النسب، والاعتزاز بالاصالة ، والمباهاة بالخئولة

ظل ذلك فيهم الى ما بعد الاسلام بقرون ، حتى لتسمع

« جرير بن عطية » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان » قائلا :

فما الأم التي ولدت قريشا
بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أبيكم
وما خال بأكرم من تميم

قال ابن هشام (١) : « يعني بالأم ، برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، أم النضر ـ والنضر هو قريش في قول ، ويقال بل فهر بن مالك هو قريش »

وما من قارئ يتتبع مساق (النسب الزكي) في السيرة، الا عجب لعنايتهم البالغة بذكر الأمهات مهما ترتفع الأصول وتبعد

وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهم وأنزلوها منزلة الهوان ، ولا هكذا يكون سلوك قوم ألفوا أن يئدوا بناتهن ، وأن يرث الابن الأكبر زوجة أبيه دون أن يكون لها من أمرها شيء

□

على أنا لا نريد أن ننفي شيئا من هذا الذي قيل عما لحق بالمرأة العربية ـ في بعض الحالات ـ من ظلم أو استبداد، لأننا ان فعلنا ، نكن كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفرت به العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن اليه من مكانة

ثم هذا « القرآن الكريم » يقسم بالموءودة اذا سئلت ،

---

(١) السيرة ١/٩٦

بأى ذنب قتلت • وهذه كتب التاريخ العربى حافلة بماكان من ذاك ، لكننا نعرف أن ذلك لم يكن عاما بين العرب ، ثم نكره أن ننظر الى المرأة العربية من جانب واحد ، بل لعلنا اذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريمهن وتقديرهن والاعتراف بمآثرهن،الى ما روى عن مظاهر هوانهن والاستبداد بهن، لرجحت الأولى رجحانا ظاهرا ، وبخاصة اذا قدرنا ظروف البيئة العربية فى تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن (نهضة المرأة) و (حقوق النساء ) بقرون ودهور



# امهات الانبياء

بقى هناك أروع ما يقال عن الأنوثة والأمومة ، فى كتاب « آمنة أم النبى العربى »

بقى أن نرجع الى الأديان السماوية الكبرى لنرى ( الأمهات ) فى حيوات الأنبياء الأربعة :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعا أزكى الصلاة والسلام

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم ـ عليهم السلام ـ قد عهد بهم فى طفولتهم الى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عوضت الى جانبه فقد الأب أو غيابه ، غير انا نرى الأمر طبيعيا لا غرابة فيه ولا مصادفة ولا اتفاق ، اذ الأمومة فى عاطفتها الجياشة وايثارها الرائع ، أقرب الى أن ترعى أصحاب الرسالات الدينية التى تقوم على الروحانية ، وما كانت السماء لتجحد هذه الصلة ، ولا كانت الأديان التى حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها فى غير موضعها العتيد : « سنة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله »

# أم اسماعيل

**« ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »**

( قرآن كريم )

هذه ( التوراة ) تروى لنا قصة « هاجر أم اسماعيل » فى تفصيل مسهب ، وهذا ( القرآن ) يشير اليها فىمواضع شتى على أسلوبه المختار فى القصص . ويا لها من قصة الأمومة فى أروع مواقفها وأعنف مشاعرها ! لقد أراد الله أن يؤثر هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وانقاذه من الهلاك ، فتركه لها وحدها فى واد قفر غير ذى زرع ، كى تكون لهفتها على الصغير والألم الذى ذاقته حين رأته يكابد حرقة الظمأ ، ومسعاها المثير فى سبيل نجـــاته ، حديث التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيها الأمومةوتتقدس آلامها الى حيث تغدو عبادة وصلاة !

ومن « هاجر » ؟

أمة ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة سارة : زوجة ابرهيم » الى فلسطين ، بعد رحلتها المشهورة

الى مصر فى صحبة زوجها ، عندما خرج من بلاده مهاجرا بدينه كافرا بقومه وبما يعبدون من دون الله

وكانت السيدة « سارة » عاقرا ، وقد طال عليها الأمد وهى عاجزة عن أن تهب زوجها ولدا ، ثم ... بدا لها أن تهب زوجها تلك الجارية المصرية ، لعله يسكن الى احدى الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك فى سيدتها أقسى ما فى حواء من غيرة ، وخيل اليها أن أمتها صارت تنظر اليها نظرة فيها مباهاة ورثاء مذل ، فأقبلت على زوجها عاتبة شاكية تقول :

ـ أنا دفعت اليك جاريتى ، فلما حملت ترفعت على !

فرد عليها ملاطفا :

ـ هى جاريتك ، تصنعين بها ما تشائين !

لكن « سارة » لم تشأ أن تصنع شيئا قبل أن تبذل محاولتها الأخيرة في احتمال الموقف ، حتى اذا وضعت « هاجر » مولودها ، نفد صبر السيدة وغلب احتمالها ، فأقسمت ألا يؤويها وجاريتها سقف

ثم ما زالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميمما شطر الجنوب ، تتبعه « هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل »

وانتهى بهم المسير عند « مكة » وهى اذ ذاك مقفرة خلاء، لا يكاد يلم بها سوى نفر من الرحل ، وقوم من العماليق كانوا يعيشون خارجها ويتنقلون من حين الى حين ، التماسا لماء أو انتجاعا لمرعى

وعند ربوة حمراء كانت قائمة هناك حيث أطلال البيت العتيق ، ترك ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشا ، ثم همّ بالرجوع من حيث جاء ، فارتاعت « هاجر » من وحشـــة البرية ، وتضرعت الى « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما فى ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ، كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفتــــه أمام الأم الوالهة الحيرى ، أو تثور أبوته رحمة بابنه الوحيد ، الذى نبذه وأمه بالعراء

وأعادت « هاجر » سؤالها :

« أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انس ولا شىء » وهو منصرف عنها منطلق فى سبيله لا يلوى على شىء ، حتى اذا كاد يتوارى خلف منعرج الوادى ، ســمع صوتها الضارع يسأل فى وهن ولهفة :

ــ آلله أمرك بهذا ؟

أجاب دون أن يلتفت :

ــ أجل

فقالت « هاجر » فى استسلام خاشع :

ــ اذن فالله لا يضيعنا ...

وأطرقت صامتة ، فلم تر « ابراهيم » وقد رفع وجهه الى السماء حين غيبته ثنية الوادى ، وابتهل الى الله فى توسل:

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عنـــد بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئـــدة من

الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ـ ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء »

ثم استأنف مسيره عائدا الى زوجه « السيدة سارة »

□

وأقبلت « هاجر » على ولدها تستمد منه الأنس والعزاء، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت بالنظر الى وجهه الحلو الحبيب ، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة فى البرية المقفرة ، ولم تدرك حق الادراك قسوة موقفها ذاك فى الوادى الأجرد ، بين الصخور الكالحة والجبال الغبراء

حتى نفدت مئونتها الضئيلة ، وبدأ الظمأ يناوش الصغير العزيز ، فهبت مذعورة تبحث له عن قطرة ماء ..

وحين أعياها أن تجد هذه القطرة ، بدا لها أن تصعد الى عل ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض ، فاذا « الصفا » قريب منها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحدا ؟ وتسمعت : هل تؤنس صوتا ؟ فلما لم تجد الا الوحشة والصمت ، أتت « المروة » مهرولة تسعى سعى المجهد ، وصعدت علها ترى أثرا من حياة ، ولا أثر ..

وظلت هكذا تسعى مهرولة بين « الصفا » و « المروة » سبع مرات حتى نال منها التعب والاعياء ، فتهاوت على

الرمال الى جانب ولدها تنتظر المصير الفاجع مستسلمة ، شبه يائسة ..

لكنها لم تلبث فى مكانها طويلا ، فلقد كان لهاث ولدها الظامىء يمزق قلبها ويفرى كبدها ، وكان مرآه والحياة تتسرب منه وتخبو رويدا رويدا ، أقسى من أن تحتمله أمومتها ، فجمعت كل ما بقى لها من قوة ، وزحفت بعيدا عن ولدها المحتضر ، ثم غطت وجهها بلفاعها وهى تقول :

« لا أنظر موت الولد »

وأمسك الكون أنفاسه ، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أمه الملتاعة ، يتردد صداهما فى البلقع القفر ، مختلطا بعواء وحوش الفلاة ، وسعار السباع الجائعة المحومة على المكان ، كأنها ترقب الخفقة الأخيرة فى فريستها المنتظرة

ثم ... كانت النجاة

انبثق ماء « زمزم » فهرعت « هاجر » نحوها وهى تحس موجة طارئة من القوة والحيوية قد تدفقت فى كيانها ، وأقبلت ترتوى ، وتسقى ولدها ...

ودبت الحياة فى الوادى الأجرد ..

قالوا : « ومرت رفقة من«جرهم» مقبلة من طريق «كداء» تريد الشام ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طيرا فقالوا : ان هذا الطير لحائم على ماء ! لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ..

« وأرسلوا دليلهم ، فعاد يحدثهم عما رأى ، وتبعوه حتى أشرف بهم على الماء ، فاذا هناك هاجر وولدها . فقالوا لها:

ان شئت كنا معك فآنسناك ، والماء ماؤك

« فأذنت لهم فنزلوا معها ، وهم أول سكان « مكة »

□

وخلدت « هاجر : الأمة المنبوذة » صورة مؤثرة مثيرة للأمومة في حنوها وآلامها وهمومها ...

وعاش ولدها اسماعيل ـ ذاك الذى رعته وحدها حين تركه أبوه فى البلقع القفر ـ ليتلقى مع أبيه رسالة السماء:

« وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ، أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ـ واذ قال ابرهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير ـ واذ يرفع ابرهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ـ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ـ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم »

# أم موسى

**« •• وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين»**

( قرآن كريم )

لا يذكر لنا « القرآن الكريم » شيئا عن والد «موسى» ، وانما يخص بالذكر أمه ، ويكل اليها أمر حمايته وليدا ورضيعا ، حين استبد فرعون ببنى اسرائيل فأذلهم واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب

وتقول الرواية (١) : انه رأى فى منامه رؤيا أفزعته « فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين ، فسألهم تأويل رؤياه فقالوا : يولد فى بنى اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقومك من أرضك ، ويبدل دينك • وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه »

فجن غضبه وقلقه ، وأمر بقتل كل غلام يولد فى بنى

---

(١) راجع ( قصص الانبياء ) للامام الثعلبى • ص ١٧٣ و ١٧٤ ط السعيدية

اسرائيل ، وجند لذلك القوابل من النساء في أنحاء المملكة

وولد «موسى» اذ ذاك خفية ، بعد أن ذبح فرعون ق طلبه سبعين ألف ولد على ما يقولون (١) ــ فارتجفت أمه رعبا وجزعا ، وأشفقت عليها القابلة فوعدتها أن تكتم الأمر . ويضيف بعض الرواة أنها ــ أى القابلة ــ لم تكد تنظر الى الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقا به ، وأبى عليها أن تسلمه الى الذبح

غير أنها ما كادت تنصرف من عنـــد أم « موسى » حتى أبصرتها عيون فرعون التى بثها فى كل مكان ، فاندفعوا يقتحمون الدار وكادوا يظفرون بالوليد لولا أن لمحتهم أخته « مريم » فهمست جازعة :

ــ أماه ، هذا الحرس بالباب !

وفى ذهول المفاجأة ، لفت الأم ولدها فى خرقة وألقته فى جوف التنور ، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكد تودعه هناك حتى دخل الحراس ، فلم يجدوا ســـوى الأم بادية السكينة والاطمئنان ، والى جانبها فتاتها تعنى بشـــؤون الدار فى جد وهدوء

وسألها الحراس فى فظاظة :

ــ ما أدخل عليك هذه القابلة ؟

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها :

ــ هى مصافية لى ، دخلت علىّ زائرة

(١) العرائس للثعلبى : ١٧٥

فانصرفوا ، ودارت عينا الأم تبحثان عن ولدها ، فاذا صوته ينبعث من التنور ، فهرعت اليه وأخرجته

□

وبدا جليا أن اخفاء الصغير غير مستطاع الا الى حين ، وأطرقت الأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله اليها : « أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له »

واستجابت الأم لوحى السماء ، فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا ، ثم أرضعت وليدها وأرقدته فى التابوت وأحكمت عليه الغطاء ، وألقت به فى النيل ..

كيف كان شعورها اذ ذاك وهى تسلم فلذة كبدها بيدها الى النهر ؟

أغفل كثيرون ممن تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك على ضفة النيل ، وقد تعلقت عيناها بالتابوت الذى يضم الصغير الحبيب ، اذ تتقاذفه الأمواج وتمضى به بعيدا ..

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت عن بصرها ، وروعها الفراغ من حولها ، فتنبهت فجأة الى أنها ألقت ولدها بيديها فى اليم ، وكأن اشتغالها بالفرار به من عذاب الطاغية ، قد صرفها عن التفكير فى أى شىء عدا النجاة ، حتى أدركت بعد فوات الأوان ، أنها خلصت وليدها من سكين الظالم ، لتلقى به الى أفواه الحيتان !

قال « الثعلبى » فى ( قصص الأنبياء : ص ١٧٤ ) :

« فلما ألقته فى النيل وتوارى عنها ، أتاها الشيطان فوسوس اليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعت بابنى ؟ لو ذبح لواريته وكفنته ، وكان أحب الى من أن ألقيه بيدى فى البحر وأدخله الى دواب البحر »

وانى لأتمثلها الآن وقد لبثت فى مكانها على الشاطىء لا تكاد تقوى على مغادرته، وقلبها يعدو فى أثر ذاك الذى مضى ... حتى افتقدتها ابنتها « مريم » فجاءت تلتمسها هناك، وقادتها فى رفق عائدة بها الى الدار ، حيث مضت الأم المحزونة تطوف بأنحائها ، وتنادى الغائب العزيز ...

ثم أنزل الله سكينته عليها ، فأمسكت عبرتها وكتمت لوعتها ، وانطوت على نفسها صابرة مستسلمة ، داعية خاشعة

□

ومضت الأمواج « بموسى » حتى انتهت به الى روضة عند قصر « فرعون » كانت مستقى لجواريه ، فما لمحن التابوت حتى التقطنه وانطلقن به الى سيدتهن « آسية : امرأة فرعون » وفى حسابهن أن به كنزا من مال وجواهر

ثم فتح الصندوق ، فاذا الصغير الجميل يرفع الى«آسية» وجها مشرقا بابتسامة وضيئة !

وانثنت تملأ عينيها منه وقد أحست قلبها يتفتح له ، كأنما هو قطعة منها :

ولم يكن لها ولد ، فما أروعها هدية يقدمها القدر الى أمومتها المحرومة ! !

في هذا كانت تفكر ، حين أقبل الذباحون على جناحها، يطلبون الصبي

قالت آمرة :

ـ انصرفوا ، فان هذا لا يزيد في بني اسرائيل ...

ثم لما رأت ترددهم ، خففت من صرامتها وقالت :

ـ دعوا أمره لي ، فأنا آتي فرعون وأستوهبه اياه ، فان فعل كنتم قد أحسنتم ، وان أمركم بذبحه فلا ألومكم ..

وجاءت « فرعون » فهتفت به :

« قرة عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا »

فكان جوابه :

ـ قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لي فيه

ثم استدرك بعد لحظة :

ـ لا بل فليذبح ، فانى أخاف أن يكون هـــذا من بني اسرائيل ، وأن يكون هو الذى هلاكنا وزوال ملكنا على يده

فلم تزل « آسية » تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لهـــا ، وعادت به الى جناحها والدنيا لا تسعها من فرط غبطتها

□

وهنالك في ( حي المنبوذين ) ، كانت « أم موسى »تضع يدها على قلبها الذى ما فتيء يخفق ملحا في طلب النـــائي الغالي

قالت لأخته :

ـ « قصيه » وتتبعى أثره ، هل تسمعين له ذكرا ؟ أحى هو أم قد أهلكته دواب البحر ؟

فخرجت « مريم » تلتمس أثر أخيها ، وسارت بحـذاء النهر حتى حملتها قدماها الى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلاما رضيعا ، يأبى المراضع !

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر فى حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جوارى « آسية » يخرجن فى التماس المراضع ، لعله يقبل ثدى احداهن

هنالك لاذت « مريم » بكل ما فى طاقتها من شجاعة كى تدارى مشاعرها وتكتم لهفتها ، وتقدمت الى القصر فى حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، فى صوت حاولت ألا ينم عن شىء مما كان يخالجها :

ـ « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ »

فراب القوم ما سمعوا ، وأحاطوا بها يسألونها :

ـ ما نراك الا تخفين أمرا !

فأجابت فى ثبات :

ـ بل أردت أن أنصح لكم ..

قالوا :

ـ لعلك تعرفين أهله، والا فما يدريك أنهم له ناصحون؟

فهزت رأسها قائلة :

ـ الأمر أبسط مما تظنون ! كل ما هناك أنى أعرف فيهم الرحمة وطيب الخلق ، وما أشك فى أنهم يرحبون بحضانة الصغير شفقة عليه ، وتقربا الى الملك ، والتماسا لبره !

وتبعوها الى حيث كانت « أم موسى » تجتر همومها فى وحدتها القاسية ، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على قلب أم !

ولمحته ، فأمسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق قلبها المشوق فتنم عليها ، وأقبلت على الرضيع متجلدة متماسكة ، فضمته الى صدرها فى رفق ، وألقمته ثديها ..

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا اباء « موسى » للمراضع جميعا ، اذ رأوه يلقف الثدى فى لهفة الظامىء يجد ريا !

ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل «آسية» اليها يصحبون « موسى » وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما

قالت فى غبطة :

ـ هلا مكثت عندى يا ظئر لترضعي ابنى هذا الحبيب ؟!

فأجابت الأم :

ـ بل ان شئت يا سيدتى صحبته معى الى بيتى أرضعه وأرعاه ، فانى أخشى ان أنا هجرت بيتى وولدى ، ضاعوا .. ولست بتاركتهم أبدا ..

وقد يبدو عجيبا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف من « امرأة فرعون » فتأبى أن تقيم فى القصر ظئرا لولدها، لكنا لا نعجب لذاك ، فلقد أدركت الأم أنها سيدة الموقف

ما دام ولدها قد أبى أن يرضع الا من ثديها ، وانها لتعرف تعلق « آسية » بالصغير ، فلماذا لا تصر على أن تعود به الى دارها كي تروى به أشواق أمومتها فى اطمئنان ، بعيدا عن جو القصر وعيونه وأرصاده ؟

لماذا لا تنجو به من رقباء قد يريبهم حنوها الغامر على الصغير ؟

لو أنها أقامت بالقصر ، فهى بين أمرين أحلاهما مرة :

اما أن تكبت عاطفتها الظمأى وتخنق مشاعرها الطبيعية، كيلا يستريب القوم فى أمرها ، وذلك ما لا طاقة لأمومتها به بعد الذى كان من عذاب الحرمان

واما أن تترك نفسها على سجيتها ، فتدفع ولدها بيدها الى المذبحة !

ثم انها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، ما يغريها بأن تختار لنفسها وله المكان المطمئن فى دارها ، وفى ذلك يقول « الثعلبى »

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده »

ولم تجد « آسية » مفرا من اجابة الظئر الى طلبها حرصا على حياة الوليد ، فأذنت لها فرجعت به الى بيتها ..

فذلك قوله تعالى : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين ...

و « أوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه

فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليـــك وجاعلوه من المرسلين ـ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئـــين ـ وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ـ وقالت لأختــه : قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ـ وحرمنـا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ ـ فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثـــرهم لا يعلمون ـ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلمـــا وكذلك نجزى المحسنين »

وقوله تعالى فى سورة طه :

« ولقد مننا عليك مرة أخرى ـ اذ أوحينـــــا الى أمك ما يوحى ـ أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه في اليم، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ـ اذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن »

هكذا نزل الوحى على « أم موسى » وعهدت اليها السماء بالمهمة الجليلة : مهمة انقاذ الوليد المدخر لاحدى الرسالات الكبرى ، من المذبحة التى لم ينج منها غلام لبنى اسرائيل اذ ذاك !

# أم المسيح

**« .. اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »**

( قرآن كريم )

وعيسى عليه السلام ؟

ما يذكر « القرآن » له أبا ، وانما هو « عيسى بن مريم» كما دعاه كتاب الاسلام

ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبى المسيحية الى أمه ، هذه الأم التى طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين

وقصة أمومة « مريم » كما روتها كتب السماء ، بالغة التأثير والعنف ، فلقد تعرضت ـ عليها السلام ـ لأقسى ما تتعرض له أنثى : نشأت فى بيت دين وتقى ، لأب عالم شيخ من كبار بنى اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله أن تهب ما فى بطنها لخدمة الهيكل: « اذ قالت امرأة عمران: رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم ـ فلما وضعتها أنثى قالت انى وضعتها أنثى ـ والله أعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالأنثى ،

وانى سميتها مريم ، وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ـ فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا

ذلك أن أباها « عمران » مات وهى صغيرة ، فاختلف القوم فيمن يكفلها من آلها ، والقوا على ذلك قرعة فكفلها « زكريا » زوج خالتها

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم : أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون »

وأمضت مريم صباها فى المحراب عابدة خادمة ، وفاء بنذر أمها ، حتى اذا اختارها الله من دون النساء جميعا ليودعها سره الأكبر ، بعث اليها فى خلوتها من بشرها « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروع منها أعنف مأخذ ، ثم رفعت وجهها الى السماء وقالت :

« رب أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ـ قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا »

واستسلمت لأمر الله المقضى وقدره المحتوم ، حتى أحست الجنين يتقلب فى أحشائها ، ويا له من احساس رهيب تعانيه عذراء طاهرة الذيل نقية السمعة ! هنالك أشفقت من الفضيحة والعار ، فانتبذت بحملها مكانا

قصيا ، وأقامت في واد للرعاة هجــــره رعاته بمواشيهم التماسا للكلأ ، فلما جاءها المخاض اتكأت الى جذع نخلة هناك ، ووضعت وليدها فى مذود للماشية ، وهي تقول :

« يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »

□

ثم كان ما لابد أن يكون

أتت به قومها تحمله ، « قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ ســـوء وما كانت أمك بغيا »

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عفتها وطهـــرها ، ولا أنقذها من لعنتهم ما بدا من ولدها الصغير من آيات بينات، بل رموها بالاثم وقالوا عليها «بهتانا عظيما » ،فتلقت اللعنة صابرة ، وكابدت المحنة متجلدة لقضـــاء الله فيها وقدره ، راضية بما هو أقسى من الموت فى سبيل ولدها الموعـــود بالمجد الأعظم

ويصف « الانجيل » ما عانت « مريم » من ذلك وصــفا مؤثرا ، ثم يحدثنا عن فرارها بابنها الى مصر لكى تنجو به من الكيد والأذى ، حيث أقامت هنـــاك اثنى عشر عاما ، ترعاه وتكدح لتهيىء له أسباب العيش ووسائل التعلم

ولم يجحد الكتاب المسلمون ذلك الكفاح الصابر ، بل كتب « الثعلبى » فى ( عرائسه : ٤٠٢ ) : « فأقامت مريم

بمصر اثنتى عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهد فى منكبها ، والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر »

كما يتحدثون عن عنايتها بتعليمه ، ويصفون كيف أخذته صغيرا « وجاءت به الى الكتاب وأقعدته بين يدى المؤدب (١) حتى أذن لها فعادت به الى « أورشليم » ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى »

وسكنا فى قرية « الناصرة » حيث عاشت له الى أن بلغ مبلغ الرجال ، وكانت هى التى لاذ بها عندما تلقى الوحى ، وكاشفها بهمومه الكبار ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع

وقد سجل لها ( انجيل برنابا ) ذلك الموقف الخالد ، فذكر فى الفصل العاشر أنه لما بلغ « يسوع » ثلاثين سنة من العمر ، صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليجنى زيتونا ، وهنالك تجلت له الرؤيا وعلم أنه نبى مرسل الى بنى اسرائيل ، فكاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا لها : انه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله ، وانه ـ أى عيسى ـ لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدى ما عليه من دين لها بخدمتها

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يا بنى ، انى نبئت بكل ذلك قبل أن تولد ، فليتمجد اسم الله القدوس

« ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته

---

(١) الثعلبى : ٤٠٢

الدينية » بعد أن صحبته مدى ثلاثين عاما ، هيأته خلالهـا للدور العظيم الذى ينتظره

انصرف عنها ، ولكنهمـا خلدا معا على الأيام ، آية من آيات الله ..

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية »

« وجعلناها وابنها آية للعالمين »

□

وتأتى « آمنة بنت وهب » فى ختام هذا الموكب الرائع لأمهات الأنبياء ، لتكون أم الرسول اليتيم : خاتم الرسل، والمبعوث بآخر رسالات السماء !



# الكتاب الثانى

# بيئة ووراثة

١ ـ البيت العتيق

٢ ـ بنو زهرة

# البيت العتيق

**« ... واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ـ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ـ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات .. »**

( قرآن كريم )

سورة الحج ـ آية ٢٧ : ٢٨

لبيك اللهم لبيك !

هو الهتاف الخالد ، رددت صداه الآفاق المكية منذ ما لا يحصى من السنين ، فاذا الملايين تنثال الى « البيت العتيق » من كل فج ، ملبية أذان « الخليل » فى الناس بالحج ، ومستجيبة من بعده لدعاء النبى العربى اليتيم ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » فى دار « عبدالله بن عبد المطلب ابن هاشم » ، منذ قرابة ألف وأربعمائة عام !

يا أذن الزمان الواعية ...

ويا عين الدهر الباصرة ...

أى ألسنة للعابدين سمعت ؟

وأى وجوه هنالك رأيت ؟

وأى ألوان من البشر شهدت ؟

وأى ألوية خفقت بين يديك ؟

وأى هامات انثنت لديك ، فى هذه البقعة من الأرض ، وسط الوادى الأجرد الذى تحف به الصخور السود والجبال الشم ، منذ جعل « البيت » هنالك مثابة للناس وأمنا ، وحرما وملاذا ، يطمئن فيه الخائف ، ويأمن لديه المروع ، ويحقن عنده الدم المهدر ، وتحمى فى حماه حياة كانت اذ ذاك مستباحة فى شرعة الصحراء وبضراوة البيداء ؟ !

**« ان اول بيت وضع للناس ، للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين »**

□

يا ذاكرة الزمان الحافظة !

عرفت الدنيا بيوتا وبيوتا ..

ورأيت رسوما وطقوسا ، فى شرق الأرض ومغربها ، وقديمها والحديث ...

وشهدت حجاجا وزوارا ، وطائفين وعبادا ..

وهذا البيت العتيق بينها كان ـ ولا يزال ـ علما شامخا وصرحا ممردا ، ترامت أضواؤه وأصداؤه الى أبعـــد مما ترامى اليه تأثير بيت من تلك البيوتات ، ومزار من هاتيك المزارات !

ومن يدرى يا دهر ، كم من آلاف السنين قد أسـقطت أوراقها أصابعك الباطشة من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز ، مأوى يســير الشأن ، ومحطا هين الأمر ، يريح فيه المسافرون من طلاب الرزق قوافلهم فى طريقهم بين الشـــمال والجنوب ذهابا وجيئة ، وربما التمسوا قريبا منه بعض ماء العيــــون ، قبل أن يستأنفوا مسيرهم الشاق فى قلب الفلاة ؟ !

من يدرى يا ذاكرة التاريخ ، كم من أجيال البشر مرت بك قبل أن يجد أولئك الضاربون فى الصحراء عبر الوادى القفر المرهوب والفيافى المهجورة الموحشة ، موئلا فى جوار « مكة » يتريثون عنده عابدين ، التماسا للحماية والعون ، وتزودا بشىء من الطمأنينة يعينهم على مســعاهم المضنى ومسراهم المخوف ، عبر الفيافى والقفار ؟

منذ كم من الدهور والأحقاب كانت تلك البقعـــة من الصحراء المترامية الأطراف ، مباءة عابدة يرى الناس بينها وبين السماء صـــلة مباشرة ، فهم ينثالون اليها حجاجا ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتهلين ، قد هانت لديهم الأرض الا موضعا ، وعز الأمان الا فى مكان ؟ !

كيف نمت معك يا زمن ، من محطة صغيرة للقوافل ، الى مركز تجارى هام ، تتلاقى فيه القوافل من شمال وجنوب ،

وتتواصل حضارتا الشرق والغـــرب ، حين كانت الابل وحدها عدة السير وأداة الاتصال ؟

وكيف شاركت هذه البقعة فى ذلك التواصل ، عندما ضجت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة ، فجاءت من الشرق بما فى فارس والهند والصين ، ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش ، ودفعت ذلك كله الى الغرب عن طريق البحرين الاحمر والابيض ؟ !

ليس غيرك يا زمن من يستطيع أن يصف لنا بالتفصيل، الاعتبارات الاجتماعية والاقتصـــادية التى جعلت المعنى الدينى لهذه البقعـــة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلعهم الى الاســتقرار الاجتماعى والعدالة المرجوة فى حياة آمن وأسعد وأهنأ، من تلك التى فرضتها عليهم البادية الضارية

ان تاريخ العرب المكتوب ، يقدم لنا من ذلك كله حديثا عجبا يملأ مجلدات وأسفارا ، أنزلها القوم منــذ كانت ، منزلة عليا من الثقة فيها والاطمئنان اليها ، ومهما يكن رأى التحقيق العلمى فيها ، فنحن لا نزال نتخذ من مثل تلك الكتب والأسفار ، مراجعنا ومصادرنا فى معـــرفة ماضى الجزيرة قبل الاسلام ، اذ لا نملك ـ الى اليوم ـ مصــادر تاريخية عن ذاك العهد الموغل فى القدم ، الا ما تركته لنا الرواية النقلية ، وعليها معتمدنا فى معرفة الأعراض العامة للتطورات التى يمكن أن تؤخذ من القضـــايا الاجتماعية الكبرى

أما التفاصيل الدقيقة فسوف تظل وديعة الدهر، الى أن

نصير هذه المنطقة موضع دراسة جيولوجية ، تمدنا بآثار عملية نقيم عليها الدرس التاريخى

▭

منذ متى بدأ التاريخ الدينى لمكة ؟

يمضى به بعض كتاب السيرة ومؤرخى « مكة » الى عهد « شيت بن آدم » ، على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها البعيد غابت عنا فلا نكاد نعرف الا أنها كانت محطـــة متواضعة للقوافل ، وسوقا متوسطة للتبادل التجارى بين الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنها كانت فى ذلك العهد السحيق موئلا للعبادة ، وهو أمر لم يكن منه بد ، تأمينا للراحلين والتجار

ثم تطورت العبادة فى ظروف مجهولة الى وثنية أنكرها « ابرهيم » فبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مكة ، أجـــلى وأوضح ، وأوفى أخبارا ..

وقد تحدثت الكتب السماوية عن رسالة « ابرهيم » فى تفصيل وبيان ، فقصت علينا التوراة قصـــة مجىء ابراهيم الى « مكة » وتركه ابنه «اسماعيل» وأمه «هاجر» هناك ، حيث أوشكا على الهلاك ظمأ لولا أن انبثق ماء زمزم فأمسك عليهما الحياة ، وجذب القوافل فى أعقاب الرعاة

ووصف لنا القرآن الكريم موقف « ابرهيم » فى تلك البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى الى ذريته التى أسكنها بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم،

كما حدثنا عن الرسالة الدينية الجديدة التى عهدت بها السماء الى ابراهيم وولده اسماعيل .

كما يذكر لنا كتابنا الكريم ، مبلغ ما وصل اليه المركز الدينى والاقتصادى لمكة :

« أو لم يروا أنا جعلنا لهم حرما آمنا تجبى اليه الثمرات ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى »

من ذلك العهد السحيق ، يرتفع الدعاء الخالد :

« **لبيك اللهم لبيك !** »

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحها ، وتخشع له الجبال الصخرية السود التى تحيط بها ، وتعنو له هامات البدو الصلاب : أبناء البادية وأمراء الصحراء ...

ومن ثم يمضى مؤرخونا الثقات ورواتنا الأول، فيملأون المجلدات والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك «البيت العتيق» كيف عظمت وجلت ، وعن « مكة » فى عهدها الجديد كيف تسامت الى المنزلة الرفيعة التى بقيت لها على مر الحقب وتتابع الأجيال ..

حدثوا أن « جرهما » ـ وهم خئولة اسماعيل ـ تولوا أمر البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها الأولين من «بنى اسماعيل» فتركوها دون أن ينازعوا «جرهما» فى ولايتهم لقرابتهم ، واعظاما لحرمة «مكة» أن يكون بها بغى أو قتال ، فلما خلا الجو لجرهم بغوا وظلموا وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها . ويقول ابن اسحاق : « وكانت

مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها أحد على أحد الا أخرجته ، ولا يريدها ملك يستحل حرمتهـــا الا هلك مكانه ، فيقال انها ما سميت ببكة الا لأنها كانت تبك ـ تكسر ـ أعناق الجبابرة اذا أحدثوا فيها شيئا »

وهكذا أخرج جبابرة « جرهم » من مكة أذلة صاغرين ، يرثيهم شاعرهم فيقول :

وقائلة والدمع سكب مبـــــادر
وقد شرقت بالدمع منها المحاجر :

كأن لم يكن بين «الحجون» الى «الصفا»
أنيس ، ولم يسمر « بمكة » سامر

فقلت لهـــــا والقلب منى كأنما
يلجلجه بين الجنـــــاحين طائر :

بلى نحـــن كنا أهلها فأزالنـــا
صروف الليالى والجدود العـــواثر

وكنا ولاة « البيت » من بعد «نابت»
نطوف بذاك «البيت» والخير ظاهر

فأخرجنا منهـــا المليـــك بقدرة
كذلك ـ يا للناس ! ـ تجرى المقادر

فسحـــت دموع العين تبكى لبلدة
بها حرم أمن ، وفيها المشـــاعر

ورووا أن « تبعا » الحميرى مر بقرب «مكة» فى طريقه الى اليمن ، فأتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر فقالوا له :

ـ أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال :

ـ بلى !

قالوا :

ـ بيت بمكة يعبده أهله ، ويصلون عنده

وكان الهذليون انما أرادوا هلاك « تبع » بذلك، لما عرفوا من هلاك من أراد « البيت » من الملوك بسوء . ويقول « السهيلى » (١) : « وروى نقلة الأخبار أن « تبعا » لما عمد الى البيت يريد اخرابه ، رمى بداء تمخض منه رأسه قيحا وصديدا ... وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه قيد الرمح . وقيل : بل أرسلت عليه ريح كنعت منه ـ أى أيبست ـ يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمة شديدة ... فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن دائه ، فهالهم ما رأوا منه ولم يجد عندهم فرجا » حتى جاءه حبران من اليهود فقالا: لعلك هممت بشىء فى أمر هذا البيت ؟

فقال : نعم أردت هدمه . وذكر لهما ما قال الهذليون فصاح الحبران :

« ما أراد القوم الا هلاكك وهلاك جندك . ما نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك اليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعا »

---

(١) الروض الأنف : ١ ـ ص ٢٧ ط الجمالية

ثم نصحا له اذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ويعظمه ويكرمه ، ويحلق رأسه عنده ، ويذل له حتى يخرج ..

قالوا : فعرف نصحهما وصدق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه ، وأقام بمكة ـ فيما يذكرون ـ ستة أيام ، ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء ، وجعل له بابا ومفتاحا

فيقال انه برىء من دائه وصح من وجعه ، ويعلق « السهيلى » على ذلك قائلا :

« وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحا ، فان الله سبحانه يقول : ( ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم )

ثم يروى « لتبع » شعرا يقول فيه :

وكسونا البيت الذى حرم اللـ
ـه ملاء منضدا وبرودا

ونحرنا بالشعب ستة ألف
فترى الناس نحوهن ورودا

ثم سرنا عنه نؤم سهيلا
فرفعنا لواءنا معقودا

وسوف نسمع فى العام الذى وضعت فيه « آمنة » وحيدها ، قصة صاحب الفيل الذى رده الله عن بيته مريضا مدحورا ...

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغا يصوره لنا ما رووه عن السيدة «عائشة» انها قالت : « ما زلنا نسمع أن«اسافا ونائلة » ـ وهما من أصنام العرب فى الجاهلية ـ كانا رجلا وامرأة من جرهم ، أحدثا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ! »

وقد ذكر ابن اسحق فى ( السيرة ) وابن الكلبى فى ( الأصنام ) وياقوت فى ( معجمه ) نسب هذين المخلوقين اللذين مسخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة

كما يصور تلك الحرمة ، ما زعموه ـ فيما نقل ابن‌هشام فى السيرة ـ من « ان أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل،أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ـحين‌ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد ـ الا حمل معه حجارة من حجارة البيت تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة .. »

وكانت خدمة الكعبة نذرا غاليا تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ما رووه أن امرأة من « جرهم » كانت لا تلد ، فنذرت لله ان هى ولدت رجلا أن تصدّق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « الغوث بن مر بن آد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم :

انى جعلت ربُ من بنيّه
ربيطة بمكة العليه
فباركنْ لى بها أليه
واجعله من صالح البريه

بهذا ومثله حدث النقلة وأكد الرواة ، وانه لشاهد على مدى ما وصلت اليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التى تنافس من أجلهـــــا المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهما حتى أخرجتهم من مكة ،وظلت ولاية البيت فى « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرا عن كابر، حتى انتزعها منهم « قصى بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر » الذى هو قريش على أرجح الروايات

وكان « قصى » يدعى زيدا حتى مات أبوه «كلاب» وتركه فطيما ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت سعد » الأزدية حين تزوجها « ربيعة بن حرام » واحتملهـــــا الى بلاده ، وبقى « زهـــــرة » أخو « قصى » فى مكة ، اذ كان قد بلغ مبلغ الرجال.

وشب « قصى » غريبا وهو لا يعرف الا أنه ابن « ربيعة» زوج أمه ، حتى تسابّ هو ورجل من قضاعة ، فعيره قائلا:

ـ لست منا ، وانما أنت فينا ملصق

فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له :

ـ يا بنى ، صدق ٠٠ انك لست منهم ، ولكن رهطك خير من رهطــه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قرشى ، **وأخوك زهرة** ، وبنو عمك بمكة ، وهم جيران ببيت‌الله‌الحرام

وعاد الى مكة رجلا، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه، واذ ذاك رأى أنه « أولى بالكعبــــة وبأمر مكة ، من خزاعة

وبنى بكر ، لأنه قرشي ، وقريش سليل اسماعيل وصريح ولده »

وشبت الحرب شعواء بين قريش ومن حالفهـــا ، وبين خزاعة وبنى بكر، ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم، وحكموا « يعمر بن عوف » البكرى فقضى بأن « قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة ، من خزاعة »

ويقول الذين كتبوا تاريخ العرب ، ان مكة قد بدأت بقصى عهدا تضاءلت الى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم ، وجدت فيها وظائف دينية أضيفت الى ما كان لها من قبل ، فكانت الى قصى « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة، واللواء » وبها حاز شرف مكة كله ، وأبقـــاه في ولده من بعده ، ما يعرف المؤرخون أن أحدا نازعهم فيه قط

وكان أمر « قصى » فى قومه ، مدى حياته وبعد موته ، كالدين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها !

فلما أدركه الكبر ورق عظمه ، عز عليه ألا يدرك ولده البكر « عبد الدار » ما بلغه أخوه « عبد مناف » فى زمان أبيه من شرف ، فقال الشيخ لعبد الدار :

« أما والله يا بنى لألحقنك بالقــوم وان كانوا قد شرفوا عليك » ثم جعل اليه كل ما كان بيده من أمر قومه

قالوا : وهلك قصى ، ولبثت قريش على ما أراد لها زمنا، حتى قام بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى

عمهم « عبد الدار » مما كان جدهم قصى قد جعله اليه من الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، اذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، فتفرقت عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على أن يقتسموا الميراث الجليل : لبنى عبد الدار الحماية واللواء والندوة ، ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة

وظائف دينية ضخمة ، استحدث بعضها قصى ،وبعضها قديم عريق طالما اعتز به الذين تولوه ، اعتزازا وعاهالزمن وسجله الشعراء مباهين

قال « أوس بن تميم السعدى » مفاخرا بما كان قومه يتولون من اجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرح الناس ما حجوا معرّفهم
حتى يقال : أجيزوا آل صفوانا

مجد بناه لنا قدما أوائلنا
وأورثوه طوال الدهر أخرانا

وقال « عمير بن قيس » أحد بنى مالك بن كنانة ، يفخر بالنسأة على العرب :

لقد علمت معد أن قومى
كرام الناس أن لهم كراما

فأى الناس فاتونا بوتر ؟
وأى الناس لم نعلك لجاما ؟

ألسنا الناسئين على معد
شهور الحل نجعلها حراما ؟

وذلك انه كانت للعرب أشهر حرم لا يحل لهم فيها قتال أو غارة أو طلب ثار ، الا أن ينسأها لهم احد النسأة

ثم كانت للعرب فى مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع « ابراهيم » القواعد من البيت و « اسماعيل » ، وعهد اليهما الله ان يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم »

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها .. »

وقد ذكرنا آنفا ، ما كان من تقديس بعض بنى اسماعيل لحجارة الحرم التى حملوها معهم تبركا ، ثم خلف من بعدهم خلف نسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان وبقيت فيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهدى البدن ، والاهلال بالحج ، والتلبية

□

وطال المدى ومكة مهوى الافئدة وقبلة العرب ، لا تكاد بقعة اخرى تجرؤ على منافستها أو تطمع فى انتزاع مجدها ، حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسرى ...

وذاكرة الزمن قد وعت من امر تلك المنافسة فى خارج الجزيرة وداخلها ، ما يتناقله المؤرخون من حديث البيت

الذى أقامه « الفساسنة » بالحيرة ، والكنيسة التى بناها « أبرهة الأشرم » فى صنعاء ، ليصرف اليها حج العرب

وقد جلب اليها « الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان القصر من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وفيه بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ما أراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والآبنس » (١)

ثم كتب الى مولاه نجاشى الحبشة : « انى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب »

لكن « أبرهة » هلك دون غايته ، وبقى البيت العتيق بمكة كما كان ـ وكما سيظل الى الأبد ـ مثابة الخائفين ، وقبلة الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه فى الناس :

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »

▭

وما تزال الدنيا ـ حتى الساعة ـ تقف خاشعة حائرة أمام ذلك الجلال الذى استأثرت به « مكة » دون سواها من مدائن كبيرة ، وحواضر أجمل منظرا وارغد عيشا واخصب أرضا . . .

---

(١) الروض الأنف : ١/٤٠

وما يزال كثير من المستشرقين ، فى عجب من أمر تلك العزة المنيعة ، تظفر بها بقعة جرداء فى واد غير ذى زرع ولا ظل ، يصفها زائر منهم فى القرن العشرين فيقول :

« فى قلب الصحراء ، فى واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها ...

« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التلال الجرداء ، ولا لتلك الصحراء المترامية التى يكاد ضوؤها يذهب بالأبصار ، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافحة . فحصاها ، وصخورها الصم ، تبعث الى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق ، ويصعد الى السماء دخانه ...

« واذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت معالم الحياة كأنما جمدت فى تلك الفلاة ، فالوحشة تامة ، والسكون مسيطر ، ولا يصك اذنيك الا صفير الريح الصرصر العاتية ...

« وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل فى النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة ، لا وجود له ، فلا نخيل هناك ، ولا حدائق توحى بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من شيء ينبت فى بلدة الرسول المقدسة ، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية »

بهذا وصف « بودلى » البلد الحرام الذى ظلت له حرمته لا تدرك ولا تنافس ، ولعل التفاتة سريعة الى تاريخه القديم ،

تجلو لنا سر تلك القداسة العريقة التى لم تنل منها السنون ولا عدت عليها عوادى الزمان ، فلمكة ـ منذ كانت ـ موقعها الاقتصادي الفذ ، ومكانتها الدينية الأولى

□

أترى حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال ؟

اجل ، ولكن لا بأس علينا من ذلك ، ففى هذه البيئة المقدسة تفتحت عيون الفتاة التى عرفها التاريخ أما خالدة

فيها كان منبت « آمنة بنت وهب » والدة النبى العربى أليتيم الذى بعث فى مكة ، فأيد بمبعثه ذاك ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلا بعد جيل ، واتخذ من الكعبة التى تعبد فيها « الخليل » قبلته التى يولى المسلمون وجوههم قبلها حيثما كانوا وانى أقاموا ، ما عبد الله فى الارض !

اجل هى مكة ، بلد « آمنة » وولدها الوحيد ، ومهد رسالته ، ومثابة آبائه وأجداده ، وقبلة الذين آمنوا به أمس واليوم وغدا والى الأبد ...

# بنو زهرة

**« ... لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما »**

من حديث شريف .

فى يوم لم يحدده التاريخ ، حوالى منتصف القرن السادس الميلادى رأت النور سليلة أسرة نابهة ، من القبيلة التى كانت ذات الشأن الاول فى تلك المنطقة المقدسة ، والتى استأثرت وحدها بوظائفها الدينية الضخمة ، وما يتبعها من أمجاد وامتيازات ...

وتحمل الأسرة اسم « زهرة » (١) الولد البكر لكلاب بن

---

(١) فى ( المعارف لابن قتيبة ) أن زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة، قال « السهيلى » فى ( الروض الأنف ١/٧٩ ) :

« وهذا منكر غير معروف ، وانما هو جدهم كما قال ابن اسحق »

يشير الى قول ابن اسحق : « فولد كلاب بن مرة رجلين : قصى بن كلاب، وزهرة بن كلاب »

وقد علق ناشرو السيرة على هذا بقولهم فى الهامش : وزهرة امرأة نسب اليها ولدها دون الأب ، وهم أخوال الرسول

ثم لم يزيدوا ، ولم يشيروا الى مرجعهم فى هذا

ويلاحظ عليهم أنهم فى رقم ١ من هامش الصفحة نفسها ، نقلوا عن الطبرى نصا صريحا فى أن زهرة رجل ، ثم لم يعلقوا على هذا التناقض فى الروايات

مرة بن كعب بن لؤى ، والشقيق الأكبر « لقصى » الذى ملك مكة ما عاش ، ثم تركها لقريش ميراثا مجيدا لم تنافسها فى شىء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها « محمد » ـ حفيد قصى وزهرة ـ بمجد الدهر وعز الأبد !

وأم زهرة وقصى ، « فاطمة بنت سعد بن سيل » أحد بنى الجدرة . سموا بذلك لأن جدهم « عامر بن عمرو الأزدى » بنى للكعبة جدارا حين دخلها السيل ذات مرة ، ففزعت قريش لذلك ، وخافت ان جاء سيل آخر أن يذهب شرفها ودينها . فلما بنى « عامر » الجدار ، سمى الجادر ، ولقب أولاده من بعده ببنى الجدرة

ولسعد بن سيل ، جد قصى وزهرة لأمهما ، يقول الشاعر :

ما نرى فى الناس شخصا واحدا
من علمناه ، كسعد بن سيل
فارسا أضبط فيه عسرة
واذا ما واقف القرن نزل
فارسا يستدرج الخيل كما اسـ
ـتدرج الحر القطامى الحجل

□

عرف « بنو زهرة » منذ كانوا ، بالود الخالص لبنى عبد مناف بن قصى دون اخوتهم من بنى عبد الدار . ولعلنا نذكر هنا ما نقلناه فى حديثنا عن « البيت العتيق » من أمر

قصى حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه ألا يبلغ ابنه البكر « عبد الدار » ما بلغه ابنه « عبد مناف » من شرف ورفعة ، فقال قصى لبكره :

« أما والله يابنى لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك : لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تفتحها انت له ، ولا يعقد لقريش لواء لحربها الا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة الا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما الا من طعامك ، ولا تقطع أمرا من أمورها آلا فى دارك »

ثم كان ما كان من اذعان قريش لوصية شيخها حينا ، ثم اجماع بنى عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار ، لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون أنهم بمكانتهم فى قومهم ، أحق بالأمر من بنى عبد الدار ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون أن لا ينزع منهم ما كان « قصى » جعل اليهم

وعقد كل فريق على امرهم حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فأخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ، فسموا المطيبين . كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة ، على مثل ذلك ، فسموا الأحلاف

وقد كان «بنو زهرة» مع **بنى عبد مناف** فى ذاك الحلف،

ولما عبثت كل قبيلة من المطيبين لأخرى من الأحـــلاف ، عبثت « زهرة » لبنى جمح ، وأقسمت لتفنينها ( السيرة ١٣٩ )

كما كان «بنو زهرة» مع بنى عبد مناف أخوة متجاورين لا ينفصلون ، وبيوتهم ابدا متجاورة ، فحين جزات قريش الكعبة ، كان شق البــــاب **لبنى عبد مناف وزهرة** ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ومن انضم اليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ، الخ

□

وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا الى تلبية النداء حين تداعت قبائل من قريش الى « حلف الفضول » قبل البعثة بعشرين سنة ، وكان أكرم حلف واشرفه . وذلك أن رجلا من زبيد قدم « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصى ابن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عن الزبيدى حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف : عبـــد الدار ، ومخزوما ، وجمح ، وسهما ، وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصى وانتهروه ، فلما رأى « الزبيدى » الشر ، أوفى على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهــر لمظلوم بضاعتــــه
ببطن مكة نائى الدار والنفــر

ومحرم أشـــعث لم يقض عمرته
يا للرجال ، وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامتـــــه
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام على أثر ذلك « الزبير بن عبـــد المطلب » وقال : ما لهذا مترك !

قالوا: فاجتمعت **هاشم وزهرة** ، وتيـم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان : أحد بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ( وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة ) فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا على ( ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا أقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته )

وانصفوا « الزبيدى » من العاصى

فيروى « ابن اسحاق » عمن سمع « طلحة بن عبد الله الزهرى » أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لقـــد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو ادعى به فى الاسلام لأجبت »

☐

من هذه الأسرة القرشية الكريمة التى عرفت من قديم بصلة الود لبنى عبد مناف بن قصى ، والتى ذكر لها التاريخ مشاركتها فى الأمجاد الكبرى لقريش ، واتصالهـا الوثيق بالأحداث الجليلة التى شهدتهـا « مكة » قبيل الاسلام ،

وتحالفها مع « هاشم » وبنيه في الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول ... من هذه الأسرة كانت « آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة » التي توجت ذاك المجد العريق بالشرف الذي لا يدرك ولا ينال ...

أبوها « وهب » سيد بني زهرة ، وجدها عبد مناف بن زهرة الذي يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصي ، فيقال : « المنافان » تعظيما وتكريما (١)

وجدتها لأبيها : « عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية » احدى اللواتي اعتز بهن الرسول فقال :

« أنا ابن العواتك من سليم »

ولم يكن نسب « آمنة » من جهة أمها ، دون ذلك عراقة وأصالة ، فهي ابنة « برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي »

وجدتها لأمها : « أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي »

ووالدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عبيد بن عويج ابن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر »

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت « آمنة » لتضطلع بعبئها الجليل في أمومتها التاريخية

ووراثات مجيدة ، أهدتها الى ولدها فجمعت له عز المنافين : « عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن

---

(١) الروض الأنف : ١/١٠٤

قصى بن كلاب » وجعلته ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه « ابن عباس » :

« ... لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما »

وعن « انس » انه قال :

« قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم ) ـ بفتح الفاء ـ وقال : انا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا »

نسب تحسب العلا بحلاه قلدته نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار أنت فيه اليتيمة العصماء



## الكتاب الثالث :

# زهرة قريش

١ ــ فتاة زهرة

٢ ــ فتى هاشم

٣ ــ العرس

٤ ــ البشرى

## فتاة زهرة

**« ... وكانت يومئذ افضل**
**فتاة فى قريش نسبا وموضعا »**
ابن اسحاق

تفتح صباها فى أعز بيئة وأطيب منبت ، فاجتمع لها من اصالة النسب ورفعة الحسب ، ما تزهو به فى ذاك المجتمع الأرستقراطى المعتز بكرم الأصول ومجد الأعراق ...

كانت زهرة قريش اليانعة ، وبنت سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، وقد ظلت فى خدرها محجبة عن العيون مصونة عن الابتذال ، حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها أو يجرؤون على رسم صورتها ، بل لا يكاد المؤرخون يعرفون عنها الا أنها « كانت يومئذ أفضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا » (١)

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة ، فينتشر فى ارجاء مكة ويثير اكرم الآمال فى نفوس شبانها الذين زهدوا فى كثيرات سواها ، ابتذلتهن العيون والألسن، « وعرف لبعضهن أثر فعال فى المضاربات والمقامرات التى كانت ذائعة بين المكيين اذ ذاك ، على حين اكتفت أخريات

(١) السيرة ١/١٦٥.

ـ كما يقول بودلى ـ بمعاونة التجار والمقامرين فى تبديد ما ربحوا ، فسيطرت الطبيعة الحاسبة على مشاعرهن وحبهن ، فكانت عواطفهن ترتفع وتنخفض مع السوق »

□

وقد عرفت « آمنة » فى طفولتها وحداثتها ، ابن العم « عبد الله بن عبد المطلب » بين من عرفت من أترابها فى الأسر القرشية ، اذ كان البيت الهاشمى أقرب هذه الأسر جميعا الى بيت آل زهرة : جمعتهما أواصر ود قديم لم تنفصم عراه ـ على ما رأينا ـ منذ عهد الشقيقين « قصى وزهرة ولدى كلاب بن مرة »

أجل عرفت « آمنة » « عبد الله » قبل أن ينضج صباها ويحتويها خدرها ، وتلاقت واياه فى الطفولة البريئة على روابى مكة وبين ربوعها ، وفى ساحة الحرم الأمين ، كماجمعتهما مجامع الأسرة حيث كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ، ووهب سيد بنى زهرة يتزاوران عن ود ، ويجتمعان للتشاور كلما أهم « قريشا » أمر . . .

□

ثم حجبت « آمنة » حين لاحت بواكير نضجها ، فى الوقت الذى كانت فيه خطوات « عبد الله » تسرع به الى الشباب

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة الى زهرة قريش ، وتسابقوا الى باب بيتها يلتمسون يدها ، ويزفون اليها ما لهم من مآثر وامجاد

# فتى هاشم

**« ودخل عبـــد المطلب ببنيـــه العشرة على هبل فى جوف الكعبة ، فقال لصاحب القداح :**

**ـ اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم**

**« وكان عبد الله احب ولد عبد المطلب اليه ، فكان يرى ان السهم اذا اخطاه فقد أشوى .. »**

ابن اسحاق

لم يكن «عبد الله» بين الذين تقدموا لخطبة «زهرة قريش» مع انه الجدير بأن يحظى بيـــدها دونهم جميعا ، فما كان فيهم من يدانيه شرفا ورفعة ووسامة

فهو ابن « عبـــد المطلب بن هاشم » أمير مكة « الذى شرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، واحبه قومه وعظم خطره فيهم »

وأمه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم البيت القرشى ، وقد انجبت لعبد المطلب ولديه « الزبير ، وأبا طالب » فكان من نسلها الامام على ، وجعفر الطيار

ثم ولدت « لعبد المطلب » فتاه عبد الله ، أبا محمد الرسول وجدة « عبد الله » لأبيه ، « سلمى بنت عمرو النجارية » التى كانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها اذا كرهت رجلا فارقته »

□

ولعل « آل وهب » لم يعجبوا لموقف « عبد الله » ، اذ لم يتقدم لخطبة « آمنة » ، فما كانوا ليجهلوا أن أباه قد نذر نذرا غليظا ، لينحرن أحد بنيه لله عند الكعبة

وأى القرشيين لم يعلم بقصة ذلك النذر المحتوم ، الذى يقرر مصير أبناء شيخ بنى هاشم ، وفيهم عبد الله ؟

ذلك أن «عبد المطلب» حين انتهت اليه امارة «مكة» وولى السقاية فيما ولى من وظائف الحرم ، اخذ يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة بسبب قلة الماء

وذكر بئر « زمزم » التى أنقذت جده « اسماعيل » من الهلاك ، وجذبت الى « مكة » القوافل على آثار الرعاة .. وذكر ما وعته أذناه مما نقل الآباء عن الأجداد ، ورددته الرواة فى مسامر « مكة » ومجامعها عن حديث « جرهم » ودفنها « زمزم » حين أرغمت على الخروج من مكة ، فود لو وفقه الله الى العثور على موضع البئر المطمورة ، اذن لكان له شأن أى شأن !

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة نهاره وليله ، وخايلته الرؤى فى منامه تبشره بتحقيق أمله الغالى !

روى « ابن اسحاق » عمن سمع على بن ابى طالب ، يحدث حديث جده وزمزم فيقول :

قال عبد المطلب : « انى لنائم فى الحجر اذ أتانى آت فقال : « ... احفر زمزم ، انك ان حفرتها لم تندم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف ابدا ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم »

فغدا « عبد المطلب » بمعوله ومعه ابنه الحارث ،ليس له يومئذ ولد غيره ، حتى اذا هم بالحفر بين وثنى « أساف ونائلة » قامت اليه قريش تصده قائلة : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما

فالتفت « عبد المطلب » الى ابنه « الحارث » وقال :

ـ ذد عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين لما أمرت به

وقاومت قريش ، وعيرته بقلة الولد ، على حين أصر هو على أن يمضى فى الحفر ، فلما بدت له الحجارة التى طويت تحتها البئر،رفع صوته مكبرا، فعرفت قريش انه قد أدرك حاجته ، فقاموا اليه فقالوا :

ـ يا عبد المطلب ، انها بئر أبينا « اسماعيل » ، وان لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها ..

قال :

ـ ما أنا بفاعل ، ان هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم

فقالوا :

ـ فأنصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ...

قال : لا ، ولكن هلموا الى أمر نصف بينى وبينكم ، نضرب

عليها بالقداح : أجعل للكعبة قدحين ، ولى مثلهما ، ولكم كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له

قالوا : « أنصفت »

وضربت القداح ، فخرج قدحا الكعبة على الذهب ، وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحا قريش !

ومن ثم اقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجاج ، لاينازعه فى مائها احد من قومه قريش

تلك هى قصة زمزم وعبد المطلب ، كما رواها كتاب السيرة ومؤرخو ذلك العهد من المسلمين ، أتينا بها هنا تمهيدا لحديث « النذر » الذى يتصل « بعبد الله » أقوى اتصال

ذلك أن اباه عبد المطلب — حين اشتغل بحفر البئر — لم يكن له من الولد كما ذكرنا سوى ابنه الحارث ، فلما لقى من قريش ما لقى ، وسمع تعييرها اياه بقلة الولد ، نذر يومئذ ، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم عند الكعبة

وتوافى بنوه عشرة ، وكان « عبد الله » اصغرهم جميعا ، فتلبث عبد المطلب حتى اذا عرف انهم بحيث يمنعونه ، دعاهم الى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين . . .

□

أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الاولى

قبل مبعث النبى بنحو احدى واربعين سنة ، ولا حديث لها الا « عبد المطلب » الذى خرج ببنيه العشرة الى الكعبة ، وقد حمل كل منهم ، قدحا عليه اسمه ، واستسلموا للمصير المحتوم راضين

وخفقت قلوب نساء قريش جميعا عطفا وحنانا فى انتظار اللحظة الفاصلة ، ولعل عددا منهن قد ذهب فيمن ذهب الى الكعبة ، ليسمع كلمة السماء فى الذبيح المختار ، على حين بقيت « آمنة » مع من بقين ، لا تستطيع أن تبرح دار ابيها ، وان أقامت تترقب الأنباء فى لهفة ، وهى لا تدرى أى بنى العم يختاره رب الكعبة وفاء بنذر شيخ الهاشميين

ومضت الساعات ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما كان هناك فى الحرم

□

ثم انتشر الخبر فجأة فى سرعة البرق فملأ أرجاء مكة ، متنقلا بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « ابنة وهب » :

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحا

ووجمت « آمنة » للنبأ كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن ينحر زين شباب مكة واعز ابناء « عبد المطلب » على أبيه وعلى قريش جميعا !

وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعا ، تصف كيف دخل شيخ هاشم ببنيه على « هبل » فى جوف الكعبة ، وأخبر

صاحب القداح هناك بنذره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة بكل ما يملك من شجاعة وارادة وايمان ، ليقول لصاحب القداح :

« اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه » !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذى فيه اسمه ، وأبوهم ينقل عينيه بينهم جميعا ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم « عبد الله » ففاض قلبه رقة وحبا واشفاقا ، ورأى « أن السهم اذا أخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد أشوى » !

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عند هبل يدعو الله ، فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ كيانه المهتز ، وأخذ فتاه الغالى بيد ، وأمسك الشفرة باليد الأخرى ، ثم أقبل به على « اساف ونائلة » ليذبحه !

بهذا كله ، طارت الأنباء فى أرجاء «مكة» حتى بلغت حى بنى زهرة ، ثم أمسك الراوى ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما تجود بدمعة !

واقفرت دار سيد بنى زهرة من رجالها ، كما أقفرت أندية قريش جميعا ودورها ... ترى هل ذهبوا ليحضروا مذبح عبد الله ، ويكونوا الى جانب أبيه وهو يعانى التجربة الرهيبة ؟

هكذا ظنت « آمنة » وتمنت فى تلك اللحظة ، لو استطاعت أن تنطلق فى اثر قومها وهم يسعون الى الحرم مهرولين ، ولكن أنى لها ذاك وهى المحجبة المصون ؟ !

وهبها استطاعت أن تفعل ، افقادرة هى على أن تصنع شيئا من أجل انقاذ ابن العم ؟ لقد قضى الأمر وفات أوان الصلاة والدعاء ...

□

وولى النهار ...

واقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات ، ورجال قريش لم يؤوبوا بعد الى دورهم

ما الذى امسكهم هناك وعاقهم عن الأوبة ؟ لم تكن « آمنة » تدرى ، حتى عاد من يخبرها أن الرجال قد ارتحلوا عن « مكة » فما فيها منهم الليلة سامر !

وانبثق شعاع نحيل من الأمل وسط الظلمات المتراكبة ، حين مضى الراوى فى حديثه يقول :

« لم يكد الأب يهم بذبح فتاه ، حتى قامت اليه قريش من أنديتها فقالوا :

ـ ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : « أفى بنذرى »

فقالت له قريش وبنوه :

ـ والله لا تذبحه ابدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومى ـ وهو من آل فاطمة بنت عمرو المخزومية : أم عبد الله والزبير وأبى طالب ـ فأمسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

ـ والله لا تذبحه ابدا حتى تعذر فيه ، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه ...

واضاف شيوخ قريش :

ـ فلتنطلق بولدك الى عرافة بخيبر ، لها تابع ، فلتسألها : ان امرتك بذبحه ذبحته ، وان أمرتك فيه بأمر لك وله فيه فرج ، قبلته ...

فنزل « عبد المطلب » على راى القوم ، وانطلقوا في طريق « خيبر » يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز

مضوا وخلفوا من ورائهم قلوبا واجفة وعيونا مسهدة ، وجنوبا قد نبت بها المضاجع ، والسنة ضارعة في جوف الليل ، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر : عبد الله ، فتى هاشم

واعقبت رحيلهم ايام قاربت العشرين عدا ، وانيات الخطو بطيئات المسرى ، كأنما كانت تجر أثقالا من الصم الصلاب

وبقيت أندية قريش ومسامرها طوال تلك المدة ، مقفرة خلاء

وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهم والانتظار

وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتي من الشمال ، ترقب عودة الركب الراحل ...

وأرهفت الآذان لعلها تتسمع نبأ عن مصير الفتى العزيز

وتوقفت الحياة أو كادت في تلك الأيام العشرين ، فقد غاب عن « مكة » أميرها وفتاها ، ومعهما سادة قريش ونجومها الزهر

وراح العبيد والاماء يسعون بين الدور وبين ممر القوافل ، يلتمسون هنالك وافدا من « خيبر » يعرف شيئا من أنباء الركب الغائب

وشهدت الليالى نفرا من العقائل الكريمات ، يتسللن من احياء قريش محجبات بستار من الظلمة الحالكة ، فاذا بلغن الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات ، ثم انطلقن على اثر ذلك الى « المسعى » بين الصفا والمروة ، يدعون الله أن يستجيب لضراعتهن كما استجاب لضراعة « هاجر » فى هذا المكان ، وأن ينقذ « عبد الله » كما انقذ جده « اسماعيل » !

ثم كان لهذا كله آخر ، حين لاحت على الأفق الشمالى سحب من غبار مستثار ، تكشفت عن قافلة تغذ السير الى «مكة»، فعرج الغلمان على قمم الروابى ورءوس الجبال ، يستكشفون أمر القافلة ، فاذا الركب يدخل « مكة » على عجل ساعيا نحو ساحة الحرم ، وهناك ترجلوا جميعا ولبثوا قائمين يدعون ، على حين مضت رسلهم الى احياء قريش تجمع الابل وتسوقها نحو « البيت العتيق »

وسعى غلام من موالى « بنى زهرة » ، يحدث سيدات البيت القرشى عما شاع فى البلد الحرام وذاع ، من خبر الكاهنة والنذر :

حدثوا ان القوم انطلقوا حتى جاءوها بخيبر ، وقص عليها « عبد المطلب » خبره وخبر ابنه « عبد الله » وما أراد به وفاء بنذره فيه . فقالت لهم :

ــ ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فاسأله ...

فلما مضوا عنها قام « عبد المطلب » ليلته يدعو ربه ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

ـ قد جاءنى الخبر : كم الدية فيكم ؟

أجابوا : عشر من الابل

قالت :

ـ فارجعوا الى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم »

ولم يكد الغلام يتم قصته ، حتى سمعت نساء « وهب » ضجة عالية تقترب ، فقمن يستطلعن الخبر ، فاذا جماعة من وجوه «هاشم وقريش» ، يتقدمهم « عبد المطلب » والى يمينه ... « عبد الله » وهم يقتربون من بيت سيد «زهرة»

اذن فقد نجا فتى هاشم !

ما أوسع رحمتك يا رب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى الى أبيها لتسأله كيف كانت النجاة ، لولا أن فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرحبا بالوافدين الكرام

# العرس

**« ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله – اثر افتدائه من الذبح – فخرج حتى أتى به وهب ابن عبد مناف بن زهرة .. وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، فزوجه ابنته آمنة .. »**

ابن اسحاق

فيم كان مقدمهم ؟

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد أقبلت عليها أمها « برة » بعد قليل ، متهللة الوجه مشرقة الأسارير ، لتحدثها عن « عبد الله » كيف افتدى من النحر :

« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الابل ، وضربوا فخرج القدح على عبد الله

« فزادوا عشرا من الابل وقام عبد المطلب يدعو ربه ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله

« فزادوا عشرا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله ...

« ثم ما زالوا يزيدون عشرا بعد عشر ، فيخرج القدح على عبد الله . . .

« حتى بلغت الابل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الابل ، فهتفت قريش ومن حضر :

ـ قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب !

فهز راسه فى ارتياب ثم قال :

ـ لا والله حتى اضرب عليها ثلاث مرات !

« فضربوا على عبد الله وعلى الابل المائة ، وقام « عبد المطلب» يدعو الله،فخرج القدح على الابل ، ثم عادوا الثانية، فالثالثة ، والقدح يخرج عليها !

« واذ ذاك اطمان قلب الشيخ المؤمن ، ونحرت الابل ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ! »

وسكتت الأم « برة » وقد بان عليها أنها لاتزال تطوى الذى جاءت من أجله ، وراحت ترقب اسارير ابنتها « آمنة » فى لهفة ، لكن الفتاة أفلحت فى أن تخفى رغبتها فى معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على ان امها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء الا تمهيدا لشأن آخر أجل واخطر . . .

واذ هما فى مجلسهما ذاك ، ترنو احداهما الى الاخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفى ، دخل عليهما « وهب » ليقول لابنته فى رقة وحنو :

« ان شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبهـا زوجة لفتـاه عبد الله » !

وعاد من فوره الى ضيفه الكريم ، وترك « آمنة » فى شبه ذهول ، ما لبثت أن أفاقت منه على صوت قلبها يخفق عاليا حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة الى جوارها : أحقا آثرتها السماء بفتى هاشم زوجا ؟

ووضعت « آمنة » يدها على هذا القلب وقد خشيت أن ينم خفقانه عن عنف انفعالها بالذى سمعت ، ولم تفت هذه الحركة أمها . فاحتضنتها فى حنو غامر ، خدر مقاومة الفتاة فأسلمت نفسها الى صدر الأم ، وأباحت لقلبها أن يخفق كيف شاء !

□

وطاب لها أن تبقى هكذا فى حضن امها : صامتة هادئة ، لولا أن سيدات الأسرة توافدن واحدة فى اثر اخرى ، مهنئات مباركات

وأحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى اليهن من تعرض نساء من قريش « لعبد الله » ووقوفهن فى طريقه بين الحرم ودار « وهب » ، يعرضن أنفسهن عليه عرضا صريحا بادى اللهفة

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذاك عجبا !

سمعت أن « رقية بنت نوفل بن اسد بن عبد العزى بن قصى » القرشية الأصيلة ، استوقفت « عبد الله » قريبا من الكعبة فقالت له :

ـ أين تذهب يا عبد الله ؟

فأجاب فى ايجاز :

ـ مع أبى

قالت « رقية » :

ـ لك مثل الابل التى نحرت عنك اليوم ، ان قبلت أن اهب لك نفسى الساعة !

فرد عليها معتذرا فى تلطف :

ـ انا مع أبى ، ولا استطيع خلافه ولا فراقه . .

وقيل أن « فاطمة بنت مر » ـ وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، أو كانت كما ذكر ابن الأثير ، كاهنة من خثعم ـ دعته الى نكاحها فأبى . . .

وقيل كذلك ان « ليلى العدوية » عرضت نفسها عليه يومئذ ، فلم يستجب لها . . .

□

بهذا ومثله كانت النساء يتحدثن الى « زهرة قريش » حين توافدون عليها للتهنئة

وقائلة تقول :

ـ اعذرن هؤلاء المتعرضات لعبـــد الله ، فما رأين مثله وسامة وسحرا

فتعقب اخرى :

ـ يا للفداء الغالى ! هل سمعتن بأحد افتدى قبله بمائة من الابل ؟

وتضيف ثالثة :

ـ هنيئا لك يا « آمنة » ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب سيدات مكة من اجله » !

ترى هل حدث ذلك كله حقا ؟

أكثر المؤرخين الأقدمين يروونه فى غير شك ولا ارتياب ، اما المحدثون فنرى منهم « الدكتور محمد حسين هيكل » يقرر أن الوقوف لتقصى أمثال هــذه الروايات عن تعرض النساء لعبد الله ، لا غناء فيه ، وكل ما استطاع الدكتــور هيكل أن يطمئن اليه ، هو « أن عبد الله كان شابا وسيما قويا ، فلم يكن عجبا أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه ، فلما بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو الى حين »

على حين نسمع « بودلى » يقول فى كتابه ( الرسول ) :

« وكان عبــد الله قد اشــتهر بالوسامة ، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحرا وذيوع صيت فى مكة ، ويقال انه لما خطب آمنة بنت وهب ، تحطمت قلوب كثــيرات من سيدات مكة »

ولو كنا هنا نعرض حياة « آمنة » عرضا تاريخيا بحتا ، لوجدنا فى الوقوف لتقصى هذه الروايات غناء كثيرا ، أما ونحن نعرض المادة التاريخية عرضا فنيا قصصيا ، فلامعدى لنا عن الالتفات الى كل هذا والاهتمام بالصغيرة والــكبيرة فيه ، كيما ننتفع بها فى التلوين الفنى لصورة التى ولدت بطلنا الأعظم

ونكاد لا نشك فى أن « آمنة » سمعت وهى على وشك الزفاف ، كثيرا عن تطلع غيرها من القرشيات الى فتــاها الموموق ، وانها تلقت التهنئة الحارة بزواجهــا من الشاب الهاشمى الذى ملأ الأسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين بسحر جماله ونضارة حيويته

حتى اذا نفضت النسوة ما لديهن من أحاديث ، غابت « آمنة » عن المجلس وهى فيه حاضرة : كانت تفكر فى فتاها الذى لم يكد يفتدى من الذبح حتى هرع اليهــا خاطبا ، زاهدا فى كل أنثى سواها ، غير ملق أذنيه الى ما سمع من دواعى الاغراء !

واستمرأت طعم تأملاتها فى زحمة المهنئات ، ولذ لها أن تغيب عنهن وهى بينهن حاضرة ، فراحت تتمثل « عبد الله » وهو يدارى عواطفه طويلا فلا يتقدم لخطبتها أو يعرف مصيره ، حتى اذا نجا لم يهرع الى داره وآله ، وانما كانت دار « آمنة » قبلته بعد الحرم ، ومقصده اثر النجاة ومبتغاه، فهو يسعى اليها لم يكد يطيق الصبر عنها لحظة بعد الفداء

كم فكر فيها « عبد الله » ؟ !

وماذا عانى حين التزم الصمت والانتظار ؟

وكيف يكون لقاؤهما بعد كل الذى احتمله وعاناه ؟ !

أسئلة عرضت لآمنة وهى فى حلمها المستغرق ، حتى افاقت منه على ضجة الدار تتهيأ لعرس عاجل قريب

□

كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقا بالشاب الذى مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ، راض بقدره ، حتى اذا لم يبق بينه وبين الموت الا قيــد شعرة ، أنقذه الله بأغلى فدية عرفها العرب !

وأضيئت المشاعل فى شتى أرجاء البلد الحرام الآمن ،

وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتهـا ، وسهرت مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين مضى به أبوه « ابراهيم » الى قمة الجبل لكى يذبحه طاعة وتعبـدا ، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى

انها القصة التى تناقلها آباؤهم واجدادهم طبقة بعد طبقة ، وجيلا بعد جيل ، تعود فتمثل على المسرح نفسه فى البيت العتيق الذى رفع ابراهيم قواعده واسماعيل

والبطل اليوم هو حفيد أصيل من ذرية « اسماعيل » التى انتشرت فى الارض وتوارثت مجد الجدود

وربما خطر لبعض السـمار فى ليـلة العرس تلك ، أن يصلوا ما بين الذبيحين « اسماعيل وعبد الله » ، وربما ابعد واحد أو اكثر ، فحاول ان يتلمس وراء ستار الغد المحجب ، ما ينتظر « عبد الله » من أمر ذى شأن ، كذلك الذى كان لاسماعيل بعد الفداء

□

واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان «عبد الله» اثناءها يقيم مع عروسه فى دار أبيها على عادة القوم ، حتى اذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها الى داره كى يهيئها لاستقبال الوافدة العزيزة ، على حين مضت هى فى ذلك اليوم تملأ عينيها من الدار التى استقبلتها وليدة ورعتها صبية وفتاة ، وأنضجتها عروسا

ثم راحت تودع أهلها وأترابها وصواحب صباها الغرير .

وشغلها ذلك كله ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت فى رفقة من آلها متجهة الى دنياها الجديدة ، وهى تتلفت بين خطوة وأخرى الى الربوع التى خلفتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفية من شجو وحنين ، زادهما المساء الساجى مرارة وعذوبة معا !

واستغرقتها مشاعرها ، فأمسكت طوال الطريق عن الكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق يسرى حالما !

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفا مشوقا ، فرفعت اليه وجهها المليح ، وقد أضاءه شحوب خفيف ، وتألقت فى عينيها دمعتان صافيتان كحبتى لؤلؤ ...

وادرك « عبد الله » ماذا بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة من ذكريات ماضيها الذى فارقته وشيكا ، بل قادها فى رفق الى رحبة الدار الواسعة ، حيث أعدت هنالك مجالس للضيوف الأعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها

وراح يريها بيتها الجديد

ولم يكن البيت كبيرا ضخم البناء ، لكنه اذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عد رحبا مريحا لعروسين يبدأان حياتهما المشتركة

كان (١) ــ كما وصفه « محمد لبيب البتانونى » فى كتابه

---

(١) قيل ان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهب هذه الدار لابن عمه « عقيل بن أبى طالب » الذى صرع بالكوفة قبيل مذبحة كربلاء ، فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج ، فلما بنى داره المشهورة بدار ابن يوسف ، أدخل دار عبد الله فيها وكانت الى جوارها، حتى اشترتها « الخيزران » وفصلتها وأعادت بناءها كما كانت ، وجعلتها مسجدا

( الرحلة الحجازية ) ـ ذا درج حجرى يوصل الى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر مترا فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الأيمن باب يدخل منه الى قبة فى وسطها ـ بميـل الى الحائط الغـربى ـ مقصورة من الخشب ، اعدت لتكون مخدع العروس

وترك « عبد الله » عروسه فى مخدعها مع رفيقاتهـا من سيدات « آل زهرة » ، ثم خرج الى رحبة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الأعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها

ومضى وهن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التى انتقلت اليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسبا واعرقهم نسبا



## البشرى

**وسمعت هاتفاً يهتف بها في رؤياها :**

**« انك قد حملت بسيد هذه الأمة »**

ثم آب الضيوف الى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت الدنيا ، و « عبد الله » جالس الى « آمنة » يؤنسها بحديث شائق عما رأى في رحلته الى كاهنة الحجاز

سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تحسه من شجن لفراق آلها :

ـ هلا حدثتني يا عبدالله عن أولئك النسوة اللاتي شغلنك في أيامك هذه ؟

فانبسطت أساريره لاقبالها عليه وقال يجيبها :

« ما شغلنني عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذي سمعت من تعرضهن لي ، وانصرافي عنهن اليك وحدك !

« على أن للقصة بقية لما تسمعي بها ، لأنها حدثت في يومنا هذا اذ كنت عائداً من بيت أبيك لكي أهيىء داري لاستقبال ملكتها الغالية ، وشغلت بهذا يومي كله ، فلم أكد أحدث أحداً بما كان ! »

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :

ـ أخاطبات جديدات يطلبن القرب من فتى مكة الأوحد ؟

فتبسم ضاحكا من دعابتها الحلوة وأجاب :

ـ كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن لم يكن هو نفسه الذى تعلقن به منذ بضعة أيام ، وأنستهن رغبتهن فيه ما عرف عن مثلهن من صد وتمنع !

وأمسك فترة يرنو الى صاحبته ، كأنه يريد أن يلمس وقع الحديث عليها ، فما زادت على أن أومأت اليه ليمضى فى قصته

فاستجاب لايماءتها واستطرد يقول :

ـ أجل يا ابنة وهب ! زاهدات فى فتاك كأنه ابدل خلقا جديدا : مررت بهن اليوم فى طريقى بين دار أبيك ودارنا هذه ، فأشحن عنى بوجوههن معرضات ، الى حد أن دفعنى الشوق لمعرفة سر هــذا الانقــلاب ، الى أن أسأل احداهن « رقية بنت نوفل » :

« مالك لا تعرضين على اليــوم ، ما كنت عرضت على بالأمس ؟ »

فكان جوابها العجيب أن قالت :

« فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! »

وكذلك أعرضت عنى « فاطمة بنت مر » قائلة : « يا فتى ، ما أنا بصاحبة ريبة ولكنى رأيت فى وجهك نورا فأردت أن يكون لى ، فأبى الله الا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعت بعدى ؟ »

قلت : « زوجنى أبى آمنة بنت وهب »

فانشدت :

لله ما « زهـــــرية » سلبت

منك الذى استلبت وما تدرى !

ولما سألت الثالثة : « ليلى العدوية » ماذا صدها عنى ؟ اجابت :

« مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت على ، ودخلت على آمنة فذهبت بها »

□

وصمت « عبـــد الله » وسكنت العـــروس ، وقد راحا يفكران فى ذلك الموقف الغريب الذى وقفته نسوة قريش من « عبد الله »

ثم كانت « آمنة » هى التى قطعت الصمت فجأة ، بأن طلبت من زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين « رقية بنت نوفل »

فتساءل « عبد الله » وقد رابه ما يبدو عليها من اهتمام :

ـ ولماذا تسألين عن رقية هذه دون سواها ؟

أجابت « آمنة » فى جد :

ـ ستعرف بعد ، فهلا أعدت لى ما قالت « رقية » ؟

فلم يسع « عبد الله » الا أن يقول :

ـ سألتها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس ؟

فأجابت : فارقك النور الذى كان معك ، فليس لى بك اليوم حاجة

فعلقت « آمنة » بعد فترة تأمل :

ـ والله يا ابن العم ، انى لأرى لهذا الأمر ما بعده ، فرقية اخت « ورقة بن نوفل » وهو ـ كما تعلم وأعلم ـ قد تنصر واتبع الكتب ، وبشر بأن سيكون فى هذه الأمة نبى !

فحدق « عبد الله » فى زوجته مليا ثم هتف :

ـ ترين يا آمنة أننا . . .

فلم تدعه « آمنة » يكمل عبارته ، واستغرقت فى حلم شائق مثير ، استعادت فيه كل الذى كانت الجزيرة تمتلىء به من شائعات وارهاصات عن النبى المنتظر !

◻

ونامت ليلتها ، وما تكف هذه الرؤيا عن الالمام بها ، و « عبد الله » الى جانبها ساهر يقظان ، يرقب فى نورالفجر الوليد تلك الابتسامة الرقيقة التى يتألق بها وجهها الحلو ، وهى نائمة

حتى اذا دنا الصبح ، استيقظت العروس « آمنة » من نومها الهنىء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها :

رأت كأن شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض

الشام . وسمعت هاتفا يهتف بها : « انك قد حملت بسيد هذه الأمة ... »

☐

وبقى « عبد الله » مع عروسه أياما لم يحدد لنا التاريخ عددها ، ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة أيام ، اذ كان عليه ان يلحق بالقافلة التجارية المسافرة الى الشام

واغلب الظن أن كلام « رقية بنت نوفل » عن النور الذى فارق عبد الله الى آمنة ، قد شغل أويقات السمر فى تلك الأمسيات المعدودات التى قضاها العروسان معا قبل أن يفترقا ، وأن الأحلام قد حلقت بهما فى آفاق عليا ، خايلتهما فيها أمنية عزيزة غالية ، قل من شارفها أو طمح اليها .



## الكتاب الرابع

# العروس الأرملة

# فراق

ثم حانت ساعة الفراق !

وودع « عبد الله » زوجته الحبيبة حين اذن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبثت « آمنة » بفتاها وقد أحست كآبة غامرة شحب لها وجهها وارتعد كيانها ، فربت « عبد الله » على يدها الصغيرة فى حنو ، وهو يظن أن الذى بها لا يعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك

ثم انتزع نفسه منها انتزاعا ، ووقف فى فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمداراة :

ـ ان هى الا بضعة أسابيع ، ثم أعود اليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة

فهمست فى صوت أبح مختنق :

ـ وماذا أصنع بنفسى وأنت بعيد ؟

أجاب متضاحكا :

ـ تسامرين طيفى الذى لن يبرح مطيفا بك محوما عليك ، وترعين قلبى الذى أدعه هنا وأسافر بجسم ينزع أبدا الى أعز موضع ، ويحن الى أحب وأجمل من خلق الله !

فتراخت يداها وأنت فى ضعف :

ــ ويلى يا عبد الله من ليالى الطوال !

فصاح بها وهو يخطو نحو باب البيت ووجهه اليها :

ــ لا ويل لك يا آمنة ! ستشاغلك طوال لياليك أحلام عذاب . أفنسيت حديث « رقية بنت نوفل » ورؤيا الأمس القريب ؟

واذ بلغ الباب ، انفلت مسرعا قبل أن تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه ، على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ، واقفة بباب مخدعها المقفر ، وقد وضعت يدها على قلبها خشية أن يتصدع . . .

وأدركتها بعد ساعة جاريتها « بركة أم أيمن » فقادتها برفق الى فراشها ، ثم جلست الى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاقى . . .

□

ومرت أيام وليال ، و « آمنة » فى فراشها لا تبرحه ، تسامر أشجانها وترسل قلبها فى اثر الحبيب الراحل . وقد حاول أهلها ، كما حاول « عبد المطلب » أن يصرفوها عن وحدتها حرصا على صحتها ، لكنها آثرت العزلة على الأنس بالأهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة ، لما كانت تجده فى مسامرة طيف الغائب ، من شجن ولذة

□

ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن « آمنة » شعرت

بالبـادرة الأولى للحمـل ، فودت لو طارت بالبشرى الى « عبد الله » ثم استعادت شيئا من اشراقها ، وقد هون عليها مرارة الفـراق أن أكثر أيامه قد تصرمت ، وأن كل يوم يدنيها من اللقاء المنتظر ، ويزيدها يقينا من الحادث السعيد الذى ترجو أن تلقى به زوجها فى اللحظة التى يؤوب فيها !

□

وأهل الشهر الثانى أو مضت قطعة منه ، وآن للقافلة أن تعود ، فتهيأت « آمنة » للقاء وشيك ، وراحت تعـد ما بقى من أيام وليال ، وتتمثل زوجها وقد عاد اليها متلهفا يحدثها عما لقى فى بعدها من حر الشوق ولوعة الحنين . ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه ببشراها ؟ أم هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحلام اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه الشهى العذب ؟

بهـذا شغلت « آمنـة » فى الفترة التى سبقت عودة الغائب ، حتى اذا لاحت طلائع القافلة ، خفق قلبها فى عنف ، ووقفت فى ساحة الدار مما يلى الباب الخارجى ، تنتظر أن يفتح بين آونة وأخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب

وطال بها الانتظار حتى ساورتها شكوك مبهمة وخوف طارىء ، فتنبهت فجأة الى غيبة جاريتها « أم أيمن » وكانت قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كى تعود فتبشر سيدتها على عجل بأنها رأت « عبـد الله » رأى العين ، وتصف لها حاله بعد غيبة طالت !

وتناهى الى أذنيهـا ضجيج اللقـاء فى الدور المتاخمة

لدارها ، فاين عبد الله ؟ ما الذى امسكه عنها فلم يخف اليها طائرا ؟

لعله لقى ــ فى طوافه بالكعبة اثر عودته ــ من احتجزه حينا

أو لعل أباه الشـــيخ آت فى صحبتـــه ، فما يستطيع عبد الله الا أن يمشى على مهل ، احتراما لشيخوخة ابيه

أو لعل ...



# رسول الى يثرب

وأخيرا ، احست خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت عيناها بالباب وهى لا تكاد تتماسك من انفعال ، حتى اذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتها قدماها ، فتسمرت حيث هى : واجمة خائفة !

لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وانما جاء « عبد المطلب » الشيخ فى صحبة أبيها « وهب » ونفر من الأهل الأدنين ، وقد غشيت وجوههم جميعا غاشية من القلق

وكانت « أم أيمن » تمشى فى أثرهم متخاذلة مطرقة ، تحاول أن تخفى دمعة أفلتت من مقلتيها

وقال « وهب » وهو يتحاشى النظر الى وجه ابنته :

ـ بعض الشجاعة يا آمنة ، فما فى الأمر ما يدعو الى مثل ذلك الجزع الأليم . لقد عادت القافلة وكنا فى انتظارها بالحرم ، فلما افتقدنا « عبد الله » أخبرنا رفاقه أن وعكة طارئة ألمت به وهو فى طريقه الينا ، وعما قريب يبرأ ويعود سالما اليك والى مكة وقريش

وانحلت عقدة ربطت لسان « عبد المطلب » فعقب قائلا :

ـ هو ذاك يا آمنة ... وعكة بسيطة ولا شىء أكثر . وقد قال الرفاق : « خلفناه بيثرب عند أخواله من بنى

مخزوم » فبعثت اليه اخاه الحارث ، كي يكون معه ، ويصحبه في طريقه الينا ، فثوبي الى صبرك ، وادعى له . . . »

قالت في ضعف :

ــ افعل يا عم !

وانصرفت من فورها الى الصلاة والدعاء ، فلم تكد تشعر بالقوم حولها ، حتى غادروها الى الكعبة خاشعين ضارعين

□

وأتم الشهر الثاني دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد ما استطاعت أن تذود عن قلبها اليأس ، فاذا عز عليها ذلك لاذت بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذي افتدى بالأمس أغلى فداء . . .

وكانت تعاودها ــ في لحظات نومها القصيرة ــ رؤيا ملحة ، عن جنين عظيم تطويه أحشاؤها ، وتسمع الهاتف يبشرها بأمجد بنوة ، فاذا آبت الى يقظتها ، شق عليها ألا تجد « عبد الله » بجانبها ، تفضي اليه بالذي ترى وتسمع

# غائب لا يئوب

ثم ...

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ...

عاد لينعى أخاه الشاب ، الى أبيه الشيخ ، وزوجه العروس ، والقرشيين جميعا ...

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بنى مخزوم ، اثر رحيل القافلة التى تخلف عنها

ودفن هناك — على أرجح الأقوال — ولم يقبل فيه هذه المرة أى فداء !

□

ووجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء

وأعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت أياما لاتكاد تصدق النعى ، حتى اذا تيقنت من الكارثة ، فاضت عبراتها ، وقيل انها رددت فى لوعة :

عفا جانب البطحاء من زين هاشم

وجاور لحدا خارجا فى الغماغم

دعتـــه المنـــايا دعوة فأجابهـــا
وما تركت فى الناس مثل ابن هاشم

عشـــية راحوا يحمــــلون سريره
تعـــاوره أصحـــــابه فى التزاحم

فان تك غالتـــــه المنون وريبهـــا
فقـــــد كان معطاء كثـــير التراحم

ثم امسكت لا تزيد

□

ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على فتاها الذى غالته المنون غريبا ولما ينزع عنه ثوب العرس ، وضحلت من النواح عليه حلوق بحت من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منـــذ شهرين وأيام ...

كانت سنه اذ ذاك ، ثمانية عشر عاما ، فيا للشباب الفتى النضير ، يهتصره الموت اثر فرحة الفداء !

ويا للعروس الشابة ، تترمل هكذا سراعا ، وما يزال فى يديها خضاب العرس !

## الكتاب الخامس

# أم اليتيم

١ ـ الجنين

٢ ـ الوليد

٣ ـ الرضيع

# الجنين

**أشرق النور فى العوالم لما**
**بشرتها باحمد الأنبيـــاء**
**« شوقى »**

وفض المأتم ..

لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيـدا بيثرب

كانوا فى حيرة من أمره :

ما دام الله قد كتب عليه الموت هكذا سريعا ، ففيم كان الفداء ؟

من كان يظن ، حين نحرت الابل المائة بالحرم ، وتركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصـاد للذبيح المفتدى ، على قيد خطوات معدودات ؟

بهذا شغل القوم

وفى مثله كانت « آمنة » تفكر وهى فى وحدتها تجتـر أحزانها ، وتكابد الذى تجد من لوعة المصاب ، حتى خيف عليها الهلاك فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ، وهى تأبى أن تقبل فى « عبد الله » عزاء ..

وناشدوها الصبر الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ، ووجدت فيه جحودا وغدرا بالحبيب الذى رحل

وأوجس « آل هاشم وزهرة » فى نفوسهم خيفـــة ، أن تشتد وطأة الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبثت «مكة» شهرا وبعض شهر ، وهى ترقب فى قلق ، الى أين تنتهى الأحزان بالأرملة العروس ...

□

حتى كانت ليلة من ليالى شوال ، أحاط فيها العـــواد بفراش « آمنة » وهى فى غمرة أحزانها لا تفتأ تسائل كل وافد ووافدة من أهلها :

ـ فيم كان فداؤه اذن ، ما دام الله قد كتب عليه الموت العاجل ؟

ـ فيم كان العرس الحافل ، ويد القدر تحفـــر له لحده بيثرب ؟

ثم أدركها الاعياء فأغفت مجهدة والعيون ترقبهـــــا فى حنان وقلق وارتياب ، على أنها ما لبثت أن صحت من غفوتها وقالت لمن حولها :

« كأنى عرفت سر الذى كان : ان عبد الله لم يفتد من الذبح الا لمهمة عظمى ! لقد أمهله الله ريثما يودعنى هـــذا الجنين الذى أحسست به اللحظة يتقلب فى أحشائى، والذى من أجله يجب أن أعيش ... »

ومن تلك اللحظة الحاسمة ، أنزل الله بسكينته على «آمنة»

فطوت أحزانها فى أعماقها ، وبدأت تفكر فى ابنهـا الذى يحيا بها ويحييها ...

ولا أستطيع أن أنتقل الى الحديث عن أمومة « آمنـة » قبل أن أقف لحظة لأشير الى اختـلاف الروايات فى وفاة « عبد الله » :

هل كانت والابن جنين فى رحم أمه ؟

أو كانت بعد أن وضعته ؟

الأعرف بين جمهور المسلمين ، أن الرسول ولد يتيما ، وقد اكتفى بهذا « ابن اسحاق » دون أن يشير الى أى خلاف فيه . قال :

« ... ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به »

ونقل « ابن هشام » عبارته هذه ، من غير أن يضيف اليها أو يعلق عليها بما يشعر أن القوم على عهده اختلفوا فى هذا

ونقل « ابن الأثير » فى ( الكامل ) أن « الزهرى » قال:

« أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم فمات بها ، وقيـل بل كان فى الشام فأقبـل فى عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى بها .. قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

كما نقل فى موضع آخر ( ٢/١٣ ) أن « أبا طالب » قال للراهب « بحيرا » عندما سأله عن محمد : « انه ابن أخى ، مات أبوه وأمه حبلى به »

لكن « السهيلى » نقل فى ( الروض الأنف ) : أن «أكثر العلماء على أن عبد الله مات والرسول فى المهد : قيل ابن شهرين ، وقيل أكثر من ذلك .. وقيل مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرا »

ونقل ناشرو ( السيرة ) بالهامش عبارة « السهيلى » التى ذكرناها آنفا ، بلا محاولة لتحقيقها

وأشار « البرزنجى » فى ( مولده ) الى الخلاف اشارة عابرة فقال :

« ولما تم لحمله شهران على مشهور الأقوال المروية ، توفى بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله فى مرضه عائدا من الشام » ــ ص ١٢

وعلق « عليش » على هذا فى شرحه للمولد ، فذكر من الأقوال المروية التى أشار اليها البرزنجى : أن أبا الرسول توفى وهو ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا ...

□

وندع هؤلاء الى المحدثين ، فنجد عند أكثرهم اطمئنانا الى رواية من قالوا ان عبد الله توفى وابنه جنين . قال بودلى :

« وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه اليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه فى يثرب وهو فى رحلة تجارية ، عقب زواجه من « آمنة » ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه الذى رأى النور

فى أغسطس سنة ٥٧٠ م بعد وفاته بشهور » ـ ص ٢٨

و « فيليب حتى » فى ( تاريخ العرب : ١٣٥ من الطبعة الثانية للترجمة العربية ) يذكر موت عبد الله قبل مولد ابنه ، ثم لا يشير الى خلاف فى ذلك

وتحدث « الدكتور هيكل » مطمئنا غير مرتاب ، عن سفر عبد الله الى الشام فى رحلته الأخيرة ، تاركا «آمنة» حاملا ، وقد تقدمت بها أشهر الحمل من بعده حتى وضعت فبعثت الى عبد المطلب عند الكعبة ، تخبره أنه ولد له غلام

غير انا نجد عن بعض المفكرين المحدثين ـ أذكر منهم أستاذنا أمين الخولى ـ ميلا الى الرواية القائلة بأن محمدا ولد قبل أن يموت أبوه، وهم لا يستندون فى ذلك الى دليل نقلى ، بقدر ما يستأنسون بما اطمأن اليه علم النفس الحديث من صلة الجنين بأمه ، وأثر حالتها المعنوية على كيانه كله : جسما وخلقا وأعصابا . وحياة « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض معارك تكفى واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عودا وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا ، فكان فيها جميعا البطل المظفر ، وهذا ـ عندهم ـ يرجح ، ان لم يثبت ، أن أمه لم تروع وهى حامل بموت زوجها ، بل أمضت أشهر الحمل آمنة مطمئنة هادئة ، لا يئودها حزن ولا يمضها ثكل ولا يرهقها شجن

ولا نمارى فيما لهذا الرأى من قوة ووجاهة ، لكن يعوزه الدليل النقلى الذى نعده حاسما فيما نحن فيه ، فلقد رأينا أكثر الرواة الأول ، لا يشيرون الى خلاف فى أنه صلى الله

عليه وسلم ولد يتيما ، وهذا هو الذى حملنا على أن نلوذ بالفن لكى نحمل الرواية المشهورة أقصى ما تطيق احتماله من توفير الراحة النفسية للأم الحامل ، رغم حزنها الثقيل وثكلها المفجع ، فاطمأننا الى أن الجنين نفسه ، كان عاملا هاما فى عزائها ، وأن شعورها به يتقلب بين أحشائها ، قد آنس وحشتها وهون عليها ما كانت تلقى من حزن لعله كان يكفى لأن يتلفها ، لو لم ينزل الله سكينته عليهـــا ، ويملأ دنياها بهذا التراث الحى الغالى الذى أودعه عبد الله اياها قبل أن يموت ، فعاشت به وله ...

تسامعت بيوت « مكة » بالنبأ السعيد ، فتوافدت عقائل « قريش » على دار الفقيـــد ، يهنئن « آمنة » ويصغين الى ما سمعت من بشرى

وكثر الحديث عما ملأ الجزيرة من أقوال عن نبى منتظر تقارب زمانه ، يتحدث بها الأحبار من يهود ، والرهبــان من النصارى ، والكهان من العرب

ولعل العرب لم يلقوا بالا ــ أول الأمر ــ الى هذا الذى ذاع وانتشر ، غير أنى أكاد أطمئن الى أن « آمنة » قد ألقت كل بالها الى تلك الذائعات ، فما نسيت قط أن زوجها هو الذى استأثر من دون شبان قريش ورجالها بمجد الفــداء الذى لم يحدث منذ افتدى اسماعيل

وقد بقى فى مسمعها صدى قوى رنان ، مما ذكرته أخت ورقة بن نوفل وفاطمة بنت مر ــ وقد كانت فيما روى ابن الأثير كاهنة من خثعم ــ عن النور الذى انتقل من «عبدالله» اثر زواجه ، والغرة التى ذهبت بها « بنت وهب » فلم تدع

لغيرها من النساء فى « عبد الله » مأربا ٠٠٠

ثم هى قبل هذا كله ، سيدة من صميم البيئة الرفيعة الحاكمة فى مكة ، ومن شأن نساء هذه البيئة ، أن يرنون الى بعيد ، وأن يرجون للأجنة فى بطونهن مجدا لم يسبق اليه أحد

□

وكثير من المؤرخين المسلمين ، نقلوا عمن لا يتهمون من الرواة ، ما تراءى « لآمنة » فى أحلامها من بشرى بابن عظيم ، وان يكن « الدكتور هيكل » قد مر بهذا عابرا دون أن يشير اليه فقال :

« وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى » — ص ٦٩

وأكثر المستشرقين، يأبون روايات البشرى اباء صريحا، حتى «بودلى» — وهو من أكثرهم انصافا واعجابا بالرسول — رفض أن يقبل الذى قيل فى رؤى « آمنة » عندما حملت بمن صار نبيا ٠ قال فى كتابه ( الرسول ) :

« لا توجد أسرار تحيط بمولد النبى ، اذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشـــائر على أنه المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا بشرتها بقدومه ٠٠٠ وانما حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » ( ص ٢٥ من الترجمة العربية )

وانى ليدهشنى أن يصدر مثل هذا الحكم من رجل مثل « بودلى » أعرف فيه الاعتدال ونضوج الرأى ٠ لقد قرر أن

محمدا « حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » فما باله ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى تحمل وتضع فى مثل ظروف « آمنة » ؟

لماذا يسمى ما روى عن أحلامها ورؤاها « خرافات لا يقبلها عقل » ؟

أو ليس من حقها ـ ككل أنثى مثلها ـ أن تحلم للجنين الذى يتقلب فى أحشائها ، بمجد عريض ؟

لو أن « بودلى » استفتى علماء النفس ، لأنكروا عليه أن يسمى أحلام « آمنة » خرافات ! وانما الخرافة حقا أن نجردها من بشريتها وأمانى أمومتها ، فما من أنثى تحمل ، الا حلمت لوليدها بأقصى ما تسمح به بيئتها وظروفها ، وقد كانت بيئة « آمنة » ما نعرف عزا وشرفا وعراقة وحسبا ، كما حفت بزوجها « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم يشاركه فيها سواه ، فأى عجب فى أن تبعد بآمنة أحلامها فتسمع من يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمة » ؟

أو ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التى ردت على من بشرها بأن ابنها سيسود قومه قائلة : ثكلته أمه ان لم يسد الا قومه ؟

اننا لا نقول لبودلى وأمثاله : ان النساء قبل « آمنة » وبعدها ، قد عرفن ويعرفن فى حالة الحمل ، الهواتف والأحلام ، ولا نرغمهم على تصديق ما ذكره رواة العرب من أن « ليلى بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها « عمرو بن كلثوم » :

يا لك ليـــلى من ولد
يقدم اقدام الأســــد
من جشم فيه العـــدد
أقول قولا ، لا فنـــد

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الهاتف ليلا فقال:

انى زعيم لك «أم عمرو»
بماجد الجد كريم النجر
أشجع من ذى لبد هزبر
يسودهم فى خمسة وعشر

قالوا : فساد قومه ولم يجاوز خمس عشرة سنة

وكذلك رووا أن « عتبة بنت عفيف » أتاها الهاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائى » فسألها :

ـ أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليك ، أم عشرة غلمة كالناس ...؟

فأجابت : بل حاتم !

و « خبيثة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتفا هتف بها فى منامها ذات ليلة :

ـ أعشرة هدرة ( جمع هادر وهو الساقط ) أحب اليك أم ثلاثة كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

ـ ان عاد الثالثة فقولى : ثلاثة كعشرة

ففعلت ، وولدت خالدا ، ومالكا ، وربيعة ، وعدت بهم احدى منجبات العرب

بل لا نقول لمن أنكروا على « بنت وهب » أحلامها : ان الحوامل قبلها وبعدها ، والى يوم تنتهى الحياة على هـــذه الأرض ، قد عرفن ويعرفن الهواتف والأحلام

وانما حسبنا أن نقول لبودلى :

ــ انك قد اتخـــذت من كتاب السـيرة والمؤرخين الاسلاميين الأول ، مرجعك فى كتـابك عن « محمد » ، وزدت فاعتمدت أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم فى الجزيرة حيث عاش الرسول ، وكانت حجتك : « أنهم لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد أبدا ، لقد كان راعيا ، ارتدى نفس الثياب التى يلبسونها وامتطى ابلا كما يفعلون ، وكان التمـر الذى عاش عليه يشابه تمرهم • انهم ليشاركونه فى كل ما فعله ، فهـو بالنسبة لهم حى كفرد منهم

« لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذى مر عليه ثلاثة عشر قرنا بالنسـبة لى ، أيسر من وصـف جامعى من اكسفورد ، الحياة فى عصر اليزابيث ، وأبسط من كتـابة مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال

« عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده ، فرووا ذكرياتهم عنه لذرياتهم •••

« انى أعرف العرب عن كثب ، وانى أحبهم ، وقد عشت فى خيامهم وأحببتها • وأظن أنى أستطيع أن أفكر كمـا يفكر محمد ، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيـق مشكلاته »

فما بالك بعد هذا تنكر اجماع كتاب السيرة على ما رأت

« آمنة » من بشائر بمولد ذاك الذى كانت الجزيرة ملأى بالارهاصات عن قرب مولده ؟

الحق انى لا أستطيع أن أنكر من ذلك كله شيئا ، فمبلغ الأمر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة الحمل ، واشتهت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به قرناءه وزفاقه ، وانما يختلف مدى الطموح ومجال الأحلام ، على قدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمله امكانياتها ، ويمتد اليه بصرها !

وهذه « آمنة » بنت سيد بنى زهرة ، تزوجها « عبد الله ابن عبد المطلب » اثر افتدائه من النحر على نحو يذكر بجده الأعلى اسماعيل ، تزوجها « وهى يومئذ - كما يقول ابن اسحق ، شيخ كتاب السيرة - أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا »

وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها ثم صدهن عنه لما تزوج بها ، وليكن ذلك - فى أدنى حالاته - وهما أو تخيلا ، أفلا يؤثر فيها ذاك الوهم حين تحمل جنينها الأول : حفيد المنافيين وسليل البيت الهاشمى وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر أقصى ما يرنو اليه خيالها ، ويمتد اليه أملها ؟

□

والآن فلنعد الى « آمنة » حيث تركناها فى دارها بعد أن غاب عنها « عبد الله » الى غير مآب ، وخلفها فى حزن مستبد ، لم تخفف حدته الا حركة الجنين البكر فى أحشائها

حتى اذا أوشك أن يتــم أجله ، جاءها « عبد المطلب » ذات أصيل ، يطلب اليها أن تتهيأ للخـــــروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم أن يتحرزوا فى شعف الجبـــــال والشعاب ، تخوفا من معـــرة الجيش الذى جاء به « أبرهة الحبشى » من اليمن

وكانت « آمنة » قد سمعت بقدوم «أبرهة» هذا فى جيش لجب ، لكنها لم تقدر أن الأمر قد بلغ من الخطر حدا يدفع قريشا الى الخروج من بلدهم الأمين

وسألت « آمنة » عبد المطلب :

ــ علمت يا عم أن قريشا وكنانة وهذيلا ومن بالحرم من سائر الناس ، قد أجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذى جد فى الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟

أجاب :

ــ عرفوا ألا طاقة لهم به فكرهوا معركة غير متكافئــة ، تذوب فيها قريش أمام العدو ، ثم تئوب بعار الهزيمة

وسكتت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاء قيل انه كان بين أمير مكة وطاغية الأحباش ، فعادت تسأل عما تم فى ذاك اللقاء

فأجابها الأمير الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى اليه أبرهة قبل أن أسعى اليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حنـــــاطة الحميرى » وقال له :

ــ سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له ان الملك يقول لك : ( انى لم آت لحربكم ، انما جئت لهـــدم

هذا البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحـــرب فلا حاجة لى بدمائكم ) فان هو لم يرد حربى فائتنى به

وجاءنى حناطة فأبلغنى رسالة أبرهة وتلقى جوابى :

« والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابرهيم عليه السلام ، فان يمنعــه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينـــــه وبين أبرهة ، فوالله ما عندنا دفع عنه »

قال حناطة :

ـ فانطلق معى فانه قد أمرنى أن آتيه بك

ففعلت ، ومعى بعض أبنائى ، وهناك مضى بى اليه أحد رجاله فقال له :

« أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس فى الســــهل ، والوحوش فى رءوس الجبال »

فأكرمنى « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره فى الوقت نفسه أن تراه الحبشة معى على سرير ملكه ، فنـزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسنى الى جانبه ثم قال لترجمانه :

ـ قل له ما حاجتك ؟

فلما أجبت : حاجتى أن يرد علىّ الملك مائتى بعــــير أصابها لى

بدا على الملك كأنما صغرت فى عينيه ، وخيبت ظنه فىّ وقال لترجمانه فى جفوة :

ـ قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى • أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لا تكلمنى فيه ؟

قلت على الفور :

ـ انى أنا رب الابل ، وان للبيت ربا يحميه

قال الفاجر مدلا بقوته :

ـ ما كان ليمتنع منى !

فأجبته متحديا :

ـ أنت وذاك ••

وكان معى سيد هذيل ، فعرض على «أبرهة» ثلثأموال « تهامة » على أن يرجع ولا يهـــدم البيت ، فأبى متكبرا ، واكتفى بأن أمر برد ابلى الى ••

وانصرفنا ، فحدثت قريشا بالخبر ، وأمرتهم بالخـروج من مكة ، ثم قمت فأخذت بحلقة باب الكعبـة ، وقام معى نفر من « قريش » يدعون الله ، ويستنصرونه على «أبرهة» وجنده

□

وأطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه الى السماء وردد فى ضراعة أبيـــاته التى قالها وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهم ان العبد يمنـــع رحله فامنـــع حلالك

جروا جموع بلادهم، والفيل ، كى يسبوا عيالك

ان كنت تاركهم وكعبتنـــا ، فأمر ما بدا لك !

يا رب لا أرجو لهم ســواكا
يا رب فامنع منهـــم حماكا
ان عــدو البيت من عاداكا
امنعهموا أن يخربوا فنــاكا

فرددت « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم ســواكا

ثم ودعها الشيخ وخرج ، على أن يبعث اليها فى غد من يصحبها فى خروجها لتلحق بالجمع الراحل

وخلت « آمنة » الى نفسها والى الجنين الغالى الذى تطوى عليها جانبيها ، فعز عليها أن تلده بعيدا عن البلد الحرام ، وفى غير دار أبيه « عبد الله »

وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعها ويسهر ليلتها ، لكنها أوت الى فراشـــــها وما يتخلى عنها ايمانها بأن الله مانع بيته ، ومتى كان للطاغين والجبــابرة على البلد الحرام سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وقد قر عزمها عــلى ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، الى أن يقضى الله أمره

□

وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتى من قومها أحد ، ثم مضى النهار الا أقله وهى فى عجب : كيف لم يبعث عبد المطلب رسله اليها ؟ وفيم هذا الصمت المريب الذى يخيم

على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حى فيها أنفاسه ؟

بل فيم ذلك الضجيج البعيد ، يتناهى اليها من أقصى الجنوب ، غامضا مختلطا مبهما لا تكاد تميزه : أهتاف هو ودعاء ، أم صراخ وعويل ؟

ألا ان وراء ذلك كله لأمرا ...

□

وأقامت « آمنة » تترقب ، حتى اذا آذنت الشمس بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب اليها أن تخرج الى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة .

ولم يبق فى « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

حدثوا أن « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام ، وهيأ فيله وعبى جيشه مجمعا لهدم البيت العتيق ، ثم الانصراف الى اليمن ، فلما وجهوا الفيل من معسكره فى ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك ، فضربوه فى رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم فى أسفل بطنه ، وهو بارك لا يقوم ، فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق فتهيأ للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه نحو مكة برك !

ثم حدثت المعجزة : سلط الله نقمته على أصحاب الفيل، فانتشر فيهم فجأة وباء مهلك ، رمتهم بجراثيمه طير أبابيل، فجعلتهم كعصف مأكول

هنالك أدركهم الذعر ، فولوا مدبرين يبتدرون الطريق الذى جاءوا ، ويسألون عن « نفيل بن حبيب الخثعمى » ـ وكان قد خرج لقتالهم حين مروا بأرض خثعم ، فلما هزمه أبرهة افتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض العرب ـ فلا يكاد «نفيل» يسمع صياحهم وضراعتهم اليه أن يدلهم على الطريق الى اليمين ، حتى يرد بأعلى صوته :

أين المفـــر والاله الطـــالب
والأشرم المغلوب ليس الغـــالب

أو يقول :

وكل القوم يسأل عن « نفيل »
كأن علىّ للحبشـــان دينا !

قيل : « فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة ! »

ولم تكن أرض العرب قد شهدت ـ فيما روى ابن اسحق عن يعقوب بن عتبة ـ الحصبة والجدرى قبل ذاك العـــام المشهود

وأقبلت « قريش » على كعبتها المقدسة تطيف بها حامدة شاكرة ، وتجاوبت أرجاء البلد الأمين بدعوات المصـــلين وأناشيد الشعراء :

تنكلوا عن بطن مكة انهـــا
كانت قديما لا يرام حريمها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى
ولسوف ينبى الجاهلين عليمها

ستون ألفا لم يئوبوا أرضهم
ولم‌يعش بعد الاياب سقيمها

□

وبلغت الأصداء مسمع « آمنة » فقامت تصلى وقد أشرق وجهها بنور اليقين والايمان ، وأحست غبطة غامرة ، أن استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها ـ ابن عبد الله ـ أن يولد بعيدا عن البلد الحرام



# الوليد!

وُلِدَ الهُدَى فالكائناتُ ضياءُ
وفَمُ الزمانِ تبسمٌ وثَنَاءُ
الروحُ والملأُ الملائكُ حولَه
للدينِ والدنيا به بُشَرَاء
والعرشُ يَزهُو والحظيرةُ تزدهِي
والمنتَهَى ، والسدرةُ العَصْمَاء

« شوقي »

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيل ، حتى ذاعت بشرى المولد • حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوماً وهو الأكثر والأشهر ، على ما نقل «السهيلى» فى (الروض الأنف )

وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى آخرون بأن ذكروا انه كان فى عام الفيل ( السيرة١/١٦٧)

وكانت الرؤى قد عاودت « آمنة » فى صدر ليلة مقمرة من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد انها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ، ويأمرها أن تقول حين تضعه :

« أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه « محمدا »

وجاءها المخاض فى أوان السحر ، وهى وحيدة فى منزلها ليس معها أحد سوى جاريتها ـ وقيل فى رواية أخرى ان « أم عثمان بن أبى العاص » كانت كذلك معها ـ فأحست بما يشبه الخوف ، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ، ثم بدا لها كأن جمعا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات عبد مناف ، وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبرت به من أحد ، غير أنها أدركت على الفور أن هؤلاء اللواتى حسبتهن من نساء البيت الهاشمى ، لسن سوى أطياف سارية ! وخيل اليها أن من بينهن « مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر أم اسماعيل » !

وزايلها كل ما كانت تحسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما كاد نور الفجر ينبثق ، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى !

□

وتوارت الأطياف النورانية السارية ، حين لم تعد « آمنة » وحدها ! كان ولدها الى جانبها يملأ الدنيا حولها نورا وأنسا وجمالا ، ومضت ساعة وبعض ساعة ، وهى لا تفتأ ترنو الى طلعته البهية وكيانه اللطيف المشرق ، وتذكر به الحبيب الذى أودعها اياه ، ثم رحل ...

حتى اذا انبلج الصبح ، كان أول ما فعلته الوالدة أن أرسلت الى « عبد المطلب » تبشره بمولد حفيده ، فأقبل مسرعا ، وانحنى فى حنو على الوليد ، يملأ منه عينيه ،وقد

القى سمعه الى « آمنة » وهى تحدثه عما رأت وسمعت حين الوضع

ووعى كل ما قالت ، ثم حمل صغيره العزيز بين ذراعيه فى رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولدا من ابنه الفقيد الغالى

وأحاط به بنوه فى خشوع وغبطة ، وهو يطوف بالكعبة منشدا :

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من شر ذى شنآن
من حاسد مضطرب العنان

□

ثم رده الى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة

وكانت مكة ـ حين ذاعت فيها بشرى المولد ـ ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، فرأى القوم فى مولد « محمد » حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه للنحر ، ثم افتدى بالابل المئة

وبلغ من غبطة البيت الهاشمى بالمولود العزيز ، أن « ثويبة الأسلمية : جارية أبى لهب بن عبد المطلب » لم

تكد توافي سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها ، ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته الحرب الدامية التى قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاما ، عندما جاء وليدها ذاك الهاشمى اليتيم ، برسالة السماء

فيقال ان « العبـــــــاس بن عبد المطلب » رأى أخاه « أبا لهب » بعد موته بســـنة ، فسأله عن حاله ، فأجاب أبو لهب : فى النار ، الا أن العذاب خفف عنى كل ليـــلة اثنين ، بماء أمصه من بين اصبعى هاتين ، وذلك أنى أعتقت « ثويبة » حين بشرتنى بولادة النبى صلى الله عليه وسلم

و « أبو لهب » هذا ، هو الذى نزل فيه قوله تعـالى : « تبَّـــتْ يدا أبى لهــبٍ وتَبّْ ، ما أغنى عنه مالــــه وما كسب ــ سيصلى نارا ذاتَ لَهَب ــ وامرأته حمَّـالةَ الحطب ــ فى جيدها حبلٌ من مسد »

□

ولن يمضى وقت طويل ، حتى تمتلىء الجزيرة بأخبـــار ومرويات عن تلك اللحظة المباركة التى وضعت فيها «آمنة» ولدها . وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيـــال حتى تصل الينا وقد أضافت اليها الليـــالى والأيام جديدا من مبتدعات السمار ورؤى المحبين

وهذا زماننا يصغى فى ذكرى تلك الليلة المباركة من كل عام ، الى مئات الألوف من الأصوات فى شتى المحـــافل بمختلف بقاع الأرض ، ترتل قصة المولد وتترنم بما ظهر عند ولادة محمد من خوارق وغرائب ، اذ :

« زيدت السماء حفظا ، ورد عنها المردة وذوو النفوس الشيطانية ، ورجمت الجن وتدلت اليه صلى الله عليه وسلم الأنجم الزهرية ، واستنارت بنورها وهاد الحرم ورباه ــ وخرج معه صلى الله عليه وسلم نور أضاء قصور الشام القيصرية ، فرآها من بطاح مكة داره ومغناه ــ وانصدع الايوان بالمدائن الكسروية ، الذى رفع أنو شروان سمكه وسواه ــ وسقطت أربع وعشر من شرفاته العلوية ، وكسر سرير الملك كسرى لهول ما أصابه وعراه ــ وخمدت النيران المعبودة بالممالك الفارسية ، لطلوع بدره المنير ومحياه .. »

ويهتف أمير الشعر العربى بعد نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن من الليلة الغراء :

بك بشر الله السماء فزينت
وتضوعت مسكا بك الغبراء
يوم يتيه على الزمان صباحه
ومساؤه بمحمد وضاء
ذعرت عروش الظالمين فزلزلت
وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم
جمدت ذوائبها وغاض الماء
والآى تترى ، والخوارق جمة
« جبريل » رواح بها غداء !

□

وفى ضجيج الاحتفال بمولد « ابن عبد الله » ، لم تنس « قريش » أن تسأل شيخها « عبد المطلب » : لم عدل عن

أسماء آبائه وسمى حفيده محمدا ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعا بين القوم ، ويقول «السهيلى» فى « الروض الأنف » : « لا يعرف فى العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة ، طمع آباؤهم ـ حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقرب زمانه، وأنه يبعث فى الحجاز ـ أن يكون ولدا لهم .. وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع ، جد جد الفرزدق الشاعر ـ ومحمد بن أحيحة بن الجلاح .. ومحمد بن حمران ابن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر ان ولد له ذكر أن يسميه محمدا .. »

□

سألت « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محمودا فى الأرض وفى السماء ..

ويعلق « بودلى » على تلك الاجابة قائلا : « ... وأيا كان السبب ، فقد أصبح اسم الطفل محمدا ، وتسمى به ملايين الأطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذى قدر لابن « آمنة » من عبد الله ، أن ينشره على العالمين .. »

# الرضيع

« ... فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ؟ ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه

« قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ... »

« حليمة السعدية »

أحست « آمنة » بعد أن وضعت ولدها الوحيد ، أن الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها الموعود بأمجد غد، كما انتهت رسالة «عبد الله» منذ أن أودعه جنينا فى أحشائها ، فأسلمت نفسها من جديد لأشجان الذكرى ، الى حد أثر فى صحتها وان لم يفض بها الى التلف أو قريب منه ، ذلك أن جزءا من تلك الرسالة لم ينته

بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يدرك ، فتحدثه عن أبيه ، ثم تصحبه الى يثرب ، حيث يزوران قبرفقيدهما الغالى

وأقبلت الأم على صغيرها ترضعه ريثما تفد المراضع من البادية فيذهبن به مع لداته من رضعاء قريش ، بعيدا عن جو مكة الخانق ، لكن لبن « آمنة » جف بعد أيام . ويعلل « بودلى » ذلك بأنه أثر لما أصابها من حزن لموت زوجها ، فدفعت به الى « ثويبة » جارية عمه « أبى لهب » ، وكانت قد أرضعت قبله عمه « حمزة بن عبد المطلب »

ثم لم تمض الا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بنى سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش ، فعرض عليهن « محمد بن عبد الله » فزهدهن فيه يتمه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافىء نسبه الشريف،فلقد مات «عبدالله» فى حياة أبيه «عبدالمطلب» فلم يرث عنه مالا ، وأعجلته منيته في مقتبل العمر قبل أن يتأثل لنفسه غنى ، ومن ثم لم يترك لولده الذى خرج الى الدنيا بعد موته ، سوى أمه ، وجاريته الحبشية « بركة أم أيمن » ، وعددا من الابل والغنم ، وانها ـ كما يقول الدكتور هيكل ـ لثروة ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليل البيت الهاشمى القرشى العريق .

وأرهق الحزن « آمنة » ، وهى ترى المراضع يوشكن أن يعدن الى البادية، زاهدات فى ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفال الأحياء ممن يرجى منهم الخير الوافر .

وكاد اليأس من اقبال مرضعة على اليتيم ، يغزو قلب

أمه العامر بأشجانه ، لولا أن عادت احدى المرضعات تلتمس « محمدا » بعد أن انصرفت عنه أول النهار. تلك هى «حليمة بنت أبى ذؤيب السعدى » زوجة « الحارث بن عبد العزى: أحد بنى سعد بن بكر بن هوازن »

ولندع « حليمة » تروى قصتها مع الرضيع اليتيم ، أو يرويها عنها «ابن اسحق»شيخ كتاب السيرة، نقلا عمن سمع « عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ». يقول :

« كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته ، تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، فخرجت على أتان لى قمراء ـ أى عجفاء ـ معنا شارف لنا ـ أى ناقة مسنة ـ والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا، من بكائه من الجوع ، وما فى ثديى ما يغنيه وما فى شارفنا ما يغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك .. حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها ( محمد ) ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه اذا قيل لها انه يتيم . وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول : يتيم ؟ ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا ، غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا . والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه

« قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ..

« فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجد غيره . فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى الى شارفنا تلك فاذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة

« يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة !

« فقلت : والله انى لأرجو ذلك

« ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت ( محمدا ) عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم ، حتى ان صواحبى ليقلن لى :

« يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! اربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

« فأقول لهن : بلى والله انها لهى هى !

« فيقلن : والله ان لها لشأنا ...

« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها،فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا به معنا ، شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان ( غيرنا ) قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

« ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !

« فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبـــن ، وتروح غنمى شباعا لبنا • فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته »

□

هكذا نما الرضيع وترعرع فى صميم البادية ، بين قبيلة بنى سعد وهى من أعرق قبائل العرب وأفصحها ، فنطـق ـ كما يقول بودلى: ٢٩ ـ أول ما نطق ، وخطا أول ما خطا، بين أسياد البادية، هؤلاء الذين سيقاتلونه يوما ثم يخضعون له أخيرا ، ويحملون اسمه الى بقـاع من الأرض لم يكونوا ليعرفوها أو يسمعوا بها حتى يومهم ذاك •

كيف أمضت الأم سنتيها هاتين ؟ تسكت كتب السيرة فلا تحدثنا بشىء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون بالذى شعرت به « آمنة » من أن دورها الجليل قد أوشك على الانتهاء

على أنا لسنا بحاجة الى من ينبئنـــا أنها أقامت فى دار « عبد الله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذى أوحش من بعد رحيله

وانتهزت الأحزان المطوية فى أعماقها ، فرصة وحدتها الموحشة اثر ذهاب ابنها الى البادية ، فأرهقتها ارهاقا لم يكن لها عهد بمثله ابان حملها وحين كان « محمد » معها •

ولكن أوان فطامه كان يدنو رويدا ، وهذه هى تشغل عن

أشجان ذكرياتها بانتظار الحبيب الحى ، وتسلى همها بتمثله اذ يعود فيملأ دنياها أنسا وضياء

□

واستبطأت عودة « حليمة » بفتاها ، ولعلها همت غير مرة بأن تبعث اليها من يسترجعه ما دام قد استكمل عامى رضاعته • لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه ، حتى التزمته معانقة ، وتشبثت به فى حضنها كأنما لا تريد أن تبعده عن قلبها الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو اليه معجبة بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنضوج

واذ أحست « حليمة » اعجاب الأم بصحة الصبى العزيز ، راحت تحدثها عن جو « مكة » ــ وقد كان اذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة ــ و « آمنة » تلقى اليها بعض سمعها ، أن كانت فى شغل بمناجاة الحبيب العائد

هنالك تشجعت « حليمة » وأفصحت عن مرادها قائلة:

ــ لو تركت بنىّ عندى حتى يغلظ ، فانى أخشى عليه وبأ « مكة » !

فأنكرت الأم الحنون ما سمعت ، ونظرت الى « حليمة » نظرة عتاب • كيف خطر لها أن « آمنة » تستطيع أن تفارق للمرة الثانية ، فلذة كبدها ونور عينيها وأنس دنياها ؟

لكن « حليمة » لم تيأس ولم تتراجع ، بل ألحت فى استصحاب الصبى ، متوسلة الى والدته بكل ما فى أمومتها من حنان وايثار ، مؤكدة لها أن من الخير لولدها أن يظل

فترة أخرى بعيدا عن مكة ، وأن يعود معها فيمـــــرح فى البادية ملء الصحة ملء الطلاقة والحرية !

وعادت الأم تنظر الى ابنها فتراه حقا قد أينع فى جو البادية الطليق ، ثم انثنت الى قلبها تسأله ان كان يطيـق بعد الوحيد الغالى ؟ فاذا بهذا القلب النابض بالحب والحنـو والايثار ، يدعوها الى مزيد من الاحتمال والتصـــبر ، فى سبيل ما تعلم حقا أنه أنفع لولدها وأفضل

وودعت « آمنة » ولدها للمرة الثانيـــة ، وفى قلبهـــا وحشة وشجن ...

وانطلقت به « حليمة » راجعة الى مراعى بنى ســعد ، والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غبطتها وفرحها ، اذ كانت وقومها « شديدة الحرص على مكثه فيهم ، لما رأوا من بركته»

◻

لكن ، لم تمض الا بضعة أشهر ، حتى عادت « حليمة » من تلقاء نفسها بالصبى المبارك الى أمه ، وهى بادية القلق

ولم تذهب فرحة اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة السريعة ، فقالت تسأل « حليمة » :

ـ ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعـــلى مكثه عندك ؟

أجابت « حليمة » بعد تردد وتفكير :

ـ قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى علىّ ، وتخوفت الأحداث عليه ، فأديته اليك كما تحبين

ولم يقنع جوابها هذا « آمنة » ، بل لم يذهب بشىء مما

خامرها من ريب وعجب ، فما زالت بحليمة حتى أنبأتها بالخبر :

قالت ـ فيما روى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ـ :

« فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه ـ من الرضاعة ـ لفى بهم لنا خلف بيوتنا، اذ أتانا أخوه يشتد، فقال لى ولأبيه :

ـ ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقا بطنه ، فهما يسوطانه

فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعا وجهه . فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له :

ـ مالك يا بنى ؟

قال :

ـ جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا ( فيه ) شيئا لا أدرى ما هو

فرجعنا به الى خبائنا ، وقال لى أبوه :

ـ يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به

فاحتملناه فقدمنا به .. »

□

وأصغت الأم « آمنة » الى القصة دون أن تبدو عليها بادرة خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليمة » من حديثها ، فقالت لها بملء يقينها واطمئنانها :

« أفتخوفت عليه الشيطان ؟ »

أجابت من فورها :

ـ نعم

فقالت « آمنة » :

« كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لبنيّ لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟ »

فهتفت « حليمة » :

« بلى »

واذ ذاك حدثتها « آمنة » بما رأت وسمعت حين حملت به ، ثم ختمت حديثها قائلة :

« ... فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف من حمله ولا أيسر منه ، وقع حين ولدته وانه لواضع يديه على الارض رافع رأسه الى السماء ... دعيه عنك وانطلقي راشدة »

فظهر على « حليمة » أنها تذكرت شيئا كان قد غاب عنها ، وهتفت قائلة :

« الآن فهمت ما لم أفهمه من قبل : ذلك أن نفرا من نصارى الحبشة رأوا ابني محمدا معي حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألوني عنه ، وفحصوه مليا ثم قالوا :

ـ لنأخذن هذا الغلام فلنذهب به الى ملكنا وبلدنا ، فان له شأنا نحن أدرى به وأعرف

فاختطفته منهم وقد هاجني ذلك على رده اليك ،وهممت أن أفعل ، لولا أن مضارب بني سعد كانت أقرب اليّ منك،

فعدوت نحوها ولم أشعر بالاطمئنان حتى دخلت به الحمى.»

وأكثر المؤرخين المحدثين — من مستشرقين ومسلمين — يقفون عند قصة الملكين هذه موقف الانكار ، فاذا ووجهوا بالذى رواه « ابن اسحق » عن بعض أهل العلم ، من أن الرسول نفسه حدث نفرا من أصحابه عن الملكين اللذين طهرا قلبه ، لاذوا بالقول بأن رواية الحديث ضعيفة السند، ثم نقدوا المتن نفسه بأن الروايات تجمع على أن محمدا أقام ببنى سعد الى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هذه قد حددت سنه بما دون الثالثة ، وأرجعته الى مكة بعد فطامه بأشهر .فبين الروايتين —كما يقول الدكتور هيكل ص٧٣— تناقض صريح

ثم يستطرد الدكتور هيكل قائلا :

« وانما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين الى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها حياة انسانية سامية ، وانه لم يلجأ فى اثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من الخوارق ، وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعيير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، أن ليست لهم قلوب يعقلون بها » ا . هـ

والحق أن ضعف السند ، كان يعفينا من مثل هذا العناء فى نقد المتن ، فالحديث الذى أورده « ابن اسحق » مروى

عن « بعض أهل العلم » ويحسبه ابن اسحق ، « خالد بن معدان الكلاعى » وخالد هذا هو « أبو عبد الله الشامى الحمصى » المتوفى فى العقد الأول من القرن الثانى الهجرى، وقد ساق الحديث مرسلا فلم يذكر فيه اسم الصحابى الذى نقله عن الرسول

ومعنى هذا أن الحديث خبر واحد ـ وقد قيل انه لا يفيد علما ولا ظنا ـ كما أنه حديث مرسل ، سقط فيه ذكر الصحابى ، مجهَّل بقول ابن اسحق : « عن بعض أهل العلم »

وهو بهذا كله ، يأتى فى مرتبة من أضعف مراتب النقل، فلا يلزم بشىء ، ومن هنا لم تكن بنا حاجة الى التعرض لنقد المتن بما ذكروه من تناقض صريح بين زمن القصة ، وبين الرواية القائلة بأن محمدا بقى فى البادية حتى الخامسة من عمره ، اذ ليس ببعيد أن تكون « حليمة » عادت فأخذت ظئرها للمرة الثالثة ، متوسلة الى أمه بما اكتسب هناك من قوة وصحة

كذلك لم تكن بنا حاجة الى نقد الحديث بأنه يخالف معروف العقل ، وهو نقد لا يسلم من الاعتراض ، وأولى منه أن يقال ان الحادثة تخالف مألوف الناس ومعتادهم ، أما العقل فلا يحيل أن تشق بطن ويخرج منها عضو، وما نزال نشهد ذلك كل يوم فى جراحات الجسم

ولعل الذى يمكن أن يقال هنا فى اطمئنان ، هو أن القصة ـ سواء أجرت على لسان الرسول أم على لسان تابعى ـ فهى من قبيل التمثيل الذى يراد به نقاء السريرة

وصفاء النفس ، وهذا قريب مما ذهب اليه « درمنجم » حين رأى الحادثة « لا تستند الى شيء غير المعنى الحرفى للآية القرانية : ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك »

ولا أستبعد مع هذا كله ، أن تكون « حليمة » قد روت الحادثة بعد الذى رأت من بركة رضيعها ، فليس بمنكر عندنا ، ولا مستبعد فى عقولنا ، أن تؤمن « حليمة » بأن هذا قد حدث فعلا ، بل انه ليتسق مع الذى اطمأن اليه أكثر المفكرين المعاصرين ـ وفيهم الدكتور هيكل ـ من «أنها وجدت فيه منذ أخذته بركة : سمنت غنمها ، وزاد لبنها ، وبارك الله لها فى كل ما عندها »

وكذلك يشير « بودلى » الى « اعتراف قبيلة بنى سعد ، بأنهم وجدوا فيه منذ أخذوه بركة »



# الكتاب السادس

# الرحيل

(( حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فمر على قبر امه وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله عليه وسلم ))

عائشة ام المؤمنين

لنرمق « آمنة » وهي تحتضن فتاها الوحيد اليتيم ، بعد أن بلغ مقامه فى البادية أقصى أمده ، وعادت به « حليمة » السعدية الى أمه فى البلد الحرام ، حيث مجد آبائه العريق ، ومجد موطنه العتيق

عاد فبدد بنوره ظلال الكآبة التى كانت تغشى دنيا « آمنة » فى وحدتها وترملها الباكر ، واحسبها لم تكف عن التحدث اليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية قصة فدائه ، وما كان معقودا عليه من آمال كبار

وقد بذلت « الأم » لولدها فى تلك الفترة ، أقصى ما يستطاع من عناية ورعاية ، ان كان وحيدها ، ومناط أملها ، ومعقد رجائها . ويعترف كتاب السيرة بما كان لها من اثر جليل فى هذه المرحلة من عمر نبى الاسلام ، فيقول شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أمه آمنة بنت وهب في كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا »

واثمرت العناية ثمرتها ، فبدت على « محمد » تباشير النضوج المبكر ، ورأت فيه «آمنة» عندما بلغ السادسة من عمره ، مخايل الرجل العظيم الذى طالما تمثلته ، ووعدت به فى أحلامها ورؤاها

اذ ذاك ادركت أن الأوان قد آن ، لكى تؤدى واجبا

مقدسا ، وتحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بهـا معا الى « يثرب » كى يزورا قبر الحبيب الراقد

وهش الابن لفكرة السـفر ، وسره أن يصنحب أمه فى زيارتها لمثوى فقيدهما ، وأن يتعرف ـ فى الوقت نفسه ـ الى اخوال أبيه المقيمين بيثرب ، وكانوا ذوى شرف هناك وجاه عريق ، ولعله سمع أمه غير مرة ، تردد قول الشاعر فى « أبى وهب بن عمرو : خال عبد المطلب بن هاشم » :

ولو بأبى وهب انخت مطـيتى
غدت من نداه ، رحلها غير خائب

بأبيض مـن فرعى لؤى بن غالب
اذا حصلت أنسابهـا فى الذوائب

ابى لأخذ الضيم ، يرتاح للنـدى
توسـط جداه فروع الأطايب

وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر رمالها ، حين بدأت « آمنة » تتهيأ لرحلة طويلة شاقة ، تجتاز بها الأميال المائتين التى تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد « عبد الله » الذى لم تره منذ نحو سنوات سبع

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبـده الضاربون فى أحشاء البيداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب ، لـكن شوقها الى زيارة يثرب ، كان اقوى من أن تغلبـه عقبات سفر هو فى الحقيقة قطعة من العذاب

وشغلت أياما بتجهيز راحلتها واعداد مئونة الطريق ، ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدولة ، ذى مظلة مرفوعة تحجب الشمس عن الابن العزيز

واقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال فى رحلة الصيف الموسمية ، فلما أذن المؤذن بالرحيل ، ضمت اليها فتاها وركبت راحلتها ، تصحبهما الجارية الوفية ، « بركة أم أيمن »

□

والقت « آمنة » نظرة وداع على دار عرسها التى جمعتها فترة بعبد الله ، والتى وضعت فيها من بعده ولدهما الوحيد ، ثم عرجت على الحرم فطافت به داعية ، وانفلتت من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تتهيأ للتحرك ، وقد علا رغاء الابل مختلطا بضجيج المسافرين ودعاء المودعين !

وسار الركب فى أول أمره بطيئا وئيدا كأنما يعز عليه أن يفارق الحمى الأمين والديار الغاليات ، حتى اذا توارت معالم مكة خلف الجبال الشم التى تحف بها ، استقبل الراحلون طريق الشمال ، وحثوا الخطا قدر ما استطاعوا ، كيما يبلغوا سوق الشام فى ابانه ، ويعودوا الى حماهم الأمين ، والى الأهل والأحباب

ورفع الحادى عقيرته بالغناء ، يودع الديار التى خلفوها من ورائهم ، ويعد الابل بالراحة والظل ، ان هى سارت حثيثا فبلغت بأصحابها ما يأملون . ورجّعت أرجاء البيداء

صدى الحداء الحنون ، فرقت قلوب الراحلين ، وسرت فى ابدانهم نشوة غامرة ، من شجن الذكرى ولوعة الفراق

وعطفت « آمنة » على ولدها فى حنو فياض ، ثم أغمضت عينيها تحلم باللقاء القريب !

وساعدها صمت الصحراء الا من رجع النغم ، على استرسالها فى الحلم ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ، تنصت فى الحداء الى نداء شجى يتناهى اليها من بعيد ، فهفا قلبها الى الأليف النائى ، ورنت عيناها الى الأفق الشمالى ، حيث تراءت لها « يثرب » أشبه بواحة خضراء ، تحنو ظلالها الوارفة على أعز قبر ، ويؤوى ثراها الطيب اغلى رفات ...

فاذا جن الليل وصمت الحادى ونام الرفاق وهجع الكون ، ضمت « آمنة » وحيدها الى صدرها ، وأسلمت نفسها الى رؤاها تسرى بها نحو المزار ، وتستحضر لها روح « عبد الله » آيبة من مأواها البعيد المجهول ، لتحيى الزوجة الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز !

□

وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها وأقبلت على ولدها تحدثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه بأن يتطلع معها الى المدينة البيضاء التى بدأت تتكشف من وراء جبل « أحد » ، حيث ينبسط السهل وتطمئن الأرض ، ويتموج عشبها الأخضر ، وتتراقص عليها ظلال النخل الباسقات ...

وأناخ الركب رواحله فى «يثرب» ، ريثما تزود بالراحة والتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شمالا ، بعد أن ترك « آمنة » وولدها وجاريتها فى حمى « بنى النجار » ...

□

ولم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم ، حتى أمسكت بيد غلامها ومضت تطوف بالبيت الذى مرض فيه أبوه ، وتحج الى القبر الذى حوى رفاته ، ثم خلّت بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله ، فانطلقوا به الى ملاعبهم ومغانيهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السباحة مثلهم فى المياه الجارية ، على حين عكفت « آمنة » على قبر الحبيب ، تناجيه حينا ، وتبكيه أحيانا ، وهى على الحالين راضية مستروحة ، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يروى ظمأها ويريح شجوها

وطاب لها العيش هكذا شهرا كاملا ، نفثست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، كما تمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بنى الخال ...

وودت « آمنة » لو طال بها المقام فى « يثرب » ، ولعلها فكرت — كما يقول بودلى — فى أن تبقى بها ، « لولا أن أسرة محمد مكية ، ومكة هى الموطن ، فلا بد من العودة اليها »

ولا يدرى أحد كيف أمضت « آمنة » ليلتها الأخيرة قبل أن تشد رحالها عائدة الى «مكة» ، وأغلب الظن أنها أفنتها فى

مناجاة الحبيب الذى توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى اذا آن لها أن تمضى ، انتزعت نفسها قسرا من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقى ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم ، ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فعرجت على القبر تزور صاحبها للمرة الأخيرة ، وتكلفت الصبر وهى تجامل القوم الذين صحبوها مودعين الى ظاهر المدينة ، ثم أسلمت نفسها الى اشجانها ، والناقة تمضى بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حداء ...

□

واذ هم فى بعض مراحل الطريق بين البلدتين ، هبت ــ فيما يقال ــ عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة أياما ريثما هدأت العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارىء ، مكن له من جسمها ما كانت تجد من لذعة الفراق الجديد

ولم يجزع « محمد » أول الأمر لما بدا على أمه من اعياء ، بل رجا أن تزايلها وعكتها بعد أن همدت العاصفة ، أما « آمنة » فأحست أنه الأجل المحتوم ، وكانت بحيث يشوقها أن تلحق بعبد الله ، لولا فرط تعلقها بولدها الوحيد اليتيم ...

وتشبثت به معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ،

فاخذ الصبى العزيز يجفف دمعهـا بيده الحلوة الناعمة ، مستمرئا لذة الحنان الغامر ، وكان ينسى فى نشوته رهبة الموقف ...

وفجأة ... تراخت ذراعاها عنه ، فحـدق فيها فراعه ان بريق عينيها يوشك أن ينطفىء ، وأن صوتهـا يخفت رويدا رويدا ، حتى يصير الى حشرجة هامسة

هنالك تضرع اليها أن تنظر اليه ، وأن تكلمه ، فيقال انها « نظرت لوجهه وقالت :

بارك فيـك الله من غلام
يا ابن الذى من حومة الحمام
نجا بعـون الملك العلام
فودى غداة الضرب بالسهام
بمئة من ابل سـوام »

ثم أمسكت تستريح ، فلما استردت أنفاسها اللاهثـة همست فى حشرجة الاحتضار :

« كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى . وأنا ميتة وذكرى باق ، فقد تركت خيرا وولدت طهرا .. »

وذاب صوتها فى سكون العدم ، فما تكلمت بعدها أبدا

□

وخيم على الكون صمت رهيب ، مزقتـه بعـد حين ، صرخة صبى مفجوع ، انحنى على جثة أمه فى العراء يناديها فلا تلبى نداء ...

والتفت الى « أم أيمن » يسألها عن سر هذه الحياة التى

انطفأت ، والجسد الذى همد وبرد ، والصوت الذى فنى وذاب ، فضمته المسكينة الى صدرها ، ولم تملك الا أن تقول دون أن تعى :

« انه الموت يا بنى » !

الموت ؟ !

ذاك الذى غال اباه من قبل ؟

ذاك الذى جرع أمه كأس الترمل ، فما طاب لها عيش ولا اندمل فى قلبها الجرح مدى سبع سنوات طوال ؟ !

ذاك الذى يطوى الأعزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ولا لقاء ؟ !

ذاك الذى يمضى بالمسافر الى حيث لا عودة ولا مآب ؟

وتلفت اليتيم حواليه حائرا ، فاذا الكون هامد موحش ، كأنما غشيته غاشية من الخوف والرهبة فى حضرة الموت !

ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فاذا بها واجمة ، ملفعة بزرقة كابية خرساء !

ومد بصره المجهد الى الأفق البعيد ، فاذا قطع ممزقة مشردة من غيوم شاحبة ربداء !

هنالك آب اليتيم الى « أمه » فجلس قريبا منها يحدق فيها صامتا خاشعا ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد الراقد ، وتعصب الوجه الذابل ، وتغمض العينين المنطفئتين

وتبعها مطرقا مستسلما ، وهى تحمل الجثة الى قرية « الأبواء » كيما تجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى اذا أوشك الثرى أن يغيبها ، اندفع وحيدها اليتيم نحوها

فتشبث بها ، يريد أن يستبقيها أو يبقى معها !

وعلا نحيب القوم من اشفاق ورثاء ، وخلوا بينه وبين أمه ساعة أو بعض ساعة ، ثم نحّـــوه عنهـــا فى رفق ، وأضجعوها فى لحدها

وهالوا عليها الرمال ...

... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

ووجمت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى الحزين الذى غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادى الغبطة والتهلل والاشراق ، يعود اليهـــا اليوم وحيـــدا مضاعف اليتم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينيـــه مشهد الموت فى أعز من له ، وبلا المأساة الفـــــادحة التى طالما حدثته أمه عنها ، وهى تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله »

وسوف تذكر « مكة » عودة « محمد » هذه ، يوم يخرج منها بعد نحو نصف قرن ، تحت جنح الظلام ، مهاجرا بدينه الجديد الى « يثرب » فى صحبة شيخ صديق ، وقريش من ورائه تعدو فى أثره وتلح فى طلبه ...

وكذلك سوف تذكر « مكة » عودة الصبى اليتيم هذه ، يوم يرجع اليها من مهجره عام الفتح ، ويدخلهـــــا ظافرا منتصرا ، ليحطم الأصنام التى شوهت جلال الحرم ، ويهتف من أعلى البيت الحرام :

« الله أكبر ! »

فترجع أرجاء الجزيرة هذا الهتاف العالى ، ثم تتجاوب به آفاق الأرض على مر العصور والأجيال

أجل ، وجمت أرباض « مكة » وهى تشـــهد الصبى الحزين يعود اليها وحيدا مضـاعف اليتم ، فتلقـاه جده « عبد المطلب » محزون القلب ممزق الكبد ، وضمه اليـه مسبغا عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على آخر من بنيه وأحفاده ، « ومع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمـة عميقة فى نفسه ، وطالما حدث أصحابه بعد مبعثه عن رحلته تلك الأولى ، حديث محب ليثرب ، محزون لما تحوى القبور من أهله بها .. »

وفى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زار قبر أمه بالأبواء ، فبكى وأبكى ...

وروى عن « عائشة » رضى الله عنها أنها قالت : « حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فمر على قبر أمه وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله عليه وسلم ... »



## الكتاب السابع

# الخالدة

الى هنا ، تنتهى حياة « آمنة » على سطح هذه الارض ؛ وينصرف عنها التاريخ حينا ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين عاما ، فيفسح لهـا أعز مكان فى كتاب الخلود ، كأم للنبى البطل الذى تركته وحيدا يتيما فى بادية الجزيرة بين مكة ويثرب ، فما بلغ مبلغ الرجال حتى اختارته السـمـاء للرسالة العظمى ، وبعثته بالدين الذى يتبعه اليوم ملايين البشر من شتى الأجناس ، فى مشرق الارض ومغربها !

ولقد ثوى الرسول ـ بعـد ان أدى رسالته ـ فى ثرى يثرب ، كما ثوى أبوه من قبل ، وآب الى المصير الذى يثوب اليه كل حى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » ولكنه عاش ملء الحياة فى حساب الانسانية والتاريخ ، وفى قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته ، وستظل الدنيا أبدا تقف خاشعة أمام ذلك البطل الرسول الذى لم يكد يهتف هتافه الخالد : « الله أكبر » « حتى كان النسر الرومانى ـ كما يقول بودلى ـ يترنح ثم يتمرغ فى التراب لآخر مرة » واذا العرب الجفاة البداة الذين لم يكونوا يخـرجون من جزيرتهم الا لرحلتى الشتاء والصيف ، يطأون هذا النسر بالأقدام ، ويرثون عروش الأكاسرة وتيجان الفـراعين ، ويندفعون شرقا حتى يبلغوا بالرسالة المحمـدية أسوار الصين ، وينطلقون بها غربا حتى يصلوا الى ساحة المحيط

الأطلسى فيشيدوا لدينهم دولة اسلامية فى آسبانيا معقل الكاثوليكية المتعصبة ، ثم يغذون السير شمالا حتى يقرعوا ابواب « فيينا » عاصمة أمبراطورية النمسا ، ذات السلطان فى قلب أوربا المسيحية

أجل ، وستظل العقول أبدا حيرى أمام عظمة ذلك الانسان الذى ولدته أمه « آمنة بنت وهب » بشرا سويا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعرف لذع الحزن ومساورة القلق ، ويذوق مرارة اليتم ولوعة الثكل ، ويحب ويتزوج ، ويلد ، ويموت ، شأن كل بشر ، ومع ذلك استطاع أن يصنع تاريخ البشرية كلها منذ مطلع القرن السابع الميلادى ، وأن يقرر مصائر دول عظمى وشعوب عريقة ، ما كانت لتعرف شيئا عن تلك الجزيرة القاحلة الجرداء ، ولا تحس وجودا لأهلها الذين ينتقلون على الابل بين فيافيها المقفرة وصخورها العارية الجرداء ...

وهذا « كيتانى » الذى قضى أكثر عمره فى جوار « الفاتيكان » وحمى « القديس بطرس » يشد رحاله الى الجزيرة العربية فى صدر القرن الرابع عشر الهجرى ، لعله يعرف هناك ، سر خلود ذلك الراعى اليتيم ، وتعلق أتباعه به الى حد لا يعرف التاريخ له مثيلا ...

وهذا مستشرق انجليزى آخر ، يمسك قلمه ليتساءل فى دهشة وعجب ، عن المعجزة التى جعلت من « ابن آمنة » القرشية آكلة القديد ، بطل الأبطال كما وصفه « كارليل » رغم كونه النبى الأوحد بين أنبياء العالم الذى ولد فى ضوء

التاريخ الكامل ، ولم يأت بغير كتاب عربى مبين ، يصر على بشريته ، وينحى عنـــه كل ما حف « بعيسى » قبله من قداسة والوهية .

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبله او بعده ، يغدو سلوكه اليومى ــ كما يقول هوجارت ــ سواء فى الأمور الخطـيرة أو الأمور التافهة ، القانون الذى يرعاه الملايين من اتباعه بكل دقة ، ويقلدونه عن يقين حتى ايامنا هذه ؟

« كلا ، ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد ، فى اية طائفة من طوائف الجنس البشرى ، المثل الكامل للانسان ، فقلدت أفعاله بتمام الدقة ، كما حدث لمحمـــد بن عبد الله ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » كما تضع كل أنثى من البشر ، فى فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به الى قبر أبيه بيثرب ، ثم خلفته وحيدا فى الطريق الى مكة !

□

ولم تدر « بركة » وهى تودع الجسد الطاهر تلك الحفرة النائية فى جوف الصحراء ، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكرا عريضا ممدودا يقهر الزمن ويغلب الفناء ، ولا أحست وهى تبكى سيدتهـا فى ذاك القفر الموحش ، أن قوما ممن آمنوا بابن السيدة « آمنة » ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخيل اليهم أن الجن تنوح عليها منشدة :

نبكى الفتاة البرة الأمينة

ذات الجمال ، العفة الرزينة

زوجة عبد الله والقرينــة
أم نبى الله ذى السكينــة
لو فوديت لفوديت ثمينة
وللمنـــايا شفرة سنينة
لا تبقين ظاعنا ولا ظعينــة
الا أتت،وقطعت وتينه ..

□

سلام على « آمنة » سيدة الأمهات ، وأم النبى المبعوث بآخر رسالات السماء !

**بنت الشاطىء**
**( من الأمناء )**



# فهرس

صفحة

# كتاب الهلال

## سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هي خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، في اخراج أنيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما ( ماعدا كتاب زينب ١٠٠ مليم ) بخلاف مصاريف البريد المسجل ، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

عبقرية محمد ( نفدت نسخه )
تأليف عباس محمود العقاد

السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

هرون الرشيد
تأليف الدكتور احمد أمين

زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

أبو الشهداء
تأليف عباس محمود العقاد

الزعيم أحمد عرابى (نفدت نسخه)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

جنكيز خان سفاح الشعوب
تأليف ف . يان

بطلة كربلاء ( نفدت نسخه )
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

قلب النسر
تأليف أوكتاف أوبرى

اشعب أمير الطفيليين
تأليف توفيق الحكيم

نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

حديث رمضان
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ.س. ارمسترونج

مذكرات عرابى ( جزء أول )
تأليف الزعيم أحمد عرابى

كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

مذكرات عرابى ( جزء ثان )
تأليف الزعيم أحمد عرابى

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

**الكتاب القادم**

# فاطمة الزهراء والفاطميون

تأليف الاستاذ

**عباس محمود العقاد**

# هذا الكتاب

شاءت «سلسلة كتاب الهلال» أن تقدم لقرائها في مناسبة شعبان وموسمه الديني ترجمة لأول سيدة أنجبت أعظم رجل في تاريخ الاسلام ·· وهي السيدة آمنة بنت وهب

وقد كانت في حياتها مثلا عظيما في رجاحة العقل ، وشرف النسب ، والجمال الأنثوي ، والصبر على الشدائد ، وقد عرفت بالنبل والطهر والخلق الكريم

واذا كانت حياة آمنة بنت وهب قصيرة ، فانها في قيمتها وفي العصر الذي عاشت فيه، وفيما أحدثت بعدها من أحداث خالدة وتاريخ عظيم ، تعد حياة عظيمة ، وتعتبر ترجمتها من أهم التراجم ، وأولاها بالعناية والبحث

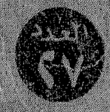
وقد عنيت السيدة الفاضلة الدكتورة بنت الشاطيء بحياة هذه السيدة الجليلة ،فوضعت لها هذه الترجمة الوافية التي تناولت نشأتها ونسبها وزواجها بعبد الله ووفاته عنها · ثم حياتها بعد وفاته وولادتها للنبي محمد ، وما شهدت من أحداث في حياتها قبل الزواج وبعده ، حتى لحقت بزوجها خالدة في الخالدين

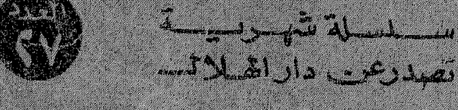
كتاب الهلال

# فاطمة الزهراء والفاطميون

تأليف

عباس محمود العقاد





سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

**العدد ٢٧ — رمضان ١٣٧٢ — يونيه ١٩٥٣**

**No. 27 — June 1953**

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
( المبتديان سابقا ) القاهرة

**المكاتبات**

كتاب الهلال — بوستة مصر العمومية — مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشـــتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) — مصر والسودان ٨٥ قرشاصاغا— سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا — الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ — فى الامريكتين ٥ دولارات — فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

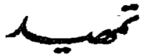
# كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

# فاطمة الزهراء والفاطميون

تأليف

عباس محمود العقاد



# تمهيد

ترد الاشارة الى الوراثة فى مواضع شتى من هـــذه الصفحات التالية ، ونعول عليها فى مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار • ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية .

وأرانى أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة فى كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصـــفحات فى الموضوعات الاسلامية وما اتصـــل منها بالعترة النبوية على التخصيص ، ومن أمثالنا فى الصعيد الأعلى ما معنـــاه ان البيت اذا احتاج الى الخبز فهو أولى به من الجامع

ولدت لأبوين من أهل السنة : أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة ، وفتحت عينى على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصـــبح حاضرة ، وربما زارنا أحد أخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهبا الى المسجد القريب أو عائدا منه الى داره

وفتحت أذنى كما فتحت عينى على عبارات الحب الشديد للنبى عليه السلام وآله ، فمولد النبى حفلة ســـنوية فى البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون

بالخدمة فيها . وأسماء النبى وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء اخوتى أجمعين : محمد وابراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس ، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب الى عم النبى لا الى الأمير الأسبق : عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى . لأننى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب « حلمى » جريا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة ، وبقيت منسوبا الى اسم « محمود» وهو كذلك من أسماء النبى ، ولم يكن لأبى اخوة ، وانما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة واسمزينب، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة الشريفة

ورثت هذا الحب الشديد للنبى وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة لأنهم يدينون بدستور السنة النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية ، فاستفدت منه كثيرا فى دراسة تاريخ الاسلام ..

استفدت منه اننى كنت شديد التريث فى سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القديمة التى كانت تقوم على انكار حق أو انكار فضل أو انكار نسب أو انكار ما من ضروب الانكار التى تمس تواريخ أهل البيت النبوى من بعيد أو قريب

ولم استفد منه بحمد الله كراهية أحد ذى حق أو ذى فضل ، لأن قداسة العظمة الانسانية تحجب عندى جميع

هذه الصغائر التى تمس تواريخ العظماء أجمعين ، وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتى البـــاكرة عصمتنى بحمد الله من غوائل هذا الصغار

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى اننى لم أصدق ما كان فى حكم الواقع المقرر عن سياسة الامام ، وانه لم يكن له من السياسة نصيب ، فبحثتها بحث الاشاعات ولم أعطهـا من بادىء الرأى شأنا أكبر من الاشاعات التى تسرى عـلى الأفواه بغير دليل ، أو يجيئها الدليل المختلق من صـــنع أصحاب المنافع والمآرب فى سياسة الحاكم الغالب ، فهـم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى اننى قاربت سيرالعظماء الاسلاميين و « النبويين » لأرضى ذهنى ، ولم يقنعنى أن أرضى بها عاطفـةً لا أستمد من ذهنى شواهدها وآياتها ، فعظماء الاسلام عندى أعلام انسانية باذخة تخولهـــا مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ، وليســت غاية الأمر فيهم انهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام

وبهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام فى حيــــاة الزهراء ، فانها ـ سلام الله عليها ـ قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد ، أو تكتب لها ترجمة لانها زوج على ، أو تكتبلها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنيهما الشهداء، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمـــة لأنها هى فاطمة ، ولانها هى مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الاسلام الىالزمن الأخير

وهذا الذى قصدت اليه بكتابة هذه السيرة ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين الى فاطمة ، وعلى قلة الأخبار التى حفظت عن شخص فاطمة عليها السلام أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكننى أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها

ونعود الى الوراثة فنقول : ان أول ما نضيفه الى بيان قوة اليقين ، أو بيان القوة الايمانية فى نفس الزهراء، انها ورثتها من أم وأب ، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث ، ولكنه اذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت اصالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هى ، وفيما تورثه الأعقاب من بعدها ، وما أخلده من ميراث



# القسم الأول

# فاطمة الزهراء

* أم الزهراء
* نشأتها ...
* زواجها ...
* بلاغتها ...
* فى الحياة العامة
* شخصية الزهراء
* الذرية الفاطمية

# أم الزهراء

حفظ التاريخ لنا قليلا من أخبار السيدة خديجة ـ أم الزهراء ـ رضى الله عنهما ، ولكن هذا القليل كاف للتعريف بها وبما يمكن أن تورثه بنيها من الخلائق والسجايا، لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدها الافاضة فى الاخبار الا فى التفصيل

ومن جملة الاخبار القليلة التى حفظت لنا نعلم أن الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة ، وانها رضى الله عنها كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية : عاطفة المحبة الزوجية ، وعاطفة الأمومة ، وعاطفة الايمان

كانت تسمى فى الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش، لانها جمعت الى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة ، وأهلها جميعا لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم الا كان علما فى الحكمة والدراية أو فى الشجاعة والشمم، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر فى الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهى نسبه الى لؤى بن غالب بن فهر، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك الى هذا النسب

المعرق فى النبل والسيادة ، فهى فاطمـــة بنت هالة التى ينتهى نسبها كذلك الى لؤى بن غالب ، وهالة بنت قلابة التى ينتهى نسبها الى ذلك الجد الأعلى ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم ، فكانت قافلتها الى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام

وأهم من هذا جميعه بالنســبة الى زوجة نبى والى جدة الأئمة من بيت النبوة انها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية

فأبوها خويلد هو الذى نازع تبّعا الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الاسود معه الى اليمن ، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك من مناسك دينه ، وقال السهيلى فى الروض الأنف : « ان تبعا روع فى منامه ترويعـــا شديدا حتى ترك ذلك وانصرف عنه » فلا يبعد أن روعة خويلد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الالهى اذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات فى منامه ما أرهبه وثناه عن عزمه

□

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت اليه حين بدا لها من اضطراب النبى عليه الســـلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها ، فركبت الى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها . اذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم الى كاهن أو كنيسة،

وانما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى اليه الشك فى عبادة الأصنام وتجنح به الى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى الى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، وينسب اليه شعر كان يقوله فى الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبى الصلت ، ويروى كتّاب السيرة انه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لهـا : « انه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وان الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ولا أن يتسمى باسمه .. »

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة ، لا يعنينا أن نستقصيها . لأن المهم فى الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين ، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للابانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة من كان منهم على الجاهلية ، ومن تحول عنها الى النصرانية

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى انها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والاسرائيلية ، لانها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان

وقد روى عنها كلام قالته للنبى عليه السلام حين فاجأه الوحى فعاد اليها ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسى ! » فكان كلامها الذى أرادت أن تسرى به عنه وتثبت به جنانه آية على العلم بلباب الدين علما يستكثر على الناشئين فى أديان الجاهلية ، فان الدين لا يعدو أن يكون عندهم كهانة

وسحرا ، ولكنها أدركت من حقيقة الدين ما لا يدركه عامة قومها ، فعلمت انه فضيلة وان النبى الجدير أن يندب له هو الرجل الذى اتسم بالفضيلة ، وقالت للنبى وقد آمنت انه وحى وليس بعارض من عوارض الجنة : « كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة »

علامات للنبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين ، ولولا انها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتها لتصـــديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم

وهى على هذا طبيعة مميزة وليست طبيعة منساقة الى السماع والتقليد ، فمما نقل عنها انها طلبت الى النبى عليه السلام أن يخبرها اذا جاءه جبريل ، فلما أخبرها قالت له: « قم فاجلس على فخذى اليسرى » ففعل ، فقالت : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فتحول الى فخـــذى اليمنى » وسألته : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . فألقت خمارها وسألته ، فقـــال : « الآن لا أراه ... » قالت : « يا ابن العم اثبت وأبشر ، فانه ملك وما هو بشيطان »

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحى . ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم فى العصر الحاضر ، فان البديهة لا تشـــتغل بالوحى الدينى والنظر الى جسد الأنثى فى وقت واحد ، ولا سيما بعد الحوار واعادة السؤال مرة بعـــد مرة ، فلا

موجب اذن لشك المتشككين من المتحذلقين في صحة هـذه الأحاديث

□

وقد رزقت هذه السيدةالبارة صباحة الوجهمع ما رزقته من الخلق الجميل والحسب الأثيل والمال الجزيل ،وصدق من قال ان السعادة لا تتم ، فان هذه السيدة التى تم لها غاية ما تتمناه المرأة لمتتم لها نعمة السعادة فيحياتها الزوجية، فانها تزوجت في صباها برجل من هامات مكة هو أبو هالة ابن زرارة فمات ولها منه ولد صغير سمى باسم هنـــد ( لعله دفعا لأذى الحسد ) وهو الذى تربى مع الســـيدة فاطمة وقتل في جيش الامام في وقعة الجمـــل على أرجح الأقوال ، ويؤثر عنه أوفى وصف للنبى رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي،واختلفوا في أى زوجيها كان الأول ولكنه على كل حال زواج لميكتب له الدوام ، وقد أعرضت عن الزواج بعـد هذين الزوجين حتى عرض لها في حياتها الرجل الذى أصبحت بفضـــله علما من أعلام النساء في التاريخ ، ولا شيء أدل على رجاحة لبها من أناتها في اختيار زوجها ، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر اليها فيما تختار

أما كيف اتصل النبي عليه السلام بالعمل في تجارتها فتكاد الأقوالتتفق على انه كانبمشورة منعمه أبى طالب، وان أبا طالب قال له في سنة من السنين : « يا ابن أخى ·

أنا رجل لا مال لى وقد اشتد علينا الزمان ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت اليك» • وقد تردد النبى فى مفاتحتها بهذا الطلب فذهب اليها أبو طالب ، فأجابته على رضى وكرامة ، وقالت له : « لو سألت ذلك لبعيد بغيض لاجبناك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟ »

وقد سافر النبى الى الشام وباع واشترى وربح لهـا أضعاف ما كانت تربح فى كل عام ، وأعجبها منه انه حين عاد من السفر وكل الى غلامهـا ميسرة الذى كان بصحبته أن يسبقه ليبشرها بعودة القافلة ووفرة كسبها ، فأكبرت منه مروءته وأمانته وحذقه ، وأحبته وودت لو يخطبها مع الخطاب ، وعرّضت له بذلك فى حديث أقرب الى التلميح منه الى التصريح

وأحجم النبى حياء وأحجمت هى عن التصريح، ثم أوعزت الى صديقة لها ــ هى نفيسة بنت منية ــ أن تشجعه على الخطبة ، فسألته نفيسة ذات يوم : « ما يمنعك أن تتزوج؟» قال : « قلة المال » • قالت : « فان كفيت ودعيت الى المال والجمـال والكفـاءة ؟ » قال : « ومن تكون ؟ » قالت « خديجة ! » قال : « فاذهبى فاخطبيها »

وروى الزهرى صاحب أقدم السير ان « رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذى كان يتجـر معه فى مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشئة ــ هى

الكاهنة ـ فقالت له : جئت خاطبا يا محمد ؟ فقال :كلا • فقالت: ولم ؟ فوالله ما فيقريش امرأة ــوان كانتخديجةـ الا تراك كفؤا لها ••• »

وأشبه الأشياء بأنيكونـ بينالروايات المتعددةـانالنبى عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزة قوم ، وقال وهو يفاتح عمها فى الأمر: «•• انمحمدا ممن لايوازن به فتىمن قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك » فقال عمها عمرو ، أو ابن عمها ورقة بن نوفل فى رواية أخرى : « هو الفحل الذى لا يقدع أنفه » • وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها فى حياتها الى أن قارب الخمسين

□

ومن خديجة ولد للنبى جميع أبنائه ما عدا ابراهيم ابنه من مارية القبطية ، وهم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أصغرهم باتفاق معظم الاقوال

وكان النبى عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول انها كانت فى الاربعين أو فى الخامسة والاربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : « انها كانت فى الثامنة والعشرين ولم تجاوزها » • وأحرى بهذهالرواية

أن تكون أقرب الروايات الى الصحة · لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمـــرها ، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرةالعرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الاربعـين ، ولا يعهد فى الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد ، عدا من جاء فى بعض الروايات انهم ولدوا مع من ذكرنا أسماءهم

وقد يرجّح تقـدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج فى نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالهـــا وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها،فلا تتجاوز الخامسةوالعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وان كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبى هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتهـا منهمـــا يبدو أن أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام

□

« عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ·· »

وأمامنا ألف مصداق على هذه الآية فى سيرة الرسول العظيم الذى تنزلت عليه تلك الحكمة الالهية

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافا لما جرى عليه العرف بين علية القوم ، وهو من تلك العلية فى الذؤابة العليا

ولقد عزت الهناءة الزوجية على السيدة الغنية الوضيئة الذكية ، فتأيمت فى نحو الثلاثين

ولو كثر مال محمد لعله كان يبنى قبل العشرين بكريمة

معشر تصغره ببضع سنين ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل انسان عاقل رشيد

ولو تيسرت الهناءة الزوجية لخديجة لعلها كانت فيغنى عمن يتجر لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشـــام ، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون في الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل انســــان عاقل رشيد

أيهما كان خيرا ؟..

هذا الذى كان كما كان ، أو ذاك الذى كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد ؟ !

لم تمض سنوات على هذه الآصرة القدسية التى جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارىء لم يدخل لهما فى حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفـــزت لأداء الأمانة الجلى التى جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين

فلم يجد محمد الى جانبه فتـــاة غريرة تفزع ولا تدرى ما تصنع ، بل وجد الى جانبه قلبا كريما وروحا عظيمـــا وسكنا تهدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن اليه خشـــية فؤاده ، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلتـــه التى سكن اليها انها حنكة الســـن وحنان الأمومة ، ولكنه أمان الذى يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرســـالة وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على العرواء التى تندك لهـــا عزائم وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة الا من هو كفؤ لها من بنى آدم وحواء

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش ، ولكن هذا القليل الذى علمناه لو ذهب كله ولم يبـــق منه الا أيام حضانتها لبشائر النبوة فى طلعتها ـ لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه ، وظل يتفقدها ويتفقد مواطن ذكراها أعواما بعـد أعوام ، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصـــعب الأيام ، وان وفاء كهذا لهو وحده كفاية المســـتقصى فى التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لانسانة هى أصدق من دوام الوفاء لها فى قلب انســـان عظيم



# نشأتها

اذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغنى عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة

درجت فى دار أبويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمع بوادره فى غير تلك الدار ، وغار حراء

أمر جلل لا تقف جلالته عند جدران الدار ، ولا عند أبواب المدينة التى اشتملت عليها ، ولا عند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها ، بل هو الأمر الجلل الذى يطبق العالم بأسره عصورا وراء عصور ، لأنه هو أمر الدعوة الاسلامية التى كانت يومئذ تختلج فى صدر واحد ، هو صدر أبى الزهراء عليه السلام

ما هذه الصلوات والتسبيحات ؟ ما هذه الهينمة بين الأبوين ؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئا من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر الا اذا رأى ما يخالفه ، وهى لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات

أكبر الظن ان الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئا مما كان يحيط بها وهى تدرج من مهدها ، ولكن الطفل الذى

يحسب هذه المشاهد من مألوفاته ينفرد بمألوفات لا تتكرر من حوله ، ويتخـــذ له قياسا للألفة والغرابة منفردا بين أقيسة النفوس

وأكبر الظن انه ينشأ منطويا على نفسه ، مستخفا بما يخف له الناس من حوله ، متطلبا من عادات النفـــوس وطبائعها غير ما يتطلبون

ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد فى دار أبويها ، لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنها ، وغير أخيها هند ، وهو أكبر منها ومن أختها ، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان

وأوشكت عزلة الطفل الوحيد أن تكبر معها ، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات أخوتها الكبار الا ما يحزن ويشغل: ماتوا صغارا وخلفوا فى نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبرا مريرا ، أو تزوج من الأخوات الأحياء من تزوج وخطب من خطب ، ثم لم تلبث الخطبة أن ردت الى أختـــين ، لأنهما خطبتا الى ولدى أبى لهب ، ثم أصبح أبو لهب عدوا للابوين يمقتهما ويمقتانه ، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء

جد من كل جانب تركن اليه ، وانطـــواء على النفس لا تستغربه ولا تحب أن تتبدله، وملاذها فى كل هذا حنان أبوين لا كالآباء : حنان جاد رصين ، ونكاد نقـــول : بل حنان صابر حزين ، يشملها به الأب الذى مات أبنـــاؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذى تأهب له زمنا ونهض به زمنا ولا يزال يعانى من حمله ما تنوء به الجبال،

وتشملها به الأم التي جاوزت الأربعين وبقيت لهـا في خدرها هذه البنية الدارجة صغرى ذريتها ، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبين كبيرين : حنان أحرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق

وتعلمت الزهراء في دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها في مكة : آيات من القرآن وعادات يأباها من حولهم العابدون وغير العابدين

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات في حاضرة الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك انها كانت تضمد جراح أبيها في غزوة أحد ، وانها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها عليه أحد من النساء في أكثر أيامها

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتها، ولم تتحدث قط في غير ما تسأل عنه أو يلجئها اليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك في عمل ولا في مقال

وسواء صح ما جاء في الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذي لا مراجعة فيه انها سمعت القرآن الكريم من النبي وسمعته من علي ، وانها صلت به ووعت أحكام فرائضه ، وانها وعت كل ما وعته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب ، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعرقات

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف : نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع السنين انها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هـــــذا الشرف الذى لا يدانى ، وشبت بين انطوائها على نفســـها واكتفائها بشرفها كأنها فى عزلة بين أبناء آدم وحواء

سكنت هذه النفس القوية جثمانا يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضعيف، فانهما مزيج متعب للنفس والجسم معا ، لا قوام له بغــير راحة واحدة : هى راحة الايمان ، وهذا هو التوفيق الاكبر فى نشأة الزهراء ، فانها نشأت فى مهد الايمان اذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها



# زواجها

قال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية : «ان عبدالله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبي فقال هشام لعبد الله : يا أبا محمد ! كم بلغت فاطمة من السن ؟ قال : ثلاثين سنة ، فقال الكلبي : خمسا وثلاثين · فقال هشام : اسمع ما يقول ، وقد عنى بهذا الشأن · فقال : يا أمير المؤمنين : سلني عن أمي وسل الكلبي عن أمه »

وتوافق هذه الرواية روايات متعددة ، اتفقت على أن الزهراء ولدت في سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات ، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة انها عليها السلام قد تزوجت وهي في نحو الثامنة عشرة

ومن جملة الأخبار يتضح ان النبي عليه السلام كان يبقيها لعلي رضي اللهعنه · فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما : انتظر بها القضاء ، أو قال انها صغيرة كما جاء في سنن النسائي

وفي أسد الغابة انها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر : « انت لها يا علي ! » فقال علي: « ما لي من شيء الا درعي أرهنها » فزوجه رسول الله فاطمة ، فلما

بلغ ذلك فاطمة بكت ، ثم دخل عليها رسول الله فقال : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

وفي رواية ان عليا لما سأله النبي : « هل عندك من شيء ؟ » قال : « كلا » . فقال له : « وأين درعك الحطمية؟» أى التى تحطم السيوف ، وكان النبى قد أهداه اياها ، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع له منها أربعمائة درهم

جاء فى أنساب الاشراف للبلاذرى : « فباع بعيرا له ومتاعا فبلغ من ذلك أربعمائة وثمانين درهما ويقال أربعمائة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها فى الطيب وثلثها فى المتاع ففعل .. »

ثم استطرد صاحب الانساب الى رواية أخرى يرتفع سندها الى على نفسه قال : « سمعت عليا عليه السلام يقول : « أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فقلت : والله ما لى شيء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه » فقال : « وهل عندك من شيء ؟ » قلت : «لا» قال : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ فقلت : هى عندى ! قال : فاعطها اياها »

وفى طبقات ابن سعد ان رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة : « هى لك يا على ! لست بدجال » يعنى لست بكذاب . وذلك انه كان وعد عليا بها قبل أن يخطبها

ويروى عن النبى أنه قال لفاطمة : « ما ألئيت أن أزوجك خير أهلى »

وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من أدم (اناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان

وعن أنس بن مالك ان النبى قال له : انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار، قال فانطلقت فدعوتهم ، فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم. ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لا حقا وأمرا مفترضا وحكما عادلا وخيرا جامعا ، أوشج بها الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل : وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ، وأمر الله يجرى الى قضائه ، وقضاؤه يجرى الى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم ان الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم انى زوجت فاطمة من علىّ على أربعمائة مثقال فضة ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

قال أنس : « وكان على عليه السلام غائبا فى حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها . ثم أمر

لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال : انتهبـــوا •
فبينما نحن كذلك اذ أقبل على فتبسم اليه رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقال : يا على ! ان الله أمرنى أن أزوجك
فاطمة ، وانى زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة ، فقـال
على : رضيت يا رسول الله ! ثم ان عليا خر ساجدا شكرا
لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليـــه وسلم :
بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير
الطيب »

قال أنس : « والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب »

ومن المرجح جدا أن الزهراء قد استشيرت فى زواجها
على عادة النبى عليه السلام فى تزويج كل بنت من بناته
كما جاء فى مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ،
فان سكتت أمضى الزواج، وان نقرت الستر علم انها تأباه،
وفى زواج الزهراء قال لها : يا فاطمة ! ان عليا يذكرك •
فسكتت ، وفى روايات أخرى انه وجدها باكيـــة ، فذاك
حيث قال رسول الله : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد
أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذى تم فيه الزواج،
ولكنهم قالوا انه كان بعد الهجرة وبعد غزوة بدر ، وأرجح
الأقوال كما قدمنا انها كانت فى نحو الثامنـــــة عشرة ،
وزوجها أكبر منها ببضع سنوات

□

توخينا فى اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط

الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين ، فما من خبر من هذه الاخبار وصل الينا فى كتب السيرة على رواية واحدة ، وقد يبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالزمن خمس سنوات أو أكثر ، ويبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالأقوال والاعمال أن تتناقض مناقضة القبول والاباء والرضى والانكار ، فلا مناص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال

ونحن نعنى بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قائما على المقابلة والموازنة والرجوع الى حوادث الزمن وعادات أهله ، والى الأحرى أن يصدر ممن أسند اليهم القول أو نسب اليهم العمل ، فان الاخبار اذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه

فمن المعقول مثلا أن يؤثر النبى عليا بفاطمة وهما ربيبان فى بيئة واحدة ، ومن المعقول أن يؤثر زواجها من على عليّ مشاركتها فى بيت أبى بكر وعمر لزوجات الشيخين، ومن المعقول أن يتردد عليّ فى خطبتها لفقره • ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد، لشعوره بأنه مخصوص بها وانه ينبغى عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده ما لا بد له من عمله ، ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك أن يتأخر الزواج الى ما بعد الهجرة ، لأن حياة المسلمين فى مكة ـ قبل الهجرة الى المدينة ـ لم تكن حياة أمن ولا استقرار ، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم الى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة ، فمن كان متزوجا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له فى

الزواج ، ومن لم يكن فليس أخلق به من ارجاء الزواج الى حين

ذلك كله هو المعقول المألوف ، وهو الأوسط الأمثل اذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح

الا أن التاريخ يكتب للاعتبار ، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر الى الحوادث والنـــــاس ، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز .

وها هنا محل لعبرتين كأهم العبر فى كتابة التاريخ : كتابته فى الأزمنة الغابرة ، وكتابته فى الزمن الحديث

فأهم العبر التى تستخلص من تواريخ عصر البعثـــة المحمدية أن يقتصد ذوو الأحكام التاريخية فى المســـائل الكبرى فلا يرتبوا حكما قاطعا فى مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات ، فما كان من الأخبار مجمعا عليه أو مقاربا للاجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه ، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات ، أو فرض تقابله فروض ، أو رقم ويوم تقابله أرقام وأيام بل أعوام، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجزم واليقين ، وبخاصة حين ينبنى عليه اتهام أو قضاء لا يقوم فى مسائل كل يوم بغير بينة تنفى كل شبهة وتبطل كل محال

أما العبرة فى تاريخنا العصرى فمرجعها الى كتابة طائفة من العصريين يزعمون انهم يطبقون علم العصر على تاريخنا القديم وانهم يصححونه بهذا التطبيق ، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى ، لانهم أثبتوا فيما كتبـــوه انهم

يزنون بميزانين وينظرون بعينين ، ويختلقون أسباب التشويه والتحريف

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير

فمن هؤلاء من يطالع فى الكتب الدينية التى يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أمورا لا شك فى أنها من العيوب فلا يحسبها عيوبا ، ولا يتأفف منها ، بل يعنت فكره ويعنتها تخريجا وتعويجا حتى يقبلها ! ويفرض قبولها على الناس

فاذا طالع كتبا عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزيين ، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحاسن الى عيوب ، أو بالتنقيب فى كل مكان عما يعاب ان لم يجد ما يعيبه فى ظاهر السطور والحروف

وما من شيء يمسخ الدين ويمسخ العلم معا كما يمسخهما هذا الخلق الذميم ، فان الدين لا يعلّم الانسان شيئا ان لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل والافتراء ، وان العلم شر من الجهل ان كان يسوم الانسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع ، فليس هذا جهلا يزول بكشف الحقيقة ، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهى مكشوفة لديه ، فهو شر من الجهل بلا مراء

وفى تاريخ الزهراء مثال للعبرة التى تستخلص من كتب هؤلاء « العلماء » الذين هم شر من الجهلاء ، وأحدهم قد خصص كتابا لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن « يطبق»

ذلك العلم العصرى المقلوب ، فاذا هو منقلب عليه

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشـوا زمنا فى الشرق ـ كتابا عن الزهراء ليرضى فيه ذلك «العلم العصرى » المقلوب ، ويبحث عن العيوب حيث لا عيوب ، فاذا العيب هو فى الاسفاف ، وكم فى الاسفاف من عيوب، بل من ذنوب

ومن تفاهاته وسفاسفه انه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبـــل الثامنة عشرة لانها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق أن أحدا يخطبها بعد تلك السن ، ثم يقول انها لما عرض عليها النبى الزواج من على سكتت هنيهة ، ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها خاطب ، ثم تكلمت فشكت ، لأنها تزوج من رجل فقير ..!

لو كان السند الذى استند اليه هذا « العالم » واضحا ملزما لقلنا انها أمانة العلم ولا حيلة للعـــــالم فى الأمانة العلمية

لكن السند كله قائم على ان السيدة فاطمة تزوجت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وتقابله اسناد أخرى تنقضـــه وتتراءى للمؤلف حيثما نظر حـــوله ، ولكنه لا يحب أن يراها ، لأنه يحب أن يرى ما يعيـــب ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمـــة ولدت لأبوين جميلين ، وان أخواتها تزوجن من ذوى غنى وجاه ، كأبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان

وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال ، وأن تحرمه احدى البنات

والمشهور المتواتر ان السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية في ابانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن ، والحال قد تبدلت بعد الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين ، وهؤلاء المسلمون قلة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج ، فلا حاجة بالمؤلف الى البحث الطويل ليهتدى الى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبي الى الثامنة عشرة ، ولو كانت أجمل الجميلات

وفى وسعه كذلك أن يتصور ان النبي يخص بها ابن عمه ، وينتظر بها يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لا يزالون على دين الجاهلية ، فلا هم فى ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه

كل ذلك قريب كان فى وسع « العالم المحقق » أن يراه تحت عينيه ، قبل أن يذهب الى العلة التى اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال ... ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت اليها لانها لا تعيب ، والسبب الخفى البعيد تشوبه غضاضة ، فهو الجدير اذن بالالتفات

وكأنما كان « العالم المحقق » فى حاجة الى جهالة فوق جهالته فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة انه شكاية من فقر على بن أبى طالب ، ويسند هذا الفهم الى رواية البلاذرى فى أنساب الاشراف ، بعد زعمه ان فاطمة أبلغت زواجها

بعلى فسكتت من الدهشة لا من الخجل ، وانما دهشت لانها لم تكد تصدق ان أحدا يخطبها بعد أن قاربت العشرين

أفمن المألوف أو من التطبيق العلمى أن تكون الفتاة يائسة من الزواج ، مدهوشة من خطبة الخطيب ، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظم نفسها على بنى عمومتها الفقراء ، وليست هى يومئذ من الأغنياء ؟

كلا ! ليس ذلك بالمألوف ولا بالتطبيق العلمى ، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى انه يشتمل على مساس بفاطمة وعلى ... فهو اذن أحق بالترجيح من كل تقدير مألوف

والبلاذرى ـ بعد ـ لم يذكر شيئا من هذا وليس فى كلامه عن مناقب على أو فاطمة شىء من قبيل الجواب الذى ينسب الى الزهراء غير روايته الحديث بسنده وهو :
« حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبى اسحاق عن حبشى بن جنادة قال : لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة أرتدت فقال : اسكتى ! فقد زوجتك سيدا فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين »

وهذا ما وجدناه فى النسخة المنقولة من مخطوطة الآستانة ، ومن الأجزاء المطبوعة فى أوربة ، فتفسير « الرعدة » بذلك المعنى أنما هو من ابداع المؤلف الحصيف!

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه ، نمر به لعبرته النافعة فى وزن التواريخ العصرية المزعومة ، ولا ننبه اليه لقول قائل ان السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال.. فانه لو صح لما كانت فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الأبوات كما شرفها أكرم البنوات ، ولكننا ننبه اليه لأنه عبرة المعتبرين

فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الاهواء ، فيفترى على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم ، ويعافه أدب الدين

ونعود الى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول ، فنقول اننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات فى آل محمد وآل على فلم نجد فى عصر النبوة غير خبر واحد من قبيل الخبر الذى قيل فيه ان السيدة فاطمة أشارت الى فقر على حين بلغت خطبته لها ، وهو تزويج السيدة أم كلثوم

وبين الخبرين مع هذا بون بعيد

جاء فى أسد الغابة عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب انه قال : « لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخواها فقالا : « انك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وانك والله ان أمكنت عليا من رمتك لينكحنك بعض أيتامه ، وان أردت أن تصيبى بنفسك مالا عظيما لتصيبنه» ، فوالله ما قاما حتى طلع على يتكىء على عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال : قد عرفتم منزلتكم عندى يا بنى فاطمة وأثرتكم على سائر ولدى لمكانكم من رسول الله عز وجل ، فقالوا : صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيرا • فقال : أى بنية ! ان الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك، فأنا أحب أن تجعليه بيدى • فقالت : اى أبه ! انى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد أن أنظر فى أمر

نفسى • فقال : لا والله يا بنية ! ما هذا من رأيك • ما هو الا رأى هذين •! ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلا منهما أو تفعلين ، فأخذا بثيابه فقالا : اجلس يا أبة ، فوالله ما على هجرتك من صبر • اجعلى أمرك بيده • فقالت : قد فعلت! قال : فانى قد زوجتك من عون بن جعفر ، وانه لغلام ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم »

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذى يختاره أبوهم ـ تنتهى بطاعة الحب للأب الذى لا يصبر على غضبه وتدل فى سرها وعلانيتها على أجمل ما يكون بين الأخوة والآباء من عطف وتوقير ، وليس فيها من الشبه برواية البلاذرى غير اشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة ، وشتان مقال أم كلثوم وما رواه الرواة عن أمها البتول

فاذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الاشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابة ، لأننا لا نتخيل فتاة فى مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها والطافها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من الأم ومن البيت الذى لزمتها فيه ومن البلد الذى يحتويه ، فان جهدنا أن نتخيل فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ومعيشتها فى غير كنفه ، فموضع الغرابة أن نتخيلها

بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة علىمزاج حزين وأسى دفينعلى أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين

ومثل النبى الذى كانت كبرى فضائله انه انسان عظيم، وانه كان أبا مكلوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر فى ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه الا عامدا عالما بما يلعجه فى النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أنيتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التى أطالت بقاء فاطمة فى بيت أبيها ، فانه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب اليها فقال لها : انى أريد أن أحولك الىّ • فقالت : فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى • قال رسول الله : قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحييت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبى فقال : يا رسول الله ! انه بلغنى انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلى ، وهى أسقب بيوت بنى النجار بك ، وانما أنا ومالى لله ولرسوله • والله يا رسول الله للمال الذى تأخذ منىأحب الى من الذى تدع• فقال رسول الله: صدقت • بارك اللهعليك ! فحولها رسول الله الى بيت حارثة

جاء فى كتاب السمهودى عن أخبار دار المصطفى : « ان

بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر بينه وبين بيت النبى صلى الله عليه وسلم خوخة ... وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضى الله عنها، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة فعلم خبرهم ، وان فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى ان ابنى أمسيا عليلين فلو نظرت لنا أدما نستصبح به ! فخرج على الى السوق فاشترى لهم أدما وجاء به الى فاطمة ، فاستصبحت ... فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل - وذكر كلاما وقع بينهما - فلما أصبحوا سألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها »

الى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده : « انه صلى الله عليه وسلم كان يأتى باب على وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضادتى الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت ، ويقول : الصلاة ! ثلاث مرات ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ... وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتى بيوت نسائه

« وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سفر وصنعت فاطمة مسكتين من ورق ( بكسر الراء ) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ،

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب في وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة انه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر ، فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا في سبيل الله . فلما أتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء »

□

وانتظمت الحياة في السكن الجديد الذى أوى الى ظل النبى على مثال من حياة النبى في بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، اذ كان رزق على من وظيفة الجندى ، ووظيفته من فيء الجهاد ، وقد كان قليلا في حياة النبى وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق وليدا جاءته حصته على قدر ، شأنه كشأن كل أب من المسلمين

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية ، وقد رزق الأبوان الفقيران نصيبا صالحا من البنين والبنات : الحسن والحسين ومحسن ، وزينب وأم كلثوم

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذى كان يواليهم به جميعا ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام

فى محتدم الدعوة والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها فى تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخا محفوظا فى الصدور والأوراق

فلما ولد الحسن سماه والداه حربا فجاء رسول الله فقال: أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قالوا : حــرب ! قال : بل هو حسن ، وهكذا عند مولد الحسين ، وعند مولد المحسن ، وقد مات وهو صغير

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبى ، والنبى يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان

حـزقّة (١) • حـزقّة ••• ترقّه • ترق عين بقّـه

وربما شوهد النبى عليه السلام ساجدا وطفل من هؤلاء الاطفال راكب على كتفيه ، فيتأنى فى صلاته ويطيـل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه ، وفى احدى هـذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : نعـم المطية مطيتك !

بل ربما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران، فيسبقه حنانه اليهما وينزل من المنبر ليحملهما، وهو يقول : « صدق الله العظيم ! انما أموالكم وأولادكم فتنة ! »

وكان اذا سمع أحدهما يبكى نادى فاطمة وقال لهـا : « ما بكاء هذا الطفل ؟ ألا تعلمين ان بكاءه يؤذينى ؟ »

وقد جعـل من عادته أن يبيت عندهم حينا بعد حين ،

---

(١) الحزق : القصير

ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان • ففى احدى هذه الليالى سمع الحسن يستسقى فقام صلوات الله عليه الى قربة فجعل يعصرها فى القدح، ثم جعل يعبعبه،فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن • قالت فاطمة : كأنه أحب اليك ؟ • قال : انما استسقى أولا !

وقد يلفهم جميعا فى برد واحد فيقول لهم : « أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد ! »

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعا من أبوة الأب الصغير ، فكانت فاطمة تقول اذا رقصت طفلها :

وابأبى شبه النبى لست شبيها بعلى

وكانوا يتغايرون علىهذا تغاير المحبين،الذين يتنافسون على حب لا يمنع بعضهم بعضا أن يتنافسوا عليه

□

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة : سعيدة بالعطف فى قلوب كبار ، ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء

ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة آدمى قط ، من ساعات خلاف وساعات شكاية ، فربما شكت فاطمة وربما شكا على ، وربما أخذت فاطمة على قرينها بعض الشدة وما هى بشدة ، فما كان رجل مثل على ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله • انما هو اعتزاز فاطمة بنفسها واباؤها أن تهمل حيث كانت ،وانما هو الحنان الذى تعودته من أبيها فلا تستريح الى ما دونه ،

وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتفقده فلا يجد نظيره فى قلب انسان

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما فى كل خلاف ، وربما ترك مجلسه بين الصحابة ليدخل الى الأخوين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من جفاء • والصحابة الذين يتتبعون فى وجه النبى كل خالجة من خوالج نفسه ، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لا يملك من ضميره ما يضن به على المتعلم والمتبصر ، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهموما وخرج منه منطلق الأسارير ، فيسألونه فيجيب : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب الناس الى ! »

ومرة من هذه المرات بلغ العتاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين ، ونمى الى فاطمة أن عليا يهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة ، فذهبت الى أبيها باكية تقول : « يزعمون انك لا تغضب لبناتك ؟ »

كلمة تعلم وقعها فى نفس أبيها الذى ما زعمت هى قط انه يرضى بما يغضبها ، وقد عرف أبوها ما تعنى • لأن بنى هشام بن المغيرة استأذنوه فى تزويج بنتهم من زوج فاطمة ، فصعد المنبر والغضب باد عليه ، وقال على ملأ من الحاضرين : « ألا ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم عليا ، ألا وانى لا آذن • ثم لا آذن • ثم لا آذن • انما فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها •• »

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء فى رواياتها المختلفة ، ولكننا نعلم ان هذه الفتاة أسلمت

وبايعت النبى وحفظت عنه ، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين ، وأهلها هم من هم فى المكانة والحسب لا يرضيهم من هو دون ابن أبى طالب من ذوى قرابتها ، أو لعلها غضبة من غضبات علىّ على أنفة من أنفات فاطمة ، أو لعلهـــا نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن فى الدين ما يأباها ، وان أباها العــــرف فى حالة المودة والصفاء

□

ولا نحسب أن حياة الزهراء والامام تعرضت لخلاف غير الذى أشرنا اليه ، فان كتب السيرة تستقصى كل جليـــــل ودقيق من الحديث عن ذرية النبى ، وهى وأبناؤها كل ذرية النبى الذين عاشوا بعده، ولم يطل بها العمر فلحقت بالنبى صلوات الله عليــــه بعد وفاته ببضعة أشهر ، وكان على قد عاهد نفسه لا يغضبنها وقد غابت عنها عن أبيهـــا ، فلم يغضبها بعد ذلك حتى فى أمر الخلافة ، وهو يومئذ أجل الأمور

# بلاغتها

قال الامام أبو الفضل أحمد بن طاهر فى كتاب بلاغات النساء : « ... لما أجمع أبو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت فى لمة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى دخلت على أبى بكر وهو فى حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنت أنة أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم فى بكائهم فلما أمسكوا عادت فى كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه تجدوه أبى دون نسائكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعا بالرسالة ، مائلا على مدرجة المشركين ، ضاربا لثجنهم (١) آخذا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتفرّى الليل عن صبحه

---

(١) الثجن بسكون الجيم وتحريكها الطريق الوعر ( يمانية )

وأسفر الحق عن محضه ، ونطـــق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين ، وكنتــم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبســـة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطـرق (١) وتقتاتون القد أذلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتى وبعد ما مـُنى ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا نارا للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه فى لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها باخمصـه ويخمد لهيبها بسيفه مكدودا فى ذات الله قريبا من رسول الله ، سيدا فى أولياء الله ، وأنتم فى بلهنية وادعون آمنون، حتى اذا اختار الله لنبيه فى دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغـــاوين ونبغ خامل الآفلين وهدر فنيق (٢) المبطلين فخطر فى عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صارخا بكم ، فوجدكم لدعائه مستجيبين وللغــــرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافا وأحمشكم فألفاكم غضابا ، فوســـمتم غير أبلكم ، وأوردتموها غير شربكم ، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل ... »

الى أن قالت : « وأنتم الآن تزعمون أن لا أرث لنا أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنــون . أيها المسلمة المهاجرة أأبتز ارث أبى ؟ أفى الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبى ؟ لقد جئت شيئا فريا ، فدونكما مخطومة

---

(١) الماء المطروق

(٢) الجمل القوى

مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »

ثم انحرفت الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهى تقول:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة

لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

انا فقدناك فقد الأرض وابلها

واختل قومك فاشهدهم ولا تغب »

هذه رواية لخطاب الزهراء ، وفى الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة فى لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروايتين قال أبو الفضل : « ذكرت لأبى الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء - يشير الى قوم فى زمانه يغضون من قدر آل البيت - يزعمون انه مصنوع وانه من كلام أبى العيناء فقال لى : رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبى عن جدى يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبى العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفى انه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ »

ونسبت الى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه ، وانها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت : « يا أنس ! كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب ؟ » ثم بكت ورثته قائلة :

اغبــر آفاق السـماء وكـورت
شمس النهــار وأظلم العصران
فالأرض من بعـد النبى كئيبـة
أسفا عليه كثيرة الرجفــان
فليبكه شرق البــلاد وغربهـا
ولتبــكه مضر وكل يمــان
وليبكه الطــود المعظم جـوده
والبيت ذو الأســتار والأركان
يا خاتم الرسل المبــارك ضوءه
صلى عليــك منزل القــرآن

ووقفت على قبر النبى وأخذت قبضة من تراب القبــر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شـم تربة أحمـد
أن لا يشم مدى الزمان غواليـا
صبت على مصــائب لو أنهـا
صـبت على الأيام صرن لياليـا

وقالت على قبره أيضا :

انا فقدناك فقد الأرض وابلهـا
وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنـا
لما نعيت وحـالت دونك الكثب

ومضى آنفا انها تمثلت بعد خطابها عن فدك ببيتين من البحر والقافية مع تكرار شطر منهما وهما :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

انا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وفيهما كما يرى القارىء اقواء ، لأن الباء مضمومة فى روى البيت الأول مكسورة فى روى البيت الثانى ، ولعل شطرا منهما حل محل شطر فى نقل الرواية

نقول : ان الخلاف فى أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير، ولا نحب أن نخوض فيه لانه خلاف على غير طائل ، وقد يحسمه أن نذكر فى هذا الباب ما يقل فيه الخلاف بين جميع النقاد ، فانه أجدى من اللغو فى جدال لا سند له ، يسلمه جميع المخالفين

فيقل الخلاف ولا شك حين نذكر ان ذلك الخطاب ليس مما يبدر من اللسان عفو الخاطر ، وان قائله يعده فى نفسه قبل القائه كما كان يصنع الخطباء قبل استخدام الكتابة فى التحضير

ويقل الخلاف ولا شك حين نذكر ان سامع هذا الخطاب لا يستظهره عند سماعه ، فان حفظه فانما يحفظه منقولا أو مكتوبا بعد حفظه

فاذا قل الخلاف فى هذا فعلام اذن يكثر الخلاف ؟

أتراه يكثر حين يقال ان السيدة فاطمة تحسن هـــذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدها فى خلدها ؟

ان هذا النصيب من البلاغة اذا استكثر على الســـيدة فاطمة فما من أحد فى عصرها لا يستكثر عليه

لقد نشأت وهى تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، وانتقلت الى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من امام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه ، وسمعت القرآن يرتل فى الصلوات وفى سائر الأوقات ، وتحدث الناس فى زمانها بمشابهتها لابيها فى مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحابيها ولا ينطق فى أمرها عن الهوى

جاء فى الجزء الثالث من العقد الفريد عن « الرياشى عن عثمان بن عمرو عن اسرائيـــل بن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشـــة أم المؤمنين انها قالت : « ما رأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانت اذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها فى مجلسه ، وكان اذا دخل عليها قامت اليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها ، فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه ، فأسر اليها فبكت ، ثم أسر اليها فضحكت ، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فاذا هى واحدة منهن ، بينما هى تبكى اذا هى تضحك • فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فقالت : أسر الى فاخبرنى انه ميت فبكيت ، ثم أسر الى انى أول أهل بيته لحوقا به فضحكت »

وما قالته السيدة عائشة عن المشـــابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات جميعا ، ويزاد عليه فيحديث السيدةعائشة ان امرأة فيفضلها واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلا على سائر النساء فى حلمها ورصانتها. ففيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البـــلاغة اذا نسب اليها ؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته فى حديثه ؟ ولمـــاذا تستعظم على زوجة الامام الذى كان المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته ، وهى مضرب الأمثال ؟ ولمـــاذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار معالذكاء واللب الراجح ؟

أما نسبة الشعر الى الزهراء فالخطب فيه أهون منذلك فهو لا يسلكها فى الشاعرات ان ثبت ، ولا يضيرها ان لم يثبت ، ونحن الى جانب الشك الكبير فيـــه أقرب منا الى جانب القبول ، وليس بعيدا على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير فى فمه أبياتا يحكى بها حزنه وبثه ، فان النظم هنا أقرب الى لغة العاطفة وعادة النحيب ، ولكن الســيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن فى مقـــام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها فى مقام العبرة والرثاء

# فى الحياة العامة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذى عهدناه عاكفة على بيتها ، تزيدها عكوفا عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التى تنفرد بها ولا تجد معينا عليها فى كثير من الايام غير زوجها

ثم توفى النبى صلوات الله عليه فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها فى معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها فى أيامنا ، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعترك فى تلك الآونة ، لأن الخلاف فيهـــا كان خلافا على ميراث أبيها : ميراث الخلافة ، وميراث التركة القليلة التى أعقبها

ومسألة الخلافة فى يوم وفاة النبى احدى المسائل التى طال فيها الجدل ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأى متفق عليه ، وذاك ان الخطر الأكبر فى ذلك اليوم انما كان من فتنة السقيفة : ســـقيفة بنى ساعدة ، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد ابن عبادة ، تطلب الامارة ، ثم نصـح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبى بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه ، ثم خطـر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين : أمير من الأنصـــار

وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبـــادة على جلالة شأنه فى قومه نافرا من البيعة لأبى بكر بعد انعقـــادها وهو يأبى الا أن « يستبد الانصار بهذا الأمر دون الناس فانه لهم دون الناس » ... ثم أصر على ابائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال لهم : « أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبـــل وأخضب سنان رمحى » وناشدوه أن لا يشق عصا الجماعة فعاد يقول : « انى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى، مقاتلكم بولدى وأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى .. وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى »

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر فى حاضره ولا فى مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره ، وهو خطر الفتنة التى راح أبو سفيان يحضأ نارها بين على والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، يعد قوما بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، وما كان من همـه أن ينصف بنى هاشم ولا أن يؤيد الانصار ، وانما أراد الوقيعة التى يخذلهم بها جميعا ويخرج منها بالســـيادة الأولى التى كانت له على قريش فى الجاهلية

وما من شك فى خطر هذه الفتنة من أبى سفيان ولا فى خطر تلك الفتنة من سقيفة بنى ساعدة ، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبى بكر ، ولم يطلبها ، بل كان مشتغلا بدفن الرسول ودعى الى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيـــم

يدعى ويعتذر باشتغاله ويغضب لدعوته ، حتى هم عمـر بمبايعة أبى عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمـع فى السقيفة بين الخزرج والأوس والانصار والمهاجرين ، وقبل أن تنجح المسـعاة من أبى سفيان فى خفائها ، وقد كاد أن يعلنها

□

وكان على فى تلك الساعة العصيبة الى جوار الجثمـان الطاهر المسجى فى حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان قائلا: « يا أبا الحسن ! هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك ! »

ويقول عمه العباس : « يا ابن أخى . هذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعـك ويبايعك معى . فانا ان بايعناك لم يختلف عليـك أحد من بنى عبد مناف ، واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قرشى ، واذا بايعتـك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب »

فيجيبه على : « لا والله يا عم ! انى لأكره أن أبايع من وراء رتاج »

ولقد كان أحكم فى جوابه هذا من شيخ الدهاة من بنى هاشم وشيخ الدهاة من بنى أمية ، فما للخلافة معدى عنه ان كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين،وما للبيعة هناك جدوى ان تمت وراء رتاج وانشقت بعدها عصا المبايعـين والمعارضين

ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التـاريخ ، فان

يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين فى فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبى سفيان ، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعا لأنفسهم وما قصروا بعد يوم البيعة فى نصرة دينهم ، وما كان فى وسع أحد أن يبلى أجمل من بلائهم فى دفع الغائلة عن الاسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للاسلام فى العراق والشام وفارس ومصر فتحا أعظم وأقرب مما فتحوه

وآمن على بحقه فى الخلافة ، ولكنه أراده حقا يطلبه الناس ولا يسبقهم الى طلبه ، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأى والسيف ويصدق العون لأبى بكر وعمر كأنه يعمل فى عون رسول الله وهو بقيد الحياة

وقد اختلف الصديق والفاروق والامام يوما أو أياما بعد وفاة النبى عليه السلام ، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك ، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعا انهم لم يكدحوا لأنفسهم ولا لذويهم ، ولم يقفوا دون الغاية فى خدمة دينهم ، ولم يحى أحد منهم حياة تريب فى صدقه وصدق طويته وحسن بلائه ، وما مات أحد منهم وله من الدنيا نصيب يأسى عليه

□

وكانت السيدة فاطمة ترى حق على فى الخلافة ، أو ترى أن قرابة النبى أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء على فى الجهاد وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان

هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا فى غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيبايعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعى فى تأليب الناس على نقض البيعة ، وبعد مساجلات بينهم وبين أبى بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسيسة التى بيتها أبو سفيان ، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على على ويتحفز للوقيعة ، فصده على وعرض له بذكر الغششة والمخدعين ، ثم قال له : « انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » ، فلما يئس من هذا الباب طرق بابا آخر لعله يلج منه الى مأربه ، وذهب الى العباس يقول له : «امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » ... ثم يقول : « انك والله لأحق بميراث ابن أخيك » فيرده العباس كما رده على ، ويكاد الخلاف ينتهى عند هذا وينطوى بانطواء الكلام فى مسألة الخلافة ، لولا مسألة « فدك » أو مسألة الميراث التى اختلف فيها سند أبى بكر وسند فاطمة مرة أخرى ، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم، مخافة السخط من بنت رسول الله

وخلاصة الحديث فى أمر « فدك » انها قرية كان النبى يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة الى أبى بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خيبر ، فقال ابو بكر : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اننا معشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة .وانى والله لا أغير شيئا من صدقة رسول

الله عن حالها التى كان عليها» ، ويقال ان الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبى من أنبيائه ـ زكريا ـ « يرثنى ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود» .. وان أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله ! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلى بجوابك ولا أوقعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بينى وبينك هو الذى أخبرنى بما تفقدت ، وأنبأنى بما أخذت وتركت »

وجاء فى شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة « ان أبا بكر قال : يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما وانه قال : ان الأنبياء لا يورثون . فقالت : ان فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها . فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبى ! قال: فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد . وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقى ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك »

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر :

«انطلق بنا الى فاطمة فانا قد أغضبناها»، فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه ، فأدخلهما • فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال : «ياحبيبة رسول الله، والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتى ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ الا انى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث • ما تركنا فهو صدقة» • فقالت: «أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟» قالا : «نعم» • فقالت: «نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى؟» • قالا : «نعم سمعناه من رسول الله» • قالت : « فانى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبى لأشكونكما اليه» • فقال أبو بكر: «أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة»، ثم انتحب يبكى حتى كادت نفسه تزهق ••• ثم خرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم : «يبيت كل رجل منكم معانقا حليته مسرورا بأهله وتركتمونى وما أنا فيه ؟ لا حاجة لى فى بيعتكم • أقيلونى بيعتى »

والحديث فى مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التى لا تنتهى الى مقطع للقول متفق عليه • غير أن الصدق فيه لا مراء ان الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق ، وان الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذى تقوم البينة

عليه ، ومن أسخف ما قيل انه انما منعها فدك مخافة أن ينفق علىّ من غلتها على الدعوة اليه،فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يسمع أن أحدا بايعهم لمال أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شيء من هذا فى اشاعة ولا فى خبر يقين ، وما نعلم من تزكية لذمة الحاكم فى عهد الخليفة الاول أوضح بينة من حكمه فى مسألة فدك ، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاها ، وما أخذ من فدك شيئا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وانما هو الحرج فى ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين ، رضوان الله عليهم أجمعين

□

ولعلنا نجمل ما وقر فى أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها ، بعيدا من الخصومة ، بعيدا من زمانها ، بعيدا من الشبهة فيها ، لأنه قال كلمته وفدك فى يديه ينزل عنها باختياره ، لا يدعوه الى ذلك داع غير وحى ضميره

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل فى مستهل عهده بالخلافة : « ان فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فسألته فاطمة اياها فقال : ما كان لك أن تسأليني وما كان لى أن أعطيك، فكان يضع ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ، ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله، ثم ولى معاوية فأقطعها مروان بن الحكم ، فوهبها مروان

لأبى ولعبد الملك ، فصارت لى وللوليد وسليمان ، فلما ولى الوليد سألته حصته منها فوهبها لى ، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتها ، وما كان لى من مال أحب الى منها ، فاشهدوا انني قد رددتها الى ما كانت عليه»

□

فى هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على شؤون بنيها والابتعاد من الحياة العامة ، لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة قرباها ،وهما مسألة الخلافة بعد النبى ومسألة الميراث من فيئه ،واحداهما مما نسميه فى لغة عصرنا بالسياسة العليا ، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية ، ولكل منهما جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسات من نحوها . أما فى الدراسات النفسية فالمهم فيهما وفى غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة ، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة ايمان بحقها تثبت عليه و«شخصية» مستقلة لا يهمل لها حساب

# وفاتها

قلنا فى « عبقرية محمد » :

« حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التى دقت عن الفهم وحارت فى تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة ، وهو ولا ريب يجرى على قانون مطرد فى جميع طبقات الأحياء ، وان كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التى تقارب الحقيقة، أو هى أقرب ما نستطيع الوصول اليه

« وأهم هذه الملاحظات التقريبية انه يجرى على سنة المكافأة والتعويض فى معظم حالاته ، فيقابل النقص فى جانب بالزيادة فى جانب آخر ، ويقابل القصور فى مزية من المزايا بالاتقان فى مزية أخرى

« فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير فى طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا ان الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكافى لدوام النوع بعد فناء الكثير

« والأحياء العليا يقل عدد المولود منها فى البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ،

وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة فى الأحيـــاء السفلى

« ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هى الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه ، فاذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجوز ذلك على نسله وينتقص من قسمة فى أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور ، فاذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصورالاخرى، أو كأنما هى مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد الا بثمن غال يحسب عليه ، ويؤدى حسابه للنوع على نحـــو من الأنحاء

« والانسان هو أقدر المخلوقات الحيـــة على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تجديد النسل وزيادة عدده

« فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم باصلاح شؤون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

« ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا اليها ، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا انها تســتوقف النظر للتأمل والمراجعـــة ولا تفضى بنا الى الجـــزم أو الى التغليب

« فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتـــزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية، كعيسى عليه السلام

« وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها أناث ، أو رزقوا ذرية من الاناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة

« وتواريخ العظماء فى جميع نواحى العظمة ، وفى جميع الأمم ، وفى جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة ، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ويدخل فيهم القادة العسكريون ، ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمى ومحمود سامى البارودى وحافظ ابراهيم

« فاذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم أن اصلاح شؤون النوع الانسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الأحوال ، فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأغلى قيمة ان لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملايين فى كل جيل ؟ وأى أبوة روحانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته ، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

« نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا فى الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار »

□

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء فى زهرة الشباب : فى الثلاثين أو ما دون الثلاثين

مات الذكور من ذرية محمد صغارا لم يجاوزوا سن الرضاع ، وعاش الاناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر، ومنهن من لم ترزق قوة البنية فى عنفوان الشباب

وكانت الزهراء نحيلة سمراء ، يمازج لونها شحوب فى كثير من الأوقات، وقد رآها النبى عليه السلام فى مرض وفاته فقال لها انها أسرع أهله لحوقا به ، فلم تمض ستة أشهر ، وقيل أقل من ذلك ، حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقبل فيها الحياة

وكانت تشكو حينا بعد حين ، ويعودها النبى يواسيها فى مرضها فاذا هو يواسيها كذلك فى حاجتها ، زارها يوما وهى مريضة فقال لها : « كيف تجدينك يا بنية ؟ » فقالت : « انى لوجعة » . ثم قالت : « وانه ليزيدنى انى مالى طعام آكله ... » فاستعبر عليه السلام وقال : « يا بنية ! أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ! »

وزارها يوما وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة »

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الأنفال ، فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقا بين ذويه وزوجاته ، ولكنها كانت فاقة تعمهم جميعا حين لا يجد النبى ما يفرقه بينهم ، وقد شكا زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين التسريح لينعمن بالحياة الدنيا وزينتها ، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه !

الله أكبر !

مثل محمد يعلو على اشفاق المشفقين ، ومن كان فى قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسدا ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الاشفاق ، فذلك هو الاعظام غاية الاعظام ، وذلك هو المرتقى الذى قيل فيه :

وبعيد بلوغ هاتيك جدا

تلك عليا مراتب الأنبياء

ان محمدا يبكى لانه يرى أحب الناس أليه وأقربهم منه جائعة مرهقة ، ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها ، وهو يملك كل شيء فى الجزيرة العربية ...
ويسأل السائلون من زعانفة المعطلين والمتعصبين أعداء كل دين : « ما برهان النبوة عند محمد ؟ ! »

الله أكبر ... ان لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شيء يكون ؟

□

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يعرف من وصفه ،فان العرب لوصافون وان من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر

العرب على وصف الصحة والسقم ، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها فى أحوال شكواها على شىء يشبه أعراض الأمراض التى تذهب بالناس فى مقتبل الشباب ، وكل ما يتبين من كلامهم انه الجهد والضعف والحزن ، وربما اجتمع اليها اعياء الولادة فى غير موعدها ، ان صح انها أسقطت « محسنا » بعد وفاة النبى كما جاء فى بعض الأخبار

ونعود فنقول انها ضريبة النبوة ، وكم للهداية منضريبة تضاعف على الهداة مرات بعد مرات !

□

وحضرها الموت وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها فى مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها ، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل : « يا أمَّه ! ائتينى بثيابى الجدد » ، فلبستها ثم قالت : « قد اغتسلت ، فلا يكشفن لى أحد كنفا » ، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها : « أتستطيعين أن توارينى بشىء ؟ » قالت : « انى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير » فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه فقالت : « سترتمونى ستركم الله .. » وتبسمت ، ولم تر مبتسمة بعد وفاة أبيها الا ساعتها

وكانت وفاتها ، على القول الأشهر ، ليلة الثلاثاء لثلاث

خلون من رمضان سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفنت ليلا حسب وصايتها كما دفن رسول الله

في كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشـــع بتقديسها المؤمنـــون كأنما هى آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى

فاذا تقدست فى المسيحية صورة مريم العذراء ، ففى الاسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول



# « شخصية » الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء فى التاريخ لأنها بنت نبى وزوجة امام ، وأم شهداء

ولكن لا يتضح هذا الوضوح ، ولا يبين هذا البيـان ، انها تأخذ مكانها هذا « بحقها الشخصى » أو بصفاتها التى كان لها أثر فى حوادث التاريخ

وهذا الذى نحب أن نقرره فى الكتـابة عن الزهراء ، فهى أصل قوى من أصول الدعوة التى ثبتت فى مجـرى الزمن أجيالا طوالا ولم تزل لها آثارها فى عصرنا هـذا ، وفيما يلى من العصور

لم يعرف التاريخ نظيرا لثبات بنى على وفاطمة على حقهم فى الامامة ، أو فى الخلافة

حوربوا فيها زمنا ، وتولاها من لا شك عندهم ولا عند الناس فى فضلهم عليه ، كيزيد بن معـاوية • فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعا ، وحاربوا فيها كما حوربوا ، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سـنة ، ثم مائتين ، ثم ثلثمائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم فى عهد الدولة الفاطمية

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات ، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بني أمية ثم من بني العباس ، ومعهم في المشرق والمغرب أعوان وأتباع ، وقد جدوا غاية الجد في نكالهم بأبناء علي وفاطمة في كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقا أن يستـــــتأصلهم استئصالا أو يرغمهم على اليأس والتسليم

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين ، وخطر لهم كل خاطر الا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف ، ويقعدوا مع الخالفين

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم

فاذا كان مرجع هذه الخصال الى وراثة ، ولا بد لها من نصيب من الوراثة ، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن علي ، بل هي الى ميراثهم من الزهراء أقرب منها الى ميراثهم من الامام

بعض الاخبار يفيد ان صح ، وان لم يصح ، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا ان عليا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر الا بعد وفاتها

ان صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة ، وهي اعتقاد الناس في ذلك العصر ان القضية قضية الزهراء وان الامام يجاملها فلا يغضبها ، وانه كان يرى ان الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه ، فان لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعي اليها

وفي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة ، وربما كان من تلك الاخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقي اليه بالا ، وهو في

هذا الباب أدل من كثير ، كالخبر الذى روى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير

رووا ان الصديق رضى الله عنه قام على المنبـــر يخطب الناس ، فما هو الا أن حمد الله وأخذ فى خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتا نحيلا يهتف به : « ليس هـذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبى ... »

والتفتوا فاذا بالصائح هو الحســن بن على ، ولما يبلغ الثامنة ، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع فى نفسه : « ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله ... ما كان لأبى منبر ، وانه لمنبر أبيك »

وسمع على بالخبر فأرسل الى أبى بكر رسولا يقول له : « اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث ، ولم نأمره »

قال أبو بكر : « انى أعلم . وما اتهمت أبا الحسن »

وليست الزهراء ولا ريب هى التى أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال ، ولكن الطفل يفهم عن أمه فى هـــذه السن ما يغنيه عن الأمر والايحاء ، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشا يتكرر بين أبويه فى هذا الأمر ، فوقر فى نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة ، ثم نهى عنها فلم يعاودها

□

فى خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبـــات على الحق الذى يعتقده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم

كانت شديدة الاعتـــزاز بانتسابها الى أبيها ، وكانت

مفطورة على يقين التدين ، وكانت ذات ارادة لا تهمل فى حساب شأن من شؤونها ، فظهر منها فى المواقف القليلة التى نقلت عنها انها كانت ذات ارادة لا تنسى فى الحساب

كان من اعتزازها بالانتساب الى أبيها انها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب اليها من أن يقال لها ان أسباط رسول الله يشبهون رسول الله

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين : كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها أضافت اليه ما ورثته من أمها ، آمها بنت خويلد الذى تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة، وابنة عم ورقة بن نوفل الذى شغل بالدين فى الجاهلية حتى فرغ له حياته ، غير مدعو ولا مأمور

ومن فطرة التدين فى وريثة محمد وخديجة انها كانت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين ، حتى وهمت ان أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عرقا فجاء بلال بالأذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقلت : يا أبة ! ألا تتوضأ ؟ فقال : مم أتوضأ يا بنية ؟ فقلت : مما مست النار . فقال لى : أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟ »

فهى فيما تجهله تتحرج ولا تترخص وتؤثر الشدة مع نفسها على الهوادة معها

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة

عائشة ، انها كانت أشبه الناس بمحمد فى مشـــيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة فقالت : ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها ، واستغربت مرة أن تكون فاطمــة كسائر النساء حين رأتها تبكى ثم تضحك الى جوار رسول الله فى مرض وفاته ، ثم علمت انها ضحكت لانها سمعت من أبيها انها لاحقة به عما قريب

أما انها كانت رضى الله عنها ذات ارادة لا تهمل فقــد بدا ذلك فى أمر زواجها ، وفى محاجتها لزوجها ، ومحاجتها لأبى بكر وعمر ، وفيما كان يتوخاه على من مرضاتهابصدد المبايعة قبل وفاتها

وقد يكون من دلائل الارادة فى المرأة خاصة انها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء انها لا تتكلم حتى تسأل ، وانها لا تعجل الى الحديث فيما تعلم فضلا عما لا تعلم ، ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم تزد عليه

ولا ننس أن الزهراء قد غوضرت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فاذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الارادة وهى فى تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع اليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين

# الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة نسابة ، يعنيها النسب لأنها تعتمد عليه فى مفاخرها كما تعتمد عليه فى مصائرها ، فهو الذى يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها ، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة ، ومن يلحق بهم عاره ويبرأون منه أو يخلعونه ، فالخليع عندهم من لا خلاق له فلا هو يبالى بشىء ولا يبالى به أحد ، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته

ان الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه

ولهذا حفظوا أنسابهم فى الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها من تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة

وبعد الاسلام وجب حفظ الأنساب ولجأوا اليه فى تدوين الدواوين كما لجأوا اليه فى ميادين القتال ، فكلما حمى وطيس القتال نودى فى القوم : انتسبوا . ليستحى المرتد من الهزيمة التى يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة فى ذاكرة

وعظمت العناية خاصة بذرية النبى عليه السلام ،صونا للنسب الشريف ، ودفعا للأدعياء من طلاب الخلافة ، فلم

يقع لبس قط فى نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الاسلام ، ولم ينهض منهم قط امام مشكوك فى نسبه على عهد الدولة الأموية ، ولم يكن الشك فى النسب مطعنا فى دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية ، ولم يزل أمرهم كذلك الى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية • أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة فى حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم الى السيدة فاطمة ، ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب اليها رضى الله عنها

من ذاك ما روى عن المأمون انه قال يوما لعلى بن موسى الرضا : «بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على منرسول الله وبقرابة فاطمة رضى الله عنها ، فقال له المأمون : ان لم يكن ها هنا الا القرابةفقدخلف رسول اللهصلى اللهعليهوسلم من كان أقرب اليه من على أو من فى مثل قدره ، وان كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانالحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان،فان كان الأمر كذلك فان عليا قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما لا يجب له »

قال رواة هذا الحديث : « فما أجابه على بن موسى بشىء»

وظاهر ان على بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبى العلاء :

تلوا باطلا وجلوا صارما

وقالوا : صدقنا ؟ فقلنا : نعم!

والا فما كان لحجة من أبناء على وفاطمة ـ وقد رزقوا اللسن والفصاحة ـ أن يعجز فى هذا المقام عن الكلام الذى

يقال فى الرد على كلام المأمون ، وأقربه على اللسان ان عليا ان كان قد استولى على حقه فهم ورثته، وان كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق ، وقد سمع خلفاء بنى العباس كلاما كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين والفاطميين ، وأيسره أن أحدا من جدود بنى العبـــاس فى حياة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها

الا أن دعاة الدولة العباسية انما كانوا يدفعون دعـوى العلويين بمثل حجة المأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محاربة الولاء للمنتسبين الى الزهراء ، الا أن يدعوا عليه انه حمل السيف وخرج للقتـــال أو أعلن العصيان

قال العتبى : « كان بين شريك القاضى والربيع حاجب المهدى معارضة ، فكان الربيع يحمّل عليه المهدى فلا يلتفت اليه ، حتى رأى المهدى فى منامه شريكا القـــاضى مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعى الربيع وقص عليه رؤياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ان شريكا مخالف لك ،وانه فاطمى محض • قال المهدى : على به ! فلما دخل عليه قال له : يا شريك ! بلغنى انك فاطمى • قال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنـــين أن تكون غير فاطمى • الا أن تعنى فاطمة بنت كسرى ! قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم • قال شريك : أفتلعنها يا أميرالمؤمنين؟ قال المهدى : معاذ الله • قال : فماذا تقول فيمن يلعنها ؟ قال : عليه لعنة الله ! قال : فالعن هذا ـوأشار الىالربيعـ فانه يلعنها ، قال الربيع : لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعنها• فقال شريك : يا ماجن ! فما ذكرك لسيدة نساء العـــالمين

وابنة سيد المرسلين فى مجالس الرجال ؟ قال المهدى : دعنى من هذا • فانى رأيتك فى منامى كأنك مصروف عنى وقفاك الىّ ، وما ذلك الا بخلافك علىّ ، ورأيت فى منامى كأنى أقتل زنديقا • قال شريك : ان رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه، وان الدماء لا تستحل بالاحلام ، وان علامة الزندقة بينة • قال : وما هى ؟ قال : شرب الخمر والرشى فى الحكم ومهر البغى • قال : صدقت والله يا أبا عبد الله • انت والله خير من الذى حملنى عليك »

وحدث مثل هذا فى معارض كثيرة ، فوشى بأناس انهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم ، واضطروا الى التعلل لهم بغير تلك العلة

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة ، فانتقلوا من المناقشة بالحجة فىحق العم وابن العم،والموازنة بين حق العباس عم النبى وحق على ابن عمه ، الى انكار النسب بتة ، وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين فى الأرجاء واستتارهم بالدعوة ووقوع اللبس فى الكنى والألقاب ، فطعنوا فى انتساب الفاطميين الى السيدة فاطمة ، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذى سيأتى ذكره فى القسم الثانى من الكتاب ، واشترك فى هذه المنابذات أناس من علماء النسابين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم ، وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم

مثال هذا ان صاحب كتاب جمهرة الأنساب ، وهو

الفيلسوف الحكيم ابن حزم ، لم يسلم من فتنة هذه الغواية ، فقال وهو يتكلم عن ذرية اسماعيل بن جعفر الذى ينتسب اليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالاسماعيلية :
« وادعى عبيد الله القائم بالمغرب انه أخو الحسن البغيض هذا ، وشهد له بذلك رجل من بنى البغيض وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبى الحر على بن محمد الشاعر ابن على بن اسماعيل بن جعفر ، ومرة ادعى انه ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وكل هذه دعوى مفتضحة ، لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله الا جاهل »

ونحن نخص ابن حزم بالذكر فى هذا المعرض لأنه مثل للنقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك فى مؤلف واحد ونسابة واحد

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف ، ولكنه فى هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى ، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعية من دواعى احتمالها وقبولها

كان ابن حزم أمويا غاليا فى التشيع للأموية ، وكانت دولتهم فى الأندلس على خطر من الدعوة الاسماعيلية ، وبلغ من كراهته للاسماعيليين انه تحول من المذهب الشافعى الى المذهب الظاهرى أى المذهب الذى يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل ، لأن مذهب الاسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حق الامام

بل قد بلغ من كراهته القوم انه لا يطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه ، فيلقبه بالبغيض بدلا من الحبيب، ولعله لم يضع كتابه فى جمهرة أنساب العرب الا ليثبت حق بنى أمية فى الخلافة لأنهم من قريش فصعد بحق الخلافة الى جد الأمويين والهاشميين وقال فى مقدمة كتابه : « ومن الغرض فى علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز الا فى ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له ، وهذا لا يجوز أصلا ... » . وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين الى المناقشة فى معنى الحديث القائل ان فاطمة سيدة النساء، وانه لا يعنى انها أفضل نساء العالمين !

ونحن ننزه ابن حزم عن تعمد الافتراء ، ولكننا نقول ان هواه قد جنح به الى قبول ما ليس بحجة فى اثبات نسب أو دفع نسب ، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفى والاثبات

وفيما يلى كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفصيل ، ونسلف القول فى تلخيصه فنقول : اننا لا نزعم اننا وقفنا على الدليل القاطع الذى يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية ، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفى ذلك النسب، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك فى مطاعن الطاعنين، وهذه الشبهات فى روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه

## القسم الثانى

# .. والفاطميون

* الفاطميون ...
* النسب ...
* الباطنية ...
* الباطنية الفاطمية
* حسن بن الصباح
* بناة وهدامون .. ومهدومون
* حضارة محتضرة

# الفاطميون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، ولكن اسم الفاطميين يطلق فى تاريخ الدول على أبناء اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق، ويسمون من أجل هذا بالاسماعيليين

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحيانا باسم آل البيت، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء الى الزهراء ، لأنهم يقيمون حقهم فى الخلافة على انهم اسباط النبى عليهالسلام، وانهم أبناء الوصى على بن أبى طالب ، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوىالوصاية وينكرونها، ويقولون انالانتساب الى النبى من جانب عمه العباس أقرب من جانب على ابن عمه أبى طالب ، ومن أجل هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون

أما تغليب اسم الاسماعيليين عليهم فمرجعه انتماؤهم الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقولهم انه هو الامام بعد أبيه ، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين ، وهم ذرية موسى الكاظم ، وهو الأحق بالامامة فى مذهب الاماميين الاثنى عشريين

وقد كان الامام جعفر الصادق وصى بالامامة بعده لابنه الاكبر اسماعيل ، ثم نحاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم ، وقيل فى أسباب ذلك انه علم ان اسماعيل يشرب الخمر ، وقيل ان اسماعيل مات فى حياة أبيه فانتقلت ولاية العهد الى أخيه

أما الاسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز ، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الامام المعصوم ، والبداء لا يجوز على الله ، ويعنون بالبداء أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذلك

ومن الاسماعيليين من ينفى موت اسماعيل فى حياة أبيه ، ويقولون انه شوهد بعد تاريخ الاشهاد على وفاته ، وانما أشهد أبوه على وفاته خوفا عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويين المرشحين للدعوة ، واستدلوا على هذا بالاشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه ، اذ لم تجر العادة بمثل هذا الاشهاد لولا الحيطة والتقية

والخلاف بين الاسماعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على امامة اسماعيل ، والاماميون الذين لا يسلمون الامامة لاسماعيل وذريته طوائف متعددة ، أهمها وأكبرها طائفة الاماميين المعروفين بالاثنى عشريين ، لأنهم ينتهون بالامامة الى محمد المنتظر بن الامام حسن العسكرى ، وعندهم انه سيظهر فى زمانه الموعود ، ولهذا يدعون بتعجيل فرجه كلما ذكروه

ويتفق الاماميون على اعتقادهم عصمة الامام فى تبليغ

شؤون الامامة ، لانه موئل السؤال والفتوى فياحكامالدين والدنيا ، فلا يجوز الخطأ عليه فى هذه الاحكام

ويضيف الاسماعيليون الى أسباب العصمة عقيدة التأويل ، فان احكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن ، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين فى العلم ، والائمة هم الراسخون فى العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤتمون

ولهذا يسمى الاسماعيليون بالباطنيين ، ومنهم من لا يقصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب ، بل يقولون ان كل موجود على الأرض فله نظير فى الفلك الأعلى ، وان مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التى تجرى على نظرائها فى السماء

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضة والفلسفة على العموم ، وكان الاماميون من عهد على رضى الله عنه يؤمنون بالهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما اليه من كتب النجوم ، ولكن الائمة الاسماعيليين أمعنوا فى دراسة هذه العلوم لانهم لاذوا بالخفاء فى عهد انتشارها وازدهارها ، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوبا منهم فوق علمهم الراسخ بشؤون الامامة فى الدنيا والدين ، فاذا سأل السائلون عن أمر مستور فأولى الناس بعلمه الامام المستور الذى يعلم مواطن السر والجهر ويتحين أوقات الفلك لاظهار ما خفى من أمور الدعوة وأمور الامامة ، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد

ودخل عدد الأئمة نفسه فى خصائص الاعداد ، فمن

قديم الزمن يعتقد أصحاب النجـــوم سرا خاصا فى عدد السبعة وعدد الاثنى عشر ، ويستشهدون على ذلك بعـــدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الاسبوع وعدد فتحات الوجه ، كما يستشهدون عليه بعدد الشهور وعدد البروج السماوية وعدد أسباط بنى اسرائيل ، وعلى هذا يدور الخـــلاف بين المهتمين بالتنجيم على عدد الأئمة أهو سبعة أم اثنى عشر ، ولكل منهم فيه كلام طويل

وللاماميين فروق يبسطونها بين النبى والامام والحجـة والنقيب ، فالنبى يبعث فى زمان بعد زمان ، والامام قائم فى كل زمان ، وقد يكون الامام اماما مستقرا فهو صاحب الحق فى التوصية لخليفته من بعده ، أو اماما مستودعا فهو يحمل أمانة الامامة لضرورة موقوتة ثم يردها الى صاحبهـا ولا حق له فى التوصية لغيره • أما الحجة فهو لازم فى الخفاء اذا كان الامام ظاهرا فى العلانية ، لأن الامام الظاهر عرضة للضرورات فلا بد معه من حجة يرجع اليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة ، أما اذا استتر الامام فلا بد له من حجة ظاهر، وقد يسمون الامام بالناطق أو بالصامت تبعا للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه

أما النقباء فالغالب انهم دعاة أو وكلاء ، ولا بد لهم من أئمة يرجعون اليهم فى كل زمان

□

أعلنت وفاة اسماعيل فى حياة أبيه كما تقدم ،فانعقدت الامامة بعده لابنه محمد ، وارتحل محمد من الحجـــاز الى الرى ، اما لأنه لم يطلق منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة

العلويين ، واما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالامام المكتوم لانه لم يعلن دعوته وأخذ فى بثها خفية وهو يتنقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر كلما تنبهت اليه العيون ولاحقته الظنون ، ثم ضاق المشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله الى المغرب وكان أول من نودى له بالخلافة الفاطمية

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثانى بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق • أما القائلون بانتسابه الى ميمون القداح ـ كما سيلى ـ فهو فى زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق

ويوفق المؤرخ الهندى «مأمور» (١) بين الروايتين توفيقا محتملا جد الاحتمال فيقول ان محمـــدا المكتوم كان يخفى نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقته ، وان اســـم « ميمون » كان من الأسماء التى انتحلها فى حال استتاره، والقداح هو لقب الطبيب الذى يعالج العيون

ولا نهاية للروايات والتخريجات التى تعلل ســفره من المشرق الى المغرب ، فمـــن الرواة من يزعم انه علم بتآمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيما بجـوار حمص ورحل الى مصر وهو يورى بالرحلة الى اليمن ، ومن قائل ان بعض جلساء الخليفة العباسى ممن يدينون بالمذهب الاسماعيلى سرا قد علم بعزم الخليفة على اعتقـــاله وقتله فبادر الى تحذيره ، ومن قائل انه تلقى البشـــارة من كبير دعاته فى المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل

(١) كتاب الجدل والمناقشات فى الخلفاء الفاطميين
Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs.

الى المغرب ليتولى الأمر بنفسه فى هذه الفترة الحاسمة ، وتتفق الروايات على انه حينما سافر الى مصر وانتقل منها الى المغرب كان مطاردا وكان على رأسه جعل لمن يأتى به حيا أو ميتا حيث كان

□

والروايات تتفق كذلك على أن الدعوة كانت موكولة فى المغرب الى أبى عبيد الله الصنعانى من صنعاء اليمن، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من ولاة الحسبة فى بغداد

جاء فى وصفه من كتاب ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب ـ لابن عذارى المراكشى وهو من أعداء الاسماعيليين ـ « فاختاروا منهم رجلا ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبا عبد الله الصنعانى ... فسار أبو عبد الله هذا الى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك بضعيف الحيل ... ورأى فى الموسم قوما من أهل المغرب فلصق بهم وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيل كتامة ملتفين على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها ، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه ... ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدل الى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه ، فلما حان رجوعهم الى بلادهم سألوه عن أمره وشأنه فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم السلطان ، ثم رأيت

ان خدمته ليست من أفعال البر فتركتهـــا وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال ، فلم أر لذلك وجها الا تعليم القرآن للصبيان ، فسألت أين يتأتى ذلك تأتيا حسنا فذكر لى بلاد مصر ، فقالوا له : ونحن سائرون الى مصر وهى طريقنا ، فكن فى صحبتنا اليها ، ورغبوا منه فى ذلك ، فصحبهم فى الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم الى مذهبه ويلقى اليهـــم الشيء بعد الشيء الى أن اشربت قلوبهم محبته ، فرغبوا منه أن يسير الى بلادهم ليعلم صبيانهم ، فاعتـــذر لهم ببعد الشقة ، وقال لهم ان وجدت بمصر حاجتى أقمت بها ، والا فربما أصحبكم الى القيروان ، فلما وصلوا مصر غاب عنهـــم فيها كأنه يطلب بغيته ، ثم اجتمعوا به وسألوه فقال لهم : لم أجد فى هذه البلاد ما أريد ، فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم بذلك ... »

☐

ولا يتسع الكلام فى هذا المجال لسرد أعمال أبى عبيدالله فى المغرب ، فالذى عنيناه هنا هو الاشـــارة الى أساليب هؤلاء الدعاة فى دخول البلاد التى يقصدونها بالدعـــوة ، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوبا لا طالبا وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله اذا استطاع ، وقد سار أبو عبيد الله الشيعى على هذا الاسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال اليه قبيلة كتامة القوية بعـــددها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرد السـيف وهزم دولة الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح

فاستقدمه فوصل الى جبال الأطلس قبيل انتهاء القــــرن الثالث للهجرة ( سنة ٢٩٦ )

كذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدى وخططه التى رسمها لاقامة عرشه فىافريقية وبسط كلمته من ورائها الى الأقطار الاسلامية ، فان ملك المهدى فى المغــــرب قد دام أربعا وعشرين سنة الى أن توفى ( سنة ٣٢٢ للهجــــرة ) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلفالمنصور ابنه المعز ( سنة ٣٤١ للهجرة ) وهو الذى فتحت مصر فى عهده وانتقلت من خلافة العباسيين الى خلافته ( سنة٣٥٦ للهجرة ) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهدا لهم الطريق فى الداخل والخارج بالدعوة والسلاح

□

ان تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفــــرد له المجلدات الضخام ، لأنه تاريخ يغنى عن التواريخ ٠ اذ كانت هذه الدولة نموذجا يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض فىقيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التــــــدبير والمصادفة ٠ فهى الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول اسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبــــــة قيامها ، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على انكارها ، واعتمدت فى الدعوة على وسائل لم يسبقها اليهاسابقولميلحقها نظير لها فىتلك الوسائل الىهذا القرن العشرين ٠٠٠ فمن تلك الوسائل فن التخذيلأو «الطابور الخامس » كما يسمى فى العصر الحديث ، ومنها تسخيرالعلم

والفن والفلسفة والقصص فى نشر الدعوة الظاهرة والخفية، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لانفاذ سياسة بعد أخرى ، ومنها المواكب والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية ، وكانت تثابر على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس اليها بمجالس المحاضرة والمناظرة فى أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء

فقيام الدولة الفاطمية فى الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة ، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هذه الدولة حسبه من عبره وأطواره وتدبيراته ومصادفاته ، ولسنا فى صدد الافاضة فى هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها ، ولكننا نطرق منها فى هذه العجالة ما له علاقة بالانتساب الى الزهراء وما له علاقة بآثارها الباقية فى هذا البلد ، لأنه البلد الذى شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها ، وكانت مخلفاتها فيه أبقى المخلفات فى تاريخها الحديث

# الذنب

الدعوى المنتظرة هى أقوى الدعاوى، وهى كذلك ـ ومن أجل ذلك ـ أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة

والمقصـود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تمليها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية ، وهى قوية لانها لا تأتى عفوا ولا يكتفى المدعون فيها بابدائهـا وترك السامعين وشأنهم فى قبولها أو الاعراض عنهـا ، بل هم يدعونها ويحتالون على ايرادها موردالصدق وتمثيلها فى صورة الكلام السائغ المحقق ، ثم يكررونها ويلحـون فى تكريرها ويتحينون الفرص لنشرها فى مظان الاصـغاء اليها والرغبة فى اثباتها

واذا كانت البواعث التى تمليها متعددة متجددة كان ذلك خليقا أن يزيدها قوة على قوة والحاحا على الحاح ، فهى تتوارد من جهات كثيرة وترجع الى الظهور كرة بعد أخرى ، كلما خيف عليها أن تضعف ، وكلما تعـاظم الرجاء فى التحدث بها والالتفات اليها

ان الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا

وهى من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة

لأن البواعث التى تمليها تريب السامع حين تنكشـف

له ، وقد يكون الالحاح فيها مشككا لمن يسمعها وكاشفا للغرض والهوى من ورائها

واذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط الى الروايات والأقاويل ، فلا يتفق مروجوها على اختراعها ولا على نقلها ، ومن لم يكن منهم مخترعا لروايته لم يجهد ذهنه فى التوفيق بين النقائض والتقريب بين الأسانيد ، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء تعدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب ، وتخسر من هنا كما تكسب من هناك

□

وقد كان اتهام الفاطميين فى نسبهم دعوى منتظرة ، وكانت البواعث اليها متعددة متجددة ، فلا جرم تكون فى وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على النسب

وكانوا يهددون بمساعيهم فى طلب الخلافة خصوما كثيرين يملكون الدول فى المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه ، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذى يعتمدون عليه

فلم يكن أقرب الى الذهن من مهاجمتهم فى نسبهم وتجريدهم من الحجة التى يؤيدون بها مسعاهم ، فهذه هى

الدعوى المنتظرة التى تعددت بواعثها فى المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتثبيتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين ، وكلهم ذوو سلطان وذوو براعة وافتنان ، ومن ورائهم من يرغبون فى بقائهم أو يتلقون دعواهم بالتصديق والايمان

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على انتسابهم الى النبى عليه السلام ، وكان هذا النسب حجة معتمدة لا يمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الاسلامية الذين تسرى بيهم دعوى آل البيت ، غير مستثنى منهم أتباع الدولة العباسية فى ذلك العهد على الخصوص ، وهو عهد النقص والادبار الذى يكثر فيه طلاب الزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل ، وعلى الانصاف الواضح أو على الجور الصراح

كان مصير الخلافة الى الفاطميين نذيرا بزوال عروش كثيرة ، منها عروش العباسيين فى بغداد والاخشيديين فى مصر والأغالبة فى افريقية الشمالية والأمويين فى الأندلس ، والأمراء الصغار المنبثين فى هذه الرقعة هنا وهناك ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبديل والانتقال

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين ، ولكن العباسيين فى ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين ، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون

عندما ضعفت دولة بنى أمية قويت دعوة آل البيت التى كان يقوم بها العلويون والعباسيون

ولكن العباسيين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين انهم كانوا يدعون الى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلى أحق الناس باسم آل البيت فى رأى أتبـــاع الدولة الجديدة ، وبلغ من ايمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بنى العباس أظهروا العزم على الوصاية بعــدهم لولاة عهد من العلويين ، كما فعــل الرشيد والأمين • ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لجأ الأئمــة العلويون الى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيـــــدة فى الامام المستور ، ثم شاعت الدعوة الى العلويين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات الى بنوة محمد عليه السلام • فقــد يقال ان العباسيين أبناء العبـــاس عم النبى وان العلويين أبناء على ابن عمه أبى طالب •أما الانتماء الى فاطمة الزهراء، فهو انتماء الى بيت النبى نفسه ، وليس الى الاعمام ولا أبناء الأعمام

فى أوائل الدولة العباسية،كانت دعوة آل البيت تشمل العلويين والعباسيين ، وكان الخلاف يسيرا بين الفريقين على أمل التوفيق بينهمـــــا بعد حين ، وكانت قوة الدولة فى نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذى هان أمره ولم يبلغ أشده فى أول عهده ، وكان يكفى أن يقال عند اشتداده ان وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام

ولكن الدولة العبـــاسية بقيت حتى تضعضعت وكثــر الساخطون عليها والمتبرمون بها والراغبون فى زوالهــا ، وكثر كذلك شهداؤها من آل البيت أبناء على وفاطمـــة ، وزال عنها عطف العــــاطفين عليها لقرابتهــــا من بيت

النبوة ، فتحول عطفهم الى الشهداء المظلومين المشردين فى أرجاء البلاد ، وأصبح تشردهم الذى يظن به أنه يضعفهم مددا لهم من أمداد العطف والولاء ، وأصبحت دعوة « الفاطميين » وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون، لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون على الظلم والنكال واختلال حبل الأمور

ومن الفاطميين هؤلاء يأتى الخطر الأكبر على بنى العباس، ومن نسبتهم الى فاطمة الزهراء يأتى امتيازهم بحق الخلافة وبهذا الحق يطلبون النصفة للشهداء والمضطهدين، فأى شيء أقرب الى مألوف السياسة من دفع هذا الخطر بانكار هذا النسب ، ومن حصر الولاء لأهل البيت فى القائمين بالأمر من بنى العباس ؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا انهم ينتسبون الى ميمون القداح بن ديصان الثنوى القائل بالالهين ، وتلقف التهمة كل ناقم على الفاطميين وهم صنوف ينتمون الى كل مذهب ونحلة، منهم كما أسلفنا الاخشيديون والأغالبة والأمويون الأندلسيون ، وزاد عليهم من كان تابعا للفاطميين ثم تمحل المعاذير للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء العشائر فى الجزيرة العربية ، بل قيل فيما قيل ان أناسا من العلويين شهدوا عليهم بادعائهم النسب فى على وفاطمة عليهما السلام ، ونسب الى الشريف أبى الحسين محمد بن على المشهور بأخى محسن الدمشقى انه كتب رسالة فى تفنيد دعواهم ينكرها المقريزى وينسبها الى عبد الله بن رزام

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله الى كتابة الاشهاد ببطلان نســب الفاطميين انه سمع أبياتا نظمها الشريف الرضى يقول فيها :

ما مقامى على الهوان وعندى
مقـــول صارم وأنف حمى

ألبس الذل فى بلاد الأعادى
وبمصر الخليفـــة العلوى

من أبوه أبى ومـــولاه مولا
ى اذا ضامنى البعيد القصى

لف عرقى بعرقه سيد النـا
س جميعـــا محمد وعلى

ان ذلى بذلك الجـــد عز
وأوامى بذلك الربـــع رى

فأرسل الى أبيه الشريف أبى أحمد الموسوى يقول :انك قد عرفت منزلتك منا وما تقدم لك فى الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يضاد ما لا نزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاة منك ، وقد بلغنا انه قال شعرا ـ هو هذه الابيات ـ فياليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو ناظر فى النقابة ـ نقابة الاشراف ـ والحج ، وهما من أشرف الأعمال ، ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأنكر الشـعر فأمره أن يكتب بخطه الى القادر بالاعتذار وانكار نســـب الحاكم بأمر الله ، فأبى ، فقال له أبوه : « أتكذبنى فى قولى ؟ »

فقال : « كلا ما أكذبك ، ولكنى أخاف من الديلم ومن الدعاة فى البلاد » فقال له أبوه : « أتخاف من هو بعيد عنـك وتسخط من هو قريب منـك ... وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك ؟... » وغضب أبوه وحلف لا يقيم معه فى بلد، فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى انه لم يقـل تلك الأبيات وكتب بخطه فى محضر الانكار ، وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحضر ان المهـدى الفاطمى لم يكن يسمى عبيد الله ، وان اسمه الصحيح « سعيد بن أحمد بن عبدالله القداح بن ميمون بن ديصان »

وقد اختلفوا فى نسبته تارة الى المجوس وتارة الى اليهود ...واختلفوا فى الجد الذى كان مجوسيا أو يهوديا فقيل ان عبيد الله كان ابن حداد يهودى مات عن زوجة فبنى بهـا الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتبنى عبيد الله ، وقيل ان عبيد الله قتل فى سجن سجلماسة بالمغرب فأشفق داعيه ( أبو عبد الله الشيعى ) من سقوط الدعوة كلهـا وجاء بعبد ( يهودى ) فسماه عبيد الله وبايعـه بالخلافة ، وقيل ان أمة للامام جعفر الصادق علق بها يهودى فولدت منه عبيد الله ونشأ فى بيت الامام منتميا الى أهل البيت .

□

وقد كانت لهجة البيان العباسى غاية فى العنف تنم على الغيظ وتخلو من الدليل ، ومنه « ان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم ـ حكم الله عليه بالبـوار

والدمار ـ ابن معد بن اسماعيل بن محمد بن ســـعيد ـ لا أسعده لله ـ وان من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وان ما ادعوه من الانتساب اليه زور وباطل ، وان هذا الناجم في مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ، وللاسلام جاحدون، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية ...»

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم في العنـــف والسباب فقال صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين عن الفاطميين ان المعروف عنهم انهم « بنو عبيـــد ، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي ، وقيل : كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حدادا . وعبيد هذا كان اسمه سعيدا ، فلما دخـل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم انه علوي فاطمي ، ثم ترقت به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدي ، وكان زنديقا خبيثا عدوا للاسلام متظاهرا بالتشيع متسترا به حريصا عـلى ازالة الملة الاسلامية ، قتل من الفقهاء والصالحين جمـــاعة كثيرة ، وكان قصده اعدامهم من الوجود لتبقى العـــالم كالبهائم فيتمكن من افساد عقائدهم ، ونشأت ذريته عـلى ذلك منطوين يجهرون به اذا أمكنتهم الفرصة والا أسروه ، والدعاة منبثون لهم في البلاد ، وبقي هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم الى آخرها ، وفي أيامهم كثرت الرافضـــة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغـــور الشـــام ، وأخذت الافرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة الى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الاتابكي وتقدمه مثل

صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة .. »

ومن اعتدل من المؤرخين فى الانكار والسباب ، كابن خلكان ، أيد التهمة بالقصص التى تؤكدها لو انها ثبتت كالقصة التى اشتهرت عن سيف المعز وذهبه ، وان ابن طباطبا سأل المعز عند وصوله الى مصر عن نسبه فسل سيفه ، فقال : « هذا نسبى » ثم نثر عليهم الذهب وقال : « وهذا حسبى » وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه

وظاهر بغير عناء ان الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية ، لأن الذين وقعوها من الاشراف العارفين بالأنساب قد أكرهوا على توقيعها ، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة فى مسائل النسب والتاريخ ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف بنسبة جد الفاطميين الى ديصان الثنوى وهو من أبناء القرن الثالث للميلاد ذهب الى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الاسلامية بنحو أربعة قرون ، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من يسميه المؤرخون حينا بديدان وحينا بزندان أودندان ولا شأن له بنشأة الثنوية ولا بالدعوة اليها فى قول أحد من أولئك المؤرخين ، وانما قيل عنه انه كان على ثروة كبيرة وعاون اسحاق بن ابراهيم بن مصعب على الثورة فى عهد الخليفة المأمون

وادعاء الموقعين للوثيقة ان خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا الموبقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ ، بل ثبت من هذه الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح

فى قصور الخلفاء من التسرى واقتنـــاء الاماء ، وقد خولط الحاكم بأمر الله فى عقله فجنح الى التنطس فى الطعام وحرم المباح منه بدلا من اباحة الحرام !

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الاولى قصة التبشيع والتشـنيع فى نسبة الفاطميين تارة الى المجوس وتارة الى اليهود ، فكأنه لا يكفى أن تسقط دعواهم فى الخلافة حتى تسقط دعواهم فى الاسلام وترجع نسبتهم الى أبعد الملل عن الديانة الاسلامية فى عرف ذلك العصر على الخصوص ، ثم يقال عنهم ما لا يقال فى جميع المجوس واليهـــود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات

والقصة التى رويت عن سيف المعز وذهبه غنيـــة عن التكذيب ، لأن ابن طباطبا الذى قيل انه سأل المعز عن نسبه عند وصوله الى مصر قد توفى قبل مقدم المعز اليها بأربع عشرة سنة،وابن خلكان صاحب القصة هو الذى ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال : لعله أمير آخر ... مع ان اسم « المعز » هو الذى دار عليه مثل الســـيف والذهب المشهور ، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه ، فكل جواب أيسر وأنفـــع من الجواب الذى وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له الا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى فى الخلافة

وقد روى ابن خلكان أيضا ان العزيز بالله صـعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات :

انا سمعنا نســـبا منكرا

يتلى على المنبـــر فى الجامع

ان كنت فيما تدعى صادقا

فاذكر أبا بعد الأب الرابع

وان ترد تحقيق ما قلته

فانسب لنا نفسك كالطائع

أو فدع الأنساب مستورة

وادخل بنا فى النسب الواسع

فان أنساب بنى هاشم

يقصر عنها طمع الطامع

فان صحت هذه الرواية فالتحدى فيها باظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خبير بموضع الخلاف ، لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق التاريخ الذى عمد فيه الأئمة العلويون الى الاختفاء والتنكر بأسماء غير أسمائهم وائتمان الدعاة دون غيرهم على أسرار ذريتهم وأولياء عهودهم ، وانما العجيب فى الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذى يتحداه المتحدى باظهار نسب كنسب « الطائع » العباسى ، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وزيره عضد الدولة الى العزيز وحمله الهدايا اليه واعترافه بنسبه وانه تلقى منه الشكر «لاخلاصه فى ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو امامته ومحبته لآبائه الطاهرين »

وقد تواتر ان عضد الدولة هم بالخطبة فى بغداد للخلفاء الفاطميين فرده بعض الدهاة من أصحابه عن هذا العزم وقال له : « انك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ولكنك اذا أقمت علويا فى الخلافة كان معك من تعتقد انت

وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك ..»

وقد أشار صاحب « الروضتين فى أخبار الدولتين » الى قيام الدولة الأيوبية بعد الدولة الفاطمية ولكنه يعلم ان صلاح الدين الأيوبى أذن بالخطبة فى يوم الجمعة للخليفة الفاطمى ، وانه انما حول الخطبة الى الخليفة العباسى بعد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، وانه أطاع فى ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زنكى ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن فى هذا التغيير ، ومرجعه الأهم الى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة ، اذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون فى اتباع مذهب أهل السنة ، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع ، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين ، وقد تفاقم النزاع بين رؤسائهم حتى سرى الى الألقاب ، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين

ومما يلاحظ ان بعض المؤرخين يحيلون على البعد فى كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية ، فأبو المعالى الفارسى يقول فى كتابه « بيان الأديان » ان ميمونا القداح من مصر ، وجملة المؤرخين يقولون عنه انه من فارس ، وكل منهم يحيل الى المكان البعيد حيث يتعذر عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق فى مكان قريب

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون ان شهادة الشاهدين

بالطعن فى نسب القوم كانت على السماع ، وأصاب المقريزى حين قال عن العلويين انهم « على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى ؟ هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف »

والمقريزى وابن خلدون قد أرخا للمهدى الفاطمى بعد عهده بزمن طويل ـ وهما سنيان غير متشيعين ـ ولكنهما نظرا فى مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح ، وقد عاصر المهدى مؤرخ أندلسى ـ هو عريب بن سعد ـ وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح فى نسب الرجل ولم يسمع من أمراء أمية فى الأندلس قدحا فيه

وغاية ما ننتهى اليه فى هذه المسألة ـ مسألة النسب الفاطمى ـ ان المطاعن لم تمسسه بدليل واحد يعول عليه، وان مطاردة عبيد الله عند اتجاهه الى المغرب دليل على ان العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته ، وان مبايعة الشيعة لأبنائه ـ سواء شيعة الديلم فى بغداد أو شيعة الزيديين خاصة فى اليمن ـ ترجح صدق انتسابهم الى السيدة فاطمة الزهراء ان لم تؤكده كل التوكيد ، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا فى صدر هذا الفصل أضعف الدعوات لانها الدعوى المنتظرة التى تمليها البواعث المتعددة ولا يتخيل أحد أن يتصدى الفاطميون لطلب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضون لانكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينكروه

# الباطنية

كان المنتفعون بالطعن فى نسب الفاطميين كثيرين متعددين ، كلهم كما تقدم من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان ، وقد استعانوا بالحول والحيلة فى ترويج مطاعنهم واختراع أقاويلهم فاستمالوا اليهم فى البلاد الاسلامية من لا مصلحة له فى مطاعنهم ، ولكننا نحسب — بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه — ان المطاعن فى النسب لم تكسب من المصدقين الا القليل الذين ينظرون الى الأمر كله بغير اكتراث أو يكترثون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون • أما الأثر البالغ فى تنفير الناس من الفاطميين فانما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم ان الباطنيين جميعا اسماعيليون ممن ينتمون الى اسماعيل بن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطمية

فمن زمن والناس فى المشرق يفهمون ان الاسماعيلية هى كلمة مرادفة للباطنية، ويلصقون بالاسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوىء والمنكرات ، ومن الفضائح والقبائح، وهى فى الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج الى جهد كبير فى التنفير والتشهير

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين ان بعض المجاهرين

بالاباحة والاجتراء على مناسك الدين الاسلامى كالقرامطة فى البحرين كانوا يعلنون التشيع للاسماعيليين، أو بعبارة أخرى للفاطميين ، فوقر فى الأذهان ان دعاة الاسماعيلية جميعا اباحيون ، وان الباطنية هى اخفاء المنكرات واعلان التشيع للتغرير والتضليل

وقد قيل ان رجلا من دعاة الباطنية يدعى «على بن فضل» ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره فى روايات مختلفة :

خذى الدف يا هذه والعبى
وغنى هزاريك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم
وهذا نبى بنى يعرب
أحل البنات مع الأمها
ت، ومن فضله زاد حل الصبى
وقد حط عنا فروض الصلا
ة وحط الصيام فلم يتعب
اذا الناس صلوا فلا تنهضى
وان صوموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا
ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك المعرسـ
ـين من الاقربين أو الأجنبى
فكيف حللت لهذا الغر
يب وصرت محرمة للأب

أليس الغـــراس لمن ربّـــه
ورواه فى الزمن المجـــدب

وقيل على الجملة ان الباطنيين يظهرون الاسلام ليكيدوا له ويدسوا عقائد الشرك والضـــلال بين أهله ، وانهم فى الأصل مجوس منطوون على بغض شديد للعرب ودينهم لم يقدروا على هدم هذا الدين وتقويض دولة العرب بالقـــوة فاحتالوا على مأربهم بالدسيسة والمكيدة ، وأنشأوا نحلتهم لاستدراج المسلمين وتحويلهم شيئا فشيئا من عقائدهم الى التعطيل والاباحة والكفر بالبعث والمعـــاد وانكار الفرائض والعقائد والأديان

قالوا : وان الاسماعيلية خاصة يبثون دعوتهم على درجات ويأخذون المواثيق والايمان على مريديهم ألا يفشوا لهم سرا ولا يظاهروا عليهم أحدا ، ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدى الأئمة المعصومين ثم تلقين بعض الرموز التى تروق المريد وتشـــــوقه الى المزيد من الأسرار ثم تعريفـــه بنظام الدعوة ومن يتولاها ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانيها ثم الخوض فى المذاهب الفلسفية التى تنتهى فى الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلفى الى تأليه الامام على مذهب الحلول، وانه هو روح الله قد حلت فى جسد انسان ، ولعمـــرى ماذا فى وسع عشرة أو عشرين من « الواصلين » الى هـــذه الدرجة فى أرذل العمر أن يصنعوه حين يعلمون سرا باباحة الشهوات ورفض الأديان ؟ !

وآفة الباحثين فى هذه الألغاز والاشاعات انهم جعلوها

كلها مسألة أخبار وروايات وراحوا يعنتون أنفسهم فيجمع هذه الأخبار والروايات فاذا هي تتناقض ولا تستقر على قرار

□

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التى يبدأ البحث الصحيح فيها وينتهى فى السريرة الانسانية وما يجوز فيها وما لا يجوز ، وما يعقل وما لا يعقل ، وما يستحق أن يعارض علىالاوراق والنصوص وما يجب أن يرفضبداهة ، فلا يطول البحثفيه بعد ذلك الا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة علىحقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات

فمن الطريف حقا أن يقيد المريدون بالايمان والاقسام ليكتموا السر ثم يأتى السر المكتوم فاذا هو سر يحلهم من جميع تلك الايمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم الى يقين جديد !

وأطرف منه أن يقال عن رجل انه معطل منكر للمعاد منكر للأديان ، منكر للوعود الالهية ثم يقال عنه ان كراهة دين من الأديان تبعثه الى الجهاد سرا وعلانية والاستماتة فى الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملا فى يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لا يشهده بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون

انما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه ، فأما المنكر

المعطل لكل عقيدة فلن يبقى فى نفسه من الحماسة الروحية ما يهون عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة لدين هو وغيره من الأديان عنده سواء

كان تصديق هذا مفهوما فى القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يومئذ يعتقدون ان الكافر يكفر فى سبيل الشيطان وانه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السطوة والمتعة بديلا من نعيم السماء ، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس بأعيانهم انهم على صلة بالشيطان وانهم تعلموا على يديه السحر الاسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والرجوم واستهواهم مكره فعقدوا معه صفقة المغبون فى حساب المؤمنين

أما فى عصرنا هذا فمن العسير أن يتخيل الانسان ملحدا ينكر كل شىء ويتجرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شىء من الأشياء كائنا ما كان ، الا أن يكون ذلك الشىء سطوة يطلبها لنفسه فى حياته أو فى بيته ، ولا يعقل حينئذ انه يتدرج بالأتباع المريدين من الجهل بحقيقته الى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغواياته التى يلبسها على الناس بتلبيس من ألغاز العقائد وأسرار الديانات

وقد شغلت طائفة من المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباههم فى اليمن وفارس وادعائهم النسبة الى الاسماعيلية فى المغرب مع مجاهرتهم بالمعاصى واجترائهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء ، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين ان علاقة النسب بين القرامطة والاسماعيليين جد يحتمل البحث ويؤدى البحث

فيه الى ثبوت العلاقة بين هؤلاء وهؤلاء

وأغرب الغرائب ان أحدا من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل : لماذا لم يظهر فى المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أناس من دعاة الاباحية والعصيان ، كالذين ظهروا فى البحرين واليمن وفارس وبعض بقاع الشام ؟

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر فى التاريخ ان الانتماء الى الاسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون فى بلاد الدولة العباسية ويعلنون الخروج عليها ، فهم فى حاجة الى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع ، وانتماؤهم الى الفاطميين أو الاسماعيليين هو السند الذى يركنون اليه فى محاربة الدولة العباسية وانكار حقها فى الطاعة والولاء، ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصى لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الاباحة هى بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين

ولقد حدث فعلا أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا الى الدعاء على المنابر باسم الخليفة العباسى حين وقعت النبوة بينهم وبين الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، وسول لهم الطمع انهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم فى فتح أطراف من بلاد الشام

وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة ان الاباحة هى الدرجة السابعة أو الثامنة التى يصل اليها المريد المترقى فى كشف الحجب وعلم الأسرار ، ثم يقال من جهة أخرى ان هذه الاباحة سر مباح فى الطريق يعكف عليه المؤمن جهرة ويردده الشعراء ويتغنى به القيان

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ فى بحث من البحوث كما انفصلا فى بحث قضية الاسماعيلية والباطنية ، ولهذا كثر فيه التخبط وقل فيه الثبوت والوضوح ، ونحسب أن محنة التاريخ هنا أصعب من كل محنة لأن المؤرخ هنا يعمل عملين ولا يستقل بعمل واحد : يعمل لمعرفة الحقيقة ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التى تحجبها عن عمد وتدبير ، وواحد من هذين العملين كثير على مؤرخى الورق والحروف

□

اننا عرفنا ألوانا من النظم السرية التى اصطلحت عليها الجماعات المتسترة فى العصور القديمة ، وبعضها دينى يتخذ له أغراضا سياسية كالجماعات الاورفية والجماعات الفيثاغورية ، ولا ندرى الآن كيف تكشفت هذه النظم المزعومة ، بل لا ندرى هل هى فى الحق كانت موجودة متبعة أو هى أوهام وتخمينات من وحى الاستطلاع والاستنباط

ولكننا اذا سمعنا عن نظم سرية فى عصور التاريخ القريب فلا معنى فى هذه الحالة للاحالة على القدم أو للخبط فى الظنون ، اذ يحق لنا فى هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذى تدرج فى مراتب الباطنية حتى وصل الى قيادة الدعوة ثم خانها وأفشى أسرارها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذى تعقب الجماعة بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التى نشرت بعد العثور عليها فى ابانها أو بعد انقضاء زمانها ،

ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحدا تحدث عن مريد واحد صعد على مراتبها من درجة التلميذ المبتدىء الى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها ، ولا أن أوراقا لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت فى أوانها أو بعد أوانها ، بل زعم الرواة انالذى فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعواه قبل دعوى اسماعيل ابنــه وخلفائه هو عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هو عبد اللهبن ميمون القداح ؟ هو واضع النظـــام كله ومرتب الدرجات كلها ومصطنع التخفى والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم اسماعيل بن جعفر الصادق جد الامامين أجمعين٠٠!

فعبد الله هذا هو الذى قال فيما زعم الرواة :

هات اسقنى الخمرة يا سنبر
فليس عنـــــدى اننى أنشر
أما ترى الشيعة فى فتنــــة
يغرها عن دينها جعفـــــر
قد كنت مغـــرورا به برهة
ثم بدا لى خبـــــر يســتر

ولم تكفه قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها :

مشيت الى جعفر حقبـــــة
فألفيتــــه خـــادعا يخلب
يجر العــلاء الى نفســـــه
وكل الى حبله يجــــذب

فلو كان أدركم صـــــادقا
لما ظل مقتولكم يسـحب
ولا غض منكم عتيـــق ولا
سما « عمر » فوقكم يخطب

وما كانت خلافة عمر ولا أنباء القتلى من آل فاطمة وعلى سرا مجهولا قبل اللياذ بالامام جعفر والمبايعة له ولبنيه ، ولا حدث بعد العلم بهذه الأسرار وغيرها انه عدل عن الدعوة الاسماعيلية فيما تواترت به أخباره فى المشرق والمغرب ، فما زالت دعوة القداح الى ختام حياته قائمة على المبايعة بالخلافة لاسماعيل وأبناء اسماعيل .

□

وعلى هذا النحو يتتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو بالواقع صدمة توجب الشك ان لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه . وخير من هذه « الورقيـــات والنصيات » أن نطمئن الى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها الى قول صحيح أو نقد صحيح

ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التى كانت شائعة فى العالم الاسلامى من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة ، ونخصص منها بالنظر ما يرجع الى مطالب الحكم من جهة ومساعى التكتم والمداراة من جهة أخرى

فالدولة العباسية دخلت فى دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة فى الحكومة القائمة وكثر المنفصلون عن الدولة والمنتقضون عليها ، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه • فمن خرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبى مع وجود عترة النبى من أبناء على وفاطمة ، ومن اعترف لبنى العباس بالحق الشرعى فى الخلافة زعم ان الحكم فى دولتهم لغيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواطأون مع الولاة على انتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان ، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لانكار الخلافة على القائمين بها والاستسلام للأدعياء الواثبين عليها ، وتتابع المنتحلون للمعاذير الدينية فى طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المغتصبين أو المستضعفين

وفى تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات ، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبى الذى نسب فى بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلويين فى الكوفة • فانه ادعى النبوة أو المهدية فى بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والى حمص من قبل الاخشيد فاعتقله ولم يطلقه الا وقد عدل عن دعواه ، ومن أحاديث المعجزات التى طولب بها كما جاء فى رسالة الغفران انهم قالوا له فى بنى عدى : « ها هنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا انك مرسل • فمضى الى تلك الناقة وهى رائحة فى الابل وتحيل حتى وثب على ظهرها ،

فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة وورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم »

قال أبو العلاء بعد ذلك : « وحدثت أيضا أنه كان فى ديوان اللاذقية وان بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحا مفرطا ، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها فى يومك ، وعد له أياما وليالى ... فبرىء الجرح فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ويقولون انه كمحيى الأموات ... وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية ، أو فى غيرها من السواحل ، انه أراد الانتقال من موضع الى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل ألفى الأمر كما ذكر ...»

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية فى عنفوان شباب أبى الطبيب ، فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمنا عن دعواه ولم يعدل عن طلب الولاية بذريعة الأدب والكتابة ، وأطمعه فيها ان كافورا الذى طلب منه الولاية كان خصيا مملوكا فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم : « دون الله يعبد فى مصر ..! »

قال داعى الدعاة يصف حال الناس فى تلك الأزمنة من كتاب أرسله الى أبى العلاء المعرى : « ... اننى شققت بطن الأرض من أقصى ديارى الى مصر وشاهدت الناس بين

رجلين : اما منتحلا لشريعــة صبأ اليها ولهج بها الى الحد الذى ان قيل له من أخبار شرعه ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق ، ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه ، فالعقل عند من هـــذه سبيله فى مهواة ومضيعة ... أو منتحلا للعقل يقول انه حجةالله تعالى على عباده ، مبطلا لجميع ما الناس فيه ، مســتخفا بأوضاع الشرائع ، معترفا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ، ولجاما على رؤوس المجرمين المجازفين ، لا على انهـــا ذخيرة للعقبى أو منجاة فى الدار الآخرى . فلمـــا رمت بى المرامى الى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ، بفضــــل فى الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفى أمره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهبا ويتبعه من تقاسيم الظنون سببا ، وحضرت مجلسا جليلا أجرى فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثا وسمينا ، فحفظته بالغيب ، وقلت ان المعلوم من صلابته فى زهده يحميه من الظنة والريب ،وقام فى نفسى ان عنده من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا ، وأمرا تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا ، ولما سمعت البيت :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصـــحائح

وثقت من خلدى فيما حدست عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : ان لسانا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقا ،ويفتق

من هذا العظيم رتقا ، للسان صامت عنـــده كل ناطق ، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق ، فقصدته قصـــد موسى عليه السلام للطور اقتبس منه نارا ، وحاول أن أرفع بالفخر منارا ، بمعرفة ما تخلف عن معرفته المتخلفـــون واختلف في حقيقته المختلفون ... »

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطاب هو « أبو نصر هبة الله ابن موسى بن أبى عمران» صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة فى الدولة الفاطمية ، كتب رسائله الى حكيم المعرة يناقشه فى تحريمه اللحوم على نفسه ويسائله عن البعث والقيامة ، مستعظما على المتقولين أن يتهمـــوا بانكارهما حكيما كأبى العلاء ، وقد استعار من اسمه « موسى بن أبى عمران » تفسيرا لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور

وعلى ذكر أبى العلاء واعتقاد الناس فى أسرار الحكمـة وقوتها الخفيـــة ننقـــل ما رواه ابن الوردى حيث ذكر فى تاريخه « ان حساده أغروا به وزير حلب فجهز لاحضاره خمسين فارسا ليقتله ، فأنزلهم أبو العـــلاء فى مجلس له بالمعرة واجتمع بنوعمه وتألموا لذلك فقـــال : ان لى ربا يمنعنى ، ثم قال كلاما منه ما لا يفهم ، وقال : الضيوف الضيوف . الوزير وزير . فوقع المجلس على الخمسين فارسا فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ، فمن الناس من زعم انه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم انه قتلهم بسحره ورصده »

وروى صاحب الكوكب الثاقب هـذه القصـــة بزيادة

تفصيل فذكر عن الغزالى انه قال : « حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار قال : دخلت معـــرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب اليه بأن المعـــرى زنديق لا يرى افساد الصور ويزعم ان الرسالة تحصل بصـفاء العقل ، فأمر محمود بحمله اليه من المعرة وبعث خمسين فارسا ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن ســـليمان وقال له : يا ابن أخى ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فان منعناك عجزنا وان أسلمناك كان عارا علينا عند ذوى الذمام ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال : هون عليك يا عم ولا بأس عليك، فلى سلطان يذب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى الى نصـف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر الى المريخ أين هو ؟ فقال : فى منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد فى رجلى خيطا واربطه الى الوتد ، ففعـــــل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الازل ! يا علة العـــلل ! يا صانع المخلوقات ! وموجد الموجودات ! أنا فى عزك الذى لا يرام وكنفك الذى لا يضام ، الضيوف الضـــــيوف .. الوزير الوزير .. ثم ذكر كلمات لا تفهم ، واذا بهدة عظيمة فسئل عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف بن على : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعرى فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار . فقال : زعموا اننى زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى عـلى أبياتا من قصيدة أولها :

استغفر الله فى أمنى وأوجــالى
من غفلتى وتوالى سوء أعمــالى (١)

هذه الحالة النفسية التى عمت أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الرابع خاصة خليقة أن ينجم فيهـــا عشرات ممن يستهوون الناس بالأسرار الباطنة ، لأن عالم البـــاطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب : طالب الدين وطالب الدنيا ، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة ، أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الاسود ، وخليق أن يقف النظر طويلا عند قول داعى الدعاة انه يطلب سرا من أبى العلاء ، وانه قام فى نفسه ان عند أبى العلاء « من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا » • فانه قد يكون فى هذا القول مادحا أو مازحا ولكنه أبان عن سمة العصر كله من « الباطنية » التى يفرضها على نفسه العـــارف بأسرار الدين •••

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلامصادر من داعى الدعاة فى الدولة الفاطميـــة ، وهو الرجل الذى ينتهى اليه كل سر ، ويصل اليه التلميذ بعد درجاتليسمع منه ـ فيما زعم الزاعمون ـ ان الدين لغو وان القيامة وهم وان المحرمات مستباحة للعارفين ، فلو كانت هذه رسالته التى ينتهى اليها كل متقدم فى درجات الأسرار فما حاجته الى محاسبة أبى العلاء على الظنون التى تذاع عنه فى أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب ؟ لقد كان الرضى عن مذاهب الزندقة جميعـــا أولى به من التعرض لذويهـــا

(١) كتاب أبو العلاء المعرى للمرحوم « أحمد تيمور باشا »

ومحاسبتهم عليها ، فانهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول اليه ، بعد طول العناء

الا أن الخلاصة الثابتة فى ذلك العصر ان « الباطنية » الواقعية حالة من الحالات التى لا تستغرب من دعاته المخلصين وأدعيائه المغرضين ، فهناك « باطنية » يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم ، وادعاء الأسرار فى تلك البيئة أمر منتظر مترقب لا غرابة فيه ، وأقرب ما يكون هذا الادعاء الى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكانة بما يعلمه ويتعلمه منه غيره ، وفاقا لشرطه وتدبيره

وقد صار المجتمع الاسلامى الى تلك الحالة فى القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة

فأما التمهيدات التى هى من فعل السياسة فهى ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات ، وأما التمهيدات التى هى من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهى انتشار الفلسفة ونشأة البحوث العقلية فى علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد، ومنها اقتباس الحضارات الغربية وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارىء فى غير بحث ولا مبالاة

وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يبغضون التغيير ويحافظون على كل قديم

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب الى التجديد والتغيير ، وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم ، فكان من

الطبيعى الذى لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير ما يبطنون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند « الواصلين » المتمكنين من بواطن الأسرار ، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجمات الظنون ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد ، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقواما يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة ، وهى علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم فى ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطلبين، فان الفلاسفة الذين كانوايتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التى لا تقبل الفساد على كواكب السماء وان الصلة بينها وبين الانسان تتوقف على الرياضة والصفاء ، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح فى العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والاشارات

واذا كانت « الباطنية الواقعية » قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهدية ، وقد أوقعت فى النفوس أن ناسكا ضريرا يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم ، فمن الخلط أن يقال ان الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية ، وان هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح يومئذ فى الخفاء ، وكل ما تذرع به الطامعون فى الحكم من ذرائع الدنيا والدين

# الباطنية الفاطمية

وكانت للفاطميين على هذا باطنية فاطمية أو اسماعيلية، الى جانب هذه الباطنية الواقعية

لم يقم الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الاسماعيلية الى داعية من المجوس أو اليهود دبرها تدبيرا ولفقها تلفيقا لهدم الاسلام خاصة وهدم الديانات عامة ، وتلقين « الواصلين » دروس الكفر والتعطيل وانكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات ، كراهة للعرب ودولتهم ، وانتقاما منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان

فالتهمة ضعيفة لانها جاءت من مغرضين غرضهم معروف، وهى ضعيفة بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة • فأصل الدعوة تارة من المجوس وتارة من اليهود ، ومرة يرجع أصلها الى ديصان الذى ظهر قبل الاسلام ، ومرة أخرى يرجع الى ابن القداح الذى يتبين من شعره انه مسلم وانه شك فى الامام جعفر بعد أن لاذ بة وتتلمذ عليه ، لأن أئمة الشيعة يقتلون وينهزمون

وفى التهمة من الضعف فوق هذا وذاك انها لا تجرى مجرى المألوف من طبائع النفوس ، فان الرجل الذى يكفر بالدين عامة لا تملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل ويستهين بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب اجماع الناس من حوله على اختلاف النحل والأديان

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهدم الدين اذا كفر به فى كل عصر طائفة من « الواصلين » معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات فى الخفاء على انفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء ، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعى أو سعاية من ساع ، ولم يزل الشك يتسرب الى آحاد من الحائرين والمترددين يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم وذوى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد

وربما تشيع للفاطميين أناس خبطوا فى العقائد خبط عشواء وجهروا بمذاهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الاسلام الصحيح ، ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الامام عليه السلام الى عهدنا الذى نحن فيه ، ولم يكن هذا التشيع الممقوت حجة على الامام على ولا على أحد من بنيه الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا عنه ولم يرتضوه

ففى حياة الامام على كان عبد الله بن سبأ وأصحابه يؤلهون عليا ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجعة النبى وينشرون مذهب الحلول وتناسخ الارواح، وبعدمقتل

الامام نشط أصحاب النحلة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول فى حياة « محمد بن الحنفية » وقيل عن المختـــار الثقفى داعية القوم انه ادعى النبوة ونظم له قرآنا يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه فى الصلوات ،ومكان الامام وابنه محمد فى الاسلام أرفع من أن يتطاول اليه من أجل هذا عدو يلج فى عدوانه فضلا عن الولى والصديق ، وقد بقى المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون فى ضلالتهم بعد أن برىء منهم الامام على وعاقبهـم بالحريق ، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام فى الحجاز وتركهم بالعراق يلجون فى الادعاء له والادعاء عليه

ولم يخل عصر الامام جعفر الصادق ـ أبى اسماعيــل رأس الاسماعيليين ـ من داعية يفترى على الأئمة العلويين، وهم أحياء ، كما فعل أبو الخطاب الاسدى الذى كان يقول بتشخيص الجنة والنار ، وزعم فى مبـــدأ أمره أن أولاد الحسن والحسين أنبيــاء الله ، ثم زعم انهم أرباب وان الامام جعفرا اله يعبد ، فلعنه جعفر الصادق وبرىء منه ونفاه ٠ قال أبو منصور البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق « فادعى بعد ذلك فى نفسه انه الاله ، وقال أتباعه ان جعفرا الاله ٠٠٠ غير أن أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من على ، وجوزوا شهادة الزور على مخالفيهم »

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين، ومن شهادة الزور ما نحلوه لأصحاب المذاهب من الشيعيين والسنيين

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبـد الله بن سبأ

للامام على وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية، فأنكرهم الخليفة الفاطمى حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج ، وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب الى داعية القرامطة يقول له : « العجب من كتبك الينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم اراقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته الى أرضك ورجوت أن نشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ! »

وعلى خلاف ما قيل عن اباحة المحرمات فى المذهب الفاطمى ، ثبت من نصائح أئمة فيهم انهم كانوا يتصدون فى الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومريديهم بالقصد فيه ، وقد أوصى المعز أتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات : « الزموا الواحدة التى تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ... »

وعلى خلاف دعوى الربوبية كان المعز هذا ــ وهو أعلمهم بالتنجيم ــ يقول كما روى عنه القاضى النعمان فى كتاب المجالس والمسايرات : « من نظر فى النجامة ليعلم عدد السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما فى ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك

علم غيب الله والقضاء بما يكون فقد أساء وأخطأ »

وكان العزيز كالمعز فى هذا المعتقد كما قال أخوه تميم فى احدى قصائده :

ولما اختلفنا فى النجوم وعلمهـا
وفى انها بالنفع والضر قد تجرى

فمن مؤمن منـــــا بها ومكذب
ومن مكثر فيها الجدال وما يدرى

ومن قائل تجرى بسعد وأنحس
وتعلم ما يأتى من الخير والشر

فعلمتنـــــا تأويل ذلك كله
بما فيه من سر وما فيه من جهر

عن الطاهر المنصور جدك ناقلا
وكان بها دون البرية ذا خبـــر

فأخبـــرتنا ان المنجـــم كاهن
بما قال،والكهان من شيعة الكفر

وان جميع الكافرين مصـــيرهم
الى النار فى يوم القيامة والحشر

فجمعتنا بعد اختـــلاف ومرية
وألفتنا بعد التنـــافر والزجر

وأوضحت فيها قول حق مبرهن
يجلى ظلام الشك عن كل ذى فكر

فعدنا الى أن الكواكب زينـــة
وفيها رجوم للشياطين اذ تسرى

مسخرة مضطرة فى بروجهـــا
تسير بتـــدبير الاله على قدر

وان جميع الغيـــب لله وحده
تبارك من رب ومن صـمد وتر
وما علمت منه الائمـــة انما
رووه عن المختار جدهم الطهـر

وقد خولط خليفة من خلفاء الفاطميين فى عقله ــ وهو الحاكم بأمر الله ــ فلم يثبت من تصرفه انه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الاباحة وادعاء الربوبية ، وانه وريث قوم من اليهود أو المجوس مندسين على الاسلام ليفســدوه وينقضوه ، بل ظهر انه يحرم المباح ويطارد اليهـود تارة ويغضى عنهم تارة أخرى على كراهية ونفور ، وانه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلثم يداه وركابه ، وأمر ألا يزيد الناس فى الســلام حين يدخلون اليه على قولهم : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »

ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة انه كان فى تخليطـه وتجديفه فريسة المضللين من وزرائه ولا يجوز أن يقال انه تولى العرش وهو يعلم انه يهودى أو مجوسى يســتدرج المسلمين الى الكفر والاباحة وانه يهدم دولته ودولة الاسلام كله وفاقا لما تآمر عليه آباؤه وأضمروه

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم وزواجره وكل ما شاع عن نقائضهوبدواته، فان التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألوف فى القاهرة لذلك العهد وما تلاه

وقد وضع كتاب عن « قرهقوش » صوره للنـاس فى صورة الطاغية الذى لا يبالى ما يأمر به من المستحيـلات والغرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلفيقـات

الرواة ، فحسبوها كلها جدا لا مرية فيه ، وتناقلوها وأضافوا اليها ، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطىء الى زمن قريب ، وقد كان « قرهقوش » على خلاف ما صورته الروايات عنه مثلا فى الحزم واصالة الرأى وحسن التدبير

وعند ابن خلدون ان الاختلاق ظاهر فيما ادعوه على الحاكم من الدعاوى الدينية ، وانه كان مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة ، وأما ما يروى عنه من الكفر ... فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ، وأما مذهبه فى الرافضة فمعروف ، ولقد كان مضطربا فيه ، ومع ذلك فكان يأذن لأهل السنة من المصريين فى صلاة التراويح ثم ينهى عنها»

على ان الأقاويل عن الحاكم ـ صحت أو لم تصح ـ انما تروى عنه ويعلم رواتها انهم يتكلمون عن رجل مخالط فى عقله لا يعول له على سر أو علانية

□

ونحب هنا أن نوضح ما نستبعد نسبته الى الدعوة الفاطمية فى صميمها على حسب ما انتهينا اليه من الشواهد النفسية والتاريخية

فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا لأنفسهم من دراساتهم فى التصوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهبا ينكره علماء الدين من السنيين والشيعيين

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية

كلها خدمة لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنـــافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة

ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول فى دور التأسيس أو فى دور الانحلال

ليس شىء من ذلك بعيدا ولا موجب لاستبعاده نظرا الى احكام العقل أو شواهد التاريخ

ولكن الذى نستبعده ونرى انه مناقض للواقع والمألوف من الدواعى النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين أناس من المعطلين على انشاء دولة لهدم الدين الاسلامى والدولة الاسلامية معه ، وأن يشمل هذا التواطؤ أقواما فى المغرب والمشرق ويدوم من قرن الى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها بزمن طويل

هذا هو البعيد عقلا والبعيد فى دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط بدليل يقرب الى العقل ذلك الزعم البعيد

أما ما عدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية أو شؤون الدعوة العلوية فى جملتها فقد سار فى التاريخ مطردا على النهج الذى ينبغى أن يسير عليه

ان الايمان بالامامة واطلاع الامام على الأسرار التى تخفى على غيره أمر لازم من لوازم الدعـــوة العلوية فى نشأتها التاريخية

فان المؤمن بحق على وأبنائه فى الامامة يسائل نفسه : لم لا ينصره الله على أدعياء الامامة والخلافة ؟

انه يؤمن بالله وقدرته وقدره، فلا جواب لذلك السؤال عنده

الا انها حكمة يعلمها الله ، وان الامامة العلوية مندورة لزمان غير هذا الزمان ، وان الامام الحق يعلم زمانه أو ينبغى أن يعلمه بالهام من الله

وقد آمن شيعة على بهذا وآمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل الكتاب ، وكلما تباعدت المسافة بين امامة الواقع وامامة الحق تباعدت معها المسافة بين امامة الظاهر وامامة الباطن ، ثم جاء الزمن الذى أصبحت فيه امامة الباطن مستورة حتما فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهونا بما يتعلمه الطالب من الامام المستور ومن دعاته الذين يخلصون اليه ويعلمون مكانه ويفسرون أقواله واشاراته ، ولا بد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من هذا التعليم

واذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد فى قيام دولته على الشريعة والقضاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الامام المستور الذى لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء ؟

انه لن يعتمد على شىء غير الطاعة والثقة التى لا تتزعزع، فلا جرم يطيعه المطيع وهو يؤمن بعصمته على الأقل فى شؤون امامته ، ويؤمن بهلاك روحه ان خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة ، ونقض العهود وحنث باليمين

كل هذا بديه ولا حاجة به الى رصف أوراق أو رص أسانيد ، لأنه لن يكون الا هكذا حيثما كان ، وقد كان

ولا ننس أن الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم: يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسر الذى يروضون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله

ومن التوفيقات التى نسميها بتوفيقات « الموقف » ان الباطنية الواقعية والباطنية الفاطمية أو الامامية على الجملة تتلاقى هنا ـ بحكم الموقف الواحد ـ فى كثير من الأمور

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلاقى فىجانب واحد، وان كانت متعددة المطالب والموضوعات

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هـذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت فىالعنف والصرامة

فكان « الموقف » الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التى لا يرتاح اليها أنصـــار الواقع والمحافظة على القديم

وليس من مجرد المصادفة ان فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من بيوتهم ، فكان الكندى والفارابى وابن سينا من الشيعة ، وكان اخوان الصفاء كذلك من الشيعة ، ومن كان من الفلاسفة سنيا كالفخر الرازى فمذهبه الفلسفى فى صفات الله يوافق مذهبالاسماعيليين وأئمة الفاطميين. اذ كان يرى ان الايمان بتعدد الصفات واستقلال كلصفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافق التوحيد

والذى نستخلصه من المذهب الفاطمى ان فلاســـفتهم أخذوا بمذهب الفيض الالهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو ينتمى فى حقيقته الى الحكيم أفلوطين

نستخلص هذا من قول ابن سينا ان أباه كان يذهب فى الكلام عن العقل والنفس مذهب الاسماعيلية

ونستخلصه من رسائل اخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذى كان يقول به أفلوطين

بل نستخلصه من خلط الخالطين فى هذا المذهب ، لأنه هو المذهب الذى يتعرض لهذا الخلط فى كل مكان ، وقد تعرض له فى الشرق كما تعرض له بين الأوربيين فى القرون الوسطى ، ولا يزال يتعرض له فى العصر الحديث

وعلى نقيض ما قيل عن الاباحة فى مذهب الاسماعيليين يمتاز مذهب الفيض الالهى بالمبالغة فى التطهر والاعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التى يتهالك عليها الجهلاء ، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشىء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الالهية والبحث عنها فى كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود

وقد نبه اخوان الصفاء فى غير موضع من رسائلهم الى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة فى حياته الخاصة والعامة ، وقالوا غير مرة ان الاستسلام لشهوات البدن يقطع الانسان عن آخرته ومعاده ، ومن ذلك قولهم فى رسالة الجسمانيات والطبيعيات: «اعلم ان الاستغراق فى الشهوات فى هذه الدنيا ينسى الانسان أمر الآخرة ويشككه وييئسه منها كما قال قائلهم فى هذا المعنى :

هى الدنيا وقد وعدوا بأخرى
وتسويف الظنون من السوام

وقيل أيضا فى هذا المعنى شعرا :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة
وكل وان طال المدى يتصرم

وقال آخر وقد كان ساهيا عن أمر الآخرة :

ما جاءنا أحـــد يخبـــرانه
في جنـــة من مات أو في نار

وأشعارهم كثيرة في مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التي وقعوا فيها عقـــوبة لهم عندما تركوا وصـــية ربهم ونصيحة أنبيائهم واتبـــاع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم اليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ويأمرونهم به من الزهد في الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشـــهواتها وعاجل حلاوتها »

ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفي انه مذهب نسك وعفـــة وعزوف عن الماديات وترفع الى عالم الروح ، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره في العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه ، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره ونفائسه ليلازمه في معهده ويعيش على مثاله

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب ننقلها هنا كما أوردناها في رسالتنا عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهي كما يلي :

« ... انه يتجاوز ـ أرسطو ـ أشواطا بعيدة في التنزيه والتجريد ، فيرى ان الله ـ أو الأحد ـ من وراء الوجـــود ومن وراء الصفات ، لا يعرف ولا يوصف ، ولا يوجد في مكان ولا يخلو منه مكان ، وكماله هو الكمال الذي نفهمه بعض الفهم بنفي النقص عنه ، وهيهات أن نفهمه باثبات صفة من الصفات ، لأننا نســـتطيع أن نقول انه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول انه هكذا يكون .

« وقد يتصل به الانسان في حالة الكشف والتجلي حين تتجاوز الروح جسدها كما يقول ، ولكنها حالة لا تقبـــل

التأمل والتفكير ، فاذا انقضت فقد يثوب الانسان بعدها الى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام الأحد الى مقام العقل الذى هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول • ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو ان الله أو « الأحد » لا يشغل بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء • أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد وصدور النفس عن العقل من هذا التأمل ، وان العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وان كان دونه فى مرتبة الوجدانية ، ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التي أبدعت هذه المحسوسات

« ومن البديه ان صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئا منه ينتقل من المعطى الى الآخذ فينقص بانتقاله ، أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا تجرده من شيء فيه، وعلى هذا المثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذى لا يعتريه نقص بحال من الأحوال

« والنفس ــ وهى المرتبة الثالثة فى الوجود عند أفلوطين ــ تتجه الى العقل فتنسجم معه فى مقام التجريد والتنزيه ، وتتجه الى الهيولى فتبتعد عن التجريد والتنزيه، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهى فى عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور المجردة • فهذه المحسوسات هى كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس فى عالم المحسوسات ، أو هى كأطياف الحالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان

« فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعدا من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر فى

اتصاله بالهيولى طبقة دون طبقة ، فان العقل دون الأحد والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس ، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تنحدر الى الهيولى التى لا نفس معها ، وهى معدن الشر فى العالم، لأنها سلب محض يحتاج أبدا الى الخلق ، وهو الايجاد أو الايجاب

« وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التى صدرت منها اتجاهات • فهى باتجاهها الى النفس الكلية الهية صافية ، وباتجاهها الى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية ، وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هى جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الأفلاطونية، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان ، وهى تصدر من النفس الكلية اضطرارا كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول ، مستجيبة لطبيعة الاصدار فى ذلك العقل ، وللشوق الهيولانى الذى يترفع بالهيولى الى منزلة المحسوسات فالمعقولات

« والشر فى العالم هو الهيولى لانها سالبة تنزل بالمعقولات والروحيات التى لا تلابسها ، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسة بينها وبين العقل والنفس فى دور من أدوارها ، وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها ، فان أفلحت عادت الى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وان لم تفلح عادت الى الجسد مرة أخرى ولقيت فى كل مرة جزاءها على الذنوب التى اقترفتها فى حياتها الجسدية الماضية ••

« ولا حرية للانسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة

يستلزمها الصدور وملابسة الهيولى ، ولكنه يقـــاوم تلك الضرورة بجهـــاد الشهوات ، فيترقى من مرتبة الحس الى مرتبة التأمل الى مرتبة الكشف ، وينتقل من شتات الحس الى استجماع العقل الى وحدة الأحد ورضوان الكمـــال ، فتجزيه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار ، ولا محـل بينهما لشيء من الاختيـار ، وان قال به أفلوطين فى بعض الأحيان ... »

هذه خلاصة وجيزة جدا لأصول مذهب الفيض كمـــا شرحه تلاميذ أفلوطين ، نعتمد فيها على المراجع الأوربيـة الحديثة التى نقلت مباشرة من اليونانية ، وقد نقل هـــذا المذهب مجملا فى بعض الأوقات ومفصلا فى أوقات أخرى الى اللغة العربية، ووقع فى نقله خطأ اسناد وخطأ تفسير.. فنسب الناقلون فصولا منه الى أفلاطون ونسبوا مبادىء منه الى أرسطو، ولكن المتصوفة الاسلاميين وفلاسفة الاسلام فى المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الاسلامى وهو تنزيه الأحد وعقيدة التجلى على الخلصاء من العبـــاد والمتأملين ، ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة الأنفس فى هذه الدنيا بردها الى الأجساد التى تشـــقى فيها ، أو مكافأتها بردها الى الأجساد التى تترقى فيها الى مرتبة فوق مرتبتها

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معا ما يوافقهـــم فى أقوال أفلوطين ، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطـــريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الامامة الدينية ، وانما قالوا بالكشـــف والقدرة على الخوارق أخذا بالأقيسة الفكرية ، واستدل ابن

سينا على امكان الكشف بأن النفس الصـــالحة تتلقى فى الرؤيا الأنباء بالمغيبات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة ، وان نفس الانسان تتصرف فى مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف فى مادة الكون بقدرة تستمدها من علة العلل التى تتصرف فى جميع الأشياء

وطائفة من أصحاب المآرب وجدوا فى تناسخ الأرواح ما يعينهم على دعواهم ، ومنهم من كان يدعى انه ابن الامام على بالتسلسل الروحانى مع اعترافه بأنه من غير نسله فى السلالة الجســـدية ، زاعما ان البنوة تحصل بالانتماء الى الروح كما تحصل بالانتماء الى الجسد ، ولم يكن فى هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة الى هذه الدعوى لانهم يصححون نسبهم جميعا الى الامام على بغير وسيلة هـــذا التناسخ المزعوم

ولا شك ان العلامة الشهرستانى كان يلخص طرفا من مذهب أفلوطين كما وصل الى المشرق حين قال فى تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات : ان الله « لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم قادر بمعنى انه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى انه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة ... وانه أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس الذى هو غير تام ... ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركة من النفس الى الكمـــال واحتاجت الحركة الى آلة الحركة الخ الخ » .

فهذا المذهب فى الصفات الالهية يوافق مذهب أفلوطين فى جملته ، وفحواه بلا اغراب ولا ابهام اننا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم الا ما يعطينا اياه ، واننا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة الا ما نقدر عليه بأمر الله ، وهكذا فى سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه انه انكار لعلم الله وقدرته ، اذ كان أصحاب الفيض الالهى ينكرون نقائض الكمال ويرتفعون بالكمـــال الالهى مرتفعا تعجز عن ادراكه العقول

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط فى فهمه ممن يهرفون بما لا يعـــرفون ، فان هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضـــة وينكره غاية الانكار ، فان الخلاص من أوهاق المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير ، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى فى الأجسام

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهما مذهبان متناقضان . فان القائلين بوحدة الوجود يسبغون الصـــفة الالهية على الموجودات جميعا وهو قول ينفيه أفلوطين جد النفى تنزيها لله « الأحد » عن جميع المحسوسات والمتعددات

ويسمع السامع ان حكمة الخلق تتجلى فى أناس بعـــد أناس فيخيل اليه ان اللاحق أفضل من السابق أو ان قيام مشيئة الله فى كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء

هذا الخلط فى فهم المذهب قد جنى على الحقيقة فى غير طائل وجر الى الخبط فى الظنون لغير علة لولا الحماقة وخفة العقل وحب الحذلقة والادعاء

وقد كان ابن هانىء الأندلسى من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرفون فيها بما لا يعرفون ، ولم تكن حذلقته مقصورة على مذهب الاسماعيلية بل هى طبيعة نشأت معه فى موطنه ولغط بالفلسفة وهو يتصل بصاحب اشبيلية فأقصاه خوفا من اتهامه معه بمشاركته فى أضاليله وخزعبلاته ، ولما مدح المعز الفاطمى بقصيدته الرائية التى قال فى مطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

لم يكن يريد أن يقول ان المعز أقدر من الله والا لما قال بعد ذلك :

وكانما انت النبى محمد
وكانما أنصارك الأنصار

وانما أراد أن يتحذلق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وان الله يوصف بالقدرة لأنه يعطيها ، وان مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يندبه لامضاء تلك المشيئة ،فخلط وخبط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به،ولم تكن به ولا بممدوحة حاجة اليه

الا اننا اذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذلقة والمبالغة فى الشعر خاصة لم نجد فى كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء الطريق من عبارات المجاز والكناية ، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شىء لم يسمع مثله من امام كبير كمحيى الدين بن عربى فى كتب التأويل أو كتب الترسل الصريح ، وقد كتب محيى الدين

الى فخر الدين الرازى رسالة يقول فيها : « للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو ظهر لبطلت الاحكام ، فقوام الايمان واستقامة الشرع بكتم السرية ·· » الى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحدية ·· وفوق كل ذى علم عليم

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالاغراب لقال قائله ان النبوة لازمة لأن الناس لا يكشفون سر الغيب بغيرها ،وان العلم لازم لأن النبوة لا تصل الى الناس أجمعين ، وان الأحكام لازمة ، لأن العالم يزجره العلم والجاهل تزجره الأحكام · ولكن الاغراب فى أساليب المتصوفة والحذلقة فى أساليب من يسمعون ولا يفقهون أو من يفقهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه الكثير ـ كل أولئك يقود الى الظنون حيث لا موجب للظنون

□

وجملة القول ان الباطنية الفاطمية لو لم تقترن بالدعوة الى قيام دولة تحارب الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت حولها التهم والأقاويل ذلك المضطرب ، فقد كان كل مذهب فى ذلك العصر « باطنيا » على نحو من الأنحاء ، وأوشك أن يتساوى فى هذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة واخوان الصفاء ممن يتذاكرون العلم بينهم ويظهرون منه حينا بعد حين ما طاب لهم أن يظهروه

فالامام الغزالى ــ وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضى الفلسفة ــ كان يؤلف للعامة غير ما يؤلفه للخاصة . وكان من كتبه ما يضن به على غير أهــــله ، والامام ابن عربى المتصوف كان يدين بالسرية ويرى انها تمام العلم والمعرفة، وأبو العلاء المعرى الشاعر الحكيم كان فى رأى داعى الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضا ويتهم بعضهم بعضا بالكفر والمروق من الدين ، وشعارهم جميعا :

خل جنبيــــك لرام وامض عنه بســـلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الـــكلام

الا أن يكون مندوبا لعمل لا حيلة له فيه أو متجــــردا لرسالة يهون فيها عنده أن يقول وأن يقال فيه

ومن المحقق ان الباطنية الفاطمية أضـــيف اليها الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذى ســـيأتى ذكره فى زمرتها ، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعهدها من قبل ، وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها ، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء فى حوادث الغيـــلة والهجوم على المخاطر ، فهؤلاء لم يظهر لهم عمل فى خدمة الباطنية الا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هــذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحيانا من غير مذهبهم ولا من المجاملين لطوائف الاسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء

فقد استبد الأمير بدر الجمالى بالأمر دون الخليفة ــ وهو أمير الجيوش الذى ينسب اليه حى مرجوش والجمالية ــ وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الآمر على خطــة

أبيه ، وكان بدر وابنه الأفضـــل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الاسماعيلية ، فصادروا الاسماعيليـين ونفوا أناسا من قادتهم وغلاتهم من الديار المصرية ، وضاق الخليفة الآمر بوزيره ذرعا فتحدث الى ابن عمه فى قتـــله عند دخوله اليه بقصر الخلافة ، ووافقه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفق على سمعة القصر من جرائر اغتيال الوزراء والكبراء فى رحابه ، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله ،واغرائه بمنصب سيده مكافأة له على طاعته ، واتفقا على اختيـــار المأمون بن البطائحى لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه بهطمعا فى الوزارة ، ولم يجد البطائحى من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم منمصر ثم تسللوا اليهاخفية... وشجعهم على الانتقام منه اغراء البطائحى لهـــم ووعدهم بالعفو عنهم واسناد الوظائف اليهم متى آلت اليه وزارة الدولة ، ولو كان نظام الفدائيين معروفا يومئذ فى الدولة الفاطمية لما استطاع الوزير الأرمنى المخــــالف لمذهب الاسماعيلية أنيستبد بالامام المطاع ولا احتاج الامام المطاع الى التفكير فى اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة ولا الى تدبير تلك المؤامرة التى اعتمد فيهـــا على الوعد والاغراء والاستعانة بذوى المطامع والترات

ولا شك أن الحسن بنالصباح لميعمد الى نظام الفدائيين الا بعد استيلائه ــ كما سيلى ــ على قلعــــة « آلموت » واضطراره الى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيـوش لقتاله، وهو فىقلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوشالزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها فى ميادين القتال

وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها ، وأمعنت فى التخفى أو فى « الباطنية » الواقعية حين أمعنت فى الهجوم على خصومها وأمعن خصومها فى الهجوم عليها

أما قبل دخول ابن الصباح فى زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة فى بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة ، تسرع الى التنكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها • ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التى تمالأ عليها « مجوس أو يهود » بيتوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين ، بل كان لزاما لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم فى الخوف من الاسماعيلية، فلو انهم قالوا لأولئك الرعايا ان الاسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة فى حربهم والدلالة على مكانهم، اذ كان أكثر الرعايا يعلمون ان الحكم فى أيدى أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وان استحقوه بنسبتهم، وان أصحاب السلطان الفعال من أجناد الديلم والترك دخلاء على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين ، فان لم يكن خطر الاسماعيلية خطرا على الدين وعلى المسلمين جميعا فهو خطر لا يهم الناس فى كثير ولا قليل ، ما دام مقصورا على أصحاب العروش والدسوت

لهذا راجت خرافة النسب الى المجوس واليهود ، وهى خرافة تنكرها الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية ، وكل ما ثبتت نسبته الى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التى يختلف عليها طوائف

المسلمين من سنيين وشيعيين ، بل يختلف عليها الشيعيون الاماميون أنفسهم بين القائلين بامامة موسى والقائلين بامامة اسماعيل من أبناء جعفر الصادق ، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهدم الاسلام كله وتضليل المسلمين أجمعين

ومحصل القول فى المذهب الاسماعيلى من الوجهة الفلسفية انه هو مذهب الفيض الالهى كما اعتقده المتصوفة المسلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية ، يضاف اليه القول بعصمة الامام وانه هو وحده القادر على التأويل الصحيح والاحاطة ببواطن التنزيل ، وينبغى أن نذكر هنا ان القول بالعصمة الواجبة لكل امام كان مذهبا من مذاهب الفلسفة فى حكومة المدينة الفاضلة ، فان الفيلسوف الفارابى الذى كان يلقب بالمعلم الثانى قد طلب لامام المدينة الفاضلة كمال العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلقة ، ولعله لهذا كان قريبا من الشيعة محبا للمتشيعين

وقد كان القول بعصمة الأئمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خليفة غير الامام على وأبنائه الأكرمين، ولكن سب الخلفاء جرى على ألسنة طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين ، فاستنكره عقلاؤهم وحكماؤهم ، واستنكره أدبا من لا ينكره اعتقادا ولا يرى الخلافة لأحد غير الامام على وبنيه ، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال ، ولكن الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بلعن علىّ على المنابر ستين أو سبعين سنة هو الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين

# حسن بن الصباح

أشرنا فى الفصل السابق الى التغير الذى طرأ على نظام الدعوة الاسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح فى زمرتها ، وسنرى من جملة الأخبار والأعمال التى رويت عن ابن الصباح ان الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التى لا تتصدى لدعوة من الدعوات الا أضافت اليها شيئا من عندها وطبعتها بطابعها ، وانه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم الى وجهته ، بل كان من الذين يديرون الدولاب الى وجهتهم حين يتعلقون به ، ولا يدفعهم الى التعلق به الا انهم لا يستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولابا مستقلا يتعلق به الآخرون

واتفقت الأخبار الصادقة والكاذبة التى رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء ، وهى الجنون بالسيطرة والغلبة ، ونتعمد أن نسميها الجنون بالسيطرة ولا نسميها حبا للسيطرة ولا رغبة فيها ، لأنه كان مغلوبا لدفعة نفسه أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقا لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها

والسيطرة محبوبة لكل انسان ، ولكن الفرق عظيم بين

من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها ، وبين من يطلبها لانه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والاذعان للمسيطرين

ذلك مضطر الى طلب السيطرة ، وهذا مختار في المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها ، وقد يفضل الاستغناء عنها اذا جشمه الطلب فوق ما يطيق

وكان الرجل داهيا ولكنـــه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه ولا يثير المخاوف فيمن حوله

أو لعله كان داهيا عظيم الدهاء ، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه اليها كانا أعظم من دهائه . فانكشفت غايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون

ومما لا ريب فيه ان الرجل لم يكن من الغفـــلة بحيث يصدق كل خرافة من الخرافات التى كان يذيعها ويتـــولى نشرها والدعوة اليها ، ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ لنا خبرا واحدا يدل على انه كان من السمو الفكرى بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءها من الحقائق ، ولا سيما اذا كان التصديق هو طريقه الى السلطان والغلبة وقهر الخصوم والانتصار على النظراء ، فمن مألوف النفوس ــ أو من مألوف هذه النفوس خاصة ــ أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويعزز ايمانها بمطمعها ، كما يفعل المحب الذى يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبه فيروض طبعـــه على اليقين وتجميل العيوب لانها أريح له وأعون له عـــلى هواه من عذاب الشكوك وانكشاف العيون

وهذه الطبيعة المعهودة فى أمثـــاله دون غيرها هى التى تفسر لنا أعمالا شتى يبدو فيها خادعا مخـــدوعا فى وقت واحد ، فهو حصيف لا شك فى حصافته ، ولكن كيـــف يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف الذى لج به حتى يسول له البطش بأقرب الناس اليه ومنهم ولده أو ولداه ؟

يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف ، وفيما هو أسخف منه ، اذا كان مغلوبا على أمره مضطرا الى تسويغ دفعتــه بعقيدة تجملها فى نظره وتلبســـــها ثوب الواجب الذى لا محيد عنه ولا هوادة فيه

□

أما ان حسن بن الصباح كان مغلوبا على أمره فى طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعـــــة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير السعى الى السلطان ، فانه ما اتصل بأحد قط الا خافه على مكانته وتوجس منــه على الرغم من دهائه وفطنته ، ولو لم يكن طمعه أقوى من دهائه وفطنته لما تكشفت منه دفعة الطمع فى كل علاقة وفى كل مكان

سمع فى شبابه عن الشيخ موفق النيسابورى ان تلاميذه جميعا يرتفعون ببركة تعليمه فى مراتب الدولة ، وكان ابن الصباح شيعيا ومدرسة الشيخ الموفق معهـــد السنة فى نيسابور ، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعلم فيها على أمل فى الجاه والسلطان

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله

صاحب « جامع التواريخ » ••• وفى روايته عن صباه يقول ان سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك انه كان يتتلمذ معه فى مدرسة نيسابور فتعاهدا على المعونة اذا وصل أحدهما الى منصب من مناصب الرئاسة ، وان ابن الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيره بين ولاية الرى وولاية أصفهان ، وكان ابن الصباح عالى الهمة فلم يقنع باحدى هاتين الولايتين ، فاستبقاه نظام الملك فى الديوان عسى أن يترقى فيه الى مكانة أكبر من مكانة الولاة

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة ، ولكنها على كل حال يصح منها شىء واحد : وهو علم المؤرخين للرجل ـ من محبيه فضلا عن مبغضيه ـ انه كان بعيد المطامع منذ صباه.

وحدث ، وهو فى الديوان ، انه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فوعد الملك بانجازه قبل أن ينجزه الوزير ، فاحتال هذا على احباط سعيه وأوصد عليه الباب الذى أراد أن يندفع منه الى منصبه فوق كتفيه

وقيل فى تعليل سفره الى مصر للقاء الخليفة الفاطمى انه استوعب كل ما تعلمه من الدعاة فاستصغره الى جانب علمه بأسرار الدعوة ، فأراد المزيد من العلم بالشخوص الى دار الحكمة فى القاهرة ، لعله يستوفى هنالك علوم الاسماعيليين التى غابت عن دعاة العراق

ومن الواضح ان الشخوص الى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسعى الذى لا تنصرف عنه همة طامع فى مناصب الدولة ، فليس له مطمع فى بغداد وليس له بين السلجوقيين

مقام محمود ، ولم يبق له الا أمل واحد لا منصرف عنه ، وهو باوغ المنصب المرموق فى عاصـــمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وقد تحكم فيها رجل قوى الشكيمة كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنـــع بهما دون الامارة والملك لو تمهد اليهما السبيل ، ومن ثم زوج بنته للامير المستعلى بن الخليفة ، وأكره الخليفة أو زين له أن يختار المستعلى لولاية عهـــده ، أملا فى الملك ان استطاعه لنفسه ، أو فى توطيد الملك لذريته من بعده

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالى الذى سبقت الاشارة اليه ، وذلك هو الند الذى تحفز ابن الصباح لمصاولتـه ومداورته بعد وصوله الى القاهرة ، فاختـار نزارا لولاية العهد واحتال جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة ، واستمد من أساس المذهب الاسماعيلى كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه ، فزعم انه مثـــل بين يدى الخليفة المستنصر فوكل اليه الخليفة أن يدعو اليه والى ولى عهده بين الأمم الاسلامية • قال : « فسألته ومن ولى العهد؟ فأشار الى نزار •• »

تلك قصة تشبه قصة الولاية التى صارت الى اسماعيل ابن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايتـه واسنادها لأخيه ، موسى ، فان الاسماعيليين يرفضـــون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتنـــزه عن البداء

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام

لها أساسا كالأساس الذى قامت عليه الدعوة الاسماعيلية من مبدئها ، وروى تلك القصة عن الخليفة المستنصر ( والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين ان الخليفة لم يدعه الى لقائه ، بل أنزله منزل الكرامة فى دار الضيافة ، ثم أبقاه على أمل يتردد بين التقريب والاقصاء ) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر ، ولما يصدق بالنجاة ، وراح بعد الافلات من الخطر ينشىء له دعوة جديدة فى المذهب الاسماعيلى ، وهى الدعوة الى امامة نزار

□

وراح الحسن يطوف فى بلاد الشام والعراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة ، ويبدو أن حوافز النفس الغلابة كانت فى تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه ، حرجا بما لقيه وضيقا بالمطمع الذى ينازعه ولا يعلم المخرج اليه ، فقال يوما لأحد أصدقائه فى أصفهان : لو أن معى صديقين أركن اليهما لانتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم ... فظن به صديقه الجنون وأوصى طباخه أن يتخير لضيفه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه ، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك فى عقله فتركه ومضى لسبيله

والظاهر من مساعيه وحركاته فى هذا التطواف انه كان يبحث عن أستاذه القديم فى الدعوة الاسماعيلية عبد الملك ابن عطاش ، وكان ابن عطاش قد ولاه الوكالة عنه ثم زين له السفر الى القاهرة ، وأطلعه قبل سفره اليها على أسماء

بعض الدعاة المستترين الذين يلقاهم فى طريقه ولكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعا ، وأهم من ذلك لدى التلميذ المتحفز انه لم يعرف من أستاذه مكامن الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التى تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤتمنين عليها ، فما زال الحسن يتعقب ابن‌عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من‌اطمئنانه اليه ، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعه عليها

وواضح ان تجارب الحسن فى رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أيأسته من الوثبة الى السلطان من طريق الولاية ، ولكنها لم تيئسه‌من الوثبة الى السلطان حيث كان لاستقرار هواه فى طبعه ، فطمحت به همته الى معقل من المعاقل فى أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد اليه فيه يد ملك أو خليفة ، وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم، فخرج اليها مع رهط من صحبه وأتباعه ، وقيل انه تلقى من مصر فى هذه الأثناء ولدا لنزار بايعه بالامامة وعمل باسمه ودعا اليه ، حتى انتهى به المطاف الى قلعة يقيم فيها زعيم من العلويين فاستضافه فأنزله على الرحب والسعة وتغاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ثم أحكم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التى تجاورها ، وساعده على انتزاعها انه خيل الى أهل الاقليم ان مجموعة حروفها بحساب الجمل توافق تلك السنة الهجرية : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ( ٤٨٣ ) وهى مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التى تتألف منها

كلمة الهاموت ، وأتم الحيلة فى أذهان القوم انه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم من ( اله ) بضم اللام بمعنى النسر فى الفارسية و (اموهث) ( ١ ) بمعنى المعلوم أو المعلم ، ايماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة ، والدين فى مذهب الباطنية تعليم لا يستغنى عن الامام المعلم فى كل زمان !

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة بالاعاجيب التى تزجى الاحاديث بين الناس فيصدقونها لأنهم يحبون الاستماع الى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعد العثور على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط فى كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة

من هذه الأعاجيب ان الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذه الطبيب ابن عطاش فسخره فى نشر دعوته ، وانه توسل به لاقناع أتباعه برؤية الجنة عيانا لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم الى حديقة عمرت بمجالس الطرب التى يتغنى فيها القيان ويتلاعب فيها الراقصات ثم يخرجهم منها وهم فى غيبوبة الخدر ويوقع فى وهمهم ساعة يستيقظون انه قد نقلهم الى جنة الفردوس وانه قادر على مرجعهم اليها حيث يشاء ، وانهم

---

(١) ينطق اسم القلعة « الاموت » أو الموت بفتح اللام

اذا ماتوا فى طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم الى السماء

قالوا : وان هذا الاقناع أو هذا « الايمان العيـــانى » يفسر طاعة أتباعه الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجنادهم فيهجمون عليهـم ويغتالونهم غير وجلين ولا نادمين، وان كلمة «أساسين» assassin التى أطلقت فى الغرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع الى كلمة الحشاشين أو الحسنيين نسبة الى الحسن بن الصباح ، وقالوا ان الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير اليه الشيخ بالقاء نفســـه من حالق فيلقى بنفسه ولا يتردد ، وان أحدهم كان يقيم بين جنــد الأمير المقصود بالنقمة ويتكلم لغتهم حتى لا يميزوه منهم ، وانه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها جهرة ولا يجتهد فى الهرب من مكانها ، وان أمهات هؤلاء الفدائيـــين كن يزغردن اذا سمعن خبر الفداء ويبكين وينتحبن اذا عاد الأبناء اليهـن ولم يفلحوا فى اغتيال أولئك الاعداء

وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم ، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه الى عهد الرحالة البرتغالى « ماركوبولو » الذى ساح فى المشرق فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ، ولا يزال هذا التفسير الخرافى مقبولا فى القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء

ونحن نستبعد جدا أن يكون للجنة المزعومة أصــل فى قلعة حسن بن الصباح ، فان التكذيب أرجح من التصديق فى كل خيط من الخيوط التى نسجت منها القصـــة ذلك النسيج الواهى المريب

ان الحسن بن الصباح كان معروفا بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه ، وكان يتنسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه ، ولم يكن من اليسير فى تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيان ومجالس الراقصات والغناء زمنا طويلا دون أن يطلع عليه المقربون ان لم يطلع عليه جيرةالقلعة أجمعين ، وليس من المعروف عن مدخنى الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه في وقت واحد ، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر العيان والسمع هذا الالتباس ، وليس من المعروف عن الحشيش انه يهيىء صاحبه لمواقف الاقدام على المخاطر والاصرار عليها شهورا أو سنوات

ومن المحقق ان شيخ الجبل لم يطلع أحدا على سره ، وان أحدا من المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه ، فهل من العسير أن نتتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذى نشأت فيه وسرت منه الى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى ؟

ان روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المشارقة ، وقد كان الصليبيون فى حاجة الى تأويل شجاعة المسلمين وهم فى عرفهم قوم هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح، فخطر لهم وقالوا وكرروا انهم يستميتون فى الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التى تجرى تحتها الأنهار وترقص فيها الحور الحسان ، اذا استحبوا الشهادة فى سبيل الله

واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذى أحوجهم الى سبب كذلك السبب أو أغرب من ذلك السبب ، وقد

كان ماركوبولو في روايته يقول ان الفدائيين صدقوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون النبى عليه السلام ، وكأنه يقول انهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون ، فهم فى شجاعتهم مخدوعون

ان القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم . فلم يتخيلوا لذلك سببا غير الجنة الموعودة ، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التى ترى فى هذه الدنيا رأى العيان ، وقد جاء ذكر الحشيش فى كلام مؤرخى المشرق وذكر بعضهم ان أناسا من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من المسكرات المحرمة ، وذكر البندرى مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين وعنى بهم طائفة الاسماعيليين ، أما جنة « الموت » المزعومة فهى من مخترعات الغرب لا نعلم انها وردت فى كلام مؤرخ اسلامى قديم ولا أن أحدا من مؤرخى الغرب أسندها الى مصدر من المصادر الاسلامية ، ولو كان لها مصدر من المشرق الإسلامي لكانت كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوربيين

وأول دلائل البطلان فى هذه الخرافة ان وجه الغرابة الذى دعاهم الى اختراعها غير غريب ، فان النخوة الدينية كانت أقرب شىء الى أتباع الأئمة فى ذلك الزمن ، ولا تصلح رؤية الجنة عيانا لتفسير تلك النخوة فى عجائز الفناء فضلا عن الفتيان المجردين للفداء . فاذا كان أولئك الفتيان يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عيانا فالعجب لامهاتهم اللائى كن يفرحن بفقدهم وينتحبن لنجاتهم كيف ملكن جأشهن بغير تلك الآية التى رآها أبناؤهن رأى العيان !

لقد كان الأمل فى ظهور المهدى المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان فى ذلك العصر بين المؤمنين بالمهـدية ، وكانت فتن العصر أشبه شيء بفتن آخر الزمان أو باشراط الزمن الذى يظهر فيه المهدى المنتظر ليملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وينجو باتباعه ومصدقيه الى حظـــيرة الخلد والسلام ، وكان شيخ الجبل يتخير لتربية الفدائيين فتيانا أشداء يتفرس فيهم العـزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم ، ثم يأخذ فى تدريبهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانيةعشرة وأكثرهم من أبناء الجبال فىتلك الأطراف التى نشأ أبناؤها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والايمان ، وكان الايمان بالدعوة العلوية قد شاع فى تلك الأطراف فخرج منهـــا الأمراء والوزراء الديلميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم فى بغداد ، وكانت لشيخ الجبل ارادة من حديد تتسلط على أجناده تسلط « المنوم المغناطيسى » على المدربين عنده عـلى التنويم ، فلم يكن فى طاعة هؤلاء واقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة الى رؤية الجنة بالعين ، وتأتىالحروب الصليبية فتلهب ما فتر من النخوة التى أذكاها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلاطين ، فلا يحتاج الفتى المدخر للاستشهاد الى دافع أو حافز ، بل لعلهيحتاج الى الوازع والرقيب

□

والمؤرخون الأوربيون الذين كتبوا عن خداع القـــادة لأتباعهم فى الجماعات السرية كثيرون ، منهم من يحســن

التفسير ومنهم من يسيئه ، ومنهم من يسرع الى الاتهام ومنهم من يتريث فيه • فمن الذين أحسنوا التفسير ايفانوف الروسى صاحب كتاب « مؤسس الاسماعيلية المزعوم » The Alleged Founder of Ismailism وهو ممن يصححون نسب الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل «الاساتذة المربين » الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم في العلوم وفقه الدين ، وقد عم الدعاة بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخص بالذكر أئمة « الموت » من «المهدى حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان » وسائر هؤلاء الدعاة

فأما ان حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب فيه عند الخصوم ولا عند الانصار ، فهل يصدق القول عليه انه هو يخدع ولا ينخدع وانه هو يسوق ولا يساق ؟

الراجح عندنا ان هذا « المهدى » لم يكن خلوا من الايمان بدعوته على وجه من الوجوه ، وان عمله فى الدعوة عمل جاد غير هازل وصامد غير متردد ، ولا داعى للشك فى ايمانه بعمله وان كان هناك شك كبير فى ايمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه

وما بالنا نتخيله خلوا من الايمان منصرفا كل الانصراف الى التضليل والخداع ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون الانسان مدفوعا الى عمله غير قادر على تركه ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون اعتقاد الانسان فى عمله خيرا من اعتقاده فى أعمال الآخرين ؟ أليس من دواعى الايمان أن

يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجةلتلك الرسالة ؟

ان « التنويم الذاتى » معروف متواتر ، وانه لأقـــوى ما يكون حين تندفع اليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها ، وذريعة لها عذر من أحوال الزمن ودواعيه

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح فى رسالته سلبية قبل أن ترسخ فى طويته بالاقناع الموجب واضحا أو وسطا بين الوضوح والغموض

ونعنى بالرسالة السلبية انه آمن ايمانا لا مثنوية فيه بفساد العصر وضلال ذوى السلطان فيه ، وانه مهما يفعل فى حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب

وتقترن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية الى السيادة والسلطان ، فماذا يصنع بهذه الدفعة ان لم يعمل بها عملا قويا متصل العزيمة والثبات ؟

اما أن يستكين الى سيادة غيره والموت أحب الى أصحاب هذه النفوس الغالبة المغلوبة من استكانة الخضوع ، واما أن يمضى قدما ولا بد له من مسوغ وبرهان ، وليس أسرع الى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجيان من الغرق فى لجج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان

وقد قال داعى الدعاة فى ذلك العصر ان الناس كانوا بين رجلين ، رجل لو قيل له ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق « أو منتحل للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطل لجميع ما النـــــاس فيه ، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة

عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ولجاما على رؤوس المجرمين المجازفين ‥ »

وهذه عقيدة قوم لا دفعة فى طبائعهم الى طلب السيادة والسلطان ، وليس فى طويتهم ما يثـــيرهم الى الحركة اذا آثروا السكون ، فاذا كانت هذه العقيـــدة فى طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولا يرى فى نفسه الا انه أهل للقيادة والامامة ، وان الذين حوله أهل للقمع والنكال ، فمـــن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه، هى أصلح مما هم فيه، وأصلح مما يحققونه على أيدى سواه

وقد سوغ أفلاطون فى جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين الناشئين ، وسوغ فيثاغوراس من قبـــله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر الى المريدين بالرموز والاشارات ، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذا بدفعة السيادة ، وليس فى زمانهما دعوة سرية عامة كالدعوة التى لفت حسن بن الصباح من رأسه الى قدميه ، فلم لا يسوغ هذا المذهب فى قيادة الدهماء لحسن بن الصباح ؟ وهل من البعيد انه اطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما اطلع عـــلى أفلوطين ؟ ان القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر ، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصـــب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته الى عناية الله يتوجه به حيث أراد

ان المؤمنين الخالصين للايمان بغير مواربة ولا مراجعـــة أندر من الندرة بين بنى آدم وحواء ، وما من أحد آمن بعقيدة الا عرف فى بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد

وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين

وتسعون فى كل مائة ، ان لم نقل أكثر من ذلك ، يؤمنون بالعقيدة ايمان الوقاية أو ايمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعدهم به الهداة ، واذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد ، فأحرى بهذه القوة أن تقنع من ترفعه عقيدته فى نفسه ، أو فى دعوته ، الى مقام السيادة والقيادة ، وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه ، وعلى أصحابه مستحقا منهم الطاعة والتسليم

لم يكن حسن بن الصباح خلوا من الايمان بعمله فيما نرى ، ولم يكن عسيرا عليه أن يركن الى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة ، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه ، ولا يعز عليه أن يعززها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتمع فيه من بريق يثبت عليه بالالهام حينا بعد حين ، فما عاش الرجل بقية حياته غائبا عن صوابه ولا مالكا لكل وعيه ، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخادع المخدوع

□

استولى الحسن على قلعة « آلموت » فى سنة ٤٨٣ هجرية ومات فى سنة ٥١٨ هجرية ، فظل مالكا لتلك القلعة باسطا نفوذه على ما حولها خمسا وثلاثين سنة ، لعله كان خلالها أقوى رجل فى الديار الاسلامية من مراكش الى تخوم الصين

وولى عهده ، وتسمى بالمهدى وانتحل البنوة الروحية للانتساب الى الامام واستعان بتعدد المراجع فى المذهب فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم « نزار »

ومات « المستنصر » الخليفة الفاطمى سنة ٤٨٧ للهجرة الاسماعيلى على انتحال المرجع الذى يروقه أن يدعيه ، فهو حجة ومهدى وامام كما يشاء

وقد اعتمد فى توطيد سلطانه على ثلاث : الحيلة ،والغيلة، والفتنة الدخيلة ٠ فمن الحيلة ان السلطان السلجوقى ملكشاه سير اليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بسنتين ، ولم يستكثر من الجند كما أوصاه وزيره نظام الملك استخفافا بشأن القلعة وحاميتها ، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحواضر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمور فيما تحمل من المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر ، فما وقعت أيديهم على زقاق الخمر حتى أفرغوها فى أجوافهم وانطلقوا يقصفون ويهزجون ، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلا ونهبا وتشريدا من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاخ الى نصيحة وزيره فى هذه المرة، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنيها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة ، وأرسل الى الوزير فتى من فتيانه الفدائيين فقتله فعاد الجيش الذى سيره الوزير الى حيث استدعاه ملكشاه ، لحاجته اليه فى اتقاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول

وتساعدالرجل مصادفات الحوادث .. فيموت ملكشاه ويزعم الاتباع والاشياع انها كرامة المهدي تنجيه من أعدائه واحدا بعد واحد ، ويتنبه الرجل الى مواقع الفرص فلا تفوته منها فائتة ، فلما نشبت الفتنة بين ولدى ملكشاه جعل همه أن ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه فيسلط على الجيش المنتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة ، ومن أساليبه في هذه الفتنة أن يترك المحاربين في شك ممن هو معهم ومن هو عليهم ، وقد يشـــيع عن أحد أعدائه في دولة الأمير انه من الاسماعيليين « الصدحيين » المستترين، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب اليه ، يظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه

فلما آل العرش الى السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكان من أقوى الملوك وأغناهم في عصره ، لم يجد بدا من مصالحة ابن الصباح ، وقيل في أسباب المصالحة انه كان من أهمها شك السلطان في حاشيته وقواده وأجناده ، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس اليـه وهو لا يعلم ، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية الضرائب والاتاوات في اقليمه ، ويروى انه وجد في طريقه الى حصار «آلموت» خنجرا مغروسا في فراشه مكتوبا عليه ان الذى غرسه هنا قادر على أن يغمده في صدرك ، وانه سمع عن أمراء الحصون انهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة في انتظار الأمر من شيخ الجبل، فآثر المسالمة على القتال

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية ،

بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية ، وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به في غير مشـــاركة ولا هوادة ، فانقسمت الدعوة الاسماعيلية على نفسها وأصبح لهـــا فى البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان : أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو الى نزار ويدعى المهدية لشـــيخ الجبل ويحارب المعسكر الآخر من الاسماعيليين ، والثانى يدعو الى المستعلى وأبنائه، وبقيت منها اليوم طائفة الاسماعيليين المعروفين باسم البهرة ، يقولون ان المهدى المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة « الآمر » الفاطمى وانه يحضر موسم الحج فى كل عام ، فمن رأى الحجاج جميعا فى موسم من مواسم الحج فقد رآه

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين هى حياة الرجل فى السنوات الاخيرة من مقامه بقلعة آلموث • انه لم يكد يفارقها بعد دخولها ، ولم تكن له أسرة فيهـــا غير امرأته وولديه ، وهذا الزعيم « الباطنى » الذى قيل عن مذهبه انه ذريعة الى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق الكاتبون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المبـــاح من الأطايب ، فضلا عن الحرام ، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه انه قتله لمخالفته اياه فى شرب الخمر على الخصوص، ولم يقتل ولدا واحدا بل قتل ولديه الاثنـــــين وهو فى شيخوخة لا مطمع له بعدها فى الذرية ، وهذه هى حيرة أخرى من حيرات لا تحصى فى مسلك هذا الانسان العجيب كله ، وفى مسلكه قبيل وفاته على الخصوص

هل هو مجنون مطبق الجنون ؟ ان المجنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل أبنائه فى شباب ولا شيخوخة ،وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخلفها غرابة أعضل وأدهى ، وتلك هى قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عاما بعد عام ، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين وزرائه وأعوانه ومنهم الأذكياء والدهاة وفيهم الشجاعة والهمة والاقدام

هل له عقيدة يصبر فى سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها اراقة الدماء ، دماء الأبناء كدماء الأعداء ؟

انه خلق العقيدة النزارية خلقا فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها ويصبر فى سبيلها على ما صبر عليه ويستبيح فى سبيلها ما استباح

والذى يبطل الحيرة فى اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الانسان العجيب

ونبدأ فنقول اننا ينبغى أن نستغرب من حسن ابن الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيره ، ولو كانوا معظم الناس

فالغريب فى طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوى أو فتور هذا الحنان فيهم ، ولكن هل خلا الجنس البشرى من آحاد يهون عندهم الحنان فى جانب النوازع القوية التى لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان ؟ هل خلا الجنس البشرى من آحاد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار، فضلا عن الشهوات الكبار ، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك الشهوات ؟

وهل من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئـــك الذين تملكهم نازعة تطغى على حنان الأبوة ؟

كلا ! ليس هذا بالبعيـــــد على الاطلاق ، بل هو دأب الطامحين من أمثاله الى السيطرة ، ودأب الذين يهون عليهم شظف العيش ولا يهون عليهم الخضوع والبقاء فى زوايا الاهمال ، وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهما قد تآمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين الى مكانه كما جاء فى بعض الروايات ، وقد يكون أحدهما هو الذى تآمر عليه كما هو الأرجح ويكون ظنه بالآخر انه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده ، وقد يكون بطشه بابنه فى سبيل رسالته هو المسوغ المقبول أمام ضميره لاقدامه على البطش بالغرباء فى هذا السبيل

فاذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة ، وكان الظن بغفلته حيرة مثلها ، فأنفى الظنون للحيرة انه أطاع طبعه فى طلب الغلبة على الرغم منه ، وانه اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها ، وانه راض نفسه على شدائد تلك الرسالة لتكون الشدائد التى يضطلع بها حجة له على صدقه ومطاوعة طبعه ، وانه كان عرضة لسورة الغضب ونوبة الفتك فى أزمات طبعه ولكنها سورات ونوبات دون الجنون المطبق فى جميع الأحوال ، وهـــذا كله جائز غير مستغرب . أما المستحيل فهو انه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل له ولا غواية من وراء عمـــله غير الخداع والتضليل ، أو أنه مغفل لا يدرى موضع الغفلة من سريرته ، وهو يتسلل بالاقناع الى سرائر المئات والألوف ، ومنهـم الأذكياء والالباء والحصفاء

# السرية الباطنية

ولعل سيرة شيخ الجبل فى نقائضها المعلومة هى ألزم السير للتعريف بمعنى السرية الباطنية أو السرية الاسماعيلية على التخصيص ، فهذه السرية كانت تشتد وتتراخى تبعا للعمل الذى ينوطه الامام بدعاته ، لا تبعا للفكرة أو للعقيدة التى يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى

كانت السرية تشتد كلما خشى دعاة الامام فى بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم ، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لمهمتهم وأعون على تشتيت أعدائهم وتبلبل الأفكار فيما حولهم ، وكانت تتراخى حتى لا سرية على الاطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية لهم ولسياستهم ، وقد يعقدون المجالس ويحاضرون فىالأندية العامة لاعلان آرائهم واقناع معارضيهم كلما اطمأن بهمالمقام فى ديارهم

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة فى الامام ، حين يكون تعظيم الامام وتقديسه لازمين لاقناع الداعية أو الفدائى بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأهوال فى غير اشفاق على حياته أو حذر من

عاقبة أمره ، ففى هذه الحالة يتصف الامام بالقداسة التى توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة فى هــذه الدنيا أو فى الدار الآخرة ، وكثيرا ما يستغنى الامام عن المغالاة بقداسته فى الأزمنة العصيبة التى تلتهب فيها الحماســة الدينية ويشيع فيها الأمل باقتراب الأوان الموعود وتوالى العلامات والاشراط التى تؤذن بظهور المهدى وانتصــار زمرته على أعدائهم وأعدائه ، فاذا شاع فى النفوس هــذا الأمل فلا حاجة بالامام الى عقائد المبالغة والمغالاة فى أمره، وحسبه انه قائد مصدق مطاع يأتمر بدعوته جند مصدقون مطيعون

واذا أردنا التوسع الذى يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنة والشيعة جميعا ولا يخص الاسماعيلية أو النزارية وحدها فالخلاف على الامامة هو محــور كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة ، فكل ما عزز ضرورة الامام الحى فهــو من عقائد الشيعة ، وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنــرجع بجانبى الرأى الى محور الخلاف كله ، فأيهما كان أقرب الى ضرورة الامام الحى فهو من مذهب الشيعة ، بغير حاجة الى البحث الطويل والاستقصاء البعيد

وقد لخص الغزالى هذا الفارق فى كتاب المنقذ من الضلال فقال : « الصواب انه لا بد من الاعتراف بالحاجة الى معلم وانه لا بد أن يكون المعلم معصوما ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فاذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب ، فاذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة وبثهــم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا أو اشكل عليهم

مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم اذ قال الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته . يبقى قولهم : كيف يحكمون فيما لم يسمعوه ؟ افبالنص ولم يسمعوه ، أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، اذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عندمه ، بل كما يفعله دعاتهم اذا بعدوا عن الامام الى أقاصى الشرق ، اذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة الى بلدة الامام ، والى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات أو فات الانتفاع بالرجوع ، فمن أشكلت عليه القبلة ليس لهطريق الا أن يصلى باجتهاده ، اذ لو سافر الى بلدة الامام ليعرفه القبلة لفات وقت الصلاة . فاذا أجيزت الصلاة الى غير القبلة بناء على الظن ـ ويقال ان المخطىء فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران ـ فكذلك فى جميع المجتهدات ... »

ومهما يكن من قول فى تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب الى تعليم الامام المعصوم فهو قول الشيعة وما عداه فهو قول السنيين وجميع المقررين للامامة على مذهبهم كالزيديين ، وهذا هو الذى يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأى فى الامامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين

خذ لذلك مثلا اعلان بدء الصيام ، فان رؤية الهلال فيه

كافية على مذهب السنيين ، ولكن هذا الرأى يغنى عن اعلان الامام للصيام فلا يأخذ به الاماميون ، بل يقـــولون ان المسلمين كانوا فى حياة النبى عليه السلام يصـومون حين يصوم ، فلما أزمع السفر سألوه عن موعد الصيام فقـال لهم : « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته » • ولم يكلهم الى الرؤية قبل ذاك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الامام دون غيره هو العقيدة التى لا محيد عنها لمن يقولون بالاماميــة ، وانما يختلف العلم المستور باختلاف الائمة والاوقات والسائلين، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القـــرآن ، واجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه ، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد فى طاعتهـا توقفا على فهمها ، فانها لو كشفت فى بعض الأزمنة لحاق الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعته بمعنى النسر المعلم ، فهى مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستغنون عن تعليمهـــا بالابتعاد عنها ، وقد ترخص بعض الاماميين فى أمر العصمة الواجبة للامام ، فأباح بعضهم نقد الامام كما فعل حسن ابن الصباح فى نقد الخليفة المستنصر ، بل كما فعل داعى دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازى الذى سبقت الاشارة اليه،ولكنهم يقولون ان الامام يصيب وهو مختار،ويجرى مع الخطأ وهو مكره ، ولا سيما فى اختياره لولى عهده وصاحب الامامة من بعده ، فان من اختاره طائعا فهو الصواب المطاع

لقد صحبنا منشيء « الاسماعيلية الجديدة » من عهـد بروزه فى ميدان الدعوة الفاطمية ، ولم نبدأ بسيرته من نشأته الاولى . لأن حياته العامة لا تتوقف على اخباره فى أوائل نشأته . فما من خبر منها متفق عليه حتى اسمه وموطنه ونحلته ، فهو ينتسب الى اليمن ويذكر من نسبته انه الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح الحميرى ، ومنكرو دعواه يقولون انه قروى من خراسان ، ومنهم من يقول ان أباه كان يعمل فى الصياغة، صناعة الصابئة على شواطيء بحر العجم

والثابت انه مات ولم يظهر له فى حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى قرابته ، وان دعوته لم تفلح فى بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطيب بن الآمر التى كانت تناقض الدعوة الى نزار أمام الحسن المختار ، وقد أوصى الحسن بعده لرجل فارسى غريب عنه لا تربطه به نسبة ، ولعله من أقربائه المستورين ان صح انه من الفرس وليس من أهل اليمن

ورويت عن صباه تلك القصة التى جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك بمدرسة نيسابور ، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفة من ثقات المؤرخين ، لأن نظام الملك ولد سنة ( ٤٠٨ للهجرة ) فاذا كان ابن الصباح والخيام من لداته فقد بلغا اذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام الملك ببضع سنوات ، وفى ذلك موضع لشك غير ضعيف

وايا كان الخبر الذى يثبت من أخبار صباه فهو لا يغير

شيئا من ملامح « الشخصية » التى برز بها فى التاريخ ، وهى شخصية المغامر صاحب الدعـــوة التى انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه ، وهذه بعدشخصية أثبت فى ملامحهـــا من شخصية ميمون القداح وأحدث فى الدعوة الفاطمية ، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التىاقترنت بالفاطمية فى تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول



# بناة وهدامون .. ومهدومون

ينسب قيام الدولة الفاطمية الى جهـــود الدعاة الذين انبثوا فى المشرق والمغرب وافتنوا فى تبليغ الدعوة سرا وجهرا الى كل طائفة بالوسيلة التى تلائمها ، ويغلو بعض المؤرخين فى شأن هذه الجهود حتى يخيلوا لمن يقرأهم ان غير هذه الجهود لم يكن له فى اقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال .

ولا شك فى براعة الدعوة الفاطمية وقـــوة أثرها فى التمهيد لقيام الدولة ، ولكننا لا ننسى ان بعض هذه الدعوة كان يسىء الى القضية ولا يحسن ، وان فريقا من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم ، وان الدعوة لو انصرفت كلها الى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شىء منهـــا للاساءة والتنفير لما بلغت غايتها ان لم يكن جو العـــالم الاسلامى متهيئا لقبول نظام جديد والاعراض عن نظـــام قديم

والواقع ان جو العالم الاسلامى قد تهيأ فى القرن الثالث لقبول هذا التبديل فى نظامه ، وكان هذا التهيؤ من شقين: شق ينكر النظام القائم وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه

وكانوا يسمون ذلك دلالات النجوم ، فيربطون بين مشيئة الانسان ومشيئة الكون كله ، ويلوح لهم حين يريدون التغيير ان التغيير كائن ولو لم يريدوه ، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه

وتوجد الكلمة التى تحفظ حين تلفظ ، ويسمع الناس « ان الشمس ستشرق من مغربها » فيهمس بها بعضهم الى بعض ، ويعجب السامع مما سمع فلا ينساه

وقد كان علم النجوم قد استفاض فى كل مكان ، وليس أكثر من مقارنات الفلك التى يحسب المنجمون انها علامة الغيب على الغير والاحداث ، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائما بتلك العلامات وهم الذين يركنون اليها ويترقبونها، ولا سيما حين يكون علم النجوم علما يحبه المجددون ويمارسونه ، ويبغضه المحافظون ويتشاءمون به ولا يترقبون الخير من ورائه

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن النجم ذى الذنب فى زمانه .

آين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
قد صيروا الأبرج العليا مرتبة
ما كان منقلبا أو غير منقلب
وخوفوا الأرض من دهياء داهية
اذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

ولكنه فى الواقع كان ينظر فى أوائل القرن الثالث الى الوجهتين المتقابلتين : وجهة الراضين عن نبوءات النجوم

ووجهه المتبرمين بها ، وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن غاية التفاؤل وغاية التشاؤم بعلامات النجوم

قال صاحب زهر المعانى : « وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدى بالله ويبشرون بدولته ، ثم ان الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ، وان صاحب الزمان تقدم للهجرة الى المغرب والمهدى فى كنفه ... حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره ... وأن يكنوه بالشمس الطالعة »

وكان المهدى نفسه على علم بمراصد النجوم ، فكان يتفاءل بمقارناتها ويبشر بها أتباعه ، وهم بغير هذه البشارة مصدقوه ، فاذا علموا ان الكون كله يتأهب « لطلوع الشمس من المغرب » فقد بلغ التصديق غاية اليقين

وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم – كما جاء فى المقريزى – انه قال فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ان الامام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة ، ونظم الفهرى هذه النبوءة فقال :

ألا يا شيعة الحق ذوى الايمان والبر
ومن هم نصرة الله على التخويف والزجر
فعند الست والتسعين قطع القول فى العذر

وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرأون فى ارصاد النجوم علامات زوالها الى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع ، فقال أبو طاهر القرمطى :

أغركم منى رجوعى الى هجر
فعما قريب سوف يأتيكم الخبر

اذا طلع المـريخ فى أرض بابل
وقارنه النجمان ، فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العـراق رسالة
بأنى أنا المرهوب فى البدو والحضر
أنا الداع للمهدى لا شك اننى
أنا الضيغم الضرغام والحية الذكر

وقد تقدم ان الناس ظنوا بأبى العلاء المعـــرى انه من رصدة النجوم ، فاذا بلغ بزمان أن يتـــرقب فيه الضرير ارصاد السماء فهو زمان تفعل فيه العلامات الفلكية فعلها، سواء أكان حب التغيير هو الذى علق الأبصار والبصائر بمسالك الكواكب ، أم كانت مســـالك الكواكب هى التى شحذت فى نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهـم الى الغيب من بصير وضرير

وفحوى ذلك كله ان السماء والارض فى عرف أبناء القرن الثالث للهجرة كانتا تتطلعان الى شيء ، وان الناس كانوا يتفاءلون بذلك ويتشاءمون ، وأحرى الناس أن يتفـاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير

وجاءت الدعوة الفاطمية الى قوم متبـــرمين أو قوم غير مكترثين للدفاع عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد

كان بين خدام الدولة العباسية نفســـها من يبغضونها أو ينكرون حقها ، ومن كان منهم لا ينكر حق الخلفـــاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم ، معتقـــد أن أهل البيت المقبلين خير من أهل البيت المولين ، أو أهـــل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزا وسفها فليس لهـم منها غير الأسماء

وكان بطش العباسيين بأبناء على من أسباب الكراهة لاصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه ، فكان مع العباسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش فى بغداد ،ولولا عامل من عمال بنى العباس فى الرملة لاعتقل المهدى وقتل قبل أن يصل الى المغرب حيث أقام الدولة . يقول جعفر الحاجب فى سيرته : « وصلنا الى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذا عليه فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدى ... كيف يخدمه ورفع المهدى فوق رأسه وقبل يديه ورجليه »

ثم قال ان النجاب وصل من دمشق الى الرملة يصف له المهدى ويأمره بالبحث عنه والمهدى فى داره فانكب الرجل على رجلى المهدى يقبلهما ويبكى فطمأنه المهدى قائلا : « طب نفسا وقر عينا ، فوالذى نفسى بيده لا وصلوا الى أبدا ، ولنملكن أنا وولدى نواصى بنى العباس .. »

وتبين غير مرة ان النجابين الاسماعيليين كانوا أسرع الى تبليغ المهدى وأعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليمه ، واستخدم الحمام الزاجل فى تبليغ الرسائل الى المهدى وهو فى طريقه كما جاء فى روايات مختلفة ، فان صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وايمان برسالة المهدى على طول طريقه من الشام الى المغرب ، وان لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدى من عشرات الولاة والعمال فى الشام ومصر والمغرب ، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره الى المغرب الأقصى

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل فى باب العجب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية ، لاتعترف لخلفاء بغداد من بنى العباس بغير الدعاء على المنبر فى يوم الجمعة ، فقد روى عن كافور الاخشيدى ان الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه ـ وقد سقط منه ـ فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول : « نعيت الى نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها ٠٠»

□

هذه هى أشراط الساعة وعلامات الزمان التى وافتها دعوة الدعاة الفاطميين على قدر ، ولو لم تقترن دعوة الدعاة بهذه الأشراط التى تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم من اقامة الدولة ولا تمكنوا من الاقناع وهو أهم أعمال الدعاة

ونتابع الأمر الى غاياته فنقول ان الدعوة والحوادث التاريخية والبواعث النفسية كلها كانت خليقة أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناة وموطدون من أصحاب السلطان فيها ، يأخذون بزمام الأمور ويحسنون قيادتها على نهجها القويم الى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لغواشى الزمن ، وهى بعد التأسيس عرضة لطوارىء الهدم والتوهين

وقد جرت العادة فى كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد : مؤسس هو رأس الاسرة وموطد هو خلف

له يتناول منه الملك ولما يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام ، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده بناة أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذا من هذه القاعدة ، فأسسها المهدى عبيد الله ووطدها المعز لدين الله ، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التى تنبغى لبناة الدول وموطدى العهود ، فلو تتابعت أعمال الدعاة ودواعى الزمن دون أن يتاح للدولة هذان البانيان لما برز لها من الارض ركن ولا أساس

اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمت والهيبة ، كما اتصف باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الجأش ، وعرف بالحزم واصالة الرأى وشدة المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد ، واجتمع له حسن التصريف ، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغى أن يكون ، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم ، فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسسا قليل النظراء

قيل فى قوة بنيته « انه كان بقوة عشرة رجال »

وليست هذه القوة نادرة فى أبناء على من السيدة الزهراء ومن غيرها ، فقد روى عن محمد بن الحنفية انه جلد الارض بمصارع الروم الذى جاء الى دمشق يتحدى الأقوياء فى بلاد المسلمين كما تحداهم فى بلاده ، ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس ، فقيل عن يحيى ابن عمر الملقب بالشهيد انه « كان له عمود حديد ثقيل يكون معه فى منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من

حشمه فيلوى العمود فى عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده »

وليست قوة البنية شرطا فى أصحاب العروش ، ولكن مؤسس الدولة يحتاج اليها اذا وجبت عليه الرحلة أحيانا من مكان الى مكان فجأة وعلى غير استعداد ، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب الحاجة وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على أهبته لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه ، فاذا تصدى لهذا ولم يرزق ضلاعة الأركان أوشك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق

أسعفته هذه البنية الوثيقة فى مآزقه وفى أيام سلطانه، وأسعفته معها مهابة يعنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضمر مودته ، فلما كان أسيرا فى المغرب الأقصى كان صاحب « سجلماسة » ينكل بأعوانه ولا يجسر على مجابهته بما يسوءه ، وكان يعمل فى مغيبه ما لم يكن يجترىء على عمله وهو ناظر اليه

وقد تمت له المسعفات فى مآزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التى لا تفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة • فلما خرج من الشام الى مصر هربا من خلفاء بغداد سيروا الادلاء الى كل بلد فى الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرئون الذمة ممن يراه ولا يدل عليه ، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء • واتفق انه صلى الصبح يوما فى جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد « وضرب بيده على كم

الامام وقال له : قد حصلت لى عشرة آلاف دينار »

ولو رجل غيره فى مثل ذلك الموقف العصيب لساخت به الارض من الفزع ، ولكنه التفت الى الرجل غير مكترث وسأله كأنه خلو الذهن من كل خبر : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك انت الرجل المطلوب • فضحك المهدى وعاد مع الرجل الى المسجد وهو يقول له : « عليك عهد الله وغليظ ميثاقه اننى اذا جمعت بينك وبين الرجل الذى تطلبه كان لى عليك ولصديقى هذا خمسة آلاف دينار !•• » ولعله تفرس فى الرجل الغفلة فأخذه الى حلقة قد اجتمع الناس فيها، وأدخله من جانبها وراغ منه••وأجمع النية فى تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير الى المغرب

وفى مسيره الى المغرب تعقبه والى مصر وأدركه وتردد فى وصفه فأطلقه ولاح عليه انه يحدث نفسه بلحاقه اذا تثبت من حقيقته ، فما عتم المهدى أن عاد بعد انطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه ــ وكانت تربيته لابنه كما نقول فى مصطلح هذه الأيام تربية رياضية ــ فوقع فى نفس الوالى ان رجلا يعود بعد النجاة فى طلب كلب لا يظن به انه خائف على حياته وانه خارج فى طلب الخلافة وقال لأصحابه : « قبحكم الله • أردتم أن تحملونى على قتل هذا حتى آخذه • فلو كان يطلب ما يقال ، أو كان مريبا ، لكان يطوى المراحل ويخفى نفســـــه ، ولا كان رجع فى طلب كلب ••• »

وقد يكون الوالى أطلقه لمال أخذه منه كما يقول عريب ابن سعد فى تاريخه ، وانه خشى من أصحابه أن يرتابوا

فيه ويرفعوا أمره الى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه بالمهدى وركبه ، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالى الى بغداد .

□

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة انه بادر على الأثر الى تجديد نظام الدعوة في المغرب وفى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعا فى يديه أيام استتاره ، فتولى الدعاة ندب أعوانهم بغير مراجعة المهدى فى اختيارهم ، وتعود هؤلاء الاعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاة الذين ندبوهم واختاروهم ، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة ، فانه خليق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يطمع هؤلاء فى الاستبداد به وعصيان حكمه . فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم — داعى اليمن ابن حوشب — فعزله وهو الذى كان أستاذ دعاته فى الأقاليم ، وكان منهم عبد الله الشيعى الذى سبق المهدى الى المغرب واستقدمه اليها بعد التمهيد له وجمع القبائل على عهده ، وقد رابه من الشيعى هذا وأخيه العباس انهما على اتصال خفى بزعماء القبائل وانهما يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان في يديه ، ونمى اليه انهما يأتمران به ويبيتان النية مع زعماء القبائل على قتله، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون ، فجعل يفرقهم

فى المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم ، وهو فى الواقع يقصيهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة

وأطلق دعاته الجدد ومن أبقى عليه من الأقدمين يجوسون خلال الديار الاسلامية ليبشروا به ويخذلوا الأنصار حول أعدائه ، فانطلق رسله الى بلاد الأمويين بالاندلس وبلاد الادارسة بالمغرب ، ونشط رسله فى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وأخذ بيديه أزمة الثورات فى كل اقليم من تلك الأقاليم ، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون عليها وان الأوان قد آن للجهـــر بها ، ورأى هو بثاقب نظره ان ثورة الأطراف قبل فتح مصر ، أو قبـــل المسير اليها ، تغرير بالثوار ، وان الثورة بعد فتـــح مصر تتمة منتظرة قد تأتى عفوا وقد تنشب دفعـــة واحدة مع سقوط هيبة الدولة العباسية ، فلا يعيى الثـوار بالخروج عليها فى غير حذر ولا ندم ، وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين

والراجح من المقابلة بين برامج المهدى انه كان مقســور اليد فى حملاته على مصر · كان يوصى بالاناة والتريث حتى يفرغ العمل فى التخذيل وكسب الانصار··· ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التى تأتى على غير انتظار فيموت خليفـة فى بغداد ويستحكم الشقاق بين قواده ووزرائه ويغتنـم الثائرون الفرصة قبل تمام الاهبة ، وتتـــوارد الكتب الى المهدى بالحض على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر الى هذه الاحداث من بعيد ، ولا يبلغ من ثقته بجـــدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلوا من الجندمطمعة

للمغيرين عليه والمنتقضين ممن بايعوه على دخـــل فى أول عهده ، فينفذ الى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيــار ، كالحملة التى عقد لواءها للزعيم البربرى حباسة ثم حمله تبعةالاخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل الىالاسكندرية

أما الخطة التى يبدو انه كان يؤثرها ويختارها فهىارجاء الحملة على مصر الى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى علىفتنه ومشاغباته ، ويبتنى فيه المدينة التى أزمع أن يتخـــذها حصنا له يحتمى به من المغيرين والمنتقضين ، وقد شغلتــه فتن المغرب زمنا وأحرجته ايما احراج بعد مؤامرة عبد الله الشيعى وأخيه فقمع الفتنة قمعا عنيفا لا رحمة فيه ، ولم يسكن الى مقره بالمغرب الا بعد الفراغ من بناء المهديةحوالى سنة خمس بعد الثلثمائة ، فقال يومئذ : « لقد أمنت الآن على الفاطميات »

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء فى بنائه للمهــدية ، فانتقى لها موقعا يحيط به البحر من جهات ثلاث ، وأقام عليها سورا من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منهما ألف قنطار وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنـــــوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور ، وانتحى جانبا ثم بنى على مقربة منالمهدية مدينة أخرى سماها باسم زويلة احدى قبائل البربر التى توالبــه ، وخصص زويلة لدكاكين التجار ومخازنهم تخفيفا عن المهـــدية وعزلا بين السكان ومرافقهم ، وأفضى الى خاصته بأنه انما فعل ذلك ليأمن غائلتهم . قال : « ان أموالهم عندى وأهاليهم هناك . فان أرادونى بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عنـــدى فلا

يمكنهم ذلك ، وان أرادوني بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بيني وبينهم سورا وأبوابا فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأني أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا وبين حرمهم نهارا »

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها لولي عهده القائم فدخل الاسكندرية سنة ( ٣٠٧ للهجرة ) وتقدم الى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وفتك بالألوف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله ، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين

ثم كانت الحملة الثالثة ( سنة ٣٢١ ) وهو في وهن الشيخوخة ، وقيل انه مات قبل أن يحكم تدبيرها ، وبلغ من هيبته بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة ، مخافة الانتقاض ممن دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدى ورهبة من نقمته

□

مات المهدى في سنة ( ٣٢٢ للهجرة ) وولد في تاريخ مختلف عليه بين ( سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة ) وبويع له بالخلافة وهو في نحو الأربعين ، فكانت مدة حكمه أربعا وعشرين سنة ، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنيانها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التي كانت تنازعه في المغرب وصقلية من الأغالبة والادارسة ومن يؤازرهم من الأمويين بالاندلس والعباسيين ببغداد ، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكما أو غير حاكم انه فرغ لمناعم نفسه

أو غفل يوما عن سـيـاسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة وانقضت حياته وفى سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتماء الى أعداء الدين ، بل أعداء الأديان وانه تواطأ سرا مع رسل الفساد والغـواية لاستباحة المحرمات والاغراء بالفجـور ، ولو لم يكن كذلك لما أبقى بعده ملكا مؤسسا يغالب عوادى الدهر من أول القـرن الرابع الى نهاية القرن السادس ، أو يغالبها بآثاره الباقية الى اليوم



# المعز لدين الله

واحتاجت الدولة الى التوطيد بعد التأسيس فقام بالقسط الأوفى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لدين الله ، وهو الخليفة الذى فتحت مصر وبنيت القاهرة فى عهده ونقل مقر الملك اليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير ، وقيل انها كانت نبوءة ممن يحسبون الأوقات فى مراحل التاريخ بالاربعينات

تولى الملك بعد المهدى ابنه « القائم بأمر الله » ثم المنصور بأمر الله ، وكلاهما جدير بأمانة ميراثه وان لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعده . فعزز القائم الاسطول واحتل الشواطىء الايطالية حتى ثغر جنوة حماية لبلده من غارة القراصنة ، ومات قبل التمكن من صد الخوارج الذين أطمعهم فيه موت أبيه ولولا اعتصامه بالمهدية لدالت الدولة كلها فى عشرة أعوام ، وارتقى ابنه المنصور الى العرش فاجتاح الخوارج أمامه وأسر زعيمهم القوى ابن كنداد وشتت جموعه ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش فى هذه الأثناء وبين صد الافرنج الذين خيف منهم على شواطئه فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليقف زحفهم ولا يخلى الطريق أمام أحدهم ، ومات مجهدا

فى سنة ( ٣٤١ للهجرة) فارتقى العرش ابنه «معد أبو تميم» المعز لدين الله الذى كان بحق صاحب دور التوطيد بعـــد انتهاء دور التأسيس

▭

قلنا فى كتاب « عبقرية خالد » ان ولاية أبى عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد ٠ لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح الى غصن الزيتون مع السيف

وقد كان هذا شأن المعز فى المغرب بعد جده ٠ فانه كان يحسن المجاملة الى جانب البأس والصرامة ، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصولجان

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمـــة والمهدية محصورة ، فكان يتلقى دروس الفروسية علمـــا وعملا ولما يفرغ من مراجعة الطروس والاســـفار ، وتعلم لغات الأمم التى تتصل بالخلافة الفاطمية جميعـــا ، فكان يحسن البربرية والرومية والايطالية والنـــوبية ، ويتوسع فى علوم العربية ، وكان له شعر ونثر يميـــــل فيهما الى المحسنات لانتشارها على الألسنة والاقلام فى تلك الأيام

ويروى عن أنفته من الجهل انه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد انها كلمة شتم ومهانة فحفظهـــا وأنف أن يسأل عن معناها ولم يبرح حتى اتقن علم تلك اللهجة فاذا بالكلمة من أرذل شتائمها ، وقد أنف من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها

وبويع له بالخلافة وهو فى الرابعة والعشرين فهمه أول

الأمر أن يستوثق من أمنع المعاقل التى يعتصم بها الخارجون على الدولة ، فصعد الى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل فى طاعة آبائه فبايعوه .وأسرع اليه المخالفون يتقربون اليه لما أنسوه من مودته وكرمه

وأظهر ما ظهر من خصال المعز التى يتصف بها بناة الدول انه كان حريصا على الانتفاع بالتجارب والعبر ،وانه كان يحسن اصطناع الرجال ، وانه كان جيد الفراسة فى أحوال الأمم واغتنام الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد العزيمة عليه

فلم ينس هزيمة الاسطول فى الحملة على مصر ، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه ، ثم جدد حفر الآبار فى الطريق الى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يستخلص الخدام والاعوان ولا يغار من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظموا القصائد فى مدحهم ويأذن لهم أن يخاطبوهم بها فى حضرته، وكذلك أمر شعراءه أن يمدحوا قائده جوهر الصقلى وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه ، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى هذا الوكيل جوهرا عند تبليغ بشارة الفتح الى المعز فلم يبدأ بابلاغها الى رئيسه « المباشر » ليبلغها من جانبه الى الخليفة ، فغضب المعز على جعفر بن فلاح ورد اليه كتبه ليعيدها من طريق جوهر اليه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يعفو عن الشجعان من

أعدائه ويوقع فى نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى يمحضوه الطاعة خالصة بغير ريبـــة ، ومن المشهور عنه انه كان اذا لقى أحدا من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه ، ولعل هذا كان سبب الاشاعة التى تواترت بين الرهبان والقسوس بتنصره وبقائه عـلى النصرانية ، فان الخبر الذى جاء فى كتاب « الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة » لأحد الرهبان يقول انه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن فى مقبرة أبى سيفين ، ويقال فى سر ذلك انه تحدى البطرق ايرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملأ من الأمراء والكبراء وقادة الجند ورؤســاء الدواوين

والثابت من الأخبار يغنى عن هذه الاشاعات ، فان الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف فى الدين ولا فى المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبـــه ، وأطاع جوهر مولاه ، فبنى الدير الذى عرف بدير الخندق بديلا من الدير الذى أصابه الهدم عند تمهيد الأرض لبناء القاهرة، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع وجدد كنيسة القديس « مركوريوس » التى تسمى بكنيسة أبى ســيفين ( لأن القديس كان يرسم على صــــهوة جواد وفى يديه سيفان ) ... وقيل انه أمر باقامة البناء على المجذوب الذى أثار الدهماء استنكارا لبنائها وآلى ليبقين فى حفرة الأساس حتى يقام عليه ، فلم ينقذه من مصيره الا شفاعة البطرق له عند الخليفة

فهذا وما جبل عليه المعز من المجاملة وما تعــــوده من

الترحيب فى مجلسه بالمتناظرين فى الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الاشاعة عن مدفنه فى مقبـــــــرة الكنيسة ، ولعلها اشاعة نبتت بعد عصر المعز بعدة سنين ، يوم كانت هذه الاشاعة وما اليها موئل العــــــزاء فى أيام الخليفة الحاكم المخبول ، لمن كان يضطهدهم من المخالفين ، وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنيين

□

ومن تفرسه فى استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص انه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويســــتحثونه ، وتلاحقت الأنباء بسوء الحال واشتداد الغلاء وفتك الوباء ، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاة الأمر،ومنه فى رواية المقريزى ان صبية عرضت فى مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار « فحضر اليه فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتقلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فاذا هى ابنة الاخشيد محمد بن طغج وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتهــــا شغفتها حبا فاشترتها لتستمتع بها »

قال المقريزى : « فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعــز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز : يا اخوانــــا ! انهضوا لمصر فان يحول بينكم وبينها شىء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهــم

تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم ، فانهضوا لمسيرنا اليهم ٠٠ »

وقد كان الفاطميون يحبون المواسم والمواكب ويبتدعونها ويشجعون الرعية عليها ، ولكن المعز ـ على خلاف المعهود من سياسة أسرته ـ حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله الى مصر منعا للتبذل الذى شاع فيه على آخر أيام الاخشيديين ، وتطهيرا للأخلاق مما أصابها فى تلك الأيام وأدرك منه المعز انه نذير بزوال ملك بنى الاخشيد

☐

وقدم جوهر الى مصر فى سنة ( ٣٥٨ للهجرة ) فاشترط عليه وجوه الأمة ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوفاتهم ، فكتب لهم عهد أمانه الذى قال فيه : « ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ،فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى اقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ٠٠٠ ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ٠٠٠ »

ووضع جوهر أساس القاهرة ، ولم يشأ المؤرخون أن

ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم ـ وهى شهرة صحيحة ـ فقالوا انها سميت بالقاهرة لأن المهندسين أقاموا على أسسها حبالا وعلقوا فى الحبال أجراسا ليسمعها العمال عند حلول الرصد المطلوب ، وان غرابا وقع على الحبال والمريخ فى الفلك فاهتزت الحبال وأخذ العمال فى وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهر الذى يطلقه المنجمون على المريخ ، لأنه كان فى معتقد الأولين اله الحروب ..!

هذه القصة « أولا » تروى عن بناء الاسكندرية

وهى « ثانيا » لا تعقل ، لأن النجوم ترصد ليلاوالغربان لا تطير بالليل ، ولو طارت ليلا أو نهارا لما كانت وقعة غراب على حبل كافية لدق الأجراس على جميع الاسوار ، ولو كانت الاجراس تدق بهذه السهولة لدقت قبل وقوع الغراب على الحبل لأسباب كثيرة تحرك الحبال كما تحركها هزة الغراب ، ولو كان تحقيق الرصد مبنيا على العلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس فى ساعةمعلومة بغير حاجة الى الاجراس

ثم من قال انه غراب وهو مجهول ؟ وكيف عرفوه . والمظنون انالمهندسين هم الذينحركوا الحبال ؟ ولم لا يكون طيرا آخر أو جملة من الطير ؟

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون، وفى التنبيه الى ما فيها من الاحالة عبرة لمن يصدق السمعة التى تخلقها الأقاويل من هذا القبيل

واتبع جوهر سنة دولته فى تخطيط المدن وتشييد العمائر ، فانهم تعودوا أن يبدأوا بتجديد المعالم والشارات

ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئا فشيئا قبل مطالبتهم بتغيير ما توارثوه وثبتوا عليه ،فشرع جوهر فى بناء مسجدالعاصمة الجديدة ( سنة ٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء فى أرجح الاقوال ، وكأنه أراد أن يستغنى بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن القطائع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون ، وعن الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق ، وكلتاهما ـ أى القطائع والفسطاط ـ كانت عاصمة للقطر فى أوانها ، واستحدث الأمراء بعد خراب القطائع عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلا ومقاما كدأبهم فى تجديد المعالم والشارات على ما ألمعنا اليه

□

وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التى أعدت لاقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم الى الاسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين اليها للتسليم عليه ثم خطبهم قائلا انه لم يقصد الى مصر طمعا فى زيادة ملك أو مال وانما قصد اليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الاسلام ، وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان فى برنامج المعز خطة تمليها الضرورة عليه ، لأن تأمين الطريق الى الحجاز كان ضمانا لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها ، اذ كان القرامطة يعملون باسمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية يشيعون عن

القوم انهم يقطعون طريق الحج عملا بمذهب الاسماعيليين ويزعمون ان الاسماعيليين يسقطون الحج من الفـرائض ، فكان تأمين طريق الحجاز من قبل مصر والشام خطة تقضى بها مصلحة الحاكم والمحكوم ، ولم يلبث المعز فى القـاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع بينه وبين القرامطـة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه ، وزحفت جموعهم الى مصر ومعها قبائل البادية التى تطلب الغنيمة وتخشى من عواقب تأمين الطريق ، فاستعد لهم المعز بعدة الحيلة حقنا للدماء وأرسل الى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائى من يطمعه بالمال اذا تراجع وتنحى عن أصحابه ، ووعده بمائة ألف دينار .. فقبل الصفقة ، وخرج المعـز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن ينهزم هـــذا بجموعه عند التقاء الصفوف ، وقد فعل وحمل معه أكياس الدنانير ... ولكنها لم تحو من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع النحاس المذهبـة يخفيها الزعيم المخدوع جميعا عن شركائه ، ودارت الدائرة على القرامطة فى ذلك اليوم فقنعوا من الغنيمـــة بالاياب ودبت المخاوف والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها الى غاراتهم على مصر

ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المعز ( فى سنة ٣٦٥ للهجرة ) فان ابنه العزيز الذى تولى الملك بعـــده كان من كفاة الملوك وكانت طاعته غالبة على المغرب ومصر وجزيرة العرب لا تخرج عليه خارجة فيها الا عجل بقمعهـــا وأعاد الأمور فى أرجاء الدولة الى نصابها ، ولكنه مات ( سـنة ٣٨٦ ) وقد بدأت فى أيامه دسائس القصور وسـياسة

الحريم ، وتناثرت هنا وهناك بذور الانحلال التى اختفت الى حين فى ابان نضرة الدولة وزهوها ، ثم برزت وتفرعت مع ادبار الأمور وتعاقب الضعفاء من الأمراء

## الحاكم بأمر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة فى شخص انسان ، لو لم يكن تاريخه خبرا يقينا لشك فيه المؤرخون أو جزموا بانكاره ، اذ كان مجموعة من النقائض والغرائب يكذب بعضها بعضا ولا يتصور العقل لأول وهلة انها تصدر من انسان واحد

ذلك هو الحاكم بأمر الله

كان يعمر ويخرب ، وكان يلين ويقسو ، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها ما يشبه العبادة ، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة ثم يمنعها ويبطش بمن يعلنها ، وكان يحرم المباح ويبيح الكفر البواح ، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل ، فمن فتح دكانا بالنهار جلده ومن أغلق دكانا بالليل رماه بالعصيان ، وكان يعتق العبيد والاماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعبد الأحرار ويدينهم بما يأنف منه الأرقاء ، وكان يخرج الى غيران الجبل فى الظلام ويختبىء فى حجرات قصره منذ مشرق الشمس الى المغيب ، وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه ، ثم يحاسب على الصغائر التى يغفرها المتنطسون

قال ابن خلدون : « ان حاله كان مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة » . وقال ابن خلكان : « انه كان جوادا سمحا ، خبيثا ماكرا ، ردىء

الاعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل عددا من كبراء دولته صبرا، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورا واحكاما يحمل الرعية عليها .. »

ولم يذكر عن ملك فى أحوال العقيدة ما ذكر عن هـذا الحاكم بأمر الله ، وبأمره ، وبأمر المأمورين والأمراء

فمن مؤرخى القبط من يقول انه مات على النصرانيـة ، ومنهم من يقول انه كان يعبـد المريخ ويتوهم انه يراه ويتحدث اليه ، ومن مؤرخى السـنة من يقول انه ادعى الربوبية ، ومن أتباعه اليوم من ينفى الموت عنه ويزعم انه صعد الى السماء ليعود الى الأرض فى آخر الزمان ،وأطبقت النقائض على تاريخ حياته بتاريخ وفاته ، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات

وفى رأينا بعد هذا ان سيرة الحاكم هى أعجب السـير وأوضح السير فى وقت واحد ...

هى أعجبها فى موازين النصوص والأوراق ، وهى أقلها عجبا فى ميزان علم النفس الذى لم ينفصل عن التاريخ قط فى الكلام عن دولة كما انفصل عنه فى الكلام على ملوك هذه الدولة

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هـذا الرجل انها حالة من حالات الهوس بالاسرار أو الحالات التى تعرف بهوس الغموض Mystic Hallucinosis

أصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعـون بالأسرار ، يفرطون فى التفاؤل والتشاؤم لايمانهم بالرموز واعتقادهم ان الغيب يتحدث اليهم عن مكنوناته بتلميحات من الحوادث

والمعانى المزدوجة التى تحمل فى أطوائها ما ينم عليه ظاهرها للعارفين ، واذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التى تختلط بمرض الاضطهاد ، فيقع فى روع المريض ان الناس يضمرون له الشر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع ، وينتقم منهم للوهم العارض والشبهةالكاذبة، لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح

ويسكن المتهوسون بالأسرار الى منـاظر الظلام ، ويستهويهم الليل بخفاياه ، وتروقهم الوحدة فى الخلوات

وليس المصاب بهذه الحالة مجنونا ذاهل الحس عما حوله فى جميع الأوقات ، بل هى نوبات تعتريه ولا تمنعه أن يبدع ابداع العباقرة والموهوبين فى بعض الفنون

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم الى صدمات الطفولة وأزماتها التى ترتبط بالجنس على الخصوص ، فتكمن فى الوعى الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها ، حتى تنفجر دفعة واحدة أو رويدا رويدا فى مقتبل الشباب

وغير «الفرويديين» يعللونها باضطراب الحواس ولا سيما حاسة السمع وحاسة البصر ، فيتـوهم المريض انه يرى ويسمع ما ليس يراه الأصحاء ولا يسمعونه ، ويحـدث أحيانا أن ينظر الى الشيء الماثل فلا يراه ويصغى الىالصوت البين فلا يسمعه ، وقد يتفقون مع جماعة فرويد فىالرجوع بالعلة الى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطـوها بالمسائل الجنسية

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر ، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التى تنــدس فيها الآفات الى نفس الطفل الناشىء ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا فى عهد دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتركه أبوه وهو فى الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم المملوك برجوان والقاضى محمد بن النعمان والحسن بن عمار زعيم قبائل البربر من كتامة ، وأول هؤلاء برجوان كان غارقا فى دسائس القصور وسياسة الحريم

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو فى سن الخطر، لانه لم يكن من الطفولة بحيث يجهل ما حوله ، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك ما يحاط به ويملك الوســائل الى استطلاعه . كان فى الحادية عشرة وكانت كل خفيــة من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع وتوسوس له بالريبــة والتساؤل . فاذا كان مع هذا قد نشأ فى بيئة التنجيــم وكبر وهو يصغى الى أحاديث الباطن والظــاهر وأسرار الغيوب التى تنكشف للواصلين من الأئمة ، فلا عجب فى ابتلائه بتلك الآفة، آفة الهوس بالاسرار أو الولع بوساوس الغموض ، ثم يجهز على البقية الباقية من عقله أولئــك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضــعف فى نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون فى استغلالها ويبالغــون فى تحسينها وتزيينها ، كما فعل الدرزى والأخــرم من حاشية الحاكم المقربين ، اذ قيل انهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخاطبوه مخاطبة الأرباب ، واطبقت آفة الاطلاع المضلل على آفة الاستطلاع المكبوت

ولم يكن الحاكم من المسرفين فى الشهوات فتختــل

أعصابه من قبل الاسراف ، ولم يكن يعاقر الخمر أو يستطيبها بل كان يحرمها وينهى عنها ولم يشرب النبيذ الا بالحاح طبيبه الذى خطر له أن يعالجه بادخال السرور الى نفسه في مجالس الغناء مع يسير من الشراب، وانما «عرض له كما قال الطبيب يحيى الانطاكى فى تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس فى دماغه وهو مزاج المرضى الذى يحدث فى المالنخوليات واحتاج فى مداواته منه الى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به ، وان كثرة سهره أيضا وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره ، وان أبا يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن انسطاس لما خدمه استماله الى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها،فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب وعاد الى الامتناع من شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع الى ما كان عليه »

تلك هي خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس ولا يصور لنا فيها شيئا من تلك الأعاجيب التى يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق ، فان طفلا يصاب بالتشنج وتحيط به فى سن المراهقة دسائس القصور التى تحيط بالملوك الصغار ، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم وأسرار البواطن والغيوب ، ثم يبتلى من حوله بالمتزلفين والمنقبين عن مواطن الضعف فى نفسه الحائرة ــ غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائض التى ينساق فيها على الرغم منه أو التى ينساق فيها مختارا لانه يتوهم

انه يروض نفسه بالتقشف والتهجد ، وحمل الناس عليها والتقرب الى الله بعقاب من ينحرف عنها،فتنكشف له الحجب التى لا تزال مسدلة دونه ، ويتهم نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص فى الرياضة وقصور فى العبادة، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليـــــائس وقلق الحائر وايمان المستريح الى الظنون ، ودعوى المصدق لما يلقى عليه مما يستريح اليه

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت احدى جرائر «الحريم» ودسائس القصور أو كانت نكبته جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المعـــــز فى عاقبة التكثـــر من الزوجات والجوارى وأخذت سياسة القصور تتشعب وتستشرى حتى تناولت كل شىء فى الدولة والمجتمـــع ، وكانت جرائرها آخر الأمر شرا قائما بذاته وشرا محســـــوبا عليه سائر الشرور ، لأنه كان حائلا دون اتقائها ومنعها كما كان حائلا دون معالجتها بعد وقوعها

فمن جراء دسائس القصورتعددت قوى الجيش وشجرت بينها نوازع الشقاق تبعا لاختلاف الأحزاب فى كل حريم، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من الســـودان الى جانب القوة التى كانت لها من البربر والعرب ، وأصبح حراس الأمن أول المزعجين للآمنين ولانفسهم وللقادة والحكام

ولم يمض غير جيل واحد على قيام الدولة فى مصر حتى ابتليت بسياسة « البيروقراطية » أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء فى سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين كالاطفال وان بلغوا مبلغ الرجال . فقد ركنوا الى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال اليهم كلما طلبوه ، فقبض الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادرة وجمع الاتاوات من الرشوة والارهاب عدا ما يجمعون من الضرائب فى غير موعد

والمصائب لا تأتى فرادى كما يقال ، فان المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصابا الدولة بعجز فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع ، فحق عليها القول

وقد سمى عصر الخليفة « المستنصر » بالعصر الذهبى فى الدولة الفاطمية مع ما كان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء ، وما سمى عصره بهذا الاسم لانه صنع فيه شيئا خلال ستين سنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو فى السابعة ( سنة ٤٢٧ هجرية ) الى أن مات وهو يدلف الى السبعين ، ولكنه كان عصرا كموسم الحصاد الذى تبرز فيه الثمرات والأشواك وتنضج فيه السنابل وما يحملها من الهشيم الذى ستذروه الرياح عما قريب أو تطعمه النار ذات الوقود

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناة ولا من الهادمين ، وانما هو مهدوم تتداعى تحته قواعد الملك ، وقد يفارقها وهو قتيل

وكان بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان فى مصر قبيل

انتهاء الدولة الفاطمية ، فلما استقر الرأى فى أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى الملقب بالعاضد ، تجاوبت المنابر بالدعاء الجديد ولم يعلم به الخليفة الذى تحول عنه الدعاء ، لأنه كان يجود بنفسه فى مرض الوفاة ، فكانت سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة هى خاتمة الأجلين : أجل الخليفة الذى عمر احدى وعشرين سنة ، وأجل الدولة التى عمرت بين المغرب ومصر مائتى سنة وسبعين

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميـــدها منفردين لينقرضوا بغير عقب ، وقال المقـــريزى عن صلاح الدين والخليفة الأخير : « واضعف العاضد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاضد فى نقصان ... ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من ازالة الدولة ... فلم يبق للعاضد سوى اقامة ذكره فى الخطبة .. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه الى ارساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر .. »

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين ، لانها من قسوة الزمن وجناية الأسلاف على الأخلاف ، أو هو قد حسبها فى حساب الموازنة بين المناقب والمعائب ، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المشنوءة ، وبين القضاء الذى يجريه صاحبه ، والقضاء الذى يجرى على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه ، فرجحت كفة الاقبال وهو دائم الرجحـان ودالت دولة الزوال فشالت كفتها فى ميزان الزمان

# حضارة محتضرة

اذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى فى أيام الفراعنة جاز أن يقال ان حضارة مصر فى عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لعهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافا للحضارة فى أيام الفاطميين ، فان صبغتها المصرية كانت غالبة على كل صبغة ، ومن ثم لم تتكرر فى وطن آخر على هذه الصورة ، وبقيت مصر على مذهبها الدينى الذى كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقيـــاس الشؤون الاجتماعية

فلم توجد فى مكتبة بعد مكتبة الاسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التى وجدت فى القصر الشرقى وتفاوت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد ومليونين ، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للاعارة أو الاطلاع

وتنافست القصور فى اقتناء الكتب النادرة ، فكان فى

كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الألوف من كتب الفقـــه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين الى حين فيترجل ويخلع نعليه ، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها فى الرفوف

وأنشئت دار الحكمة ودار العلم · هذه للمتعلمين وتلك للمعلمين ، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحـــاضرة ، يخصص منها قسم للرجال وقسم للنساء ، وتنقل المناظرة أحيانا الى قصر الخليفة فيشترك فيها أو يشرف عليهـــا ، ويأذن لكل ذى رأى أن يدلى برأيه فيهـــا ، وان خالف به اجماع الآراء

وشاعت بين العامة ثقافتهم التى ترضـــيهم من ملاحم التاريخ المنثـــور أو المنظوم ، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصاصين أو الشعراء المنشدين ، يسمعون جمهرة الناس طرفا من التاريخ الشعبى والقصص الشعبية ، عدا مجالس الوعظ والتفقيه التى تفتح للقصاد فى المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر الى صلاة العشاء

وفى عهدهم أصـــلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان

وتقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس الفنانون والصناع فى هندسة البناء ، وفى النقش على الجدران والحفـــر على الحجارة الكريمة ، وشوهدت رسوم على النســـيج تحكى اللوحات الفنية فى دقة التصوير وجمال التلوين ، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغاير غاية ما يبلغه فى عصر من العصور ، وصيغت التماثيل من المعـــادن والجواهر

فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعــــدن النفيس بفضل الصناعة والاتقان

وقد ألف الوصافون اذا بالغوا فى وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة ، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور فى تلك الحضارة ، لولا أن نسخة الحقيقة كانت هى الأعجب والابدع من نسخة الخيال

وكانت التجارة مددا للصناعة لا ينقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسع والمزيد : تأتى السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود ببدائع المصنوعات ، أو تأتى ببدائع المصنوعات وتعــود بما هو أبدع وأغلى ، دواليك فى مواسم العــام كله لا تنى ذاهبة آيبة على مدى الصيف والشتاء

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية ، وحافظت الدولة الجديدة على مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت اليها ، فبعد الغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز الى القاهرة عادوا الى الاحتفال به وأضافوا اليه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد وأعياد الربيع ، وأحصى من مواسم العــام غير ذلك رأس السنة ويوم عاشــوراء ومولد النبى ومولد الامام وموالد آل البيت ، وليالى الوقود وهى ليال من رجب وشــعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار ، ولا سيما فى شهر رمضان وليالى الأعياد ، وعود الخلفــاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الاسمطة ويخرجوا اليه يحيــونه

ويتلقون منه التحية ، وأصبح الوافدون الى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والاسمار

ولم يكن قصارى ما فى تلك المواكب انها مظاهر لهـو وفراغ تعطل فيها الاعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة . بل هى كانت فى حقيقتها معارض للفنون والصناعات ، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم، ويتقدم كل طائفة نقيبها وأساتذتها يترنمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم ويعلنون عنها ويدلون عليها ، ومن هذه المواكب ما بقى الى اليوم فى زفة رمضان وزفة المحمل وزفة جبر البحر ، ومن تلك المحافل ما بقى فى طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالى الذكرى للاموات والزيارة للاحياء

لا جرم كانت مصر ابان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاد ، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان فى كل زمان ومكان ،وأولهم السياح والشعراء

فما من رحالة أنجبه العالم الاسلامى لم يتخذ من مصر مقاما أو مزارا فى تلك الايام ، وما من قصر من قصور الملك فى المشرق والمغرب عمر فى ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والادباء

وأوصى الخلفاء والامراء شعراءهم بالايجاز لازدحام القالة وكثرة المقال ، وزادوهم فى الجزاء لكيلا يقال انه قصد فى العطاء لا قصد فى الثناء ، فقال أحدهم ابن مفرج يخاطب الخليفة الحافظ

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا

لم لا أمرت ندى كفيك يختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفة كعمارة اليمنى الذى قال :

مذاهبهم فى الجود مذهب سنة
وان خالفونى فى اعتقاد التشيع

وهو الذى بخع نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهلاك أملا فى نصرتهم واستعادة مجدهم ، فهو أحق النـــــاس برثائهم ، وقصيدته التى قيل فيها انها أبلغ ما نظم فى رثاء دولة هى أحق ما نودع به عمرانهم المهجور :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتهـــا فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفهـــا
من المكارم ما أربى على الأمل
مررت بالقصر والأركان خاليـــة
من الوفود وكانت قبلة القبـــل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد
من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ما تراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منهـــا جديد عندهم وبلى

وموسم كان فى يوم الخليج لكم

يأتى تجملكم فيه على الجمـــل

وأول العام والعيــدين كان لكم

فيهن من وبل جود ليس بالوشل

والارض تهتز فى يوم الغدير كما

يهتز ما بين قصريكم من الأسل

والخيل تعرض فى وشى وفى شية

مثل العرائس فى حلى وفى حلل

وما حملتم قرى الاضياف من سعة الأ

طباق الا على الأكتاف والعجل

وما خصصتم ببــر أهــل ملتكم

حتى عممتم به الأقصى من الملل

كانت رواتبكم للذمتين وللضـ

ـيف المقيم وللطارى من الرسل

ثم الطراز بتنيس الذى عظمت

منه الصلات لأهل الارض والدول

باب النجاة هم دنيا وآخــــرة

وحبهم فهو أصل الدين والعمل

والله ما زلت عن حبى لهم أبدا

ما أخر الله لى فى مدة الأجــــل

ولم يؤخر له فى الأجل ، فانقضى أجل الدولة فى سنة سبع وستين وخمسمائة وانقضى أجل شاعرها فى ســنة تسع وستين وخمسمائة

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير »

# كتاب الهلال

## سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بهادارالهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما ( ماعدا كتاب زينب ١٠٠ مليم ) بخلاف مصاريف البريد المسجل، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

عبقرية محمد ( نفدت نسخه )
تأليف عباس محمود العقاد

السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد ابو حديد

ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

هرون الرشيد
تأليف الدكتور أحمد أمين

زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

أبو الشهداء
تأليف عباس محمود العقاد

الزعيم احمد عرابى (نفدت نسخه)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

جنكيز خان سفاح الشعوب
تأليف ف . يان

بطلة كربلاء ( نفدت نسخه )
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

قلب النسر
تأليف اوكتاف أوبرى

اشعب امير الطفيليين
تأليف توفيق الحكيم

نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

حديث رمضان
تأليف الامام محمد مصطفى المراغي

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ.س. ارمسترونج

كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابى ( جزء اول )
تأليف الزعيم احمد عرابى

مذكرات عرابى ( جزء ثان )
تأليف الزعيم أحمد عرابى

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب ( المبتديان ) بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، وأكشاك الصحف ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

**الكتاب القادم :**

# عصا الحكيم
# فى الدنيا .. والآخرة

بقلم توفيق الحكيم

## وكلاء مجلات دار الهلال

**سوريا ولبنان :** شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت ( تليفون ٧٨ـ١٧ـ٧) صندوق بريد ١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى ( الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين )

**العراق :** السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

**اللاذقية :** السيد نخله سكاف

**مكة المكرمة :** السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب٩٧

**البحرين والخليج الفارسى :** السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

**البرازيل :** Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brasil

**ساحل الذهب :** The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

**نيجريا :** Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

**انجلترا :** مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

# هذا الكتاب

تناول الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد سيرة السيدة فاطمة الزهراء ، فى نشأتها، وأخلاقها ، وميراثها الكريم عن أبويهــا ، وفى زواجها ، وبلاغتها ، وحياتها العامة . ثم فيما لها من شخصية عظيمة

ولما كان ملك الفاطميين فى المغرب ومصر قام على الانتساب اليها ، فقد تناول المؤلف الدولة الفاطمية من هذه الناحية ، وشرح أثر هــذا الانتساب فى تلك الدولة وكيف اعتمدت عليه فى بناء مجدها ، حتى استطاعت أن تفتح مصر وتقيم بها دولة مستقلة عاشت مائتى عام

ولم يسبق أن صدر كتاب خاص بحياة فاطمة الزهراء ومكان الصلة بينها وبين المنتسبين اليها فى دعوات الخلافة التى ظهرت منذ صدر الاسلام ، وغيرت من مجرى التاريخ

وقد توخينا فى سلسلة « كتاب الهلال » العناية بترجمة الشخصيات الاسلامية بوجه خاص ، لأنها مصدر القوة فى تاريخ الاسلام ، بل فى تاريخ الشرق العربى كله . وقد سارت دار الهلال على هذه السنة منذ حياة مؤسسها المرحوم جرجى زيدان

كتاب الهلال

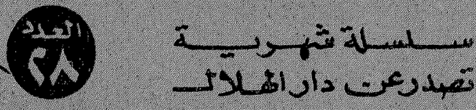
# عصا الحكيم

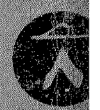
## فى الدنيا.. والآخرة

بقلم

توفيق الحكيم



# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٢٨ ـ شوال ١٣٧٢ ـ يوليه ١٩٥٣

No. 28 — July 1953

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
( المبتديان سابقا ) القاهرة

**المكاتبات**

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشـــتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشاصاغاـ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

# كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

# عصا الحكيم

## في الدنيا والآخرة

---

بقلم

توفيق الحكيم

---

## تمهيد

# ابنة من الخشب

تلك هى عصاى ••• عرفتها أو قل حملتها منذ نحو ربع قرن ••• منذ أن كنت وكيلا للنيابة فى مدينة طنطا ••• منذ ذلك التـــاريخ وهى تلازمنى كأنها جزء من ذراعى •• تنتقل معى وتسير •• من مصير الى مصير •• لا تضجر منى ولا تزهد فى صحبتى •• لو أنها كانت ابنة من لحم ودم ، لقالت لى اليوم : دعنى . . انى لست من جيلك !•• والتفتت الى زوجهـــا وبيتها !•• ولكن عصاى لم تعصنى بل تبعتنى وأطاعتنى وقاسمتنى الأيام البيض والأيام الســود •• انها ليست مثل « حمارى » الذى تركنى وجرى الى ميدان السياسة وانغمر فيها •• فلم يعد فى مقـــــدورى العثور عليه أو تمييزه من بين السياسيين !• لا •• ان عصاى معى دائما •• قانعــــة بحياتها الهادئة المتواضعة بجوارى ••تسمع كل ما يدور

حولى •• وتهز رأسها فى يدى عجبا أو سخرا أو صبرا .. وتكتم كثيرا .. وتهمس قليلا .. ما من شك عندى فى أنها تريد أحيانا أن تتكلم •• ولكنها تصمت أدبا•• لأنى لم أدعها الى الكلام ••لقد لحظها الكثيرون من قديم •• وأشار اليها أحيانا بعض الكاتبين والراسمين •• وحياها بعض الأصدقاء بقولهم لى : « أهى دائما معك لا تفارقك ؟ ! » . نعم هى بعينها .. لا أبتغى بها بديلا .. ولو كان من الذهب الابريز .. هذه العصا البسيطة من الخشب الأبيض الزهيد •• لقد هرمت واعتلت •• ونخر فيها الداء •• ولكنى أتناولها بالعلاج .. والخوف على حياتها يخلع قلبى .. حتى كثرت فى جسدها المسامير .. انها يجب أن تعيش .. لأنى لا أستطيع أن أتصور يدى بدون يدها .. تلك التى عاشت معى خير سنوات العمر ••!

أظن من حق هذه العصا ومن العرفان لها ببعض الجميل ، وقد نزلت منى هذه المنزلة ، وبلغت من الدهر هذه السن ، أن أصمت أنا •• وأقدمها هى •• وأدعوها الى الكلام هنا •• تقول لنا كل ما يجيش بصدرها ، من شئون الناس والفكر والمجتمع •••

## الجزء الأول

# في الدنيا

# الخوف من الجوع

قالت العصا :

ــ يحدث أن ينطلق خيالى أحيانا متسائلا : « كيف يقضى الناس يومهم الأول فى جنة الخلد ؟.. » ..أغلب ظنى أن فقراء الدنيا سيرتمون على المائدة الشهية والفاكهة الجنية ، يأكلون منها أكلا يزعج الحراس من الملائكة ، فيبادرون اليهم منبهين مذكرين : مهلا .. مهلا .. مخلدون فيها ..أنتم مخلدون !..ولكن فقراء الدنيا لا يسمعون .. أو لا يريدون أن يصدقوا ما يقال .. فهم يملأون البطون مما لذ وطاب ، كأنما الموائد سترفع عنهم بعد حين .. والفاكهة ستزول بعد قليل.. مثلما كان يقع لهم فى دار الفناء فيما يسمى « مطاعم الشعب » ! . وكأنى بحراس الجنة من الملائكة وقد أخذتهم الشفقة بهؤلاء الناس ، أقبلوا عليهم يقصونهم بلطف عن الموائد ، ناصحين :

ـ رفقا ببطونكم .. انكم واجدون ها هنا دائما كل هذا الطعام !..

فترفع الأصوات :

ـ دائما .. واذا جعنا يوما ؟..

ـ أنتم هنا لن تجوعوا أبدا .. أبدا ..

ـ ومن يضمن لنا ذلك ؟.. وكانوا كذلك يقولون لنا في الدنيا .. كان هنالك رجال يقولون لنا : « لن تجوعوا في ظل مبادئنا ! » .. فتبعناهم في شطر من الدنيا فوجدنا الدولة تجوع من أجل الفرد ..وتبعناهم في الشطر الآخر فوجدنا الفرد يجوع من أجل الدولة!

ـ جنة الخلد هي المكان الذي لا يدخله الجوع ..

ـ سنرى ..

قالها القوم وكل منهم يلتهم تفاحته الرابعة .. وكأنه يسر لصاحبه : « تفاحة في اليد ولا عشر في الغد ! »

فهمس أحد الحراس من الملائكة لزميله :

ـ ان الخوف من الجوع لم يمت فيهم بعد ، لعل الجوع هو أول ما يولد على الارض وآخر ما يموت !..

# الكرات الثلاث

قالت العصا :

ـ أتخيل القدر أحيانا فى صورة رجل بارع ، وقف فى ميدان عام يحرك كفه فى الهواء ويلعب بكرات ثلاث ، كما يفعل الحواة . . . وقد اجتمع حوله الناس من مختلف الأعمار والأجناس . . كل قد اشرأب بعنقه . . يشاهد ـ فاغر الفاه ـ تلك الكرات تتراقص فى يد الحاوى . . وقد كتب على الأولى : « المـــال » . . وعلى الثانية : « الصحة » . . وعلى الثالثة : « راحة البال » . .

صاح القدر مزهوا فى الناس :

ـ أما من واحد منكم أيها البشر يستطيع أن يفعل مثل ما أفعل ؟ . .

فتقدم رجل ومد اليه يده قائلا :

ـ أعطنى الكرات وأنا أفعل مثلما تفعل . . .

فأعطاه القدر ما طلب .. فما كاد الرجل يلعب بها .. وتستقر في يده كرة « المـــال » وكرة « الصحة » .. حتى تسقط من يده كرة « راحة البال » ...

فضحك القدر .. وضحك الحاضرون .. فتقدم آخر يتحدى .. فأعطاه القدر الكرات .. فلعب بها .. فاذا كرة « المال » تسقط من يده وتبقى معه كرة « الصحة » وكرة « راحة البال » ..

فتقدم ثالث ورابع وخامس ... وهكذا دواليك .. ما من واحد استطاع أن يحتفظ بالكرات الثلاث جميعـا في عين الوقت ...

فصاح القدر في الناس :

ـ كفى .. كفى .. لا تحـــاولوا بعد الآن .. انه ليخيل اليكم أن هذا في الامكان .. ولكنه المستحيل .. ان طمعكم وغروركم يعميـــانكم عن الحقيقة : لا يمكن ليد انسان أن تلعب بأكثر من كرتين من هذه الكرات الثلاث !..

# مخلوق محير

قالت لى العصا :

ـ لو سألت الفنان : لماذا ينتج ؟.. لما أجاب بجواب واحد فى كل الأحوال .. فهو فى شبابه عندما تسيطر عليه الأحلام وتغذى وجوده الأوهام ، ولا يعرف بعد من الحياة الا جانبها البراق الخداع ، ولا يحمل من تكاليفها ما يبهظ أو يثقل، ولا يؤمن من حقائق الدنيا بغير الكلمات الكبيرة ، ولا يرى من القيم غير المعانى العظيمة .. فانه يقول : أنتج من أجل المجد !

فاذا سألته فى كهولته.. وقد تبددت الأحلام، وانقشعت الأوهام وظهر من الحياة وجهها الحقيقى فاترا ساخرا ، وأقبلت الدنيا تلقى على منكبيه الأثقال والتبعات ، وخلعت الكلمات الكبيرة سحرها ، وزال عن المعانى العظيمة رنينها .. وخيل اليه أن جهده باطل .. وأن الناس من حوله

يجدون وهو الهازل .. فانه يقول : أنتج من أجل المال!

فاذا أعطيته المجد والمال .. ذلك المجد الذى لامطمح بعده لطامح .. والمال الذى لا مطمـــع بعده لطامع .. وألفى نفسه مسموع الكلمة مرهوب الجانب ، باشــارة من يده يستطيع أن يقيم الناس ويقعدهم ، ويغير ما بهــم ويصلحهم .. ووجد نفسه فى قصور مرفوعة القباب.. عامرة بالجوارى والجنات ، تحت امرته أكثر من يخت ، يجوب به البحار والأنهار ، وأكثر من هوية تشــغله ولعبة تلهيه .. فانك ترى منه بعد ذلك العجب الأكبر انه ينتج أيضا !..

فاذا سألته لماذا ولمن ينتج هذا الفن ؟.. فانه يقول : لا بد من أن أخلق .. ولا تسألنى لماذا ولا لمن ؟..

لا توجد اذن غير حقيقة واحدة فى كل ذلك : هى أن الفنان قد خلق ليخلق .. ومهما تكن الأسباب التى ينتحلها أو تنتحل له تبريرا لعمله ..فان السبب الأكبر هو أن قبسا حل فيه من صفة الخالق الأعظم ...

# سر الاعجاز !

قلت للعصا :

ـ عندما زرت متحف اللوفر فى الصيف ، شاهدت فيه ما كنت أشاهد من ربع قرن : مصورين من مختلف الأسنان والأجناس ، وقفوا بأدوات رسمهم وألوانهم يحاكون آثار الأعلام المعلقة على الجدران ... وكان الكثير من الزوار يمرون بهؤلاء المقلدين ، ويطيلون التأمل فيما يصنعون ، ولا يستطيعون كتمان اعجابهم بدقة التقليد ، وبراعة المحاكاة . فهذه لوحة « الجيوكندا » المشهورة لدافنشى ، قد نقلها ناقل بابتسامتها الغامضة وألوانها القاتمة .. وتلك صورة « رافاييل » بريشته ، وقد قلدها مقلد بكل ما فيها من حذق فى الرسم ونضارة فى اللون .. لقد كان الزوار المشاهدون يذهلون لتفوق التقليد على الأصل فى بعض الأحيان .. أو هكذا خيل اليهم ، وكنت أنا من بين أولئك الذين كادوا

يخدعون بامتياز المحاكاة .. ولكنى جعلت همى بعدئذ تقصى الأمر وتحرى السر ..

ما من شك فى أن المهارة الفنية ليست وقفا على العباقرة الغابرين .. وما من شك أيضا فى أن مفاتيح الصناعة قد اكتسبها الخلف بما انتفع من دروس السلف ، وبمااختزن من تقدم العصور .. فلا عجب فى أن يطاول النقل الأصل فى الصنعة الفنية .. لكن هنالك شيئا فى الأثر الخالد لا يمكن أن يطاوله أو يبلغ اليه ... هو الروح الداخلى .. هو ذلك المعنى الذى يشع من نظرات « الجيوكندا » وعينى « رافاييل »

نعم تلك كانت ملاحظتى الكبرى : ما من مقلد واحد استطاع أن ينقل نظرة العين على حقيقتها الأصلية ... ولقد قمت بنفسى بهذه التجربة مرات عديدة ... كان اتقان المحاكاة معجزا فى كل شىء .. الا فى نظرات العيون ... عندئذ أدركت أن سر الأثر الخالد ليس فى الصنعة الفنية الخارجية ..ولكنه فيما استقر خلف ذلك من روح لا تنقل ولا تنال ..

# الهبوط الى الشارع

قالت لى العصا :

ـ لست أدرى هل تلاحظ هذه الظاهرة العجيبة فى مصر اليوم ؟

ـ أى ظاهرة ؟ . .

ـ كل شخص فى مصر يريد أن يهبط الى الشارع . . ويتملق رجل الشارع . . الساسة والعلماء والقضاة والأدباء والفنانون والمفكرون . . ما من واحد من هؤلاء استطاع ـ الا فى النادر ـ أن يفكر بعقله لا بعقل الجماهير . . وان فى ذلك لخطرا كل الخطر على أمة لم يتم لها النضج والرقى . . لأن انقراض طائفة الخاصة التى تفكر بعقلها الممتاز وتقود الشعب وتبصره وتنهضه وتهديه . . معناه زوال الرأس من جسم الأمة . . هل رأيت جسما يسير بغير رأس ؟ !

فقلت لعصاى :

ـ أهذه الظاهرة خاصة بمصر وحدها ؟ انها ظاهرة عامة فى كل بلاد العالم .. انها سمة العصر الذى نعيش فيه .. ان رجل الشارع فى كل أمة هو الذى يقـــرر اليوم مصيرها ..

فقالت :

ـ ربما كان رجل الشارع فى كل أمة متحضرة هو الذى يريد .. ولكنـــه ليس هو الذى يفكر ، وانى أتحداك أن تدلنى على أمة راقية ترك فيها العلمـــاء والمفكرون والســاسة ، معاملهم وبحوثهم ومذكراتهم ودراساتهم ، وشغلوا بالتوافه التى تشغل العامة، واهتموا بالحصول على رضى الناس الرخيص ...

فقلت لها :

ـ حقا .. ليس لدينا بعد هذا الطراز من العلمـــاء والساسة والمفكرين الذين يعيشون حياتهم فى معمـــل أو مبدأ أو فكرة ..ولكن رضى رجل الشارع هو دائما المطلب الذى يسعى اليوم اليه قادة الأمم الكبرى

فقالت العصا :

ـ فكر قليلا تر أن رجل الشارع فى الأمم الراقية هو الذى ارتفع ، ولكن القـــادة فى بلادنا هم الذين انخفضوا ...

# أعداؤنا الثلاثة

قالت العصا :

ــ ان لمصر ثلاثة أعداء . . .

قلت :

ــ أعرف . . . الجهل والفقر والمرض

قالت :

ــ لا . . بل الدجل والتهريج والنفـــاق . . . واذا كانت مصر اليوم فى هذا المستوى المنخفض من الحضارة ــ ويجب أن تعترف بهذه الحقيقة المرة مرغما ــ فذلك لا يرجع فقط الى فعل الجهل والمرض والفقر فيها . . وطالع التاريخ ينبئك بأن حضارات قد قامت وفى جوفها جهل وفقر ومرض . . وأن امبراطوريات قد أنشئت وسواد أهلها يعانون من المرض والفقر والجهـــل . . ولكنها جميعا أقيمت وأنشئت لأن أعمدتهـا ورؤساءها سلمت من جرائيم الأعداء الثـــلاثة الفتاكة : الدجل

والنفاق والتهريج ... ولكى أبرز لك خطر هذه العلل الثلاث أقول : يكفى أن يظهر رجل واحد خلا من هذه العلل حتى يحدث فيها حدثا يغير مصيرها .. واليك النبى العربى .. ظهر وحده فى أمة بدائية ، تسير فى أمور دينها ودنياها على نهج معوج .. فلم يساير ولم ينافق.. بل نهض يرفع الصوت ويجاهر .. وبالحق الذى شعر به يبلغ وينادى .. هو وحده أمام أمة راسخة فى تقاليدها كالطود .. والناس من حوله يعجبون له ، ولا يفهمون مراده ، ويظنون به الظنون التى تساور كل مجتمع ، فحسبوا دافعه حب المال والملك ، فقالوا له : « ان كنت انما جئت بهذا الحدث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ... » . ولكنه قال : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .. »

.. بهذا برز من الصحراء دين حق ودولة كبرى وصلت المشرق بالمغرب !.

قلت للعصا :

ـ حقا .. حقا .. الدجل والنفاق والتهريج .. تلك هى الأعداء الثلاثة التى يجب أن نحاربها أولا قبل أن نرى لمصر مستقبلا !..

# لماذا فقدنا روح البناء ؟

قالت العصا :

ـ انى أتأمل الأهرام وما شيدته مصر الفرعونية ، وأتأمل المساجد الأثرية وما شيدته مصر العربية .. وأعجب لهذا البناء الذى يهزم الزمن ... وأريد أن أسألك : ترى ماذا يمكن أن نبقى للغد مما تشيده اليوم مصر الحديثة ؟ !

فقلت : لا شيء .. لأننا لا نبنى شيئا للبقاء .. لأن فكرة البقاء لا محل لها فى نفوسنا .. والتفكير فى الغد لا يحتل مكانا من رؤوسنا ... لأننا اليوم قوم نعيش لليوم والساعة، عيش الكسالى والخاملين ..أو المتواكلين والعابثين .. ما من شيء ثابت فى حياتنا .. كل بناء لنا يصنع واهيا .. ليستهلك فى حينه .. وكل فكرة متغيرة .. وكل رأى متقلب .. وكل برنامج منهار .. وكل تحمس لا يعيش غير نهار ..

قالت العصا :

ـ وما العلة فى ذلك ؟ وكيف فقدت مصر الحديثة روح الاستقرار ؟ .. أهو نظامها السياسى ؟ !

قلت :

ـ لا أظن النظام السياسى وحده هو المسئول ... اليك انجلترا ، تتوالى فيها الأحزاب الحاكمة فى أوقات متقاربة .. واليك فرنسا تتغير فيها الوزارات بسرعة فائقة .. ولكن فكرة البقاء .. فكرة الغد ، فكرة الخلود .. كل ذلك باق راسخ فى ضمير الشعب .. اذا قام هناك بناء عام ، فان العين تلمح فيه من روعة الفن ومتانة الصناعة ما ينطق بأن البانى انما يبنى للدوام .. واذا قام مبدأ عمل أصحابه على تحقيقه ودأبوا فى ذلك حتى يصبح حقيقة نابضة ، واذا وضع برنامج صالح تعاون الجميع على تنفيذه ، فلا تهدم حكومة ما أقامته حكومة .. ولا يحطم فرد ما عمله فرد آخر .. ان الشعوب كالأشخاص .. فى طور الطفولة تميل الى التحطيم .. وفى طور الرجولة تنصرف الى الانشاء ...

قالت العصا :

ـ ان الطفولة تحتاج فى تكوينها ونموها الى نموذج من الرجولة ... ربما كانت علة مصر اليوم هى انعدام هذا النموذج !

# جهاز السرعة

قالت العصا :

ـ العام يمضى وكأنه شهر .. أترى الشمس هى التى تسرع اليوم فى مجراها .. أو أن الأرض هى التى تسرع فى مدارها ؟ ..

قلت : ما أظن الشمس أو أظن الأرض هى التى تسرع .. ولكن الذى يسرع هو تفكيرنا ورغباتنا .. ان الزمن يبطىء بنا ويسرع على قدر وسائلنا وغاياتنا .. بالأمس يوم كنا ننتقل من مدينة الى مدينة على ظهور الدواب ، ونقطع المسافة القصيرة فى الأيام والشهور ، وننتظر الرسائل ترد بعد أسابيع من المكان القريب .. كان كل شىء كذلك يبطىء من حولنا مع بطء الزمن : التفكير والرغبة والغاية ... اليوم وقد نفخ عفريت العلم فى وسائلنا ، فجعلنا نقطع بالطائرات فى ساعات ما كنا نقطع فى أسابيع .. تحرك كل شىء تبعا لذلك . حتى غدت

الأيام والأعوام وكأن لها أجنحة هي الأخرى تخطفها من الوجود .. وحتى غدا « الوقت » هو العـدو الذى يطارده البشر لاهثين ... وحتى غدت كلمة «السرعة» هي دستور اليوم وقانونه ودينه ... دينه الذي له رسله وأنبياؤه من المخترعين الذين يعكفون على تجـويد كل آلة وتحسين كل جهاز ليصـلوا به الى أقصى مدى من السرعة .. فما نكاد نطالع خبر ظهور طائرة صاروخية تقطع ألفى ميل في الساعة ، حتى نطالع بعدئذ بقليـل خبر طائرة أخرى أسرع من الأولى في التهام «الوقت» .. هى السرعة فى الوسيلة ولدت السرعة فى الرغبة والسرعة فى الوصول الى الغاية .. فما من واحد اليوم من سكان الأرض المتحضرين يسـتطيع أن يعيش بلا أحداث تمر به في كل يوم .. لا بد من انقلابات في الفكر وفى المجتمع وفى الاقتصـاد وفى الحكم .. ان الجهاز العصبى للانسان الحديث قد أصبح هو الآخـر مثل الجهاز الكهربائى للطائرة الحديثة .. مكيفا للسرعة لا للبطء .. وما من شيء يثقل عليه ويخنقه ويشله مثل الهدوء والوتيرة الواحدة ..فهو يشترى الحركة الدائمة ولو بالحروب والدماء .. لذلك سوف تقوم الحروب في أوقات متقاربة ... لن يكون سلام ما دام جهاز السرعة قد ركب في روح الانسان !..

# الشباب والحياة

قلت للعصا :

ـ ما أعجب الشباب !.. كلما تذكرت أيام التحاقنا بمدرسة الحقوق ضحكت !.. كانت مدرسة الحقوق فى ذلك الوقت تابعة لوزارة « الحقانية » .. وكان يقال لنا انه بالتحاقنا بها قد أصبح لنا الحق رسميا فى لقب « أفندى » !.. ولكن مطامعنا لم تكن لتقف عند هذا الحد .. كان كل واحد منا يعتقد أنه قد أصبح فى البلد شخصية مهمة .. وما كان أحدنا يقبل وهو فى السنة الأولى ، منصبا يوم تخرجه أقل من منصب الوزير .. فلما انتقلنا الى السنة الثانية قلنا : لا بأس بمنصب النائب العام ... وعندما صرنا فى السنة الثالثة قلنا : نقبل منصب المستشار ... وفى السنة الرابعة تواضعنا وقلنا: اذا عرض علينا منصب القاضى رضينا !.. فلما اجتزنا الامتحان الأخير وحصلنا على ليسانس الحقوق، وخرجنا

الى الحياة حفيت أقدامنا سعيا وراء وظيفة معاون نيــابة تحت التمرين !..

قالت العصا :

ـ ماذا تسمى هذا ؟.. أهو الغرور أم الجهــــل بالحياة ؟..

قلت :

ـ ما الغرور الا وجه من وجوه الجهل ... وما أرى الحياة قاسية مفطعة فى قسوتها الا على الشباب .. لا لشىء الا لأنه يجهلها .. وهو فى جهــــله لها يثق بها .. ويعتقد أنه يعرفها وأنها فى متناول يده ..

قالت العصا :

ـ حقا .. قلما تجد شابا لا يردد فى كل مناسبة كلمة « الحياة » !..

قلت :

ـ ان الانسان لا يكثر من الكلام دائما الا عما ليس فى يديه ويتوق الى الوصول اليه .. ولكن المشكلة هى: كيف نحذر الشباب من مفاجآت الحياة ؟..

قالت العصا :

ـ المشكلة الحقيقيــــة هى أنه ما من شاب يعتقد أو يعترف أنه يجهل الحياة .. الحل الوحيد هو أن يكبروا ليعرفوا

# الاختراعات تخلق الضرورات

قالت العصا :

ـ ما الذى جرى اليوم فى الدنيا ؟.. هل أصاب الأرض جدب فلم تنبت زرعا .؟ وهل انتشر فيها طاعون فلم يبق ضرعا ؟.. فى كل مكان فى أنحاءالعالم صراخ من ارتفاع تكاليف العيش .. والعالم هو العالم، والأرض هى الأرض ، والزرع هو الزرع، والضرع هو الضرع .. ولم يزد تعداد سكان الأرض كثيرا .. وما زاد غير العلم الذى تقدم وتفوق .. هذا العلم الذى يأتى كل يوم باختراع .. أما استطاع أن يزيد فى انتاج الزرع والضرع بما يخفض من تكاليف المعيشة ؟ على العكس ان تقدم العلم قد صاحبه ارتفاع فى تكاليف الحياة ..

قلت :

ـ هذا صحيح .. لأن مطالب الحياة لم تعد مجرد

زرع وضرع .. ان العلم قد غير وجه الحياة العصرية .. وخلق ضرورات جديدة ... ولم يعد المجتمع الحديث بالبساطة التى كان عليها فيما مضى ... ان العامل الصغير فى مجتمع اليوم لا يكفيه مجرد الطعام واللباس والسكن ليعيش ... انه يرى من ضرورات حياته أن يدخن وأن يذهب الى السينما وأن يشترى الصحف وأن يكونِ فى بيته جهاز راديو .. هذا فى مصر اليوم .. أما فى أوربا وأمريكا فان هذا العامل له ضرورات معيشة أكثر من ذلك .. وكلما ارتقى العلم كثرت الضرورات ، وكلما كثرت الضرورات كثرت التكاليف وبهظت الأثمان وطالب العمال بزيادة الأجور ووقفت الحكومات فى ذلك موقف المنزعج الحائر .. لأنها بزيادة الأجور تساعد على ارتفاع الأسعار ، وبارتفاع الأسعار تعود المطالبة بزيادة الأجور ..وهلم جرا ..

قالت العصا : انها اذن مشكلة تتفاقم ولا حل لها .. لأن تقدم العلم فىاطراد ..وسوف يكون ارتفاعمستوى المعيشة فى اطراد أيضا

قلت :

ـ حقا .. ما من حل الا أن يوجد العلم اختراعا مهمته اصلاح ما يفسده العلم !..

# هل تقبل أن تولد ؟

قالت العصا :

ـ لعلك اطلعت على نبـــذة غريبة نشرت أخيرا فى احدى الصحف .. مضمونها أن كاتبا فى انجلترا ألقى على جمهوره هذا السؤال : «هل تقبل أن تولد لو عرفت مصيرك مقدما ؟.. » . والعجيب هو أن هذا الجمهور قد أجابت غالبيته بكلمة « نعم » ...

قلت :

ـ وما وجه العجب فى هذه الاجابة ؟. ان هـذا هو الرد الطبيعى

قالت العصا :

ـ أطبيعى أن يرى انسان مصيره المظلم .. ويوقن ان حياته ستكون سلسلة من المحن والآلام والمصائب والنكبات ويعرف أن وجوده على هذه الأرض سـيكون حبيس البؤس والذل والمرض والشقاء ، وأنه لن ينفع بحيـاته

نفسه ولا غيره ، وأن وجوده سيكون كارثة على نفسه وعلى الآخرين ... ثم يقبل بعد كل ذلك أن يولد .. ليواجه مثل هذا المصير ، ويحقق مثل هذه اللعنة ؟ !..

قلت :

ـ نعم يقبل أن يولد .. على الرغم من كل ذلك .. كما ظهر من نتيجة ذلك الاستفتاء ... وهذا يدل على أن العبرة بالحياة ليست غايتها ولا مصيرها .. بل هى الحياة ذاتها .. هى الخروج من العدم على أى وجه من الوجوه .. ان الشيخ الهرم يقعده المرض والصمم ، وتنقطع الصلة بينه وبين من حوله ، ويصبح كتلة من لحم على عظم تتنفس .. فيرضى ويبقى متشبثا بهذا الخيط الواهى من خيوط الوجود .. انه لا ينفع ولا ينتفع بالدنيا .. ولكن حسبه أنه كائن حى ... وهذا عنده ليس بالشىء القليل ..

قالت العصا :

ـ أذكر أنك قلتها يوما فى كتاب « أهل الكهف » : « ان أية حياة منحة ، وأثمن منحة تعطى مخلوقا هى الحياة »

# الفن واسع والعقول ضيقة

قالت العصا :

ـ ما هى مهمة الفنان ؟.. أهى أن ينقل النـــاس الى دنياه .. أم هى أن يصور دنيا الناس للناس ؟..

قلت :

ـ دعينا الآن من مهمة الفنان .. ولننظر فى أمزجة الناس .. فان فيها العجب .. كانت فرقة الشيخ سلامة حجازى تجـــوب الحضر والريف بروايات « هملت » و « روميو وجوليت » و « تليماك » فتلقى النجـــــاح الساحق .. فذهب يوما الى الريف برواية عصرية تمثل « العمدة » و « شيخ الخفراء » و « المأذون » .. فلم تلق هذه الرواية نجاحا عند أهل الريف .. فقد ســــمعوا لغتهم ورأوا صورهم على المسرح وخرجوا يقـــولون

ساخطين : « أهذه فرجة ؟ ! هذا شيء نسمعه هنا ونراه في كل يوم !.. »

قالت العصا :

ـ ولكن هذه الرواية الريفية قد تلقى النجاح الباهر في العواصم عند المتحضرين ..

قلت :

ـ لا شك في ذلك ... لأن من أهـل المدن من يحب أن يرى صورة أهل الريف .. كما أن العكس صحيح .. وهنالك من الناس من يفضل أن يرى صورته في المرآة .. ومنهم من يؤثر مشاهدة الصـور الغريبة عليه ...

قالت العصا :

ـ ان المشكلة اذن هي في اختلاف أمزجة الناس !.

قلت :

ـ انها ليست مشـكلة .. بل هي شيء طبيعي .. والخطأ الحقيقي هو مطالبة الفنان بمراعاة مزاج واحد من بين هذه الأمزجة ... في حين أن الفن يجب أن يتسع نطاقه ليشمل كل هذه النزعات في الانسان ... فلا بد

أن يكون هناك الفنان الذى يصـــور دنيا الناس للناس ليروا أنفسهم فى عمله فيزدادوا معرفة بحقيقتهم ... كما أنه لا بد أن يكون هناك الفنان الذى ينقل النــــاس الى دنيا أخرى من صنع خياله .. ليضيفوا الى حياتهم المألوفة حياة جديدة .. يثرون بضمها ذهنيا ونفسيا ..

قالت العصا :

ــ نعم .. ان الفن واسع ولكن عقول النـــاس هى الضيقة !..



# أجيال الغد

قالت العصا :

ـ ألا تلاحظ أن الأجيال الجديدة أصبحت أقل احتمالا للمشقة ... وأضعف صبرا على المجهود ؟.. كل ما من شأنه أن يتعب.. وكل ما يحتاج الى كد.. وكل ما يتطلب الغوص أو الأناة أو الجهد ، هو فى نظر هذه الأجيال شىء شاذ .. يجب أن يزول ؟..

قلت :

ـ هذا هو الواقع اليوم .. والعلة فى ذلك ظاهرة.. وهى أن هذه الأجيال نشبت فى عصر مصاب بحمى السرعة .. ممعن فى اختراع آلات التبسيط .. متسابق فى استحداث أدوات التيسير ... عصر أراد أن يجعل الآلة تتحمل عن الانسان كل جهد .. فهو فى مقعد يستطيع أن يطير فى ساعات الى أنحاء الدنيا .. وفى مقعد فى السينما يستطيع أن يعلم أشياء كثيرة فى

عشرات من الدقائق .. وفى مقعد يستطيع بالتليفون أن يقضى حاجات فى بلاده وخارج بلاده كان لا بدلقضائها من مشقة الأسفار .. وفى مقعد يستطيع أن يطـالع فى مجلة أو صحيفة خلال ساعة واحدة من الأخبـار والمعلومات والثقافات والمسليات ما يصرفه عن انفـاق الســاعات الطوال فى الكتب والمطولات .. ثم هو فى مقعد يستطيع أن يسمع ويشاهد فى التليفزيون طرفا من ثمرات العلوم والآداب والفنون فى زمن قليل وجهـد يسير .. وهكذا تتعقب الآلة الانســان الحديث فتمنعـه من بذل أى مجهود .. حتى الحساب .. قيل ان آلة جبارة اخترعت ولها عقل عجيب يستطيع أن يقـوم عن الانسان بحل أصعب العمليات الحسابية ..فلا عجب اذن أن نرى الأجيال الناشئة فى مثل هذا العصر قد فقدت القدرة على الصبر الطويل والجهد العنيف وكرهت كل ما يجهد الذهن ، وأحبت كل ما يخطف البصر !..

قالت العصا : الويل لانسان الغد اذن !..انه سيصبح شيئا تافها..ما قيمة الانسان وقد جردته الآلةمن مقوماته، وجعلت منه كائنا رخوا ... هى التى تفكر له وتبصر له وتسمع له وتقرأ له وتحســب له ؟.. قل اذن : ان الآلة ستصبح لها خصائص الانسان وأن الانسـان .. ستصبح له روح الآلة !..

# بعث الحضارة

قالت العصا :

ـ يبدو أن الحضارة القائمة مقبلة على زوال .. فان صنع القنبلة الايدروجينية سيؤدى حتما الى استعمالها .. كما استعملت من قبل القنبلة الذرية .. فنحن اليوم فى عالم ساسته كالأطفال .. ما ان تقع فى أيديهم علبة كبريت ... حتى يسارعوا الى اشعال ما فيها ليتقاذفوا به .. فاذا تمت الكارثة وقذفت أمريكا على روسيا القنابل الايدروجينية، وقذفت روسيا على أوربا وأمريكا هذه القنابل الهائلة ، فمعنى ذلك تحطيم مراكز الحضارة الغربية .. فلو فرضنا أن مصر سلمت من شر هذا الصراع المبيد، وخرجت من هذا الفناء الذى ابتلع أوربا وأمريكا دون أن تصاب بسوء .. فهل ترى أن فى استطاعتها أن تبعث هذه الحضارة من جديد بوسائلها الحاضرة ؟

قلت :

ـ من المؤكد أن وسائل مصر الحاضرة قاصرة جدا ، ولا تكفى لبعث حضارة علمية ضخمة ...فنحن نتصور أنفسنا قد تقدمنا كثيرا لأن فى أيدينا آلات ومعامل ومصانع ... ولكننا ننسى أن هذه الا لات والمعامل والمصانع تأتينا « جاهزة » من الغرب .. فلو تصورنا أن الغرب قد أبادته الحرب .. وأن علينا نحن أن نصنع فى بلادنا الميكروسكوب والتلسكوب وآلة الطباعة وآلة النسيج وآلة توليد الكهرباء .. الخ .. وأن نتقن صنع العدسة والدينامو ... وأن نبحث ونكتشف ونخلق.. دون أن ننتظر من الخارج عونا .. وأن نقيم بأيدينا وعقولنا الأدوات التى تمكننا من الكشف والخلق والانتاج .. فى مثل هذه الحالة يبدو السؤال عسير الجواب .. ولو قلنا اننا نستطيع مع ذلك بعث هذه الحضارة العلمية ، لبقى سؤال آخر هو : فى كم من الأعوام نستطيع ذلك ؟.. أكبر الظن عندئذ أننا نحتاج الى ما لا يقل ، فى تقديرى ، عن مائتين من الأعوام

قالت العصا :

ـ ولكن هذه الحضارة التى ستنتج فى مصر بعد كل

هذه الأعوام قد لا تكون هى بالذات الحضارة المندثرة !

قلت :

ـ أرجو ذلك .. بل أتمناه من صميم قلبى .. انى أتمنى لمصر حضارة روحية تقوم الى جانب الحضـــارة العلمية .. انها ان فعلت ذلك تكون ، بكل بساطة ، قد بعثت فى هذا العالم مرة أخـــرى ، فى ثوب جديد ، حضارتها الأولى ومجدها القديم ..



## « الله » تعوينة الأمريكان

قالت العصا :

ـ عرفت رأيك فيما لو أبادت الحرب العالمية الثالثة العالم المتحضر ووقع على مصر عبء بعث الحضارة العلمية من جديد ... لكن ما رأيك فيما لو أبادت القنبلة الايدروجينية أمريكا وأوربا وبقيت روسيا وحدها هى المسيطرة على العالم ... أو عكس ذلك ... أى لو أن روسيا وأوربا هما اللتان أبيدتا وبقيت أمريكا وحدها هى المهيمنة على الدنيا ؟ !

قلت :

ـ أرى فى كلتا الحالين كارثة على الحضارة الانسانية .. بالمعنى الذى أفهمه من هذه الحضارة .. ويفهمه كثيرون من أن حضارة الانسان يجب أن تقوم على قدمين ودعامتين : الفكر والايمان .. أى العقل والقلب .. أى الدنيا والدين .. أى مد نشاط الانسان واهتمامه الى

ما هو أدنى والى ما هو أعلى .. أى الحياة فى عالمين .. عالم المادة وعالم الروح .. أى فهم وظيفة الانسان على حقيقتها المثالية : وهى أن الانسان هو المخلوق الوحيد بين جميع الكائنات الذى نيط به ربط الأرض بالسماء ...

قالت العصا :

ـ وهل تعتقد أن أمريكا وروسيا تسيران بالحضارة فى طريق آخر غير هذا الطريق ؟..

قلت :

ـ يبدو ذلك .. ان كثيرين من مفكرى أوربا قد استولى عليهم الخوف من الآن .. وان انجلترا التى قبلت مشروع مارشال لأنها فى حاجة اليه ، لترفض بأى ثمن أن « تتأمرك » .. ويقول مفكروها ان النزعة الأمريكية ليست خيرا من النزعة الماركسية .. ويقول الفيلسوف الانجليزى برتراند رسل : « ان الله عند الأمريكيين لم يعد فى الوقت الحاضر أكثر من (تعويذة) يتيمنون بها للنجاح فى الحياة أو لكسب الحروب ! »

قالت العصا :

ـ هنا حقا الكارثة .. ما من شخص يستطيع أن يجحد الله فى صدره دون أن يجحد الانسان فيه !..

# الرجل الثالث

قالت العصا :

ـ لو تأملت حقيقة الدنيا التى نعيش فيهـــا الآن ، لوجدت أن المسيطر عليها رجلان: رجل السياسة ورجل العلم .. أى رجل تحركه الغريزة الأولى .. ورجل يحركه العقل الآلى ... وقد استطاعت هذه الغـريزة أن تركب هذا العقل ، وتجمح به فى سباق مروع مدمر نحو تحطيم الانسانية ... كل ذلك يحدث تحت أنظار رجل ثالث ... رجل يحركه القلب ..

قلت :

ـ تقصدين الأديب .. رجل القلم .. حقا تلك هى المشكلة التى تحيرنى الآن .. انى لأسائل نفسى كل يوم .. كلما حملت البرقيات أخبار الاستعداد الرهيب للحرب الثالثة وأســلحتها المهلكة .. ما موقف رجل القلم فى العالم اليوم ؟.. أهو راض عمـــا يرى ؟..

لا . . بكل تأكيد . . ما من أديب واحد يقبل من أعماق قلبه أن تساق البشرية الى ذلك الهلاك المنتظر . . . مهما يكن الثمن . . لأن شطرا كبيرا من الحضارة الحقة التى استقرت فى النفوس المثقفة من صنع أدبه وقلبه وروحه

قالت العصا :

ـ اذا كان هو لا يرضى ، فلماذا هو يسكت ؟

قلت :

ـ أتراه العجز ؟ ! . أترى صرير القلم قد أصبح اليوم من الأصوات الهزيلة التى يضيع أثرها بين انفجار المفرقعات ؟ أم أن القلب قد مات . . أو جبن أمام انتصار العقل الآلى ؟ ! . ذلك القلب الذى كان قديما تنفجر منه المشاعر والمثل التى قلبت التاريخ ورفعت قيمة الانسان ؟ أو انه تواطأ طامعا أو مخدوعا ؟

مهما يكن من أمر فان رجل القلم والقلب مسئول أمام المحنة الحاضرة . . . واذا وقعت الكارثة فمعناها أنه لم يعد له وجود . . .

# صناعة الآراء

قالت العصا :

ـ ما هى رسالة الأديب والفنان فى نظرك ؟ أليست هى فى توجيه الرأى العام ؟..

قلت :

ـ أعتقد أن أسمى رسالة للأديب والمفكر والفنان ليست فى توجيه الرأى العام بل فى خلق الرأى العام.. فان التوجيه معناه الدفع والفرض والسيطرة .. أى دفع الناس الى اتجاه بعينه ، وفرض رأى بالذات على عقولهم والسيطرة بفكرة أو معنى أو مرمى على نفوسهم .. وفى هذا انتصار بلا شك لفكرة المفكر أو لرأى الأديب أو مرمى الفنان .. ولكن هذا الانتصار الشخصى هو فى ذات الوقت خذلان لآراء عدد كبير من الناس ، وفناء لشخصية طوائف عديدة من البشر ... مثل هذا الانتصار على آراء الناس وقلوبهم مفهوم من رجل

السياسة ... لأن وجوده قائم على السيطرة المطلقة على المجموع .. ولكن الأديب أو المفكر أو الفنان رجل تكوين وتربية وخلق .. لا رجل سيطرة وانتصار .. فهو لا يحب أن يلبسك رأيه ، بل يحب أن يخلق فيك رأيك

قالت العصا :

ـ انك تفترض أن الناس جميعا قابلون أن يكونوا أحرارا .. وتنسى أن أغلب البشر لا يستطيعون ولا يريدون أن يكون لهم رأى ... انما هم يستسهلون أن يرتدوا الآراء التى تصنع لهم صنعا ...

قلت :

ـ نعم هنا المشكلة .. وانها لتتفاقم .. لأنه باتساع نطاق الحضارة أصبح من الضرورى للناس أن يتخذوا لهم آراء كما يتخذون لهم سيارات وأردية وأجهزة للاذاعة .. وان الكسل والسرعة والسهولة تدعوهم الى طلب هذه الآراء مصنوعة عند من يحسن تقديمها اليهم فى صناديق مجهزة مبسطة

قالت العصا :

ـ لعلنا اقتربنا من الحقيقة .. وهى أن عمل الأديب أو المفكر أو الفنان هو خلق أولئك الذين يصنعون الآراء للجماهير !..

# قيمة الاشخاص والاشياء

قالت العصا :

ـ ألست ترى أن الانسان كلما صعد فى مراقى الفكر بدت له الأحداث والأشخاص هزيلة ضئيلة ؟..

قلت :

ـ هذا صحيح ... ولا يصدق هذا على الارتفاع الفكرى وحده .. انما يصدق ذلك على كل ارتفاع.. فمن يصعد الى قمة الهرم يبصر الناس كأنها النمل ، والبيوت كأنها الأكواخ ، والسيارات كأنها ألاعيب أطفال ... ولكن السؤال الجدير أن يطرح هو : هل من يبصر الأشياء والأشخاص من العلو ، يراها على حقيقتها ؟

قالت العصا :

ـ وهل من يبصر الأشياء والأشخاص وهو فى مستواها يراها على حقيقتها ؟

قلت :

ـ لست أدرى .. وليس من السهل أن نعرف أين نجد حقيقة الأشياء والأشخاص ؟.. أهى فى تلك الضآلة التى نراها عليها من العلو ؟. أم تلك الضخامة التى نراها عليها من السفل ؟ .. ان أصعب شيء فى الوجود هو صحة الحكم على حقيقة الأشياء والأشخاص .. لأن هذا يتطلب أن تنظر الى هذه الحقيقة من جملة زوايا .. وأن تكون على جانب كبير من المعرفة والتجربة .. وأن تتأنى فى مراجعة القيم والأقيسة والأبعاد .. حتى تستطيع بعد كل ذلك أن تصدر حكما يقرب من الصحة .. لذلك طالما سمعنا أن عظماء الرجال والقادة هم الذين يستطيعون أن يصيبوا فى الحكم على الأشياء والأحداث والأشخاص .. ان أعظم ما يحملنى على احترام شخص هو عدم خلطه فى القيم .. وكثيرا ما احترمت أشخاصا لما يبدو من ثقفتهم ، فما ان يخلطوا فى قيم الأشياء .. والأشخاص ، حتى ينهار احترامهم من نفسى ..

قالت العصا :

ـ صدقت .. ان الشخص ذا القيمة هو الذى يعرف القيم كما يعرف الصائغ درجات الذهب !...

# المقامر والمرابى

قالت العصا :

ـ لو تأملت الطبائع ، وتتبعت وسائل نشاطها ، لتبين لك أحيانا أنها تكاد تنقسم الى فئتين : فئة تختار للوصول الطريق القصير على ما فيه من خطر .. وفئة تختار الطريق الطويل الذى لا خطر فيه .. فئة تمتطى الحظ .. وفئة تمتطى الصبر .. وحصان الحظ سريع ،ولكنه قد يكبو .. وسلحفاة الصبر بطيئة ولكنها لا تكبو أبدا .. وراكب الحظ يريد أن يمحو الزمن الذى بينه وبين الهدف .. وراكب الصبر يريد أن يستخدم الزمن فى الوصول الى الهدف ..

قلت :

ـ هذا التقسيم لا يصدق على الأفراد وحدهم .. انما هو يصدق أيضا على الأمم .. فمن الأمم من ادخرت قسطا من القوة فلم تلق به كله على مائدة الحظ

.. وتنزل به ميدان المغامرة .. بل وقفت به تتـــربص الفرص ، تنفق الضئيل منه ليعود عليها بعد زمن بفوائد كثيرة تجيئها لتضمها الى رأس المال ، ثم تأخذ منه بعضه القليل ، اذا لاح صيد أو ظهرت سانحة ، فتعطي بحذر ، وتدع الزمن ينضج الثمر على مهل .. فتحصد وتضيف ، ثم تعـــاود الكرة ، خطوة خطوة ، وصفقة صفقة .. متخذة من الطمع مركبة ، ومن الصبر والزمن جوادين ... هكذا تكونت الامبراطورية البريطانية مثلا في يوم من الأيام .. أما الأمة الألمانية مثلا فقد رأت أنهـــا تملك ذات يوم من القوة والكفاءة والنبوغ ما يؤهلهـــا لمركز ممتاز .. وكبر على نفسها أن تستجدي الزمن أو تختلس المغانم من الظروف المواتية ، ومن ضـــعف الضعفاء ، فآثرت أن تواجه الحظ بكل ما في يدها ، وأن تنتزع منه مجدها قسرا ..

قالت العصا :

ـ حقا .. هذا خير مثل لاختلاف الطبائع والوسائل ... في ألمانيا طبيعة المقامر ... وفي انجلترا طبيعـــة المرابي !..

# الحاصل صفر

قالت العصا :

ـ من أبرز العيوب فى مصر والشرق العجـــز عن الاستمرار ... فقلما ترى شخصا يستأنف عمل شخص آخر ... فى كل نواحى النشاط ترى الاتجاه الغالب هو أن يبدأ الشخص بهدم عمل سلفه ، قبل أن يفكر فى مباشرة عمله .. فى السياسة والفكر والأدب .. والفن الخ .. شعارنا هو : كل ما تم قبلى لغو يجب أن يزول !..

قلت :

ـ هذا حقا شعارنا ... بينما شعار غيرنا من الأمم التى أنتجت هو : كل ما تم قبـــلى ربح يجب أن يزاد عليه .. ففى السياسة خطوات تتلوها خطوات ، وخطط تدعمها خطط ، والحجر الذى أرسى يقام عليه حجر ، فاذا نحن أمام برنامج اجتماعى ضخم كأنه بنيان ينمو على

توالى الأزمان ، على الرغم من اختلاف الحكومات ..
وفى الفكر والأدب والفـــن : المجهودات تضاف الى المجهودات .. ويقدر الخلف أعمال السلف ، ويرون فيها ثروة للأمة يجب أن يتولد منها ثروات .. فيظلون يدرسون ما تم بروح الاهتمام ، وينظمون ما حقق وما هو فى سبيل التحقيق، ويضعون الأفكار فوق الأفكار كمن يضع الدينار فوق الدينار .. فاذا نحن أمام كنـــز من كنوز القريحة الانسانية تفاخر به أمته وتدل به على أهل الشرق الغارق فى أهوائه ، النائم فى لحظات يهدم آخرها أولها وتنسى احداها الأخرى ..

قالت العصا :

ـ لعل الفرق بين الشرق وبين غيره من الأمم المتقدمة هو أن هذه الأمم تعرف عمليات الجمع .. فهى تجمع العمل على العمل ، فالحاصل بالطبع عمل .. بينما الشرق لا يعرف غير عمليات الطرح .. فهو يطرح العمل من العمل والحاصل بالطبع صفر !..

# الشرق الشحاذ

قالت العصا :

ـ لماذا ينظر الغرب دائما بعدم اكتراث الى الشرق العربى ، ويقف منه موقف غير الحافل بأمره ، ويلتفت اليه الالتفاتة العابرة ، ويشير اليه الاشارة الخاطفــــه ولا يراه الا كائنا جغرافيا ، يقوم على هامش الحضارة الانسانية ؟..

قلت :

ـ السبب فى ذلك بسيط : وهو أن الشرق العربى يقف دائما من الغرب موقف الســـائل الذى يمد يده بطلب .. فهو يقول للغرب أعطنى حريتى .. وأعطنى استقلالى .. وأعطنى قروضا .. وأعطنى علمــــا .. وأعطنى أفكارا .. وأعطنى مبادىء .. وأعطنى آلات .. وأعطنى مصنوعات .. وأعطنى خبراء .. وأعطنى .. وأعطنى .. الخ .. ما من مرة قال الشرق للغرب :

« خذ » حتى يسترعى اهتمامه .. ان الانسان قد جبل بطبعه على أن يهتم بمن يعطيه لا بمن يأخذ منه . وماذا يكون نصيب ذلك الذى يتبعك دائما فى الطريق يقول لك فى كل حين : « أعطنى من فضلك .. » ؟ ألا يكون نصيبه منك فى أغلب الأحيان : « الله يحنن عليك ! » تقولها بغير اكتراث .. وقد يخطر لك أن تستخدمه فى أن يحمل عنك ثقلا ماديا لا شرف فيه ، أو أن تستغله فى معاونتك معاونة مهينة مما يقوم به الخدم والعبيد والتابعون ؟ ! .. فلو أن الشرق قال للغرب ذات مرة : « خذ منى فكرة تنفعك » لنظر اليه الغرب فورا نظرة الاهتمام والاحترام ..

قالت العصا :

ـ وماذا عندالشرق العربى اليوم مما يستطيع أن يعطيه للغرب ؟ !..

قلت :

ـ مجرد الاشتراك فى حل مشكلاته يكفى .. ما من مرة قال الشرق للغرب انى مشغول بحل قضية لك أيها الغرب لا لى .. حبذا لو أن « جامعة عربية فكرية » تنشأ لبحث مشاكل الغرب للغرب .. عند ذاك يعترف الغرب أن الشرق ليس مجرد شحاذ !..

# العصر « الشكوكى »

قالت العصا :

ـ العالم المتحضر يعيش اليوم فى عصر الذرة .. أى فى عصر يتسم بروح السباق العنيف فى ميـــــدان الاكتشافات العلمية والفنية ، وروح التنافس البالغ فى ميدان الأفكار والمبادىء الاقتصادية والاجتماعية .. أما نحن فان الناظر الينا يدهش ويحار ولا يدرى أى روح تسيطر الآن على الحياة المصرية ؟ !

قلت :

ـ ان النظرة الفاحصة الى حياتنا المصرية اليوم لايمكن أن تلم الا بشىء واحد : هو أن الروح المسيطر علينـا الآن هو : روح التهريج .. فنحن قوم نريد أن نضحك ونمزح ونهزل فى كل حين . ونحن نريد من كل شىء المظهر ولا نعبأ بالجوهر .. كل مشروع حيوى ينقلب عندنا الى احتفالات واعلانات ولا شىء بعد ذلك .. وكل

هدف عندنا هو الوصول الشخصى بطريق الطبل والزمر ولا عمل خلف ذلك .. لقد أصبح شعار النجاح فى كل الأفواه : « هرج تصل » .. حياتنا قد اتسمت بروح التهريج الى حد نرى فيه الصفوة من علمائنا فى الطب أو الهندسة أو الكيمياء أو الزراعة أو القانون الخ ... والطبقة المثقفة من أساتذة الجامعات وطلابها اذا أرادوا احياء حفلاتهم السنوية لجأوا الى جماعة المغنين السوقيين والمضحكين المبتذلين والراقصات الماجنات ، ويتهالكون على الاذاعة ، فلا يخطر لسامع أنها لعلماء أفاضل !..

قالت العصا :

ـ حقا .. العالم يعيش فى عصر الذرة .. ومصر تعيش فى عصر «شكوكو» .. وهو ولا شك رمز لعصر انحلال خلقى يمكن أن يفتك بروح أمة وكيانها أسرع مما تفتك بها قنبلة ذرية !..

# الانسان . . ذلك الجبان

قالت العصا :

ـ من طبائع النـــاس التى تنم على ما ركب فيهم من خسة ذلك الاحتقار ، الذى ينظـــرون به الى الكلب ، وهو لهم الصديق الأمين المحب . .

قلت :

ـ حقا ان الكلب للانسان أكثر من صديق . . وأين هو الصديق الذى يخدمك طول العمر ، دون كلل ولا ملل . . . يرعى غنمك ، ويحرس دارك ، ويتبعك فى الرخاء والشقاء ويقودك فى ظلام الليل ، ويجلس عند قدميك يؤنس وحشتك ووحدتك ، ويدافع عنـــك اذا مسك سوء أو هددك خطر ، فاذا أشرت اليه بالابتعاد ضيقا به ، أو للخلو بنفســك وصحبك ، ابتعد صاغرا بأدب ومودة ، ووقف منتظـــرا على مرمى بصرك أو

صيحتك .. فاذا بدرت منه هفوة ورأيت تأديبه فأفرطت وقسوت وانهلت عليه ضربا بالعصا أو ركلا بالقدم ،فانه يقعى على ذنبه أو يطأطىء برأسه ويتلقى تأديبك بصبر جميل ، وهو القادر أحيانا على أن ينقض عليك بمخلبه ونابه ويفتك بك فى طرفة عين .. ولكنها الصداقة والمودة والحب العميق ... فهمها هذا المخلوق العجيب على أكرم وجوهها .. وهو مع ذلك ليس بالنذل ولا بالجبان .. فكلنا يعرف مواقفه التى تنطق بالشجاعة والوفاء والاقدام .. فكم من مرة هجم ذئب أو وحش على انسان أو غنم انسان فانبرى كلبه للمهاجم فغلبه أو طرده أو مات فى الجهاد ... وكم سمعنا عن قصة ذلك الرجل الذى نهض فى الصباح فوجد كلبه صريعا تحت فراش طفله ، وبين مخالب الكلب ثعبان ضخم مقطع اربا .. فأدرك ما وقع فى الليل .. وما دفعه الكلب من ثمن لينقذ الطفل !. ولكن العجب هو أن الناس بعد كل ذلك يحتقرون الكلب !.

قالت العصا :

– يحتقر الناس الكلب على وفائه وأمانته لأنه لا يفترسهم !..

# مطية الانسان

قالت العصا :

ـ هل تعتقد أن هناك ما يسمى ثروة النفس حقـــا بالمعنى الذى يطلق على ثروة « المال » ؟..

قلت :

ـ أعتقد أكثر من ذلك .. ان « الثروة » هبة من الله ... وهى قد تكون فى النفس .. وقد تكون فى المال ... وفى النادر جدا أن يصطفى الله شـــخصا واحدا يمنحه الثروة فى المال والنفس معا .. ولكن القـــاعدة الغالبة هى أن نرى فى هذه الدنيا صاحب المال قد حرم من ثراء النفس ، ومن كانت له ثروة النفس حـرم من ثروة المال ... كما أن من الخلائق من حرم الثروة على الاطلاق .. سواء فى المال أو فى النفس ..

قالت العصا :

ـ أهو قدر مدبر أم نظام طبيعى ؟..

قلت :

ـ انى لا أفرق كثيرا بين النظام والقـــدر .. لأن تدبير الله هو تنظيمه ، وما نسميه قدره هو فى أكثـــر الأحيان قانونه ... وفى حالتنا هذه يجرى كل شيء على سنة النظام الطبيعى الذى ركبه الله فى الانسان .. فالشخص الذى يشغل بجمع المال ، مع ما فى وسائل جمعه عادة من عناصر تأباها النفس الأبية ، الصـــافية النقية ، يرى في هــذا المال من غير شك الفضيلة الأولى التى تستحق منه هذا الجهاد والاجتهاد وتكريس الحياة، وشغل البال .. وهو بهذا الاهتمام يجعل « نفسه » من حيث لا يريد ولا يدرى مطية لهدفه .. فهو اذن يجعل « المال » فى مكان الراكب و «النفس » فى مكان المركوب .. بينما نجد العكس فيمن انشغل عن جمع المال بالفكرة السامية أو العاطفة العالية .. فهو يجعل المال مطية .. ولا يسمح له أن يشغل من حياته أكثر من القـــــدر الضرورى للوجود ، فهو اذن يضع « النفس » فى مكان الراكب و « المال » في مكان المركوب ..

قالت العصا :

ـ اذا أردت اذن أن تعرف انسانا فانظر الى مطيته : هل هى « النفس » أو هو « المال » !..

# نوع من النبوغ

قالت العصا :

ـ يخيل الى أن فى مصر خبيرا عبقريا مهمته الدقيقة هى : أن يضع كل شىء فى غير محله !..

قلت :

ـ هذا صحيح .. فان هذه الاجادة والدقة والاتقان والتفنن فى وضعنا الأشياء فى غير محلها قد بلغت حدا لا يمكن أن نعزو فيه الأمر الى مجرد الفوضى أو المصادفة أو الهوى .. انما هى سياسة مرسومة .. أو خطة موضوعة .. أو برنامج مقرر أو نظام مدبر .. لكأن لدينا حقا رجلا ممتازا موهوبا له سلطة كالسلطة التى كان ينبغى أن تكون لرئيس ديوان المحاسبة .. تعرض عليه الأشخاص والمناصب والأموال والمرافق .. فيسأل : ما هو المطلوب لهذا المنصب ؟ فاذا قيل له : مهندس .. قال : ضعوا فيه محاميا .. واذا قيل له :

محام .. قال : ضعوا فيه طبيبا .. فاذا وجد بالمصادفة ان هذا المحامى أو الطبيب على شىء من الدراية والكفاءة .. بحث وكد واجتهد حتى يعثر على الشخص الذى لا يدرى كثيرا أو قليلا عن الموضع الذى يوضع فيه .. ومثل هذا يتبع فى انفاق المال .. فاذا قيـــل له : نريد اعتمادا لادخال ماء الشرب فى القرى ، قال : لا داعى لشرب الفلاح، اصنعوا بالمال دارا فخمة للبريد .. واذا قيل له : دبر لنا دولارات لشراء أدوية وآلات ،قال :بل اشتروا بها جوارب وسيارات .. الخ ..

قالت العصا :

ـ أو تظن من السهل دائما اتقان هذا الفن ؟.. ان الذهن الذى لا يخطىء فى وضع الشىء فى غير محله ، لا يقل نبوغا عن الذهن الذى لا يخطىء فى وضـــع الشىء فى محله .. وكل أمة لها نوع النبـــوغ الذى تستحقه ! ..

## خزان آخر ...

قالت العصا :

ـ لست أدرى أأنت من المتفائلين أم من المتشائمين. . ولكن الذى لا شبهة فيه للنظرة العـــابرة هو أن مصر تتقدم سريعا الى أسفل .. ويكفى أن تقارن بين ما كان عليه الحال منذ عشرين عاما ، وما وصل اليه الحال اليوم فى كثير من النواحى العلمية والخلقيـــة والاجتماعيـــة والفكرية والفنيـــة .. الخ .. انظر الى أساتذة الجامعة فىالماضى وأساتذتها اليوم .. وانظر الى الأخلاق العامة فى المـاضى ، والى الأخلاق العامة اليوم .. وانظر الى حرية الفكر فيما مضى وحرية الفكر فى السنين الأخيرة .. وانظر الى ملاهينـــا وأغانينا بالأمس وملاهينـــا وأغانينا وحفلاتنا فى الأيام الحاضرة ، أيمكن أن نرى فى كل هذا شيئا غير سير سريع نحو الانحدار ؟

قلت :

ـ لا أريد أن أتشاءم أو أتفاءل قبل بحث الأسباب .. ان مصر قد تحولت فى السنوات العشرين الماضية تحولا اقتصاديا ملحوظا ، كان من نتيجته اثراء طبقة من الناس اثراء سريعا أدى الى نشر مثل عليـــا جديدة فى المجتمع .. أو على الأصح مثل ليست عليا .. لأنهـا بذرت فى النفوس بذور المادية والوصولية والاستهتار .. ولكن هذا الأمر ليس بوقف على مصر وحدها .. كل بلاد العالم حدث فيها مثل ذلك ، يوم تمت فيها هذه التحولات الاقتصادية .. مع هذا الفارق : وهو أن تلك البلاد الأخرى كان فيها مثل عليا حقيقية قوية قبل أن تغزوها المثل الدخيلة غير العليا .. فلم يستطع هذا الغزو أن ينال كثيرا من التقاليد العريقة المغروســـة فى العلم والخلق والفكر والفن .. أما مصر فلم تكن قد تهيأت بعد لمثل هذا الغزو المادى ..

قالت العصا :

ـ العلاج الآن هو أن نبادر باقامة خزان آخر الى جوار خزان أسوان .. خزان للمثل العليا ...

# الريحانى الحى ...!

قالت العصا :

ـ كنت تصغى أمس الأول الى شريط سجل عليه فصل للريحانى ... وكان التأثر باديا عليك، لا يستطيع الضحك أن يحجبه ... وكانت شفتاك تهتزان بكلمات .. ترى ما هى ؟

قلت :

ـ لعنات كنت أستنزلها فى سرى على من أهمل فى تسجيل أعمال هذا الفنان .. وبركات كنت أدعو بها لمخترع هذا الجهاز العجيب !.. اختراع يكاد يلغى الموت الغاء ... فها هو ذا الريحانى يضحك ويضحكنا ،ويبدع ويمتعنا وهو فى قبره عظام نخرة !.. لقد سجل الشريط صوته وهو الآن فى الأموات ، وسجل معه أصوات الناس من جمهوره ، وهى تضج بالضحك والاعجاب ، وأكثر هؤلاء الناس اليوم ولا شك أحياء

يرزقون ... ولكن السامع يخيل اليه أن هـــذا الميت أكثر حياة من هؤلاء الأحياء !.. ولست أعنى بالحيـاة هنا الحياة المعنـــوية .. بل أقصد الحياة المادية نفســـها ... لقد كان شعورى أن الريحـــانى حى بكل معنى الحياة .. انه يذيع مسرحيته وأنا أسمع .. اليوم وهو فى القبر كما كان يفعـــــل بالأمس وهو فى مسرح « ريتس » .. لا أكاد أشعر بفرق .. كل الفرق هو بالنسبة اليه هو .. انه هو الذى لا يستمتع بتصفيقنا أو باعجابنا ... وانه مستمر فى منحنا فنه ، ونحن انقطعنا عن توصيل شكرنا اليه .. انه القادر على التأثير فينا ، ونحن العاجزون عن التأثير فيه ..

قالت العصا :

ـ لئن كانت الحياة فعلا وتفاعلا وأثرا وتأثيرا .. فهو بالنسبة الينا الحى .. ونحن بالنسبة اليه الأموات !..

# أصدقاء الرخاء

قالت العصا :

ـ ما الذى ترجوه من الصديق ؟. وما الذى ينبغى له أن يفعل حتى يكون جديرا أن يوصف بالوفى .. أيحسن به أن يقف الى جانبك فى وقت الشـــدة وأن يختفى عنك وقت الفرج .. أم يخلق به أن يقبل عليك وقت الفرج ، ويختفى عنك وقت الشدة ؟ !

قلت :

ـ هناك فرق بين ما نتعلمه فى الكتب وما نتعلمه فى الحياة ... أما الكتب فهى تقول لنا ان الصديق الحق هو الذى يلازمنا فى الشدة ويؤازرنا فى الضيق .. فاذا جاء الفرج ابتعد عنا حياء وخشية من أن يثقل علينا أو يوحى الينا بأنه ينتظر على وفائه ثمنا .. أما الحياة فهى تقول العكس وترينا الصـــديق المرموق أنه ذلك الذى

يختفي عنك وأنت في شدتك .. أو يشغل عنك باكتساب المغانم في صحبة غيرك .. حتى اذا ما ابتسمت لك الدنيا وانقشع غيمك ، ظهر يجرى نحوك مهللا مكبرا ، ومكث بجوارك الليل والنهار ملازما مؤازرا ..

قالت العصا :

ـ ومن الذى له الغلبة ؟ !

ـ العجيب أن الغلبة لذلك الذى يعرفنا ويلازمنا وقت الرخاء !.. ولعل هذا هو الطبيعى الذى لا عجب فيه .. فالغلبة دائما للجرىء .. حتى وان كانت الجرأة على معنى الصداقة ..

قالت العصا :

ـ وهل يستطيع الانسان أن يحترم صديقا من هـذا الطراز أو يعتمد عليه ؟. ولكن من يدرى ؟.. لعـل الانسان يحب الصداقة التى تسره أكثر من الصداقة التى يحترمها !

# عصير الذهن

قالت العصا :

ـ هل رأيت هذه المكتبة العامرة بالكتب فى أشـــهر ميادين القاهرة ، كيـــف تحـــولت أخيرا الى حانوت للمرطبات ؟ ! ان صاحبها هو صاحبها لم يتغير .. ولكنه قلب نفسه بكل بساطة من « كتبى » الى « شربتلى » !.. وعندما سئل فى ذلك قال :

ـ الناس لا يريدون اليوم عصير الذهن .. انهـــم يريدون عصير الليمون !..

قلت :

ـ هذا صحيح مع الأســف .. وهى ظاهرة خطيرة تستحق العناية والعــلاج ، فان انصراف الناس عن غذاء العقل نكبة كبرى لأمة فى طريق التحضر .. وما قيمة التعليم فى أمة اذن ، اذا كانت نتيجتـــه تخريج زبائن

للمشارب لا للمكاتب ؟ ! ان أبقى درس وأهم كسب للطالب فى المدرسة ليسا فى تلك المعلومات المحددة ، التى ستنسى حتما بعد حين ، ولكنهما فى غرس ملكة المطالعة التى ستلازمه فى كل حين .. لا خير ولا نفع فى أرقى المدارس والجامعات اذا خرج منها الطلاب يلعنون كتبهم ويختمون بالشمع الاحمر على رؤوسهم بينما الطالب الذى ينشأ فيه حب المطالعة والاطلاع ، تنشأ فى عين الوقت جامعة كبرى فى نفسه تزوده بالمعارف المتجددة طوال أيام حياته .. ذلك واجب المدرسة الأول : تعلمنا حب القراءة .. وتمرن عضلاتنا الفكرية على هضم أغذية العقل .. ثم تدفعنا الى الحياة نزدرد ثمرات الذهن ...

قالت العصا :

ـ حقا .. ان الانسان يولد زبونا بالفطرة لعصير الليمون .. ولكنه لا بد أن يعد اعدادا ليصير زبونا لعصير الذهن !..

# الفن فى البرلمان

قالت العصا :

ـ اعتاد البرلمان المصرى فى كل عام أن يتـــــربص بفريسة هزيلة ضئيلة ... ما ان تتقدم اليه تتعثـــر فى هزالها وضآلتها ، حتى يعمل فيها طعنا وتقطيعا وشطبــا بالأقلام الحمراء ... هذه الفريسة المسكينة هى اعتماد فن التمثيل !.. فما هى الضغينة المقيمة بين البرلمان وبين الفن ؟ !

قلت :

ـ ما أحسبها ضغينة .. ولكنه احتقار وقلة تقـدير لشىء لا يبدو نفعه لكل الأذهان . العلاج هو أن نعرض الفن وقيمته ونفعه القومى أمام العيون .. ولا أريد فى هذا المقام أن أسوق غير مثال واحد ، مثال لا مبالغـــة فيه ، لأنه الواقع ، وأدعو الناس الى تحريه .. من أهم

دعائم الدعوة العالمية لاسرائيل فرقتان عندها للتمثيل . .
احداهما تسمى « الهابيما » والثانية تسمى « أوهيـــل »
بذل فيهما من العناية ما ارتفع بهما الى درجة التفــوق
الدولى ، فجابتا المدن العظمى فى أوربا وأمريكا تعرضان
روائع الفكر الخالد من أعمال شكسبير وراسين وستيفان
زفايج مما جعل صـــحف تلك البلاد المتحضرة تتحدث
بفضلهما على الفكر العـــالمى والثقافة العالية . . ولهاتين
الفرقتين عشاق ومعجبون فى العواصم الكبرى ، مع أن
التمثيل فيهما بالعبرية . . ولقد فازتا قبل الحرب بمبالغ
طائلة وتبرعات هائلة مكنت اسرائيل من تشييد مسرح
فى تل أبيب تكلف نحو مائتى ألف من الجنيهات ،يعتبر
من أفخم مسارح العالم . . .

قالت العصا :

ـ حقا . . نحن نسخو بآلاف الجنيهات على مقـــال
سخيف تنشره صحيفة أجنبية دعاية مأجورة لنا . . ونضن
بهذا المبلغ على انشاء فن قومى يستطيع أن يقوم لنا بدعاية
كريمة أمام السائحين فى الداخـــــل وأمام الجاحدين
لحضارتنا فى الخارج !..

# هل المداد هباء ؟

قالت العصا :

ـ يخيل الى أن الكتابة هى أضعف وسيلة للتأثير فى المجتمع ... وذلك أن من لديه فى الغالب حسن الاستعداد لأن يسمع نجده فى أكثر الأحيان لا يقرأ .. ومن يقرأ فهو قلما يسمع ... ولو كان فى الكتابة نفع ، لرأينا المجتمع قد تغير منذ أمد طويل ... ولكن كل قارىء يقرأ وكأن الكلام لا يعنيه .. واذا فطن فانه يبتسم ـ ويطوى الورق ويقول : « كلام ! » .. أو يقول : « تمام » .. ثم ينسى كل شىء بعد حين .. لماذا ؟.. ولمن ؟ .. تجهدون أنفسكم اذن يا معشر الكتاب فى اهراق هذا المداد الذى لا تبتلعه أرض ولا نفس ؟ ..

قلت :

ـ حقا .. هو جهد لا يرى له أثر .. فالماء يروى

الشجر ، وتحصد منه بيدك الثمر .. ولكن المداد ؟.. ماذا ينبت ؟.. أين هو الثمر الذى نراه بأعيننا قد أينع فى الناس بفعل المداد والقلم ؟.. انه لعمل مجحف مبئس .. ومع ذلك يكابده صاحبه ويصر عليه وهو موقن أن شيئا لن يتغير وأن نفسا لن تتحول .. على الأقل بالسرعة التى تشعره بلذة النجاح ولكنه يمضى فى الكتابة وينسى النتيجة .. الى أن يعتاد العمل دون أن يسأل عن الأثر .. وكأنه ثور الساقية ، يدور بها مغمض العينين ، لا يدرى اذهب ماؤها فى الهباء أم ذهب فى الغيطان ؟ !

قالت العصا :

ـ ربما كان هذا هو السبب فى قصور القلم فى الظاهر وهباء مداده ... ان غيطان النفوس تحتاج الى أجيال ، حتى تصل الى أغوارها مياه الأفكار ، وتهيىء أديمها للنبت والاثمار !..

# قوة الروح

قالت العصا :

ـ هل تعتقد حقا أن الروح يمكن أن يكون لها أثر فعلى فى مجتمع ما . . وان القيم الروحية يمكن أن تكون مصدر سلطة يحسب حسابها فى بلد من البلاد ؟ . .

قلت :

ـ أومن بذلك كل الايمان . . على شرط أن تتجلى الروح بنـــورها وحده . . لا ببرق زينة مادية . . وأن تعتمد القيم الروحية على جوهرها وحده . . لا على مظاهر قوة دنيوية . . ان اليوم الذى نستطيع فيه أن نجعـــل الناس يشعرون بوجود سعادة خفية ليس مبعثها المادة . . وأن نجعل المجتمع يشعر بوجود فرد أو جمـــاعة يستمدون هيبة وقوة وجلالا من مجرد قيم معنوية عارية عن المال والجاه . . لهو اليوم الذى يمكن فيه اقنـــاع

الناس بوجود الروح .. ذلك أن الناس لا يرون أمامهم غير السعادة واللذة اللتين يأتى بهما الجاه والمال .. فهم اذن معذورون اذا اندفعوا نحو هذا النهر الأصفر .. يعبـون منه ما استطاعوا ، ليرووا ظمأهم الذى لن يروى .. لأنهم يجهلون وجود ذلك الجدول الآخر الصافى الخفى الذى لا بريق فيه ، ولكن فيه أثر الرى .. ما من مثل واحد قام ليثبت للناس أن رجلا واحدا بغير المـــال والجاه استطاع أن يكون سعيدا وأن يكون قويا .. خلا الأنبياء والرسل .. وخلا بعض الأفذاذ من الرجال أمثال « غاندى » .

قالت العصا :

ـ أوليس فى هؤلاء الدليــــل ؟.. كلهم غيروا وجه العالم .. يكفى أن ينهض رجل واحد .. رجل روح حقيقى ليقلب التاريخ .. أو بعد هذا نشـــك فى قوة الروح ؟ !

# لو حكم الفلاسفة

قالت العصا :

ـ كلما حل بالدنيـــا الخراب ، وفتكت بالانســـانية الحروب وتوالت المصائب والمآسى ، تساءل الناس : لماذا لا يقود الفلاسفة زمام العالم ؟.. انهم بتفكيرهم المتسامى عن الغرائز قد يستطيعون تجنيب العالم ويلات العواطف المتأججـــة التى تلهب النفـــوس وتدفعها الى المجازر والنكبات !..

قلت :

ـ ما من شك أن الفلاسفة لو تسلموا أعنة الدنيا لما وقع فيها شيء مما نراه الآن .. بل لما وقع فيها شيء على الاطلاق .. أذكر أن أحد المفكرين تســـاءل يوما : ما الذى يجرى لو أن مؤلفى المآسى المشهورة وضعوا بدل أبطالهم فلاسفة .؟ لو أن شكسبير وضع بدل عطيل

فيلسوفا ، لما قتلت ديدمونة ! ولو أن سوفوكل وضـــع بدل أوديب فيلســـوفا لما فقأ عينيه . . . الوحيد من بين أبطال المآسي الذى أريد له قدر من التأمل الفلسفى وهو « هاملت » ظل مترددا بين الاقدام والاحجام ، لا يدرى أهو مصيب أم مخطىء، حتى كادت تفلت منه كل فرص العمل . . الرواية الكبرى أيضا وهى الحياة . . لو أن أبطالها المحركين لمصائرها كانوا فلاســـــفة ، لا ساسة ولا قادة جيوش . . لوقفت حركة هذه الرواية من قديم عند الفصل الأول !. . فالفلاسفة بتحكمهم فى الغرائز ما كانوا ليسمحوا بحروب ولا بنزاع ولا بثـــورة ولا بانقلاب الخ . . .أى أن التاريخ يجب أن يقف عاطلا بلا عمل ، أمام حكمة الفلاســـفة التى تمنع تلك النزعات والأخطاء والأهواء التى تنبت منها الحوادث التى تهـــز الناس وتتيح لهم التغير والتطور . .

قالت العصا :

ـ حقا . . لا بد في «جهاز » الانسانية من «محركات» الغريزة الى جانب « فرامل » الحكمة . . .

# كرة القدم

قالت العصا :

ـ أجمع هواة كرة القدم ممن يشـــاهدون المباريات الدولية التى تجرى بين الفرق المصريةوالفرق الأجنبية على ظاهرة بعينها : هى أن مصر تملك لاعبين من الطراز الأول .. لو أنك أخذتهم فردا فردا لتبين أنهم أمهــر وأبرع فى الغالب من زملائهم الأجانب . وكل منهــم يأتى بالمدهش المعجب فى حلبات اللعب .. ولكن هؤلاء الأفراد الممتازين اذا انتظمتهم المجموعة، أى ما يسمونه « التيم » ، وواجهوا المجمـــوعة الأخرى الأجنبية فسرعان ما يظهر ضعفها أمام « التيم » الأجنبى !..

قلت :

ـ السبب واضح هو أن « التيم المصرى » كل فرد فيه يلعب مستقلا عن المجموعة .. وتطغى عليه براعته

الخاصة ، فيتصور أن فى امكانه أن يقـــذف الكرة الى الهدف بقدمه وحدها . ويؤدى ذلك الى ضياع الرابطة بينه وبين زملائه اللاعبين والى اختلال النظام الذى يجعل منهم وحدة منسقة .. فاذا الفريق مفكك .. واللعب مرتجل . . والمصادفة هى التى تقرر النجاح أو الفشل. فى حين أن « التيم » الأجنبى ، كل فرد فيه مكمـــل لزميله ، لا منفصل عنه ، معاون له وداعم ، لا عائق ولا مزاحم .. يرى الفخر فى أن تحصل المجموعة كلهـا على النصر ، دون نظر الى السبب فيه ..

قالت العصا :

ـ تلك هى سمات المجتمع الراقى ... بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا .. وأن أبناء هذا المجتمع المتين لتظهر فيهم صفات التعاون والتعاطف، جدوا أو لعبوا ، فتقودهم الى الفوز المبين ..

# لا موت فى أمة حية

قالت العصا :

ـ من مضحكات مصر الحديثة أن نسمع فيها من يتكلم عن « الخلود » وكل شىء فيها يموت بيد الجهل والاهمال والجحود . .

قلت :

ـ حقا . . نحن أمة تعيش من يوم ليوم . . لا ماضى تواصله . . ولا حاضر تجد فيه . . ولا مستقبل تبنيه . . يظهر فيها أحيانا النبوغ والذكاء والاجتهاد كأنها زهرات نبتت فى مستنقع تزهر فى الصباح وتذوى مع المساء . . دون أن تجمعها يد فى آنية . . . ولنحص ما بقى لنا أو ما أبقينا عليه من آثار أمواتنا . . فى العلم . . ألم يكن لدينا عالم أو اثنان تركا بحثا أو بحثين ؟ . . من الذى قام بعدهما يمضى فيه أو يتمه أو ينميه ؟ . .

فى الفن .. ألم يكن عندنا موسيقى أو اثنان تركا لحنا أو لحنين .. من هم المغنون الذين يرددونهما بعد موتهما ؟.. المغنى اليوم يلحن لنفسه أغانيه التى ستموت طبعا بموته ، كما حدث لمن سبقه .. وهلم جرا ..

وفى الأدب.. ألم يكن لنا أديب أو أديبان تركا مؤلفات ذات معان واتجاهات .. من هم الأدباء أو الأساتذة الذين نهضوا بعد موتهما يفحصون ويشرحون مرامى هذه الأعمال وما عكست من تجارب مؤلفيها ، كما يحدث عادة لأى أديب يموت فى بلد متحضر ذى أدب لا يموت ؟.. ولكننا فى مصر كل ما نعمل لأمواتنا النوابغ حفلات تأبين ، ينسون بعدها الى آخر السنين.. وبعد هذا كله يحلو لنا أن نتكلم عن حضارتنا الحديثة ! دون أن نفطن الى أن الحضارة ليست الا عملية استمرار للجهود والآثار ..

قالت العصا :

ـ حقا .. ان الأمة الحية يحيا فيها أمواتها .. والأمة الميتة يموت فيها أحياؤها ..

# الثمار الضائعة

قالت العصا :

ـ يخيل الى أحيانا أن حياة الأفراد والأمم كحيـاة شجرة فى غابة افريقية ، ضالة فى المجاهل لم تطأها قدم بشر ... فهى تنمو وتثمـــر ، لمجرد النماء والاثمار ، مدفوعة بحيويتها الطبيعية ثم تذوى وتمـوت ، دون أن يقتطف ثمارها أحد ... وينبت غيرها وينمو ويثمر ثم يذوى ويموت ، وهكذا دواليك ... ليس الهدف فى كل هذا هو النفع والانتفاع ... ولكنه عملية النمـــو والانتاج والموت والاستمرار فى الجيل التالى .. أى أن قوة الحياة وتحقيقها فى هذه العملية المتوالية الدائمة هو المقصود فى ذاته .. أما هدف النفع والانتفاع ففكرة آدمية لا تعرفها « الطبيعة » ...

قلت :

ـ ما أشقانا لو أن هذا صحيح !.. أيمكن أن نتصور

أن حياة الأفراد والأمم .. لا نفع فيها ولا هدف، انما هي ثمار تنضج وتسقط في مجـاهل كمجاهل أفريقا السوداء ؟! حقا .. قد يقول قائل : «أين ذهبت الحضارة الفرعونية ؟ ثم الحضـارة الهندية .. ثم الاغريقيـة والرومانية ؟.. أليست ثمارا نضجت وسقطت ؟ .. »
نعم .. ولكنها لم تذهب هباء .. ما من شيء يذهب هباء في هـذا الكون !. لأن هذا الكون متصـل بعضه ببعض كالبنيان .. كل ذرة فيه تشد ذرة ... هنـالك لحظات نرى فيها حقا أن وجودنا ضئيل .. وأن جهودنا تافهة ، وأن آثارنا زائلة ، وأننا نعمل ونخلق ونتنـج ليبتلع غدا كل هـذا أسود فاغر فاه .. طالما ابتلع من قبلنا حيوات وثمرات ! .. لكن ، هل معدة هذا الغـد المخيف استطاعت يوما أن تهضم كل ما ابتلع ؟ ! ..

قالت العصا :

ـ فليهضم الغد كل ما ابتلع من أمسه ... يكفي أن دمه الجديد انما يجري بثمرات ذلك الأمس المهضوم !

# سوق عكاظ هذا العصر

قالت العصا :

ـ يظهر أن الطريقة التى يتوسل بها الأدب والفن والفكر للوصول الى الناس قلما تتغير .. لأن الناس قلما يتغيرون،فشعراء الجاهلية كانوا يعرضون روائع فنهم من «المعلقات» فى سوق عكاظ .. حيث الناس مجتمعون لأغراض شتى .. منها التجارة والسياسة ومجاذبة الأحاديث ومبادلة الأخبار .. فى مثل هذا المكان الذى يحتشد فيه الناس سعيا وراء مطالب هى أبعد الأشياء عن الفن والأدب والشعر ، لا يجد الأدباء والشعراء والفنانون وسيلة للدنو من الناس أنجع من أن يعرضوا بضاعتهم الذهنية بين ما يعرض من بضاعة مادية .. فى هذا العصر الحديث لا بد أن يكون هنالك شىء يماثل سوق عكاظ ، تجتمع فيه الأذواق ، والحاجات والمطالب

قلت :

ـ سوق عكاظ العصر الحديث هى الصحافة .. فيهـــا نجد أيضا السياسة والتجارة والأحاديث والأخبار .. أى كل ما يشغل النـــــاس فى حياتهم العادية .. وكل ما يحفلون به وما يحتشدون له .. لذلك نرى الفــن والشعر أو الفكر اذا أراد أن يبلغ رسالته الى النـاس فى جموعهم ، فانه يلتمسهم فى هذه السوق ... وان كان مطمعه الأسمى أن تكون له ســـوقه الخاصة التى لا تعرض فيها غير بضاعته وحدها .. ولكن هذا المطمع قلما يتحقق بنجاح .. لأن الناس هم دائما الناس .. لا يكثرون الا فى السوق العامة التى يصفون من يغشاها بقولهم : « من لا يشتر يتفرج ! »

قالت العصا :

ـ حقا .. ان الانسانية لا تتغير ولكن الذى يتغير فيها هو القوالب والأثواب ...

# سر التاريخ

قالت العصا :

ـ أحقا يستطيع التاريخ أن يعى كل شىء ؟. ما أكثر الأشياء التى يصنعها الناس كل يوم وهم يهتفـــون : «فليذكر التاريخ !.. » وما أكثر الرجال الذين يمضون كل يوم والناس يشيعونهم قائلين : « فى ذمة التاريخ ! » انى أعجب لهذا التاريخ وأدهش لقوة ذاكرته !..

قلت :

ـ وهل للتاريخ مهمة أخرى ؟ ! ان وظيفته الوحيدة هى أن يتذكر ... وانى أتصوره موظفا عموميا جالسا فى مقعده الكبير يدخن ويســترجع صور الحــوادث والأشخاص ..وهو ـ شأن كل موظف مرهق بالعمل ـ قد عاثت الفوضى فى ملفاته وذكرياته .. فهو قد ينسى أحيانا الشخص الخطير ، أو الذى ظن أهله وأصحابه أنه سيقيم فى رأس التاريخ متربعا على الوسائد ، ليذكر

شخصا كان فى عشيرته غير ذى حول ولا طول .. ان التاريخ له منطقه الذى يختلف أحيانا كثيرة عن منطـق الناس .. ولكنه لا يرى ذلك .. فهو يؤكد أنه لايمتاز بشىء على الفرد العادى .. فهو يشكو كثيرا هو الآخر من ضعف ذاكرته ... ويعترف دائما بأن ذهنه معرض للخلط .. ويعتقد تماما أنه فى أحكامه انما يعبـــر عن طبائع الناس التى لا تتغير على مدى الأزمان .. بل انه أحيانا يتواضع أو يتخـــابث ويدعى الصمم ويقـــول :

« لا أستطيع أن أسمع الا أكثركم ضجيجا !.. »

قالت العصا :

ـ ومع ذلك فقد ردد كلمات الصامتين .. ما من أحد يعرف سر التاريخ ، حتى ولا التاريخ نفسه ..انهيتذكر كل ما يريد وقتما يريد وهو مضطجع يدخن الأعوام ، دون أن يتكلف التفكير أو التدبير ...

# امتياز الذهن

قالت العصا :

ـ من الواضح أن مصر بدأت تظهر فى الميـــــادين الدوليةبمظهر التفوق والامتياز فى الرياضة والالعاب.. فهى الضاربة للرقم القياسى فى العالم كله لعبور المانش وحمل الأثقال والاسكواش راكيت الخ .. ولكنها فى ميادين العلم والفن لم تزل ضعيفة الأثر .. أو فىحكم المتأخرة المتخلفة .. فما هو السبب ؟..

قلت :

ـ السبب هو أن الممتاز فى الرياضة أو اللعب لايمثل الا نفسه .. يكفى أن تأتى بشخص حسن الاستعداد ، قوى البنية وتحبسه وتدربه وتمرنه .. وتلقى به فى الميدان فاذا صادفه الحظ المواتى مع مرانه ومهارته وقوته فانه يفوز علىالآخرين .. لأن جسم الانسان واحد فى

مصر وغير مصر من أمم الأرض .. ولكن الثقافةوالعلم والفن شأنها شأن آخر .. فالممتاز فيها لا يمثل نفسه أو جسمه فقط بل هو يمثل القيمة العلمية أو الفنية للأمة كلها .. فهو خلاصة التاريخ الثقافى لبلده الذى قد تمتد جذوره الى مئات السنين .. وليس من السهل تدريب عالم أو فنان بالسرعة أو البساطة التى يدرب بها لاعب أو رياضى .. لأن وراء العالم والفنان تراثا ثقيلا من التحولات والتطورات العلمية أو الفنية التى مرت بها حياة العلم والفن فى أمته .. فاذا اخترع أو انتج عالم أو فنان اختراعا أو انتاجا عالميا ممتازا ، فليس معنى هذا أنه هو الممتاز فى علمه أو فنه فقط .. بل معنى هذا أن العلم أو الفن كله فى بلده قد نضج الى الحد الذى يسمح بظهوره فى المجال الدولى ..

قالت العصا :

ـ حقا .. وهذا هو الذى يجعل الأمم ذات التاريخ العظيم فى العلم والفن هى وحدها التى تخرج حتى الآن العلماء والفنانين العظام !..

# المعلم والحاوى !

قالت العصا :

ـ هنالك ظاهرة تسترعى التأمل والتعجب :

سر فى أى حى شئت .. وجس خـــلال أى ريف أردت .. وابحث في سجلات أى مصرف عرفت..فلن تجد عمارة أو عزبة أو ثروة يمتلكها رجل علم الناس أو أضاء فكرهم أو ارتفع بادراكهم .. ولكنك ستجد العمارة والعزبة والثروة لمن استغفل الناس واستعبدهم واستغلهم وأضحكهم وهرج لهم وطبل ورقص ودجل وتملق الغرائز وهبط بالمدارك ..

قلت :

ـ وما العجب فى ذلك ؟.. فلنسر فى أى حى شئنا ولنراقب أى جماعة من الصبيان معهم قروش أو ملاليم .. ولننظر الى من يعطونها ؟. ألى الحاوى والأراجوز

والقراد وبائع حب العزيز ؟ أم الى فقيه الكتاب ومعلم المدرسة ؟ !

هكذا الشعوب أيضا ، خصوصا فى مراحلها الأولى: تعطى كل ما فى يدها لمن يتملق غرائزها الأولية ويرضى أذواقها البدائية .. ويسير على هوى عقلها الفارغ ولا يجهد فكرها التافه .. فاذا شبت وارتقت كان شأنها شأن الصبى الذى كبر واتسعت مداركه .. فهو لا ينسى أن يحتفظ بقسط من قروشه للكتاب الجيد، والهدف النافع ... لذلك كلما ارتقت الشعوب زاد تقديرها للذهن المضىء والعمل الرفيع

قالت العصا :

ـ حقا .. لا يستطيع المعلم أن ينافس الأراجوز فى الحصول على قروش الطفل ، ولكن هناك ولى أمره الذى يضمن حق المعلم .. أما الشعوب البدائية فمن يحتفظ فيها بحقوق المهذبين وأقدار الموجهين ! !

# مصنع الشر

قالت العصا :

ــ هل الشر يولد فى الانسان .. أو أن طبيعة الانسان مفطورة على الخير .. وان المجتمع هو الذى يغير هــذه الطبيعة ويوجه هذه الفطرة ؟

قلت :

ــ أكثر اعتقادى أن الانســــــان فطر على الخير .. وان المجتمع له أقوى الأثر فى تحويل هذه الفطرة .. وأضرب لذلك مثلا صغيرا له دلالة كبيرة .. روى لى طفل هذه الحادثة : أنه بينما كان يلعب على شاطىء البحر عثر بمنديل فيه عشرة قروش .. فأوحت اليه فطــــرته السليمة وتربيته القويمة أن يمضى الى رجــل البوليس المنوط به حراسة الشاطىء فيسلم اليه ما وجد .. وتناول رجل البوليس المنديل والنقود من الطفل .. وبدلا من

أن يشكره على أمانته أو يهش فى وجهه مشجعا تجهم له وحدجه بنظرة ارتياب واتهام وصاح فيه : « ألم يكن فى المنديل أكثر من هـــذا المبلغ يا ولد ؟.. » فأجاب الطفل خجلا مصدوما مجروحا فى عزته : « لا » ثم مضى واذا به يقابل طفلا آخر يبكى باحثا عن المنديل الضائع، فأخبره أنه وجده وسلمه الى رجل البوليس ومضى به اليه ، فما ان رأى رجل البوليس الطفل الباكى المطالب، حتى نظر الى الطفل الأول نظرة سخط وغيظ وانتهره بقوله : « سرعان ما أخبرته أيها الكلب ! » ..

مثل هذه القصة ترينا الطريق الذى قد يتجه اليـــه الطفل الأمين فى مستقبل حياته .. انه ســـيؤمن بأن الأمانة خرافة ، وأن الحكومة خصم لا معين ..

قالت العصا :

ـ مثل هذا المجتمع حقـا هو الذى يصـنع بيده من العجينة النقية اللصوص والخونة والمجرمين !..

# ثمن الدم ..

قالت العصا :

ـ يظهر أن هنالك علاقة وثيقة بين الحضارة والجيش ، أى بين الحضارة والدفاع عنها .. فقد سمعنا تشرشل يخطب كثيرا فى الحرب الماضية يستحث جيش بلاده قائلا : « اننا ندافع عن حضارتنا » .. ومثل هذا كان يقوله قادة الجيش الفرنسى ، وما من شك فى أن هذا كان يقال أيضا للجيش الألمانى الذى يعتقد دائما أن ألمانيا فوق الجميع ..

قلت :

ـ هذا صحيح .. ان استبسال الجنود رهين بقيمة ما يدافعون عنه .. ان دماء الأحرار غالية ، وعندما تنهض أمة ذات حضارة لتدفع بأبنائها الى حيث يبذلون دماءهم فلا بد أن تشعرهم بأن الهدف يستحق الثمن ..

وهل هناك هدف أسمى من المحافظة على حضارة بلدهم المهددة ، هذه الحضارة التى بذل فيها مواطنوهم المهج والأرواح والعقول فى سبيل انشائها ، مجدا حيا قائما يفاخر به المنتسب اليه !.. ان الجندى الانجليزى أو الفرنسى أو الألمانى أو الروسى أو الأمريكىيذهب الى الميدان وهو مطمئن الى أن دمه يبذل ويسفك دفاعا عن بناء أمته الذى يعلم كم من العظماء شيدوه ، وضحوا فى سبيل تشييده ، وكم من مواطنيه يقاسون الشظف والحرمان خلف الخطوط ليشدوا أزره فى الميدان ويعاونوه .. ولكن الجندى المصرى مثلا يذهب الى الميدان ليسفك دمه دفاعا عمن ؟ عن طائفة من اللصوص والسماسرة والمرتشين الرابضين يجمعون المال من دمه خلف الخطوط ؟. أم دفاعا عن حضارة تسير فى بلده سير السلحفاة ؟. لأنه ما من أحد يفكر فى أمته بقدر ما يفكر فى شخصه !

قالت العصا :

ـ ومع ذلك رأينا الجندى المصرى يستبسل ويبذل دمه عن طيب خاطر ، لأنه كريم العنصر ، ولكن الويل كل الويل اذا مضينا ندفع به الى الموت بغير هدف عظيم وظهر سليم ؟ !..

# فرحة الجديد

قالت العصا :

ـ الطفل يفرح بالجديد لأنه جديد .. يهزه اليه الانفعال الوقتى بلمعة الجدة وبهزة المفاجأة .. جرب أن تعطى طفلا لعبة جديدة ولا تدعها فى يده لحظة حتى تبادره بلعبة أخرى جديدة ، عندئذ تجده قد ألقى من يده الأولى قبل أن يعرف ما بها أو يدرك كنهها ، ليقبل على الثانية فاذا فاجأته بلعبة ثالثة رمى الثانية والتفت الى الأخيرة .. وهلم جرا ..

قلت :

ـ هكذا الشعوب أيضا فى طفولتها .. والمجتمع فى طفولته .. يفرح للحدث الجديد ، والخبر الجديد ، والصحيفة الجديدة والحكومة الجديدة ، وكل شىء جديد .. انتفع به أو لم ينتفع .. المهم عنده هو التغيير .. هو

أن ينفعل وتثار عاطفته بالمفاجأة من أى نوع كانت ..
وخطورة هذه العادة فى مجتمع ما هى أنها تجعله سريع
التقلب ، سطحى النظرة، قليل الصبر ، عاجزا عن ارساء
قواعد متينة لحياته ومقومات نضجه .. فهو يغير ويبدل
فى الأشياء قبل أن يفهمها أو يفحصها أو يمحصها ..
وهو بهذا الخلق الطفولى قد يؤثر فى قادته ومفكريه
فيرغمهم على ارضاء نزعاته ونزواته .. فيقضى بذلك على
كل أمل فى امكان تطوره الى مرحلة الادراك الصحيح

قالت العصا :

ـ ليس الذنب ذنب الطفل ، وألاعيب الطفولة ..
ولكن الذنب ذنب المربى الذى يشجع فى الطفل هذه
النزعة بالاكثار من تقديم الجديد ، فيعوق نموه من عهد
اللعب والعبث الى عهد الفهم والبحث ..

# الدواء العجيب .!

قالت العصا :

ـ فى الدهر ساعة يرفرف فيها السلام .. وتكتمل الصحة .. ويصفو المزاج .. لو عرفنا اسمها أو صفتها، لحصل لنا من ذلك نفع كثير ...

قلت :

ـ أما الاسم والوصف، فليسا من الصعوبة بمكان.. هذه الساعة من الدهر التى يرفرف فيها السلام على الأرض تسمى فى عرف رجال السياسة توازن القوى ! فكلما حدث هذا التوازن فى القوى بين الدول ظفرت الدنيا بفترة من الاستقرار والهدوء والسلام .. فاذا اختل الميزان قليلا ، ورجحت منه كفة ، ثقلت بالقوة والمنعة والعدد والعلم والاختراع والحضارة فسرعان ما تبرق عيون الأطماع ، وترعد أصوات الطغيان ،

ويكفهر الجو بغيوم الحروب التى لا تلبث أن تنقض على الأرض .. وهذه الساعة من الدهر التى تكتمل فيها الصحة ويصفو المزاج تسمى فى عرف الأطباء : توازن القوى أيضا .. فكلما تم هذا التوازن بين ما فى الجسم من عناصر وجراثيم استمتع الانسان بفترة من الصحة ، فاذا اختل هذا التوازن بتغلب عنصر من العناصر على غيره ، أو ازدادت كميته عما ينبغى أو قلت عما ينبغى ، أو تكاثرت الجراثيم ، أو ندرت ، فسرعان ما تذهب الصحة ويأتى المرض .. فتوازن القوى فى جسم الانسان ... أو جسم الدولة .. أو فى جسم الدنيا المكون من دول هو سر الصحة والسلام .. وليست الصعوبة فى معرفة ذلك السر .. فهو معروف .. ولكن الصعوبة الكبرى فى كيفية الاحتفاظ بهذا التوازن طويلا ! أما فى جسم الانسان فطريقة الاحتفاظ بالتوازن ربما كانت فى « الاعتدال » .. وأما فى الجسم الدولى فربما كانت فى « اعتدال » الساسة أيضا .. ولكن هذا الدواء المسمى « الاعتدال » أين يصنع أو يطلب ؟..

قالت العصا :

ـ الاعتدال ... ما من صيدلية آدمية تستطيع أن تصنع هذا الدواء العجيب فى كل الأحوال !..

# دورة الزمان

قالت العصا :

ـ كلما تذكرنا الحضارات القديمة التى ازدهرت فى مصر واليونان والهند منذ آلاف السنين ، وما خلفتـــه اليوم فى هذه البلاد بالذات من شعوب فقيرة تستجدى غيرها ثمرات الحضارة ، تملكنا العجب ، ولم ندر لهذا المصير المؤلم من سبب !..

قلت :

ـ السبب واضح .. حسبنا أن ننظر الى ثروة رجل قضى عمره يكنز المال ، حتى قنطر منه ما يضاهى التلال. هذه الثروة منذ وجدت ، وناموس الوجود يرتب لهـا طريقة فنائها . ان التـلال تختفى بالتضاريس الأرضية والزلازل الفجـائية ، وأموال البخيل تختفى باسراف خلفه السفيه ، والثمرة الناضجة ان لم تجد من يقتطفها، تنخر فيها الدودة التى تسقطها ، والصــحة عندما تبلغ

أوجها تولد من توهجها العلة . والحضارة عندما تتألق أشعتها تبدأ فى التحلل . ولا يبقى منها بعد تمام التحلل سوى كيان منطفىء ، لا يلبث أن يتحول الى رماد ، من شعوب مفككة رخوة شاحبة ، ويدور الزمان دورته فينفخ قليلا فى هذا الرماد فاذا جذوة مختفية كحبة الخردل تدب فيها الروح ، وتأخذ فى التألق شيئا فشيئا حتى تصبح مرة أخرى حضارة حية ذات أشعة ... وهكذا دواليك ...

قالت العصا :

ـ ولكن العجيب فى الحضارات أنها لا تختفى بل تنتقل . ان حضارة مصر والهند واليونان قد ورثها غير أهلها ، وانتقلت من مهدها الى أوربا مرتدية ثيابا جديدة !

قلت :

ـ ومن قال ان ثروة الغنى تختفي ؟. انها تتبدد وتنتقل الى أيد كثيرة مختلفة ... وقد تعود يوما مرة أخرى الى أحد من أعقابه وسلالته بجهد آخر وكد جديد !..

قالت العصا :

ـ حقا : ما من أحد يملك شيئا على هذه الأرض الا الى أجل معلوم !..

# مقبرة النجاح

قالت العصا :

ـ مقبرة النجاح الغرور ... هذا لا شـــك فيه .. ولنا على ذلك أدلة وشواهد من التاريخ والواقع .وليس هنا موضع النظر .. انما المحير هو كيف ينزلق الى هذه المقبرة رجل فى اكتمال عقله وقوته أو دولة فى اكتمال قوتها وحنكتها ؟ !

قلت :

ـ ان الغرور بالنسبة الى العظيم فى الأفراد والدول، ليس فى كل الأحوال مسألة خلقية .. بل هو أقرب الى أن يكون مسألة حسابية .. الخطأ فيها يؤدى بالنجاح الى المقبرة ، مشيعا صاحبه بهذا الوصف !.. فعنـــدما يقول بعضهم ان « هتلر » مثلا أصابه الغرور فأقدم عـلى منازلة الدول الكبرى مجتمعة بجيشه وحده لا يقصـد بذلك مطلقا ان مثل « هتلر » فى مثـل أمته المملـوءة

بالخبراء المحنكين ، والدهاة الأساطين ، يمكن أن يلعب برأسه نوع الغرور الذى نطلقه على السخفاء والمتهورين .. لا .. وانما الغرور هنا هو حساب مبنى على تقدير غير دقيق لقوة النفس منسوبة الى قوة الغير ، وقد تكون ظروف مفاجئة هى التى أخلت بهذا التقدير ، ولكن هذا لا يؤثر فى الوصـــــف .. لأن الوصف انما يلحق بالنتيجة لا بالفعل .. كما أن وصف الميت لا يلحق الا بمن دخل المقبرة بالفعل ..ذلك أن التقدير الذى يؤدى الى النجاح ، ولو بالمصادفة الحسنة ، قد يوصف صاحبه بالجرأة ولكنه لن يوصف بالغرور .. ان الحساب اذا صدق قال الناس فى صاحبه انه أحكم ، واذا اختـــل قالوا فيه انه اغتر ..

قالت العصا :

ـ حقا ... ما لحقت هذه الكلمة قط رجلا وصل ! انما الغرور هو الكفن ، الذى تغلف به قفـــزة الجرىء اذا سقط !..

# منشآت العمال

قالت العصا :

ـ هل ارتفاع الأجور يكفى وحده لرفع مستوى المعيشة بين طبقة العمال ؟

قلت :

ـ لا أظن . والدليل أن أجر العامل اليوم قد ارتفع فى مصر عما كان عليه من قبل ، ولكن مستوى معيشته لم يرتفع بهذه النسبة، لأن عددا كبيرا من العمال لا ينفق أجره فيما يرفع مستواه الاجتماعى ، ولكن فيما يرضى نزواته العارضة . روى لى أحدهم أنه شاهد فى أحد المقاهى عاملا ينفق فى جلسة واحدة ما يقرب من نصف الجنيه بين شراب ودخان . فلما استعلم عن أمره من خادم المقهى أخبره أن هذا متوسط ما ينفقه هذا العامل فى هذا المحل كل يوم ، ثم علق على ذلك قائلا : «ولعله لا يطعم أسرته بأكثر من عشرة قروش ! » . وهذا فى

الغالب هو الحاصل . لم تزل أسرة العـــامل وسكنها وطعامها على الحال القديم بينما زيادة الأجر تذهب فى الملاهى والمكيفات . ومهما يرتفع الأجر ، فلن يغير ذلك شيئا من الأمر ، والعدد القليل من العمال الذى ينفـق قرشه فيما ينبغى أن ينفق فيه لا يمكن أن يظهر أثره بين الغالبية الساحقة . والحل لهذه المشكلة هو أن تنشأ مصلحة أو وزارة باسم« منشآت العمال » تقوم باستقطاع جزء من أجر كل عامل ، وتجعل حصيلته فى صـندوق خاص ، تغذيه الحكومة وأصـــحاب العمل بمبلغ كاف ويوجه هذا المال الى انشاء المشروعات التى ترفع مستوى العمال مباشرة ، كبناء المســاكن الصحية ، والحوانيت التعاونية والأحياء والنوادى العمالية الخ . . .

قالت العصا :

ـ حقا . . هذا ما يجب أن يحدث فاننا اذا أعطينـــا طفلا مبلغا كبيرا من المـــال ، فان أول ما يصنعه هو أن يشترى به كمية كبيرة من الحلوى ، وآخر ما يفكر فيه هو شراء ثوب نافع . . فلا بد من تدخلنا لنوجهه الى الطريق المستقيم، ونقول له : هذا فقط للحلوى ،والباقى لمطالبك الضرورية النافعة ، التى تجعل منك مواطنـــا محترما . . .

# أحلام العظماء

قالت العصا :

ـ هذا الهرم الأكبر .. الشامخ الثابت فى الرمال ، تمر به القرون والحقب والأجيال ، كما تمر النسمات، يقول للزمن : « نحن صنوان » .. ويقول له الزمن متملقا : « بل أنت لى رداء منظور من حجر » !.. قبل أن يقام فى الحقيقة على صورته هذه ، ألم يقم فى رأس رجل ؟ !

قلت :

ـ ما من شك فى أنه قام فى رأس رجل ، حلما من الأحلام قبل أن يصير حقيقة من الحقائق . فليكن هذا الرجل ملكا أو فنانا أو مهندسا ، فانه قد تخيل فخلق ، وخلق ففرض خليقته على الزمان ! .. ساعة حلم فى رأس رجل قد تصبح هى الأبد !.. يا لعجائب العبقرية أحيانا !.. هذا الوهم الشفاف الذى لا جسم

له ، هذا الحلم الهفاف الذى لا كيان له ، هذا الخيـــال العابر الذى يأنف المكان أن يجد له موضـــعا ، ويترفع الزمان عن أن يبقى له فى حسابه لحظـــة ، يستطيع أن ينقلب جبلا شاهقا راسخ الموضع دائم اللحظات ، ومثـل هذا كثير فى عالم الروائع الباقية والأفكار الخالدة .. رجل يتوهم أو يتخيل أو يحلم ، ثم يستيقظ فى الصباح مؤمنا بوهمه أو خياله ، أو حلمه ، فيأبى الا أن يقيمــه على قدمين، فما يكاد يفعل حتى ينطلق هذا الوهم أو الحلم يسعى بين الناس حقيقة ، يعيش فيها الناس ويألفونها ، كما يألفون الظواهر الطبيعية، من جبال وبحيرات وبحار ومحيطات . وتتشرب نفوسهم بها ، فاذا هى عندهم شىء طبيعى كالماء والهواء ، يتعذر عليهم الحرمان من وجودها، ويصعب عليهم تصور وجودهم بدونها ، ويخيل اليهم أنها من المقومات الضرورية لحياتهم ولا يحبـــون أبدا أن يتذكروا أنها حلم مر ذات ليلة برأس رجل ، كغيره من آلاف الأحلام التى تمـــر دائما برؤوس الآلاف من الرجال . . .

قالت العصا :

ـ نعم . . الا رأس الرجل العظيم . . الرجل العظيم ذلك الذى يجعل من أحلامه حقائق تعيشها الناس !..

# مهر الفن

قالت العصا :

ـ ما حقيقة العلاقة بين المال والفـــن وبماذا نفسر تصرف فنان عظيم مثل «بيتهوفن» معروف بالخلق الكريم هذا التصرف الغريب ازاء تعهداته، فقد قيل انه اتفق مع دار للنشر الموسيقى على تأليف « السيمفونية التاسعة » لقاء مبلغ من المال ، فلما مضى فى تأليفها ورأى اتســاع نطاقها استصغر المبلغ المتفق عليه وتعاقد مع دار أخــرى بمبلغ أكبر ضاربا بعقده الأول عرض الحائط . ثم بماذا نفسر تصرف شاعر عظيم مثل « المتنبى » الذى انتقل من مدح « سيف الدولة » الى مدح « كافور » تبعا لما طمع فيه من جائزة ؟ ! أكان المال هو الهـــدف الأول عند هذين الفنانين العظيمين ؟ !

قلت :

ـ لا أعتقد مطلقا أن المال كان هدفهما الأول . . ولا

يمكن أن أعتقد لحظة أن المـــال وحده يمكن أن يكون الهدف الأول لفنان حق .. ان « الكرامة » الفنية هى سر تصرف بيتهوفن والمتنبى .. احترام الفنان لعمله هو الذى جعل بيتهوفن يقدر جهده أعلى تقدير ، وجعـل المتنبى يرى شعره وفنه خليقين بأسمى جوائز الملوك . كرامة الفن فى نظر الفنان تدفعه الى أن يصر على طلب أبهظ الأجور .. انه نوع من الاعتـــــداد بالنفس والاعتزاز بالفن .. لا دخل له بحب المال فى ذاته .. أما الفنان الذى يسعى الى المال فى ذاته .. فانه يسلك طريقا آخر .. هو الطريق المعروف لجمع المال .. وهو البحث عما يرضى غرائز الجماهير .. ووضع عمله فى قالب المشروع التجارى .. واستغلاله للجهود الأخرى فى صيغة من الصيغ المألوفة عنـــد الشركات وأرباب الأعمال ..

قالت العصا :

ـ نعم .. فرق بين من يجعـل فنه كالعروس يطلب لها المهر الغالى وبين من يجعل عمله كالعـــاهر تأتى له بالمال من أى طريق !..

# استقلال الشخصية

قالت العصا :

ـ من المشكلات التى تصـــادف الآباء والمربين فى عصرنا الحاضر مشكلة تكوين « الشخصية » فى النشء .. فقد انتشرت بعض الآراء التى تقول بترك الصغار يفعلون ما يشاءون ، دون ضـــابط أو رابط من أوامر ونواه ، حتى يشبوا وقد تشربوا بروح الحرية ،واعتادوا تحمل « المسئولية » .. فهل هذا هو الطريق المستقيم فى تربية النشء تربية استقلالية ؟.

قلت :

ـ ما من شك فى أن « الحرية » وتحمل «المسئولية» هما الدعامتان اللتان تقوم عليهما « الشخصية » .. وان حرمان النشء من حريته واســـتقلاله فيه الى حد كبير تحطيم لشخصيته .. غير أن بعض الآباء والمربين يرون

أن هذه الحرية وهذا الاستقلال قد انقلبا عند بعض النشء الى فوضى وعبث و «قلة أدب» ويفضلون العودة بالصغار الى النظام والصرامة والطاعة العمياء ... فى الحق أن الخلاف راجع الى سوء فهم كلمات « الحرية » و « الاستقلال » و « المسئولية » .. ذلك أن المطلوب لتكوين شخصية النشء ليس حرية العمل ، بل حرية التفكير .. فليست الشخصية المستقلة البارزة القوية هى التى تفعل ما تريد ... لأن فعل الانسان لما يريد هو الفوضى ، ولكن الشخصية المستقلة هى التى تفكر دائما كما تريد لا كما يراد لها .. اليوم الذى نعلم فيه النشء كيف يقرأ ويدرس لا ليحشو رأسه، بل ليفكر برأسه، هو اليوم الذى نستطيع فيه أن نقول اننا غرسنا فى روحه استقلال الشخصية

قالت العصا :

ــ حقا .. ان استقلال الشخصية ليس فى حرية العمل بل فى حرية التفكير ...

# دواء الغلاء

قالت العصا :

ـ لا حديث للناس اليوم الا عن الغلاء . . هذا الداء المستعصى الذى تعبت الرؤوس وكلت الهمم فى البحث عن علاجه . . . ألا ترى له من دواء ؟ !

قلت :

ـ فلنبحث أولا عن أصل هـذا المرض . . بعيدا عن نظريات العلماء والخبراء . . انه فى حقيقـــة الأمر لا يختلف كثيرا عن أى مرض من تلك الأمراض التى قيل فيها قديما : « البطنة أصل الداء والحمية رأس الدواء» . . فمها يكن من قوة الأســباب الاقتصادية أو غيرها مما يؤثر فى السوق ويرفع الأسعار فان السبب الأكبر هو فى أيدينا نحن ، بل فى بطوننا . . فمواد الطعام من لحم وخبز وفاكهة وأرز لن ينخفض سعرها كثيرا فى أى

يوم ما دمنا نريد أن نضعها على موائدنا فى كل يوم ..
ان شراهة المنتج والبائع انما تنبع من شراهة المشترى
والمستهلك ... واليكم تجربة تثبت ذلك بالدليل ...
قوموا معشر المستهلكين بحملة واسعة النطاق ، واستخدموا
فيها الصحف والاذاعة وكافة طرق النشر لتحديد
الأصناف وتنظيم ألوان الطعام لكل قادر وكل بيت ..
محذرين من أكل الفاكهة ، أكثر من مرتين فى الاسبوع،
واللحم أكثر من ثلاث مرات ، والأرز أكثر من مرتين
أو ثلاث . واحملوا حملة شعواء على الاسراف والتبذير
والترف فى المأكل والملبس، وروجوا للقناعة والبساطة ،
ولا أقول للزهد والتقشف كما فعلت انجلترا منذ عامين
فنجحت لا فى مقاومة الغلاء فقط بل فى القضاء على أزمتها
المالية ... افعلوا ذلك بكل وسيلة وأنتم ترون العجب:
ان الكروش ستختفى وينقص الترهل ومرض السكر
وضغط الدم ، وتنقص الأسعار وتعمر الجيوب ويطعم
الفقير والغنى ..

قالت العصا :

ـ حقا .. لا فائدة من علاج الغلاء قبل أن نعالج
بطوننا وترفنا .. لا شيء يقتل البائع الطامع غير
المشترى القانع ...

# مرآة الفكر

قالت العصا :

ـ من الناس من يقرأ ببطء ويجهد فى القراءة كما يجهد الكاتب فى الكتابة ... ومنهم من يمر بعينه فوق الورق كما تمر الطائرة فوق بقعة الأرض ... فأى الناس أكثر انتفاعا بما يقرأ : البطىء أم السريع ؟

قلت :

ـ ليست العبرة بالبطء والسرعة ... ولكن العبرة بالحاصل من القراءة ... وهذا الحاصل يضخم أو يضؤل بحسب قيمة القارىء نفسه وما اكتنز من ثقافة أو تجربة أو خبرة أو نضج فى شئون الذهن والحياة .. فالكتاب الواحد قد يتفاوت معناه بتفاوت قرائه .. كما أن المرآة الواحدة قد تختلف صورها باختلاف الناظرين فيها .. فالقارىء فى حقيقة الأمر انما يقرأ بتجاربه

لا بعينيه .. وهو يغوص فى أعماق الكتـــاب على قدر ما تسمح به قوة عضلاته الفكرية وطول خبرته الانسانية ... لهذا شتان بين ما يحصله غلام من قراءة كتاب مثل « كليلة ودمنة » وبين ما يحصله رجل .. كلاهما قد حصل شيئا من غير شك .. ولكن كليهما قد فهم منه بقدر فهمه للحياة .. بل ان القارىء العميق يستطيع أن يعمق أحيانا ما يبدو بسيطا من المعانى لمن يمر بها عبرا ، ولا يخطف بصره منها غير الزبد المتطاير

قالت العصا :

ـ ربما كان الكتاب كالمرآة حقا .. هى تعكس صورة الوجه .. وهو يعكس صورة الفكر ..



# المهن الراقية

قالت العصا :

ـ من الطريف المعجب أن نرى الطبيب والمهندس والضابط والتاجر ومن فى مستواهم العلمى أو الثقافى فى بلاد متحضرة كانجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا وايطاليا يحسنون الانشاء ، اذا كتبوا بلغة بلادهم ، والالقاء بها اذا خطبوا .. فى حين أن هذه الطبقة بالذات من المتعلمين فى بلادنا ندر فيهم من يحسن التعبير باللغة العربية السليمة اذا كتب أو خطب ..

قلت :

ـ هذا حقا ما يلاحظ مع الأسف الشديد فى بلادنا اليوم .. ولم يكن الحال كذلك فى الجيل السابق .. فقد كان المتعلمون على قلة عددهم أكثر احتفالا باللغة العربية وأشد عناية بامتلاك ناصيتها من أغلب أهل هذا

الجيل . . . ويكفى أن نراجع أساليب القضاة فى الأحكام لنجد فى بعضها قطعا قد تعد فى الأدب . . ولعل السبب فى ذلك هو أن الجيل الماضى كان أكثر اعتمادا على نفسه وعلى مطالعاته الخاصة فى تكوين ثقافته وأداة تعبيره . . وكانت تلك المطالعات أهم وأدسم لأنها لم تقتصر على الصحف والمجلات . . وهذا هو الواقع فى البلاد الأخرى المتحضرة ، فمن النادر هناك أن تجد متعلما من أهل هذه المهن الراقية يهمل تكوين فكره هذا الاهمال الملحوظ فى بلادنا . . .

قالت العصا :

ـ لقد فهموا هناك أن المهن الراقية بغير رقى التكوين انما تهبط فى الحال الى مستوى المهن اليدوية . . .

# العمل الكامل

قالت العصا :

ـ هل من واجب الفنان أن ينتج فنه ولا يشغل بشيء غير انتاجه ، أو يتولى بنفسه الدعوة له والخصومة فيه ؟

قلت :

ـ لقد عرف تاريخ الفن هذا وذاك .. عرف شكسبير الذى كان ينتج روائعه الخالدة فى صمت .. دون أن يترك ورقة يفسر بها عمله أو يرد فيها على نقـــاده .. وعرف بيتهوفن الذى كان ينتج آثاره الباقية فى عزلة .. مكتفيا بتلك الكلمة التى قالها يوما فى نقاده ومهاجميه: «إنى كالجواد الراكض لا يقفه لذع ما تجمع على ذيله من ذباب !. » . كما عرف هوجو الذى كان يخـــرج المسرحية وخلفها جيش من أنصاره يلتحم فى معـركة ، لا كلامية فقط بل فعلية ، مع جيش من خصـومه ...

وعرف فاجنر الذى أنفق من الجهد فى الدعوة لموسيقاه والخصومة فيها والدفاع عنها مثل ما أنفق فى انتاجها ..

قالت العصا :

ـ هذا الفرق بين الطرازين من الفنانين راجع الى طبيعة الفنان أو الى طبيعة العمل الفنى ؟..

قلت :

ـ أعتقد أنه راجع الى طبيعة العمل الفنى .. فشكسبير وبيتهوفن كانا يهدفان الى كمال الفن فى ذاته .. كان كفاحهما موجها ضد النقص وضد قصورهما .. وهذا النوع من الكفاح الداخلى لا علاقة له بالناس .. أما هوجو وفاجنر فكانا يهدفان الى ترويج مذاهب جديدة فى الأدب التمثيلى والتأليف الموسيقى .. فكان لا بد لهما من كفاح خارجى عنيف ، ودعوة تشابه الدعوات السياسية تكفل للمذهب الظهور والثبات ..

قالت العصا :

ـ كل ضجة تخف بعد حين .. وكل مذهب بعد عصره ذاهب .. وكل جدل مع الريح زائل .. ولا يبقى فى كل زمان غير العمل الكامل ..

# استعارة لاردية

قالت العصا :

ـ أكثر اللغات الأوربية تطلق على المبـــــرز فى المسابقات الرياضية ونحوها كلمة « شامبيون » . . فيقول الناس هناك : « هذا شامبيون العالم فى السباحة أو القفز أو الملاكمة » الخ . . أما نحن فى لغتنــا العربية فنترجم ذلك بكلمة « بطل » . . فنقول : « هــذا بطل العالم فى التنس أو الجرى أو المصارعة » الخ . . وليس هناك شك فى أن هذه الترجمة غير صحيحة ولا دقيقة ولا مقبولة . . لأن وصف « البطل » فى اللغات الأوربية له كلمته وهى بعيدة كل البعد عن كلمة « شامبيون » التى تستعمل فى « المسابقات » . . فى حين تبقى كلمة « بطـــل » بقيمتها لا تطلق الا فى أحوال البطولة بمعناها الحقيقى فى مجال الأخلاق والأعمال التاريخيــة الكبرى . .

فهل عقمت اللغة العربية فلم تتسع ـ وهى الغنية ـ لتشمل هذه الأوضاع الحديثة بما يناسبها من كلمات جديدة أو منحوتة ؟

قلت :

ـ حقا انه لعجيب أمر هذه اللغة العربية التى تجد فيها للأسد وللسيف كلمات ومترادفات ، بينما يظل الكثير من أوضاع الحياة الحديثة عاريا من الوصف ، فيستعار له على عجل رداء غيره .. فاذا هو فضفاض ..

قالت العصا :

ـ كثير من الكلمات اليوم فضفاضة على مدلولاتها، فكلمة البطل والأستاذ والعالم والأديب الخ .. كلها تطلق جزافا حتى فقدت كل قيمتها اللغوية .. أترى العلة فى الفقر الذى أدى الى استعارة الأردية ، أم في الاهمال الذى شجع المستعير على أن يستعير ؟ !

# غاية الطبيعة

قالت العصا :

ـ يتساءل الناس منذ أقدم العصور عن غاية «الطبيعة» وينتهون أحيانا الى أن غايتها هى المحافظة على الأنواع .. أى الاستمرار .. أى الخلود .. كما أن الفنـــان الخالق وهو ابن الطبيعة والمستلهم منها والخاضع لقوانينها انما يهدف هو الآخر من وراء خلقه الفنى الى الخلود .. لذلك قيل : ان العمل للخلود هو شيمة الفنان الجاد الملهم الرفيع ..

قلت :

ـ أظن أن فكرة « الخلود » بعيدة عن غاية الطبيعة ، كما انها بعيدة عن هدف الفنان الجاد .. لأن معنى الخلود متصل بمعنى الزمن .. و « الزمن » شعور انسانى بحت لا تخال « الطبيعة » تحسب حسابه أو تفكر فيه .. كما

يفعل الانسان المحدود المدة والمكان والفكر والعمر ..
انما هى تحيا وتستمر وتتكرر وتعدل وتظهر فى صور مختلفة ومتشابهة، وتتطور وتتقهقر وتردد وتعيد وتبدىء وتقفز وتبتكر وتتمهل وتتراجع وتسرع وتتقدم .. كل ذلك بدافع واحد ، هو أن تحقق ذاتها .. وتحقيق الذات هذا كالدائرة المفرغة لا نهاية له ولا لتطوراته.. كذلك الفنان الحق لا يهمه كثيرا بقاء عمله بعد موته أو زواله .. فهو ليس بالثرى المغـــرور الذى يعنى طول حياته باقامة الضريح الذهبى العالى الذى يبقى ذكره فى الناس .. انما الفنان الحق يخلق هو الآخـــر بدافع تحقيق ذاته .. أى متابعة التطورات والتغـــيرات التى تحدثها ملكاته .. لذلك نرى كثيرا من عظماء الشعراء والفنانين فرغوا من انتاج الآثار المشهود لها بالخلود ومع ذلك يمضون فى انتاج الألوان المتباينة بلا انقطاع .. انهم اذن فى الحقيقة يلبون نداء تحقيق الذات فى حالاتها المختلفة وألوانها الخضراء والصفراء كما تفعل الطبيعة ، أكثر مما يشيدون الأضرحة المزوقة لخلود الذكر ...

قالت العصا :

ـ يظهر أن « الخلود » هو « نتيجة » لا « غاية » عند الطبيعة والفنان ...

# العالم الافضل

قالت العصا :

ـ هل الانسان يسير حقا نحو عالم أفضل ؟.. أو أن فكرة الغد الأفضل هي السراب الضروري للانسان كي يعيش مواصلا السير في صحراء الحياة اللانهائية الآفاق ؟ !

قلت :

ـ ان كلمة « الأفضل » هي التي يجب أن نقف عندها طويلا ونقلبها بحثا وفحصا .. ما هو المقصود من كلمة « الأفضل » .. ؟ .. أهو التقدم المادي ؟. أهو الرقي الروحي ؟ . أهو الشعور بالسعادة الفردية ؟ ! أهو الاندماج في الهناءة الاجتماعية ؟. اذا كان المقصود كل هذا وأكثر منه فهل من الممكن أن يتم ذلك في الغد المأمول وحده .. أو في زمن واحد من الأزمان ؟. أو

بمرحلة واحدة من مراحل الانسان ؟.. لو تأملنا حياة فرد من الأفراد لوجدناها تسير من مرحلة الطفولة الى الشباب الى الرجولة الى الكهولة .. وهى فى سيرها تكتسب من غير شك تقدما وربحا وغنما فى ميادين التجربة والمعرفة والمال والمركز .. ولكنها تخسر أيضا فى عين الوقت ـ كلما تقدمت سنا ـ فى ميادين الصحة الجسمانية والنفسية والروحية .. هل يقاس صفاء النفس عند الطفل ، وايمان القلب عند الشاب بما فى نفس الرجل وقلب الكهل ؟ ! وهل تقاس سعادة الفطرة والفرحة بالحياة فى الطفولة والشباب بسعادة الرجولة والكهولة ؟.. هكذا الحال فى البشرية أيضا .. انها تتقدم فى نواح وتتأخر فى نواح .. وهى فى مراحل حضارتها تكسب فى أشياء وتخسر فى أشياء ..

قالت العصا :

ـ مادام الانسان يسير فى صحراء حياته بالأمل فلا بد من وجود سراب « العالم الأفضل » المطلق !..

كل شىء مطلق يعيش فى الخيال المطلق .. ولكن الحقيقة ان « العالم الأفضل » موزع على مراحل حياتنا الفردية والاجتماعية والبشرية

# خلود الفكر

قالت العصا :

ـ أيهما هو الذى أراد أن يخلد ذكره ويبقى أثره ويحافظ على كيانه وجثمانه وسره وعبقريته بتشييد هذا الهرم الأكبر ؟ أهو خوفو ؟ أم هو العلم الهندسى والابداع الفكرى ؟

قلت :

ـ لقد اعتاد قصار النظر من المؤرخين أن يزعموا أن الهرم الأكبر هو وليد نزوة لأحد الفراعنة .. وهذا صحيح لو صح أن بقاء الأنواع هو وليد نزوات وشهوات ومتع وقتية .. وغدا سيزعم هذا النفر من المؤرخين أن اكتشاف أسرار العلوم الذرية وليد حرب سخيفة بين دول متوترة الأعصاب .. كل هذا صحيح فى الظاهر ولكن المتعمق فى البحث يجد العكس هو

الأصح .. ويرى أن قانون بقـــاء النوع هو الذى يستخدم نزوة الانسان ومتعه ليحقق هدفه .. فهـــو السابق على النزوة ، الدافع اليها .. فالتقـــدم العلمى الهندسى الرائع فى العصر الفـــرعونى هو الذى أغرى خوفو .. والتقدم العلمى الذرى فى العصر الحاضر هو الذى يغرى الدول .. فالمعرفة البشرية سواء أكانت فى العلم أو الأدب أو الفن لها قانونها فى البقاء والاستمرار والتقدم .. وهى تعيش وتعمل وتنمو مستخدمة لهدفها الضعف الانسانى وقوته ، والخير والشر على السواء ..

قالت العصا :

ـ ان المتعة تذهب بعد لحظة . ولكن النسل يبقى .. والنزوة تزول ولكن الأثر العلمى أو الأدبى أو الفنى يعيش ... ماذا يهمنا اليوم من نزوة خوفو ونحن أمام معجزة هندسية فنية !. حقا .. انها المعـــرفة الانسانية هى التى أرادت أن تخلد نفســـها من خـــلال غرور الانسان ...

# طابع الحضارة

قالت العصا :

ـ من الملاحظ أن الأمم الناشئة الآخذة بأسباب الحضارة تريد أول ما تريد أن يكون لها في ميدان الحضارة طابع خاص

قلت :

ـ شأن الصبى الذى يريد أول ما يريد أن تكون له بين أهل الدار شخصية بارزة .. فهو يتكلف فى سبيل هذه الرغبة من المظاهر ما يظن أنه يحقق هذا الهدف .. الى أن يشب وينضج فيدرك أن الشخصية لا تكتسب بالمظاهر ولا بالرغبة ولا الارادة .. انما هى صفة تلحق الانسان بدون أن يسعى اليها ، عندما تنشط أعماله وتنمو ملكاته وتكثر تجاربه وتحفر يد الحياة على جبينه خطوط النجاح والاخفاق والظفر والهزيمة والقوة

والضعف .. خطوطا كلما برزت على صفحات النفس برزت معها الشخصية واضحة جلية .. كذلك الحال في الأمم .. لا بد لها من شوط كبير في الحضـــارة التي تأخذ بأســبابها .. تجرى في ميدانها وتكبو ، وتصيب وتخيب ، وتغنم وتغرم ، وتتمرس بكل ما يصادفها في الطريق من ظروف طيبة وخبيثة .. لتخرج من هـــذه الخبرة وقد دمغ جبينها بآثار المعركة .. فاذا الدنيا ترى على أديم وجهها ـ دون أن تشعر هي أو تأبه ـ طابعهـا الخاص

قالت العصا :

ـ حقا .. ان الطابع الخاص في الفن والحضارة ، شيء لا يتم بالارادة .. بل لا بد له من النضج الطبيعي ..

# الماضى طريق المستقبل

قالت العصا :

ـ جرت الألسنة بالقول ان الماضى فى بلادنا له أثر واعتبار ، وأن فرط الاهتمام به هو الذى يسد علينا مسالك التفكير فى المستقبل !.

قلت :

ـ هذا رأى بعيد عن الصواب .. فنحن أقل الأمم اهتماما بماضينا .. بل نحن لم نلتفت الى آثار الماضى الا بعد أن كشف لنا عن أستاره الأجانب .. ولقد تسأل المثقف منا عن أفكار وأخبار عظيم من عظمائنا مات ، لا أقول منذ مائة عام بل منذ ثلاثين عاما أو أربعين فقط ، فلا تظفر منه الا بالجهل وقلة الاكتراث .. فى حين أنك لا تجد رجلا مهما ولا فكرة بارزة أو فترة حافلة فى حياة الأمم المتحضرة الراقية الا وقد درست وبحثت

وأبرزت .. فما يكاد عظيم هناك يموت حتى يؤرخ له المؤرخون فلا تترك من أفكاره ولا من آثاره ناحية دون أن يكشف عنها الستار ويلقى عليها الضوء .. هـــذا الاهتمام الذى يربط حلقات الماضى فترة بفترة ورجلا برجل وفكرة بفكرة وجهدا بجهد، هو الذى يشق لهذه الأمم طريق المستقبل .. ذلك أن الخطأ الأكبر هو أن تظن أن المستقبل شيء منفصل عن الماضى .. انما الزمن حلقات متتابعة .. ولن نجد المستقبل ناميا الا من بذور الماضى .. واذا كنا نحن لاهين عن مستقبلنا فذلك لأننا لاهون أيضا عن ماضينا ..

قالت العصا :

ـ الأمم الناشئة مثل الطفـــل ، لا تهتم بماض ولا بمستقبل . .انما هى مثله تهتم بالحاضر وحده . .الحاضر هو الزمن الوحيد الذى يغرق فيه الأطفال . . .

# روح الانصاف

قالت العصا :

ـ انه لمن أصعب الأمور فيما يبدو، أن يحكم الانسان حكما عادلا على تصرفات غيره !...

قلت :

ـ هذا صحيح .. ووجه الصعوبة فى ذلك هو أنه ما من انسان ـ الا فى النادر ـ يحاول أن يضع نفسه فى موضع الغير بظروفه كلها أو بعضها عند الحكم على تصرفاته .. وقد يكون مرد ذلك أحيانا الى جهل الانسان بظروف الغير أو تجاهله لها .. وقد يكون مرد ذلك الى طبيعة الانسان ذاته .. فمن الناس من يكون محيطا كل الاحاطة بالظروف التى دفعت شخصا آخر الى تصرف من التصرفات ، ولكن طبيعة نفسه غير المنصفة تأبى أن تدرك أو تعترف أنها كانت تفعل عين

هذا الفعل أو ما يشابهه ، لو أنه وضع فى عين الظروف .. وهذا الرفض للادراك أو للاعتـراف اما أن يكون صادرا عن أثرة واعتداد وكبرياء تلقى على البصيرة نوعا من الغشاء ، واما أن يكون صادرا عن ضعف فى الخيال وفقر فى التجارب ونقص فى العلم باسرار النفوس .. وذلك أن الحكم العادل على أعمال الغير يتطلب معـرفة تامة بخبايا النفس وخبرة واسعة بخفايا الطبع وخيـالا خصبا يحملنا الى مكان الآخرين فنعيش لحظة بالتصور والمخيلة فى حياتهم بطبائعهم وظروفهم ، متجردين عن الزهو الذاتى ، لنحكم ونقول : هل هم معذورون ؟

قالت العصا :

ـ حقا .. ان روح الانصاف والعـدل لا يمكن أن يحل فى جسد من الكبرياء والجهل ..

# استقلال التفكير

قالت العصا :

ـ هل هناك علامة تدلنا على أن شخصا من الأشخاص قد وصل الى مرحلة الاستقلال فى التفكير ...

قلت :

ـ نعم .. هناك علامة بسيطة : هى أن نرى الشخص يعرف منبع تفكيره ، وأن يعترف بأثر غيره فى هـــذا التفكير .. هكذا نرى غاندى يقـــر دائما أنه مدين بفلسفته الى تولستوى .. ونرى محمد عبده يقول ان أستاذه فى تفكيره هو جمال الدين الأفغانى .. وأرسطو لا يفتأ يكرر أنه تلميذ أفلاطون حتى فيمـــا ابتكره هو من مذاهب .. وجوته يعلن تأثره الشديد بتفكير فولتير الخ .. هذه المعرفة وهذا الاعتراف هما دليل الشخصية الفكرية التى تشعر أنها استقلت بالفعل ، وأنها بلغت فى

استقلالها الحد الذى ترى معه جذورها ، ولا يضيرها أن تذكرها وتتيه بها .. على عكس ذاك الشخص المبتدىء أو الشاب فى مطلع تفكيره فانه لا يستطيع أن يرى المنبع الموحى اليه، واذا استطاع فانه يخفيه فى الحال عن نفسه وعن الآخرين ، مؤكدا أنه ما تأثر قط بأحد . وهو يظل على هذا الجهل أو التجاهل ، مخفيا رأسه كالنعامة فى الرمل الى أن يصلب عوده وينضج تفكيره وتتلون ثماره ، فلا يجد عندئذ بأسا من أن يذكر جذوره ..

قالت العصا :

ـ حقا .. ان الاستقلال فى الفكر لا يبدأ الا عندما تعرف وتعترف أن تفكيرك كان بذرة فى ثمرة الغير !



# الروح السلبية

قالت العصا :

ـ يظهر أن هناك شعوبا ايجابية وشعوبا سلبية .. فشعوب الطراز الأول تواجه كل شيء بروح العمل والبناء والانشاء .. وشعوب الطراز الثانى تواجه كل شيء بروح الكسل والهدم واللوم ..

قلت :

ـ هذا صحيح .. وآية ذلك ما نراه أحيانا في بلادنا من شيوع هذه الروح السلبية .. فما أكثر ما نسمع ونقرأ ونتحدث عن تقصيرنا فى كذا وعدم استطاعتنا لكذا ، وتقليدنا لكذا .. وعجزنا عن كذا وفقرنا فى كذا .. ولكن قلما نعثر بيننا على من يتوفر باخلاص وجهد واجتهاد على ما وصلنا اليه بالفعل وما حققناه فى الواقع فيدرسه دراسة دقيقة ، وينظمه ويصفيه ويقومه ويبرزه

حتى يكون أساسا لطبقات أخرى منتظـــرة أو درجات أخرى منشودة . . هذه الروح الايجابية البنائية يندر أن نراها فى بلادنا الآن . . بل لقد بلغ من تمكن الروح السلبية فينا أننا نرى بيننا من اذا أراد أن يشيد بعمـل أو شخص لم يجد طريقة يعبر بها عن غرضه غير أن ينتقص من قدر عمل آخر أو شخص آخر . . فهو لكى يضع حجرا لا بد أن يسقط حجرا . . ولهذا لا يمكن أن يقوم بناء أو يتم انشاء . .

قالت العصا :

ـ ان الشعوب فى مبدأ تطورها كالأطفال فى مطلع تكوينهم . . تتغلب عليها الروح السلبية ، فمن السهل على الطفل ، الذى يريد مباشرة نشـاطه والاستجابة الى داعى حيويته ، أن يحقق ذلك بأن يقذف نافذة بحجر . . ولكنه عندما يكبر ويقوى وينضج يرى الوســـيلة فى تحقيق نشاطه هى أن يرسى ذلك الحجر أساسا لبناء . .

# وحدة الفكر

قالت العصا :

ـ هل يتحد الناس جميعا فى مستوى الثقافة والفكر فى يوم من الأيام ؟..

قلت :

ـ لو استطعنا أن نتخيل عالما مثاليا يسود الأرض فى يوم من الأيام ، تحل فيه المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية التى تفرق بين الناس ، وتجعل منهم الغنى والفقير ، والحاكم والمحكوم والعالم والجاهل .. عالما مثاليا قد أصبح الناس فيه متساوين فى الثروة والسلطة والمعرفة .. لو استطعنا أن نتصور امكان ذلك فان الذى لا نستطيع أن نتصور امكان حدوثه هو أن يتحد الناس جميعا فى درجة واحدة من درجات الثقافة والفكر ... فالتعليم الموحد لا يولد الفكر الموحد ولا

الثقافة الموحدة .. لأن الفكر وليد الطاقة الذهنية التى تختلف باختلاف القوة العقلية فى الأفراد .. والثقافة وليدة ملكات احساسية تختلف باختلاف الطبع والعاطفة والميل الطبيعى فى كل انسان .. فهذا الاتحـــــاد فى المستوى الثقافى والفكرى لا يمكن أن يتم الا اذا سبقه تشابه تام وتطابق كامل فى درجات القوى العقليـــــة والشعورية ..ولا يبدو حتى الآن ما يدل على أن الطبيعة تنوى اجراء هذا التعديل فى خلق الانسان ...

قالت العصا :

ـ بل انه لمن العسير أن نجد ـ حتى فى طبقة المتحدين فى الفكر والثقافة ـ اتحادا تاما فى الحكم على فكرة من الأفكار أو فى الميل الى أثر من الآثار .. واذا اتحدوا فى الحكم والميل فقلما يتحدون تماما فى الزوايا التى منها نظروا وشعروا .. لعل خطوط العقـــــول أو القلوب مختلفة فى الناس كاختلاف الخطوط فى بصمات الأصابع

# عصر الغابة

قالت العصا :

ـ يبدو أن الكرة الأرضية تدور اليوم بسرعة حول محور عجيب .. محور قطباه لا يسميان الآن القطب الشمالى والقطب الجنوبى .. بل اسمهما النجـــاح والاخفاق .. كل دولة وكل فرد ينجذب الى هـــذا المغناطيس المسمى « النجاح » .. جاعلا منه ايمـــانه ودستوره .. فهو يطلبه بأى ثمن دون نظر لأى اعتبار .. وهو يتجنب الاخفاق ولو كان معه الشرف ومبادىء الأخلاق ..

قلت :

ـ أظن أن طلب النجاح ليس بالأمر الجديد عـــلى الشعوب والافراد .. ولكن الحـــق أنه كان فيما مضى مقيدا بحدود .. حدود من المبادىء .. كانت الدولة

تسعى الى الفوز فى الحروب ولكن شيئا من المبادىء كان يمنعها من استخدام أى سلاح .. وكان الناس يسعون الى النجاح فى الحياة ، ولكن السلوك القــويم والذوق السليم ومبادىء الأخلاق والفضائل والمثل العليا كانت تخجلهم وتصدهم عن طلب النجاح من أى طريق .. كان طلب الفوز والنجاح موجودا ولكن كان هناك تخير مفروض بالعرف فى السلاح والأسلوب .. أما اليــوم فان جموح الدول الجنونى ، وانطلاقها الى الحروب المبيدة بكل سلاح وحشى دون وازع من ضمير أو رادع من مبدأ انســانى ، قد أوحى الى النــاس أن ينطلقوا هم الآخرون الى النجاح فى الحيــاة بكل الوسائل ، دون خجل أو حياء أو زاجر من شرف أو خلق . . .

قالت العصا :

ـ عصرنا اليوم لا يعرف غير شــيئين ، دولة منتصرة ودولة منهزمة ورجل ناجح ورجل فاشل ، والبــاقى لا يهم . . . انه عود الى عصر الغابة . .

# حلقات العمر

قالت العصا :

ـ صدق من شبه حياة الانسان بالنهر .. فهى تجرى حقا فى أمكنة متعددة وأجواء مختلفة ، لتصب آخر الأمر فى محيط اللانهاية ..

قلت :

ـ بل ان أعجب ما فى حياة الانسان أنها ليست حياة واحدة، انها سلسلة حيوات تتابع فى حلقات العمر الطويل .. فحلقة الطفولة لها حياتها المستقلة بجوها السحرى واتجاهها الملائكى .. وحلقة الصبا والشباب لها حياتها المستقلة بجوها الشعرى واتجاهها المثالى .. وحلقة الرجولة لها حياتها المستقلة بجوها التأملى واتجاهها الواقعى .. وحلقة الكهولة والشيخوخة لها حياتها المستقلة باتجاهها الفلسفى .. .. وهلم جرا .. وهذه

الحلقات منفصلة فى أكثر الأحيان احداها عن الأخرى، انفصالا ملحوظا .. فان ما كنت تعيشه فى حلقة لا يصلح لك فى حلقة أخرى .. فالجمال الذى كان يفتنك فى الشباب لا يؤثر فيك وأنت فى الرجولة ، والكتاب الذى كان يثقل عليك فى الصبا قد يسحرك فى الكهولة ..

قالت العصا :

ـ من هنا جاء تصادم الأجيال .. فكل جيل يحكم على غيره بمقاييس الحلقة التى هو فيها .. دون أن يفطن الى اختلاف الجو عند الآخر .. فمن يعيش فى حرارة الشباب يظن كل شىء حارا .. ومن يعيش فى برودة الشيخوخة يظن كل شىء باردا .. ولو أنصف الجميع لاعترفوا بأن الحياة مناطق وأجواء ..

# عمر الشجرة

قالت العصا :

ـ نسمع فى بلادنا من حين الى حين بعض المتقدين يحملون على نظامنا الاجتماعى ونشاطنا العلمى والأدبى والفنى بقولهم : « انظروا الى المجتمع فى أوربا تجدوا الرقى والتقدم ، أما هنا فانكم تجدون الجهل والتخلف .. وانظروا الى علمائهم وأدبائهم وفنانيهم تجدوا المحصول الوافر والانتاج الناضج ، أما عندنا فانكم تجدون الأثر الهزيل والثمر الضئيل .. » . هل معنى ذلك أننا من طينة أخرى غير طينة الأوربيين .. وأنه قد كتب لهم الفوز وكتب علينا العجز ؟ !

قلت :

ـ شأن هذا الطراز من المتقدين شأن من يمر بشجرة تفاح عمرها عشرة أعوام ، قد تمكنت جذورها من

الأرض ، فكثر انتاجها ونضج ثمرها فيعجب بمنظرها ثم يبصر الى جوارها شجرة تفاح أخرى عمرها عامان فقط ، لم تمتد بعد جذورها في الأرض فهزل محصولها وضؤل ثمرها ... فيقف منها موقف الساخر قائلا : « انظروا .. أين هذه من تلك ؟.. » . الى أن يمر به من يسخر بحكمه الساذج لافتا نظره الى أهمية العمر والسن والزمن !.. قائلا له : « أعط هذه من الوقت ما أعطى لتلك ثم احكم !.. » .. قبل أن نحكم على مجتمعنا الحديث يجب أن نسأل عن عمر دعائمه بالنسبة الى أعمار ذلك في نظائره .. وقبل أن نعيب علمنا أو أدبنا أو فننا الحديث يجب أن نبحث متعمقين متى وضعت بالضبط أسسه الجديدة ؟ ومتى بدأت أسس النهضات للعلوم والآداب والفنون في أمم أوربا ؟ ! ..

قالت العصا :

ـ لا يظهر الحكم المتزن الا عندما تظهر تباشير النضج !..

# الحلم الحى

قالت العصا :

ـ يظهر أنه لا جهد يضيع عبثا فى هذا الوجود .. حتى جهد أولئك الذين أضاعوا حياتهم فى الأحلام ..

قلت :

ـ هذا صحيح .. حتى جهد ذلك الرجل الذى هام على وجهه فى الصحراء، يناجى شبح محبوبته بشعر يتفجر من خياله المحموم .. لطالما قال فى مثله أهل زمانه : « ذاك رجل ضائع !.. » .. ولا جدال فى أن مثل هذا الرجل الحالم قد ضاع بين حقائق زمنه .. ولكن زمانه مضى بوقائعه وحقائقه ورجاله وأهله .. واذا الرجل الحالم بخيالاته وشعره وأحلامه يصبح حقيقة ثابتة فى زمن آخر وعصر آخر .. ويعيش فى مجتمعات مختلفة متعاقبة باسم « امرىء القيس » أو « عمر بن أبى ربيعة»

أو « شيلي » أو « بيرون » .. ان الفرق بين الحلم والواقع هو فرق في الوقت .. كالفرق بين الليل والنهار ... وكثيرون ممن يعيشون في الواقع ، يطويهم الظلام اذا أقبل .. وكثيرون ممن طوتهم الأحلام ، يتحقق حلمهم اذا طلع النهار ..

قالت العصا :

ـ لعل الناس في ذلك ينقسمون الى فئتين : فئة تعيش مع حاضرها وتندمج فيه وترضع لبانه وتعتصر ثمراته ، وتلتصق به التصاقا شديدا في خيره وشره ، فاذا ذهب ذهبت معه .. وفئة تخاصم حاضرها ويخاصمها ، فلا تندمج فيه كل الاندماج ولا تلتصق به كل الالتصاق ، فاذا ذهب لم تذهب معه .. وبقيت الى زمن آخر وعصر آخر ..

الجزء الثانى

# فى الآخرة

# الاتصال بالعالم الآخر

قالت لى العصا ، وقد رأت في يدى صحيفة :

ـ ماذا تقرأ هكذا باهتمام ؟ ..

قلت :

ـ اقرأ خبرا عجيبا .. اسمعى :

« جاء أخيرا فى احدى البرقيات أن « جو وليمسون » مؤسس جمعية الدراسات لما وراء الطبيعة ورئيسها السابق قد صرح قائلا : انه سيأتى فى القريب ذلك اليوم الذى يستطيع فيه الانسان أن يرفع سماعة تليفون روحى ، ويضغط على زر جهاز ، ليخاطب الموتى فى عالم الأرواح ، وان التجارب الأولى لو نجحت ، فلن تكون هناك أسباب تحول دون اقتناء كل شخص لآلة تليفونية روحية ، لا تكلفه ثمنا باهظا .. »

قالت العصا :

ـ هذا اختراع عجيب حقا .. تصور هذا الجهاز فى متناول يدنا الساعة ، فمن نطلب من أهل العالم الآخر؟

قلت :

ـ أترك الأمر لاختيارك أنت

قالت العصا :

ـ اتفقنا .. سأتخيل الآن الجهاز أمامى .. وسأطلب روح من يخطر على بالى .. ولك اذا شئت أن توجه الأسئلة وتتلقى الأجوبة ..

## مع حواء

ضغطت العصا على زر الجهاز وطلبت حواء ..فسمع صوت آت من بعيد :

ـ أنا حواء ... من يطلبنى ؟..

ـ هنا الدنيا !.. نهارك سعيد !.

ـ نهارى سعيد ؟ ! أى نهار تعنى يا هذا ؟ وما معنى النهار ؟..

ـ عفوا .. نسيت أنه لا يوجد عندكم نهـــار ولا ليل !.. بماذا أحييك اذن يا أم البشر ؟.. كيف يسلم بعضكم على بعض فى الآخرة ؟..

ـ لا حاجة بنا الى ذلك ..ماذا تريد منى ؟..لاتضيع الوقت فى التافه من الكلام ..

ـ هل آدم معك ؟.. ليكن فى علمـــك أنى طلبت محادثتك على انفراد ؟..

ـ اطمئن .. انه اعتاد من زمن طويل .. منذ كنا على الأرض أن يسد أذنيه عن محادثاتى الخاصة ...

ـ وهل كانت لك محادثات خاصة على الأرض ؟

ـ طبعا !.. وحتى قبل أن نهبط الى الأرض ، ألم أحادث الحية طويلا .. لقـــد كان آدم يرى كل شىء ويتظاهر بالصمم ..وعندما أخبرته بجمال شجرة التفاح سمى عملى اغراء .. وعندما سئل عن حديثى مع الحيـة قال انه لا يستطيع منع امرأة من الحديث والثرثرة

ـ حقا .. انه يلقى عليك أنت كل التبعة فى اخراجه من الجنة ..

ـ ولو علمت كيف سمم حياتى بعد ذلك طـــول وجودنا على الأرض !.. انه لا يريد أن يفهـــم أنه

شريكي في كل ما فعلنـــــا ونفعل .. ولكنني في نظره مخلوق وجد ليلقي عليه مصـــائبه وكوارثه ، وعواقب ضعفه ونزواته .. يا لقســـوته ! انه لا يريد حتى أن يعتبرني ضلعا من أضـــــلاعه !. كلا !.. ان له ساقين تحملان جسمه،فلا بد من ثالثة تحمل ذنبه ووزره !.. أنا هذه الساق

ـ لو عرفت كيف تكلف هذه الساق رجال اليوم ؟! انها تغلف في جوارب من « النايلون » باهظة الثمن !.

ـ ما هذا « النايلون » ؟.. أهو نوع من ورق التوت

ـ لا يا جدتي .. انه نوع من ...

ـ رجائي اليك ألا تناديني بجدتك !.. لست أدري لماذا كان يثقل على أذني هذا اللفظ ؟ ثم انك لا يمكن أن تتصور مقدار ما كنت عليه من حسن !.. ثق أني لم أنجب ابنة قط في مثل جمالي !.. ومهما يكن في آدم من عيوب ، فان له فضيلة لا تنكر ، وهي خضـــــــوعه لحسني ، وافتتـــانه بجسمي ، واذعانه لرغباتي ، وتنفيذه لطلباتي ..ولو كنت أمرته أن يحضر لي هذا الذي يغلف الساق ... ماذا قلت عنه ؟.

ـ جوارب النايلون !..

ـ نعم .. حدثنى عن هذا النايلون ..

ـ وما فائدة ذلك الآن .. مادام آدم لا يستطيع أن يحضره لك فى العالم الآخر ؟..

ـ صدقت .. انه لا يحضر لى شيئا .. لقد شاخ وهرم .. أقصد عندما كان فى الأرض ، لقد كانت الحياة معه لا تطاق .. لقد كثر سعاله وضاق خلقه وثقل ظله .. ولكن أين المفر لمسكينة مثلى !.. لو أن فى ذلك العهد آدمين على الأقل !.. ولكنه هو دائما أمامى آدم واحد بوجهه المقطب المجعد، وحديثه الممل الذى لايتغير

ـ لا تحزنى !. مشكلتك كانت هينة ، الى جانب مشاكل المرأة فى العصر الحديث ... أخبرينى : ما رأيك فى موضوع منح المرأة حق الانتخاب ؟..

ـ انتخاب من ؟ زوجها ؟.. أهذا ممكن ؟. انى لأغبط تلك المرأة التى تستطيع أن تنتخب زوجها وتختار رجلها ؟.. حسرة على !.. لم يكن لى حق انتخاب ولا اختيار ، كان رجلا واحدا فكان على كل حال خيرا من لاشيء وكان حتما على الرضا به والسكوت

ـ لا .. لست أقصد حق اختيار الزوج.. فهذا فى

يد المرأة اليوم ، ولكنى أقصد حقهـــــا فى أن تحكم وتسوس وتقود ..

ـ ومن قال لك انى لم أحكم ولم أسس ولم أقد ؟. من الذى قاد آدم من يده وأخـــــرجه الى الأرض ؟ لا تصدق امرأة تزعم غير ذلك .. لكل امرأة تفاحتهـا التى تقود بها الرجل !..

ـ قلت ذلك فلم يصدقونى .. لأننا فى عصر نصدق فيه النظريات ولا نصدق الحقائق .. فاذا شاع مذهب يقول ان المرأة ضعيفة ، فيجب أن نصـــدقه حتى ولو رأيناها بأعيننا تمسك بيدها رجلا وتلقى به من حالق

ـ من ذا الذى يسمينى ضعيفة ؟ يبدو لى أنى منـــذ عشت على الأرض حتى اليوم ، وأنتم تعيشون فى غلطة تغذيها دائما بلاهتكم معشر الرجال !.. وهى أن المرأة ضعيفة .. ما من امرأة ضعيفة .. انها تتظاهر بالضعف، كما يتظاهر الرجل بالقوة !..

ـ ماذا تقولين فى كثير من رجال اليوم الذين يسمونها كذلك ليقال عنهم انهم مجددون !..

ـ لهؤلاء تستطيع أن تنقل عنى هذه الضحكة الصغيرة سخرية بهم !..

ـ عجبا !.. يا لها من ضحكة ما كنت أظنها معروفة في عهدك !..

ـ من كنت تظنني اذن يا هذا ؟. يا لك من ساذج ! صدق ما توقعت منك وتوسمت فيك !.. أو كان آدم يستطيع أن ينجب غير بسطاء من أشباهه !..



# مع هتلر

ضغطت العصا على زر الجهاز ، وطلبت هتلر . . فسمع صوت يجيب :

ـ أنا هتلر . .

ـ أخبرنا هل أنت مت حقا ؟ أو أنك حي مختبئ في مكان ما ؟ . .

ـ اني حي مختبئ . .

ـ أين ؟ . . أين ؟ . .

ـ في قلب كل ألماني على وجه الأرض . .

ـ جثة من التي وجدت في قبو دار المستشارية ببرلين ؟

ـ جثتي

ـ هل انتحرت ؟ أو قتلت ؟

ـ وماذا يهم ذلك ؟ .. كل ما أردت هو أن أترك لأعدائى جيفتى .. أما الروح فهى التى لن يأخذوها أبدا .. وهى على الرغم منهم باقيـة أبدا ، وهى عندما خرجت من جثمانى ، دخلت فكرة فى نفس كل ألمانى

ـ هل تشعر الآن وأنت فى عالم الصفاء أنك مجرم؟

ـ نعم انى مجرم .. فقد أخلصت لبلادى حتى الموت .. وهذه فى نظر الانجليز أكبر جريمة يقترفها رجل غير انجليزى ! لأنه ليس مسموحا لأحد أن يتفانى فى حب بلاده غير الانجليز !

ـ ألم يبلغك ما قاله عنك تشرشل .. انك كنت تحب شخصك أكثر من حبك لبلادك وانك جمعـت أنت وأعوانك فى المصارف أموالا تقدر بالملايين ؟

ـ لقد عثروا على جثتى ، وكان أيسر من ذلك أن يعثروا على شلن واحد من هذه الملايين المكدسـة فى المصارف .. ولكنك لا تعرف تشرشل ..

ـ أعرف أنه هو الذى قادك الى الهزيمة ..

ـ هل تظن ذلك ؟.. ان الذى أعرفه هو أن ستالين قاد الجيوش وروزفلت قام بالتموين ، أما تشرشل فكان البهلوان الذى يصيح ويثرثر ويقفز من ميدان الى ميدان

رافعا ابهامه فى الهواء !

ـ انه كان يلعب دور النبى الديموقراطى بطل ميثاق الأطلنطى !

ـ وماذا حدث لهذا الميثاق ؟.. تبخر فى الفضاء .. أليس كذلك ؟ قلت لك أنت لا تعـرف تشرشل ! هل رأيت على الأقل دخانه ؟ !

ـ تقصد دخان سيجاره ؟

ـ ها أنت ذا تسميه سيجارا ؟ كلا .. ان تشرشل ليس سوى مصنع أكاذيب متحرك .. وهذا الذى فى فمه دائما مدخنة المصنع !..

ـ حقا .. لقد صدر الينا من بضاعة مصنعه ما لا ننسى .. وموقفه منا فى اعلان الجلاء ، وفى ديون الاسترلينى لأكبر دليل على أنه يكذب علينا بالسهولة التى ينفث بها الدخان من مدخنته !..

ـ لقد امتد دخانه حتى الى حياتى الخاصة .. لن أنسى أنهم تحدثوا بما لا يليق عن ايفا ..

ـ ايفا براون ؟..

ـ نعم .. زوجتى المخلصة .. المخلصة حتى الممات

انها الآن معى هنا ، وهذا كل عزائى ..

ـ لماذا لم تجلس زوجتك بجوارك على عرش مجدك فى الدنيا .؟ ولم لم تجعلها تحتل مكان السيدة الأولى فى المجتمع الألمانى ؟..

ـ عبثا حاولت ذلك معها .. ولكنها هى التى رفضت وأرادت لنفسها هذا الانزواء عن المجد والمجتمع والناس .. لأنها لم تشأ أن تستخدم صلتى بها لمصلحتها الشخصية ، ولا أن تستغل علاقتها بى للظهور .. لقد كانت أنبل من ذلك نفسا وأرفع شعورا وأصدق عاطفة، وأعمق اخلاصا ، وقد فهمت أن رسالتها هى أن تكون بجانبى فى ساعات الضعف والوحدة والوحشة المظلمة لا أن تتألق للناس فى ساعات المرح وساحات النصر وحلبات الرقص !

ـ كيف ماتت ؟.. ومتى ؟.. قبلك أو بعدك ؟..

ـ لقد أصرت على أن تموت قبلى بدقائق .. وقد سمت ذلك مكرمة تطمع فيها منى .. أن آذن لها بذلك .. لأنها لا تستطيع أن ترانى أموت .. ولقد قالت لى ان هذا واجبها كزوجة أن تسبقنى ولو بلحظات الى الدار الآخرة ، لتكون هناك فى استقبالى ! فأذعنت،

وأمرت طبيبي الخاص الموكول اليه هذه المهمة ، أن يبدأ بحقنها هي أولا بالسم الذى أعد لذلك .. وقد ماتت أمامي في مثل لمح البصر بلا ألم وكأنها اغفاءة انتابتها على حين فجأة .. فأمرت عندئذ الطبيب أن يصـــنع بى ما صنع بها ، فما كادت ابرة الحقنة تغرز في جلدى حتى أغفيت ثم تنبهت فاذا أنا بجوار ايفا .. في عالمنـا الذى أخاطبك منه !..

ـ ألا يقوم الآن في نفسك أسف لاثارتك الحرب ؟

ـ لست آسف على سوء الحظ !

ـ لقد أردت أن تقامر بكل شيء فكان من الواجب أن تتوقع الحظ السيء .. كما تتوقع الحظ الحسن !..

ـ عندما تكون المسألة بالنسبة لأمة ، مسألة حياة أو موت فلا بد من المقامرة بكل شيء .. ولقد قامرت ألمانيا بحياتها مرتين في ربع قرن !..

ـ ألم يخطر لك أن تدرس طرائق انجلترا في المقامرة ؟

ـ انجلترا لا تدخل أبدا في ميـدان اللعب الا وفي كمها أوراق مغشوشة !..

ـ ربما ولكنها استطاعت أن تكسب امبراطوريتهـا الواسعة .. لعبة لعبة .. وورقة ورقة .. وخدعة خدعة

.. على مهل .. دون أن تثير ريبة اللاعبين ، أو سخط المراقبين ، أو حذر المحاذرين ...

ـ صدقت انها دائما تحتـــل مكانها من المائدة ، فى صورة « لورد » يرتدى ثياب السهرة ويضع «المونوكل» ويجلس بتؤدة ووقار بورقه المغشوش .. فى كم قميصه المنشى .. بين قوم شرفاء لا يشكون فى سـلوكه ، ولا يعتبرونه الا مثال النزاهة والصـــدق والشرف ، لأنه لا يتحدث فيمن حوله دائما الا بهذه الكلمات،ويظل هذا « الجنتلمان » اللص يبتز أموال ملاعبيه ، ويختلس ما فى جيوب مجالسيه ، بابتسامة لهذا وملاطفة لذاك ، ومهادنة مع واحد ، ومواطأة مع ثان ، واتفاق ودى مع ثالث .. الى أن تنتهى الليلة بمكسبه المرسوم ، فينهض مشـــيعا بالاحتـــرام قائلا للحاضرين : « جود باى جنتلمين » الى الليلة القادمة !.. وهلم جرا ..

ـ أما أنتم معشر الألمان فلا صبر لكم .. تريدون فى ليلة واحدة وبهجوم خاطف وحظ بارق أن تحصلوا على كل شىء دفعة واحدة !..

ـ لأننا لسنا لصوصا !.. لقد كان فى يدنا حقـــا ورقة فائزة ، حصلنا عليها بكدنا وعرقنا وعبقريتنا وعلمنا .. وكنا نظن أن هذه الورقة الصحيحة وحدها يمكن

أن نقامر معها بكل ما لنا وحياتنا !..

ـ لا تنكر أن الانجليـــز فى هذه الحرب الأخيرة قامروا هم أيضا بكل ما لهم وحياتهم ؟ !

ـ لا يا سيدى انهم قامروا بكل حياة الفرنسيين وبكل ما فى جيوب الأمريكان !

ـ والآن ما رأيك فى المستقبل ؟

ـ رأيى أقوله فى جملة واحدة وأنصرف عنـــك : « لقدخسرت ألمانيا الحرب لأنها كانت وحيدة وسيخسر الحلفاء السلام لأنهم عديدون » !..



# مع كليوباترا

ضغطت العصا على زر الجهاز .. وطلبت كليوباترا .. فسمع صوت جميل :

ـ أنا كليوباترا .. من يخاطبنى ؟

ـ شخص لا علاقة له بأنطونيو

ـ من أنطونيو ؟

ـ عجبا .. ألا تعرفين حبيبك الذى انتحرت من أجله ؟

ـ من قال لك اننى انتحرت من أجل أنطونيو ؟

ـ ألم تسكبى فى جسمك السم من أنياب الحية عندما علمت أنه أغمد خنجره فى جسمه من أجلك ؟

ـ ربما مات هو بسببى ، ولكنى لم أمت بسببه ..

ـ أتنكرين أن الحب هو الذى ..

ـ الحب عند الرجل مرض ، فلا عجب أن يحـاول التخلص منه بالموت ، ولكن الحب عند المرأة صحة فلا معنى أن تتخلص منها بالانتحار ..! كلا يا هذا ... أنطونيو مات لأنه فقدني ، وأنا مت لأني فقدت عرشي!

ـ ألم تقابلي أنطونيو في الآخرة ؟

ـ بالطبع تقابلنا مرة أو مرتين ، وضحكنا كثيرا من حماقتنا على الأرض .. وقد اتهمني بأني أضعت مستقبله .. وقد اتهمته بأنه أضاع عرشي !.. ولكن الحب على أي حال لم يكن موضوع الحديث ..

ـ أنت اذن لا تؤمنين بالحب

ـ انى كامرأة أومن بالحب .. ولكن مثلى لم يكن لها الحق في أن تكون امرأة . اذا قدر لرأس أن يحمل تاجا .. فلا ينبغي أن يؤمن بغير شيء واحد : أن يحافظ على ذلك التاج حتى لا يسقط منه في التراب ، لأنه اذا سقط .. سقط معه شعب بأسره .. كان جبيني يحمل تاج مصر .. ذلك الجبين الذي قيل انه ناصع وضاء جميل .. وكانت روما غول الدنيا الذي يبتلع التيجان والعروش ، غولا ذا رأسين ، أحدهما يدعى قيصر والآخر أنطونيو .. كان من المستحيل على ذراعي

الطريتين أن تضغطا على عنقى الرأسين فى عين الوقت.. فضغطت أول الأمر على عنق قيصر ، حتى ثبتنى على عرشى ، وضمن لى من جانبه الأمان ، ثم أفلت منى .. ولكن الرأس الآخر انجنى لى بعد ذلك طائعا، ومكنتنى الفرصة من أن أعصر ذلك العنق وأهصره ، وأسيره وأسخره لمصلحة بلادى ، حتى وهن وخار ولفظ النفس الأخير .. ولكنى معترفة أنى بذهابه ذهب منى كل شىء .. حسبى أنى استطعت أن أحارب ردحا من الزمن .. وأن أجعل الرأسين يتناطحان بدل أن يجتمعا على ابتلاع الأرض ..

ـ ولكنك أحببت أنطونيو حبا حقيقيا !..

ـ ربما ، ولكن ألم يخطر لكم أن تتساءلوا : اذا كنت أحببته حبا حقيقيا فكيف لم أترك عرشى وتاجى وشعبى لأخرج مع حبيبى الى جزيرة نائية فى وسط البحار ، نعيش للحب ، ولا لشىء غير الحب ؟.. هكذا فعل فيما علمت ملك من ملوككم العصريين !..

ـ نعم ملك انجلترا السابق من أجل ليدى سمبسون !

ـ وهذا رجل لا امرأة .. رجل يزن الأمور ، كما

يقال ، لا امرأة تدفعها الأهواء .. ملك من ملوك هـذه العصور لا ملك من ملوك الأسـاطير !.. ملك ذكى طموح ميال للاصلاح كما علمت ، يترك شعبه المحتـاج الى ذكائه واخلاصه ليعيش فى جزيرة نائية مع من ؟.. مع امرأة لا جمال لها ولا نضارة ، ولا عراقة .. لكن هذا لا يستغرب .. يكفى أن تعلم أنه انجليزى لتحكم فى الحال على مقدار ذوقه !..

ـ حقيقة .. هذا سؤال يجب أن نلقيه على أنفسنا : لماذا لم تتركى شعبك وتذهبى مع أنطونيو ؟ !

ـ انى لم أفعل ذلك حتى بعد الهزيمة فى موقعـة اكتيوم .. وقد تبين لى شبح روما تبتلع مصر .. ويد المنتصر تضع فى معاصمى الأغلال ... ولم يبق لى من شخصى الا المرأة ، وفى كنوزى غير الحب .. ما كان أنطونيو وقتئذ يتمنى من دنياه غير الهرب معى الى جزيرة نائية مجردة عن العروش والتيجان لنقضى بقية العمـر فى سلام وصفاء وأمن وغرام .. ولكنى لم أفعل .. لأنى كما قلت لك ، لا أملك الحق فى أن أكون مجرد امرأة .. خلفى شعب أنا ملكتـه .. وعلى جبينى تاج حكمه .. لا ليضىء بمتعتى .. بل ليتألق بمجـده .. ويوم يضام هذا الشعب يجب أن أموت !.. ذلك قانون

التيجان .. هى نور ونار فوق الرؤوس ، وليس لمن كتب عليه حملها أن يهرب من هذا المصير !..

ـ وما قولك اذن فى ذلك الذى هرب ؟.. لمـــاذا لا تقولين انه كان يحب .. أما أنت فكنت امرأة لا قلب لك ..

ـ أرجو ألا تؤلمنى بهذا الكلام .. ليس لك أن تتهم قلبى وأنت لا تعرف عنه شيئا .. هذا القلب الذى اتسع لحبيبين! وطنى وأنطونيو ! كل ما سمعته منى حتى الآن كان حديث ملكة ! ولكن المرأة لم تتكلم بعد .. لقـد أحببت أنطونيو حبا لم ينسنى آمال بلادى .. ولكنه كان حبا عظيما ..

ـ حب أنطونيو لك هو الذى كان حبا عظيما ؟ !

ـ لست أنكر ذلك .. ولن أنسى أبدا لحظة موته : لقد كانوا أبلغوه كذبا نبأ موتى .. فصاح : وما تنتظر بعد الآن يا أنطوان ! لقد سلبك القدر من كانت تحبب اليك الحياة !.. قالها وهو يدخل حجرته وينزع عنـه درعه ثم مضى يقول : « كليوباترا ، لا أشكو من فقدى اياك فأنا لاحق بك بعد قليل ، ولكن الذى يحزننى هو أن امبــراطورا قويا مثلى تسبقه فى الشجاعة امرأة » ! ولم أكن للأسف قد سبقته ولا استحققت هذا الاطراء !

ـ ولكنه مات ولم يعلم أنك على قيد الحياة ..

ـ بل علم ولم تكن روحه قد فارقت بعد جسده ،فأمر رجاله أن يحملوه الى ، فما كدت أراه حتى فقــــدت صوابى ، وصرت أمسح دماءه بوجهى ، وأمزق غلائلى وأضعها عليه ، وأضرب بيدى صدرى ، وأنشــــب فى لحمى أظافرى ، وأناديه ياروحى ، ويا حبيبى .. وقد طلب خمرا ليروى به ظمأه أو ليعجل به موته ، ومات وهو يرجو لى أن أوفق الى الوسائل التى تصون كرامة ملكى وشرف شعبى ..

ـ وتركته يموت ولم تموتى معه ؟..

ـ لو كنت مجرد امرأة وزوجة وحبيبــــة لفعلت .. ولكن هذا أيضا لم يكن من حقى .. كان على أن أفاوض قيصر المنتصر ، ليبقى مصر لأبنائها .. ويجعل ملكهـا فى أولادى .. ولا يخضعها لحكمه ولا لحكم روما،ولكنى رأيت المراوغة فى عينيه فأدركت أن مهمتى قد انتهت .. وأن على الملكة أن تؤدى واجبها .. وعلى المرأة أن تطلق العنان لعواطفها وتسير الى مصيرها ..

ـ وماذا كان ينوى قيصر أن يفعل بك ؟

ـ كان يريد أن يرسلنى مع أولادى الى روما ..

لأعيش أسيرة وأموت غريبة فى تلك البقاع !.. ولكنى لم أمكنه من تحقيـــق أمنيته .. وانى لم أزل أذكر الكلمات التى لفظتها على قبر أنطونيو قبل أن أموت .. ولقد كنت سألت قيصر أن يأذن لى فى اجراء الطقوس الجنائزية لأنطونيو ، فأذن .. فذهبت مع وصـــيفاتى وألقيت بجسمى على قبره وجعلت أصيح به : «ياعزيزى لم تمض غير أيام قليلة منذ أن وضعت على جثمانك يدين .. كانتا فى ذلك الوقت طليقتين ، واليوم أجىء اليك بهما مصفدتين فى غل الاستعباد .. لا تنتظر بعد الآن من كليوباترا تكريما خيرا مما ترى .. وهذا مع ذلك آخر ما تستطيع تقديمه اليـــك .. فهم يريدون أن ينتزعوها من جوارك .. طول الحياة التى عشناها معا .. ما استطاع أحد أن يفرق بيننا .. واليـوم يريدون أن يقصوا فى الموت أحدنا عن الآخر .. فأنت الرومانى ستمكث هنا تحت ثرى مصر .. وأنا المصرية سأدفن هناك فى ايطاليا .. أنطونيو ، خبئنى معك تحت هذه الأرض .. دعنى أقاسمك قبرك هذا .. من بين كوارثى التى لا تعد .. واحدة هى أشـــقها على نفسى .. تلك هى الأيام القليلة التى عشتها بعدك ! » .. وذلك كان آخر ما خاطبت به أنطونيو على الأرض وكنت مخلصة فى

كل حرف لفظته ، ولقد توجت بعد ذلك قبره بالزهور، ثم قبلته ، ونهضت آمرة باعداد الحمام .. واغتسلت ثم تناولت من الطعام أفخره ، ولبست ثيابى الملكيـــة ، واضطجعت على سرير من ذهب، ثم أمرت باحضار الحية التى ستخرجنى من الأرض الى السماء.. كما أخرجت الحية الأخرى حواء من السماء الى الأرض ..

ـ أرجو لك الراحة فى السماء فان أهـل الأرض ينهشون سيرتك فى كل زمان !..

ـ فليقولوا ما شاءوا .. كل ما على الأرض عبث .. ولكنى مع ذلك لم أكن شريرة .. كنت ملـكة تحب شعبها ، وامرأة تحب رجلها ، وأما تحب أولادها .. كل مأساتى أن قلبى الواحد كانت تنهشـــه هـذه الألوان المختلفة من الحب !..

# مع روميو وجولييت

ضغطت العصا على زر الجهـــاز .. وطلبت جولييت وروميو .. فسمع صوت رقيق :

ـ أنا جولييت !.. من يخاطبنى ؟ اسكت يا روميــو .. دعنى أخاطب هذا الذى ينادينى من عالم الدنيا .. ماذا تقول يا روميو ؟ أنا خفيفة طائشة متبذلة مستهترة .. أسعى الى لفت الأنظار ؟.. وأنت أتنسى نفسك : أيها الفظ السخيف الخالى من الرقة والاحســـاس ؟. اذهب عنى .. اذهب عنى قليلا .. دعنى أتنفس بعيدا عنك لحظة .. ألا يستطيع أحدنا أن يعيش منفصلا عن الآخر دقيقة ؟.. اذا قالوا جولييت قالوا روميو ، واذا قالوا روميو ذكروا جولييت .. يا لها من « لصـــقة » ثقيلة !.. والى متى ؟ الى متى ؟..

ـ آلو .. آلو .. هنا الدنيا ...

ـ أنا جولييت .. من يناديني ؟ أف !.. الحمد لله قد ابتعد عني ..

ـ تقصدين روميو ؟ ..

ـ طبعا ومن غيره أقصد ؟ لعنة الله عليه !

ـ عجبا .. كنا نحسبك سعيدة معه في الآخرة ..

ـ سعيدة ! مع هذا الجلف ؟

ـ جلف ؟ تقولين ذلك عن روميو هذا المثل الجميل للرقة في العاطفة والشاعرية في الغرام ؟

ـ أخدعكم أنتم أيضا .. كما خدعني ؟ ولكني كنت فتاة بريئة غريرة فتنني هذا « البهلوان » وهو يتسلق الحبل الى شرفتي في اطار خلاب من ليل ناعس وقمر طالع وشجر هامس وبلبل صادح ، ولقد أخلصت له الحب حتى قادني حبي الى حتفي ..

ـ هو أيضا قاده حبه لك الى حتفه

ـ هذا صحيح .. لقد كنا قلبين مجنحين يطيران بلا بصر ، كالوطاويط .. في نهار العقل والمجتمع !..

ـ كنتما شعرا رائعا يطير في ربيع الأجيال !..

ـ أتصدق هذا الهراء ؟.. ولكنك معذور !.. أنا أيضا صدقته يوما .. وما كنت أرى في روميو الا

« نغما » يرتدى سراويل موشاة ويتحلى بسيف مذهب ، وما كان هو يرى فى الا « أغنية » تبدو فى شرفتها تلمع فى الدمقس .. ولكننى ما رأيته قط انسانا ، وما رآنى قط انسانة .. حتى تعانق النغم والأغنية وانطلقا فى الفضاء من دنيا الأرض الى السماء .. حيث الأردية تخلع والمعدن يظهر .. وبدت الطبائع على حقيقتها .. فاذا طبع روميو شىء آخر عما تخيلته وتتخيلون.. انك لن تدرك ما أقول .. لأن الذى بقى لكم منا فى الأرض ذلك النغم والأغنية « روميو وجوليت » !

ـ ما أحلاهما اسمين وعشيقين !..

ـ وما أشقاهما من زوجين !.. لو أن القدر مد فى أجلنا على الأرض لشاهدتم بأعينكم نهاية هذا الحب واخفاق ذلك الزواج ، فأنا التى عرفت بعدئذ طباع روميو السيئة ، ورقته الزائفة ، أؤكد لك أنى ما كنت أحتمله زوجا فى الدنيا أكثر من شهرين !.. وهو أيضا يقول عنى مثل ذلك، ويتهمنى بالابتذال والاستهانة والأنانية ..

ـ حمدا لله اذن الذى خطفكما من الأرض فى الوقت المناسب .. والا كانت وقعت أعظم قضية طلاق عرفها التاريخ ..!

ـ الطلاق !.. يا له من نعمة ! ولكن هيهات أن نظفر به ها هنا .. ما دام القدر قد سلط علينا ذلك المجنـــون الذي يصلح بيننا كل ساعة على الرغم منا

ـ ذلك المجنون ؟ !

ـ نعم ، شخص يسمى « شكسبير » .. لسـنا ندرى ما شأنه بنا .. يتدخل فى أمورنا .. ويحشر نفســه بلا مبرر فى كل صغيرة وكبيرة مما يمسنا .. كلمـــا احتدم الشجار بينى وبين روميو .. طلع لنا « شكسبير » هذا .. فجعل يقبل رأسينا وأيدينا وأقدامنا ، يتوسـل الينا أن نمسح « العيب » فى ذقنه .. وأن ننهى الخلاف الذى شجر .. زاعما أن سوء أدبنا وخلقنا وما نتراشقه من بذىء الألفاظ أحيانا فى خصامنا ، أشـــياء تمس كرامته شخصيا وتنال من ســـمعته .. وفى الحق أن اخلاصه وحرارته ودموعه التى يذرفها كل مرة تألما من حالنا تثير فينا الشفقة عليه ، فنذعن صاغرين ، ونهدأ مكرهين ..

ـ أو لا تعرفان ما هى علاقة « شكسبير » بكما ؟..

ـ أبدا .. ماذا يكون أكثر من شخص يعيش على هامش حياتنا .. متمسكا بنا « متمحكا » ؟. وأمثال هذه

« الطفيليات » كما تعلم لا تخلو منها أسرة .. ولكنه مع ذلك شخص طيب القلب كل غايته أن يسود الصفاء بيني وبين روميو .. وأن نتبادل أرق عبارات الحب .. وأن يسمعنا نتحاور بذلك الشعر الرقيق الذي أنشدناه في الشرفة تلك الليلة المقمرة .. فيجلس بيننا .. ويرجو من روميو أن يردد عبارته المعروفة : «ياسيدتي النبيلة .. أقسم على حبك بهذا القمر الساحر .. هذا القمر الذي يطلي بالفضة رؤوس الشجر !» . فأجيبه أنا بعبارتي المشهورة : « آه .. لا تقسم أبدا بالقمر .. هذا القمر المتغير .. الذي يبدل قرصه في كل شهر .. اني أخشى أن يكون حبك متغيرا كالقمر ! .. »

ـ أما كان ترديد هذا الشعر يثير فيكما شجون الماضي ؟ ! ..

ـ لا .. على الاطلاق .. انما كنا نردده لنسر ذلك المسكين « شكسبير » .. وكان هو وحده الذي يتأثر من انشاده وتبعث في نفسه الشجون .. ويطرق طويلا، ويهبط في غياهب الذكريات ويغرق في بحار التأملات .. ولا يوقظه مما هو فيه الا عودتنا الى العراك أنا وروميو .. فينهض واضعا اصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع ألفاظ السباب ، تحل في رأسه كما يقول محل

ذلك الشعر الذى كان يخلب الألباب !

ـ لقد عذبتما هذا الرجل فى الآخرة

ـ عذبناه ؟ ! .. بل هو الذى عذبنا .. ماله ومالنا .. أمامه الآخرة واسعة .. فلماذا لا يحلو له وجود الا معنا ؟ ! . انى لا أستطيع أن أحادث زوجى روميو على انفراد دون أن أجد « شكسبير » هذا يتسمع .. ولا أن أفعل شيئا دون أن أجده يتفقد سلوكى .. هذا لا يطاق .. انه بيننا مثل الحماة فى بيت الزوجية !..

ـ وروميو .. هل يحبه ؟

ـ روميو مثلى يعجب لوجود هــذا الرجل بيننا .. ولكن يظهر أن هذا أمر لا حيـلة لنا فيه .. لو أنى نجحت فقط فى أن أجعله ينحاز الى جانبى ضد روميو لكان له بعض النفع .. ولكنه ثابت فى موقفه لا يحيد عنه : يجب أن نتصافى دائما ، انا وروميو ، وأن يموت أحدنا فى الآخر حبا .. هذا كل غرضه .. وهويقول دائما ويكرر أن هــذا هو دورنا المقدر لنا الى الأبد ، ويجب ألا نخرج عنه قيــد أنملة .. وهذا بالطبع قول مجانين .. ولا يمكن فى أى حيــاة زوجية أن يستمر هذا طويلا ، كيف تريد منى هذا المجنون أن أتغنى طول الأبد باسم روميو كما كنت أتغنى به قديما ليلة قلت :

ان الوردة اذا تغير اسمها لما كفت عن نشر شذاها الحلو وعطرها .. كذلك روميو لو غير اسمه لما انفصلت عنه شخصيته الكاملة ولا صفاته الساحرة !.. لا أستطيع أن أقول ذلك اليوم عن زوج يضايقنى بملاحظـــاته السمجة . اليك مثلا بسيطا ... لقد حدث منذ وقت ليس بالبعيد أن صعدت الى الآخرة امرأة مولعـــة بالأناقة ، قيل انها ماتت من السكر فى حفلة ساهرة.. ولقد رأيت فى قدمها حـذاء بكعب عال عجيب الطراز فاحتلت حتى حصلت عليه ، ووضعته فى قدمى . فصاح بى روميو ساخرا : « مرحى بجولييت ، زهرة(فيرونا) النقيـــة ، وسليلة آل كابوليت .. لقد انقلبت غانية من غانيات باريس المتهتكات ! » .. فلم أتمالك من الغيظ ، ونزعت « فردة » حذاء رميت بها روميو .. ولكنـــه انحرف عن مرماها فأصابت صلعة شكسبير !..

ـ يا له من ضحية !..

ـ من ؟ .. روميو ؟..

ـ لا .. بل ..

ـ عفوا .. هذا روميو قد اقترب .. ولن يتركنى بغير تنغيص .. أنصح لك أن تطلب محادثتى فى وقت

آخر .. اسكت يا روميو .. لا .. انى لم أتحدث عنك بخير ولا بشر .. انك سمعت اسمك خطأ .. تقــول انى كاذبة ؟. بل أنت المغرور السخيف .. اذ تعتقـد أنى لا أجد موضوعا غيرك أتحـــدث فيه .. آه ! لكم أتمنى الخلاص منك .. متى يقولون : « جولييت » فقط دون أن يلصقوك بى .. جولييت بدون روميو .. متى ذلك .. متى ؟ انك « لصقة » .. لصقة ثقيــلة ! .. لصقة أبدية !..

# مع جان دارك

ضغطت العصا على زر الجهاز وطلبت « جان دارك » .. فسمع صوت يقول :

ـ أنا جان دارك ...

ـ القديسة ؟

ـ ما قصدت أن أكون قديسة ، ولكنى قصدت أن أطرد الانجليز من أرض وطنى فرنسا ..

ـ أنت أيضا ؟ ومنذ خمسمائة عام ؟.. كل انسان يريد أن يطرد الانجليز من أرض وطنه !.. هــذا الطاعون المنتشر فى الدنيا من قرون .. متى يجلو عن أراضى الناس ؟ !

ـ هل أنت فرنسى ؟ !

ـ لا يا سيدتى

ـ أنت اذن محظوظ يا سيدى

ـ لماذا ؟ . .

ـ لقد كنت أنا فرنسية .. وطردت الانجليز ، فحرقنى الفرنسيون حية !..

ـ كانت غلطة لا تغتفر !.. ندم عليها الفرنسيون فيما بعد وحاولوا أن يكفروا عنها بأثواب البطولة والوطنية التى أسبغوها عليك .. ألم تشاهدى من عليائك ذلك التمثال الرائع الذى نصبوه لك فى أفخم ميادين باريس .. يمثلك فى دروع الحرب ، منتضية السيف ، ممتطية جوادك المطهم ؟

ـ بلى .. رأيت ذلك وصدقته ، ولكن ما قولك فى نابليون الذى جاءنى هنا فى العالم الآخر يحيينى ويقدم الى نفسه ويقول لى باسما : « مصيرى مصيرك .. والفرنسيون هم الفرنسيون ! » . لقد كان يبكينى هذا الرجل وهو يروى لى قصته ، فى نبرة حزينة ، تلمع فيها السخرية ، كما يلمع البرق فى السحابة القاتمة .. روى لى خبر ذلك المجد الذى عقده على جبين وطنه .. وذلك النصر تلو النصر الذى جعل من فرنسا غولا أفزع الانجليز وحد من شهوتهم للسيطرة ، وهدد

خطتهم المرسومة للتوسع والانتشار فى كل البقاع ..
فأقسموا سرا أن يؤلبوا عليه الثعالب والضباع لأن هذا
الأسد الانجليزى أجبن من أن يخرج للصيد بمفرده
فهو يهجم بهيبته ، ويجعل الآخرين يهجمون بالمخلب
والناب ، فاذا وقعت لهم الفريسة ، كان له منها نصيب
الأسد وللأعوان ما ينبذه السيد المهاب .. ونجـــح
الانجليز آخر الأمر لأن كثرة الأعوان تغلب شجاعة
الفرد .. وهزم نابليون .. وانتظر من أمته أن تضمه
على الأقل الى أحضانها .. وأن تقـول له : لقد أديت
واجبك أيها الابن البار .. وآن لك أن تستريح على
صدر أمك فرنسا .. معززا مبجلا كما يفعل الانجليز
بأبطالهم !. ولكن فرنسا كعادتها قدمته غير معزز ولا
مبجل الى أعدائه الانجليز .. فألقوا به سجينا مهانا فى
جزيرة مقفرة !. وهو مصير كنت أخشاه على نفسى ..
لقد تبين لى عند محاكمتى أن بعض التراجع منى والتلطف
فى الأقوال كان خليقا أن يبدل الحكم من الحـرق الى
السجن .. ولكنى فضلت الحرق .. لأنه ليس أشق
على النفس من أن تعيش طويلا وهى ترى جحود الوطن!

ـ وطنك فرنسا اليوم غيره فى الماضى .. انه اليـوم
على الأقل يفهم معنى العدالة !..

ـ العدالة !.. كدت أصدق ذلك .. لولا أن جاءنى منذ شهور وزير فرنسى يدعى « لافال » .. قال لى ان أهل وطنه الفرنسيين أعدموه ، لأنه كان عدو الانجليز اللدود .. وكانت محاكمته خزيا سوف يلصق بالقضاء الفرنسى الى قرون ... كان قضاته يعرفون قبـــل أن يتخذوا مجالسهم من المنصة أنهم سيقتلونه .. وكانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم كلما هم بالدفاع عن نفسه .. لطالما جأر المتهم بالصياح فى القاعة قائلا لقضاته أو على الأصح جلاديه : « اصغوا الى دفاعى .. ثم اقتلونى اذا شئتم .. فمادمتم تريدون موتى باسم العـــدل .. فليكن هنالك على الأقل عدل ! » . ولكنهم فى الحقيقة كانوا يريدون موته وكفى .. أما العدل فلا شأن لهم به .. ولقد روى لى فيما روى خبـــر المارشال بيتان أحد أمجاد فرنسا الخالدين ، وابن من أبنائها المخلصين .. هذا الشيخ الوقور الذى جاوز التسعين وآثر مواجهة الكارثة مع أهل بلاده على الهرب والراحة والانزواء فى بلد أجنبى محايد بعيد عن أخطار الحروب .. كفى أن يغضب الانجليز على سياسته التى بناها على مصلحـــة بلاده وحدها دون مصلحة الانجليز ، ليدفع بهذا القائد العسكرى الهرم أمام محكمة تذل كرامته وتهين سنه ،

وتشوه ماضيه ، وتمحو مجده ، وتصدر حكمها المبيت عليه فتجرده من شارات بطولته ومن رتبه العسكرية ، وتأمر أن يلقى الى آخر عمــــره الواهن الضعيف في جزيرة جرداء ، رطبة الهواء ، موحشة مقبضة ليس فيها من أصوات غير صرير الرياح وعصف الأنواء .. كلا .. لقد صدق نابليون يوم قال لى : « الفرنسيون هم الفرنسيون ! » نعم .. انهم هم دائما .. قلمـــا يتغيرون !

ـ انهم ليسوا من فصيلة « الأقوياء » !..

ـ ربما كان هذا صحيحا .. والا فبماذا تفسر تكرار هذه الحوادث على مر التاريخ :.. فرنسا وحدها هى التى تقوم فيها أمثال هذه المحاكمات والمجازر لأبنائها بوحى من أعدائها المتفوقين أو الأقوياء .. فرنسا ومن على شاكلتها فى النوع والفصيلة من أمثـــال ايطاليا .. التى أعدمت وشوهت ومثلت بابنها ومصلحها «موسولينى» .. تلك أشياء قلما تحدث فى ألمانيا أو فى انجلترا ، بل قد يدهشك كما أدهشنى أن تعلم ما قاله لى « لافال » : ان فرنسا المحتلة بالألمان ، كانت تتخاذل فى كل يوم الى حد الرغبة فى الاندماج فى الغالب .. هل تتصور أن أكثر من مائة ألف فرنسى طلبوا فى أيام الاحتـــلال

الألماني القليلة لفرنسا أن يتجنسوا بالجنسية الألمانية ؟ !

ـ يا للعجب !.. ولقد احتل الانجليز أرض مصر ما يقرب من سبعين عاما فلم نسمع بمصرى واحد طلب التجنس بالجنسية الانجليزية !..

ـ لا يدهشني ذلك من مصر ولا من الشرق .. أرضكم كانت مهبط الآلهة والأنبياء والقديسين .. أنتم الفصيلة الأولى « لأقوياء النفس » !

ـ ألم تؤمني حقا وأنت على الأرض بأنك قديسة ؟

ـ قلت لك لست أدرى .. كل ما أذكر أنى كنت فتاة قروية لا أقرأ ولا أكتب .. وكنت أسمع من والدى ومن أهل القرية أن أعداءنا الانجليز يحتلون أرض فرنسا .. وبينما أنا أرعى الأغنام وأعود بها ذات مساء سمعت صوت القديسة كاترينا تأمرنى باسم الله الذى فى السماء أن أترك القرية وأذهب مع الجيش لأخلص حصن « أورليان » من أيدى الانجليز ، لأن فى خلاصه خلاص فرنسا .. وأن أتوج « الدوفين » فى مدينة « رانس » ملكا على شعبه .. فصدعت بالأمر وقمت الى العمل .. ولم أتركه حتى أتممت ما أمرتنى به السماء !..

ـ أحقيقة أنك مت عذراء ؟ كما يقول التاريخ ؟

وأنك تركت الدنيا ولم تضمى الى صدرك رجلا ؟

ـ ما كدت أبلغ سن الحب ، حتى ألقيت بجسمى فى صدر حبيب .. ضمنى ضمة أحرقتنى .. ذلك هو « وطنى » !

ـ يا له من حب قاس فظيع !.. أما كنت تفضلين ضمة شاب تلهب قلبك ولا تؤذى جسمك ! ؟

ـ الآن ربما فضلت ذلك !.. ما من عقاب ينزله القدر بامرأة أفظع من أن يميتها « عذراء »

ـ لعل تلك هى تضحيتك الكبرى !

ـ نعم تلك هى تضحيتى الكبرى !.. لن أغتفر لفرنسا ذلك .. كل شيء أنساه الا هذه .. بعد كل هذه القرون والأزمان ، ما زلت أردد فى وحدتى : لا يؤلمنى يا فرنسا أنى مت من أجلك حرقا .. ولكن يؤلمنى أنى مت من أجلك «عذراء» !.. وان كنت أقبل من الكنيسة لقب « القديسة » فمن أجل هذا السبب وحده !..

ـ لقد اتهموك فى المحاكمة بأنك زنديقة وأنك محتالة وكاذبة وأنك لم تسمعى أقوالا خارقة ! هل قابلت فى الآخرة القديسة كاترينا ، وتحققت من انها هى التى حادثتك بتلك الأصوات ؟..

ـ بالطبع قابلتها وسألتها .. ولكنهـــا قالت لى انها لا تذكر .. فهى تتحدث فى السـماء كثيرا ... ولا يستبعد أن يكون صوتها قد وصل الى سمعى عفوا ذات مساء ! لا شك عندى الآن أن الصوت صوتها .. أما أوامرها الحربية والسياسية فربما كان ذلك من خيالى.. لأن القديسة « كاترينا » لا تعرف شيئا عن الانجليز ولا عن « أورليان » ولا عن « الدوفين » !

ـ أو يمكن لأصوات القديسين فى الآخرة أن تصل الى آذاننا عفوا فى الأرض ؟ !

ـ ولم لا ؟ أليست أصواتا ترسل فى الفضاء فيلتقطها « القلب » المستعد لذلك .. لقد حدث هـذا لكثيرين بعدى .. وما ها هنا موضع الخطورة ، انما الخطر فى أن يعلم الناس أنك سمعت هذه الأصوات ، فهم عندئذ لن يسمحوا لك بغير واحد من أمرين : اما سلكك فى عداد المجانين، واما دفعك الى الحرق حيا .. هكذا جرى حكم الناس: من سمع صوت السماء حرمت عليه أصوات الآدميين

ـ وكيف أخاطبك أنا الآن بهذا «التليفون» وأسمع صوتك وصوت غيرك من سكان السماء ؟ !

ـ وهل يعرف الناس عنك ذلك ؟

ـ طبعا .. لأنى أنشره عليهم

ـ ألم يحرقوك حيا ؟

ـ لا ...

ـ ألم يحسبوك فى المجانين ؟

ـ ربما حدث هذا منذ زمن طويل دون أن أدرى..

# مع جحا

ضغطت العصا على زر الجهاز وطلبت جحا .. فجاء صوت ساخر يعلن :

ـ أنا جحا ... من ينادينى ؟

ـ القاهرة ...

ـ القاهرة بلدى المحبوب ؟

ـ بلدك ؟ وكيف يسمونك « جحا الرومى » ؟

ـ الرومى ؟.. هى مصيبة يا سيدى من مصائب الدهر التى ابتليت بها .. كلما سرت خطوة نسبونى الى أمة .. فأنا من الأروام والأعجام والشوام ... حتى الأتراك !.. ولكن الله يشهد أنى ما ولدت الا فى حارات القاهرة .. بمرحها الحلو ونكاتها الرائعة .. ولكن ماذا تقول فى نكد الدنيا الذى يأبى الا أن يرزأنى بثقيل بعد ثقيل لا يحلو له غير التسمى باسمى .. خذ

مثلا ذلك التركى « الغشيم » المدعو نصر الدين خوجه .. لو رأيت سحنته وسمعت لهجته ولكنته لاستعذت بالله ! ومع ذلك تجده يشيع عن نفسه أو يجد من يشيعون عنه أنه هو « جحا » .. لقد قابلته هنا فى الآخرة ، وتشاجرنا وتشاتمنا وتطاول على بقوله انه هو معلم وفيلسوف ، أما أنا فمضحك ومهرج .. فصاح به أهل الآخرة يسكتونه بقولهم : « ليس للفلسفة فى الآخرة معنى ولا مكان، انما المكان الأول فيها للمرح»

ـ أو تمرحون كثيرا فى الآخرة ؟

ـ نحن لا نفعل غير ذلك .. والقوم هنا يحبوننى حبا جما .. لأنهم يتسلون كما كانوا يفعلون فى الدنيا بتداول النوادر يؤلفها بعضهم فى بعض .. ويصدرونها بالعبارة المألوفة : « يحكى عن جحا .. »

ـ عجبا ! .. أو لست أنت مؤلف نوادرك فى الدنيا ؟

ـ حاشا لله يا سيدى أن أكون مؤلفا أو ملفقا .. ولو أنى ألفت من رأسى هذه النوادر لما حفل بها الناس .. انهذه النوادر تضحك الناس لأنهم هم الذين يصنعونها

ـ ما هذا التواضع منك ؟

ـ بل انى أقول الحقيقة : الدليل على أنها من صنع الناس أنها مثلهم فيها الجيد والردىء ، والظريف

والسخيف ، وهى كلهـا تعيش وتتداول ، بعجـــرها وبجرها ونفيسها وتافهها ، من عصر الى عصر ، ومن مكان الى مكان ، ومن بيئة الى بيئة .. كأنها النـــاس أنفسهم بجمعهم وخليطهم .. وانهم ليسبحون فى بحر الدهر والأجيال ، رافعين بيمناهم فوق رؤوسهم كتاب نوادرهم !..

ـ تريد أن تقنعنى بأن هذه النوادر لم تقع لك ؟

ـ يقع لى كل هذا ؟ أنا وحدى؟ أهذا ممكن الحدوث؟ لقد تزوجت فى هذه النوادر مئات المرات ومت ودفنت مئات المرات على مختلف الصـــور والاشكال ، وكنت الرجل الطيب والرجل العبيط، واللص والمحتال،والكريم والبخيل ، والسمين والنحيل ، والموسر ، والفقـــير ، والفظ واللطيف والعاشق والمنافق والخادع والمخدوع ، والعاقل والمجنون ، وكل ما يوجد فى الخلائق من صفات وعيوب ومناقب وذنوب ..

ـ وما وضعك اذن فى هذا الأمر ؟

ـ حائط يا سيدى .. ما أنا الا حائط قائم فى الطريق العام بين جموع الناس .. كل من جادت نفسه بحكاية رفيعة أو وضيعة ، مسحها فى وألصقها بى

ـ أو يرضيك هذا الوضع ؟

ـ وهل يستطيع الحائط أن يرضى أو يكره .. أو يمسك بتلابيب من يخط على صدره كلمة أو يعلق على سطحه ورقة ؟

ـ وما الذي جعل منك حائطا للناس دون خلق الله ؟ !

ـ اتساع صدري للنكتة الجيدة يا سـيدي ! وحبي للمرح وتستري على أول كاذب جبان لينسب الي ما شاء .. وان ضحكي وقبولي للنكتة الرائقة اضـطراني أن أقبل الى جانبها مئات من النكات السـخيفة ، دون أن أستطيع البصق في وجوه قائليها !

ـ لو علمت كيف يستخدم اسمك لترويج النوادر ؟

ـ لا يدهشني ذلك .. فهنا في الآخرة ينسبون الي أيضا كل نادرة يراد ترويجها !.. لقد أراد زنديق أن يسخر من رضوان فسمعته يتحدث في النـاس قائلا : « يحكى عن جحا أنه أراد مغافلة رضوان ودخول الجنة خلسة .. فتقدم اليه في لحظة اغفاءة وقت الظهيرة وقال له : اسمح لي يا سيد رضوان بأن ألقى نظرة من الباب على صديق لي في الجنة . فسمح له وهو على العتبة ، ثم صرفه .. فذهب جحـا ثم عاد وقال له : نظرة أخرى

على صاحب قديم آخر !. فأذن له رضوان ثم صرفه .. فذهب جحا ثم عاد يطلب مثل ما طلب .. وتكرر الأمر حتى ضاق به رضوان ذرعا .. فصاح به : « لقد خيلتني يا هذا ! كلما فتحت عيني وجدتك بالباب ، اما أن تدخل واما أن تخرج ! » . فسرعان ما قال جحا : « أدخل ! » وبادر بدخول الجنة !.. هذا يا سيدى مثل مما يروجه الخبثاء والظرفاء ها هنا ..

ـ تلك نكتة قديمة شائعة هنا في الدنيا ..

ـ لم أسمعها وربك الا هنا في الآخرة من زمن قريب !.. لعل مشيعها هنا رجل جاءنا أخيرا من أرضكم !..

ـ اذن أنت تسمع أيضا بأحدث نوادرك في الأرض بعد موتك !

ـ حقا .. ولعلى الميت الوحيد الذى لم يحل الموت دون استمراره في العمل !.. نوادر جحا تظهر في كل عام، ورفاتي في قبرى قد أكله الدود من مئات الأعوام! ولكن الغريب أن يأتى الى العالم الآخر قوم صعدوا حديثا يقصون على بعض هذه النوادر ، فاذا ضحكت لظرافتها وظرفها تعجبوا وقالوا لى : « لكأنك تسمعها

لأول مرة » ما من أحد يريد أن يصدق أنى لست أكثر من زبون ضمن ملايين الزبائن المعجبين بنوادر جحا ؟ !

ـ ما رأيك فى أهل السماء ؟ !

ـ رأيى أنهم يمتازون كلهم بخفة الروح !. ذلك أن أصحاب الأرواح الثقيلة لا يصـــــعدون الى أعالى السماء .. فهم كلما جاهدوا ليصعدوا الينا .. جذبهم ثقل أرواحهم الى أسفل، فهم يتركون الأرض ،ولكنهم يظلون معلقين بذيل السماء !.. وهذه يا سيدى نعمة كبرى من نعم الآخرة

ـ فى الحق انها لأكبر نعمة أن يتخلص الانسان من عالم الثقلاء ويعيش بين أصحاب الأرواح الخفيفة !.. ان المرح اذن هو دستوركم !..

ـ قل انه هواؤنا وطعامنا وشرابنا !..

ـ ما أسعدكم !..

ـ نعم .. ما أسعدنا !.. ولقد زالت هنا فوارق اللغة والجنس فنحن جميعا متفاهمون لنا لغة واحدة وادراك واحد وشعور واحد : المرح !..

ـ عندما طلبتك الساعة من كان معك من الاخوان ؟

ـ كان معى شخص جاء أخيرا من الدنيا ، ما كاد

يضع قدمه فى عالمنا الآخر حتى جعل يبحث عنى ، فلما اهتدى الى عانقنى وقال انه كان يسمع بى فى الدنيا ،وانه كان يعجب بالشرق من أجلى ، وقد سألته عن اسمه فقال : « جورنج »

ـ « جورنج » الزعيم الألمانى ؟

ـ لست أدرى .. كل ما أعلم انه روى لى أنه مات منتحرا ساخرا من أعدائه ، وقد قال انهم حاكموه فى قضية أشبه بقضية « جحا والأوزة » .. فسألته عن هذه النادرة الجديدة ، فقال : عجبا كيف لا تعرفها أنت ؟.. يحكى عن جحا أنه ذهب الى الفرن بأوزة فى صينية يريد انضاجها لعشائه .. فمر بالفرن قاضى البلد وشم رائحة الشواء ، فأمر الفران أن يحمل الصينية الى منزله .. فلما حضر جحا وطلب الأوزة المشوية قال له الفران ان الأوزة طارت من الصينية .. فلم يقتنع جحا بالسبب وقاد الفران الى قاضى البلد وبدئت المحاكمة ، وتربع القاضى فى صدر الجلسة .. والتفت الى الفران يسأله عن الموضوع .. فقال الفران : « هذا الرجل المسمى جحا لا يصدق أن الاوزة طارت من الصينية !.. » فتنحنح القاضى وهز رأسه أسفا ثم تجشأ برائحة الاوزة المهضومة فى معدته وقال :

يا للكفر ! يا للزندقة ! يا للالحاد ! ألا تعـــرف أيهـــا الرجل أن الله قادر على كل شيء وأنه يحيى العظام وهى رميم ! حكمت المحكمة بعشرة قروش غرامة على المدعو جحا ، لانكاره مقدرة الله على الاتيان بالمعجزات ! » . .
هكذا روى لى « جورنج » القصة وختمها باسما بقوله : لقد عقدت فى مدينة « نورمبرج » محكمة كهـــذه . . كان القاضى فيها « الحلفاء » والفران « ايطاليا » وجحا « جورنج » والأوزة « ألمانيا » . . !

ـ لن يقف الأمر عند هذا الحد . . سوف ترى فى نوادرك تجديدا فى الأعوام القادمة . . فالزمن قد تغير . . ولم يعد السوقه والعوام صالحين للسخرية والنكات . . بل الساسة ومن يصفونهم بالرجال العظـــام ! غدا تسمع من يقص عليك :

« يحكى عن جحـــا أنه كان ذات يوم فى مجلس الأمن . . »

ـ مهما يكن المكان الذى تذهبون بى اليه ،والموضوع الذى تحشروننى فيه والأشخاص الذين تجعلوننى بينهم فانه يبدو لى أن مغزى نوادرى القديمة قلما يتغير !. .
ـ صدقت فى هذا . . ومن أجل هذا كان خلودك فى الأرض وكانت عظمتك !. .

ـ عظمتى !.. هذه أول مرة أسمع فيها هذا الوصف يسبغ على

ـ أرجو ألا يسوءك هذا

ـ بالطبع لا يسوءنى هـــذا .. لأنه يضحكنى .. ماذا كان يحدث لو أنكم ألبستمونى رداء العظمة ولو يوما واحدا .. قبل أن أموت ؟ كنت نظرت الى نفسى فى المرآة ، وهمست مختالا : جحا العظيم !.. ثم خشيت أن أنزل بردائى الى الحارة لئلا يجرى خلفى الصـــبية والغلمان !. كلا .. رداء العظمة فوق منكبى جحا فى الدنيا شىء يضحك الناس .. وربما سمج فى نظرهم.. وبعد عن قلوبهم .. فالناس لا تحب الا من تجرد لهم عن رداء التكلف والترفع ، ولم يشعروا بعظمته حاجزا عاليا يقف بينهم وبينه !

الحمد لله انى مت قبل أن يشوه نفسى ذلك الرداء !

# مع قاسم أمين

ضغطت العصا على زر الجهاز ، وطلبت قاسم أمين . . فسمع صوت يقول :

ـ أنا قاسم أمين . . من يخاطبنى ؟

ـ هنا القاهرة

ـ القاهرة !. البلد الذى تمنيت أن أرى نساءه قد خلعن البراقع السوداء وطرحن « اليشامك » البيضاء ؟

ـ لماذا كنت تريد لهن ذلك ؟

ـ ألا يزال ذلك محتاجا الى ايضاح ؟ أما زلتم تتساءلون عن أسباب دعوتى ، وتتناقشون فى أغراض مذهبى ؟ الى متى أيها الرجال تفرضون على المرأة الحرب وتجعلونها حبيسة الجهل قعيدة البيت ؟. دعوها حرة كى تتلقى بعض العلم فى المدرسة، واتركوها تسفر عن وجهها قليلا . . حتى يذهب عنها بعض ذلك الحياء

الذى تتعثر فيه .. أتوسل اليكم من عالمى الآخــــر أن تسمحوا للنساء أن يكشفن عن ..

ـ عن ماذا ؟

ـ عن وجوههن ..

ـ عن سيقانهن ؟

ـ وجوههن ... وجوههن ... ألا تسمعون صوتى جليا من الآخرة ؟ !

ـ وأنت هل تسمع صوتنا جليا من الدنيا ؟ !

ـ نعم .. أسمع .. تكلم ..

ـ لقد كشفن عن سيقانهن !

ـ وجوههن ؟

ـ أقول لك « سيقانهن » .. ألا تصدق ؟

ـ هذا مستحيل !.. أعد على الكلام .. كشفن عن ماذا ؟

ـ عملنا بنصيحتك وسمحنا لهن بالكشف عن وجوههن .. فلم يكفهن ذاك فكشفن عن نحورهن وأذرعهن .. حتى وصلن الى سيقانهن .. ولسنا ندرى ما ستكشف عنه الأيام ؟ !

ـ وهل يظهرن كذلك فى الطرقات ؟

ـ طبعا . أما فى السهرات فالكشف عن الظهور والصدور مسموح به .. وأما فى « البلاج » والبحار فالكشف عن الأكتاف والأفخاذ مباح ..

ـ ماذا أسمع ؟.. هل جننتم ؟

ـ لا بل نحن فى أتم قوانا العقلية .. ننفذ دعوتك على خير ما تتمنى .. يضع الزوج ذراعه فى ذراع زوجته نصف العارية فى ثياب السهرة ، ويذهبان الى السهرات الليلية فى الحفلات « الخيرية » أو « التكريمية » .. حيث تتلاصق الأجساد ، وتذوب الأكباد على نغم « الجازبند » الذى يعوى عواء الذئب الجائع فتنهض الأذرع لتلتوى على الخصور ، والشفاه تنحنى لتمس النحور .. وينبغى ألا تتساءل : فى أى الأحضان وقع نصيب زوجتك أو أختك أو بنتك .. فقانون الرقص كقانون القضاء لا تمييز فيه ولا رد له .. فاذا كنت أبا أو زوجا أو أخا وأردت أن تناقش امرأة أو عذراء فى ذلك .. أو خطر لك أن تقف فى وجهها قائلا : «لا خروج الى هذا الحفل أو ذاك .. » ، فانك تسمع هذه العبارة يلقى بها فى وجهك : « متأخر !.. أين قاسم أمين يدافع لنا عن حريتنا ؟ ! »

ـ أنا ؟ !

ـ نعم أنت .. اسمك على لسانهن دائما .. لقد حققنا أملك نحن الرجال ، وأدخلنا المرأة المدارس الابتدائية والثانوية ، ولكنها أبت الا أن تدخل الجامعة ، فأدخلناها الجامعة وتخرجت فيها طبيبة ومحامية ومدرسة وأديبة وفيلسوفة الخ .. والى هنا لا بأس .. ولكن لا شيء يقف بالمرأة عند حد .. انها تريد أن تكون سياسية وأن تدخل البرلمان ، وأن تكون وزيرة ورئيسة وزارة .. لأن كلمة « البيت » في نظرها أصبحت مرادفة لكلمة « السجن » يكفي أن تقول لامرأة : « مكانك البيت » حتى ترميك بنظرة حارقة ناسفة وتصيح : « تريد حبسي ؟ » فاذا ذكرت لها الأمومة قالت بازدراء : « تريدني مرضعا » !.. لا ترضى بأقل من مناصب الرياسة والقيادة والسيادة .. وسيأتي اليوم الذي يظفرن فيه بما يردن ، ويتركن البيت لنا معشر الرجال لنرضع نحن الأطفال من « البزازة » بألبان النسلة والأوفالتين !. والويل لنا اذا اعترضنا .. فالعبارة المألوفة تصفع وجوهنا : « متأخرون ! أين قاسم أمين يرى وقوفكم في طريق حريتنا ! » ..

ـ ماذا تقولون ؟.. أنا ؟..

ـ أنت الذى أشفق على المرأة من تعثرها فى الحياة .. انها قد حطمت كل السدود التى تفصلها عن الرجل .. لا يوجد اليوم حمام للسيدات على شواطىء البحار .. لأنه لا يصح أن يكون هناك فرق بين النساء والرجال .. فمن أراد اقامة فاصل بين الجنسين تعرض لنقمتهن واعتبرنه خادشا لكرامتهن .. انهن والرجال سواء .. اذا سبح رجل فى بحر وجب أن يسبحن معه ، واذا دخل ملهى لا بد أن يدخلن معه .. واذا دخن كان لهن أن يدخن ، واذا احتسى الخمر كانت الخمر لهن حلالا .. واذا لعب الورق كان القمار بغيرهن سخافة ، والمائدة الخضراء بغيرهن عتمـــة وسواد .. ما من رذيلة يأتيها الرجل الا كانت اليوم للمرأة حقا من حقوقها المكتسبة! فاذا قلت للنساء : مهلا .. مهلا .. هذا لا يصح لامرأة أن تأتيه !.. صحن فى وجهـــك : « كيف يصح ذلك للرجل ولا يصح للمرأة ؟.. فيم التفرقة أيها الرجال ؟ .. ولكنه استبدادكم دائما واستعبادكم لنا .. أين قاسم أمين ينتزع لنا منكم حقنا ويذود عن حريتنا ؟ ! .. »

ـ أنا ؟ أنا ؟.. لا حول ولا قوة الا بالله !

ـ أنت ولا شك كنت تبيح للفتاة أن ترى خطيبها مرة فى حضرة أهلها قبل أن يعقـد القران .. فلتقر عينك

اليوم .. فان هذه الاباحة قد تعدت الرؤية النظرية الى ما تسميه الفتاة الآن حقها فى امتحـــان الخطيب ، فهى لا تكتفى بمرآه .. بل لا بد لها من وقت طويل تنفرد به خلاله وتخرج معه الى النزهة والسينما والحفـــلات والسهرات .. ليتم لها فحصه الفحص الدقيق فى مختلف مناحيه وجوانبه ونزواته ونوازعه .. فاذا بدا لها يوما أنه كان ثقيل الظل فى اختياره رواية سينمائية بطلتهـا « ريتا هيوارث » التى تمقتها .. فانها تخرج خاتم الخطبة من أصبعها وتلقى به فى وجهه .. وتفسخ ما بينهما لأن أذواقهما غير متفقة .. وتمد اصبعها لخاطب آخر يضع فيها خاتما جديدا وتمثل معه قصة الخطبة ردحا من الزمن .. وهلم جرا .. فاذا كنت أبا أو أخا وأردت أن تقول لهذه الفتاة : هذا ليس مشروع تأسيس أسرة ، ولكنه لعب ومغازلة مع الشبان فى صورة علنية مشروعة، أجابتك الفتاة فى الحال : « فى أى عصر نعيش ؟.. أنحن فى القرون الوسطى ؟.. أنحن فى عهد الجوارى والحريم؟ الدنيا حرية .. رحم الله قاسم أمين !.. »

— كفى .. كفى .. فى أى عصر تعيشون أنتم ؟. لا شك أنكم جننتم !. ان ما أسمع عجيب !..

— أليس هذا ما كنت تتمناه للمرأة الجديدة ؟

ـ أنا ؟ أيمكن أن يتصور عقلى ذلك الذى تحكى عنه ؟.. أحدث كل هـذا عندكم فى هذه الفتـرة الوجيزة ؟.. كيف أمكن أن تصبح المرأة لديكم على هذه الصورة فى هذا الزمن القليل .. ان لى رغبة فى أن أبصق فى وجوه ..

ـ النساء ؟..

ـ بل الرجال .. أنتم معشر الرجال القـوامين على هؤلاء النساء .. كيف أرخيتم لهن الحبل حتى انطلقن الى هذا الحد المخيف ، الذى لم يخطر لى على بال ؟.

ـ ماذا نصنع ؟. كلما هممنا بجذب الحبل واظهـار الشدة .. صرخن فى وجوهنا : « رحم الله قاسم أمين! أين قاسم أمين يمنحنا حريتنا ؟. لو كان قاسم أمين حيا لآزرنا وعضدنا ! »

ـ أنا أعضدهن على ذلك ؟ ! الحمد لله انى لم أكن حيا

ـ ماذا كان يحدث لو أنك حى ؟ !

ـ كان يحدث أن يضربننى بنعالهن !..

ـ واذا رأيت نعالهن اليوم أيضا لهالك الأمر وبلغ منك العجب ! فبعضها له كعب دقيق عال كحافر المعزة .. وبعضها له نعل سـميك كأنه دبابة .. والبعض

يكشف عن مؤخر القدم ، والبعض يكشف عن مقدمها .. لأن جوارب « النايلون » يجب أن تظهر للعيـان ويجب أن تعطى الفرصة لتتمزق ويدفع فى أمثالها باهظ الأثمان

ـ أو لم يزل اسمى مقرونا بهذه المساخر ؟ !

ـ بالطبع .. اذا قالوا : « المـرأة الجديدة » قالوا : « قاسم أمين » !

ـ وما العمل ؟ أما من طريقة لاظهار تنصلى ...

ـ تنصلك من ماذا ؟ من هذه الحركة النسـوية ؟ مستحيل !

ـ أرجو منك !.. أنت رجل طيب فيما يلوح لى وقد تفضلت فخاطبتنى وبينت لى ونبهتنى ..

ـ لا يا سيدى .. لا تأمل فى ذلك .. تنصلك الآن من أصعب الأمور ..

ـ افعل ذلك من أجلى .. من أجل الحقيقة والتاريخ .. من أجل رجل مسكين .. استغلوا اسمه فى كل موضع ..

ـ وماذا تريدنى أن أفعل ؟

ـ أعلن الى الناس عن لسانى أنه لا علاقة لى بهـذه الحركة ..

ـ وهل تظن أحدا يصدقنى ؟.. لو تكلمت باسـمك وقلت: انى خاطبتك وتلقيت عنك هذا الاعلان، لأدخلونى توا مستشفى المجاذيب

ـ وما الذى تراه لى اذن ؟

ـ سلم أمرك الى الله !.. فلست أنت أول ولا آخر رجل يلصق اسمه على أشياء هو منها براء .. اعتبـر نفسك طابع بريد .. أيمكن أن يسأل ذلك الطابع عما يلتصق به من رسائل ، قد يكون فيها ما ينذر بالكوارث والدواهى ؟ !



# الآخرة لأهلها

أرادت العصا أن تمضى فى الضغط على الزر، وتطلب من تختار . . ولكنها ترددت قليلا . . والتفتت الى وقالت:

ـ أظن من سلامة الذوق وحسن الأدب أن أترك لك حرية الاختيار تبعا لمشيئتك أنت ، ولو لحظـــة . . ما قولك فى أن تضغط أنت على الزر وتطلب من تشاء ؟ ربما كان لك فى الاختيار مأرب تحب أن تحققـــه أو مقصد ترى أن تسعى اليه . .

قلت :

ـ حقا أريد أن أعرف أمورا تهمنى معرفتها من بعض سكان العالم الآخر . . أتأذنين لى فى الدنو من الجهـاز لأطلب من أريد ؟ . .

قالت العصا :

ـ تفضل ! . .

فاقتربت فى الحال من الجهاز ، وضغطت على الزر ، وطلبت « طاغور » . . وانتظرت لحظة مضطرب الأنفاس مرتعش اليد . . واذا صوت يبدو لأذنى جليا عميقا :

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ طاغور ؟ الشاعر الهندى والقطب الروحانى ؟ لقد فارقت دنيانا منذ أعوام قليلة . . أخبرنى ماذا تصنع عندك الآن فى مقامك الأزلى ؟

ـ أو تريد هكذا بلا ثمن أن أخبرك بأشياء كلفنى العلم بها أن أموت . .؟

ـ كنت فى حياتك تجهد لتعلم غيرك ، فما يضيرك فى مماتك أن تعلم الناس أيضا ؟ . .

ـ لكل دار علومها ودروسها ، هل كنت وأنا على الأرض أعلم الأموات ؟ . . كيف تريدون منى الآن بعد الموت أن أعلم الأحياء ؟ علوم الدار الأرضية لا يفهمها غير أهلها . . وعلوم الدار الآخرة لا يدركها غير أهلها . . مت أولا فتفهم عنى بعد ذلك الجواب عن سؤالك !

وانصرفت روح طاغور عن الجهاز ، شأن من يضع السماعة وقد انتهى الحديث . . وتركتنى كما كنت

قبل .. لم أفز بطائل .. وجعلت أقلب الأمر فى نفسى،
ثم قلت للعصا : مالى ولشئون الأرواح .. وما يجرى
فى العالم الآخر ؟. فلأقصر همى على عالمنا الحاضر ..
وأفكر فى مستقبل حياتى المادية .. انى رجل لا أنجح
فى أى عمل مالى .. وكلما وضعت مدخرى القليل فى
تجارة كسدت باذن الله أو بفضل خيبتى الباهرة ..
لماذا لا أستعين بخبرة محنك فى أمور المال مثل المليونير
الأمريكى « فورد » ملك السيارات ؟ فلنطلب روحه
ونسألها العون والمشورة .. وضغطت على الزر مرة
أخرى وطلبت روح « هنرى فورد » فحضر قائلا :

ـ من ينادينى ؟

ـ أنا .. شخص لم تعرفه قط .. يلتمس توجيهك
ليصبح ثريا ...

ـ افتح مصنعا للسيارات ..

ـ هذا مستحيل .. انى لا أفهم فى هذه المسألة
شيئا ..

ـ وأنا لا أفهم خارج هذه المسألة شيئا ...

ـ انى لا أعرف كيف أقود سيارة ، بل دراجة ..
وكل ما عندى من رأس مال بضع مئات من الجنيهات ،
وأريد أن أصبح بها مليونيرا بفضل نصحك وارشادك ،

والا فما فائدة أرواح العظماء أمثالك ؟..

ـ لو كانت روحى .. أنا وأمثالى تستطيع أن تجعل من كل مشترك فى هذا الجهاز التليفونى صاحب ملايين لما أصبحت للثروة قيمة فى أرضكم ..

وانقطع الصوت .. ومضت روح « فورد » لشأنها.. وتركتنى حائرا يائسا .. وقد ضاع أملى فى الثـــراء السريع .. وطفقت أفكر مليا فى استغلال هذا الجهـاز الذى لم أجن منه بعد أى ثمرة .. وخطر لى خاطر فقلت للعصـا : « مالى وللعلم والمال .. هنالك الفن .. انى لم أعالج قرض الشـعر .. فلو طلبت روح المتنبى وسألته أن ينظم لى قصائد من روائع عبقـــريته وأذعتها فى الناس .. ألا يكون هذا عملا جليلا ؟ ! » . فقالت العصا : « جرب ! » فبادرت أضغط على الزر وأطلب روح الشاعر العربى القديم .. فحضر يقول بصـوت فخم ضخم :

ـ أنا المتنبى !..

ـ أهلا وسهلا .. أنا أحد المعجبـين بك ، ألتمس منك قصيدة تصور فيها الحرب الأخيرة كما كنت تصور الحرب فى زمانك !

فانطلق صوت المتنبى ينشد :

وتضحى الحصون المشمخرات فى الذرى
وخيلك فى أعناقهن قلائد

عصفن بهم يوم اللقان وسقنهم
بهنريط حتى ابيض بالسبى آمد

وألحقن بالصفصاف سابور فانهوى
وذاق الردى أهلاهما والجلامد

فقاطعته برفق قائلا له :

ـ هذا وصفك للحرب منذ ألف عام ونيف . . ولكن الحرب الأخيرة شيء آخر . . ان الطائرات والدبابات وقاذفات اللهب وقذائف الصواريخ ، وقنابل الذرة ، تفعل أفاعيل وتحدث أعاجيب لو اطلعت عليها . . .

ـ قنابل الذرة ؟ ما هذا ؟.

ـ شيء يطول شرحه . . انها بالاختصار آلة تلقى من طائرة

ـ طائرة ؟ وما الطائرة ؟: .

ـ مركبة هوائية تحلق فى الجو وبداخلها انسان

ـ عجبا !. عجبا !.

ـ أنت اذن لا تعرف شيئا غير الذى كان فى عصرك! ولن تستطيع أن تصف الا ما شاهدت فى حياتك على الأرض

ـ وكيف أعرف ما لم أره ؟

ـ شكرا لك اذن !..

ووضعت سماعة ذلك التليفون وأنا ضيق الصدر مكروب النفس أنظر شزرا الى ذلك الجهاز ..

واذا العصا تقول :

ـ مالك وهذه المطالب المعقدة ؟. لك صديق مريض بالتهاب الرئة .. حبذا لو استشرت فى أمره طبيبا مشهورا مات منذ سنوات .. فلماذا لا تطلب ذلك الطبيب؟

فضغطت على الزر وطلبت روح ذلك الطبيب فحضر، فقلنا له :

ـ الموضوع يتعلق بحالة التهاب رئوى

ـ ضعوا على صدر المريض لبخة بذركتان ..

ـ ولكنه يعالج الآن فى المستشفى بحقن «البنسلين»؟

ـ « البنسلين » ؟.. ما هذا ؟

ـ علاج جديد ظهر فى زمن الحرب الأخيرة وعولج

به « تشرشل » أكثر من مرة فى حالات خطيرة لهـــذا المرض !..

ـ شيء غريب ؟ ! اشرحه لى ..

ـ أنا لست طبيبا ... وعلى كل حال فنحن لم نطلب حضرتك لنعلمك الطب .. أو نشرح لك أحـــدث مخترعاته ...

وهنا أبعدت السماعة .. فقد قالت العصا :

ـ يظهر أن هذه الأرواح أجهل منا بكثير !..

فقلت :

ـ هذا طبيعى .. وكيف تريدين منهـــا أن تلم بتطورات حياتنا وقد انصرفت عنا الى حياة أخرى ؟. ان أقصى علمها هو ما وقع فى حدود تجاربها الخاصة على هذه الأرض .. أما بعد ذلك فلها حياتها الجديدة التى نجهلها نحن كل الجهل .. ولا تستطيع هى أن تخبرنا بها .. لأنها لا تملك التعبير عنها بأدوات الآدميين ولا باحساساتهم .. ولا تقدر على نقلها الى مداركنا بوسائل البشر ومشاعرهم .. فهم عالم جديد غير عالمنا ، لايعرف فيه السرور ولا الحزن ، ولا الفـــرح ولا الترح ، ولا السعادة ولا الشقاء ، ولا اللذة ولا الألم ، على النحو

الذي نعرفه في هذه الأرض .. لئن كانت الحيــــاة الانسانية تتغير مقاييسها وموازينها وتنقلب رأسا على عقب على سطح القمر القريب منا ، أفلا تريدينها متغيرة التغيير كله في العالم الآخر ؟ !

وأرسلت العصا نظرة الى الجهاز التليفوني وقالت :

ـ وما فائدة هذا الجهاز اذن ؟ !

فقلت لها بعد تفكر :

ـ لست أدري .. ربما كان نافعا للتسلية كجهــــاز لراديو .. فقد يسرنا أن نشــــغل فراغنا بطلب روح شخص من أقربائنا ... أو من أبطال التــــاريخ لنثرثر معه قليلا في أشياء لا طائل تحتها ، وما دمنــا لا نسأله شططا ولا نطلب اليه مستحيلا ولا نلتمس عنده علمــــا أكثر من علمه ، فاننا لن نصاب بخيبة أمل !.. ودعيني أثبت لك ذلك الساعة .. سأطلب روح « نابليــــون » وأرجو منه أن يروي لي حياته الماضية .. وهذا بالطبع أمر لا يمكن أن يجهله ..

وضغطت على الزر في الحال وطلبت روح الامبراطور فحضر وسألته بأدب يليق بجلالته عن حيــــاته الغابرة ، فقال :

ـ أو تحسبني أتذكر تفصيلات كثيرة عن هـــذه الحياة الآن ؟

ـ أحقا لا تستطيع جلالتك أن تتذكر ذلك ؟..

ـ وهل تستطيع أنت أن تتذكر أشياء كثيرة واضحة في حياة طفولتك الأولى ؟..

ـ صحيح.. لكأن ستارا من الضباب يقف بيني وبين أغلب تفاصيلها ..

ـ حياتي في الأرض كذلك .. هي حياة طفـــولة بعيدة .. بعيدة

ـ لقد كتب المؤرخون عنك مجلدات ضـخمة تصف دقائق حياتك ..

ـ أنصح لك اذن أن تكتفي بها .. منها على كل حال تعرف عني أكثر مما أعرف أنا الآن !..

وهنا أومأت الى العصا باشارة من يدها تنـــــم عن الضيق ، أن أطرح السماعة فوضعتها .. فصاحت بي متهكمة :

ـ أرأيت ؟.. حتى ولا الثرثرة معهم كثيرة النفع !

وهنا قمت الى الجهاز فحملته وألقيت به في خـزانة للأمتعة القديمة .. وعدت الى مكاني .. فقالت العصا :

ـ حسنا فعلت !.. فلندع الموتى في دنياهم، والأرواح في عالمهم .. فالويل لهم اذا كنا سننتزعهم من صفائهم العلوى لنقحمهم في مشاغلنا ومسائلنا ونشركهم في جدنا وهزلنا ، ونحملهم همنا وتبعاتنا .. والويل لنا اذا كنا سنعتمد عليهم ونستنيم اليهم ! لعنة الله على هذا الاختراع الذى يريد أن يحدث ثغرة في ذلك السد الذى لا يكسر ، والسور الذى لا يقهر : الموت !.. فيخلط بين بحرين مختلفين في جوهر الماء ومعدن الأحياء .. ويشيع الفوضى بين عالمين ، خلقا منفصلين ! ويجعل أحدهما مسلاة ، والآخر ملهاة !.. وماذا يبقى لنا بعد ذلك من مصير كنا نحسبه أجل من هذا وأقدس .. ومن حياة أخرى كنا نظنها أرفع من أن تهبط الى الاهتمام بسخفنا الفانى وعبثنا الزائل ؟.. ألا أيها العلماء .. اخترعوا في شئون الذرة والقوى الحيوية ما شئتم من اختراع .. ولكن ، بربكم .. اتركوا لنا على الأقل حلمنا الأزلى الجميل وصورتنا المثالية الرائعة عن « الآخرة » !..

# فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

الكتاب القادم

# أبو نواس

## قصة حياته فى جده .. ولهوه

بقلم عبد الرحمن صدقى

نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

حديث رمضان
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ. س. ارمستروتج

كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابى ( جزء أول )
تأليف الزعيم أحمد عرابى

مذكرات عرابى ( جزء ثان )
تأليف الزعيم أحمد عرابى

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

فاطمة الزهراء والفاطميون
تأليف عباس محمود العقاد

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب ( المبتديان ) بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد عنى نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، واكشاك الصحف ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

## وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت ( تليفون ٧٨ـ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى ( الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين )

العراق : السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

اللاذقية : السيد نخله سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

# هذا الكتاب

اعتاد الأدباء منذ القدم أن يجروا على ألسنة الحيوان والجماد خواطرهم الادبية ، وأفكارهم الفلسفية ، ونظراتهم الاجتماعية ، لما فى هذا الاسلوب من تشـــويق القـــارىء ، واثارة لاستطلاعه ، بطريقة شائقة ممتعة

وقد سبق للاستاذ توفيق الحكيم أن أجرى خواطره على لسان حماره ، ولكن حماره لم يكن وفيا فى صحبته ، فقد هجره ، وجرى الى ميدان الســـياسة وانغمر فى السياسيين .
فاستعاض عنه بعصاه ، لأنه وجدها أوفى منه ، واكثر قناعة بحياتها الهادئة المتواضعة ، فجعل يحادثها وتحادثه ، ويفضى اليها بما يجيش فى صدره من شئون الناس والفكر والمجتمع

وهى فى هذا الحديث ليست كعصـا موسى تأكل الحيات والحبال ، بل هى فى سحرها تنفث الحكمة والعبرة والجمال .. وليست مثل عصى الجاحظ ، تستخدم للاشارة فى الخطابة ، او يقرع بها لعامر بن الظرب حين يصاب بالنسيان ، بل هى عصا الحكيم ، تتحدث فى قول كريم ، واسلوب سلس سليم

كتاب الهلال

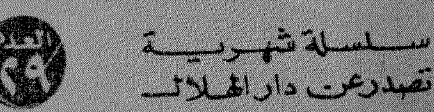
# أبو نواس

## قصة حياته

تأليف

عبد الرحمن صدقي





# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

**العدد ٢٩ ـ ذو القعدة ١٣٧٢ ـ أغسطس ١٩٥٣**

No. 29 — August 1953

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

( المبتديان سابقا ) القاهرة

**المكاتبات**

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشـــتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشاصاغاـ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



**أبو نواس**

بريشة الاستاذ رأفت البحيرى

# أبو نواس

## قصة حياته

تأليف

عبد الرحمن صدقي



توخينا فى وضع هـذا الـكتاب ورسم معالمه وسياقة أجزائه ، منهج التراجم الحديثة من اظهار المترجم له شخصية حيـة ، موصول الرحم بآبائه ، معقود الأسباب بعصره ، يستبان هنا وهناك فى سماته ومتصرفاته عرق الوراثة وأثر البيئة . ولقد أفرغنا وسعنا وبذلنا غاية جهدنا فى الاستقراء والاستنتاج من شتات أخباره حينا ، ومن ديوان أشعاره فى معظم الأحيان ، حتى تهيأ لنا فى ترجمته ما تهيأ من تأسيس البنيان واقامة الاركان ، وملء الفجوات بما يتفق مع منطق الحياة ، دون أن يخلو قول من سند له ، أو ــ على الأقل ــ من مصداق على جواز صحته ، من سير الحوادث فى التاريخ العـام ، وخصـائص الشعوب فى شتى البلدان ، وطبائع الانسان من حيث هو انسان ، فجاءت الترجمة لأبى نواس ــ كما يراها القارىء ــ مطردة السياق متصلة الحلقات ، تنتظم حياته من نشأته الى وفاته مرحلة بعد مرحلة ، مع قلة المراجع فى هذا الشأن وانصراف الأقدمين الذين ترجموا له عن هذا السنن . كذلك كان همنا الاكبر ــ مع تصوير

دنياه وحياته الخارجية ـ تجلية حياته الوجدانية وتطوراته النفسية ، ليتم التركيب وتحصل على قدر توفيقنا المعجزة ، فيعود ابو نواس بعد نيف ومائة وألف سنة الى عالم الحياة بشرا سويا ، كما بقى فى عالم الأدب شاعرا متدارس الشعر متعارف القدر عبقريا

**عبد الرحمن صدقى**



# غرام جندى

كان كل شيء يؤذن بسقوط البيت المالك الأموى وأفول نجمه ، بعد أن بلغت رقعة الملك فى عهد بنى مروان مثل الذى بلغته فى أوج العظمة امبراطورية الرومان ، اذ كانت دولتهم تنبسط من الهند وحدود الصين شرقا الى المغرب الأقصى والأندلس غربا . ولقد كانت العاصفة تهب من كل حدب وصوب . فثمة العلويون شيعة آل البيت الذين لا يرون فى خلفاء بنى أمية الا أنهم غاصبون ، وثمة الشعوب المغلوبة التى يعاملها العرب معاملة السيد للمسود تترقب الساعة لخلع الطاعة ، وهنا قبائل العرب وبطونهم تجيش صدورهم على عصبية قريش واستبدادها من دونهم بالحكم ومناصب الدولة ، ثم الناقمون على السلطان من أفراد الناس وآحادهم لأسباب تخصهم ولا تعنى غيرهم ، وفى غمار هذا جميعه المهيجون دعاة الفتن الذين اتخذوا صناعتهم ايقاد جمرها وتأريث نارها

وفى هذه الفترة كان على عرش الخلافة القائد العالى الهمة مروان الثاني وهو وقتئذ شيخ قد ناهز الستين . وكان مروان ربعة ، ضخم الهامة ، أبيض البشرة ، أشهل (١) العينين شديد الشهلة ، كث اللحية أبيضها . وكان شجاعا حازما ، الا أن الفتوق كانت قد اتسعت قبل ولايته ، فلم يغن فيها حزمه ولا شجاعته . ولم يطل قراره فى دست

(١) أشهل : تشوب سواد عينه زرقة

الملك حتى انتقض أهـل حمص وفلسطين . فأبلى القـائد المحنك فى حربهم وأوقع بهم وأخمد ثائرتهم ، وخرج عليه الخوارج من الغلاة المتعصبين ، واجتاحوا اليمن والحجاز والعراق ، فدارت بينه وبينهم وقائع دامية ، وانتهى بأن ظهر عليهم وأجـلى من كانوا منهم باليمن والحجاز الى حضرموت ومن كانوا بالعراق الى ما وراء دجلة

وطلب مروان بن محمد بعض الراحة والاستجمام فى قصره المحبب اليه فى « حران » . ولكنه كان مع ذلك غير مطمئن الخاطر من ناحية فارس وخراسان ، فأنفذ الجند الى ما وراء دجلة للشحنة والرباط

## حامية الأهواز

كان من الأطراف التى أوفد اليها الخليفة الأموى البعوث لعظم شأنها من الوجهة الحربية ، كورة الأهواز بين البصرة وفارس . وكان من رجالها جندى من غمار الجند شاءت المقادير أن يحفظ التـاريخ اسمه طوال ما غبر من سوالف السنين ، وهو لا محالة حافظه فى مستأنف الأيام الى أبد الآبدين . ذلك الرجل هو « هانىء » . وكل فضله أن المقادير شاءت أن يكون أبا لابنه « الحسن بن هانىء » أحد الأعلام الخالدين من شعراء العربية المجددين

قدم « هانىء » مع سائر أجنـاد فرقتـه الى الأهواز ، وأقاموا معسكرهم فى ظاهر المدينة .. وكانت المدينة تعرف بسوق الأهواز لاجتماع التجارة فيها من النواحى المجاورة ولما يصدر عنها من السكر الجيد المنسوب اليها . ولم يكن بين الجند من ارتاحت نفسه الى هذه النقلة للذى وجدوه من حرها ووخامة هوائها . وقد كان لما حول المدينـة من مناقع المياه الغليظة والسباخ هبوة داخنة متصاعدة ، يقابلها الجبل الصخرى الناصب المطل عليها ، فتنعقد فى الجو وتزيده حرا ووخامة . فاذا أظل الليل واستروحوا بعض البرد فى

جنحه ، لم تطمئن جنوبهم الى المضجع من لسع البعوض فلا جرم يقبل بعضهم على بعض يذمون الأهواز ويبالغون

ولم تلبث الحامية أن تفشت فيها الحمى . ولم يسلم منها « هانىء » فقد أطبقت عليه لا تفارقه ليلا ولا نهاراً . وكانت لا تنزع عنه حتى تعاوده فأشرف على التلف . وقام من علته فى آخر الأمر موصب البدن منهوك القوى ، وظل أياما بعدها وهو فى سياق النقهة ، مأذونا له فى الخروج للنزهة

## نزهة العليل

وكانت سوق الأهواز تخترقها مياه مختلفة . وكان هذا كل ما يستحبه « هانىء » فيها ، لما تذكره به المياه الجارية من مناظر دمشق الشام ، موطنه المحبب ، وحاضرة الملك وقتئذ وقصبة الاسلام . وهو أشد ما يكون انجذابا الى ذلك الوادى العظيم الذى يشق الأهواز ، لا يمل النظر الى مائه الأحمر الزاخر من المدود ، ولا يضجر من جلبة النواعير والأرحاء القائمة عليه . وكان لا يقنع منه بالضفة القريبة ، بل يعبر القنطرة العظيمة عليه ، مستغرقا فى تأمله ، يغوص بنظراته فى طوامى غمرته حتى يبلغ العدوة (١) الاخرى

فى عصر يوم شديد الحر خرج « هانىء » الى النهر ، واطال السير محاذيا له التماسا للنسيم وارتيادا للخضرة. فكانت تتوالى على ناظره من أحد جانبيه خمائل أشجار وشجيرات موقرات بالفاكهة والثمـار ، ثم مزارع الأرز مغمورة بالماء ، حتى اذا أبعد فى المسير انبسطت على مد البصر مغارس قصب السكر قائمة الشطاط كأنها الجيوش الكثيفة اعتقلت الرماح الخطية ، فاذا التفت الى الناحية الأخرى ، ناحية النهر الداكن الحمرة ، امتلأت نفسه روعة وجلالا ، من تدفق عبابه وسرعة انصبابه ، وهو يجرى فى

(١) العدوة : الجانب والضفة

حدود مسيله كالخيل الكمت فى مجاريها ، وموجه يضطرب ويغلى ويموج بعضه فى بعض ويعلو اثباجه (١) من شدة فوره وجيشانه مثل اللغام (٢) من قطع الزبد وطرائق الرغوة ، وقد عج عجيجه وأرتفع هديره

ومضى « هانىء » مأخوذا يطوى الطريق ، وهو فى شغل عن المسافة التى قطعها ، والتى يلزمه فى العود أن يطوى ادراجها ، حتى اذا انقطعت المزارع وتبدل لعينيه المنظر ، ثاب الى نفسه فرأى الشمس جانحة للمغيب ، وطالعته غير بعيد منه قرية صغيرة على سفح ربوة . وأحس وقتئذ بما أصابه من التعب ، فمال الى صخرة يستريح

## لقاء على غير ميعاد

وانه ليلتفت حوله الى ألوان الأصيل على الموج وما ترسمه ظلال الصخور ، اذا بعينه تأخذ شخص امرأة على بعض الحجارة المتقدمة فى الماء ، وهى مكبة على شيء تغسله فى النهر ، وقد شمرت عن ساقيها وحسرت عن ذراعيها ، وهما كالعاج يضيئان من نصاعة البياض ، ولم تكن بدلا كثيرة اللحم ولكنها كانت بضة الذراعين تامة الساقين ، وكان شعرها الأسود المعقوص قد استرسل من الحركة . ولما ان شعرت المرأة بالقادم أزاحت متهدل الشعر عن جانبى وجهها ونظرت الى ناحيته . وكان حسبها هذه النظرة لتعرف من هيئته وبزته أنه لابد من أجناد الحامية العربية . ولم يكن هانىء يشارك الجند فى خشونة الطباع والسرعة الى التقحم والاجتراء ، فلم تجفل المرأة منه وأخذت فيما كانت فيه ، وهو يلاحظها ويديم النظر اليها معجبا ببياضها وملاحة حركتها . ولعل ذلك ازدهاها ، فقد جعلت تخالسه النظر فى الحين بعد الحين ولا تمنعه أن تلتقى عيناهما . وقد وقع

(١) اثباجه : أواسطه وأعاليه (٢) اللغام : زبد أفواه الخيل

ـ ولا شك ـ فى نفسها قوامه وشاربه المفتول ووجهه الأسمر الذهبى تحت عمامته العربية . فلما فرغت من شأنها ، قامت تحمل أجانتها (١) ولم تحفل من العجلة أن تزم الجيب (٢) على صدرها . وقد توخت أن يكون طريقها من أمامه . وأقبلت وهو ينظر اليها . فلما دنت ابتسمت له وابتسم لها ، وتجرأ فسألها عن هذا الذى معها فقالت « صوف أغسله » . وعلم منها فى بعض ما علم أنها تنسج الجوارب وتصنع الأخراج . ولما كانت شمس الأصيل قد رنقت وكاد يختفى قرصها ، فقد انصرفت المرأة عنه مسرعة دون أن تبوح باسمها . ومضت مصعدة فى سفح الربوة ، وهى تميس ناعمة لينة ، وقد أبدى أعطافها ثوبها المبلل اللاصق بها ، وكان شعرها الوارد يضرب الى حقويها . فلم يملك هانىء نفسه أن تبعها على خطوات منها حتى دخلت القرية ، وكانت الدروب على ضيقها تزحمها قطعان الغنم القافلة من مراعيها . ولكنه لم يدع المرأة مع هذا تغيب عن عينه ، حتى دخلت بيتا من تلك البيوت المتضعة المتلاصقة . وقبل أن يحتويها البيت ، التفتت اليه لفتة زادته لهفة على لهفة

ولم يبرح « هانىء » حتى تعرف المكان ، فعرف أنه بالقرب من الجبل المقطوع ، وأن اسم القرية « استانه أتار » (٣) ومعناه باب النار ، وأن اسم فاتنته « جلبان » أى غصن الورد

---

(١) الاجانة : اناء تغسل فيه الثياب

(٢) الجيب من القميص أو الثوب : طوقه وما قور منه

(٣) ورد اسمها « أستان ماتارد » ولعله خطأ في النسخ وتخليط بسيط من تحريف الحروف عن مواضعها وصحته « استانه أتار » أي باضافة الميم التىباول الكلمة الثانية الى النون فىآخر الكلمة الأولىفتكون هاء ، ثم جعل الدال التى فى آخر الكلمة الثانية سكونا على الراء ، فيكون اسم القرية « استانه أتار » وهى بعينها « باب أذر » التى وردت فى مراجع

## من نعيم الحب الى جحيم الحرب

لم ينعم « هانیء » طويلا بقرب زوجته الفارسية الأهوازية . فقد انتزعه من بين ذراعيها ـ قبل أن ينصل خضاب العرس من يديها ـ نفير الحرب ، لدفع الفتنة المحذورة ، وقد ارتفعت بعد الخفاء أعلامها واندلع فى الأفق ضرامها

## الرايات السود

وفى ليلة الخميس ، لخمس بقين من رمضان سنة ١٢٩ هجرية ، أوقدت النيران على قنن الجبال بموضع بخراسان، وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين على الأمويين اظهارا للدعوة واعلانا للثورة . فأقبلت العشرات والمئات والألوف من الأشباح المتشحين بالسواد ، مجهزين بالعدة والسلاح وانتشروا كقطع الظلام تظللهم الرايات السود . وكانت جيوش الثوار معظمها من الخراسانيين ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ، ولحى وشوارب ، وأصوات فخمة تخرج من أجواف منكرة . وهم الى ذلك ذوو عدد كثير ، وجلد ظاهر ، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل . وانتظم الزحف ، واشتد الهجوم ، وغلظ أمرهم واستوثق . فاكتسحوا خراسان كلها ، وأقبلوا كالسيل على ما وراءها

## زوال دولة وقيام دولة

وكان من حسن تنظيم الدعوة العباسية واحكام تدبير الثورة وتسيير دفتها ، أن أسقط فى يد عمال الأطراف من قبل الأمويين ودب الشقاق بينهم وفعلت الدسائس فعلها فيهم ، فاختل الأمر واستشرى الفساد وانخذلت

---

أخرى محلا لميلاده ، لأن استانه معناها باب ، ولفظ « أتر » أو « أدر أو « أذر » بمعنى واحد أى النار

الحاميات العربية فى خراسان ، ثم فى العراق . ثم التقى الجيشان ، وهما على حد اصطلاحهم « المبيضة والمسودة » جيش مروان ممن اختارهم من جنـــد الشام والجزيرة وغيرهم وعـــدته مائة الف فارس على مائة ألف قارح ، وجيش الثوار الكثيف برماحهم كأنها النخـل غلظا ، وفى أوائلهم البنود كأنها قطع من الغمام سود يحملها الرجال على الجمال البخت وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب . . وكانت وقعة فاصلة عند نهر « الزاب » ، لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هجرية ، فكتب النصر للثوار الخراسانيين وتمت لهم الغلبة ، وزالت على يدهم دولة بنى أمية وظفر بالخلافة بنو العباس

## العودة الى أحضان الأسرة

وكان من أثر هذه الغلبة تسريح الحاميات العربية وتفرق شملها ، ومنها حامية الأهواز . وكان الخليفة العباسى الظافر « أبو العباس عبد الله بن محمد » قد وجه عمه اسماعيل عاملا على كورها . وعاد « هانىء » الجنـدى القديم الى زوجته فى قريتها بالقرب من الجبل المقطوع ، ولكنه عاد وهو موزع النفس بين الكمد والسرور . فقد كان يسره أن تنتهى الحرب ، ولكن لا على هذا الوجه من انقطاع مادة رزقه ، وسقوط شوكة قومه . واستقبلته « جلبان » كما تستقبل المرأة المحبة زوجها ، وقد استطارها الفرح وماد بعطفيها وغلب عليها . ولم يكن فرحها كله خالصا له ، فقد كان بعضه لقومها الغالبين ، ولكنه مضمر فى طوايا نفسها لا يبين . ولم يعدم الجندى القديم وسيلة للكسب الشريف ، فاشتغل برعى الغنم وبالحياكة ، ومضت هى فى صنع الأخراج ونسج الجوارب . وتعاون الاثنان على العيش بالمجاهدة والسعى ، وألهاهما عن الفاقة ورقة الحال ما كان بينهما من استدامة الصبوة والغرام

وقد أثمر هذا الحب ثمرته فأولدها عـدة أولاد (١) ، نعرف منهم فتاة يقال انها كانت عند فرج القصار وهو عبد كان لأحمد بن عصـمة الله الباخرزى ، ونعرف من الذكور اسماعيل ، ونعرف أكثر منه أحمد أبا معاذ وهو الذى يقال انه كان يعمل مؤدبا لأولاد فرج الرخجى الخباز ، ثم نعرف الحسن ـ وكان مولده فى القرية نفسها المعروفة بباب النار سنة ١٤١ (٢) فى عهد ثانى الخلفاء العباسيين أبى جعفر المنصـور ـ وهو الذى نبغ ذكره من الأسرة وبه

(١) قيل ان هانئا لم يكن له ولد ولا خلف غير أبي نواس ، وقيل ان له أولادا غيره ٠ وقد رجح الرأى الأخير عندنا أنه قد جرى اسم أحمد أبي معاذ على ألسـن الرواة أكثر من مرة على أنه أخ لأبي نواس ، ثم زادنا ترجيحا ما ورد فى تاريخ الأمم والملوك للطبرى فى قوله فى الجزء العاشر في الصفحة ٢١٩ ما نصه : ( وذكر عن ابراهيم بن اسماعيل بن هانىء ابن أخي أبي نواس قال حدثنى أبى قال هجا عمك أبو نواس مضر في قصيدته التى يقول فيها كذا فبلغ ذلك الرشيد الخ ٠٠ ) ٠ ولا يعتد بقول أبى نواس متغزلا :

لا تفجعى أمي بواحـدها لن تخلفى مثلى على أمي

فذلك ينصرف الى أنه كان أنجب اخوته

(٢) اختلف الرواة كعادتهم فى مولد أبي نواس ووفاته ٠ فذكروا فى مولده سنوات ١٣٦ ـ ١٤١ ـ ١٤٥ ـ ١٤٨ ـ ١٤٩ وجاء فى الجـزء السادس عشر فى الصفحة ٧٤ من معجم الأدباء عن الجاحظ أنه قال : « انا أسن من أبى نواس بسنة ، ولدت فى أول سـنة ١٥٠ وولد فى آخرها » ٠ وذكر فى وفاته سـنوات ١٩٥ ـ ١٩٦ ـ ١٩٧ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩ ـ ولكنهم على الاجماع أو ما يشبه الاجماع من أنه مات وعمره تسع وخمسون سنة ٠ ولما كان أبو نواس قد رثى الأمين وكان قتل الأمين فى سنة ١٩٨ ، فالمرجح أنه توفي سنة ١٩٩ ، وهذا يحدد لنا مولده فى سنة ١٤١ ٠ ولقد ذكر ابن قتيبة أن أبا نواس أقام سجينا بأمر الرشيد عند ابراهيم بن نهيك ، فلما مات الرشيد ، وخلفه محمد الأمين عام ١٩٣ اخرجه وهو ابن اثنتين وخمسين سنة،فيخلص من ذلك أن مولد أبى نواس عام ١٤١ ، وذلك مصدق لما تقدم ٠ وهذان التاريخـان لمولده ووفاته يطابقان ما نقله جامع ديوان أبي نواس حمزة بن الحسن الأصـبهانى عن أبى بكر أحمد بن شقير النحوى عن أحمد بن أبي طاهر

عرفت . وكان أخوه اسماعيل كثير الرواية له وعنه روى ابنه ابراهيم . كما كان أبو معاذ مع عطله من مذاهب الأدب وقلة احسانه لشيء منها يتعيش بأنه أخوه ، ويظهر أثر ذلك فيمن تأدبوا عليه من أولاد الرخجى . حكى ابن جحظة عن بعض أهل الحيرة قال : اجتاز بنـا عمر بن فرج الرخجى منصرفا من الحج فتلقيناه وأعظمناه وسرنا معه ، فلمـا اجتاز بدير حنة سألنا عنه فعرفناه به ، فقال من ذا الذى يقول « يادير حنة من ذات الاكيراح » ؟ فقـال له الحسن ابن هشام الحيرى : « هذا للحسن بن هانىء »

وهذا « الحسن بن هانىء » هو شاعرنا الذى عرفته الأجيال بعد ذلك باسمه المحبب « أبو نواس » ، واجتمع أكثر النقاد العرب على أنه أشعر الشعراء المحدثين



# طالب علم

كان بأطراف البصرة فى بعض الدروب التى تخرج من سكة المربد ، بيت من القصب تسكنه امرأة أهوازية وفدت عام ١٤٣ على البصرة ومعها زوجها وهو وقتئذ طراز حائك . وكان الرجل بالمدينة العظيمة حديث عهد ، فلا جرم يكون ضعيف المقدرة مضيقا عليه فى الرزق . ولم تسكن امرأته لهذه الحال فجعلت ترضع بلبان غلامها « الحسن » — وكان ابن سنتين (١) — غلاما من ثقيف . ولم يكن رزقها من الرضاع كثير الغناء ، ولكنه كان عونا على كل حال لمن كان بموضعهما من الحاجة وكثرة العيال . ولم تطل المدة حتى أرملت « جلبان » وأصبحت لا سند لها ولا عائل لولدها . وكانت من النساء برزة (٢) شملالا ، لها على الحياة جرأة واقبال ، فلم يركبها هم ولم تفتر لها همة . وعمدت الى ما كان لها من صناعة ، فجعلت تغشى البيوت بما تصنع من جوارب وأخراج بيدها الصناع(٣) المدربة ، فانفرجت شدتها وحسن أمرها ، وانتقلت الى دار فى المدينة من الآجر والجص . ونفقت (٤) تجارتها ، وقصدها بعض الراغبين فى أشيائها من

---

(١) قيل فى بعض روايات ابن منظور ان أبا نواس انتقلت به أمه الى البصرة وهو ابن ست سنين ، ولكن الذى آثرنا هو ما ورد فى ابن خلكان من أنها انتقلت به وعمره سنتان ، لأن ذلك دون غيره يتفق مع حكاية الأصمعي أن أمه كانت فى البصرة ترضع بلبانه غلاما من ثقيف ، وهذا القول قاطع بأنه كان رضيعا وقت قدوم أمه به

(٢) برزة : تبرز للرجال يجلسون اليها ويتحدثون

٣) الصناع بتشديد الصاد : الحاذقة فى الصنعة (٤) نفقت : راجت

الغوانى والرجال ، حتى قيل انهم كانوا يلتقون عندها على موعد ، وانها كانت تجمع بينهم لريبة

وكانت المدينة متسعة الرقعة ، كثيرة العمران ، تغص بالسكان من كل لون وسحنة . فهى واسطة العقد بين الشام وفارس ، تمتد تجارتها شرقا الى الهند والصين ، وتمتد غربا الى أقصى بلاد المغرب ، وترسو مئات السفن فى فرضتها (١) تحمل أصناف المتاجر من ناحية البحر أو الرافدين

وفى هذا المزدحم من التجار الوافدين والمقيمين ، وفى هذه الحال من وفور المال ، عاشت الأرملة « جلبان » عيشتها فى طلب الكسب . وكانت ـ مع ما يدخل اليها من ربح ـ لا تخرج عما انطبع عليه أهل الأهواز من البخل ، تعيش على خبز الأرز والكامخ من صفار السمك المملوح المعروف بالصحناء وبعض تمرات . ولم يزل هذا دأبها فى البخل على نفسها وعلى ولدها

## تقلب الأحوال فى عصر الانتقال

ولقد زاد « جلبان » استمساكا بالحرص ما كان يتقلب على عينيها أو يتصل بسمعها فى عصر الانتقال الذى تعيش فيه من فورات الهرج وكثرة الفتنة ، وما يشغب أحيانا من ثورات ويستشرى من فتوق ، حتى بعد أن استوثق الأمر للخليفة العباسى الثانى أبى جعفر المنصور ، ورسخت دولته بعد مقتل أبى مسلم الخراسانى وعلت فى الناس كلمته وملأت الصدور هيبته ، ومن ذلك ما جرى فى البصرة نفسها بين سمعها وبصرها . فقد ظهرت الدعوة فى سنة ١٤٥ لمحمد العلوى ـ الملقب بالنفس الزكية ـ من حفدة الحسن بن على ، وكان معظم رجال البيت الهاشمى ومنهم

---

(١) فرضة بضم الفاء وسكون الراء محط السفن

المنصور قد عاهدوه على المبايعة له بالخلافة فى أيام الثورة على البيت الأموى ، ثم عادوا فآثروا بها انفسهم . وكان من شأن اظهار الدعوة أن وثب أخوه ابراهيم على البصرة، فغلب عليهـا وأبدل شعار أهلها من السواد الى البياض واتخـذها مقره ، ثم انبسـط أمره على الأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد . فلمـا وقر فى النفوس أن الدولة للعلويين ، وأنه قد أديل لهم من خصومهم الأمويين والعباسيين جميعا ، حتى دخل على « ابراهيم العلوى » بشار بن برد مثنيعا لعهد أبى جعفر المنصور متشفيا بمصير دولته بقصيدة مطلعها :

ابا جعفر ، ماطول عيش بدائم   ولا سالم عما قليل بسالم(١)

اذا بالجيوش العلوية تنهـزم ، ويتبدل الحال غير الحال ، وتعود البلاد كلها الى حوزة الخليفة العباسى فيعمل القتل فى العلويين ، وينكل بمن آزر دعوتهم من أشراف البصرة ، يصلب منهم من يصلب ويسجن من يسجن ، ويدك دورهم ويخرب بساتينهم ويصادر أموالهم . فاختلطت الامور فى المدينة واضطربت الأرزاق ردحا غير قصير من الزمن

وواضح من هذا أن الظروف المحيطة والأحوال الملابسة لم يكن من شأنها أن تعدل بجلبان عن طبيعتها ــ لو صح أن للمرء عن طبيعته معدلا ــ فهى ماضية فى حرصها بتواطؤ من طبعها وعقلها

## الصبى فى المكتب

ولقد دفعت جلبان الصبى منذ نعومة أظفاره كسائر الصبيان فى البصرة الى كتاب من المكاتب القريبة من الدار.

(١) لما قتل ابراهيم العلوى خاف بشار ، وكتم أمر القصيدة برهة ، ثم جعل موضع « أبا جعفر » « أبا مسلم » ، وحذف منها أبياتا وأظهرها بعد ذلك على انه قالها فى مدح الخليفة أبى جعفر لايقاعه بقائده الداعية أبى مسلم الخراسانى

فكان « الحسن » يغدو اليه كل يوم يتعلم القراءة والكتابة والقرآن . وكانت أمه ترسل الأجر للمعلم خبزا حتى تقدم الغلام فكانت ترسل الدرهم والدرهمين . وكان جزاء التقصير فى المكاتب الضرب والحبس . والذى يرجع الى ديوان شاعرنا يقرأ له فيما يقرأ وصف غلام فى « مكتب حفص » ناله الضرب من مقرعة المعلم وهو ناعم من الغلمان المترفين المدللين . والمقطوعة كسائر مقطعات شاعرنا غاية فى لطف التصوير وآية على خفة الروح والدعابة :

قال حفصٌ : « إجلدوهُ إنه عنــدى بليدُ
لم يزل مذ كان فى الدر س عن الدرس يحيـد »
كُشفت عنه خُزوزٌ وعن الخَزّ بُرود (١)
ثم هالوه بسَــبْرٍ ليِّنٍ ما فيــه عود
عندها صاح حبيبى : « يا معلم لا أعود »

## التعليم الدينى

وقد اشتهر فى البصرة فى ذلك الحين القارىء العــالم يعقوب الحضرمى وهو من بيت علم بالعربية والأدب ، وقد ذاع تعليمه للقراءات وأصبح امام البصرة فيها . وكان من أعلم أهل زمانه بمذاهب النحاة فى القرآن الكريم ووجوه الاختلاف فيه . فقرأ عليه « الحسن » القرآن . وكان زاهدا ورعا ناسكا ، فجعل يعلمه حسبة ولا يأخذ على تعليمه أجرا . وزاد أنه حين رأى حفظه وحذقه رمى اليه بخاتمه قائلا : « اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة » !

ولما شب الغلام رغب فى الأدب وتعلق بالشعر . ولم يقع

(١) الخز من الثياب ما نسج من حرير ، والبرد ثوب مخطط

ذلك من أمه موقعا ترضاه ، وكانت لا تؤثر على التجارة شيئا لما يحصل عنها فى البصرة من وافر الأرزاق . فأسلمته على رغمه الى بعض العطارين يعمل عنده ويبرى له عود البخور . فلم يصرفه ذلك عما فى نفسه . وجعل كل يوم يأتى المسجد الجامع فيحضر العلم على شيوخه . وكان كل شيخ الى سارية ، ولكل مريد أن ينتظم فى الحلقة التى يريدها . وكانت حلقات الدرس لا تقتصر فى المسجد على علوم الدين ، وانما علومها مختلفات باختلاف ما تخصص الشيخ فيه من المسائل والموضوعات

## الدراسات الأدبية فى المسجد

وكان « الحسن » يقعد بين من قعدوا الى أبى زيد الانصارى النحوى اللغوى ، يسمع لما يستشهد به من أوابد الأبيات وفرائد البلاغات من كلام العرب وقصائدهم ورجزهم ، ويكتب عنه ما يشرح من نوادرها وغريب ألفاظها. ثم كان يتحول الى «أبى عبيدة معمر بن المثنى» الفارسى الأصل العربى المربى (١) ، فينفسح له الأفق وهو يصغى الى كلامه المستبحر الجامع عن أيام العرب وقبائلهم وأنسابهم وأخبارهم وعلومهم ، ومقابلة ذلك بما عند الفرس ، وكان لشعوبيته يتعرض للعرب أحيانا ويبسط القول فى مثالبها . ولقد كان أبو عبيدة ـ لأصله الفارسى ـ صاحب عبارة سيئة ، وقد يلحن ، واذا قرأ البيت من الشعر لم يقم اعرابه وينشده مختلف العروض ، مع وفور عقله واشتماله على علوم العرب حتى جرى قولهم فيه أن من يأتى مجلسه اشترى الدر فى سوق البعر . وكان فتانا « الحسن » على كثرة عبثه به يقول عنه : « أديم طوى على علم »

ثم كان الحسن يقبل على «خلف الاحمر» ـ وهو من أبوين

---

(١) المربى على وزن مفعل : مكان النشأة والتربية

فرغانيين وقد أصبح راوية البصرة الأشهر ، وأعلم الناس فيها بالشعر ونقده وبالشعراء ومذاهبهم — فيتلقى منه ويتتلمذ عليه ويكثر من الجلوس اليه . وكان يشهد أحيانا فى بعض الأركان من المسجد مناظرات الأدباء وملاحاتهم ويمر أحيانا ببعض الشعراء وقد انتحوا ناحية يملون أشعارهم فى شتى الأغراض من المديح الى الغزل

وكان يحضر الحديث على الامام « عبد الواحد بن زياد العبدى » وغيره من الحفاظ الأعلام ، والمحدثين الثقات . فاذا اشتهى الكلام ، فليس يخلو المكان من أصحابه يستمع اليهم ويأخذ عنهم

وظل الحسن أعواما على هذه الحال يعمل بالنهار عند العطار ويتنقل فى المساء بين هؤلاء وغيرهم فى مسجد البصرة وفى دورهم ، يلتهم علوم زمانه التهاما ، ويطوى مراحلها طيا . وهو فى أثناء ذلك لا يفتر عن معاناة الشعر وتسقط أخبار الشعراء وحضور مجالس الأدب ومصاحبة أهل المسجد والمجان

## المجون فى حلقات الدرس

وكان الفتى جميل الطلعة ، رقيق اللون ، أبيض ناعم الجسم ، نحيفا كبير الهامة منسدل الذوائب ، معتدل القامة بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، فصيح اللسان ، لطيف المنطق مليح الاشارة ألثغ بالراء يجعلها غينا ، وفى حلقه بحة لا تفارقه ، وذلك الى لين طبع وحلاوة شمائل . فكان اذا دخل حلقة الدرس التفت القوم الى حسنه وحداثة سنه وجمعه خفة الروح والفراهة الى الذكاء وقوة التحصيل

وكان ممن لفتهم صاحبنا وقتئذ الشاعر محمد بن مناذر . فقد دخل ابن مناذر فى بعض الأيام المسجد الجامع بالبصرة ،

فوقعت عينه على فتى مستند الى السارية ، فالتمس رقعة ودواة فكتب اليه أبياتا مدحه بها ، وسأل غلاما أن يوصل الرقعة اليه . فلما قرأها الفتى قلبها وكتب على ظهرها ساخرا ماجنا :

مثلُ امتداحك لى بلاوَرِق (١) مثلُ الجدار بُنى على خُصِّ
وأَلذُّ عندى من مديحكَ لى سودُ النمال وليِّنُ القُمُص

فلما قرأها ابن مناذر قام اليه فقال : « ويلك ، أأنت الحسن ؟ » . قال : « نعم » فسلم عليه وتعانقا . وكان ذلك أول المودة بينهما

## اشتغال الأم عن ولدها

وكانت جلبان قد شغلت عن ابنها بغرام جديد بمن يدعى « العباس » شاع خبره حتى شهرت به ، ولقد أصاب الحسن من ذلك تعيير لذاته وأقرانه ، وتعرض فيه لقول من هاجاهم وهاجوه بعد ذلك من الشعراء والشواعر . ومنه قول أبان اللاحقى :

إن يكنْ هذا النواسىّ بلا ذنبٍ هجانا
فلقد عِفناه حيناً وصفعناهُ زماناً
هانىءُ الجَوْنُ (٢) أبوه زاده الله هوانا
سائِلِ العباس ، واسمعْ عنه من أمك شانا

ولم يكن الا اليسير حتى حرم الفتى بعد أبيه البقية الباقية من رعاية أمه . فلقد انتهى الأمر بزواجها من الرجل الذى أحبته . وكانت من صنف المراة التى لا تصبر على عزوبة

(١) الدراهم المضروبة
(٢) الجون الأسود اشارة الى شدة سمرته

ولا تغنى عن زوج . فانصرفت الى الزوج الجديد بكليتها وأذهلت عن ولدها ، فأهملت شأنه غاية ما يكون الاهمال ، وتركت للمطار أمره . وانقطع منذ ذلك الحين ما بين الفتى وأمه ، ولم يتصل سبب بينهما حتى موته

ولعل الفتى ارتاح فى دخيلة نفسه الى ما صار اليه من مطلق الحرية ، اذا شاء ركب رأسه ، واذا شاء لزم درسه . فقد كان الحسن متقدما على سنه فى بكور عقله ، وفى يقظة حسه . فهو شديد النهم الى المعرفة والى الحياة معا . وكانت المدينة حوله بأسباب هذا وذاك عامرة زاخرة

## الحياة فى البصرة

كانت البصرة حاضرة عظيمة من حواضر العلم ، واحد المصرين ـ البصرة والكوفة ـ اللذين كانا قبل بغداد يقومان على اشاعة المعارف والعلوم العربية ، وسائر البحوث النقلية والعقلية ، ومذاهب الكلام وألوان الأدب وضروب الثقافات . وكانتا فى ذلك تتنافسان وتتفاخران وتتكاثران بالنوابغ والعظماء فى كل حلبة وميدان . وكانت البصرة كذلك ـ بما يزحم أسواقها من التجارات وما اجتمع فيها من الاموال والخيرات ـ حاضرة عظيمة من حواضر اللهو ، تعج بما فيها من الملاهى وأسباب اللذة وموجبات الفتن والغوايات . وبلغ من ذلك أن خلفاء بنى العباس حين فكروا فى التحرز لملكهم من أطماع الأمراء الهاشميين من أهل بيتهم ، لم يجدوا غير البصرة يقطعونهم فيها القطائع والضياع الواسعة ، ويخصصون لهم الرواتب الجزيلة حتى يشغلهم مقامهم فيها بين القصف والمتعة عن الشره الى الخلافة

وكانت المدينة فى حفل من المناظر الحسنة والمجالس الأنيقة تتخللها المياه وتتوسطها الميادين العجيبة ، وتزهو بالخصب والنضارة والبساتين الكثيرة ذات الفواكه الأثيرة .

وكان واديها الاعظم ــ مجتمع الفراتين المعروف بشط العرب ــ يقبل ماؤه معنقا ويفيض متدفقا . وهو بالحدائق المتصلة منتظم ــ فأوله الرطب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب ــ وبينها معاصر الدبس . ولم يكن فى الدنيا أكثر نخلا منها حتى كان يباع بأبخس الأثمان ، وكانت النخيــل تتصــل مسافات شاسعة الى أرباضها ومحلاتها وما جاورها ، فلا يكون الانسان فى مكان الا وهو فى نهر ونخيل ، أو بحيث يراهما

ولم يكن الحسن بالمغمض العينين ولا بالمغلق القلب عن هذه المفاتن . وهو من علمنا من يقظة الحس وتفزز الأعصاب وتشوف النفس . وكان يمر فى كل صباح ومساء بالجداول والبرك الفسيحة تجرى فيها الزواريق والسماريات وفيها المتنزهون ومعهم المغنيات من القيان ، والسقاة من الغلمان ، منحدرين ومصعدين . فاذا احتواه حانوت العطــار الذى يعمل عنده تطــرق الى سمعــه ما يذكره المترددون لشراء الأطياب والبخور من وصف لما كان من مجالس اللهو ونوادر السكر ، وانشاد لأحدث ما نظمه الشعراء المحدثون فى الخلاعة والمجون . حتى اذا كان العشية مع أهل المسجد لم تخل حلقات الدرس من رواية بعض الملح والبطالات فى الحين بعد الحين ، يرويها المشايخ متفكهين غير متحرجين ، بحجة أن فى بعض الهزل تنشيطا للقلب وذهابا بالكلال ، فضلا عمن كان يلتقى بهم الفتى ويرافقهم فى الطــريق من الشطار والعيارين ومن لف لفهم من خلطاء السوء

# الذئب والحمل

لزم « الحسن » سوق العطارين فى البصرة بعد زواج أمه ، ولم يهجر حانوت العطار الذى أسلمته اليه ، وان يكن قد كره هذه الصناعة وملها ، بمقدار ما زاد اشتغاله بالأدب واهتمامه له وكثر غشيانه للأسمار وسماعه لرواة الأشعار . وكانت نفسه تهتز للشعر ، تتشرب معانيه شربا ، وتتطرب لوزنه ونغمه طربا ، وتغمرها منه غمرة تسكر حسه وتغلبه على وعيه . وكانت أمنية حياته التى بها يحلم ، أن يتصل بهؤلاء الذين يتردد على سمعه ذكرهم ويتغنى أهل العصر بشعرهم

## عطار البصرة فى الأهواز

وقد شاء القدر الساخر فيما يخلط من خير وشر ، أن احتاج عامل المنصور على الأهواز « أبو بجير الأسدى » الى عطر يعمل له ، فلم يجد فى الأهواز عطارا يصلح لذلك . فبعث الى البصرة فى طلبه ، فأشخصوا اليه أستاذ الحسن والحسن معه . وأقاما يعملان فى داره . واتفق أن قدم الأهواز والبة بن الحباب الأسدى الشاعر قاصدا للأمير — وهو ابن عمه — فمدحه وأقام عنده . ووقع نظر الشاعر الغزل الماجن على « الحسن » فاستحلاه وأعجب بظرفه . ثم خاطبه ووصل معه الحديث ، فسره ما كان عليه «الحسن» من الذكاء والمعرفة ، ولم يلبث أن اطلع منه تعلقا بالشعر ،

ورغبة فى الاقتدار عليه ومجاراة صاغة القـريض ورواض القوافى من الشعراء المذكورين

فقــال له : « انى أرى فيك مخايل فلاح . وأرى لك ألا تضيعها . وستقول الشعر وتعلو فيه . فاصحبنى حتى أخرجك »

## والبة بن الحباب

فتطلع الفتى متشــوفا الى هـــذا الذى أحسن الظن باستعداده ، وقطع على نفسه العهد الاكيد بتخريجه ولم يملك أن سأله مبتدرا : « ومن أنت ؟ »

قال : « أبو أسامة » فهتف الفتى : « والبة ؟ » . قال : « نعم ! »

فتهلل الفتى وفاض قلبه بما كان يخالجه زمنا : « أنا والله ـ جعلت فداك ـ فى طلبك ، وقد أردت الخروج الى الكوفة والى بغداد من أجلك »

قال الرجل متعجبا مغتبطا : « ولماذا ؟ »

فاسترسل الفتى سابح النظرة فائر النفس : « شهوة للقائك ، ولأبيات سمعتها لك » . قال : « وما هى ؟ »

فانشد الحسن بصوت حلو اللثغ ، يجعل الراء غينا ، وفى نبرته حرارة الاعجاب وهزة التأثر :

ولها ـ ولا ذَنْبَ لها ـ حُبٌّ كأطراف الرماحِ
جرحتْ فؤادَكَ بالهـوى فالقلبُ مجروحُ النواحى

فازداد والبة حبا وعجبا

وكان والبــــة مذكورا فى البصرة ، وقد شـــاع ذكره واستطارت شهرته فيها لقدومه فى جملة من قدموا على « محمد بن أبى العباس السفاح » حين ولاه عليها الخليفة أبو جعفر المنصور فى ســنة ١٤٧ بعقب مقتــل ابراهيم العلوى . فلقد ورد العامل الجديد ومعه جماعة من الشعراء

والمغنين ، وأصحبه عمه المنصور ـ داهية بنى العباس ـ قوما يعاب بصحبتهم ومجانا زنادقة ، ليبغض ذلك منه فيرتفع ابنه المهدى عند الناس . وكان «محمد بن أبى العباس» يغلف لحيته بأواق من الغاليـة فتسيل على ثيابه فتصير مسمرة حتى لقبه أهل البصرة « أبا الدبس » . وكان ممن يغنونه دحمان وحكم الوادي ويشترك معهما أحيانا مؤدبه الخليع حماد عجرد فى جماعة من ندمائه منهم والبة ، وهم جميعا يشربون ، فيسكر ويسكرون ، ويغلبهم السكر فينامون فى مواضعهم . وكان الأمير « محمد » قوى البنية شديدا نهاية فى الشدة ، فكان أول من يفيق منهم . وكان يهوى « زينب بنت سليمان بن على » فاذا شرب غنوه بما قال ـ أو بما قال حماد عجرد على لسانه ـ تشبيبا بها فيطرب ويضرب برجله . وكان يأنس أشد الأنس بوالبة ، ويسكن الى ظرفه وخفة روحه ، ويستحسن شعره ووصفه للشراب ، حتى يؤثر عن ذلك فى البصرة أن حكما المغنى دخل عليه أيام ولايته بها ، وكان يوم نيروز ، فاذا به يتململ خمارا وبيده كأس وهو يجتهد فى شربها فلا يطيقها ، وندماؤه بين يديه وفى أيديهم أقداحهم . قال : « يا حكم غننى ، فان أطربتنى فلك كل ما يهدى الى اليوم » وكان بين يديه من الهدايا أمر عظيم . فعمد الحكم الى أبيات لوالبة ، فاندفع يغنى بها :

قد قابلتنا الكؤوسُ ودابرتنا النحوسُ
واليوم هُو نيروزٌ قد عظّمته المجوسُ
لم تُخْطِهِ فى حسابٍ وذاك مما تسوسُ

فطرب الامير لها ، واستعادها ثلاث مرات ، وعب قدحه ، واستمر فى شربه . وأمر لمطربه بأن يحمل اليه كل ما كان بين يديه .

وكان هذا وغيره من الاخبار والأشعار يشيع عنـه فى البصرة ويتسامع به أهلها ، حتى صار حديث ظرفائها فى تلك الايام . فوقع الحسن ــ ولا جرم ــ تحت تأثيرها ، وأخذته شهرة الرجل بسحرها . فلما التقى به ، كان تلقاءه كالمنوم خدر النفس مضعضع الحس مسلوب الارادة . فلم ينشب والبة أن اختدعه حتى صار معه الى الكوفة

## الاستاذ وتلميذه فى الكوفة

ورد الغلام مع أستاذه الى الكوفة ، فطالعه من جانبهـا الشرقى نخيل ملتفة متصلة تمتد امتداد البصر ، والفاها الطف من البصرة حرا ، والفى الهواء فيها أصح ليس بالرطب الثقيل ولا بالذى يختلف فى اليوم الواحد ، وهى كذلك أطيب ريحا بما فى سوادها من الورد والياسمين والأترنج ، بخلاف البصرة اذا هبت الجنوب على أرضها النشاشة السبخة . والكوفة مرتفعة عن البصرة معظمها على الفرات ومنه شرب أهلها . ويأتيها الماء بعذوبته وبرده ، ولا يأتى البصرة الا بعد تغيره وفساده مع ما يصيبه من الملح الذعاق اذا كان المد فى الخليج الخارج من بحر فارس . ومع هـذا كله فقد رأى الحسن ــ وان كان قد احتفظ بما رأى لنفسه ولم يصرح لوالبة وصحبه ــ أن البصرة حيث مدرج طفولته ومعهـد صباه لم تزل أحب الى قلبه وأحلى فى عينه من أختها الكوفة ، وأنها أقوى منها عمارة ، وأكثر خلقا وأزحم قدما وأدوم حركة ، كما أنهـا أشد تنوعا وأبهج مجلى ، أوتيت من كل حلى وزينة

## مهاترات الشعراء

وكان والبـة بن الحباب على قولهم فى نسبته ــ أسديا صليبة . ولكنه كان مع ذلك أشـبه بالموالى الروم منـه بالعرب ، فهو أشقر ، أبيض اللون مجمره ذهبى الشعر ــ كما

تدل عليه صفته فى هجاء أبى العتاهية له وتهجينه لنسبه اذ يقول من قصيدة :

وابن الحُباب صليبة(1) زعموا ، ومن المُحال صليبة أشقر
ما بالُ مَن آباؤه عربٌ الأ وان يُحسب من بنى قيصر
أترون أهل البدو قد مُسخوا شُقراً ؟ أما هذا من المنكر ؟
أكذا خُلقتَ «أبا أسامة» ، أم لطخت سالفتيك بالعُصفر ؟
مالى رأيتُ أباك أسودَ غر بيبَ(2) القذال كأنه زُرْزُر
وكأن وجهك حمرة رئة وكأن رأسك طائر أصفر

ومن قصيدة اخرى :

أوالبُ ! ما دهاك ، وأ ت فى الأعراب ذو نسب ؟
أراك وُلدتَ بالمرّ خ يا ابن سبائك الذهب
فجئتَ أُقَيْشر الخد ن ، أزرقَ ، عارمَ الذنب
هلُمّ إلى الموالى الصِّ د فى سعة وفى رحب
فأنت بنا — لعمر الل ه — أشبه منك بالعرب

وأهاجى الشعراء فى والبة كثيرة ، وأكثرها فاحش مقذع كالذى هجاه به « سلم الخاسر » — وهو راوية بشار وتلميذه — لما كان عليه والبة من المقابح والمقاذر الخلقية

## خلط الفنون بالمجون

وكان والبة أبعد ما يكون عن ملازمة أهل الجد من العلماء والفقهاء والمحدثين وأصحاب الاجتهاد فى الدين

(1) صليبة : يقال عربى صليب أى خالص النسب
(2) غربيب : حالك السواد . القذال : مؤخر الرأس . زرزر : طائر أكبر من العصفور لونه أسود

ممن اشتهروا فى مدينة الكوفة الجليلة ، وفاخرت غيرها بهم . وانما كان يجتمع اليه فى الكوفة جماعة منهم مطيع ابن اياس ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد الحارثى من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، وهم فوق عبثهم بالجوارى والاماء يعدون أقدم المتهتكين فى تعشق الغلمان من الشعراء . فيتنادمون فى بعض دورهم على الشراب والغناء ، ويتناشدون الشعر ، ويسكرون فيعربد بعضهم على بعض أقبح العربدة ويتهاجون هزلا وعمدا أفحش الهجاء . وكان أهل الفن لذلك العهد يتعاشرون فلا يكادون يفترقون ، ويتشاركون فلا يكاد يستأثر احدهم على صاحبه بمال ولا ملك حتى الجوارى والغلمان . ولا عجب فكلهم خلعاء مجان مستهترون ، ليس فيهم الا متظرف منسوب الى الزندقة خبيث العقيدة متهم فى دينه . فلما قدم والبة الى موطنه ومعه الحسن ، وجه الى أصحابه وندمائه ، فجعل لهم مجلسا احتفاء بتلميذه ، ولبثوا أياما فى صبوح وغبوق، يسمرون ويتمازحون وينشدون الأشعار

وكان والبة ماجنا طبعا . وكان مضياعا متخرقا فى النفقة على الجوارى والغلمان ، وعلى بواطى الخمر المعتقة مبذولة للمنادمين وعلى الخوان ممدودا للاخوان المؤاكلين. حافلا بكل ما لذ وطاب من غير حساب. وهو مع هذا ليس بالعظيم الثراء ولا الموسع عليه فى العطاء ، فلقد فاته الحظ فى منادمة الخلفاء ، مع ما يؤثر من استحسان المهدى لبعض اشعاره، كراهة منهم لاسفافه فى أكثر قوله ، واشتهاره بين الناس بالفاحشة القذرة واستهتاره فيها . وانما كان يقصد الى من يشاكله من عمال الأمصار ، وهؤلاء كانوا لا تدوم لهم دولة . ولا يقامون بعملهم حتى يصرفوا عنه ويزالوا . فلم يكن له من معول على غير المجدودين من اقاربه ، ثم من هم أكثر منه حظوة أو اقل تبذيرا من اقرانه . ومن ذلك

ما ذكرناه من قدومه على ابن عمه أبى بجير الأسدى عامل الأهواز ، ثم ما نحن ذاكروه من قصده الى الشاعر حماد عجرد يطلب اليه بعض المال ، فلما أنظره لم يأنف من العودة اليه . ويقول الرواة فى ذلك انه سأله عما وعد ، فقال حماد « لم أصنع شيئا » ، فدعا والبة بدواة وقرطاس وأملى من كتب له هذه الأبيات :

حمّاد ما كانت عِدا | تُك بالعِدات الكاذبه
فعلامَ ، ياذا المكرما | ت وذا الغيوث الصائبه
أخّرتَ - وهى يسيرة | فى الرد - حاجةَ « والبه »
فأبو أسـامة حقه | أحدُ الحقوق الواجبه
فاستحى مِن ترداده | فى حاجـة متقاربه
ليستْ بكاذبة ، ولو | والله كانت كاذبه
فقضيتَها أحمدتَ غِبَّ | قضائها فى العاقبـه

وبديهى أن حماد عجرد انما يسمع لأول مرة من يمدحه وينعته نعت ذوى المكرمات الضافية والغيوث الصائبة ، فلا غرو أن قيل بعد ذلك انه قضى للمادح حاجته وزيادة

وكان والبة يكثر من الخروج للنزهة ومعاقرة الخمر فى دساكر طيزناباذ بين الكوفة والقادسية ، فيظل يشرب حتى يسكر ، ولا يفيق من السكر الا ليعاود الشرب ، ويقيم على ذلك أياما لا يكاد يصحو . وقد صحبه « الحسن » الى هذه الأماكن يتنزه معه ويشرب ، وكان والبة لا ينى يغمز عليه الساقى فيسقيه حتى يتلف ، فاذا هو الى جانبه سكران لا يعقل ولا يعى ما يفعل ، قد خلع الحشمة ومجن . ولقد ذهب ذات مرة فى المجون ان جعل والبة فى سكره يقبض

على السكين ويهم بقتله ، لولا ما أظهر الفتى من سرعة البادرة واستحضاره لمثل من الأمثال السائرة ضحك له استاذه الخليع . وظل والبة على هذه الحال مع تلميذه يحيف عليه بالشراب ويغريه بالمجون والاستهتار ، حتى تم له مراده من توهين خلقه وافساده

## بوادر شاعرية

واذا كانت هذه المعاشرة لوالبة وأصحابه قد علمت « الحسن » الفساد والعهر ، فقد هيأت له الاتصال بالشعراء ، وحفزته منادمتهم فى مجالس السكر الى النطق بالشعر . ومما يروونه فى ذلك أنه اجتمع وهو صغير فى صحبة أستاذه بالأقطاب الثلاثة حماد عجرد ومطيع بن اياس ويحيى بن زياد ، فقالوا « ليكن منا اجتماع فى دار أحدنا » فقال حماد :

يا إخوتى عندى لكم بطّةٌ ودَنُّ خمرٍ من رَساطون (١)
ولحمُ طَيْرٍ وأتابيعُه فإن نَشِطتُم فأجيبونى

وقال مطيع :

اللهو عندى جميعاً حديثُه وعتيقُه
وقُرْطَقىٌّ (٢) شهىٌّ يفوحُ منه خَلوقُه (٣)
والخمر عندى عتيقٌ يشفى القلوبَ غَبوقُه (٤)

---

(١) لفظ رومى معرب وهو شراب يتخذه أهل الشام من الخمر والعسل
(٢) قرطقى : نديم يلبس القرطق ، وهو ضرب من القباء من زى العجم
(٣) ضرب من الطيب (٤) الشرب بالعشى

وقال يحيى بن زياد :

عندى نبيذٌ معسَّلْ ‏ والموصليُّ وزلزلْ (١)
وبطةٌ وخـــروف ‏ وماءُ مُزْنٍ مزمّـل
وبَرْبطٌ وصـنوجٌ (٢) ‏ وصوتُ نايٍ وجُلجُلْ

وعندها التفتوا جميعهم الى « الحسن » كأنما له ــ وهو الصغير الغريب بينهم ــ دار ومال مثلهم ، فأرتج عليه لحظة ثم ضحك وقال :

لا تطمعوا فى شرابى ‏ فتَستحصلوا فى السراب
فدون خبزى ولحمى ‏ والخمرِ شيبُ الغراب

ومضى الحسن يشاركهم بالبيتين والثلاثة كلما تنادموا على الشراب . وكان ينعقد لهم فى كل يوم مجلس من هــذه المجالس فى عقر دورهم أو على سطوحها أو فى ظاهر المدينة بين البساتين أو فى بيوت الخمارين . ولقد أفاد الفتى من ذلك مرانة على النظم وقدرة على الارتجال ، وصــار فى مقدوره ــ كلما شاء ــ أن يكون كلامه كله شعرا بغير جهد ولا معاناة . خرج يوما مع والبة من الكوفة يريدان الحيرة وكانا يمشيان وأرجلهما تغوص فى الرمل وقد جاعا ، فدار بينهما من المقال ما يدور فى أمثال هذه الحال الا أنه شعر :

الحسن :

يا ليت فيما بيننا ستّةً ‏ أرغفةً ما بينها وَزّه

---

(١) الموصل وزلزل من أعلام الموسيقى والغناء (٢) البــربط نوع من العيدان والمزاهر ، والصنج صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب ، أو آلة للطرب لها أوتار

والبـة :

من وَزّ أرضِ الصين يُؤتى بها     مشويةً تتبعهـا رزّه

الحسن :

خوذابة ، تُؤخَذُ من بَعدها     خمرٌ من الحيريّةِ الـمُزّه (1)

والبـة :

يديرها ساقٍ وقد شابها     من ماءِ مُزنٍ صَوبُ مُؤتزّه (2)

الحسن :

طاب لنـا العيش ولكننا     أرجلنا فى الرمل مرتزّه (3)

وجملة القول ، أن تواتر هذه المنادمات والمطارحات ، كان داعيا للحسن على شحذ قريحته وايقاظ ملكته الى ادراك المعانى واقتناصها ، والاستعداد لها باللفظ المناسب والقالب المحكم . فكان فى كل يوم يزداد تمكنا من فنه ، ويزداد معه ثقة بنفسه . فلم يقف عند المحاكاة والاقتداء ، بل جعل يجاذب الجماعة ويباريهم ، ويطاولهم ويستقل عنهم

---

(1) خوذابة : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم (2) سحابة ثائرة
(3) مغروزة ثابتة

# صبوات الصبا

كانت الكوفة فى ذلك العهد مشهورة مذكورة عند أهل السماع بقيانها الحسان الضاربات بالعود الحاذقات بالغناء . وكان اجل المقينين بها واكبرهم عبد الملك بن رامين ، ومن جواريه سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وغيرهن . وقد قال الشعراء فيهن واعادوا القول يذكرونهن بالحسن وحلاوة الصوت وأفانين الصناعة . وكانت ربيحة سمراء مجدولة وسعدة بيضاء لينة . وكانت أوفرهن حظا سلامة الزرقاء وكانت تخرج الى المعجبين بها فى ازار ورداء قوهيين (١) موردين كأن الشمس طالعة من بين راسها وكتفيها ، وقد أشالت نهودها ثوبها عن صدرها ، ولها كالشارب وبر خفيف مخضر ممتد على شفتها ، وكأنما خطت طرتها وحاجباها بقلم ، فلا يبرح يلحظها الطرف ، ويقصر عن كل ضرب من ضروب حسنها الوصف

وهؤلاء الجوارى القيان قد شهر بهن الكثيرون من فتيان وشيب ، منهم الشعراء وأهل الأدب واصحاب الامارة . وكانت تبذل أموال عظيمة فى شرائهن ، أو من أجل قبلة ، أو ابتسامة رضا منهن . ولقد عرض بعضهم لؤلؤتين ، نقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم ، ولم يشرط على القينة لتكونا لها الا أن تأخذهما بشفتيها من شفتيه . وكان ممن يجتمعون عند ابن رامين معن بن زائدة وابن المقفع وروح

---

(١) نسبة الى قوهستان

ابن حاتم المهلبى ، فذكر الرواة فيما ذكروه عنهم أنه فى مجلس سماع من هذه المجالس تغنت الزرقاء ، فبعث معن اليها بدرة فصبت بين يديها ، فبعث روح اليها اخرى فصبت بين يديها ، ولم يكن عند ابن المقفع دراهم فبعث بصك ضيعته

ولم يكن منزل ابن رامين وحده المشهور بقيانه ، بل كان مثله منزل الشيخ زريق بن منيح مولى عيسى بن موسى وكان يجتمع اليه اشراف الكوفة من كل حى . وكان بين المنزلين منافسة تظهر فى حرصهما على مرضاة هذا الشاعر او ذاك لما فى الشعر من حسن الدعاية

## صبوة الشاعر الصبى

فى هذا العهد من التولع بالغناء والمغنيات كان مقدم « الحسن بن هانىء » الفتى مع أستاذه والبة على الكوفة فى سنة ١٥٦ أو نحو ذلك . فلا غرو أن كانت مجالس اللهو والشراب التى كان يعقدها هنا والبة وأصحابه لا تخلو فى بعض الأحيان من الجوارى القيان اللواتى على شاكلتهم ، من كل ماجنة متهتكة ، أديبة متظرفة ، وقاح الوجه سليطة اللسان ، فكن يعاطين هؤلاء المجان الراح ، ويستحثثن اليهم الأقداح ، ويسابقنهم الى الشرب ويجالسنهم متبذلات ، ويطارحنهم المجون والبذاء ، فضلا عن اللعب بالعود والغناء . ولعل « الحسن » كان يشاركهن ، فقد كان من صغره مولعا بالعود يضربه . ومضت على ذلك ايام وأيام . ولا ندرى بعدها أكانت المصادفة ، أم دراية هؤلاء النسوة المجربات بما عليه الرجال من حب التجديد والاستطراف وولع الكبار منهم بالصغيرات خاصة ، هى التى شاءت لهن أن يصحبن معهن الى المجلس طفلة كاعبا . وكان معظم اللواتى يغشين المجلس ممن تجاوزن غرارة

الشباب وأدركهن النضج ، ممتلئة أجسامهن ، ثقال روادفهن وافية تقاطيعهن وأعطافهن ، وقد طالت لهن بالرجال ملابسة وخلطة ، وقتلن الحب معرفة وخبرة ، حتى صرن أفتر نشاطا وأثقل نهضة وأسكن حركة مع فجورهن وخلاعتهن ومع ما يبدينه من تصنعهن وتكسرهن وكثرة تضاحكهن

وأما الضيفة الغريرة الصغيرة السن فانها تختلف عنهن : مهفهفة القوام ، طويلة خوط المتن ، لا يكاد يبين لنهديها حجم ، مسترسلة الأعطاف ، غلامية الأرداف ، فهي الى الغزال اقرب منها الى المهاة . وكانت خفرة مسبلة الهدب غضيضة الطرف ، خدها من الحياء كجنى الورد ، وكأنه أول خروج لها من خدرها

ولقد تلقتها الجماعة لقاءهم لغيرها بالمزح والعبث شأن أهل اللهو ، الا « الحسن » شذ عنهم فى هذه المرة ، وكأنما انسي ما أخذه عنهم من العربدة والمجون . فبقي معهم سواد الليلة ساهما محتشما على غير عادة ، مع انه حاف على نفسه فى الشرب واكثر فوق العادة . ولما اظهر القوم عجبهم له اعتذر بوعكة خفيفة به . ولو لم يلههم عنه ما هم فيه من السكر لألفوا الفتى فى وجومه يلحظ الفتاة ويختلس اليها النظرة ، وهي على حيائها لا تحسو من قدحها بعد اللجاجة والالحاف الا النغبة بعد النغبة مستكرهة للشرب لم تتعوده تعود المتوفرات على مجالسه

وقضى الجماعة والجوارى سهرتهم على المألوف من سنتهم فى المعاقرة والقصف ، حتى غار النجم وبدا فلق الصبح ، فاستقبلوه بالصبوح ثم تفرقوا

وغابت الفتاة فترة ، فأخذ الفتي يستطيل غيبتها ويديم التفكير فيها . ولعل الذى وصلها بقلبه ما بينهما من تقارب العمر ، وتلك الغرارة التى لم يعرفها فيمن لقيهن من النساء حتى لقيها . وانه ليحس نحوها بشيء لا عهد له به ، يسرى

فى كيانه وينساب الى وجدانه ويمتزج بأجزاء نفسه ويخالط قواها

ثم تكررت مصاحبة الفتاة للجوارى فى زوراتهن ، و « الحسن » يزيد اشتغالا بها كل يوم ، حتى لقد أسهرت ليله وأرقت عينه ، واشتدت به الحال وساءت صحته وشفه السقام . وزاد فى بلائه كما زاد فى عجبه أن راى فتاته لم تنشب أن تعودت الشراب حتى انساقت مع الجماعة ، منصرفة عما كان يبديه لها من جد الحب ، مؤثرة لما هم بسبيله من متاع القصف واللهو الصاخب

## مقطوعة الغزل الأولى

وانطوى الفتى على نفسه وعكف على يأسه وازدحمت فى خاطره المعانى ، فتحركت شاعريته وانبعثت ملكته ، وجرت قريحته بأول ما جرت به من شعر وجدانى صادر عنه غير مقترح عليه :

حاملُ الهوى تعِبُ ... يستخفُّه الطربُ[1]

إن بكى يحقّ له ، ... ليس ما به لعب

تضحكين لاهيةً ... والمحب ينتحب !

تعجبين من سقمى ! ... صحتى هى العَجَبُ

كلما انقضى سببٌ ... منك ، جاءنى سبب

ثم غابت الفتاة بعد مدة وانقطع خبرها ، كما غابت من النساء غيرها وحلت أخريات محلها ، شأن من يتعرضن لهذه الحياة الطائشة المتقلبة وينزلن فى غمارها

(١) ذكر ابن خلكان ان هذه الأبيات أول ما قاله الحسن من الشعر وهو صبى

ولكن الفتى وقف هنا وقفة ، ولم تعبر به هذه الواقعة الا بعد توكيد العبرة. فقد اقترن فى نفسه ما كان من امه وتفريطها فيه وهو صغير ايثارا للزواج ، ثم ما كان وهو شاب من هذه الفتاة الغريرة وانصرافها بطبعهـا عن جد العاطفة الى هزل الحياة ولهوها . فاجتمع له فى بداية تكوينه من هذين رأى فى « المرأة والحب والحياة » بقى فى نفســه وحسه مثل وسم النار لا ينمحى آخر العمر

ولقد استأنف الفتى عيشته ، ولكنه استأنفها غير مقبل عليها ولا ملتذ طعمها . والذكرى تراجعه ، وخيال الفتاة يعاوده . ومن كان مثله فى سن العشق ، لا بد ان يتحرق من لاعج شوق . ومهما يكن فى هذه السن من غلبة الطبيعة وتيقظ الحس ، فانها أيضا أوان تفتح العاطفة والاستجابة الوجدانية لدواعى النفس

وكان من تطاول الأيام وتعاقبها عليه أن خلصت واقعة حبه الصبيانى من ملابساتها المادية ، وتحولت صورة الفتاة فى مخيلته صورة بغير هيولى ، وصارت فى باطن وعيه وقرار سريرته كالمثل المجردة فى عالم المعانى

## تباشير بمطلع شاعر كبير

واتفق وهو فى هذه الحال أن قدم بصـحبة والبة الى منزل محمد بن سيار بن يعقوب ، ولديه قيان اخرجهن لندمائه ، وجلس ابنه فى صفهن وكان جميلا رائعا فى العين مع حسن موقع فى النفس . فـكان من فيض خـاطر « الحسن » وسبحاته العبقرية انشاؤه لهذه الأبيات اللطيفة الروحية

يا ظبي يا ابن سَيّار ... وزَيْنَ صف القيانِ
خُلقتَ فى الحسن فرداً ... فمـا لحسنك ثانِ

كأنما أنت شيء حوى جميع المعانى
لينتهك وهمى إن كلّ عنك لسانى

واستفاضت للحسن بهذه الأبيات وغيرها شهرة فى بعض أوساط الكوفة ، فاتصل به أدباؤها ورغبوا فى صحبته ، فشاهدوا منه أدبا جما ، وكبر فى أعينهم وعظم موقعه عندهم . وكان أشدهم شعورا بعظم استعداده وما هو مدخر له فى مستأنف حياته ، أستاذه والبة بن الحباب ، حتى عرض ذلك له فى الأحلام

فانه ـ فيما يرويه عن نفسه ـ يقول : كنت نائما ذات ليلة ، والحسن الى جانبى نائم ، اذ أتانى آت فى منامى . فقال الهاتف : « أتدرى من هذا النائم الى جانبك ؟ » . قلت : « لا »

قال : « هذا أشعر منك واشعر من الجن والانس . اما والله لأفتنن بشعره الثقلين ، ولأغرين به أهل المشرق والمغرب »

فعلمت انه ابليس . فقلت له : « فما عندك ؟ »

قال : « عصيت ربى فى سجدة فأهلكنى ، ولو امرنى أن اسجد لهذا ألف سجدة لسجدت »

ولم يكن « الحسن » ليخفى عليه موضع الاحسان فى قول، فكان من ذلك انه ـ على صغره ـ لم يأخذه الشك فى شعره، بل توكدت معرفته لقدره ، ولم ير عليه لأحد ممن حوله كبير تقدم ومزية ، فأدركته أنفة من الحياة التى يحياها مع والبة . فاعتزم الرحيل ، وآذنه به ، معتذرا بالخروج مع وفد لبنى أسد الى البادية فى طلب شوارد اللغة والاحاطة بغريبها والتمكن من مذاهب الأعراب فى الجزالة وفحلى الكلام

# أثر البـــادية

اقام « الحسن » فى البادية سنة أفادت روحه فى أثنائها مسحة من روحها واكتسب من صحة جوها بعض الصحة فى جسمه ونفسه ، وزادت حياة الفطرة من دقة ملاحظته ورهافة حسه . ثم عاد الى البصرة من بعدها مثقل الجعبة من مأثور بلاغاتها وفرائد عباراتها وأراجيزها ومقطعاتها . ولقد احتقب خياله فوق ذلك الكثير من مناظر البـادية ومجالى جمالها ، وتعرف أرضها وسماءها ونباتها وحيوانها، حتى أصبح أعرف أهل الحضر بها وأبصرهم بحالها ، وكانت هذه الخبرة عتاده فيما نظم بعد ذلك من القصائد المختارات فى بابى الصفات والطرديات

## نقطة التحول

وتلقى أهل البصرة عودة « الحسن » بالتعجب والتساؤل، لما كانوا يعهدون عنده من فرط الاعجاب بوالبة ـ أستاذه الأول ـ وتغنيه بشعره ولهجه بذكره قبل أن يلقاه ، وكان ظنهم وقد لقيه أنه غير مفارق له العمر إياه . فكان«الحسن» أول عودته يسمع فى كل خطوة من يقول له بعد تحيته : «أرغبت عن والبة ومللت الكوفة ؟ ! » فيجيب موجزا متأدبا: « هى أجدى وأطيب من أن تمل ، ووالبة ممن لا يرغب عنه ، ولكنى نزعت الى الأوطان واشتقت الى الاخوان »

## الحياة الجادة

واستأنف « الحسن » فى البصرة حياة الدرس والتحصيل وكان لحلقات الشعراء بالبصرة موضعان : موضع بالمربد ، وموضع بالمسجد ، وكان الحسن يغشاهما ولكنه لم يكن يقصر غشيانه عليهما ، بل أقبل على كل فن وعلم . وقد بلغ من ذلك أن تحدث عنه جماعة من الرواة ممن شاهدوه فى مســـتقبل أيامه فقالوا : « كان أقل ما فى الحسن قول الشعر ، فقد كان فحلا راوية عالما »

والبصرة أسبق عهدا من الكوفة بنهضة النحو واللغة والأدب ، وعلماؤها من أرسخ الناس فى العلم قدما وأغزرهم مادة وأولاهم بالثقة وأصحهم سندا ، مع ما كان من ظهور الكوفيين وقتئذ ، وتقريب خلفاء بنى العباس لهم واتخاذ المؤدبين لولدهم من بينهم ، جزاء نصرهم اياهم والسرعة الى تلبية الدعوة دون أهل البصرة حين قاموا لطلب الخلافة. وجعل الحسن يختلف الى حلقات الدرس التى كان يختلف اليها قبل سفره ، يأخذ عن هؤلاء العلماء الأعلام أنفسهم ويأخذ عن غيرهم . وأقبل كذلك على نحو سيبويه ينظر فيه ، وكان كتاب سيبويه آية العصر لم يسبق أحد الى مثله ، وامتنع فى اعتقاد القوم أن يلحقه أحد من بعده ، فهو الامام فيه ابتدعه لا على مثال . وكان قد بلغ من شهرة كتاب سيبويه أن كان يقال بالبصرة « قرأ فلان الكتاب » فيعلم أنه كتاب سيبويه ، و « قرىء الكتاب » فلا يشك أنه كتاب سيبويه ، وكان أشرف هدية تهدى الى اهل العلم. وكان القوم كلهم على تعظيمه واستصعاب ما فيـــه . فلا عجب أن نرى المترجمين للحسن يحرصون على ذكر قراءته له ونظره فيه

## الاستاذ الثانى

ولم يكن بين أساتذة « الحسن » بعد عودته من الكوفة الى

البصرة من لزمه الفتى وأفاد منه مثـل « خلف الاحمر » .
ولا جرم ، فقد كان شاعرا يعاني نظم القريض ويحسنه ولم يكن مجرد عالم بالشـــعر راوية له . واذا كان الاقدم في أستاذيته والبة بن الحباب ، فان خلفا الاحمر كان هو الاكثر تأديبا وتخريجا له

و « خلف » أول من أحدث السماع بالبصرة،وكان أوسع الرواة رواية لاشعار البادية . ولقد كان الناس من قبل ، وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب «العباس بن الاحنف» الشاعر الغزل المعاصر،فما هو الا أن أورد عليهم خلف الاحمر نسيب الاعراب حتى صار زهدهم فى نسيب العباس بقدر رغبتهم فى نسيب الاعراب (١) . وكان خلف يقول الشعر فيجيد،وربما نحله الشعراء المتقدمين فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامهم . ولكنه انقطع منذ نسك عن تزوير الكلام ، واشتهر بصدق اللسان حتى كان سامعوه لا يبالون اذا روى خبرا أو أنشدهم شعرا ألا يسمعوه من صاحبه . وليس أدل على عقيدة شعراء العصر بأنه أفرس الناس ببيت شعر ، من احتكام بعضهم اليـه واستنصاحهم اياه . ولقد شاع فى ذلك قول مروان بن أبى حفصة له : « نشدتك الله يا أبا محرز ، الا نصحتنى فى شعرى ، فان الناس يخدعون فى أشعارهم » . كما شاعت قصة ابن مناذر الشـاعر وقد حضر مأدبة كان فيها خلف الاحمر وتلميذه الاصمعي . فقال الشاعر لخلف : « يا أبا محرز ! ان يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلدة . فقس شعرى الى شعرهم واحكم فيها بالحق » . فغضب خلف لهذه الدعوى العريضة . ثم أخذ صفحة مملوءة مرقا فرمى بها عليه ، فقام ابن مناذر مغضبا ، ولعله هجاه بعدها من جراء ذلك

ولم يكن خلف الاحمر ضنينا بشيء من أدبه على تلميـذه

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ

«الحسن» ، واذا كان والبة قد جرأه على الشعر كما جرأه على السكر وهو غلام ما طر شاربه بعد ، فان خلفا فى تعصبه للجزالة وجودة السبك وتنطسه فى النقد ، عمل على كف جماحه وألزمه التريث والتثبت واستكمال أداته وتقوية ملكته قبل كل شيء ، وأعلنه بقوله : « لا آذن لك فى عمل الشعر الا أن تحفظ ألف مأثور للعرب ، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة » • فعكف الحسن يتلقفها من فيه ومن أفواه سائر الرواة ، وكان سريع الحفظ قوى الذاكرة ، فوعاها فى مدة غير مديدة ، وجاءه يقول : « قد حفظتها »• فجعل خلف يستنشده وهو ينشده حتى أتم أكثرها فى عدة أيام ، وكان يؤديها عن ظهر قلب لا يخرم منها حرفا •• فلما أظهر الاستاذ أن ذلك حسبه وأن الذى أداه التلميذ فيه مقنع وأى مقنع ، عاد الحسن يسأله أن يأذن له فى نظم الشعر • فاذا الاستاذ قد عاد يقول له : « لا آذن لك الا أن تنسى هذه الالف الارجوزة كأنك لم تحفظها » وكان الفتى جيد الحافظة بعيد النسيان ، فاحتج متعجبا : « هذا أمر يصعب على ، فانى قد أتقنت حفظها » فأصر الاستاذ : « لا آذن لك الا أن تنساها »• فذهب الحسن الى بعض الديرة خاليا يتفرج وأقام مدة حتى نسيها • ثم حضر فقال مؤكدا: « قد نسيتها حتى كأن لم أكن حفظتها قط » • عندئذ قال الاستاذ : « الآن انظم الشعر » • ولقد روى عن شاعرنا أنه قال : « ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى ، فما ظنك بالرجال ! »

وهذا المنهج الذى أخذ به الاستاذ تلميذه ظاهر فيه أنه انما أراد الى تخريج شاعر لا راوية • ومن ثمة كان دفعه اياه الى التكثر من المحفوظ ثم الى تعمد نسيانه ، تحقيقا للغاية من تطبيع الفتى على قوالب النظم الجيد من غير قتل لملكة الشاعر المطبوع فيه

ولقد جاءت أشعاره وهو فى كنف أستاذه شاهد صدق على مبلغ ما كان من تأثره بالاساليب القديمة وشعر الاعراب

ومن هذا القبيل رثاؤه لاسعد بن عصمة المشهور بأبى البيداء الرياحى وهو أعرابى نزل البصرة يعلم فيها الصبيان بأجرة وأقام بها عمره ، وكان من الفصحاء ينقل الرواة عنه وروى له « الحسن » شعرا . ومن شعره يتغزل :

قال فيها البليغُ ما قال ذو العـــــىّ ، وكلٌّ بوصفها مِنْـطِيقُ

وكذاك العدوُّ لم يَعْـدُ أن قا    ل جميلاً ـ كما يقول الصديقُ

وقد أتت مرثية « الحسن » فيه ـ كما هو المرتقب لذلك الحين منه ـ متوعرة ، عليها جفوة الاعراب وخشونة الجاهلية وعنجهية البادية ، كثيرة الغريب ، حوشية اللغة . ومطلعها :

هل مخطىءٌ حتفَـه عفرٌ بشاهقةٍ    رعى بأخْـيافها شثًّا وطبّـاقا

الى أن قال :

زار الحِمامُ أبا البيداء مخترماً    ولم يغادرْ له فى الناس مطراقا (1)

ومن طريف ما ذكر أن الاستاذ الاحمر قال ذات يوم لتلميـــذه الحسن ، ولعلها طريقة اســـتحدثها لتخريجه : « ارثني وأنا حى حتى أسمع » . فلم يمهـل الحسن أن جاء بمرثية لم يملك السامعون لها الا اســـتجادتها ، ولكنهم تعللوا وقالوا له ان كنت قلتها فقل فى نحـوها . فاعتزل وعمل فيه أخرى . فلما أنشدها وقعت موقع سابقتها . فقال أستاذه : « أحسنت والله » . فقال الفتى مازحا : « يا أبا محرز ! مت ، ولك عنـــدى خير منها » . فقال : « كأنك قصرت ؟ » . قال الفتى : « لا ، ولكن أين باعث الحزن ! » .

---

(1) نظيرا

ولما لم يكن سبيل الى ارجاء الاستاذ حكمه حتى يرى ما يقال فيه بعد موته فقد صدع بحكمه يومئذ فقال : « يا بنى ! ان شعرك فوق سنك . ولئن عشت ، لتكونن رئيسا فى الشعر »

وأما المرثيتان ، فكلاهما من ذلك الطراز القديم . واحداهما رجز ومطلعها :

لو كان حيٌّ وائلاً من التَلَف　　لوَألتْ شغواءُ فى أعلى شعف

والاخرى على النسق نفسه وعلى القافية ذاتها الا أنها ليست رجزا وهى مثبتة فى ديوانه كأختها ، الا أنه فى هذه وتلك أبيات لابد من آيرادها وهى قوله فى الاولى :

أودى جِماعُ العلم إذ أودى خَلَف
مَنْ لا يُعَدُّ العلمُ إلا ماعَرَفْ
فكلما نشاء منه نغترف
روايةً لا تُجتنى من الصحف

ومثله فى القصيدة الثانية :

أنسَى الرزايا مَيتٌ فُجعت به
أمسى رهينَ التراب فى جَدَف
كان يُسَنِّى برِفْقِهِ غَلِقاً
فى غير عِىٍّ منه ولا عنف
يجوب عنك التى عَشِيتَ بها
من قَبْلُ حتى يَشْفيك فى لطف

ولا يعمّى معنى الكلام ، ولا
يكون إنشادُه من الصحف

وكان ممن مضى لنـا خلفا
فليس منه إذ بان من خَلَف

وهذه الابيات من المرثيتين أوردناها لانها فوق بلاغتهـا بليغة الدلالة على مكان خلف من شاعرنا الناشىء • ولقد كان التلميذ يكثر من ذكر أستاذه ويفاخر به • ولم يزل يقول فيه « جمع علم الناس وفهمه » • وكان خلف ــ كما تقدم ــ له حذق بالشعر وطبقة فيه ، وقد اجتمع له ديوان شـــعر حمله عنه « الحسن »

## الخلاف على نسب الشاعر

كذلك كان التلميذ أثيرا عند أستاذه ، حتى قيل على أكثر من لسان أنه كان من أميل الخلق الى « الحسن » وأنه يوده أكثر من غيره من الشعراء • ولما كان لخلف ولاء فى الاشاعرة وكان أحد عمال اليمن وكان عصبيا، فقد استدعى «الحسن» يوما وقال له : « أنت من اليمن ، فتكن باسم من أســـماء الذوين » • والذوون هم المصدرة أسماؤهم بــ « ذو » من ملوك اليمن • وأحصى « خلف » له أسماءهم وخيره ، فاختار منها « ذا نواس » • فكناه « أبا نواس » • فصارت له كنية وغلبت على « أبى على » كنيته الاولى • فهو منذ ذلك الحين الى يومنا يعرف بين الناس عوامهم وخواصهم «بأبى نواس»

وغنى عن البيان أن معرفة خلف بموضع أبى نواس فى الادب هى التى جعلتـــه يدعو الفتى الى اظهـــار نسبته الى اليمنية ليؤثرها به وبما سيكون من شأنه ، تعصبا لها

والانساب ما برحت عند العرب موضع مفاخرة • وقد

وقع من ذلك للشعراء مادة لهجاء من يريدون هجاءه، بالتفنيد لدعواه وتهجين نسبه بالحق وبالباطل

وكان أبو نواس من نسل الموالى ، فادعى فى أول دعوته أنه من ولد عبيد الله بن زياد من بنى تيم اللات . ولكن شاعرنا لم يهنأ طويلا بدعوته اذ قيل له ان الرجل الذى تدعى اليه لا عقب له ، لانه فلج ومات عن غير ولد، فاستحى الدعى ، وتحول عنهم على كره منه وكان يكبر شأنهم ويراقبهم . وأمضى بعد ذلك صدرا من عمره يخلط فى دعوته . فتارة يدعى للنزارية وينتسب للفرزدق ، وتارة ينقلب على النزارية ويدعى لليمنية وأنه من قبيلة « حكم ». وكان كلما ادعى لواحدة هجا الاخرى وأقذع فى هجائها حتى هاج عليه شعراء القبائل وتعرض لاستطالة أعدائه عليه وغمزهم له تلميحا ووقوعهم فيه تصريحا . ومن ذلك هجاء الفضل الرقاشى له :

نبطىٌّ ، فإذا قيل له :
«أنت مولى حَكَمٍ ؟» قال : « أجلْ »
هو مولى الله — إذ كان به
لاحقاً ، فالله أعلى وأجلّ
واضعاً نسبتَه حيث اشتهى
فاذا ما رابه ريبٌ رَحَلْ

ولقد ظل الرقاشى وأبو نواس يتهاجيان فما أمسك واحد منهما عن صاحبه حتى فرق الموت بينهما

وكذلك قول سليمان بن أبى سهل بن نوبخت :

وينتمى الى حَكَمٍ دعوةً وما إن له نسبٌ فى حَكَم

على أن المذكور في أمر أبي نواس أنه كان بالفعل مولى الحكميين • وهي قبيلة كبيرة باليمن منها الجراح بن عبد الله الحكمي أمير خراسان وقد كان جد أبي نواس من مواليه • ومن أجل هذا تكرر من الشاعر فخره باليمن ومدحه اليمنية، واذا كان قد عرض لها بالشتم مرة فذاك من حر غيظه وغليان صدره على بعض اليمنيين وبخاصة هاشم بن حديج الكندي، وقد قال فيه :

وتَــحْتَـدُّ ، حتى يخاف الجليسُ
أذاك عليه من الحدّةْ

وتختم ذاك بفخرٍ عليــه
بكندةَ ، فاسْلَـحْ على كِنده

ولم يلبث الشاعر أن اعتذر من ذلك أشد العذر ذاكرا انه يمنى وأنه لم يجاوز بشتمه اليمنية أن سب نفسه وأهان والده :

فأقسمُ ما جاوزتُ بالشتم والدي
وعِـرْضى ، وما مزّقتُ غيرَ أديمى

ولا يخلو أن يكون أبو نواس في بعض دعاويه هـــذه يتماجن ويعبث على عادته ، ولاسيما أنه كان في أثناء هذا كله لا ينسى أنه فارسي من جهة أمه وان لم يذكرها خشية أن يهجى بها • فكان يتعاجم في شعره كما سنرى ، وقد ذهب في آخر أمره الى هجو العرب أجمعين ، واســتن في الشعر غير سنة شعرائهم الاقدمين

# ملتقى التيارات في ظل الدولة العباسية

لقد كان المسلمون فى صدر الاسلام مشغولين بالفتح . ولم تكن شواغلهم الفكرية الى قبيــل زوال الدولة الاموية تعدو المنازعات بين الأسر الطامحة ، والاختلاف فى الامامة بين أمية وشيعة أهل البيت والخوارج ، ثم الاجتهـــاد فى المذاهب الفقهية ، ولم يظهر علم الكلام الا فى أواخرها

فلما استقر الامر للعباسيين صرفوا همهم عن الفتوح الى توطيد دعائم الامبراطورية العظيمة التى آلت اليهم ، فلم يعرف لهم جهاد لنشر الدين وتوسيع حوزة الاسلام ، وانما كانت حروبهم قمعا لفتنة فى الداخل أو دفعا لنكث العهد ونقض الشرط والعدوان من الخارج . وفى ظلال هذه الحال من ايثار السلام ومداومة الاحتجان والاستجمام ، تعـددت المرافق وكثرت الارزاق واستبحر العمران واتسعت الحضارة، وأقبل معها الناس على الاستمتاع وطلب اللذة ، كما أقبلوا بعقولهم عـلى تحرى ألوان المعـــرفة والتطلع الى بعيـــدها واستطراف غريبها ، فيما نقله المترجمون بأمر الخليفة أبى جعفر المنصور من الكتب القديمة عن اليونانية والروميــة والفارسية والسريانية فى المنطقيات والرياضـيات والطب والنجوم .

وكان من شأن نصرة الفرس للدعوة العباسية أن أحلهم خلفاء بنى العباس المحل الرفيع وردوا عليهم اعتبارهم . لقد أديل للفرس فى يوم الزاب من يوم القادسية ، فهم اليوم كفاء والعرب لا سيد ولا مسود ، عفى الانقلاب العظيم على الفوارق ، فزالت من أمامهم العوائق وارتقوا الى أسنى المناصب فى الدولة ، واتخذ الخلفاء من الفرس كتابا ووزراء، ومن اليهود والنصارى تراجمة وأطباء ، وانفسحت لهم أجمعين مذاهب القول والعمل . ولا شك فى أن السياسة الجديدة التى أخذت بها الدولة العباسية فى المساواة بين رعاياها على اختلاف أجناسهم وأديانهم كانت مشجعا على امتزاج الحضارات وتزاوج الثقافات ، فأفاد العرب من ذلك خيرا كبيرا ، وكذلك دخل عليهم منه شر مستطير . فغلبت عليهم الحضارة الفارسية ، وتشاغلوا بالفلسفة اليونانية ، وقبسوا من نظر أهل الهند ، وأداهم هذا كله الى أشياء لم تكن من طبعهم ولا من مألوف عادتهم فى أول أمرهم ، من اصطناع الترف فى الملبس والمأكل والاستهتار فى الشرب، والمجاهرة بما يستوجب الحد ، ومن الكلف الذى لا بعده كلف بعلم النجوم والتنجيم ، والتفلسف حتى فى الامور الدينية والعقائد الايمانية

## تعاجم أبى نواس

والامثلة على ذلك فى شعر أبى نواس كثيرة لاسيما شعره بعد زيارته لبغداد . فمن تعاجمه فى شعره وتعصبه للفرس قوله بعد وصفه دنان الخمر ومجانى الكروم :

تُراثُ أنوشروان كسرى ، ولم تكن

مواريثَ ما أبقتْ تميمٌ ولا بَكْرُ

ثم قوله فيصفة الغناء الذى يستحبه علىالشراب المعتق:

فاسقنيها وغن صـــو تاً ـ لك الخيرُ ـ أعجما

ليس فى نَـعْتِ دمنـةٍ لا ولا زَجْـر أشأما

وقوله يتمنى لو كان الأكاسرة أحياء وكان نديمهم :

فلو رُدَّ فى كسرى بن ساسان روحـه

إذن لاصـطفانى دون كلِّ نديم

ومثلها هـــذه الابيات الرائعة فى صــفة دار من الدور الفارسية القديمة فى ساباط ، وقد شرب فيها الشـــاعر وصحبه بين آثار من سبقوا منالندماء الغطارفة أبناءفارس، ذاكرا لايامهم ، ناظرا الى الاطلال الناطقة بحضارتهم،مجددا بالشرب فيها عهدهم :

ودارِ ندامى عطّلوها وأدْلجوا

بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ

مساحبُ من جرِّ الزقاق على الثرى

وأضغاثُ ريْحانٍ جَـنِيٌّ ويابس

حبستُ بها صحبي ، فجددتُ عهدَهم

وإني على أمثالِ تلك لحابسُ

ولم أدرِ منهم غيرَ ما شَهِـدَتْ به

ـ بشرقيّ ساباطَ ـ الديارُ البسابسُ

أقمنا بها يوماً ، ويومين بعده ،

ويوماً له يومُ الترحُّـلِ خامس

تدار علينا الكأسُ في عسجديّةٍ
حَبَتْها بأنواع التصاوير فارسُ
قرارتها كسرى ، وفي جَنَباتها
مَهًى تدّريها بالقِسِيّ الفوارسُ
فللخمر ما زُرّت عليه جيوبُها
وللماء ما دارتْ عليه القلانس

وكذلك احتفاله بالاعياد الفارسية :

يُباكرُنا « النوروز » في غَلَس الدجى
بنَوْرٍ على الأغصان كالأنجم الزهرِ
يلوحُ كأعلام المطارف وَشْيُهُ
من الصُّفْر ، فوق البيض والخضْر والحمر
إذا ما قابلَتْهُ الريح أوما برأسه
إلى الشَّرْب أن سُرُّوا ومال من السكر

▭

إسقنا ، إنّ يومَنا «يومُ رام» ولِذا « رامٍ » فضلُه على الأيامِ
في رياض رَبْعيَّة بكّر النوْءُ عليها بمستهلّ الغمام
فتوشّت بكلّ نَوْرٍ أنيقٍ من فُرادَى نباتِهِ وتُؤام
فترى الشَّربَ كالأهلّة فيها يتحسّون خسرويّ المدام

والنيروز أو النوروز عند الفرس أول يوم من السنة الشمسية عند نزول الشمس أول الحمل ، ومعناه بالفارسية

« يوم جديد » لانه يؤذن بمقدم الربيع الذى يرد على الدنيا شبابها وجدتها وهو عيدهم السنوى يقضونه فى التنزه والشرب فى الرياض. ويوم رام هو كل يوم حادى وعشرين من كل شهر من شهور الفرس ، يلذون فيه ويفرحون . وكان أبو نواس يحتفل بأعيادهم ، كما كان يلهج بذكر مناقبهم وتفضيلهم ويحب أن يتزيا بزيهم ويظهر للناس أنه منهم

## الشعوبية

ولا شك فى أن الحركة الشعوبية كان لها كبير أثر فى ذلك . فقد كان للعرب افتخار بأنهم خير أمم الارض قاطبة، لما نشأوا عليه من الاستقلال والعزة والمنعة فى جزيرتهم ، وللصفات والعادات التى شاعت بينهم من اكرام الضيف ونجدة الضعيف وحفظ الانساب ، وما كان عليه الاعراب من البديهة وسرعة الخاطر وقوة الجنان ، وما اختصوا به لغتهم من صفة البلاغة وحسن البيان ، ثم ما كان من نشأة الاسلام فيهم وانتشاره على أيديهم

وقد ثقلت هذه العصبية المتطرفة من العرب وما يلحق بها من المفاخرة المتكررة. وزادها ثقلا أنهم لم يرتضوا دعوة المفكرين المعتدلين الى التسوية بين المسلمين عامة ، وأنه ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى . فلم يلبث هذا التعنت أن ثارت عليه ثائرة غير العرب من شعوب الامبراطورية الاسلامية فغالوا مثل مغالاتهم فى الحط من شأن العرب العرباء وتحقيرهم . فراحوا يهجنون أنسابهم بشيوع المرأة بين رجال عدة فى جاهليتهم، ويعددون مثالبهم من وأدهم الولد خشية الاملاق ، واعتماد قبائلهم على الغزو والسلب ، ويزرون عليهم جدب الارض وبداوة العيش ، وذهابهم فى المن من أجل طعام أطعموه أو معونة بذلوها . وراحوا فى الوقت نفسه يذكرون عظمة السلطان عند

الرومان ، وحكمة الهند وطبها ، ومنطق يونان وفلسفتها ، وعلوم مصر وسحرها ، وصناعات الصين وفنونها،وحضارة فارس وترفها • وجعلوا العرب من ذلك أقل الامم شأنا فى كل شىء ، وأضعفها استحقاقا للتفاخر

واذا ذكرنا أن أبا نواس كان اعجميا من ناحية أمه ، وأنه على اية حال لم يكن يرجع من جانب ابويه جميعا الى نسب يصح معه الافتخار باظهاره ، لم يأخذنا العجب من شدة ضيقه فى أكثر أشعاره بتلك العصبية القبلية عند الأعراب ، واستمرارهم على تفاخرهم الجاهلى بالأصول والأنساب

عاج الشقىُّ على رسمٍ يسائله وعُجتُ أسأل عن خمارة البلد

يبكى على طلل الماضين من أسدٍ لادَرَّ دَرُّكَ ! قل لى من بنو أسد؟

ومن تميمٌ ؟ ومن قيسٌ ولفهما؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد

بيد أن هذه الروح الشعوبية التى تتراءى فى هذا الشعر لم يكن لها عند شاعرنا دوافع مذهبية ، وانما الغالب عليها النوازع الفنية من ايثاره لترف الحضارة الفارسية الحاضرة على تقشف البداوة العربية القديمة ، ومن دعوته الى تجديد الشعر بما يجعله صورة صادقة للحقيقة الواقعة . والى هذه الشعوبية الفنية يشير الناقد العربى فى قوله : « وكان النواسى شعوبى اللسان ، وما أدرى ما وراء ذلك »

## بداوة العرب وحضارة الفرس

ونحن نرى شاعرنا أبا نواس فى شعره دائم التعريض بالاعراب ، والمقابلة بين حياة البداوة العربية وبين الحضارة الفارسية فى حاضرها وماضيها :

دَعِ الرسمَ الذى دَثَرا يقاسي الريحَ والمطَرا

ألم ترَ مابنى كسرى | وسابورُ لمن غبرا
---|---
منازهُ بين دجلة والـ | فرات تفيّأت شجرا
بأرضٍ باعد الرحمـا | نُ عنها الطّلحَ والعُشَـرا (١)
ولم يجعل مصـايدها | يرابيعاً ولا وَحَـرا (٢)
ولكن حورَ غزلانٍ | تراعى بالملا بَقَرا
وإن شئنا حشئنا الطيـ | ـرَ من حافاتها زُمَـرا
وإن قلنا اقتلوا عنكم | يباكر شربُها الخمرا
فذاك العيشُ لا سِيداً | بقفرتهـا ولا وَبَرا (٣)

وهذا وصف آخر لبلدة من البلدان المتحضرة التى لا تمت الى بدو العرب بسبب ، وانما هى من الحواضر الفارسية وطن « بنى الاحرار » كما شاءت العصبية للفرس أن يسموا أنفسهم :

بلدةٍ لم تصل كلبٌ بها طنباً | إلى خباءٍ ولا عبسٌ وذُبيانُ
---|---
ليست لذُهْلٍ ولا شيبانَ بها وطناً | لكنها لبنى «الأحرار» أوطانُ
أرضٌ تبنّى بها كسرى دساكرَه | فما بها من بنى الرعناء إنسانُ
وما بها من هشيم العرب عَرْفجة | ولا بها من غذاء العرب حطبان
لكن بها جُلّنارٌ قد تفرّعه | آسٌ ، وكلّله وردٌ وسوسان
فإن تنسّمتَ من أرواحها نسَماً | يوماً تنسّم فى الخيشوم ريْحانُ

(١) من نبات البادية (٢) اليرابيع : نوع من الفيران ، الوحر مفرده وحرة وهى المعروفة فى العامية بالسحلية (٣) السيد : الذئب ، الوبر : دويبة كالسنور

وكان مما يبغضه فى العرب انهم لا يفتئون يتفاخرون ؛ الا يكن من العصبية القومية بينهم وبين غيرهم من الشعوب، فبينهم وبين أنفسهم. فهم أبدا فى شقاق ونقار من العصبية القبلية، لا يجتمع رجلان من قبيلتين حتى يقوم بينهما الفخار وينتهى بهم آخر الامر الى التعدى والشجار . ويقول أبو نواس انه من أجل هذا يؤثر صحبة الاعجام ومنادمتهم:

نادمتهم أرتاض فى آدابهم
فالفرس عادى سكرهم محسومُ
متوقّرين ، كلامهم ما بينهم
ومزمزمين خفاؤهم مفهومُ
ولفارسِ الأحرارِ أنْفَسُ أنْفُسٍ
وفخارهم فى عشرةٍ معدومُ
واذا أنادم عصبةً عربيةً
بدرتْ إلى ذكر الفخار تميم
وعَدَتْ إلى قيسٍ وعدّتْ قوسَها ،
سُبيَت تميمُ وجمْعُهُم مهزومُ !
وبنو الأعاجم لا أُحاذر منهمُ
شرًّا ، فمنطق شَرْبهم مزمومُ
لا يَبْذَخون على النديم إذا انتشوا
ولهم إذا العربُ اعتدتْ تسليمُ

وجميعُهم لى – حين أقعد بينهم –
بتذلل وتهيبٍ موســومُ

هذا قليل من كثير من مظاهر نزعة شاعرنا الفارسية ، وستطالعنا ثانية عند وصفنا لحياته فى دار السلام ، فحسبنا هذا القدر منها هنا

## الاشتغال بالنجوم والعلوم والفلسفة

وأما اشاراته الدالة على اشتغال أهل العصر بعلم النجوم فغير قليلة. ولا غرو فقدكان الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر المنصور أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان معه من المقدمين فى هذا العلم نوبخت المجوسى المنجم الذى أسلم على يديه ، وهو أبو النوبختية الذين اتصل بهم « أبو نواس » أوثق اتصال . وقد ترجمت الكتب فى الفلك وهيئاته وأخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها

وقصيدة شاعرنا فى مدح الوزير يحيى بن خالد البرمكى مثال اذا سقناه وحده فانه يغنى عن كل مثال بعده . قال يصف ممدوحه بالسخاء والشجاعة :

صورةُ المشترى لدى بيت ثور الـلـ
ـيل ، والشمس أنت عند انتصاب[1]

ليس ( زاويش ) حين سار أمام الحـ
ـوت والبدر إذ هوى لانصباب

منكَ أسخى بما تَشُحُّ به الأنـ
ـفسُ عند انتقاص دَرِّ الحِلاب

(١) لكل من الكواكب السيارة – عدا الشمس والقمر – بيتان ، بيت لليل وبيت للنهار . عند انتصاب : عند ارتفاع

لا . . و ( بهرامُ ) تستقلّ به العقـ

ربُ بالليـــل زائداً فى الحساب

منكَ أمضى لدى الحروب ولا أهـْ

ول فى اليمين عنـد ضرب الرقاب

ويلاحظ أن (زاويش) Zeus لفظ يونانى وهو المشترى فى الكواكب السيارة ، ثم فى خرافات اليونان الأقدمين كبير الآلهة ورب السموات . وأما ( بهرام ) فهو المريخ بالفارسية ثم فى الخرافة اليونانية اله الحرب

ومثل ذلك قوله يصف الخمر بالقدم :

تخيِّرَتْ ، والنجوم وقفٌ لم يتمكنْ بها المدارُ

وكان أصحاب الفلك يقولون انه كان لدوران الفلك ابتداء كان قبله ساكنا

وفى كلام أبى نواس أيضا المام بمبادىء الطبيعيات التى كانت بسبيل الشيوع فى أيامه . فمن ذلك تصرفه فى الكلام عن الطبائع الاربع التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فى قوله هازلا يستفتى طبيب الرشيد أبا عيسى جبريل بن بختيشوع فى الخمر :

سألتُ أخى «أباعيسى» و « جبريلٌ » له عقل

فقلت : « الخمر تعجبنى » فقال : « كثيرُها قتْل »

فقلتُ له : « فقدِّرْ لى » فقال وقوله فصل :

« وجدتُ طبائعَ الانسا ن أربعةً هي الأصل

فأربعـــةٌ لأربعةٍ لكل طبيعة رطل »

وقوله هاجيا زهير المغنى :

قلْ لزهيرٍ إذا اتّكا وشَدَا :

« أقْلِلْ أوَ ا كثر ، فأنت مِهذارُ

سَخُنْتَ من شدة البرودة حـ

تى صرتَ عندى كأنك النارُ

لا يعجب السامعون من صفتى

كذلك الثلج باردٌ حار »

ففى ذلك التفات الى ما كان يروى من أقوال أهل الهند أن الشيء اذا زاد فى البرد تحول الى الحرارة بدليل أن الصندل الابيض اذا أفرط فى حكه عاد حارا مؤذيا

واخيرا يقع القارىء فى شعره هنا وهناك على الفاظ من مصطلح المتفلسفة مثل قوله يصف ما صيره اليه تبريح العشق من النحول والضنى :

تركتَ مِنّى قليلاً من القليل أقَلّا

يكاد لا يتجزّا أقلّ فى اللفظ من « لا »

وقد زعموا أن ابراهيم النظام المعتزلى لما أن سمع ذلك منه قال له : « أنت أشعر الناس فى هذا المعنى • والجزء الذى لا يتجزأ ، منذ دهرنا الاول نخوض فيه ، ما خرج فيه لنا من القول ما جمعته أنت فى بيت واحد »

## الزنادقة

ولقد كثر فى الحواضر الاسلامية الشكاك والدهريون ، ومروجو التعاليم اليهودية والنصرانية ، والزنادقة من الثنوية وغيرها من مذاهب الفرس ولاسيما المانوية ، فكانوا

يتصلون بالناشئة يزينون لهم المروق والالحاد ويفسدونهم. ولولا ظهور المتكلمين وقوة المعتزلة وقتئذ لكان بلاء الاسلام بهؤلاء أشد وأنكى . ومن هؤلاء الدعاة الى الزندقة في البصرة عبد الكريم بن أبي العوجاء . وقد تصدى له شيخ المعتزلة عمرو بن عبيد فقال له مهددا متوعدا : « قد بلغني أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستنزله وتدخله في دينك . فان خرجت من مصرنا ( يعني البصرة ) والا قمت فيك مقاما آتي فيه على نفسك » . وكذلك تعاون وامام المعتزلة واصل ابن عطاء على الهتف بالشاعر الاعمى الملحد بشار بن برد حتى نفى من البصرة. فلما رجع اليها عند موت واصل سنة ١٣١ لم يزل عمرو به حتى نفى ثانية ، وظل بعيدا عنها الى أن مات المعتزلي في أواخر سنة ١٤٣ . ولقد كان من شيوع الزندقة ونشاط دعاتها أن وقف عمرو بن عبيد حياته كلها على حربها وكثرة المقال لمناهضتها ، ومن مصنفاته كتاب فيه ألف مسألة للرد على المانوية ، كما أنه صمد من معتزلة الجيل لجدال الزنادقة ومناظرتهم أبو الهذيل محمد ، ولقب بالعلاف لأن داره بالبصرة كانت في العلافين . وكان للعلاف بصر بالفلسفة اليونانية وكان في احتجاجاته العقلية لا يخلو من بعض الاعتماد عليها . ولعل في الابيات التى هجا بها أبو نواس خصمه شاعر البرامكة أبان بن عبد الحميد اللاحقي صورة لما كان شائعا في أوهام الناس عن عقائد المانوية في ذلك العصر :

جالستُ يوماً « أباناً » لا دَرّ درُّ « أبان »

ونحن حُضُرُ رواق الأ مـــير بالنّهْرَوان

حتى إذا ما صلاة [1] الأ ولى دَنَت لأذان

---

(١) صلاة الأولى يعنى بها صلاة الصبح

فقــام ثَـمَّ به ذو — فصـــــاحة وبيان
وكلّما قال قُلْنا (1) — إلى انقضــاء الأذان
فقال(2) : « كيف شهدتم — بذا ، بغير عيان ؟
لا أشهدُ ـ الدهر ـ حتى — تُعَــاين العينان »
فقلتُ : « سُبحانَ ربى ! » — فقال : « سُبحانَ مانى ! »
فقلتُ : « عيسى رسولٌ » — فقال : « من شيطان »
فقلت : « موسى نجىُّ الـ — مهيمن المنّــان »
فقال : « ربُّك ذو مقـ — ـلة إذاً ولسان ؟
أنَفْسُــهُ خَلَقَتْه — أم مَنْ ؟ » فقُمتُ مكانى
عن كافرٍ يتمرَّى (3) — بالكفر بالرحمـــن
يريد أن يتَسَــوَّى — بالعصـــبة المجّان
بعَــجْردٍ وعُبــادٍ — والوالبىِّ (4) الهجــان
وقاسمٍ ومُطيــعٍ — رَيْحانة النَّـــدْمان

وكانت خراسان كعهدها منبت الكثير من الدعوات ومرتعا لدعاتها . وقد ظهر فيها فى أوائل عهد الخليفة المهدى دعى من أهل مرو يســمى حكيما ، وكان أعور قصيرا مشنوء الخلقة ، وكان لا يسفر عن وجهه بل اتخــذ وجها من ذهب

(1) كلما قال المؤذن قولا رددناه بعده
(2) أى فقال أبان اللاحقى كيف شهدتم بقول المؤذن « اشهد الا اله الا الله ، اشهد أن محمدا رسول الله » ولستم للامر شهود عيان
(3) يتمرى بالكفر يتزين به أى يتخذه زينة
(4) الوالبى هو والبة بن الحباب استاذ أبى نواس والآخرون حماد عجرد وعبادة وقاسم بن زنقطة ومطيع بن اياس

فتقنع به لئلا يرى ، فلقب بالمقنع • وكان يدعى الالوهية فيزعم أن الله خلق آدم وتحول فى صورته ولذا قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر فكان من الكافرين ، ثم تحول فى صورة نوح وهلم جرا الى أن حل فى أبى مسلم الخراساني ومن بعده حل فيه • وهو يقول بالتناسخ ، وكانت تعاليمه اباحية فتابعه ضلال الناس ، واجتمع اليه خلق كثير غلب على عقولهم بالتمويهات • ولم تتمكن جيوش الخليفة منه الا بعد عامين كاملين . وقد أطالوا حصاره وضايقوه واستمالوا معظم أصحابه ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله ، فشرب واياهم السم ، وألقى بنفسه في النار وهو يقول : « من أحب أن يرتفع معى الى السماء فليلق نفسه معى فى هذه النار » • وكان ذلك مما زاد فى افتتان من بقى من أصحابه. وبلغ من شيوع الزندقة فى خراسان وفارس والعراق فى أواخر أيام المهدى أن ضاق صدر الخليفة وفارقه صبره واضطرم غيظه ، فجد فى طلب الزنادقة وولى أمرهم « عمر الكلواذى » ليفرغ لهم ويمعن فى البحث عنهم فى الآفاق لينكل بهم شر تنكيل ، ولما مات ولى مكانه « محمد بن عيسى المعروف بحمدويه »

ويخلص من هذا جميعه أن حركة الزندقة كانت من الشدة بحيث دعت الى مقاومتها بقوة السيف وبقوة الحجة• وكان المهدى صاحب هذه الخطة المزدوجة . وفى ذلك يقول المؤرخ المسعودى : « ان المهدى أمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم واعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته ، لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون ، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنف فى ذلك ابن أبى العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن اياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية. فكثر بذلك الزنادقة

وظهرت آراؤهم فى الناس. وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين »

## زندقة الفكر

وكان أبو نواس ممن اشتهوا الكلام وجالسوا المتكلمين. ولكنه لم يفد من ذلك ما أفاده غيره ، فان هذا العلم ان يكن باضافته شواهد المعقول الى شواهد المنقول قد زاد البعض ايمانا على ايمان ، فان تعرض مثل شاعرنا لهذه الموضوعات مع ما كان عليه من خفة الشباب وقلة التورع وفساد النشأة قد أداه الى شيء من الزندقة . ولقد أقر على نفسه بها فى هجائه لابراهيم النظام المعتزلى :

قولا لابراهيم قولاً هَتْرا　　غلبتنى زندقةً وكُفْرا

ولقد استمر الجدال بين القائلين باختيار الانسان لافعاله، وحرية ارادته لها وقدرته عليها ، وهم المعروفون بالقدرية، وبين الذين لا يثبتون للانسان فعلا ولا قدرة على الفعل ، ويضيفون ذلك كله الى الله تعالى ، وهم المعروفون بالجبرية. وهو جدال ذو خطر كبير لاتصاله بالعدل الالهى من حيث التكليف ثم الحساب . ولقد أعيت أبا نواس متابعتهم ،فلم يلبث أن وقف من البحث عند حد التجربة المادية والمشاهدة الحسية فى قوله :

يا ناظراً فى الدين ما الامرُ ؟　　لا قَدَرٌ صَحَّ ولا جَبْرُ

ما صحَّ عندى من جميع الذى　　يُذكر إلا الموتُ والقبرُ

وحسب القارىء فى زندقته شهادة فيلسوف الشعراء أبى العلاء المعرى اذ يقول فى رسالة الغفران : « ولا أرتاب

فى أن دعبلا كان على رأى الحكمى ( أبى نواس ) وطبقتـه ، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة » وفى موضع آخر منها « وقد اختلف فى أن أبا نواس ادعى له التأله ، وأنه كان يقضى صلوآت نهاره فى ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه » على أن أبا العلاء على عادته فى التشكك وعدم الجزم يقول فى نفس الرسـالة « وذكر صاحب كتاب الورقة جماعة من الشعراء فى طبقة أبى نواس ومن قبله ووصفهم بالزندقة . وسرائر الناس مغيبة وانما يعلم بهـا علام الغيوب » . وأيا كان الرأى ، فان الواقع أن شاعرنا لم يكرر القول فى هذه الموضوعات ولم يجعل الكلام فيها من أغراض شعره كأبى العلاء ، بل تحرز ما استطاع من أن يذهل فيها عن نفسه عملا بوصيته لغيره :

مُت بداء الصَّمت خيرٌ  لك من داء الـكلام
إنما الـسالمُ مَن ألـ  جمَ فاهُ بلجـــام

## زندقة المجون والسكر

على أنه مع ذلك كان لا يملك لسـانه من الخروج عن حد الادب والمساس بحرمة الدين وهو فى حالة سـكر أو فى سياق مجون

ومن ذلك ما يروونه من مداعباته للشيخ عبد الواحد بن زياد أستاذ الحديث بالبصرة ، اذ أقبل ذات يوم الى مجلسه وقد كثر عليه أصحاب الأحاديث ليسألوه عنها . فقال لهم : « ليسأل كل رجل منكم عن ثلاثة أحاديث مهمة وليمض » . ففعل النـاس ذلك ، حتى انتهى الى أبى نواس ، فقال : « سل يا فتى » فقعد بين يديه وأنشأ يقول :

ولقد كنـا روينا  عن سـعيدٍ عن قَتاده

عن زرارة بن أوفى أنّ سعدَ بنَ عباده
قال : « من مات محبًّا فله أجرُ الشهاده »
أترى ذاك صواباً نَتّبعْ منه سَدَاده ؟

فالتفت اليه الشيخ مغضبا وقال : «اغرب عني ياخبيث، والله لا احدثك بعد ذلك ، ولا أعرف وجهك » . فقال ابو نواس كالمحتج : « والله لا أتيت مجلسك وانت ترد الصحيح من الاحاديث »

وعلى هذا النسق أخبار أبى نواس كلها حين يفرط المجون عليه . وكذلك أشعاره حين تنازعه نفسه الآثمة الى الخمر ، وتدفعه شهوته الفاسدة الى الاستهتار باللذات :

ألم تَرَني أبحتُ اللهوَ نفسى وديني ، واعتكفت على المعاصى
كأنى لا أعود إلى معادٍ ولا أخشى هنالك من قصاص

وكذلك قوله مجادلا :

وملحّة باللوم تحسب أننى بالجهل أوثر صحبةَ الشُّطّار
بكرتْ علىّ تلومنى فأجبتها : «إنى لأعرف مذهب الأبرار»
فدعى الملامَ فقدأطعتُ غوايتى وصرفتُ معرفتى الى الانكار
ورأيتُ إتيانى اللذاذةَ والهوى وتعجّلى من طيب هذى الدار
أحرىوأحزمَ من تنظّر آجل عِلْمى به رَجْمٌ من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبّر أنه فى جنةٍ مَنْ مات أو فى نار »

ولقد كان الجماز عند شاعرنا فاسمعه هذه الأبيات ، فلما بلغ الى البيت الاخير ، قال له الجماز : « يا هذا ، ان لك أعداء ، وهم ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاتق الله فى نفسك ، ودع الافراط فى المجون ، واكتمها » . فقال

أبو نواس : « لا والله ، لا أكتمها خـــوفا ٠ وان قضى شيء كان » ٠ فنمى الخبر الى الوزير الفضل بن الربيـــع ثم الى الخليفة الرشيد ، فما كان بعد هذا الا أسبوع حتى حبس

بيد ان أبا نواس مع ما كان يلقاه كل حين من التعزير والحبس والتخويف ما برح طول حياته ينشد من أمثال ذلك الكثير متى نال منه السكر وغلبه الطرب وطفح على قلبه

## الزندقة على سبيل التظرف

وهذا كله لا يجب ان نأخذه على الشاعر مأخذ الجد ، فلقد عاش الرجل ومات صاحب لهو ٠ وقد ألقى أبو نواس فى سجن الزنادقة للمرة الاولى وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره ، فلقى فيه حماد عجرد فقال في وصفه : «كنت أتوهم أن حماد عجرد انما يرمى بالزندقة لمجـونه فى شـــعره ، فاذا حماد عجرد امام من أئمتهم ، واذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به فى صلاتهم » . ولا شك عندنا فى أن القارىء لهذا الحديث يستشعر منه استنكار الفتى ونفوره حين ظهر له أن زندقة حماد عجرد حقيـــقة لا لهو ٠ وأكبر الظن أن أبا نواس لم يكن يتزندق عن عقيـــدة ، وانما كان يظهـر الزندقة تظرفا ٠ وليس هو فى ذلك نسيج وحده ، بل مثال من أمثلة كثيرة العدد على روح العصر ٠ وليس أدل على ذلك من قول معاصره الشاعر ابن مناذر فى محمد بن زياد :

يا بن زيادٍ ، يا أبا جعفر ! أظهرتَ ديناً غير ما تُخفى
مُزَنْدَقُ الظاهرِ باللفظِ فى باطنِ إسلامِ فتًى عَفِّ
لستَ بزنديق ولكنما أردتَ أن توسَم بالظَّرف

# الحب الأول والاخير

بقلم ...

كل جنس مدفوع الى الجنس الآخر بدافع من تلك الحاجة الطبيعية الآمرة التى أودعها خالق النسم كل نسمة لبقاء الحياة وحفظ النوع . واذا كان أمر من الامور فى غنية عن البيان ، فذالك ما للعاطفة الجنسية على الأحياء من سلطان .

ولا بدع فهى صاحبة الشأن الاول فى نظام الوجود ، وقد اقترنت منذ القدم بدوافع الانسان الاولية ، ثم لابست أولى شعائره الدينية

فهذه الغريزة عميقة أيما عمق ، وعامة كل العموم ، وهى تشغل حيزا كبيرا من اهتمام الانسان وان يكن الكلام فيها قليلا والكتابة عنها أقل .

وهي — بعد — مركبة القوى شتى العناصر ، يشترك فيها كياننا الحسى والعاطفى والروحى . وهذه العوامل متجاوبة فينا متواشجة ، تتحول فيما بينها مؤثرة متأثرة ، وقد يغلب أحدها فلا تدوم له الغلبة ، كما ان المغلوب لا يبرح على كل حال حى الجذوة كامن القوة

والصبى اذا أدرك سن المراهقة ، وشبت فيه العاطفة الجنسية وعذبته ، قد يتلفت كالحيوان المفترس يطلب فريسة يشبع بها هذا السعار الجنسى ويرفه من ضغطه الموبق . ولكن الحاجة الجسدية لا تلبث جسدية على حالها ، فان كثافتها لتلطف ، وان حواشيها لتتلون بألوان الطيف ،

وتسربل أعطافها بابراد الخيـــال ووشى الشعر . وذلك ان المرء له الى كيانه العميق السفلى كيان رفيع علوى ، يقتضي التعاطف بين قلب وقلب ، والتوافق بين مزاج ومزاج. وهذا التجاذب الخفى بين الأرواح مما يهون على العشاق تباريح الهوى ولوعة الحرمان ، ويجعل انفسهم أطيب ماتكون بالبذل والفداء وانكار الذات

على أنه لن تفتأ بين هذا الأفق السماوى وذلك القرار الارضى صلة غير مقطـوعة ، كالزهرة اصولهـا مطمورة فى حضيض التربة ، وكالتربة يتحلل من عناصرها الغليظـة ما تزكو به الزهرة

فالشهوة هى حاجة الحس ، ويعرف صاحبها الشبع فى كل مرة كما يعرف الجائع الامتلاء بعد كل وجبـة . فاذا ما ترقى بها الانسان الى الحب كان شوقه دائما ، فليس هو بالذى تشبع نهمته وتنقع غلته ، بل لعله مع القرب ابقى شوقا وأشد هياما على حد قول ابن الرومى :

أعانقها ـ والنفس بعدُ مشوقةٌ

إليها ـ وهل بعد العناق تَدانِ !

وألثم فاها ، كي تزول حرارتى

فيشـتد ما ألقي من الهيمان

وما كان مقدار الذى بى من الجوى

ليشفيَه ما ترشف الشفتان

كأن فؤادى ليس يَشفى غليلَه

سوى أن يرى الروحين تمتزجان

وهذه الصورة اصح مثال على الحب فى حده الطبيعى

السليم . فليس فيه انكار الزهاد للجسد وانصرافهم عن ظاهر الحس ، وفيه مع هذا شوق المتصوفة الى ما وراء الحس وحنينهم الي الاتحاد بالروح والفناء فى المحبوب

وما كان شاعرنا أبو نواس على استهتاره كسائر الخلعاء المجان فى اللهو والشراب ومصادقة الفتيان ، بالذى يخرج وقد بلغ مبلغ الرجال عما للحب الطبيعى بين الجنسين من غلبة على الحس وسلطان على النفس

## نظرة أورثت حسرة

وقد اتفق له أن كان فى مربد البصرة جالسا مع شباب من آل ثقيف يتنزهون وهو ينشدهم من اشعاره ، اذ مرت بهم جارية أفرغت فى قالب الجمال ، سوية الخلقة بديعة التقطيع ميساء معتدلة القوام

فوقالقصيرة، والطويلةُ فوقها  دونالسمين،ودونها المهزولُ

وقد أبرزت عن وجه وضاح ، أزهر اللون ، رفاف البشرة، حلو الملامح ، عبقرى المعنى . فجعل ينظر مأخوذا الى ذلك المنظر الرائع والحسن البارع وهى ماضية فى طريقها لاتلتفت ، قاصرة الطرف ، مسبلة الأهداب . وما زال يتبعها نظره الى ان غابت عنه . فقال له أصحابه : « خرجت عن حدك الذى كنت تنتسب اليه يا أبا نواس » يشيرون الى ما عرف عنه من الغزل بالمذكر . فسكت لحظة لا يجيب ، ثم انشأ يقول :

إنى صرفتُ الهوى إلى قمر  لا يتحدّى العيونَ بالنظرِ
إذا تأمّلتَه تعاظمكَ ال  إقرارُ فى أنه من البشر
ثم يعود الانكارُ معرفةً  منك إذا قستَه إلى الصُّور
مباحةٌ ساحةُ القلوب له  يأخذ منها أطايبَ الثمر

وبقى بينهم ساهما سحابة نهاره ، حتى اذا اظل المساء

استعجل العودة الى بيته ليخلو الى نفسه . لقد انطبعت هذه الصورة العابرة فى قلبه بخطوط من نور ونار ، ولن تفارقه فى ليل ولا فى نهار . وهيهات بعد اليوم أن يطيب له نوم أو يقر له بال . ان أبا نواس اليوم غير أبى نواس الأمس . هذا الرجل الواقعى المستغرق فى الحس ، والماجن المستهلك فى اللهو والسكر ، والخلى الذى لم يعرف الحب ، قد شغف اليوم حبا ، واصبح بخيال هذه المرأة مستهاما صبا . فليس شيء من مفاتن الحياة يشغله عن التفكير فيها ، وهو ينظم الأشعار تلو الأشعار ليناجيها ، يشكو وجده بها وحنينه اليها وهو لا يعرفها . ولقد طال سؤال أبى نواس عنها وتنسمه لأخبارها وجلية أمرها ، فلم يقع بعد اليوم الذى رآها فيه على خبر منها . فما أحاله ذلك عن قصده ولا حبس من عنانه وصرفه عن هواه . وكان يقول لمن يلحاه فى لجج حبه ودابه فى طلبه :

كما لا ينقضى الأرَبُ ... كذا لا يفتُر الطلبُ

وتناقل أهل البصرة حال شاعرنا فى حبها واقواله فيها واكثروا ذكره فى كل محفل ومجمع

## جنان الجارية

ولم تكن هذه المشوقة المجهولة الا « جنانا » جارية آل عبد الوهاب الثقفى ، وقد اتفقت الأقوال على أنها كانت مقدودة حلوة بديعة الحسن ، اديبة ظريفة عاقلة ، تعرف الأخبار وتروى الأشعار . كما اتفقت الاقوال على أن أبا نواس لم يصدق فى حب امرأة غيرها

ولقد ذكرته لها نساء من صواحبها ، وزين لها أن يخرجن فيعبثن به ويمازحنه . فخرجن يوما وأبو نواس على غفلة من ذلك حتى وافينه . فلما رآها كاد عقله يذهب وتحير ،

واقبل وأدبر ، فدنت اليه واحدة منهن فقالت : « يا فتى ، انت أبو نواس ؟ »

فقال لها ملهوفا : « نعم ، انا المعنى بمن لا ترثى لشكايتى»

فقالت كالمتهكمة : « بالله انت عاشق ؟ »

فلم يمهلها وبادر مؤكدا : « اى والله ! »

فتضاحكت : « لمن ؟ »

فأطرق مرددا : « لمن لا يعلم ما بى ، ولا اعلم من هو »

فقالت فى خبث : « فاجعلنى رسولا اليه ، فلعل الله أن يمن على وعليك » . فاقبل عليها يقول : « هى والله التى معك » وأومأ الى جنان

فانصرفت عنه الى جنان وهى تضحك . فاعلمتها بما دار بينها وبينه . فأنكرت ذلك عليها ، وقالت : « مثل هذا الكلب تطمعينه فى » وتولت مغضبة

واتبعها أبو نواس من بعيد حتى عرف منزلها ومولاها ، وسال عن اسمها فأخبروه عنها . وعاد الشاعر راضيا عن يومه ، قانعا بما وصل الى علمه ، وهو يترنم « تبدت لنا كالبدر وسط الكواكب » . ولقد وصف فيما بعد هذه الواقعة ، وصور لنا اقبال هؤلاء الجوارى من ناحية رصافة البصرة فى اتم زينة ، يحففن بجنان كالتماثيل الحسان ، وما كان من انصرافها مغضبة :

ومضمخات بالعبيـ ـر نزلن من غرف الجنان

راضعتهن من الصبا كأسا عقدن بها لسانى

أقبلن من باب الرصا فة كالتماثيل الحسان

يحففن أحور كالغزا ل أمر إمرار العنان

يمشى بردف كالنقا يختال تحت قضيب بان

فاذا انجليت فجاملى كيلا أموت على المكان

واحتال الشاعر على التعرف بآل عبد الوهاب الثقفى ، فعاشرهم ونادمهم توصلا لجنان . ولعل ذلك عن طريق صداقته لابن مناذر الشاعر الذى كانت المودة بينـــه وبين عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى مضرب المثـــل ، وكان أحدهما لا يطيب بفراق صاحبه ، حتى قيل فى ذلك انهما كانا يسمران أحيانا الى الصبح ، فاذا انصرف عبد المجيد شيعه ابن مناذر الى منزله ، فاذا بلغه وانصرف ابن مناذر شيعه عبد المجيد

## العشق فضاح

ولقد تكلف ابو نواس ما تكلف من كتمان هواه بجنان ، ثم طفح به الوجد وغلب عليه الهيمان ، فضاق صـــدره ، وصار كالمغلوب على أمره يؤوده أن يمسك على ما فى نفسه :

لأُبيحنّ حرمةَ الـكتمان راحةُ المستهام فى الاعلانِ

قد تصبَّرتُ بالسكوت وبالاط راق جهدى فنمّت العينانْ

تركتنى الوشاةُ نصب المشيرِ ن وأحدوثةً بكل مكان

ما أرى خالـيْن للسرِّ إلا قُـلتُ مايخلوان إلا لشانى

ثم انشأ يشبب باسمها ويظهره حتى عرف بها واشتهر بحبها . ومن اشاراته الى اسم « جنان » وصفتها قوله :

لـــــا تكشّف عنى أننى كاِـفٌ

كَشَـْفتُ أيضاً لهم عمن به الـكلَـفُ

جيمٌ وجَـدتُ لها نونـيْن ، بينهما

ـ لمن تَـهـَـجّى اسمها أو خَـطّـهُ ـ ألِـفُ

يضمه من ثقيف بعضُ دورهمُ
ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

## مولاة جنان

واتفق أن تزوجت عمارة بنت عبد الوهاب الثقفى برجل من ثقيف يدعى محمد بن خالد (١) فصارت اليها جنان وصيفة لها . وكانت مولاة جنان موسرة ، وعلى حظ وافر من الجمال كأخيها عبد المجيد الذى قيل انه كان احسن الناس وجها وأدبا وملبسا . فلم تزل تغرر بها امرأة يقال لها « سرور » حتى ارتضت الرجل وهو ابو أولاد خمسة ، ثم هو فوق ذلك لم يكن لها كفؤا ، بالنسبة لجلال قدر ابيها عبد الوهاب وموضعه من العلم ، وما لأمها « بانة بنت أبى العاص الثقفى » من بسطة الثروة ، فضلا عن انه لم يكن هواه فيها وانما الشره الى ما فى يدها

ولقد شاء لمحمد بن خالد حظه العاثر أن يكون جاره أبان اللاحقى الشاعر وان يكون عدوا له ، فنظم فى موضوع زواجه بعمارة قصيدة يهجوه فيها ويحذرها منه ويحفزها الى مفارقته :

لما رأيت البزَّ والشارَهْ والفَرْشَ قد ضاقت به الحاره
واللوزَ والسكّر يُرْمَى به من فوق ذى الدار وذى الداره
وأحضروا المُلْهِينَ لم يتركوا طبلاً ولا صاحبَ زماره
قلت «لماذا؟» . قيل «أعجوبةٌ محمدٌ زُوِّجَ عمّاره !»

---

(١) جاء فى الأغانى فى الصفحة ٧٧ من الجزء ٢٠ أن عمارة تزوجها محمد بن خالد وجاء فى الصفحة ٣ من الجزء ١٨ أن زوجها عبد الرحمن الثقفى . وقد اخذنا بالقول الأول لأنه يطابق ما جاء فى شعر أبى نواس . وأما الذى ورد فى الصفحة ٤ من الجزء ١٨ من أن عمارة امرأة عبد الوهاب فهو خطأ صريح وصحته ابنة عبد الوهاب الثقفى

لا عمّر الله بها بيتــه ولا رأته مدركاً ثاره

أسودُ كالسفود يُنسَى لدى الـ تنّـور ، بل محراكُ قياره

ويحكِ ! فِرّى واعصى ذاك بى فهــــــذه أختك فرّاره

إذا غفا بالليل فاستيقظىْ ثم اطفرى إنكِ طفـاره

ويقال انه لما انتهى الأمر بأن بلغت قصيدته هــذه عمارة ، فعلت فى نفسها ، وكان من أثرها ما كان بعد ذلك من هربها ، فحرم من جهتها مالا عظيما

## زوج مولاة جنان

وكان زوج عمارة بخيلا شديد البخــل ، حريصا غاية الحرص ، فيه اثرة وجفاء طبع . وكان منقطع السبب بأهل الأدب ، فليس لأبى نواس أو غيره من الشعراء اتصال ببابه أو سبيل الى قلبــه . فلا جرم يستولى على عاشق جنان عارض اليأس وشعور القهر

رأيت هواى سيرتُهُ الوجيفُ

وتَحزُبُنى إذا اعترضتْ ثقيفُ

فان آتى ــ وذلك بعــد كدٍ ــ

فدارُ « محمــد » ثم الوقوف

ولقد زاد محمد ان عمد الى بسط لسانه فى أبى نواس والتسميع بمثالبه وعوراته . فلم يسع العاشق الا السكوت والاغضاء كرامة لهوى جاريته الحسناء :

سأترك «خالداً» لهوى جنانٍ وإن جلّ الذى عنــه أتانى

فقُلْ من بعد ذا ما شئتَ ، أو زدْ فقد أمسيتَ منى فى أمانِ

لقد أغلقتَ بابَك دون ظبيٍ　　ختمتَ بقفلتيه على لسانى

ثم ان هذه المبالغة من مولى جنان فى سترها والغيرة عليها غيرة لم تؤثر عنه على زوجه ، القت فى روع الشاعر أن مولاها انما يفعل ذلك لأنه يهواها :

مولى جنان وإن أبدى تجلده

يهوى جنان فيرجوها ويخشاها

مولاتُه هى « بالمعنى » وحقَّ لها ،

والناس يدعونه « باللفظ » مولاها

## الشاعر بالمرصاد

وكانت جنان مع هذا التضييق عليها لا تخلو من الغدو والرواح لحاجاتها وغشيان دور جاراتها وصواحبها للزيارة . وكان أبو نواس راصدا لها حيثما ذهبت . فاذا شهدت عرسا لم يزل جالسا حتى تنصرف منه فيراها فى ذهابها ومنصرفها . وكان لا يراها الا امتقع لونه ووثب قلبه فى صدره لما يبدو من جمالها فى الحلى والحلل حتى لكأنها العروس :

شهدتْ جلوةَ العروس جنانٌ　　فاستمالت بحسنها النظّاره

حسبوها العروسَ حين رأوْها　　فاليها دون العروس الاشاره

قال أهلُ العروس حين رأوْها :　　« ما دهانا بها سوى عمّاره »

ويصور لنا أبو نواس فى هذه الأبيات ما هو ملحوظ الى أيامنا من حرص النساء على عرض جمالهن فى الأعراس كأنما يعارضن العروس ويغايرنها . وقد صور الوهم له فى هذا الشأن أن أهل العروس كرهوا ذلك أشد الكره من جنان ،

ووجدوا منه على مولاتها وراحوا يعدونه كيدا من جهتها وعمدا . ويروى أن جنان حين سمعت أبياته قالت : « كأنه كان معنا ، هكذا كانت والله الصفة »

وكان لا يدع فرصة لرؤيتها الا اغتنمها حتى فى المآتم . فلما مات بعض آل عبد الوهاب الثقفى ، أشرف ابو نواس من دار على منزل الثقفيين وعندهم المأتم ، ليرى جنانا . وكانت جنان واقفة مع النساء تلطم وفى يدها خضاب ، فلم يعنه من هذا المنظر الفاجع الأليم الا النظر اليها سافرة الوجه كالبدر ، واستملاح هذا المتناثر المتحدر من دموعها كاللؤلؤ الرطب من عينين نجلاوين لها كعيون النرجس ، واستظراف بنانها المخضوب كالعناب يواقع وهى تلتدم خدين كالورد

يا قمراً أبرزه مأتمٌ ... يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيُذرى الدُّرَّ من نرجسٍ ... ويلطم الوردَ بعنّاب
لا تبكِ ميتاً حلَّ فى حفرةٍ ... وابكِ قتيلاً لك بالباب

وكانت جنان على الدوام حسنة الزينة أنيقة الهندام ، سواء أكان خروجها الى عرس أو مأتم ، وقد لقيها أبو نواس مرة خارجة الى بعض المآتم بالبصرة وعليها قناع وشى رقيق . فاتبعها واحتال على شهود المأتم . فلما حسرت فى المأتم عن وجهها ذهل الشاعر — كدابه — من حسنها ، وخيل اليه أن المأتم كله قد ذهل مثل ذهوله . وقال فيها :

يا مُنسِىَ المأتمِ أشجانَهم ... لما أتاهم فى المزيّنينا
حلّتْ قناعَ الوشْىِ عن صورةٍ ... ألبسها اللهُ التحاسينا

فاستفتنهن بتمثالها فهن للتكليف يبكينا
حق لذاك الوجه أن يزدهى عن حزنه من كان محزونا

واشتد وجد أبي نواس بها ، فاشتد في طلبها ، وصارت شغله الشاغل لا شغل له غيرها ، فهو كل يوم على طريقها ينظر اليها بمجامع عينيه اذا أقبلت ويتبعها أينما توجهت ، ويقعد لها حتى انصرافها . وكان قد يشرب أحيانا اقداحا من النبيذ ليشد قلبه ويسكن ما به ، فلا يجسر مع ذلك على ان يتعرض لها بالكلام

ولقد شكت جنان يوما الى مولاها ، فشكاه الى بعض اخوانه وسبه عندهم ثم أشفق من هجو الشاعر له . فلما اتصل ذلك بالشاعر قال على مذهبه فى هذه الفترة فى الملاينة والمسالمة :

من سبنى من ثقيف فانى لن أسبه
أبحت عرضى ثقيفاً ولطم خدى وضربه
وكيف ينكر هذا وفيهمو لى أحبه ؟
لأوسعن بحلمى عبد الحبيب وكلبه
ولا أكون كمن لم يوسع لمولاه قلبه
فقام يدعو عليه ويجعل الله حسبه !!

## الرضى بالمهانة

وعمد أبو نواس الى رسول أوفدها مرة اليها ، فقالت جنان لها منكرة : « واضيعتاه ! لم يبق لى غير ان احب هذا الكلب ؟ » وذكرته بالتقبيح والتهجين . فجاءته الرسول متغيرة ، فأبلغته ما قالت جنان . فقال حينئذ :

من أراد الوصلَ لم يَجـ ـلبْ من الفخر شروطا
قد رأينـــا ـعرَبيَّا تٍ يُواصِلْنَ نبيطا

وكان أبو نواس على شغفه بجنان وعلى صدق حبه لها ، دون من كان يشبب بهن من النساء ، غير مجدود منهـا . وكانت كلما ذكر اسمه عندها سبته وقالت : « فعل الله بالمخنث الكاذب فى حبه كيت وكيت » . فكان يقابل هـذه الاساءات بأقوال له ، منها :

جنان تسبّنى ـ ذُكِرَتْ بخيرٍ ـ وتزعم أننى مَذِقٌ خبيثُ
وأنّ مودتى كَذِبٌ ومينٌ وأنى للذى أهوَى بثوثُ
ولى قلبٌ ينازعنى إليها وشوقٌ بين أضلاعى حثيثُ

وقوله :

أتانى عنكِ سبُّكِ لى فسُبّى أليس جَرَى بفيكِ اسمى ا فحسبى
تشابهتِ الظنونُ عليكِ عندى وعِلْمُ الغيب فيه عند ربى

وزالت عن هذا الماجن وقاحته واستطالته ، فاستخذى وركبه الحب بالذلة وعلمه الخضوع والخنوع . كما زالت عنه شهوته للحياة وافتتانه بالدنيا ، فهو لزهد جنان فيه قد زهد فى ملاذ الدنيا وكان لا يصبر عنها ، وهو لخلو حياته منها قد كره الحياة ولم تبق به حاجة اليها

زهدتْ جنانُ فى الذى رغبتْ إليها فيه نفسى
فزهدتُ فى الدنيا وصا رتْ مُنْيتى فى زَوْرِ رمسى
وطويتُ عينى أن ترا نى عينُها ، وأمَتُّ جَرْسى
كيلا يروِّع ذلك الـ ـوجهَ المليحَ سماعُ حسِّى

## جنون الحب

وطال على ابى نواس البلاء حتى لزمه الأرق وكاد يجن من الحب :

تناومتُ جهـدى فلم أرقُـدِ ونام الخلىُّ ولم يسهدِ
وأنهـض فى طربات تهيجُ وأُلزم طوراً فؤادى يدى

ولقد يهتف به داعى العقل ان يعدل عن هذا العشق الذى لا مطمع من ورائه وفيه تلف نفسه :

دَعْ جناناً وحبَّهـا عنك إن كنتَ عاقلا
لا تذكَّرْ بنفسك الـ موتَ إن كان غافلا
أنت إن لم تمتْ بها الـ عامَ لم تَنْجُ قابلا
رُحِمَتْ نفسُك التى ذهبتْ عنك باطلا

ولكن هيهات أن يعدل عن حبها ، انه كالقضاء لا مفر منه ولا نجاء . ولقد علمه حبها أن يتوجه الى الله بالدعاء بعد ان امتنع الصبر وعز الرجاء :

أيا مُلين الحديدِ لعبـده داودِ
أَلِنْ فؤاد جنانٍ لعاشـق معمودِ
صبٍ حريضٍ مهيضٍ نامٍ طريدٍ شريدِ
حرّان يدعو بليْلٍ يا للوحيـد الفريدِ !

## شخصية جنان

وظاهر من هذا كله أن جنان لم تكن مثل سائر جوارى العصر ماجنة وقاح الوجه ، متهتكة ، بل هى كما وصفنا فتاة عاقلة رزان ، عفيفة حصان ، خفرة قليلة الكلام ، وذلك

كله مع جمال المحيا وحلاوة الملامح ولطافة التكوين والقوام وحسن اللبسة والهندام . فالشاعر لا ينى يجمع فى صفتها انها نزهة طرف وفتنة قلب ، وانها ممتنعة لا تلين لمريدها ولا تقر لما يصنع بها

وجه جنان سَرَاةُ بستان مجتمعٌ فيـه كلُّ ألوان
مبـذولةٌ للعيون زهرتـه ممنوعة من أنامل الجانى
مَن لستُ أحظى بهـ. وى نظرٍ يَشركُنى فيه كلُّ إنسان

ولقد اشار الشاعر الى ان لهـا جمالا « غير معربد » فى ختام أبيات له من أمتع واطبع ما قاله شاعر فى وصف الجمال فى ابدع مجاليه واعجب معانيه ، وهو ذلك الجمال الذى لايزال فى عينك يتجدد ، يطالعك منه بمحاسن ليست تنفد ، وكأن بعضها ينتهى وبعضها يتولد : ثم هو كلما عاودت انظر اليه كان بالعود احمد :

وذاتِ خدٍّ مورَّدْ فتـانة المتجرَّدْ
تأمّل الناس فيها محاسناً ليس تنفد
الحسنُ فى كل جزء منها معادٌ مردَّد
فبعضُه فى انتهاءٍ وبعضُه يتولد
وكلما عدتَ فيه يكون بالعود أحمد
فاشرَبْ على وجه بدرٍ ريّان غير معربد

## العاذلون

ومضى الشاعر يشبب بها ويلهج بذكرها ، ويشكو فى شعره ما يجد بها وما يلقى فى حبها ، ولا مسألة له الا عنها ، ولا حديث له الا حديثها ، حتى عذله الناس فى ذلك :

أما يغنيني حديثك عن جنان ولا تبقى على هذا اللسان ؟

أكل الدهر قلت لها وقالت ؟ فكم هذا ! أما هذا بفان ؟

ولكنه لم يكن يضيق بعذل العاذلين مستكرها له نافرا منه ، بل كان يحمده لهم أحيانا ويستأنس به من الوحشة اليها ، لما يرد عليه فى عذلهم من ترديد اسمها والالمام بذكرها :

إذا ما عاذلى سمّا ك قلت أعد، كذا أعد

وشبّ لى باسمها عذلى وزدنى ، ثم زد ، وزد

نهارى كلّه وغداً وبعد غد وبعد غد

## اعتذارات وابتهالات

وقد كانت جنان كأحر الحرائر من النساء تتحرج من قول الشعراء فيها والغزل بها والتصريح باسمها . وقد انتهى الى الشاعر كرهها لذلك ، فقال معتذرا :

طفلة كالغزال ذات دلال فتنة فى النقاب والإسفار

أعتنى وما بكفّى منها غير مطل وغير سوء انتظار

ثم قالت : « جهرت باسمى فى الشعـ ـر فهلا كنيت فى الأشعار »

قلت : « إن الهوى إذا كان بالصـ ـب وهى قلبه عن الأسرار

أنا جار لكم قريب ، ولكن ليس يغنى لديك حق الجوار »

ثم استخفه الوجد واج به الحنين واهتاجه الشوق اليها ، فصاح صيحته :

جنان إن جدت يا منای بما آمل لم تقطر السماء دما

وإن تماريت أو تماديت في منعك أصبح بقفرة رمما
علقت من لو أتى على أنفس الباقين والغابرين ما ندما

## بداية التحنن والانعطاف

وقد فعلت هذه التوسلات فى نفس جنان واستمالتها ، فصارت أميل لناحيته بعد نبوها عنه . وقد مرت به امرأة ممن تداخل الثقفيين ، فسألها عنها وألحف فى المسألة واستقصى ، فأخبرته الخبر ، وانساقت الى المبالغة والتزيد فيه كلما رأت لهفته على السماع منها مستطار القلب مهتز الأوصال من الفرح فقالت : « قد سمعتها تقول لصاحبة لها من غير أن تعلم انى أسمع : ويحك ! قد آذانى هذا الفتى وأبرمنى ، وضيق على الطرق بحدة نظره وتهتكه . ومن كثرة فعله لذلك قد لهج قلبى بذكره والفكرة فيه حتى رحمته . . ثم التفتت فرآتنى فأمسكت عن الكلام »

وصدق أبو نواس الخبر واعتقده بنصه وحرفه ، ولم ير فيه أدنى زخرف ، ولا رابه منه قول مصنوع أو زيادة موضوعة ، ولما قامت المرأة انشأ يقول :

يا ذا الذى عن جنان ظل يخبرنى
بالله قل وأعد يا طيب الخبر
قال : « اشتكتك وقالت : ما بليت به !
أراه من حيثما أقبلت فى أثرى
ويعمل الطرف نحوى إن مررت به
حتى يخجلنى من حدة النظر

وإن وقفتَ له كيما يكلمـــني

في الوضع الخلو لم ينطق من الحصَر

ما زال يفعل بي هـذا ويُدمنه

حتى لقد صار من همي ومن وَطَري »

## اتصال الرسائل والرسل

واتصلت الرسائل بينهما حينا . وكان من لهفته يتطلع في وجه الرسول عند عودته ولا يمهله ، ليسبق باللحظ والتوسم الى ما يحمل له ، شرا أو خيرا ، قبل اللفظ به . ثم انه كان يوفده وهو كالحاسد له يتمنى لو يكونه ليتملى ساعة بالنظر الى الموفد اليها . ويغلو به الوهم في ذلك حتى يجد رسوله عند الاياب من لدنها أحلى طلعة وأجمل نظرة ، فيقول :

| | |
|---|---|
| إن تَشْق عيني بها ، فقد سعدت | عينُ رسولي وفُزتُ بالخبرِ |
| فكلما جاءني الرسول لها | ردّدت شوقاً في طرفه نظري |
| تظهر في طرفه محاسنها | قد أثّرت فيه أحسنَ الأثر |
| خُذْ مقلتي يا رسول عارية | فانظرْ بها واحتكمْ على بصري |

ومن شهود هذه الوفادات ، والرسل المختلفة بينهما غاديات رائحات ، شيخ جليل هو الشيخ محمد بن حفص بن عمر التميمي ( أبو ابن عائشة ) وهو وقتئذ يتولى القضاء بالبصرة ، وكان منصرفا عن المسجد فرأى — فيما بين دار ابان ودار حمران — فتى لبقا ، دمثا ، عليه ثياب بيض حسان ، وعلى رأسه قلنسوة مضربة ، واقفا مع امرأة يكلمها . فدنا الشيخ منه وقال له : « يا هذا ، ان كانت

هذه المرأة منك بسبب ، فقد عرضتها للتهمة ووقفتها موقف سوء ، وان كانت غريبة عنك فحق عليك اتقاء الله والا ترضى لغيرك الا بما رضيته لنفسك » . فالتفت الفتى الى الشيخ الذى يخاطبه ، وقال على الفور فى أدب وظرف : « اقول ما قلت ، وانا قابل نصيحتك وغير عائد ان شاء الله تعالى » . فولى القاضى وجعل فى طريقه يفكر فى امر الفتى فلا يدرى اى شمائله يستحسن ، أسرعة جوابه ، أم حسن مراجعته له بقلة الخلاف ، أم ظرف لسانه . ثم دخل القاضى فى المسجد الجامع وجلس ساعة للقضاء والنظر فى المظالم ، فلم يشعر الا برقعة فى الرقاع بين يديه وكان الذى جاء بها ابن عائشة ولده . فتناولها ، واذا فيها :

« يقول لك ابو نواس :

إن التى أبصرتَها ... سَحَراً تكلمنى رسول

ليست هى القصدُ الذى ... يُومَى إليه ولا السبيلُ

أدّت إلىَّ رسالةً ... كادت لها نفسى تسيلُ

من ساحر العينين يجـ ... ـذب خصرَه ردفٌ ثقيل

متقلدٌ قوس الصبا ... يَرمى وليس له رسيل

فلو انّ أُذْنَك بيننا ... حتى تَسَمَّعَ ما نقول

لرأيتَ ما استقبحتَه ... من أمرنا وهو الجميل

وعلمتَ أنى فى نعيم ... لا يحول ولا يزول »

فضحك الشيخ حين قرأها ، وقال لابنه : « قل له انى لا أتعرض للشعراء »

## الزيارة ... وتكرار الزيارات

أما ذلك « النعيم المقيم الذى لايحول ولا يزول » فذلك

ان جنان أرسلت تسمح له بأن يزورها . ولقد وقعت هذه الزيارة وتكررت ، وكانت زوراته لها نهارا كماكانت قصارا .
وظهرت فيها احدى معجزات المرأة ، بل أكبر معجزاتها بوصفها امرأة — لا مجرد أنثى . فاذا بالماجن الفاسق قد صار عاشقا على طراز المتيمين العذريين ، يبرأ من الريبة مثلهم ، ويلقى الحبيب وليس له مثلهم فى الحب من وطر الا الحديث والنظر . على ان جنان لم تلبث فى تحرجها ان وجهت اليه : « قد شهرتنى فاقطع زيارتك عنى اياما لينقطع بعض القالة » . ففعل محزونا ، وكتب اليها يقول :

إنا اهتجرنا للناس إذ فطنوا ... وبيننا ـ حين نلتقى ـ حسنُ
فليس يُقذى عيناً معاينةً ... له ، وما إن تمجُّه أذن
ويحَ ثقيفٍ ماذا يضُرُّهمُ ... إن كان لى فى ديارهم سكن
أريَبُ مابيننا الحديثُ ، فان ... زدنا فزيدوا ، وما لذا ثمن

وقنع بالرسائل يدسها اليها ويحتال على ابلاغها لها ، فكان يبالغ فى تدبيجها وتهذيبها ويكثر من التأنق فى عبارتها ، ليختلب الحبيبة ويسترضيها . وكان من ذلك ما لا بد ان يكون من كثرة المحو والاثبات فيها . فقام بنفسها — فى سوء ظنها به — أن كثرة التغيير فى رسائله حاصل من انه ليس يصدر عن صدق شعور وطبع ، ولكنه التلفيق وتزوير القول . وفى ذلك يقول :

غضِبَتْ لمحوٍ فى الكتاب كثيرِ
قالت : « أراد خيانتى وغرورى
كتب الكتابَ على خلافِ ضميرِه
فالمحوُ فيه لكثرة التغيير »

## المسير الى الحج

وعزمت مولاة جنان على الحج ، ورأت أن تصحبها ولا تتركها . وترامى الخبر الى الشاعر من بعض رفاقه محمد ابن زياد المعروف باليؤيؤ ، فقال شاعرنا للذى أخبره : « أما والله لايفوتنى المسير معها والحج عامى ان أقامت على عزيمتها ، وما على من هذا » . فظن مازحا فى أول أمره . ولكنه سبقها الى الخروج بعد أن أيقن أنها خارجة . وما كان ابو نواس ينوى الحج عمره ، وما أحدث عزمه الا خروجها

ولقد شوهد فى الحج وقد أحرم . فلما جنه الليل على هذه الارض المباركة وقد ازدحمت بالمسلمين من أقطار الارض مشارقها ومغاربها ، فاض عليه الشعور العام واشتمله ، وغلب عليه الايمان ، واهتزت نفسه فى جنح هذا الليل لنجوى الغيب ، فسمع يلبى بشعر وهو يحدو به ويطرب :

| | |
|---|---|
| إلهنا : ما أعدلكْ | مليك كلّ مَن ملكْ |
| لبيكَ ، قد لبيتُ لك | وكلُّ من أهلَّ لك |
| لبيكَ إنّ الحمدَ لك | والملكَ ، لا شريك لك |

---

| | |
|---|---|
| والليل لما أن حلك | والسابحات فى الفلك |
| على مجارى المنسلك | ما خاب عبدٌ أمّلك |
| أنت له حيث سلك | لولاك يا ربّ هلك |

---

| | |
|---|---|
| يا مخطئاً ما أغفلك | عجلْ وبادرْ أجلك |
| واختم بخيرٍ عملك | لبيك إنّ العزّ لك |

والملكَ ، لا شريك لك      والحمدَ والنعمةَ لك

وكانت سبحة من سبحات الروح التى لايخلو أن تطرق النفس البشرية مهما يكن من ضلالها أو انكارها فى لحظة من لحظات الاتصال بالقوى الغيبية العلوية

## عند الكعبة

فلما كان الطواف ، لقيه بعض أصحابه ، ثم فاتهم وتقدمهم ، فاذا بهم يرونه خلف امراة ، ولا يكادون يرونه الا خلفها . فلم يدروا من هى . فلما صارا الى الحجر الاسود فاذا بالمراة تلثم الحجر ، واذا هو قد لثمه معها حتى ألصق خده بخدها فى زحمة الخلق . وتفطنوا لها فاذا هى جنان . فلما انصرفا ، لقيه ممن راقبوه محمد بن عمرو الجماز ( ابن أخت سلم الخاسر الشاعر ) فقال له : « ويحك ! فى هذا الموضع لايزجرك زاجر ، ولا يمنعك خوف الله ولا يردك حياء من الناس ! قد رأيتك وما صنعت اليوم » . فقال : « يا أحمق ! وحسبت قطع المهامه والسباسب والرمال الا للذى حججت له واليه قصدت ! » . ثم أنشأ يقول :

وعاشقين التفّ خدّاهما      عند التثام الحجر الأسودِ
فاشتفيا من غير أن يأثَما      كأنما كانا على موعدِ
لولا دفاعُ النـاس إياهما      لما استفاقا آخرَ المسندِ
نفعلُ فى المسجد ما لم يكن      يفعله الأبرارُ فى المسجدِ
ظِلنا كلانا ساتر وجهه      ـ مما يلى جانبه ـ باليد

وعاد أبو نواس من حجه هذا غير المبرور ، يردد قوله :

ألم تر أننى أفنيتُ عمرى
بمطلبها ، ومطلبها عسيرُ

فلما لم أجـــد سبباً إليها

يقرّبنى ، وأعيتنى الأمور

حججتُ ، وقلتُ قد حجت جنانٌ

فيجمعنى وإياها المســير

## بعد الحج فتور وقطيعة

وتابع ابو نواس بعد عودته ايفاد الرسل الى جنان ، حتى أعيتها الحيلة فيه ، فاستنظرته الى أن يخرج زياد (١) أخو مولاتها فى سفر من أسفاره ، ولم يكن ذلك الا تعللا منها . فقد خرج زياد ، وانقضت الايام فى اثر الايام ولم توف له ولا خرجت لملاقاته . فكان يطوف بقصر الثقفيين كل يوم على حد قوله :

أطوف بقصركم فى كل يومٍ كأن لقصركم خُلِاق الطوافُ

ولكنه متطلع متنظر على غير جدوى :

جفن عينى قــد كاد يسـ قطُ من طول ما اختلج

وفؤادى من حرِّ حبـ لك قد كاد أو نضــج

خبّرينى ـ فدتك نفسـ ى وأهلى ـ متى الفرج ؟

كان ميعادُنا خرو ج زيادٍ ، وقد خرج

أنت من قتل عاشقـ يك فى أضيق الحرج

وكانت جنان لايزال يساورها ويتمثل لوهمها ما هو متواتر شائع من عبث الشاعر وقبح سيرته وبعده عن جد الحياة واسترساله مع المجانة والهزل . فكرهت بعد هذا

---

(١) الاغانى فى الصفحة ١٢ من الجزء ١٦

كله أن تكون لمثله . ورجعت الى عادتها من مجافاته وسوء ملاقاة رسله ، وعادت تتهجمه كلما ذكر لها اسمه ، وتظهر التأذي من تهتكه فيها وغزله . فقال وهو لايكاد يكتم غيظه :

وا بأبي مَنْ إذا ذُكِرْتُ له وطولُ وجدي به تنقصنى
لو سألوه عن وجه حجته فى سبه لى ، لقال : «يعشقنى» !
نعمْ ، إلى الحشر والتناد ، نعم أعشقه أو أُلَفَّ فى كفنى
لا تنثنى - وَيْكَ - عن محبته ما دام روحى مُصاحباً بدنى
أصبح جهراً لا أستسرُّ به عنفنى فيه من يُعنفنى :
« يا معشر الناس فاسمعوهُ وعُوا ان جناناً صديقةُ الحسن »

ولقد غضبت جنان لذلك غضبا شديدا ، فأطالت هجره ومصارمته ، وأصر الرجل على حبه لها وتشبيبه بها :

أنا أهواكِ ، فمُوتى كمدا إننى لستُ بسالٍ أبدا
بأبي - لاغمك الله - اصبرى إلزمى الهجران وارضى لى الردى

ورآها المسكين ذات ليلة فى منامه ، وكأنها قد صالحته ، فاهتاج شوقا اليها ، وكتب لها من فوره :

اذا التقى فى المنام طيفانا
عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرة العينين ما بالنا
نشقى ويلتذ خيالانا
لو شئتِ اذ أحسنت لى فى الكرى
أتممتِ إحسانك يقظانا

يا عاشقين اصطلحا في السكرى
وأصبحا غضبى وغضبانا
كذلك الأحلام غرارةٌ
وربما تصدق أحيانا

## غيبة جنان عن البصرة

واخيرا أجمعت « عمارة » عزمها ، وبيتت النية وزوجها على أن يغيبا جنان عن الشاعر . وكان لمولى جنان أخ يقال له أبو عثمان ، وكان شديد الاعتقاد بأن الجارية لم تكن من الشاعر في موضع عشق ، ولا كان مذهبه النساء ، ولكنه عبث خرج منه . وكانت لأبى عثمان ضيعة بحكمان في ظاهر البصرة فانتقلوا اليها ونزلوا بها . وشق ذلك على الشاعر والتاع قلبه ، وانطوى منه على شجو ناصب ، فكان لايرى الا هائما على وجهه ، مشغول القلب ، مضطرب البال . وكان يقصد الجبل بالبصرة يسأل كل من أقبل من تلك الناحية ، ويحتال في ذلك فيجعل سؤاله عن أبي عثمان وعن زوج عمارة أبي ميه (١) محمد بن خالد ، وغنى عن البيان أن قصده كله التقصي عن جنان ، وما كان ذلك ليخفى على واحد ممن كان يتوجه اليهم بالسؤال :

أسألُ القادمين من حكمان : « كيف خلفتمو أبا عثمان ،

---

(١) جاء في الأغاني في الصفحة ٥ من الجزء ١٨ أن ( أبامية ) ابن عم ( لابى عثمان ) ولزوج عمارة محمد بن خالد . لكنه جاء قبل ذلك في الصفحة نفسها أن أبا مية هو نفسه زوج عمارة ولعل ذلك الأصح . ويؤيده ما ورد في الأغاني في الصفحة ٢٣ من الجزء ١٧ من أن أبا مية ( امية ) اسمه خالد ، وللشاعر بن مناذر فيه أبيات مذكورة تشير الى أنه كان يخطب نساء ثقيف فيرد لفقره — وهذه بعينها حال محمد بن خالد لولا أن نجحت ( سرور ) في الاحتيال له في الزواج بعمارة مولاة جنان

وأبا ميـــة (١) المهذّبَ والمأ   مول والمرتجى لريب الزمان ؟ »

فيقولون لى : «جنانُ كما سرّ   ك من حالها ، فـلْ عن جنان »

مالهم ـ لا يُبارك الله فيهم ـ   كيف لم يُغنِ عندهم كتمانى ؟

وما من ريب فى أن أبا نواس كان حقيقا بأن تنصلح حاله ويستقيم طبعه وتحمد سيرته ويصح دينه ، لو أن علاقته بجنان فى عقلها وكمالها قد دامت له ، وأدت الى نتيجتهـا الطبيعية من اقترانه بالمراة التى يحبها ، والاستقرار بالحياة الجنسـية فى كنفها ، وطلب ما فيه الرفعة له فى عينها . ولكنها هى وجميع من حولها ـ لسوء حظه وتعسه ـ لم يفهموه حق فهمه ، فلم يصدقوا أن جنان منه فى موضع عشق ولا عشرة ، او انه يخلص يوما فى حب المراة

وحسبنا فى الدلالة على الاثر الطيب الذى كان لهـــذه العلاقة فى صلاح سيرته وخلقه هذه الأبيات :

لولا حذارى من جنانِ   لخلعتُ عن رأسى عنانى

وركبت ما أهوى وكَم   أجفو مقالةَ من نهانى

وخرجتُ أخبط ســادراً   لم أُغنَ عن حبٍّ الغوانى

وقد تبين أيضا اثر ذلك واضحا فى شعره ، حتى اخذ عليه بعضهن سكوته عن تصوير محاسن الاجسام ونعت الخمر الى وصف الجوى وشكوى الهجر :

وقائلة لى : «كلُّ شِعرك فى الهجر ! »

فقلت : « برغمى حيث سار به شِعرى

تشـاغل بالهجران ممن أحبـه

وقد كان يحلو بالمحاسن والخمر »

## الهجرة

فلما أن طال الأمر بالشاعر العاشق ، وأيقن باليأس من مطلبه ، وانقطع منه رجاؤه ، لم يطق المقام فى البصرة ، فأزمع الرحيل ، وكان برغمه التوديع :

كفى حزناً ألا أرى وجهَ حيلة
أزور بها الأحباب فى حكمان

وأُقسمُ لولا أن تنال معاشرٌ
جناناً بما لا أشتهى لجنان

لأصبحتُ منها دانىَ الدار لاصقاً
ولكنّ ما أخشى ـ فُديت ـ عدانى

فواحزنا حزناً يؤدى الى الردى
فأصبحُ مأثوراً بكل لسان

أرانى انقضت أيام وصلىَ منكمو
وآذن منكم بالوداع زمانى

ونزح ابو نواس يطلب ود الملوك فى بغداد . ويخطىء من يحسب هذه الدنيا الزاخرة الشائقة التى هو مقبل عليها بالتى تذهله عن جنان . وحسبنا فى ذلك اعتراف الشاعر نفسه : « وخرجت الى بغداد وفى نفسى بقايا من حبها ، ما فارقتنى ولا تفارقنى الا مع خروج روحى »

# فى طريق بغداد

خرج ابو نواس من البصرة كالهائم على وجهه ، وقد اسودت فى عينه مجاليها ، وضاقت به مغانيها . فغادرها مدعيا الكره لها والتنكر لأهليها . ولا شك فى انه كان يجد للذكرى وجدا عظيما ويحس لها مضا اليما ، حتى بلغ فى طلبه النسيان انه عمد الى المراسلة بينه وبين خاصة الاخوان فى البصرة فقطعها :

| | |
|---|---|
| قولا « لعباس » لكي يدري | لغلام عَلِيِّ قُدْوَةِ المصرِ : |
| « فيمَ الكتابُ الىَّ تخبرنى | بسلامةٍ – فى البطنِ والظهرِ |
| فاقطعْ بسيفٍ صارمٍ ذكرٍ | أسبابَ كتبٍ بيننا تجرى |
| فان امتنعتَ فلا مواترة | حسبى كتابُه منك فى الدهر |
| واجمعْ حوائجك التى حضرتْ | عند الكتاب الىَّ – فى سطر » |
| ما ذاك الا أننى رجل | لا أستخفُّ صداقة البصرى |

على انه غير قمين بالقارىء ان ينخدع بهذا القول فى حالة السخط والياس فقد عاد الشاعر يحن الى موطنه فى البصرة ويشتاق منازلها ومعاهد صباه فيها ، ولكنه كان يتكلف الصبر ، ويلزم نفسه السلوان ، متلهيا بالشرب والقصف فى الحانات والمتنزهات ، كما تشهد بذلك هذه الأبيات :

عفا المصلى ، وأقوت الكثب — منى ، فالمربدان ، فاللبب
فالمسجد الجامع المروءة والد — ين عفا ، فالصحان فالرحب
منازل قد عمرتها يفعاً — حتى بدا فى عذارى الشهب
فى فتية كالسيوف هزّهم — شرخ شباب وزانهم أدب
ثم أراب الزمان فاقتسموا — أيدى سبا فى البلاد فانشعبوا
لما تيقنت أن روحتهم — ليس لها ما حييت منقلب
أبليت صبراً لم يبله أحد — واقتسمتني مآرب شعب
قطربل مربعى، ولى بقرى الـ — كرخ مصيف ، وأمى العنب
ترضعنى درّها ، وتلحفنى — بظلها ، والهجير يلتهب

فاذا أضفنا الى هذه أبياتا له أخرى يقول فيها :

أيا من كنت بالبصـ — رة أصفى لهم الودّا
ومن كانوا موالىّ — ومن كنت لهم عبدا
ومن قد كنت أرعاه — وان ملّ وان صدّا
شربنا ماء بغداد — فأنسانا كم جدّا

لم يبق موضع للشك فى أن شاعرنا نزح من البصرة لأنه خاب فى حبه وفجع فى قلبه . ولقد بلغ به الكمد والكرب أن بدت فى عذاره ومفرقه رواعى الشيب ، ولما يزل فى شرخ الشباب وريعانه

## الالمام بالكوفة

واخذ الشاعر فى طريقه الى بغداد . فعاج بالكوفة فيما عاج به من البلاد . وهو فيما كان عليه من حال لم يكن

يقصد منها الكوفة الجليلة المعروفة بالعلم والعلماء ، وانما كان يقصد منها الكوفة الموسومة بخد العذراء ، تلك التى عرف سوادها وجاس أرباضها وشرب فى دساكرها وحاناتها ، واطلع طلع ملاهيها ، وخبر مواضع القصف فيها ، أيام عشرته لوالبة ومقامه معه . انه اليوم لأشد حاجة الى السكر ، وأفسح عذرا فى التلهى والقصف ، تفرجا عن همه وتخففا من يأسه القاتل وهربا من نفسه . ولقد لقى صاحبنا فى الكوفة من الندماء من أحمد مودتهم وارتضى صحبتهم وانس بمنادمتهم ، حتى ختم قصيدته الرائية فى ذم البصرة بقوله :

ذهبت بنا « كوفانُ » مذهبها وعدِمْتُ عن ظُرَفائها صبرى

وكان بظاهر الكوفة وحولها مواضع من أنزه البقاع وأطيبها ، كثيرة المياه والرياض ، وكانت تقوم فى معظمها ديارات للنصارى . وكان الرهبان فى انقطاعهم بهذه المواضع يعملون الى جانب العبادات لتزويد الدير بحاجاته وتوفير موارده . فهم يتخذون حوله المزارع والمباقل والبساتين والكروم ، والى ناحية من الكروم يتخذون معاصر الخمر . ولقد كان ما يزيد على حاجة الدير يباع للارتفاق بثمنه . ومن ثمة كان للأديار تجارة بمزروعاتها من الثمار والزعفران وعلى الخصوص بمعتقاتها من الخمور ، وهى من قديم « المشهورة فى الآفاق ، المعروفة مغارسها بطيب الاعراق » . ولقد كثر طلب أهل الشراب للخمور النصرانية لارتياض النصارى باعتصارها وحذقهم له ، فضلا على ما اختصت به معاصر الأديار من النظافة . وكان من هذا الاقبال انه تأدى بالرهبان الى اتخاذ الحانات الى جانب الأديار لبيع خمورها لمريديها . فكان يقصد اليها فيمن يقصد أصحاب اللهو والمجان من المسلمين ليشربوا الخمر العتيقة ، فى الآنية النظيفة الأنيقة ، على الوجوه الحسان ، بين الرياض

والبساتين الحالية بصنوف الأزهار والرياحين ، وعلى قرع النواقيس وانغام التراتيل والقراءات فى المزامير والأناجيل ، وغير ذلك من التلاحين البيعية

ولقد عاج أبو نواس فى طريقه الى بغداد على حانات هذه الأديار التى كانت كثيرة حول الكوفة وفى ظاهرها ، فكان يشرب فيها حتى يسكر ، ولم يكن بعد قد تعود الادمان عليها والعب فيها :

وقهوةٍ عُتقت فى دير شمـــاس
تفترّ فى كأسها عن ضوء مِقباسِ
مزاجهـا دمعُ حاسيها ، فأىُّ فتى
لم يَبكِ اذ ذاقهـا من حرقة الكاس
سِـلمٌ ، ولكنها حربٌ لذائقها
يا حبــذا بأسها ما كان من باس

وكان مع هذا يحمل بالشراب على نفسه ، ولايدع الساقى يفتر عنه ، ولا يبرح يناشده أن يحث المدامة اليه ويديرها مرات بعد مرات عليه . وانه ليتبادر للخاطر انه كان يشرب لا للشرب ولذته ، وانما تعجلا لسكرته والتماسا لذهول العقل وغيبة الفكر :

رُدَّا علىَّ الكأس انكما — لاتدريان الكاسَ ما تُجدى
لو نلتما ما نلتُ ما مُزجت — الا بدمعكما من الوجدِ

وظاهر من هذا انه قد عكف على الكأس حين عكف ليغرق الهم فى كأسه ، وليخرج بالسكر عن حسه وينسلخ عن ذكرى أمسه . فهل تراه أدرك من ذلك مبتغاه وبلغ ما فى نفسه ؟ هيهات ، بل كانت هذه المجالس التى جلسها للشرب فى الأديار

على رنين النواقيس وترانيم الرهبان وأنواع التطريب والألحان ادعى للذكر وأورى عنده لنار الوجد ، حتى لتغلب الحال عليه وتطفح به ، فيظهر طربه خارجا عن القصد متجاوزا للحد ، يحسبه منادموه عربدة منه لخفاء سره وجهلهم لأمره :

اذا شاقك ناقوسٌ وشجو الناى، والعودُ
وغوديتَ بريق الخمـ ر مجّته العناقيدُ
تطرّبتَ إلى الالف فقالوا أنت عربيدُ
وهل عربد مكروبٌ قريحُ القلب معمودُ !

ولقد كان من الدواعى المحببة للشرب والمغرية به موقع الأديار بين الجنان المونقة والغدران المترقرقة ، أوعلى الروابى العالية المطلة على الأودية الناضرة والمياه المتحدرة والسهول الفسيحة . ولا شك فى أن رقة الهواء ، ورواء المنظر وحسن المستشرف ، وهذه الألوان البهيجة المشبوبة ، والعطور المتزجة المشوبة ، من شأنها أن تشحذ الحواس وتنبه مراكز العصب ، فيتحرك الحب فى قرارة كل قلب . واذ لم يكن لشاعرنا المهجور أمل فى الحب ، فقد انصرف الى الشرب فى هزة طربه واهتياج مشاعره . وهذه ابيات له فى دير مريونان — ويقال له ايضا عمر يونان — فى الأنبار على ضفة الفرات ، وهو دير كبير عليه سور محكم ، ورياضه غناء فيحاء :

آذنك الناقوسُ بالفجرِ وغرّد الراهب فى العُمْر (١)
وحنّ مخمور الى الخمرِ وجاءك الغيثُ على قدْرِ
واطّردتْ عيناك فى روضةٍ تضحك عن خُضر وعن صُفر

(١) الكنيسة

يا عاقد الزنّار فى الخصر  بحرمة الحانة والدير (١)
هاتِ التى تعرف وجدى بها  واكْنِ بما شئت عن الخمر

## الرهبان فى تقشفهم وتعبدهم

ومن الديرة (٢) التى عاج بها أبونواس بظاهر الكوفة على بعد يومين منها دير حنة ، وهو دير قديم فى بقعة كثيرة الرياض والبساتين ، تحاذيه منارة عالية كالمرقب تسمى القائم ، وبه بيوت صغار يسكنها الرهبان الذين لا قلالى لهم وتسمى هذه البيوت بالاكيراح . ولعله من أدل الشواهد أيضا على ما كان يمكن أن يكونه أبو نواس لولا شؤم مصادفاته وفساد بيئته ، ما دخل على نفسه من شعور حين طرق هذا الدير وكل همه أن يسكر من معتقات دنانه ، وينظر الى ظبائه من الانس وغزلانه ، على حد قوله :

يا دير حنّة من ذات الأكيراح
من يصحُ عنكَ فانى استُ بالصاحى
رأيتُ فيك ظباءً لا قرون لها
يلعبن منا بألباب وأرواح

فانه مع ما كان من سكره ومجونه ، لم يلبث أن راعه وأخذ بقلبه هذا المشهد الماثل لعيانه للزهد فى متاع الحياة ، والاعراض عن الدنيا والانقطاع لله . فقد جعل — وبه شعور مخامر من العجب الذى لاينقضى والارتياح الذى لايدرى كنهه — يتأمل هؤلاء الرهبان وهم فتية شبان قد أنحلهم القنوت والتقشف ، وشفهم التهجد والتعبد ، وأذابهم طول التفكير والخوف من نار السعير ، فلا يرى الناظر اليهم

(١) فى الأصل « الفهر » وهو عيد لليهود أو معبدهم
(٢) انظر « الحان الحان » للمؤلف

الا اشباحا ، محفوة مفارقهم ، محوقة رؤوسهم ، عليهم من ثياب الرهبانية مسوح خشنة بالية ، وقد عزفوا فى مطالب العيش عن كل زيادة ، وحرموا على انفسهم من اسباب الترف اهون وسيلة وادنى آلة ، حتى ليشربون من الغدران بغير آنية اغترافا بأيديهم ، فاسمع اليه يقول فيهم :

دع التشاغلَ باللذات ـ يا صاحِ ـ
من العكوف على الريحان والراحِ
واعدلْ الى فتية ذابت نفوسُهمُ
من العبادة ، نحف الجسم ، أطلاح
لم يبق منهم لرائيهم اذا حصلوا
ـ حذار ما خوّفوه ـ غيرُ أشباح
تلقى بهم كلّ محفوّ مفارُقه
من الدهان ، عليه سحق أمساح
لا يدلفون الى ماء بآنية
الا اغترافاً من الغدران بالراح

ولقد بلغ من قيام هذه الصورة بنفسه ، ومن تحقق معناها فى حسه ، أن عاد اليها بمثل هذا الوصف من البحر والقافية :

دعِ البساتين من آسٍ وتفاحِ
واعدلْ ـ هُديتَ ـ الى ذات الاكيراح
اعدلْ الى نفرٍ دقت شخوصُهم
من العبادة الا نضوَ أشباح

يكررون نواقيساً مرجعة

على الزبور بامساء واصباح

## غلبة المجون على الشاعر

على ان الشاعر لايلبث حتى يعاوده ما تعوده امثاله من السكر والمجون ، فتراه بعد أن عدل ـ فى هاتين المقطوعتين ـ عن الريحان والراح والآس والتفاح ، الى ذكر العبادة والصلاح ، ووصف العابدين أنضاء النسك كالأشباح ، ينتقل الى ما كان عليه من التغنى بالخمرة المعتقة التى يتحفون بها الضيوف فى القعاب الكبار ، والى التغزل بالراهب الفتى الذى دار بها عليهم وقد صار بعد السكر ينمت نحوله بالهيف ، وعاد يستظرف ما عليه من مسوح الرهبانية ومدارع الصوف . وكذلك ترجع نغمة شعره الى وتيرتها ، وتعود حياته الماجنة سيرتها ، فيختم أوصافه للدير وأهله كما بداها :

يا طيبه وعتيقُ الراح تُتحفتُهم

بكل نوع من الطاسات رَحراحِ

يسقيكها مُدمجُ الخصرين ذو هيفٍ

أخو مدارع صوفٍ فوق أمساحِ

## عمارة الأديرة وزينتها

ولقد كانت الأديار كثيرة فى العراق والجزيرة والشام وغيرها ، وكان بعضها على جانب عظيم من حسن العمارة ونفاسة البناء ، وقد تحصنها الأسوار الشاهقة والأبواب المفرطة فى الكبر من حديد مصمت أحيانا ، وكان منها ماتعلوه القباب المنيفة ترى من بعيد . وكان لبعضها زينة فى داخلها

نهاية فى البهاء والرواء . فمنها ما كانت مزوقة الجدران بأشكال النقوش والفصوص المذهبة ، مفروشـــة أرضها بصنوف الرخام المجزع والمرمر المسنون المرد لا تستقر عليه القدم ، وفى سقوفها الذهب والفسافس واللازورد ، وقد علقت فى هياكلها القناديل من فضــــة ، واتخذت لها الصلبان من ذهب . وفى أركانها وآزاج طيقـــانها الدمى محفورة منقوشة بأنواع الأدهان ، وفى سقفها وحيطانها صور مرسومة ملونة بأزهى الأصبغة والألوان . وفى الصـــدر صورة المسيح وعلى راسه اكليل الشوك ، أو صورة مريم فى غاية من اتقان الصنعة « كلما ملت من ناحية كانت عينك اليها »

ولقد كانت الأكواب التى يسقى بها ضيوف الديرة من ذهب احيانا ، وكان منها الأملس الغفل ، ومنها المنزل المحفور بانواع الرسوم الدينية . ولقد شرب أبو نواس خمرة ذهبية اللون فى أمثال هذه الأكواب الذهبية ، فقال :

أقول لما تحاكيا شبهاً أيهما - للتشابه - الذهبُ
هما سواءٌ ، وفرقُ بينهما أنهما جامدٌ ومنسكب
مُلسٌ ، وأمثالهـا محفّرة صُوِّر فيها القسوسُ والصلب
يتلون انجيلهم ، وفوقهمُ سماءُ خمرٍ ، نجومها الحببُ

## شعائر النصارى فى شعر المسلمين

ولقد كان من كثرة غشيان الشعراء المجان امثال ابى نواس لحانات هذه الأديار ان كثر فى اشعارهم ورود اسمائها والتغنى بخمورها ووصف بساتينها . وقد الموا فى تلك الأشعار ببعض شعائر النصارى ومصطلحاتهم وان كانت لا تخلو أحيانا من بعض التخليط ، كالذى يزعمونه عن ليلة الماشوش وما يجرى فيها من اباحات واستهتار بالمحارم

مما لايقره دين ولا يصح فى عقل . والى هذا الوهم يشير ابو نواس فى أبيات له فى تفضيل بهروز الفارسى على الغلمان النصارى :

نقىٌّ فى الولادة عن مشوشٍ   برخصه النصارى للقسوس

وحسبنا لبيان المام هؤلاء الشعراء المسلمين بالشعائر النصرانية فى أعياد القوم ومتعبداتهم هذه الأوصاف لأبى نواس :

كأنما الكأس اذا صفقت •   قنديلُ قسٍّ وسطَ محرابه

وله فى فوران الخمر فى ابان تعتيقها فى الدنان :

أقامت حقبةً فى قعر دنٍّ   تفور وما يُحس لها لهيبُ

كأن قراتها فى الدنّ تحكى   قراةَ القسِّ قابله الصليبُ

وقوله متغزلا :

عيناى تشهد أنى عاشقٌ لكمُ   يا دُميةً صوّروها فى المحاريبِ

وأخيرا هذه الأبيات فى المجون يخاطب فتى نصرانيا اسمه عبد يشوع بن مارى سرجس :

بمعمودية الدين العتيق   بمطرُبليطها ، بالجاثليق (١)

بشمعونٍ ، بيوحنا ، بمتى   بمارى سرجسَ القسِّ الشفيق

بمارتِ مريمٍ ، وبيوم فصحٍ ،   وبالقربان ، بالخمر العتيق

بميلاد المسيح ، بيوم ذبحٍ ،   وباعوثٍ (٢) لتأدية الحقوق

وأيام السعانين (٣) المدّى   وشمعلة النصارى فى الطريق

---

(١) المطربليط ماخوذ عن اليونانية metropolite : المطران ، والجاثليق عن اليونانية كذلك catholicos : مقدم الاساقفة
(٢) الباعوث : عيد للنصارى كالاستسقاء للمسلمين
(٣) السعانين أو الشعانين عيد للنصارى قبل الفصح باسبوع

بهيكل أسقف ، وبما يليه ، وَنشر البند والعلم الخفوق

وبالصلبان ترفعها رماحٌ تلألأ ، حين تومض بالبروق

وبالناقوس فى البيع اللواتى تُقام بها الصلاة لدى الشروق

بداود وما يتلون منـــــه بترجيعٍ يُرَدّد فى الحلوق

بقلاّيات دومة ، بالمقـاسى ومذبح ديرها الحسن الأنيق

ورهبان الصوامع فى ذراها مُقامُهم على جهدٍ وضيق

بكنس الروم والشامات طرّاً بقسطنطينية البلد السحيق

وبالصُّلب اللجيْن تزين نحراً وبالزنّـار فى الخصر الدقيق

وبالحسن المركب فيك الا رحمت تحيرى وجفوف ريقى

لقد أصبحت زينة كل عيدٍ ودينٍ ، معْ جمائك والعقوق

وغير ذلك كثير من الاقسام التى تشتمل فى مضامينها على جملة اوصاف لشعائر النصارى وسننهم ومشاهد مواكبهم ومصطلحات دينهم ومتعبداتهم . وفيما ورد منها الكفاية وفوق الكفاية للدلالة على اتصال المسلمين بهم اتصال معرفة ومودة ، وعلى اغتنام الخلعاء والمتماجنين لأيام أعيادهم للنظر الى محاسن فتيانهم وفتياتهم فى الحلى والحلل فى غدوهم الى البيع والكنائس ، والتعرض لهم احيانا بالغزل والعبث

على انه يحسن أن ننبه هنا الى ان ما يرويه أبو نواس وأمثاله من خلاعاتهم ورقاعاتهم فى الأديار فى عصبة من الفتاك الخلعاء ورفقة من الشطار ، انما ينصرف الى الحانات والبساتين التى حولها ، كما هو واضح جلى من شعره :

بدير بهراذان لى مجلسٌ وملعبٌ وسط بساتينه

رحتُ اليه ، ومعى فتيةٌ زوره يوم سعانينه
بكل طلاّب الهوى فاتكٍ قد آثر الدنيا على دينه
حتى توافينا الى مجلسٍ تضحك ألوانُ رياحينه
والنرجس الغض لدى ورده والوردُ قد حُفّ بنسرينه
وجىء بالدنّ على مرفعٍ وخاتم العِلْج على طينه (١)
وافتُصِدا الأكحلُ من دنّنا فانصاع فى حمرةٍ تلوينه
وطاف بالكأس لنا شادنٌ يُدميه مسُّ الكف من لينه
يكاد من إشراق خديه أن تُختطف الأبصار من دونه
فلم نزل نسقى ونلهو به ونأخذ القصفَ بآيينه (٢)
حتى غدا السكران من سكره كالميْت فى بعض أحايينه

ومثل ذلك كان مجلس شاعرنا فى طيزناباذ بين الكوفة والقادسية ، ودياراتها ذات قباب ، وهى من أنزه المواضع ، محفوفة بالكروم والشجر ، وفيها المعاصر والحانات ، وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة . والقول هنا أيضا معدول عن الدير الى بستان صاحب الدير ( وهو العمار أى الديرانى ، من العمر وهو الدير )

يا حبذا مجلسٌ قد كان يجمعنا
بطيزناباذ فى بستان عمّار
وحبذا أمُّ عمار ورؤيتها
خمارةً أصبحت أما لخمّار

---

(١) العلج: الرجل الضخم الشديد من العجم (٢) الآيين: القانون معربة

تعلنا بمدام قد تناولها

ريبُ الزمان وعصرٌ بعد أعصار

لم نخطُ من خدْرها شبراً الى أحد

ولم نزل بين جنات وأنهار

ولعل ابا نواس لم يدع فى طريقه الى بغداد ديرا أو عمرا ، ولا قلاية أو كرحا ، الا ألم به ، فهو لا يفتأ يلهج بذكر ديارات الحيرة وطيزناباذ والأنبار وغيرها ، مرددا اشتياقه لها وما يعتاده من الحنين اليها ، تجديدا لمجالس شربه فى حاناتها وملاهيه فى بساتينها

## فى احضان الطبيعة

ولقد أفادته هذه الرحلة مع ذلك حب الطبيعة ، اذ جلتها اجمل جلوة فى عينه ، وقربتها الى قلبه ، وخلطتها بحسه ، فظهر اثر ذلك جليا فى شعره . على ان هذا الحب للطبيعة لم يرتفع عنده الى وقفة التعبد فى هيكلها والخبوت لروعتها والشعور الدينى بحضرتها والاتحاد الصوفى بروحها ، وانما كان قصاراه أن جعله دائم الصبوة الى طيب المجالس فى رياضها ، سريع النشوة بعطورها وأطيابها ، متطربا الى خرير جداولها واطيارها ، منجذب العين الى انواع ريحانها ومشبوب الوانها ، حتى صار لايطلب شيئا طلبه للشرب فى احضانها كأنما يرتضع الخمرة من لبانها . ومعنى ذلك انه وان يكن عاشقا من عشاق الطبيعة لم يكن عشقه الا من نوع العشق الحسى لا يعنى بغير الملموس المحسوس . فالطبيعة عنده ــ كما قدمنا ــ ليست معبدا ، ولكنها مرتع مونق للهو واللعب ، ومجلس مأنوس للسكر والطرب

## طلب العزاء

وهنا يتشاغل هذا المحب المخيب عن هوى «جنان» بهوى

المرد والقيان . وهنا نلقى هذا الشاعر العالم يغالب بالشراب احزانه ويطفىء به وجده وأشجانه ، لو صح أن اللذة تغنى غناء الحب ، وان الخمر تطلق النفس من عقال الهم ، وتفرغ برد العزاء على حر الأحشاء ، كما زعم صاحبنا المحروم المحزون :

لا تخشعنَّ لطارقِ الحدثانِ
وادفعْ همومك بالشراب القاني

أوَ ما ترى أيدى السحائب رقشتْ
حُلل الثرى بطرائق الريحان

من سوسنٍ غضِّ القطافِ ، وخُزَّمٍ
وبنفسجٍ ، وشقائق النعمان

وجنيِّ وردٍ يستبيكَ بحسنه
مثل الشموس طلعن من أغصان

حُمراً وبيضاً مُجتنين ، وأصفراً
وملوّناً ببدائع الألوان

كعقودِ ياقوتٍ نُظمن ولؤلؤٍ ،
أوساطُهن فرائدُ العقيان

ومن الزبرجد حولهن ممثلاً
سمطاً يلوح بجانب البستان

فاذا الهموم تعاورتك فسلها
بالراح والريحان والندمان

# دار السلام في عصرها الذهبي

تعجل الشاعر رحلته الجميلة بعد مطاولة وختم مطافه ، وأقبل لاول عهد الخليفة هارون الرشيد قادما على دار السلام ، بغداد التى اختطها المنصور فأصبحت أزهى وأزهر حواضر الاسلام

ولا شك أنه قد داخلته الروعة ، وامتلأت نفسه جلالا ، وشبعت عينه فتنة ، وهو يستشرف اليها ، ولقد بدت أسوارها المكينة العريضة الجدران ، الشاهقة البنيان ، كالقلعة الحصينة • وكان يدور حولها خندق ، ومن ورائه مسناة (١) بالآجر والصاروج (٢) متقنة محكمة عالية • وكان دخول « أبى نواس » من المدخل المقابل للطريق التى أتى منها – أى من باب الكوفة • فاذا هو منه فى دهليز عظيم أزج (٣) معقود بالآجر والجص ، فى جوف السور الخارجى الكثيف ، وكان عليه باب كبير جليل المقدار لا يغلقه ولا يفتحه الا جماعة رجال . ثم أفضى من هذا الدهليز الى رحبة مفروشة بالصخر طولها ستون ذراعا مسورة غير مسقوفة ، وهى مادة فى انحراف وازورار ، تشق براح الفصيل الدائر بين الاسوار الخارجية والاسوار

(١) السد يبنى فى وجه السيل (٢) الآجر ما يبنى به من الطين المطبوخ ( الطوب الأحمر ) • الصاروخ الكلس ( الجير ) واخلاطه
(٣) على هيئة ساباط مطول مرتفع

الداخلية ، وفى حائطى هذه الرحبة عن اليمين والشمال بابان فى جنبتيها يشرعان (١) الى الفصيل . فلما اجتاز صاحبنا الرحبة انتهى فى صدرها الى الباب الثانى ، وهو باب المدينة فى سورها الاعظم الذى عليه تقوم الابراج العظام والشرفات المدورة . ومضى القادم المدهوش يخترق الدهليزالثانى فى جوف السورالداخلى ، والدهليز أزج معقود مثل سابقه ، عليه بابا حديد جليلان عظيمان ، يدخل منهما الفارس بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح . وتأتى بعد ذلك الرحبة المربعة وهى ذات طاقات (٢) معقودة فيها كواء (٣) رومية يدخل منها الشمس والضوء . وعلى طاق المدخل باب ساج كبير من فردين، وفى جنبتى الطاقات بين كل طاقين غرف للمرابطة

وكان باب المدينة الذى دخل منه شاعرنا ـ كسائر أبوابها الاربعة ـ تعلوه قبة عظيمة تناطح السماء ، مذهبة مزخرفة ، معقودة فوق مجالس يشرف منها على كل ما يجرى حولها ، ويصعد اليها على عقود مبنية بعضها أعلى من بعض، وفى داخلها الديادبة والحرس ، وعلى رأس كل قبة تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره على القباب الاخرى

وانتهى أبو نواس من هذه الاسوار والدهاليز والطاقات والابواب التى تحرسها الجند ، الى داخل المدينة العظيمة . فاذا داخلها لا يكذب ظاهرها فهى من وراء ما يتصوره وهم الواهم من أبهة العمارة ، وفوق ما يقدره حسبان الحاسب من رواج التجارة ، ثم هى على أشد الزحام بالناس أخلاطا من سائر الاجناس . ولعل أعظم ما شاقه منها وارتاح اليه فيها ذلك الطابع الاعجمى الذى يطبعها ويغلب عليها فى كل شىء

---

(١) ينفذان اليه (٢) الطاق : ما عطف من البناء والجمع طاقات أى أقواس من البناء (٣) جمع كوة

## قصور بغداد

أما مبانيها وقصورها ومصانعهـا فهى على مثـال من الهندسة فيه الفارسى والبيزنطى وقد حوطوها بالاسوار ، وجعلوا فى سطوحها القباب مرفوعة على العمد الدقاق كأنها معلقة فى الهواء٠وزينوا جدرانها وسقوفها بالنقوش الملونة ، وفصوص الفسيفساء المذهبة ، وتصـاوير النبات من ثمار وأغصان ، ورسوم الطير والحيـوان من طواويس وغزلان ٠ وكتبوا الآيات بالذهب المجسم ، وحفروا المنـاظر الممثلة للحياة على المعدن ، واتخذوا الزجاج الملون على دائر الابواب والقمريات ٠ وعمدوا فى صنع أطرها الى الآبنوس وغـيره من الخشب الثمين . وتأنقوا داخل القصور فى اتخاذ الجنات وتنسيق المتنزهات يجلبون اليها بدائع الاغراس وغرائب الاطيار من أطراف الارض ، ويسوقون اليها الجداول ويبنون السقايات ٠ ويحتفرون البرك تجرى فيهـا الزواريق للهو والغناء فى ليالى القمراء

وكان من هذه القصور ما يرجع عهده الى المنصور مثـل « قصر الذهب » الذى بناه وسط بغداد المدورة،وفى صدره الايوان تنعقد فوق مجلسه الاعلى القبة الخضراء منيفة ترى من أطراف المدينة ، وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس وفى يده رمح ٠ وكانت هذه القبة تاج بغداد ، وعلم البلد، ومأثرة راسية الأساس لموطد ملك بنى عباس . ثم « قصر الخلد » على شاطىء دجلة وموضعه وراء باب خراسان ٠ وقد جاءت تسميته تشبيها له بجنة الخلد ، لما يحويه من عجيب فائق وجميل شائق من كل ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين، وكان الخليفة هارون الرشيد يقيم وقتئذ فيه ٠ وعلى مسافة قريبة منه قصر الملكة زبيـدة المشهور بدار القرار ٠ وكان القصران متقاربين على الضفة الغربيـــة من النهر ٠ وكان بحذائهما من الجانب الآخر قصور البرامكة لا تقـل عنهما

عظمة وأبهة . ثم غير هذه وتلك قصورعدة على جانبى دجلة للامراء والوزراء ورجال الدولة وذوى الجاه والثروة ، عدا الدور والاسواق والجوامع والحمامات وهى لا تحصى كثرة
وقد ذكر أبو نواس « قصر الخلد » فى بعض أشعاره :

كنت « بقصر الخلد » فى روضة تخرقها الأنهارُ بالسفنِ
خلا لها الوردُ لدى نرجسٍ معتنق للآس فى غصن
نيط بتفاحٍ إلى مشمشٍ بين نخيل الطن والبرنى (١)
يا حبــذا النوّار نوّاره مختلف البهجة فى الحسن
من أصفرٍ يرنو إلى أحمرٍ وأبيض فى اللون كالقطن

كما اشار الى ما كان فى قصر المهدى من حسان الطواويس فى قصيدة فى باب الطرديات ينعت ديكا من ديوك الهند

أنعت ديكاً من ديوك الهندِ
أحسن من طاووس « قصر المهدى »

ومن اشارته لقصور الامراء قوله فى احدى خمرياته وقد دعاه الامير عيسى بن أبى جعفر المنصور ليقيم عنده أسبوعا فى القفص فى ارباض بغداد :

يا طيبنا بقصور القفص مشرقةً فيها الدساكرُ والأنهارُ تطرد

## غلبة الحضارة الفارسية

ولقد كان شيوع اللباس الفارسى فى بغداد يكاد يكون عاما بعد سنوات من صدور أمر الخليفة المنصور لاصحابه بتغيير الزى الرسمى فى سنة ١٥٣ . فكانت طوال القلانس بدل العمائم لرجال الدولة وأصحاب الديوان ، والطيالس

(١) الطن : رطب أحمر شديد الحلاوة . والبرنى : نوع من التمر، معرب

السود للعلماء والمشايخ ، والاقبية لسائر الرجال،والقراطق والمناطق للغلمان والجوارى

وعلى الجملة كان لون الحضارة الفارسـية ظاهرا فى كل ناحية من نواحى الحياة العملية والعلمية ، العامة والخاصة ، حتى مواكب الخليفة ورسوم الخلافة

على أن أبا نواس قد شغل عن هذه المعالم كلها مع عظم سروره بها،فلم يعرض بشىء من جيد القول لوصف القصور او غيرها من آيات الحضارة وعظمة الملك فىبغداد فىعصرها الذهبى أيام الرشيد والبرامكة • وانما الذى شغله الشغل كله واستولى على نفسه وملكعليه مشاعره ، هو هذه الروح الفارسية ذات النزعة الحسية ، منبعثة فى بغداد ، تجرى فى حلبتها منطلقة فى أعنتها ، بكل ما عرف عن الفرس منذ قديم من حب للنبيذ ، ونزوع للهو والسرور ، وميل للطرب والغناء ، واستجابة لدواعى الغزل • وهى روح متفقة مع دياناتهم الزرادشتية القديمة التى جعلتهم يعبدون الطبيعة فى مظاهرها الحسية دون استغراق فى الغيبيـات كغيرها من الديانات

## الشاعر يدعو الى التجديد

ولقد كان لهذه الحضارة التى انغمس فيها الشاعر أعمق الاثر فى نفسه ، وهى كذلك معكوسة أصدق الانعكاس فى شعره • ومعلوم أن الكثرة من شعراء عصره كانوا لا يزالون ينسجون على منوال الشـعراء الجاهليين ، من الوقوف على الاطلال التى تعفت فلا تكاد تبين ، والبكاء على منازل الحى الذين تحملوا بخيامهم ظاعنين ، وذكر غـراب البين الذى آذن بفراق الأحبة ، والتسليم على ما خلفوا من رسـوم ، وتشمم ما حولها من العرار والشيح والقيصوم • وذلك مع كون هؤلاء الشعراء من طبقة المحدثين ، وقد بعدوا عن ذلك كله فى الزمان والمكان أشد البعد ، وانقطع عهدهم بالبوادى

وحياة البداوة وتبدلوا منها حواضر العراق مستبحرة العمران مترفة النعيم • ولقد أبى شاعرنا العبقرى المطبوع بما كان له من رحم موصولة بالفارسية ، ونزعة ظاهرة للشعوبية ، وبما كان يتذوقه ويتملاه فى هذه الحياة المترفة من اللهو واللذة ، الا أن يكون لسان صدق ، فيكون شعره ترجمان عصره ، ولا يعدو وصفه ما يقع تحت حسه • وزاد على ذلك أنه لم يسلك طريقه فى خشية المتهيبين وتستر المهربين ، بل رفع علم الثورة نهارا ودعا دعوة المصلحين جهارا ، فحق له أن ينزل من التاريخ الادبى منزلة المجاهدين وأن يعرف له فى الادب العربى فضل المجددين

وهذا بعض ما كان يردده الشاعر الداعية فى حملته على أصحاب المذهب القديم من الشعراء والشعارير المحدثين ، وما كان يأخذ به من تشديد النكير عليهم وتعمد التشهير :

لاجفّ دمعُ الذى يبكى على حجرٍ
ولا صفا قلبُ من يصفو الى وتد

كم بين ناعتِ خمرٍ فى دساكرها[(١)]
وبين باكٍ على نُؤىٍ[(٢)] ومنتضدا

□

إنحَــلْ على الدار بتسليمِ
فما لديهـــا رجعُ تكليمِ
والعن غراب البين بغضاً له
فانه داعيــــــة الشوم

(١) الدساكر : بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهى
(٢) النؤى : الحفير حول الخيمة يمنع السيل ، والمنتضد مجتمع الرمل

وعُجْ إلى النرجس عن عرفجٍ،[1]

والآس عن شيحٍ وقيصوم

واغدُ إلى الخمرِ بأبانها

لا تمتنعْ عنها لتحريم

□

دَعِ الأطلال تسفيها الجنوبُ[2]

وتبكي عهدَ جدّتها الخطوبُ

وخلِّ لراكبِ الوَجناء[3] أرضاً

تخبُّ بها النجيبةُ والنجيبُ

ولا تأخذ عن الأعراب لهواً

ولا عيشاً، فعيشُهم جديب

ذرِ الألبان يشربها أناسٌ

رقيقُ العيش عندهم غريبُ

بأرض نَبتها عُشرٌ وطَلحٌ

وأكثرُ صيدها ضَبعٌ وذيب

إذا راب الحليبُ فبلْ عليه

ولا تحرَجْ، فما في ذاك حوب[4]

(١) العرفج والشيح والقيصوم مما ينبت في سهول البادية، وهي جميعا طيبة الرائحة

(٢) الجنوب: الريح التي تهب من الجنوب (٣) الوجناء: الناقة الشديدة (٤) الحوب: الاثم

فأطيبُ منه صافيةٌ شمولٌ (١)
يطوف بكأسها ساقٍ أريبُ

الى أن يقول :

فأين البدوُ من إيوان كسري    وأين من الميادين الدروبُ

والشاعر فى هـذا جميعه شديد الوطأة ، عارم الجراة ، مستجمع الحملة . وبعض هذه القصائد والمقطعات لا يخلو من اشارات عابثة فكهة الى بعض المشهورات من الشعر القديم وخاصة المعلقات ، كالاشارة الى مطلع امرىء القيس فى معلقته « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وأمثاله ــ وهى اشارة أصلح ما يقال فيها أنها أشبه شيء بنكات الظراف المتحضرين من أبناء البلد عندنا

قل لمن يبكى على رسم دَرَس    واقفاً ، ماضرّ لو كان جلس ؟

## التجديد فى العشق والغزل

ومن طريف ما يأخذه ابو نواس على البدو ويذكره لهم فى جملة معايبهم ، ما كان من جهلهم لهـوى الغلمان وتعشق الجنس لجنسه وعدم فطنتهم للغـزل بالمذكر ، وذلك فى قصيدة مطولة يذم فيها الاعراب ويعرض بعشقهم ويزرى بعشاقهم المشهورين أمثال المرقش وعبـد الله بن عجلان ، وفى ختامها يقول :

أما والله لا أشراً (٢)    حلفتُ به ولا بطرا
لو أن مرقشاً حيٌّ    تعلق قلبـه ذَكرا
كأن ثيـابه أطلعـ    ن من أزراره قمرا

---

(١) الشمول من أسماء الخمر (٢) الاشر : فرط المراح

ومرّ يريد ديوانَ الـ خراج مضمخاً عطرا
بوجهٍ سابريٍّ (١) لو تصوّب ماؤه قطرا
وعينٍ خالط التفتيرُ في أجفانها حوَرا
وقد خطت حواضنهُ له من عنبرٍ طُررا
يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

ومهما قيل من أن صاحبنا انما كان فى وصف اللذة والخمر تجديده جميعه ، فان صدقه فى الترجمة عن نفسه وتصوير بعض نواحى عصره لا شك أنه شفيعه

## خلفاء بنى العباس ومذاهبهم فى الفن واللهو

ولقد كان الذى اجتذب أبا نواس الى بغداد وأخطرها بذهنه، هو بعينه الذى اجتذب سائر أهل الفن والادب اليها منذ ابتداء عصر المهدى. فقد كانت أيام أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور أيام تأسيس للملك وارساء لقواعده ، بالقضاء على الامويين الاعداء ، والضرب على أيدى الطامعين من الاولياء ، فلما أن فرغ القوم من تمكين ملكهم وتأمينه طلبوا الراحة وانبسطت نفوسهم للهو . واللهو فى ذلك الحين حاضر قريب ، شديد السحر والفتون ، بما دخل عليه من فنون الفرس والروم

## فى خلافة المهدى

فاذا الخليفة الذى عهدناه فى شخص السفاح والمنصور متشددا مقتصدا مؤثرا للجد منصرفا الى مجالس العلم ، قد بدأ فى شخص المهدى يتفرج ويستمتع بشىء من اللهو ، وينفق المال على الملهين والمنادمين ، ويسمع المغنين جميعا ،

---

(١) الثوب السابرى : هو الرقيق الناعم

وكانوا فى أول أمره يغنونه من وراء ســـــتارة ، فلم يدم احتجابه هذا عن ندمائه أكثر من سنة ، ثم صار يخرج لهم، ومن قوله فى ذلك « انما اللذة فى مشاهدة السرور والدنو ممن سرنى ، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ »• وكان أصحابه يشربون النبيذ عنده بحيث يراهم ، وهو لا يشربه لا تحرجا بل لانه لا يشتهيه • وأما هواه فكان بالنســاء ، وكان أحب شىء اليه الخوض مع خاصة ندمائه فى الحــديث عنهن وذكر الخلوة بهن ، وكان كثير التسرى والولوع باقتناء الجوارى • وكان بطبيعة حبه للنساء والغناء قد أغرم الغرام كله بالقيان ، فكان يشتريهن ويغالى بهن ، وله فى الجوارى والقيان أخبار وأشعار

وسواء أصح نظم المهدى لهذه الاشعار أو لبعضها أم لم تصح له كلهــا ، فانه كان يهتز للشــــعر ويجزل العطايا للشعراء • فكثر منذ عهده وفودهم على بغداد من كل صوب، من البادية ومن مكة والحجاز ومن البصرة والكوفة وغيرها • واجتمع ببابه نفر غير قليــل ، نذكر منهم محمد بن المولى وعبد الله بن الخياط وبشار بن برد وأبا العتاهية وأشــجع السلمى ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر • ويكفى فى الدلالة على ما وقع للفن من حظوة ، وما انفتح لاهله فى ذلك العهد من آفاق ، وما در عليهم من الارزاق ، أن نذكر ما كان عليه حال الشعراء ورجال الادب قبله • فقد روى لنا الراوون أن قد اجتمع مطيع بن اياس وحماد عجرد ويحيى بن زياد يوما فى أيام المنصور العباسى ، فتذاكروا أيام بنى أميـــة وسعتها ونضرتها وكثرة ما أفادوا فيها وحسن ملكتهم وطيب دارهم بالشام ، وعرضوا على جهة المقابلة ما هم فيه ببغداد من القحط وشدة الحر وخشونة العيش ، وشـــكوا الفقر فأكثروا ، وقال فى ذلك مطيع بن اياس :

حبذا عيشنا الذى زال عنا   حبــذا ذاك ، ثم لاحبــذا ذا

زاد هـذا الزمان عسراً وشراً عندنا إذ أحلنـا بغـداذا
بلدة تمطر التراب على النا س كما تمطر السماءُ الرذاذا
خربت عاجلا،وأخرب ذو العر ش بأعمـال أهلهـا كلواذا

ولقد انقطع أبو دلامة الشاعر الاسود الكوفى للخليفتين أبى العباس السفاح والمنصور ، وكانا يقدمانه ويستطيبان مجالسته ونوادره،فلم يبلغا فى عطائهما ما فيه غناء ومقنع، حتى قال أبو دلامة حين أحدث المنصور لبس القلانس الطوال كلمته الشاكية المتهكمة :

وكنا نرجى من إمام زيادة فجاد بطول زاده فى القلانس!

ولما أن أنفذ الخليفة عزمه فى قائد الثورة العباسية الاكبر أبى مسلم الخراسانى فقتله ، أنشد الشاعر الخليفة فى محفل من الناس قصيدة عصماء ، فقال الخليفة مظهرا فى هـذه المناسبة غاية التطول والانعام ، متعمدا اشـعار القوم بما للخلافة من عظمة وسعة ومقدرة : «احتكم» . فقال الشاعر: « عشرة آلاف درهم » ، فأمر له بها . فلما انصرف النـاس وخلا به قال : « ايه ، أما والله لو تعديتها لقتلتك »

ولقد استقل المهدى نفسه وهو ولى للعهد عطاء المنصور لابراهيم بن هرمة حين أنشده قصيدته اللامية التى مدحه بها فكلمه فى ذلك : « يا أمير المؤمنين ! قد تكلف فى سفره اليك نحوها » . ومهما يكن من احتجاج المنصـور لذلك ، فالذى لا خلاف فيه أن القصد كان من شيمته وفى طباعه

حتى اذا كان عهد المهدى خرجت حياة الفن من الضيق الى السعة . اذ كان الخليفة مبسوط اليد مبـذول العطاء ، لا يفتأ يتسخى على أصحابه ومناديه ووفوده من أهل الادب والشعر ، فيأمر لهم بالخلع الفاخـرة والمراكب الفارهة ، وبالجوائز المضاعفة تبلغ عشرات الالوف من الدراهم تحمل

الى منازلهم معجلة ، مما لم يسبق لغيره أن بلغ مبلغه • وفى ذلك قال مروان بن أبى حفصة الشاعر :

بسبعين ألفاً راشنى من حبائه

وما نالها فى الناس من شاعر قبلى

وقد بلغ ما أفاده الشعراء من بسطة الحال وسعه الرزق أن كان سلم الخاسر يأتى باب الخليفة على البرذون الفاره قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولجام مفضضين ، ولباسه الخز والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الاثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه

ثم ان المهدى لم يكن يقصر العطاء على مادحيه من طلاب الخير المتكسبين بالشعر ، بل كان يسنى الجوائز ويجزل النفحات لاهل الفن ، حبا فى الفن • ومن ذلك ما يرويه حماد الراوية من أنه دخل على المهدى يوما فقال له : « أنشدنى أحسن أبيات قيلت فى السكر ولك عشرة آلاف درهم ، وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف» فأنشده حماد أبياتا للأخطل • فقال له : « أحسنت » وأمر له بما شرطه ووعد به • فاذا ذكرنا أن المهدى لم يكن صاحب شراب ، عرفنا مبلغ ما كان عليه من الشعور بجمال الفن فى ذاته

## فى خلافة الرشيد

فلا عجب اذا رأينا شاعرنا أبا نواس وقد أتم علمه واستوفى فنه وزادت على الثلاثين سنه ، يبادر الى بغداد عروس المدائن وحضرة الخلفاء ، ليحظى فيها بما حظى به الشعراء • واذا كان قد فاته عطاء المهدى ، فلا يفوتنه عطاء ولده الخليفة الاشهر هارون الرشيد• وما حل الفتى البصرى مدينةبغداد ورأت عيناه عظم أبهتها وكثرةعمارتها وانصباب الدنيا فيها وما يتوافر بها من أسباب النعيم واللذة لمن

أسعده الحال وأمكنه المال ، حتى حز فى قلبه الحرمان وتمنى أن يكون له شأن غير هذا الشأن . وتلفت حواليه فاذا بجانب هذا الثراء الطائل والنعمة السابغة ألوف من الفقراء وذوى الحاجة ظاهرى الخصاصة وضعف المقدرة ، وقد ضاق بهم العيش فى هذه الجنة الناضرة الزاهرة

عند ذلك أدركت هذا الفتى الماجن عزة النفس ونزت فى رأسه سورة الأنفة ، وعصفت فى صدره ثورة منكرة ، فهو لن يرضى لنفسه هذا الهوان ولن يصبر على هذا الظلم والحرمان ، وهو مجمع عزمه على طلب نصيبه من الدنيا وحظه من اللذة، ولو تأدى به الامر الى الخروج على السلطان والتمرد على النظام :

سأبغى الغنى ، إما جليسَ خليفةٍ
يقوم سواء ، أو مخيفَ(۱) سبيلِ

بكل فتىً لا يُستطار جنانه إذا نوه الزّحفان (۲) باسم قتيل

لنخمس (۳) مالَ الله من كل فاجر
أخى بطنة للطيباتِ أكول

## الوزراء البرامكة

ولقد كانت امور الخليفة كلها فى ذلك الحين الى وزرائه البرامكة ، أمنائه على الدولة والمفوضين منه على مصالحها ، يستعملون ويعزلون من شاءوا ، ويرفعون ويخفضون من رأوا ، ويفرضون من الحقوق ويسقطون ، ويحكمون فى كل شأن بما يرتضون . وهم أهل لجميع ذلك ، بما كان لأبيهم من الرأى وحسن التدبير ، وما أوتوه عنه من ارتياض على

(۱) قاطع طريق (۲) الجيشان زحف احدهما الى الآخر
(۳) نأخذ خمس المال

حسن السياسة ، ومصانعة الحوادث والناس. وكانت دورهم بالشماسية – فى الموضع المعروف بسويقة خالد – مناط الآمال ومحط الرحال لطلاب المعالى والاقدار الرفيعة من ذوى الطموح والهمة ، كما كانت سوق العلم لديهم قائمة نافقة ، وبضاعة الادب عندهم رائجة رابحة . ومن ثمة أقبل أبو نواس من أول الامر عليهم ، ليملأ يديه من نوالهم الذى غمر شعراءهم ، وليكونوا له الى الخليفة سببا

## الشيخ يحيى البرمكى

فنظم شاعرنا فى كبيرهم يحيى بن خالد البرمكى الوزير الاكبر ، أكمل أهل زمانه معرفة وأدبا ، وأحكمهم سياسة ورأيا مع الجود وسجاحة الخلق وشرف الخلال ، أشعارا قصارا على نحو ما كان ينظم المتصلون ببابهم لانتجاع فضلهم :

سألت الندى: «هل أنت حرٌّ ؟» فقال «لا ، ولكننى عبدٌ ليحيى بن خالد »

فقلت : « شراءً ؟ » قال: « لا ، بل وراثةً توارثنى عن والد بعد والد »

ولعل الشاعر قد ذكر نسبه الفارسى ، وتحركت فيه نزعته الأعجمية ، وهو يخاطب الشيخ البرمكى العظيم الهيبة الذى ينمى الى بيت من أمجد البيوت الكسروية ، وينتسب الى سدنة النوبهار المعظم بين المعابد الفارسية، فنظم قصيدته البائية التى مرت بالقارىء ومطلعها :

لا أحط الحزام طوعاً عن المحـ ـذوف[1] دون ابن خالد الوهّاب

وكلها رموز واشارات يستحبها الفرس لأنهم أصحاب

(١) الزق

نجوم . وكان يحيى بن خالد أعلم الناس بها
على أن الشيخ البرمكي فى وقاره وسنه المتقدمة كان بعيداً عن منادمة الخلفاء أمثال أبى نواس . وكان أميل الى الاجتماع بأهل البحث والنظر من متكلمى الاسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل

## الفضل بن يحيى البرمكى

وكان الذى ينوب عن يحيى فى جلائل الاعمال ولده « الفضل » ، والناس يسمونه من أجل ذلك « الوزير الصغير » . وكان الابن لأبيه ، رجل همة وجد وكفاية ونزاهة ، الا أن فيه كبرا شديدا يظهر عبوسة فى وجهه وخيلاء فى مشيته . ولكنه كان عظيم السخاء ، واسع العطاء . فكان الذين يجتمعون ببابه من الشعراء عددا كبيرا حتى قال بعضهم :

ما لقينا من جود « فضل بن يحي » جعل الناس كلهم شعراء

وكان أبو نواس فى جملة الشعراء الذين قصدوا اليه بمدحهم ، وكان بين هؤلاء من انقطعوا لذلك واختصوا به ، فلم يكن يدرك فى هذا الباب شأوهم ويلحق بآثارهم . ولقد أنشده أبو نواس يوما قصيدة قدم لها بالنسيب على عادة الشعراء المادحين فقال أبياتا مطلعها :

ذكرتم من الترحال أمراً فغمّنا فلو قد فعلتم صبّح الموتُ بعضنا

وأصغى الفضل ، وكان ذا بصر بالشعر . فلما انتقل الشاعر من النسيب الى المديح وقال فى تخلصه :

سأشكو الى الفضل بن يحي بن خالد

هواكم لعل الفضل يجمع بيننا

تململ الامير وهمهم معقبا عليه « ما زدت على أن تجعلنى قوادا ! »

فبهت الشاعر ، وانفتحت عينه على سقطته التى أعماه عنها ما تعوده من الانطلاق وقلة التحرج • ثم استدرك ملتمسا المخرج : « أصلح الله الامير ! انه جمع تفضل ، لا جمع توصل »

وأبدى الامير الموافقة • ومضى الشاعر فى مديحه • فأمر له الفضل بخمسماية دينار • وانصرف أبو نواس ، ونفسه غير طيبة لا باللقاء ، ولا بالعطاء ، فقد كانت عطايا البرامكة لغيره أكثر • وكان الغالب على الفضل بن يحيى من الشعراء سلم الخاسر ، أو الرابح كما كان يحب أن يسميه • وقد كثرت مدائح هذا الشاعر فيه وعظم احسان الفضل اليه حتى قال أبو العتاهية :

إنما « الفضلُ » لـ « سَلمٍ » وحدَه

ليس فيه لسوى « سَلمٍ » دَرَكْ

وكان الخليفة الرشيد يعرف للفضل بلاءه وحسن سياسته منذ أن ندبه لقتال يحيى بن عبد الله العلوى الذى اعتصم فى بلاد الديلم وأعلن خروجه على الخليفة واشتدت شوكته • فاستنزله الفضل من معقله من غير اراقة للدماء ، آخذا فى ذلك بسياسة بنى برمك التقليدية • وهى سياسة تهدئة وتلطيف لحدة الخلاف بين عنصرى بنى هاشم : العباسيين والعلويين • وقد أشار الى هذا المعنى شعراؤهم فقال مروان ابن أبى حفصة يمدح الفضل :

ظفرتَ ، فلا شُلت يدٌ برمكية

رتقتَ بها الفتق الذى بين هاشم

وقال غيره فى هذه المناسبة نفسها :

عصمتْ حكومتُه جماعةَ هاشم      من أن يجرّد بينها سيفان

وكان من معرفة الخليفة لمقدرته على حسم الفتن وضبط

الامور أن قلده المشرق كله من النهروان الى أقصى بلاد الترك. وشخص الفضل الى عمله فى سنة ١٧٨ وودعه الرشيد والاشراف والوجوه وساروا معه ، ومدحه الشعراء فوصل وأعطى وأفضل . وبلغ ما أجاز به الشاعر مروان بن أبى حفصة مئة ألف درهم غير ما وهبه من دابة فارهة ، وكسوة فاخرة ، وجارية كسية حالية . ولبث الفضل فى خراسان عاما وبعض عام أصلح فيها الامور ، وأزال عقابيل الجور ، وبنى الحياض والمساجد والرباطات ، وفرق فى الناس الأموال ، وارضى الجند والقواد بالأعطيات وأخذ البيعة بولاية العهد لمحمد الأمين ثم انصرف فى آخر ١٧٩ هـ عن خراسان الى العراق . فتلقاه الرشيد لما ورد ببستان أبى جعفر ، وجمع له الناس وأكرمه غاية الاكرام . وأمر الخليفة الخطباء بذكر « الفضل » والتنويه بمحامده ، وأمر الشعراء بمدحه فكثر المادحون له . ولم يدع شاعرنا أبو نواس هذه الفرصة ليظفر بالعطايا والهبات ينفقها فى حاجاته وملذاته. فاشترك فى المديح مع الشعراء ، وألقى وه فى الدلاء . ورأى الفضل أن يكون جزاء هؤلاء على قدر استحقاقاتهم وموضعهم من الاحسان والاجادة . فأمر أحمد بن سبار الجرجانى أن يميز أشعار الشعراء ، فمشى اليه جماعة منهم داود بن رزين الواسطى ومسلم بن الوليد وأبان اللاحقى، وأشجع السلمى ، فسألوه أن يضع من شعر أبى نواس ولا يلحقه بنظرائه منهم . فلما أن عرض أبو نواس شعره على الجرجانى ، رمى به وقال : « هذا لا يستحق قائله درهمين » فهجاه أبو نواس :

بما أهجوك ؟ لا أدرى ... لسانى فيك لا يجرى

إذا فكرت فى قدر ... ك أشفقتُ على شِعرى

واتصل الخبر بالفضل فأبى طبعه هذا الاسفاف فى

الخصومة ومجافاة الحق في الحكومة ، وصرف الجرجاني عن تمييز الشعر ، ووصل أبا نواس وأرضاه

وكان للفضل أحيانا طرب الى المذاكرة في الادب ، وكان يدعو اليه الرواة والشعراء في بهو له قد فرش كله بالسمور . وهو في صدر المجلس ، وعليه دواج (١) سمور ، وبين يديه كانون من فضة في وسطه أثفية (٢) من ذهب ، وعلى الاثفية قدر تحته العود المندلي . وأمامه صينية من فضة ، على أسد رابض من فضة ، وعيناه ياقوتتان حمراوان ، والصينية والاسد قطعة واحدة . وفي الصينية ابريق زجاج فرعوني ، لا يبلغ حسن فنه وصف ولا يفي بقدره ثمن ، والى جنبه كأس تسع رطلا . ويقف على القدر خادم فزري، والخدم خارج البهو جلوس . ولقد حضر الاصمعي امام اللغة وراوية العرب مجلس الفضل وصوره لنا على عادته تصويرا دقيقا مفصلا . فوصف لنا ما أمر به الامير له من خلعة كاملة من جبة وكساء بحواشيه وجوارب، وكلها خز مبطن بسمور . ثم انتقل الى خوانه فوصف الرقاقات وألوان الاطعمة في صحاف الفضة وبخاصة ما قدم اليه من طعام طيب المذاق في جام فضة خسروانية وقد نثر عليه السكر ، وأغلب الظن عنده وان لم يحققه انه كان مخ خصيان الضأن الذى يذبح في مطبخ الامير كل يوم . وبعد أن تملأ الاصمعي من المآكل ورفع الخوان جاءه الطست فأعطى أربعة أصناف من الاشنان، فلما مسح يديه جاءه خادم بيده ملعقة مملوءة غالية فتغلف بها . ثم أن الفضل أخذ الكأس بيده فصب فيها من النبيذ قدر ثلثيها ثم ملأها بالماء وشرب . ثم صب مثل ذلك للاصمعي ، فبدره وصيف ، فقال الامير : « تنح ، هذا يوم منادمة الأدب » وأراد الاصمعي أن يستهل المنادمة بأبيات

---

(١) ثياب من فرو الحيوان المعروف بالسمور

(٢) الاثفية الحجر توضع عليه القدر ، وقد كان من الذهب في مجلس الفضل

فى الشراب لأبى نواس فقـــال : « جعلت فـداك . قال الشويعر ... » فلما علم الامير أنه يعنى أبا نواس،راجعه: « بل قل الشاعر الذى قلما طلب فكره القوافى » يعنى أنها تأتى طائعة اليه ، ثم عقب على ما أنشده الاصمعى من خمرياته بقوله : « لله دره ، ما أبينه لدر الوصف ، فى هذا الشعر وغيره . وان كان فتح له الباب ورسم له الوصف ، لقـد أحسن الاشتقاق . ودرر معانيه فى هذا الباب كثيرة ، وان كنت اكره أن أشتغل به عما أنا اليــه أميل » . ثم قال : « والله لولا أن مجالسته سخف يسب به عند العامة لكان ثالثنا فى هذا اليوم. ولقد كنت على بر له ، فحالت بين ذلك الاشغال من يوم ناداني مطلقا من رسيس الهوى الذى يجده فى حب جنان فقال :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد
هواك لعل الفضـل يجمع بيننا »

وهزت الاريحية الامير الجواد عند ذكره الشاعر فنادى : « يا غلام ! على بمنصور الخازن » فلما وقف بين يديه قال : « ابعث الى الحسن بن هانى بمنديل فيه خمسة آلاف درهم» وكان ابو نواس لا يجـد عوضا عن عطاء الفضل بن يحيى البرمكى ، فهو ما برح آكرم بنى برمك أجمعين. والبرامكة كانوا وقتئذ أكثر عطاء من الخليفة نفسه لاستبدادهم بالملك، واحتجانهم للاموال . وكانت قصورهم تناصى قصوره فى الجانب الآخر من الدجلة وهى تعج من صهيل الخيول وازدحام الناس . فلا عجب اذا مضى الشـــاعر على سنته من مدح الفضـــل البرمكى مع ما كان من بوادر التغير على البرامكة حتى كانت نكبتهم فى سنة ١٨٧ هـ . وكان آخر ما مدحه به قصيدة وضعها بمناسبة الدار البـــاذخة البنيـان التى استفرغ الفضل مجهوده فى بنائها ، وانتقل اليها فى ذلك الحين أو قريبا منه ، فقال أبو نواس فى مطلعها :

أرَبْعَ البلى إن الخشوع لبادِ ... عليك وإنى لم أخنك ودادى

ولما سمع الفضل هذا المطلع الموحش الحزين انقبض قلبه، فلما انتهى الشاعر الى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتمو ... بنى برمك من رائحين وغاد

تطير الأمير البرمكى منه واشمأز حتى كلح ، وظهرت الوجمة عليه . ثم قال : « نعيت الينا أنفسنا أبا نواس ». ولقد صحت الطيرة فما كانت الا مديدة ، لا تجاوز الاسبوع فى قول بعضهم ، حتى أوقع الرشيد بالبرامكة

## جعفر البرمكى

ولقد كان أبو نواس فى أول أمره يؤمل أن يكون أنفق بضاعة عند جعفر البرمكى منه عند أخيه ، لما كان عليه الفضل من الانصراف للمهم، وايثار الجد وقلة ولعه بالشراب حتى كان يقول : «لو علمت الماء ينقص من مروءتى ما شربته أبدا » وأما جعفر فقد كانت فى أخلاقه سهولة، وكان طروب النفس طلق الوجه ظاهر البشر ، مقبلا على متعة الحياة يهوى السماع ، ويلذ مجلس الشراب مع حضور البديهة وخفة الروح والفصاحة واللسن ، يجمع الهدو والتمهل والجزالة والحلاوة . وكان لا يخلو بمنزله يوما الا ويهيىء له مجلس الشراب ، فيلبس الحرير ويتضمخ بالخلوق ، ويحضر ندماءه الذين يأنس بهم ، فيجلس اليهم وقد لبسوا للشراب واللهو الثياب المعصفرة حمرا وصفرا وخضرا . فيقضون ليلتهم يسمرون ، وقد دارت الكاسات وخفقت العيدان . وكان الخليفة أكثر ما يكون أنسا بجعفر ، ويستوحش لغيابه حتى لم يكن يصبر عنه ولا يطيب له مجلس بغير محضره ولا يتم له السرور بدونه ، وقد جعل اليه أمر داره ليكون له ألزم ندماه وسماره . وكان الفضل رضيع الرشيد، ومع

ذلك كان الرشيد يسمي جعفرا « أخي » من دونه ، ويدخله معه في ثوبه · وقد بلغ من حبه له أن صير له خاتم الدولة وكان الى الفضل · وكان جعفر يساعد الرشيد على كل شيء · حتى كان أبوه يحيى الشيخ الحكيم المجرب يعتب على جعفر دخوله مع الرشيد فيما يدخله فيه ، ويتخوف عليه من عاقبته

وليس أبلغ دلالة على ما كان لجعفر من الدالة على الرشيد والتمكن عنده والغلبة على أمره من قضائه — وهو في مجلس المنادمة خاليا في بيته بين شرابه وندمانه وقيانه — في امور تخص الخليفة في أهله وحرمه ، قضاء المستيقن الواثق من مكانته ، المتحقق الا تخالف له رغبة ولا ترد له كلمة

حكى ابراهيم بن المهدى :

استأذن جعفر ذات يوم أمير المؤمنين في الخلوة غدا . ودعاني وخاصة ندمائه للبكور اليه فاتيته عند الفجر فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه . فقدمت الينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام واطيبه ، فلما فرغنا من الأكل وغسلنا أيدينا ، خلعت علينا ثياب المنادمة وضمخنا بالخلوق ، وانتقلنا الى مجلس الطرب . ومدت الستائر ، وغنت من ورائها القينات أعذب الغناء ، فظللنا بأنعم يوم . وبلغ من مداخلة الطرب جعفرا أن دعا بالحاجب وقال له : « ان أتى أحد يطلبنا ، فأذن له ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه ! » . فاتفق بالامر المقدر أن عم الرشيد « عبد الملك بن صالح » قدم بالفعل علينا في ذلك الوقت . وكان صاحب جلالة وهيبة ورفعة ، وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه ، حتى كان الرشيد اذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه . فلما قدم الامير الشيخ الجليل ، دخل به الحاجب علينا ، فلما رأيناه رمينا ما في أيدينا ، وقمنا

اجلالا له نقبل يده ؛ وقد ارتعنا وخجلنا وزاد بنا الحياء . فقال الشيخ : « لا بأس عليكم ، كونوا على ما انتم عليه » . ثم صاح بغلام فدفع له بردائه ، ثم أقبل علينا ، وقال : « أصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم » فما كان أسرع أن طرحنا عليه ثياب خز معلم ، وقدمنا اليه موائد الطعام والشراب . فطعم وشرب الشراب لساعته . ثم قال : « خففوا عنى ، فانه شيء والله ما فعلته قط » . فتهلل وجه جعفر . ثم التفت الى عبد الملك فقال له : « جعلت فداءك ، قد علوت علينا وتفضلت ، فهل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى ، فأقضيها لك مكافأة على ما صنعت ؟ » قال : « بلى ، ان فى قلب أمير المؤمنين بعض تغير على ، فتسأله الرضى عنى » فقال جعفر : « قد رضى عنك أمير المؤمنين » . قال : « وعلى عشرة آلاف دينار » فقال جعفر : « هى حاضرة لك من مالى ، ولك من مال أمير المؤمنين مثلها » . قال : « وأريد أن أشد ظهر ابنى ابراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين » . قال جعفر : « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية » . قال : « وأحب ان تخفق الألوية على رأسه » . قال جعفر : « وقد ولاه أمير المؤمنين مصر » . فانصرف عبد الملك بن صالح ، وبقيت متعجبا من اقدام جعفر على ذلك من غير استئذان ، وقلت فى نفسى : « عسى أن يجيبه أمير المؤمنين الى ما سأله من الولاية والمال والرضا عنه ، الا المصاهرة »

فلما كان من الغد ، بكرت الى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم . فدخل جعفر ، فلم يلبث أن دعا بأبى يوسف القاضى ثم بابراهيم بن عبد الملك بن صالح . وبعد هنيهة خرج ابراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد ، وعقد له على مصر والرايات والألوية تخفق على رأسه . وخرج كل من فى القصر معه الى بيت عبد الملك بن صالح

وبعد ذلك خرج الينا جعفر ، وقال : « أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح ، وأحببتم سماع ذلك ».
قلنا : « هو كما ظننت » . قال :

« لما دخلت على أمير المؤمنين ، ومثلت بين يديه ، قال : « كيف كان يومك يا جعفر بالأمس ؟ » . فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك بن صالح . فكان أمير المؤمنين متكئا ، فاستوى جالسا ، وقال : « لله أبوك ! ما سالك ؟ » . قلت : « سألنى رضاك عنه يا أمير المؤمنين » قال : « بم اجبته ؟ » قلت : « قد رضى عنك أمير المؤمنين» قال : « قد رضيت عنه ، ثم ماذا ؟ » قلت : « وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار » قال : « فبم أجبته ؟ » . قلت : « قد قضاها عنك أمير المؤمنين » . قال : « وقد قضيتها عنه ، ثم ماذا ؟ » . قلت : « ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده ابراهيم بمصاهرة منه » . قال : « فبم أجبته ؟ » . قلت : « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية » . قال : « قد أجبته الى ذلك . ثم ماذا قلت ؟ » . قلت : « وقال أحب أن تخفق الألوية على رأسه » . قال : « فبم أجبته ؟ » . قلت : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » . قال : « قد وليته اياها » ثم نجز له جميع ذلك من ساعته

وهذه الحظوة التى كانت لجعفر عند الخليفة والتى انفرد بها ولم يشاركه أحد فيها جعلت الشعراء يتملقونه ويزجون اليه المديح مع قلة سخائه وقصور عطائه عن ابيه وأخيه ، حتى أن الشاعر أبان اللاحقى حين جعل للبرامكة كتاب « كليلة ودمنة » شعرا كما نظمه الفرس قبلا ليسهل حفظه ، وأوله :

هـذا كتاب أدب ومحنـه ... وهو الذى يدعى كليله دمنه
فيه احتيالات وفيه رشـد ... وهو كتاب وضعته الهنـد

أعطاه الشيخ يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، واعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ولم يعطه جعفر شيئا وقال : « الا يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك »

ولقد مدح أبو نواس الامير جعفرا البرمكى فيمن مدحوه ونحن لا نجد أثرا لذلك فى باب المديح من ديوانه وانما نستدل عليه من الأهاجى التى قالها فيه وهى فى باب الهجاء كثيرة شديدة البذاء . فهذه الأهاجى صريحة الدلالة على سابقة مدحه له على وجه قاطع للشك لا تعترض فيه أدنى شبهة :

| | |
|---|---|
| « لقيت فتى ضحّته الطريق | ونحن ضحى نقصد العسكرا |
| فقال ـ وأزكننى شاعراً | وأزكنته فطناً مُنكراً : (1) |
| « أتنشدنى بعض ما صُغته | ولا تدع الأجودَ الأفخرا » |
| فأنشدته مدحى البرمكى | أبا الفضل أعنى الفتى جعفرا |
| فأعجبنى ظرفه إذ يقول : | « مديحك درٌّ ، فهل درّرا؟ » |

ونمسك عن البيتين التاليين لما فيهما من اقذاع فى الهجاء .. وكذلك كان بعض الأهاجى صريح الدلالة على أن النواسى نادم الامير جعفرا فى جملة من كانوا ينادمونه فى بعض مجالس شرابه التى تقدمت الاشارة اليها

ونحن نتمثل من الأبيات التالية ما كان عليه جعفر من فورة الطبع ودفعة الحيوية ، ونحسبهما من دواعى انجذاب الرشيد اليه لمدافعتهما الفتور والملل . ولايبعد أن تلك الفورة الطبيعية والدفعة الحيوية من جعفر كانتا تخرجان به ـ فى غير حضرة الخليفة ـ الى شيء من العربدة عند الشراب ، ولا غرو ان بالغ فى صفتها الشاعر فى معرض الهجاء :

(1) المنكر : الداهية

مافى النبيذ مع المربد لذة وابن ليحيى لاطـمٌ بيدين
ريحانه بدم الشجاع ملطخٌ وتحيـة الندمان قلع العـين
لاتشربن وجعفراً فى مجلس أبداً ، ولا تحمل دم الأخوين

ثم فى هذه الأهاجى ينعى الشاعر على جعفر بخله وامساك يده :

أرى جعفراً يزداد بخلا ودقة إذا زاده الرحمن فى سعة الرزق
ولوجاء عير البخل من عند جعفر لما وضعته الناس إلا على حمق

وفى قصيدة اخرى :

قالوا : « امتدحتَ ، فماذا اعتضتَ ؟ » . قلت لهم :
« خرق النعـال وإبلاء السرابيل »
قالوا : « فسم لنا هـــذا » . فقلت لهم :
« وصـفى له يعدل التصريح فى القيل
ذاك الوزير الذى طالت عِـلاوته (١)
كأنه ناظر فى السيف بالطول »

وقد اكتفى الشـاعر فى هذه الأبيات فى هجائه لجعفر بوصفه دون تسميته . وذلك أن جعفرا كان طويل العنق ، وهو أول من عرض الجربانات وحشاها بالقطن يريد بتعريضها مداراة ما هو ملحوظ من استطالة قفاه ، وما زال الناس بعــده ينسبونها الى ابن برمك ، فيقولون جربانات برمكية

وكان جعفر لا يقف عند قبض يده عن عطاء الشاعر بل

---

(١) العلاوة : اعلى العنق

كان اذا امتدح الشاعر اباه يحيى فأراد أن يجزل عطيته اعترض دونه فأعطاه يحيى دون ما قدر

ولم يملك ابو نواس فى موجدته على جعفر الا ان يفكر فى الاساءة الى موضعه عند الخليفة بتقبيح صورته وتهجينه فى عينه فاجترأ على اظهار التعجب من ايثار الخليفة له واتخاذه لمجلسه واختصاصه بأنسه . وكاد أن يتهم الخليفة فى حسن ذوقه ولطافة حسه :

عجبت لهرون الامام وما الذى
يود ويرجو فيك ياخلقة السلق(١)
قفاً خلف وجه قد أطيل كأنه
قفا مالك يقضى الهموم على ثبق (٢)

ونحن اذا كنا كررنا هنا ما أسلفناه من أن جعفرا كان متمكنا عند الرشيد ، غالبا على أمره ، واصلا منه ، بالغا من علوالمرتبة لديه ما لم يبلغه سواه ، بحيث كان اذا انصرف عن مجلسه خرج الرشيد معه حتى يركب مشيعا له لشدة كلفه به وكرهه لمفارقته ، فذلك أننا نجد فى هذه الغلبة علة من العلل وطرفا من الملابسات التى لم يتيسر معها لأبى نواس فى ذلك العهد حسن الوصلة الى الخليفة هرون . وما نحسب هنالك تصويرا لمبلغ ما كان يتكلفه جعفر من الكيد واللجاجة فى المماراة ، لمدافعة الشاعر عن الحضرة وصرف الخليفة عن تقديره ، من هذا الحديث الذى رواه اسحق الموصلى فى قوله : « دخلت الى الرشيد يوما وهو يخاطب جعفر بن يحيى بشىء لم اسمع ابتداءه ، وقد علا صوته . فلما رآنى مقبلا قال لجعفر بن يحيى : « أترضى باسحق ؟ » قال جعفر : « والله ما فى علمه مطعن ان أنصف »

---

(٢) السلق : الذئب (١) الشبق سرعة الدمع

فقال لى الخليفة : « أى شيء تروى للشعراء المحدثين فى الخمر . انشدنى من أفضل ما عندك واشده تقدما » . فعلمت انهما كانا يتماريان فى تقديم أبى نواس ، فعدلت عنه الى غيره لئلا اخالف أحدهما ، وأنشدت أبياتا لأشجع السلمى . فقال لى الرشيد : « قد عرفت تعصبك على أبى نواس ، وانك عدلت عنه متعمدا . ولقد أحسن اشجع ، ولكنه لا يقول أبدا مثل قول أبى نواس :

يا شقيق النفس من حكم  نمتَ عن ليلى ولم أنم »

فقلت له : « ما علمت ما كنت فيه يا أمير المؤمنين ، وانما انشدت ما حضرنى » . فقال : « حسبك قد سمعت الجواب » وهذا الحديث قاطع فيما عرضنا له من تقرير الحال بين الشاعر وجعفر البرمكى

## بين الحزبين الفارسى والعربى

ولقد كان للبرامكة خصم شديد عنيد فى شخص الفضل ابن الربيع . ولم يكن الفضل حديث عهد بالسياسة ، فقد كان على حجابة الخليفة أبى جعفر المنصور حين كان أبوه الربيع بن يونس وزيرا له . ولكن الفضل كان مع ذلك عاجزا عن مزاحمة البرامكة لا يقوى عليهم فى حياة الخيزران ام الخليفة . والخيزران شخصية قوية كانت متسلطة فى دولة المهدى زوجها تأمر وتنهى وتشفع وتبرم وتنقض ، والمواكب تغدو وتروح الى بابها وكانت شديدة متجبرة ، حتى لقد شكا زوجها أنها غضبت يوما فوثبت عليه ومدت يدها اليه وخرقت ثوبه . ولما تولى ابنها موسى الهادى كان ـ على فظاظته وقسوته ـ كثير الطاعة لها ، مجيبا فيما تسأل من الحوائج للناس . فظلت المواكب لا تخلو من بابها . وكلمته ذات يوم فى أمر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلا . فاعتل ،

فأصرت ، فأقسم لا يقضينه لها ، فأقسمت أن لا نسأله حاجة أبدا • ولم تكلمه بحلو ولا مر بعدها ، وانصرف قلبها بكليته الى ابنها الآخر هرون • فلما أراد الهادي أن يخلع أخاه هرون من ولاية العهد ويجعلها لابنه جعفر ، جعل يحيى البرمكي ــ وكان القيم بأمر الرشيد ــ يعلله ويدافعه حتى حبسه الخليفة ، وأراد قتله ، لولا أن ثقلت العلة على الخليفة قبل انفاذ نيته • ولقد أشار الى ذلك أبو نواس حين اشتدت به كراهة جعفر البرمكي وأعمته حتى كره البرامكة كلهم من أجله فعمهم بهجوه ، وراح يأسف على أن موسى الهادى فى نقمته على يحيى وهمه بقتله لم ينفذ فيهم جميعا عزمه

إنّ لولا شقاء جدّي ... مامات «موسى» كذا سريعا

ولا طوته المنون حتى ... أرى بنى برمك جميعا

قد رسم الله من مطاهم ... لشاطئ دجلة الجذوعا

هذا زمان القرود فاخضع ... وكن لهم سامعاً مطيعا

ولم ينس هرون ما كان من موقف يحيى منه وتعرضه للهلكة فى سبيله • فلا عجب اذا رأينا يوم ولي الخلافة كيف وكل أمورها الى الشيخ الأمين قائلا له : « يا أبت ، أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك • وقد قلدتك أمر الرعية » . وعادت سلطة الخيزران الى حالها ، وكان يحيى يعرض على الخيزران ويورد ويصدر عن أمرها . وكانت الدواوين كلها الى يحيى ولم يلبث الا يسيرا حتى دفع اليه الخليفة الشاب خاتم الخلافة . وكان الفضل بن الربيع اذا صار الى الشيخ البرمكى فسأله حاجة يتقاعد عليه فيها • وظل الفضل وليس له شيء من نباهة الذكر لان الملكة الوالدة فى ايثارها للبرامكة كانت تعارض فى كل

ما فيه علو أمره • فلما أن توفيت فى سنة ١٧٣ هـ دعا به هرون الرشيد على الأثر فقال له : « وحق المهدى ، انى لأهم لك بالليل بالشىء من التولية وغيرها ، فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها • فخذ الخاتم من جعفر » • وكان الخاتم وقتئذ بيد جعفر نيابة عن والده

## ظهور نجم الفضل بن الربيع

وولى الفضل بن الربيع نفقات العامة والخاصة ، وولايات بادوريا والكوفة • فأقبلت حاله تنمى وجعل الفضل يعمل على الايقاع بالبرامكة ، وتحريك السعاة لهم ، وكانت له عيون عليهم من خاصة خدمهم ، حتى اذا أطلق جعفر البرمكى سبيل الثائر العلوى « يحيى بن عبد الله » وكان محبوسا عنده وقد خشى أن يرجع الخليفة فى أمانه له ، بادر الفضل الى رفع ذلك للرشيد فوقر فى نفس الخليفة شىء من ذلك ، وطافت بقلبه شبهة أن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته. على أنه لم يتعجل فى أمرهم. وانما جعله ذلك لا يقصر ثقته واعتماده عليهم دون غيرهم • فلم يأت عام ١٧٩ هـ حتى صرف الرشيد محمد بن خالد البرمكى عن حجابته وقلدها الفضل بن الربيع • ولقد اغتنم أبو نواس هذه المناسبة ليخطب وده ويعتاض من رفد جعفر رفده :

قولا لهرون إمام الهدى ... عند احتفال المجلس الحاشد
نصيحةُ « الفضل » وإشفاقُه ... أخلى له وجهك من حاسد
بصادق الطاعة ، ديانها ... وواحدِ الغائب والشاهد
أنت على مابك من قدرة ... فلستَ مثلَ « الفضل » بالواجِد
أوحده الله فما مثله ... لطالب ذاك ولا ناشد
ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

ولقد اشتد النفور بين جعفر والفضل بن الربيع ولم يعد به خفاء حتى تنازعا يوما بحضرةالخليفة فقال جعفر للفضل: « يا لقيط » فقال الفضل : « اشهد يا أمير المؤمنين » • فساعفت جعفر فصاحته وبديهته فقال محتدما : « تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهدا ـ يا أمير المؤمنين ـ وأنت حاكم الحكام ؟ »

غير أن الرشيدكان قد تغير على البرامكة حتى عاد ما كان يجمل منهم في عينه قبيحا منكرا • فلم يعد اضطلاعهم بشؤون الدولة تخفيفا عنه وحملا للثقل دونه ، بل هو استبداد منهم بالامور دونه وامضاء لها على غير رأيه وعمل بما يحبونه لا بما يحبه••ولقد كثر دخول ابن الربيع عليه• فكان الطبيب جبريل بن بختيشوع صنيعة البرامكة اذا دخل على الخليفة وهو جالس فى مجلسه على مشرعة باب خراسان فيما بين قصر الخلد والفرات يصيب الفضل بين يدى الرشيد ، والملكة زبيدة منوراء الستر ، يتكلمان بنحو من كلام الخليفة فى حق البرامكة • وكانت الملكة تثلبهم أكثر مما يثلب به أحد•ولعلها كانت تحقد عليهم ما أظهروه من الاهتمام الخفى بأخذ المواثيق علىابنها الامين بالوفاء لعهد الولاية منبعده للمأمون الابن الاكبرللرشيد من بعض الاماء الفارسيات • وما برح يستفحل السعى والتدبير للايقاع بالبرامكة حتى جعلت تشيل كفتهم عند الرشيد وترجح حظوة الفضل بن الربيع • وكان الفضل حريصا على كسب الدعاة واصطناع الشعراء توقيا من خبث لسانهم واجتلابا لثنائهم وطيب ذكرهم له

وكان يتألف أبا نواس مع اتصاله بالبرامكة ويبره .

وكانت نكبة البرامكة وزوال دولتهم عام ١٨٧ ، اذ أمر الرشيد بقتل جعفر والقبض على يحيى وجميع ولدهومواليه ومن كان منهم بسبيل • وحبس الشيخ البرمكى وابنه الفضل فى سجن الرقة • وأخذ ما وجد لهم جميعا من مال

وضياع ومتاع . وما من شك فى أن شـاعرنا النواسى قد تأثر لنكبتهم لوفرة عطاء الفضل بن يحيى خاصة

ولما صارت الوزارة بعد نكبة البرامكة الى الفضـل بن الربيع تهوس بالادب وجمع اليه أهل العلم ، فحصل منـه ما أراد فى مدة يسيرة . وكان الفضل يستقبل أهل الادب والشعر فى مجلس طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفى صدره فرش عاليـة لا يرتقى اليها الا على درج وهو جالس عليها . فيسلمون عليـه بالوزارة ، فيحسن الرد عليهم ويضحك اليهم ويستدنيهم حتى ليجلسهم اليـه على فرشه . ثم يسألهم ويلطفهم ويباسطهم ويستنشدهم فاذا أنشدوه طرب وضحك وزاد نشاطه . ولقد تغاضى الفضل عن اتصال أبى نواس بالبرامكة فماكاد يأفل نجمهم وينطفىء قبسهم حتى احتضنه آل الربيع وخصوه جميعا بالرعاية . وأظهروا له المودة . فجعل اعتماده عليهم . ودام اتصـاله ببابهم فى خلافة الرشيد وخـلافة الأمين . وله مدائح فى الفضل بن الربيع وفى ولديه العباس ومحمد وفى أخيـه جعفر ، أشهرها وأجودها عند نقاد العرب الأرجوزة البليغة التى مطلعها :

وبلدة فيهـــا زوَر صـعراء تخطى فى صعر (١)

وقد جمع فى بعض مديحه لهم ثلاثة أجيال منهم فى هذه الابيات الثلاثة :

سـاد الملوك ثلاثة مامنهم إن حصّلوا إلا أغرُّ َمريعُ

ساد « الرُبيعُ » وساد « فضل» بعده

وعلت « بعباس » الـكريم فروع

---

(١) الزور الاعوجاج ، وصعراء مائلة . تخطى : تحمل على الخطو . والصعر الميل

« عباس » عباسٌ إذا احتدم الوغى

و «الفضل» فضلٌ و «الربيع» ربيع

فهو في سبيل مرضاة آل الربيع يذهب الى حد تلقيبهم بالملوك ، كما يقرنهم تارة الى البيت البرمكي معرضـــا به ليجعلهم أرسخ أصلا وأبذخ مجدا ، كقوله فى مدح العباس ابن الفضل بن الربيع :

جدّك يوم الحجون إذ قدحوا تَـداركَ الملكَ من شفاً هار

تلك المعالى إن كنت مفتخراً لا شرفُ النوبهار والنـار

على أنه فى هذه القصيدة نفسها يظهرنا على حاله من الضر، فاذا هى من سوء أثر الفقر تبلغ الفقر المدقع وتتكشف عن دار بلقع :

الحمـد لله ليس لى نشَـبٌ خفّف ظهرى وقلّ زوّارى .

من نظرت عينه إلىّ فقد أحاط علماً بما حوت دارى

فلا غرو اذا رأيناه فى أمثال هــذه الحالة يتذكر ما كان يغمره به البرمكى وابنه الفضل من مترادف النعم وجـزيل النوال ، وان يبدومنه وقتئذ وهو يمر بدور آل الربيع وعلى بابهم المواكب والقصاد من أصحاب الحاجات :

ما رعى الدهر آلَ برمك لمـا أن رمى ملكَهم بأمر فظيـع

إن دهراً لم يرْعَ حقاً ليحيى غير راعٍ ذمامَ آل الربيـع

## مع محمد بن مناذر

ولقــد حج الرشيد بعــد ايقاعه بالبرامكة ومعه وزيره الفضـــل بن الربيع . وسعى فى ركاب الخليفة جماعة من الشعراء، وحسبنا أن نذكر منهم أبا نواس ومحمد بن مناذر

من المذكورين بالفسوق والمجون لنعلم أنه لم تكن بهم نية الحج ، ولكنها الفرصة سانحة لمديح الخليفة الحاج واحتقاب عطائه . وكان ابن مناذرقد هيأ فى قوله مدحا أجاد تنميقه وتنوق فيه ، وكان الرشيد يسأل عنه ويطلبه ، وقد سبق أن وصله مرات على مدائحه صلات سنية . فلما كان يوم التروية دخل الشاعر على الخليفة ، فبدره الفضل بن الربيع قبل أن يتكلم فقال : « يا أمير المؤمنين ، هذا شاعرالبرامكة ومادحهم » . وقد كان البشر ظاهرا فى وجه الخليفة لما دخل الشاعر ، فتنكر وعبس فى وجهه.وأضاف الفضل : « مره يا أمير المؤمنين أن ينشدك قوله فيهم : أتانا بنو الاملاك من آل برمك » ، فأمره الخليفة أن ينشد . فلما أبى . توعده وأكرهه . فأنشد الشاعر القصيدة ، ثم اتبع ذلك بقوله : « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام مدحتهم ، وفى طاعتك، لم يلحقهم سخطك ولم تحلل بهم نقمتك . ولم أكن فىذلك مبتدعا ، ولا خلا أحد من نظرائى فى مدحهم . وكانوا قوما قد أظلنى فضلهم وأغنانى رفدهم ، فأثنيت بما أولوا » . فلم يتم قوله حتى كان الخليفة قد نادى : « يا غلام ، ألطمه على وجهه » . فلطموا الشاعر حتى سدر بصره واظلم ماكان بينه وبين أهل المجلس . ثم أمر أن اسحبوه على وجهه وهو يقول : « والله لأحرمنك ، ولا تركت أحدا يعطيك شيئا فى هذا العام » . فسحبوه حتى أخرج وهو لا يعى ما حوله . فاذا بشاب قد وقف عليه ثم قال : « أعزز على والله ياكبيرنا بما جرى عليك » . ثم دفع اليه صرة وهو يقول : « تبلغ بما فى هذه » . فظنها ابن مناذر دراهم ، فاذا هى دنانير تبلغ المائة وأكثر ، فسأل ابن مناذر فى دهشته وهو لم يبصر بعد من عشوته : « من أنت ؟ جعلنى الله فداءك » . فقال هذا الأريحى : « انا أخوك ابو نواس ، فاستعن بهذه الدنانير ، واعذرنى».فقبلها الزميل المنكوب وقال : «وصلك الله يا أخى ، وأحسن جزاءك »

واذا ذكرنا بهذه المناسبة ما وقع من ابن مناذر فى موسم للحج سابق ، اذ تنازع شاعرنا والحسين بن الضحاك أيهما أشعر فى همزية لكل منهما أنشدها فى وصف الخمر، فحكم ابن مناذر للحسين بأن قصيدته أفضل وأنه أشعر ، فقام أبو نواس منكسرا ... فلا شـك أن القـارىء يرى معنا ما تنطوى عليه وقفة النواسى بعد ذلك مع زميله من غلبة روح الزملة والترفع عن الشماتة ، فضلا عما قد يكون فى ذلك من الدلالة على مشاركته اياه فى الوفاء الكريم للممدوحين الاسبقين . ومهما قيل فى أبى نواس من عطله من الفضائل الخلقية ، فان هذه وحدها فيه شاهد صدق على وفور حظه من حساسية الانسان الحى ، وأريحية الشـاعر الذى ولد شاعرا

## منادمة الأمراء

وقد اتصل أبو نواس فيمن اتصل بهم بولد المهـدى وغيرهم من الهاشميين وكان ينادمهم ويلازمهم . وكان ممن نادمهم القاسم بن الرشيد ، ولقى القاسم منه أشياء كرهها وكرهت له ففارقه

وممن أقبل أبو نواس على منادمتهم الامير عيسى بن أبى جعفر المنصور . وكان وقتئذ شـيخا جليلا . ولقد عزم الامير يوما على أبى نواس أن يقيم معه فى قصره أسـبوعا بالقفص على مقربة من بغـداد . وأقام الجماعة يقصفون ويشربون بين عزف وغناء فى مجلس وسط الحدائق الفيحاء . فلما أرادوا الانصراف وصله الامير وخلع عليه وحمله الهدايا وقال له : « بحياتى عليك ، صف مجلسنا هذه الايام كلها التى أقمناها فقال فى ذلك قصيدته :

يا طِيبَنا بقصــور القفْـص مشرقةً
فيها الدَّسا كرُ (١) والأنهار تطَّردُ

وكانت وفاة الامير عيسى بن أبى جعفر المنصور سنة ١٨١ أى قبل نكبة البرامكة

ولعل أحب الممدوحين الى شاعرنا الامير الهاشمى العباسى ابن عبيد الله بن جعفر بن أبى جعفر المنصور والقارىء لمدائحه له يحس صدق اللهجة وحرارة العاطفة. ولقد كان من متابعة الامير له باحسانه ، وموالاته اياه بالنعم والافضال ، ووصله بالعطاء بعد العطاء بادئا وعائدا من غير من ولا انتظار حمد، أن انطلق الشاعر مع حبه للسعة وانخراق يده بالنفقة يعتذر عن هــدايا الامير ويطلب جادا أو غير جاد ، وقف المزيد من هذا الفيض الغمر حتى ينهض بأعباء الشكر لما سلف

لا تُسدينّ إلىَّ عارفةً حتى أقوم بشكر ما سلفا

ثم هو فى كلامه عن الأمير الجواد كالمستهول لبحر اشتد صببه ، وطغى مدده ــ فتراه وهو الشــــاعر المستمنح ــ لا يملك نفسه معه من الدهشة :

أنا فى دنيا من «العبّـ ـاس» أغدو وأروحُ
كلّ جودٍ يا أميرى ما خلا جودك ريحُ
إنمـــا أنت عطايا أبداً لا تســتريح
ضجَّ صوتُ المال مما منك يشكو ويصيح
«ما لهذا آخذٌ فو ق يديه، أو نصيح!»

(١) الدســـاكر جمع دسكرة وهى القرية والصومعة وبيوت الاعاجم يكون فيها الشراب والملاهى ، أو بناء كالقصر حوله بيوت

جُدْتَ بالأموال حتى قيل ما هـذا صحيح
فله «العباس» روح صُوِّرَ الجودُ مثالاً

ولما أن وكل امير المؤمنين هرون الرشيد الى العباس فى سنة ١٩٢ هـ الحج بالناس فغاب عن بغداد انقطع عن الشاعر ما كان يبره به واشتد به الضيق . حتى اذا رجع من الحج استقبله الشاعر بقصيدة مشهورة مطلعها :

ديار نوارٍ ، ما ديار نوار كسونك شجواً، هن منه عوار

وفى هذه القصيدة يذكر ما كان للامير من مآثر وأفضال فى هذا الحج ، وقد وصفه فيها بكرم اليـد بما بذل لأهل الحرمين من مساعدة وما وزعه على أبناء السبيل من صدقة ، ثم وصفه بكرم المحتد بما اجتمع له من نسب نزار فى جده الاول الخليفة أبى جعفر ومن نسب قحطان فى جدته الاولى زوجة أبى جعفر المنصور وهى أم موسى بنت منصور الحميرية، وأخيرا عاد الشاعر يذكر ما كان فى غيبة الامير من فاقتـه وحاجته :

إليك غدت بى حاجةٌ لم أُبِحْ بها أخاف عليهـا شامتاً فأدارى
فأرْخِ عليها ستر معروفك الذى سترت به قدْماً علىَّ عوارى

وللشاعر فيه عدا ذلك قصائد أخرى نجتزىء منها بذكر أشهرها جميعا عند أهل اللغة والادب وهى التى مطلعها :

أيها المنتاب عن عُفُرِه لست من لَيْلى ولا سَمَرِه
لا أذودُ الطـيرَ عن شجر قد بلوْتُ المُرَّ من ثمـرِه

## كرامة الشاعر

ولم يكن النواسى مع اعتماده فى طلب العيش على الكبراء

وأرباب الدولة، بالذى يتحاقر ويتهضم نفسه لهم ويستشعر الضعة والصغار فى ناحيتهم . فقـــد كان يمنعه من ذلك شعوره القوى بما للفن الذى يعالجه من شأن وقيمة، ومغالاته بما يجب للفنان من قدر وحرمة . ويظهر ذلك أجلى ظهور فيما يروى بعضهم من أنه كان مع شاعرنا قريبا من دور بنى نوبخت بنهر طابق وعنده جماعة فجعل يمر بأبى نواس القواد والكتاب وبنو هاشم فيسلمون عليـــه وهو متكىء ممدود الرجل لا يتحرك لأحد منهم . واذا جلساؤه ينظرون اليه وقد قبض رجليه ووثب ، وقام الى شيخ أقبل على حمار له ، وكان الشيخ أبا العتاهية الشاعر ، فاعتنق أبا نواس ، ووقف أبو نواس يحادثه ، فلم يزل واقفا معه يراوح بين رجليه يرفع رجلا ويضع أخرى ، حتى فرغ الحديث ومضى الشيخ

وهكذا تخلو حياة شاعرنا مما يعلق بحياة الكثيرين من أمثاله المتصلين بأبواب الملوك والامراء من اعتيادهم الضراعة والنزول عن حقهم فى الكرامة وفرط تضاؤلهم وهوانهم على أنفسهم



# الرشيد وأبو نواس
# فى الأدب الشعبى والتاريخ

كان للأدب الشعبى ، وعلى الخصوص حكايات ألف ليلة وليلة ، شأن كبير فى اشتهار الرشيد دون سائر أمراء المؤمنين عند عامة الناس • فأغلب ما يحكى عن بغداد فى حكاياتها لا يخلو من ذكر الرشيد والاشادة به والتعظيم له • وقد يصح فى تعليل ذلك ذهاب بعضهم الى أن القصص العراقى فى ألف ليلة وليلة قد وضع فى أيامه ، فتحرى واضعوه تمليق الخليفة القائم بالأمر للحظوة عنده . ولا عبرة بالنوادر القصار الماجنة فهى مستحدثة بعد ذلك متأخرة

فنحن اذا قلبنا صفحات « ألف ليلة وليلة » تكررت على أعيننا صورة لامير المؤمنين هرون الرشيد وهو يعس بالليل في عاصمة دولته ، كما كان يفعل عمر بن الخطاب أثناء خلافته ، وان كان ذلك التوافق لا يخلو من فارق ، هو الفارق بين الرجلين وبين العهدين • فقد كان الهم الاول والاخير فى عسس الخليفة البدوى عمر هو تفقد الراعى أحوال الرعية ، مبالغة في الحرص على استقصاء الحقائق ورفع المظالم وتوفير العدالة • أما أمير المؤمنين العباسي، فمن وراء عسسه ــ فى حكايات ألف ليلة وليلة ــ باعث أول شخصى من عقابيل الترف ، هو مدافعة ملل كان يغلب على

طبعه ، أو أرق شديد كان ينتابه ، فكان فى كل مرة يعاوده الملل أو الأرق ، يرسل فى طلب الوزير جعفر البرمكى ، وشاعرنا أبى نواس وغيره من النـدمان ويخرجون ومعهم مسرور السياف ، وهم مستخفون فى ثيـاب التجار تارة ، وتارة فى ثياب الدراويش • وعلى هـذا النحو يطوفون على هواهم نواحى بغداد ، فى طلب التسلية وتزجية الفراغ ، بالمشاركة فى الحياة العامة الليليـة ، وبالاطلاع على دخائل الاسرار البيتيـة وطرائف الوقائع الغرامية ، فضـلا عن الاستمتاع آخر الامر بمظاهر المباغتة وما يصحبها من شعائر التعظيم حين يقف القوم على حقيقة المستخفين ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين

## جولة فى ألف ليلة وليلة

ونعرض هنا على القارىء على سبيل التذكرة ، لمحة موجزة عابرة ، من ذلك الادب الشـعبى العربى ، فى تصـويره للخليفة هرون الرشيد ومعه رفاق جولاته الخاصة الليلية : الوزير والنديم والحارس والسياف • ويبعثنا على نقلها أنها هى الصورة السـاحرة الغنية بالالوان ، العالقة فى أذهان العامة عندنا ، والماثلة فى خيال السواد الاعظم من الغربيين الذين لا يستهويهم من آثارنا الادبية مثل كتاب ألف ليلة وليلة ويكاد يقف علمهم بالشرق العربى عندها • والواقع أنها فى نوعها نسيج وحـدها ، لا يغنى غيرها غناءها فى استحضار صورة حية لذلك الشرق العربى • وقلما يجد الدارس العربى منا ــ على كثرة المراجع وخزائن المعارف فى لغته ــ وصفا للحياة الاجتماعية فى بغداد ، وفى غيرها من البلدان العربية وقتذاك ، يعدل ما يتمثل لنا فى هـذه الصفحات وأمثالها فى ألف ليلة وليلة :

أرق الخليفة هرون الرشيد ذات ليلة أرقا شـديدا • فاستدعى خادمه مسرورا ، وقال له : « ائتنى بالوزير جعفر

سريعا » • فمضى ، وأحضره • فلما وقف بين يديه ، قال : « يا جعفر ، انه قد اعترانى فى هـذه الليلة أرق منع عنى النوم ، ولا أعلم ما يزيله عنى » • قال : « يا أمير المؤمنين ، هل تفعل ما أشير به عليك ». قال : وما الذى تشير به ؟ ». قال : « تنزل بنـا فى زورق ، وننحدر به فى نهـر دجلة مع الماء الى محل يقال له قرن الصراط ، لعلنا نسمع ما لم نسمع ، أو ننظر ما لم ننظر ، فلعل فى ذلك تفريجا للهم وزوال أسباب القلق عنك يا أمير المؤمنين »

فقام الرشيد عن موضعه،ودعا لصحبته مع الوزير جعفر أخاه الفضل ، وأبا اسحق النديم ، وأبا نواس ، وأبا دلف، ومسرورا السياف • ودخلوا حجرة الثيـاب ، فلبسوا زى التجار جميعا ، وخرجوا الى دجـلة ، ونزلوا فى زورق مزركش بالذهب ، وانحدروا مع الماء حتى وصلوا الى الموضع الذى يريدونه ، فسمعوا من بعض الدور الشارعة على النهر صوت جارية تغنى على العود • فقال الخليفة : « يا جعفر ، ما أحسن هـذا الصوت » • فقال الوزير : « يا مولاى ! ما طرق سمعى أطيب ولا أحسن منـه ، ولكن السماع من وراء جدار نصف سماع »

قال : « انهض بنا يا جعفر ! حتى نتطفل على صـاحب هذه الدار ، لعلنا نرى هذه المغنية عيانا » • فقال الوزير : « سمعا وطاعة »

وصعدوا من المركب ، واستأذنوا فى الدخـول • فاذا شاب مليح المنظر ، عذب المنطق ، فصيح الكلام قد خـرج اليهم وقال : « أهلا وسهلا ، يا سادتى المنعمين على ، ادخلوا بالرحب والسعة » • فدخلوا وهو بين أيديهم • فرأوا الدار بأربعة أوجـه ، وسقفها بالذهب ، وحيطانها منقوشـة باللازورد وفى الدار ايوان به سدلة جميـلة ، عليها مائة جارية كأنهن أقمار • فصاح عليهن ، فنزلن عن أسرتهن

ثم التفت رب الدار الى جعفر ، وقال : « يا سيد ، أنا

ما أعرف منكم الجليل من الأجل . باسم الله ، ليتفضل منكم من هو أعلى الى الصدر ، ويجلس اخوانه كل واحد فى مرتبته » . فجلس كل واحد فى منزلته ، وقام مسرور فى الخدمة بين أيديهم . ثم أقبل رب الدار عليهم وقال : «يا أضيافي،عن اذنكم ، هل أحضر لكم شيئا من المأكول؟». قالوا : « نعم » . فأمر الجوارى باحضار الطعام

فاقبل أربع جوار مشدودات الاوساط ، بين أيديهن مائدة ، وعليها غرائب الألوان ، مما درج وطار ، وسبح فى البحار ، من قطا وسمان ، وافراخ وحمام. وكان مكتوبا على حواشى السفرة من الاشعار ما يناسب المجلس. فأكلوا قدر كفايتهم . ولما غسلوا أيديهم قال الشاب : « يا سادتى ، ان كانت لكم حاجة،فانبئونى بها ، حتى أتشرف بقضائها». قالوا : « نعم . فانما جئنا منزلك ، من أجل غناء رخيم ترامى الينا من وراء حائط دارك ، فاشتهينا أن نعرف صاحبته ونسمعه . فان رأيت أن تنعم علينا بذلك ، كان من مكارم أخلاقك » . قال : « مرحبا بكم » ثم التفت الى جارية سوداء وقال : « احضرى سيدتك »

وذهبت السوداء ثم جاءت ومعها كرسى فوضعته . ثم ذهبت ثانيا وجاءت ومعها جارية كأنها البدر فى تمامه . فجلست على الكرسى ، وناولتها السوداء خرقة من أطلس، فأخرجت منها عودا مرصعا بالجواهر واليواقيت ، وملاويه من الذهب ، فشدت أوتاره . ثم ضمت العود الى صدرها، وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها ، ثم جسته تختبر رنينه ، فلما بان حنينه ، ضربت على الأوتار وانشدت على مصاحبته أبدع الاشعار . وما فرغت من شعرها ، حتى غلبها البكاء ، فبكت لها سائر الجوارى . ولم يبق سامع لغنائها الا غاب عن وجوده ، من حسن هذا الغناء وشدة وقعه وعمق تأثيره . وقال الخليفة : « ان غناء الجارية يدل

على أنها عاشقة مفارقة » . فقال رب الدار : « انها ثاكلة لأبيها وأمها » . فقال الخليفة : « ما هذا بكاء من فقد أباه وأمه ، وانما هو شجو من عرف الحب وكابد الشوق الى المحبوب » . واظهر لمن حوله طربه من غنائها ، فقال أبو اسحق : « يا سيدى ، انى لأعجب لها غاية العجب ، ولا أملك نفسى من الطرب » . وكان الخليفة — مع ذلك كله — ينظر الى رب الدار يتأمله ، فلم تشغله محاسنه وظرف شمائله عن رؤية ما يعلو وجهه من الاصفرار . فالتفت اليه وقال : « يا فتى ، هل تعلم من نحن ؟ » . قال : « لا » فقال جعفر : « أوتحب أن أخبرك عن كل واحد باسمه » . قال : « نعم » . فقال للتعريف : « هذا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين ... » وذكر بقية أسماء الجماعة . فأخذت رب الدار دهشة لم يلبث أن أفاق منها،حين سمع الخليفة هرون الرشيد يقول : «أشتهى لو أخبرتنى عن سر هذا الاصفرار بوجهك ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ان حديثى غريب وأمرى عجيب » . قال الخليفة : « اعلمنى به ، لعل شفاءك يكون على يدى » ،وكلما رأى تردده ، أردف : « هات ، فحدثنى . فقد شوقتنى الى سماعه »

قال : « انى من مدينة عمان ، وكان أبى تاجرا كثير المال، وكان له ثلاثون مركبا تعمل فى البحر ، أجرتها فى كل عام ثلاثون ألف دينار . فلما حضرته الوفاة دعانى وأوصانى بما جرت به العادة . وكان لأبى شركاء يتجرون فى ماله ويسافرون فى البحر . فسمعتهم يصفون ميناء البصرة واتساع تجارتها ، ثم عرجوا على وصف بغداد وأجمعوا على أنه ليس أحسن منها فى البلاد وأطنبوا فى عظمتها وجلال عمارتها وحسن شمائل أهلها حتى اشتاقت نفسى اليها ، وتعلقت آمالى برؤيتها . فقمت وبعت العقارات والاملاك ، وبعت المراكب بمائة ألف دينار غير الجواهر والمعادن .

واكتريت مركبا وشحنتها بأموالي وسائر متاعى ، وسافرت الايام والليالى حتى جئت البصرة ، فأقمت بهـــا مدة • ثم استأجرت سفينة انحدرت بنا أياما قلائل حتى وصلت الى بغداد ، وأقمت فيها مدة • وفى بعــض الايام توجهت الى الفرجة ومعى شيء من المال • وكان اليوم يوم جمعة • فأتيت الى جامع يسمى جامع المنصور وبعــد أن فرغنا من صــلاة الجمعة خرجت مع الناس فى موضع يسمى قرن الصراط ، فرأيت فى ذلك المكان موضعا عاليا ، وله روشن مطل على الشاطيء ، وهناك شباك • فذهبت فى جملة النــــاس الى ذلك المكان ، فرأيت شيخا جالسا ، وعليه ثياب جميلة ، تفوح منه رائحة طيبة ، وقد سرح لحيتــه ، فافترقت على صدره فرقتين ، كأنها قضيب من لجين ، وحوله أربع جوار وخمسة غلمان • فقلت لشخص : « ما اسم هذا الشيخ ، وما صنعته ؟ » • فقال : « هذا طاهر بن العلاء وهو صاحب القيان، كل من دخل عنده يأكل ويشرب وينظر الى الملاح» • فقلت : « والله ان لى زمانا ، وأنا أشتهى مثل هذا » • ثم تقدمت الى صــاحب القيان وسلمت عليــــه ، وقلت له : « يا سيدى ، ان لى عندك حاجة » • قال : « ما حاجتك » • قلت : « أشتهى أن أكون ضيفك فى هذه الليلة » • قال : « حبا وكرامة » . ثم استأنف بعــد لحظــة : « يا ولدى ! عندى جوار كثيرة ، منهن من ليلتها بعشرة دنانير ، ومنهن من ليلتها بأربعين دينارا ، ومنهن من ليلتها بأكثر ، فاختر من تريد » . ثم وزنت له ثلاثمائة دينار عن شهر فسلمنى لغلام فأخذني الغلام وذهب بى الى الحمام فى القصر، وخدمنى خدمة حسنة • فخرجت من الحمام فأتى بى الى مقصورة ، وطرق الباب ، فخرجت له جارية ، فقال لها : « خــــذى ضيفك » • فتلقتنى بالرحب والسعة ، ضاحكة مستبشرة • وأدخلتنى دارا عجيبة مزركشة بالذهب ، فتأملت فى تلك الجارية ، فرأيتها كالبدر فى ليــــلة تمامه ، وفى خدمتهــا

جاريتان كأنهما كوكبان • ثم أجلستني وجلست بجانبي ، ثم أشارت الى الجواري فأتين بمائدة فيها من أنواع اللحوم، من دجاج ، وسمان ، وقطا وحمام فأكلنا حتى اكتفينا ، وما رأيت في عمري ألذ من ذلك الطعام • فلما أكلنا رفعت تلك المائدة ، وأحضرت مائدة الشراب والمشموم والحلوى والفواكه وأقمت عندها شهرا على هذا الحال

فلما فرغ الشهر جئت الى الشيخ وقلت له : « يا سيدي، أريد التي ليلتها بعشرين دينارا »•فقال : « زن الذهب »• فمضيت ، وأحضرت الذهب ، فوزنت له ستمائة دينار عن شهر • فنادى غلاما وقال له : « خذ سيدك » • فأخذني وأدخلني الحمام ، فلما خرجت أتى بي الى باب مقصورة ، وطرقه ، فخرجت منه جارية ، فقال لها : « خذي ضيفك »• فتلقتني بأحسن ملتقى واذا حولها أربع جوار ثم أمرت باحضار الطعام فحضرت مائدة عليها من سائر الاطعمة ، فأكلت ، ولما فرغت من الاكل ورفعت المائدة أخذت العود وغنتني • فأقمت عندها شهرا ، ثم جئت الى الشيخ وقلت له : « أريد صاحبة الاربعين دينارا » • فقال : « زن لي الذهب » • فوزنت له عن شهر ألفا ومائتي دينار ومكثت عندها شهرا كأنه يوم واحد لما رأيت من حسن المنظر وحسن العشرة

ثم جئت الى الشيخ وكنا قد أمسينا ، فسمعت ضجة عظيمة ، وأصواتا عالية • فقلت له : « ما الخبر ؟ » • فقال لي الشيخ : « ان هذه الليلة عندنا أشهر الليالي ، وجميع الخلائق يتفرجون على بعضهم فيها ، فهل لك أن تصعد على السطح ، وتتفرج على الناس » • فقلت : « نعم » • وطلعت على السطح فرأيت ستارة حسنة ، ووراء الستارة محل عظيم ، وفيه سدلة وعليها فرش مليح، وهناك صبية تدهش الناظرين حسنا وجمالا ، وقدا واعتدالا ، وبجانبها غلام ، يده على عنقها ، وهو يقبلها وتقبله • فلما رأيتهما ، لم أملك

نفسى ، ولم أعرف أين أنا لما بهرنى من حسن صورتها ٠ فلما نزلت سألت الجارية التى أنا عندها وأخبرتها بصفتها فقالت : « مالك ومالها » ٠ فقلت : «والله أنها أخذت عقلى» ٠ فتبسمت وقالت : « يا أبا الحسن ، ألك فيها غرض ؟ » ٠ فقلت : « أي والله ، فانها تملكت قلبى ولبى » ٠ فقالت : « هذه ابنة طاهر بن العلاء ، وهى سيدتنا ، كلنا جواريها ٠ أتعرف يا أبا الحسن بكم ليلتها ويومها ؟ » قلت : « لا » ٠ قالت : « بخمسمائة دينار ، وهى حسرة فى قلوب الملوك » ٠ فقلت : « والله ، لأذهبن مالى كله على هذه الجارية » ٠ وبت أكابد الغرام طول ليلى ، فلما أصبحت ، دخلت الحمام ، ولبست أفخر ملبوس من ملابس الملوك ، وجئت الى أبيها وقلت : « يا سيدى ، أريد التى ليلتها بخمسمائة دينار » ٠ فقال : « زن الذهب » ٠ فوزنت له عن كل شهر خمسة عشر الف دينار فأخذها ، ثم قال للغلام ، « اعمد به الى سيدتك فلانة » ٠ فأخذنى وأتى بى الى دار لم تر عينى أظرف منها على وجه الارض ، فدخلتها ، فرأيت الصبية جالسة ، فلما رأيتها أدهشت عقلى بحسنها ، وهى كالبدر فى ليلة أربعة عشر ، فسلمت عليها ، فقالت : « أهلا وسهلا ومرحبا » وأخذت بيدى وأجلستنى الى جانبها ٠ ثم صارت تؤانسنى بلطف الكلام ، وأنا غريق فى بحر الغرام ، خائف فى القرب ألم الفراق ، من فرط الوجد والاشتياق ، ثم أمرت باحضار الأطعمة ، فأقبلت أربع جوار نهد أبكار ، فوضعن بين أيدينا من الاطعمة والفاكهة والحلوى والمشموم والمدام ما يصلح للملوك ، وجلسنا على المدام وحولنا الرياحين ، ثم جاءتها جارية بخريطة من الابريسم فأخذتها وأخرجت منها عودا فوضعته فى حجرها وجست أوتاره وغنتنى أعذب الغناء ٠ فأقمت عندها على هذه الحالة مدة من الزمان ، حتى نفذ جميع مالى ٠ فتذكرت وأنا جالس معها مفارقتها ، فنزلت دموعى على خدى كالانهار ، فقالت : « لأى شيء

تبكى ؟ » • فقلت لها : « يا سيدتى ، من حين جئت اليك وأبوك يأخذ منى فى كل ليلة خمسمائة دينار ، وما بقى عندى شىء من المال » • فقالت : « اعلم ان أبى عادته أنه اذا كان عنده تاجر وافتقر ، فانه يضيفه ثلاثة أيام،ثم بعد ذلك يخرجه فلا يعود الينا أبدا • ولكن ، أكتم سرك وأخف أمرك وأنا أعمل حيلة فى اجتماعى بك الى ما شاء الله ، فان لك فى قلبى محبة عظيمة • واعلم أن جميع مال أبى تحت يدى ، وهو لا يعرف قدره ، فأنا أعطيك كل يوم كيسا فيه خمسمائة دينار ، وأنت تعطيه لأبى ، وتقول له : « ما بقيت أعطى الدراهم الا يوما بيوم »وكل ما دفعته اليه ، فانه يدفعه الى ، وأنا أعطيه لك ، ونستمر هكذا الى ما شاء الله » • فشكرتها على ذلك وقبلت يدها ، ثم أقمت عندها على هذه الحالة مدة سنة كاملة • فاتفق فى بعض الايام أنها ضربت جاريتها ضربا وجيعا ، فقالت الجارية : « والله لأوجعن قلبك كما أوجعتنى » • ثم مضت تلك الجارية الى أبيها وأعلمته بأمرنا من أوله الى آخره•فلما سمع طاهر بن العلاء كلام الجارية قام من ساعته ، ودخل على وأنا جالس مع ابنته ، وقال لى : « يا فلان » • قلت له : « لبيك » • قال: « عادتنا أنه اذا كان عندنا تاجر وافتقر ، أننا نضيفه ثلاثة أيام،وأنت لك عندنا سنة تأكل وتشرب وتفعل ما تشاء » • ثم التفت الى غلمانه وقال : « اخلعوا ثيابه » • ففعلوا ، وأعطونى ثيابا رديئة قيمتها خمسة دراهم ، ودفعوا الى عشرة دراهم ، ثم قال لى : « أخرج ، فأنا لا أضربك ولا أشتمك ، واذهب الى حال سبيلك ، وان أقمت فى هذه البلدة كان دمك هدرا » • فخرجت يا أمير المؤمنين ، برغم أنفى وأنا لا أعلم أين أذهب • وحل فى قلبى كل هم فى الدنيا ، وأشغلنى الوسواس ، وقلت فى نفسى : كيف أجىء فى البحر بمائة ألف ألف من جملتها ثمن ثلاثين مركبا ويذهب هذا كله فى دار هذا الشيخ النجس ، وبعد ذلك

اخرج من عنده عريانا مكسور القلب ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !!

ثم أقمت فى بغداد ثلاثة أيام لم أذق طعاما ولا شرابا ، وفى اليوم الرابع رأيت سفينة متوجهة الى البصرة ، فنزلت فيها واستكريت مع صاحبها الى أن وصلت الى البصرة فدخلت السوق وأنا فى شدة الجوع ، فرآنى رجل بقال ، فقام الى وعانقنى لانه كان صاحبا لى ولأبى من قبلى ، وسألنى عن حالى ، فأخبرته بجميع ما جرى لى ، فقال : « والله ما هذه فعال عاقل ، ومع هذا الذى جرى لك فأى شىء فى ضميرك تريد أن تفعله » • فقلت له : « لا أدرى ماذا أفعل » • فقال : « أتجلس عندى ، وتكتب خرجى ، ودخلى ، ولك فى كل يوم درهمان زيادة على أكلك وشربك» فأجبته الى ذلك ، وأقمت عنده سنة كاملة أبيع وأشترى الى أن صار معى مائة دينار • فاستأجرت غرفة على شاطىء البحر ، لعل مركبا تأتى ببضاعة فأشترى بالدنانير بضاعة وأتوجه بها الى بغداد • فاتفق فى بعض الايام أن المراكب جاءت وتوجه اليها جميع التجار يشترون ورحت معهم ، واذا برجلين قد خرجا من بطن المركب ، ونصبا كرسيين ، وجلسا عليهما ، ثم أقبل التجار عليهما لاجل الشراء ، فقالا لبعض الغلمان : « احضروا البساط » • فأحضروه ، وجاء واحد بخرج فأخرج جرابا وفتحه وكبه على البساط ، واذا به يخطف البصر لما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان والياقوت من سائر الألوان . ثم أن واحدا من الرجلين الجالسين على الكراسى التفت الى التجار وقال لهم : « يا معاشر التجار ، أنا ما أبيع فى يومى هذا ، لانى تعبان ، فتزايدت التجار فى الثمن حتى بلغ مقداره أربعمائة دينار • فقال لى صاحب الجراب ، وكان بينى وبينه معرفة قديمة : « لماذا لم تتكلم وتزايد مثل التجار ؟ » • فقلت له : « والله ياسيدى ما بقى عندى شىء من الدنيا سوى مائة دينار » • واستحييت منه

ودمعت عينى . فنظر الى وقد عسر عليـــه حالى ، ثم قال للتجــار : « اشهدوا على انى بعت جميع ما فى الجراب من أنواع الجواهر ، والمعادن لهذا الرجل بمائة دينـــار ، وأنا أعرف أنه يساوى كذا وكذا ألف دينار ، وهو هدية منى اليه » فاعطانى الخرج والجراب والبساط وجميع ما عليــه من الجواهر

ثم انى توجهت الى بغداد ومعى جميع مالى ، وسكنت فى الدار التى كنت فيها ، فلما أصبح الصباح ، لبست ثيابى وجئت الى بيت طاهر بن العلاء لعلى أرى من أحبها ، فان حبها لم يزل يزيد فى قلبى . فلما وصلت الى داره رأيت الشباك قد انهدم . فسألت غلاما : « ما فعل الله بالشيخ ؟ » . فقال : « يا أخى ، انه قدم عليه ، فى سنة من السنين رجل تاجر، يقال له أبو الحسن العمانى ، أقام مع ابنته مدة من الزمان، ثم بعد أن ذهب ماله أخرجه الشيخ من عنده مكسور الخاطر وكانت الصبية تحبه حبا شديدا ، فلما فارقهـــا ، مرضت مرضا شـــــديدا حتى بلغت الموت ، وعرفت أباها بذلك ، فأرسل خلفه فى البلاد وقد ضـــــمن لمن يأتى به مائة ألف دينار ، فلم يره أحد ، ولم يقع له على أثر ، وهى الى الآن مشرفة على الموت . قلت : « وكيف حال أبيهـــا » . قال : « باع الجوارى ، من عظم ما أصابه » . فقلت له : « هل أدلك على أبى الحسن العمانى » . فقال : « بالله عليك يا أخى أن تدلنى عليه » . فقلت له : « اذهب الى أبيها وقل له البشارة عندك ، فان أبا الحسن العمانى واقف على الباب » . فذهب الرجل يهرول ثم غاب ساعة وجاء وصحبته الشيخ ، فلما رآنى ، رجع الى داره ، وأعطى الرجـــل مائة ألف دينار ، فأخذها وانصرف وهو يدعو لى ، ثم أقبل الشيخ وعانقنى ، وبكى ، وقال : « يا سيدى ، أين كنت فى هذه الغيبة ، قد هلكت ابنتى من أجل فراقك ، فادخل معى الى المنزل » . فلما دخلت سجد شكرا لله تعـــالى وقال : « الحمد لله الذى

جمعنا بك » • ثم دخل لابنتــه وقال لها : « شفاك الله من هذا المرض » • فقالت : « يا أبت ، لا أبرأ من مرضى ، الا اذا نظرت وجه أبى الحسن » • فقال : « اذا أكلت ودخلت الحمام،جمعت بينكما »•فلما سمعت كلامه قالت : «أصحيح ما تقول » • قال لها : « والله العظيم ، ان الذى قلتهصحيح» فقالت : « والله ، ان نظرت وجهه ، ما أحتاج الى أكل » • فقال لغلامه : « احضر سيدك » • فدخلت ، فلما نظرت الى، وقعت مغشيا عليها ، فلما أفاقت ، استوت جالسة وقالت : « والله يا سـيدى ما كنت أظن أنى أرى وجهك الا ان كان مناما » • ثم انها عانقتنى،وبكت ، وقالت : « يا أبا الحسن، الآن آكل وأشرب »•فأحضروا الطعام والشراب ، ثم صرت عندهم مدة من الزمان ، وعادت لما كانت عليه من الجمال ، ثم ان أباها استدعى القاضى والشهود ، وكتب كتابها على ، وعمل وليمة عظيمة ، وهى زوجتى التى ترونها الآن

وظل الخليفة وجماعته فى عجب عاجب مما يرون ، ومما يسمعون ، ثم انصرفوا شاكرين للفتى العمانى ضيافته • فلما جلس الرشيد فى دار الخلافة قال : « يا مسرور » • قال : « لبيك يا سيدى » • قال : « اجمع فى هذا الايوان خراج البصرة ، وخراج بغداد ، وخراج خراسان » • فجمعه فصار مالا عظيما ، لا يحصى عدده الا الله • ثم قال الخليفة : « ياجعفر » • قال : « لبيك » • قال : « احضر لى أبا الحسن العمانى » • قال : « ســـمعا وطاعة » • ثم أحضره • فلما حضر . قبل الارض بين يدى الخليفة وهو خائف أن يكون طلبه له بسبب خطأ وقع منه وهو عنده بمنزله ، فقـال له الرشيد : « يا عمانى » • قال : « لبيك يا أمير المؤمنين ! خلد الله نعمه عليك » • فقال : « اكشف هذه الستارة » وكان الخليفة امرهم ان يضعوا مال الثلاثة اقاليم ، ويسبلوا عليه الستارة • فلما كشف العمانى الستارة عن الايوان ، اندهش عقله من كثرة المال ، فقال الخليفة : « يا أبا الحسن،

أهذا المال أكثر ، أم الذى فاتك» . فقال : « بل هذا يا أمير المؤمنين أكثر أضعافا كثيرة » . قال الرشيد : « اشـهدوا يا من حضر ، انى وهبت هذا المال ، لهذا الشاب » . فقبل الارض ، واستحى ، وبكى من شدة الفرح بين يدى الرشيد، فارتد الدم الى وجهه ، فقال الخليفة : « لا اله الا الله، سبحان من يغير حالا بعد حال » . ثم أمر الخليفة أن يحمل اليه المال وسأله أن لا ينقطع عنه لاجل المنادمة

والقارىء المتابع سياق هذه الجولة الليلية وامثالها من ألف ليلة وليلة ، يلحظ لا محالة أن حظ منادمة الخليفة فيها أكثره للوزير جعفر ، وأن أبا نواس يشارك فيها بوجوده أكثر مما يشارك بحديثه أو مجونه . ولعل هذا الموقف السلبى قد عز على الاسـتاذ المستشرق « مردريس » Mardrus فى ترجمته الفرنسية النفيسة ، فكان من ذلك أن أجرى ـ فى قصة علاء الدين أبى الشامات ـ بعض كلام الوزير جعفر على لسان أبى نواس

## نوادر أبى نواس مع الرشيد

بيد أن الحال لا تظل على هذا المنوال من ألف ليلة وليلة، بل تتخللها هنا وهناك نوادر تزول فيها الوحشـة وترتفع الكلفة الى حد يوجب الدهشة، بين الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد والشـاعر الماجن أبى نواس . ونحن لا نتردد فى الجزم بأنها من الاضافات المتأخرة مجاراة لاذواق العوام

ومن ذلك ما يحكى فى ألف ليلة وليلة من أن الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد أرق ذات ليـلة ـ كعادته ـ أرقا شديدا . فقام يتمشى فى جوانب قصره حتى أتى مقصورة عليها ستر ، فرفع ذلك الستر فرأى فى صدرها تختا، وعلى ذلك التخت شيء أسود كأنه انسان نائم ، وعلى يمينه شمعة وعلى يساره شمعة ، فبينما هو ينظر الى ذلك ويتعجب منه، واذا بباطية مملوءة خمرا عتيقا والكأس عليها ، فلما رأى

ذلك امير المؤمنين تعجب فى نفسه ، وقال : « أتكون هذه الصحبة لمثل هذا الاسود » • ثم دنا من التخت فرأى الذى فوقه صبية نائمة ، قد تجللت بشعرها،فكشف عن وجهها، فرآها كأنها البدر ليلة تمامه ، فملأ الخليفة الكأس من الخمر وشربه على ورد خدها ، ومالت نفسه اليها فقبل أثرا كان بوجهها ، فانتبهت من منامها قائلة : « يا أمين الله ما هذا الخبر » • فقال :

هو ضيفٌ طارقٌ فى حيّكم  هل تضيفوه الى وقت السحر ؟

فأجابته :

بسرور وهناء سيدى  أخدم الضيف بسمعى والبصر

ثم قدمت الشراب فشربا معا ، ثم أخذت العود وأصلحت أوتاره ، وضربت عليه احدى وعشرين طريقة ، ثم عادت الى الطريقة الاولى ، وبعد أن أطربت بالنغمات وأنشدت أعذب الابيات ، قالت : « أنا مظلومة يا أمير المؤمنين » • قال : « ولم ذلك ؟ ومن ظلمك ؟ » • قالت : « ان ولدك اشترانى من مدة بعشرة آلاف درهم ، وأراد أن يهبنى لك ، فأرسلت اليه ابنة عمك الثمن المذكور ، وأمرته أن يحجبنى عنك فى هذه المقصورة » • فقال لها : «تمنى على» • قالت : «تمنيت عليك أن تكون ليلة غد عندى » • ثم تركها ومضى • فلما أصبح الصباح ، توجه الى مجلسه ، وأرسل الى أبى نواس فلم يجده ، فأرسل الحاجب يسأل عنه فرآه مرتهنا فى بعض الخمارات على ألف درهم أنفقها على بعض المرد،فسأله الحاجب عن حاله ، فقص عليه قصته ، وما وقع له مع أمرد مليح أنفق عليه الالف درهم • فلما رأى ذلك الحاجب ، علم بحال أبى نواس وغرامه فرجع الى الخليفة وأخبره بحاله فأحضر الخليفة ألف درهم وأمر الحاجب أن يأخذها ويرجع بها الى أبى نواس فدفعها عنه وتوجه به الى الخليفة. فلما وقف بين

يديه ، قال له الخليفة : « أنشدنى شعرا يكون فيه « يا أمين الله ما هذا الخبر» • » فقال : «سمعا وطاعة يا أميرالمؤمنين»• وأنشده أبياتا تطابق واقعة الحـــال ، فقال له الخليفة على أثرها : « قاتلك الله كأنك كنت حاضرا معنا » • ثم أخذه الخليفة من يده وتوجه به الى الجارية • فلما رآها أبو نواس، وكان عليها بدلة زرقاء وقناع أزرق أكثر التعجبات•وقدمت الجارية الشراب للخليفة ثم أخذت العود بيــدها ، وأطربت بالنغمات ، فأمر أمير المؤمنين باكثار الشراب على أبى نواس حتى غلبه الســـكر ، ثم ناوله قدحا ، فشرب منــه جرعة واستدامه فى يده وقد غاب عن رشده ، فأمرها الخليفة أن تأخذ القدح من يده وتخفيه ، فأخذت القدح من يده،وأخفته بين فخذيها ، ثم ان الخليفة سحب سيفه فى يده ووقف على رأس أبى نواس ، ووكزه بالسيف فاستفاق،فوجد السيف مســـــلولا فى يد الخليفة فطار السكر من رأسه ، فقال له الخليفة : « أنشدنى شعرا ، وأخبرنى فيه عن قدحك ، والا ضربت عنقك » • فأنشد :

قصتى أعظم قصــه ... صارت الظبية لصه

سرقت كأس مدامى ... بعد مصِّى منه مصه

ســـترته فى مكان ... بفؤادى منه غصــه

لا أســـمّيه وقاراً ... الأمير فيه حصـــه

فقال له الرشيد : « قاتلك الله ! منأين علمت ذلك ؟ »• وأمر له بخلعة وألف دينار

وندع قصص « ألف ليلة وليلة » الى كتاب « اعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس » وغيره من التصانيف الادبية التـــاريخية ، فاذا هى كـــذلك فى جملتها تروى لأبى نواس مع الرشيد نوادر لا حصر لها ، وكلاما كثيرا

فى المجون والخلاعة ، وماجريات تدل على حضور بديهتـه وسرعة خاطره وظرفه وخفة روحه

والذى يتقرر فى الاذهان من مطالعةهذا المحصول الوافر من النوادر هو أن الشاعر كان أشبه بمضحاك للخليفة ، يتفكه بأحاديثه ونوادر أفاعيله

## الحقيقة فيمن كان مضحك الخليفة

والمقرر فى أسفار التـواريخ المعول عليهـا أن الذى كان مضحكا للخليفة ومحدثا فكها هو ابن أبى مريم المدنى ، فكان الرشيد لا يصبر عنه . وقد بلغ من خاصته بالرشيد أن بواه منزلا فى قصره وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه. وكانت له نوادر وافاعيل غاية فى الجراة يضحك لها الرشيد ويذهب به الضحك حتى يكاد ينقطع نفسه . وهـذا بعينه ما يحكى عن نوادر ابى نواس مع الخليفـة هارون . فهى حكاياتموضوعة أو على الأقل منسوبة الى غير صاحبها

## اختلاف المؤرخين فى منادمة ابى نواس للرشيد

وقد قيل فى أول اتصال لأبى نواس بالخلفاء أن الرشيد قال ذات ليلة لهرثمة بن أعين : « اطلب لى رجـلا يصلح للحديث والسمر » . فخرج هرثمة فسأل فدل عليـه . فنادم الرشيد تلك الليلة وأجاز ما اقترحه من الشـعر بديها ، فحسن موقعه عند الرشيد ، وأمر له بمال . وكان ذلك سبب اتصاله به . وكان أبو نواس يحدثه من قبـل بنوادر الناس ، ولكن من غير أن يفكه بأعراضهم ، ثم أعرض عن ذلك. فقال له الرشيد ذات يوم : « حدثنا يا أبا نواس » . فقال : « لا يحضرنى شىء » فقال الخليفـة : « بحياتى الا ما قلت شيئا » قال : « كان الكذب عملى ، واليوم هجرته يا أمير المؤمنين » . فضحك الرشيد وقال : « هذا أحب الى من الحديث »

وقيل انه انما حصل على هذه المكانة عند الرشيد بأنه كان اذا بكر اليه سأل خواص أهل بيته عما يكون فى نفسه أو يكون جرى له فى ذلك الوقت ، ثم ينشده اشعارا لطيفة فى مطابقة ذلك فيطيب بها نفسا . فمن ذلك أنه كان يوما مع الرشيد فى قصره ، فعلم من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية من جواريه على غفلة منها فوجدها تغتسل وقت الظهر ، فلما رأته تجللت بشعرها فأعجبه ذلك منها . فلما أن دخل أبو نواس تلك الليلة الى مجلس سمر الخليفة انشده :

نضَت عنها القميصَ لصبِّ ماءٍ ... فورّد وجهَها فرطُ الحياءِ
وقابلتِ الهواءَ وقد تعرَّت ... بمعتدلٍ أرقَّ من الهواء
ومدّت راحة كالماء منها ... إلى ماءٍ مُعَدٍّ فى إناء
فلما أن قضت وَطَراً وهمّت ... على عجلٍ إلى أخذ الرِّداء
رأت شخصَ الرقيب على التدانى ... فأسبلت الظلامَ على الضياء
وغاب الصبحُ منها تحت ليلٍ ... وظلّ الماءُ يقطر فوق ماء
فسبحان الاله وقد براها ... كأحسن ما يكون من النساء

فنادى الرشيد على سبيل الاستغراب : « سيفا ونطعا يا غلام ! » . فقال الشاعر : « ولم يا أمير المؤمنين ؟ » . فقال : « أمعنا كنت ؟ » قال : « لا ، وانما شيء خطر لى بالبال فقلته » . فضحك الخليفة ثم أمر له بجائزة

واذا صحت هذه النوادر المتكررة ، فلا مندوحة من القول مع الأقدمين بأن أبا نواس كان له بين خدم القصر ووصيفاته من كان يوافيه على الفور بما يجرى فى المقاصير ، وما يقع بين الخليفة وجواريه خاصة من وقائع الصبوة ومواقف الغزل ليكون له من ذلك مدخل الى قلب الخليفة ؟

ولكن اتراها صحيحة هذه النوادر وامثالها مما رواه بعض المتقدمين وجعل يردده غيرهم من بعدهم ويضيفون اليه ؟ ان القول بصحتها له مؤيدون ، وهم يجعلون لأبى نواس عند الخليفة هرون منزلة النديم الذى داخله وخالطه وانبسط اليه وتكشف معه ، حتى انه أخذ المقام الاول بين الندمان وبنى لنفسه فى نهر طابق الدور التى لم تبن مثلها عظماء الناس .

وعلى الضد من ذلك المترجمون الذين قيل انهم المحيطون علما بأحوال ابى نواس . فهم يجزمون بأن هذه الحكايات عن ابى نواس والرشيد موضوعة ، وان أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وانما دخل على محمد الأمين ، وانه ما ملك عشرين الف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم !

واغلب الظن أن الفريقين ذهبا مذهب الغلو فى الوهم ، وان القولين لا يسلمان من المبالغة والسرف فى الجزم . ولكى نتبين وجه الرأى ، يحسن أن نتمثل حياة البلاط فى ذلك العهد

## الخليفة فى ساعات فراغه

كان هرون فى تفويضه أمور الدولة وتدبيرها الى البرامكة يجد من وقته الفراغ للتملى بنعيم الأسرة ، بين زوجاته واخصهن بالمكانة عنده زبيدة ، وامهات أولاده اللاتى يزدن على العشرين ، وجواريه وهن زهاء الألفين نذكر منهن ضياء وهيلانة الرومية ، وأولاده وانبههم عندنا ذكرا الأمين والمأمون وسائر أفراد بيته . وكذلك وجد الخليفة الفراغ للجلوس الى أهل الفقه والأدب ، وللخلوة بعد ذلك لمجلس المنادمة والشراب ، وكان هرون تام الخلقة جميلا ، طويلا ، أبيض مسمنا ، له وفرة وقد وخطه الشيب . وقد اشتهر بشرب النبيذ الذى كان يرخص اهل العراق فى شربه . وكان يحتفل باحياء ابهى ما عرف فى بلاط الملوك من حفلات السماع يشترك فيها اعلام المغنين والمغنيات على انواع المعازف والملاهى

ولا عجب فأولاد المهدى كلهم من محبى الموسيقى لما كان يجتمع فى قصر ابيهم من القيان ، ولطول ما تردد فى مجلسه من الغنـاء والألحان . وكان هرون يقرب الشعراء ويحب المديح من شاعر فصيح ويجزل العطاء له . وكان مما يزيد فى سروره بالشعر وطربه عليه أن يعمل فيه ما يوافقه من اللحن ويغنى له . ولكنه على كل حال كان من أحكم النـاس بصرا بالشعر واصحهم تذوقا لجيده واشدهم تأثرا به . فلا يمكن وهرون الرشيد بهذا الموضع أن يخفى عليه شأن شاعر كأبى نواس والا يلتفت الى براعة معانيه وحلاوة لفظه

## الأسانيد على تقدير الخليفة للشاعر

واذا كان المعقول لا يكفى ولا بد من منقول ، فالدلالة حاضرة فيما رواه اسحق الموصلى من تقـديم الرشـيد لشاعرنا مع ما كان من مماراة جعفر البرمكى فى أمره وتعصب اسحق نفسه عليه وقتئذ لشىء جرى بينهما حتى صار لا يعد ابا نواس البتة ولا يرى فيه خيرا

ولقد كان شعر ابى نواس مما يتغنى به بين يدى الرشيد فى مجالس الغناء العامرة الزاهرة ، ومن ذلك هذه المقطوعة التى غناها سليم بن سلام فيما كان مولعا به من الاهزاج :

أصـبح قلبي به ندوبُ ... أندَبه الشادنُ الربيبُ

تمادياً منه فى التصـابى ... وقد علا رأسيَ المشيب

أظنني ذائقاً حمـامى ... وأنّ إلمـامه قريب

إذا فؤادٌ شجاه حبٌّ ... فقلّما ينفـع الطبيب

ونزيد عليه هنا ما رواه كاتب الرشيد اسماعيل بن صبيح ؛ قال :

قال لى الرشيد : « يا اسماعيل ! ابغنى وصيفة مليحة مقدودة شكلة ، حلوة متكلمة ، ظريفة عالمة ، تسقينى » فان

الشرب يطيب من يد مثلها » . فقلت : « يا سيدى ! على الجهد » . فقال : « اجعل أمامك قول هذا العيار – يريد أبا نواس – وامتثل فيها ما حد فى مثلهـا لك » . قلت : « يا سيدى ! فما قوله ؟ » . فقال الرشيد :

« من كف ساقيـــة ناهيكَ ساقيةً
فى حسن قدٍّ وفى ظَرْفٍ وفي أدبِ

كانت لربّ قِيانٍ ذى مغالبـــةٍ
بالكشحِ محترفٍ ، بالكشخ مكتسب (١)

فقد رَوَتْ ووَعتْ عنهن ، واختلفت
ما بينهن ومن يهْوَيْنَ بالكتب

حتى إذا ما غلا ماءُ الشباب بها
وأفعمت فى تمام الجسم والقصب

وجُمشت (٢) بخفىّ اللحظ فانجمشتْ
وجرّبتِ الوعدَ بين الصدق والكذب

تمتْ فلم يرَ إنسانٌ لهـــا شَبهاً
فيمن بَرا اللهُ من عُجمٍ ومن عرب

تلك التى لو خلتْ من عين قيّمها
لم أقضِ منهـا ولا من حبها أرَبى »

واقطع مما تقدم فى تقدير الرشيد لشاعرنا ومعرفته لفضله ومغالاته بقدر ما رواه يوسف بن الداية ، قال : غاب

(١) الكشخ : الجمع بين النساء والرجال (٢) جمشها : لاعبها

أبو نواس عنـا وعن اخوته غيبة طويلة متصلة فلم نعرف له خبرا . وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثرا ، حتى مضى نحو من سنة ، فظن أنه قتل . وبلغ ذلك الرشيد فقال : « والله ان صح أنه قتل لأقتلن قاتله ولو كان محمدا ولدى . انظروا كل من كان هجاه من الناس فاكتبوا اسمه وارفعوه الى » . فارتجت لذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول ، اذا نحن به قد وافى . فقلنا له : « يا أبا على ! قد غبت عنا هذه الغيبة فغممتنا وظننا بك الظنون » . قال : « كنت فى موضع ارتضيه وأشتهيه » . فقلنا له : « ألم تسمع بافتقادنا لك ، وقول الرشيد فيك ؟ » ولم يبق أحد من اخوانه الا عذله ، وقالوا : « ان فى هذا تعريضا لنفسك للآفات » . فأنشأ يقول :

إنى لفى شغلٍ عن العالمين ... بالراح والريحان والياسمينْ

عند غزالٍ حَسَنٍ وجهه ... قلبى حبيسٌ بهواه رَهين

ونذكر الى جانب ذلك حديث الحسين بن الضحاك الشاعر ـ وقد كان وأبو نواس تربين نشآ فى مكان واحد وتأدبا بالبصرة وكانا يحضران فيها مجالس الأدباء متصاحبين ـ قال : « خرج أبو نواس عن البصرة قبلى وأقام مدة ، واتصل بى ما آل اليه أمره ، وبلغنى ايثار السلطان وخاصته له ، فخرجت عن البصرة الى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددت فى الشعراء ، وهذا كله فى أيام الرشيد الا انى لم أصل اليه »

وأخيرا ما نقله بعض الرواة عن مطيع ـ وكان خادما للبرامكة ثم دخل بعدهم فى خدمة الرشيد ـ قال : « كنت واقفا على رأس الرشيد اذ دخل أبو نواس ( وذلك بعد قفوله من رحلته الى مصر كما سيأتى ) فقال له الرشيد : أنشدنى قولك فى الخصيب « محضتكم يا أهل مصر نصيحتى » فأنشده اياها ، فلما بلغ قوله :

فان يكُ باقٍ افكُ فِرعونَ فيكمُ
فان عصا موسى بكفّ خصيب

قال له الرشيد : الا قلت : « فباقى عصا موسى بكف خصيب » ؟ فقال الشاعر : « هذا أحسن ، ولم يقع لى »

واحسبنا بعد هذا الذى سمعناه من الخبر المتواتر من مختلف المصادر لا نكون متعسفين اذا لم نستبعد دخوله على الرشيد ، ونحن نرجح ذلك بعد زوال دولة البرامكة

## الترفع عن منادمة الخلعاء

ولكن الذى لا نرجحه ونستبعده كل الاستبعاد هو ملازمته الرشيد ومنادمته له على الوجه الذى يقولون . فقد كان خلفاء بنى العباس حتى ذلك الحين — مع تفرج من تفرج منهم ببعض اللعب واللهو — محافظين على وقار الملك . كما أن لهوهم لم يكن كله لهو ترف . فقد كان المهدى مولعا بالصيد واللعب بالدبوق والصوالجة . وكذلك كان الرشيد يتصيد ويلعب بالصولجان فى الميدان ، الى جانب لعبه بالكرة والطبطاب ورميه فى البرجاس بالنشاب ، مع احتفاله بشهود السباق وكلفه بالشطرنج . ثم انهم حتى فى خلواتهم للشرب واللهو كانوا كارهين للتبذل وطرح الاحتشام . فالمهدى كان شديد الحب للنساء ، ومع هذا كان ينهى بشارا عن الفحش فى الغزل، واذا حن الى سماع شىء منه قال لبشار : « قل فى الحب شعرا ولا تطل ولا تسم أحدا » . وكذلك لما اتصل بالرشيد قول أبى العتاهية فى عتبة متغزلا :

ألا ان ّ ظبياً للخليفة صادنى ومالى على ظبى الخليفة من عدْوَى

غضب الرشيد وقال : « أسخر منا ، فعبث ! » . وأمر بحبسه وطال فى الحبس مكثه . وكان المهدى يسمح لمنادميه

فى مجلس السماع أن يشربوا وأن كان لا يشرب ، ولكنه حين راى ابراهيم الموصلى يشرب فى منازل النـاس ، ويتبذل معهم ويجيئه منتشيا ، امر به فضرب وحبس . والرشيد على حبه للتنعم واستمتاعه بألوان الترف كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، ويكثر من الخروج للحج ومعه مائة من الفقهاء ، واذا لم يحج أحج ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والـكسوة الظـاهرة . وكان يكره الخوض والمراء فى الدين ، وتسرع دمعته حتى تخضل لحيته لوعظ الواعظين

وما دام أمر الخلفاء كذلك ، فليس يصح فى العقل اتخاذهم لمثل ابى نواس جليسا ملازما ، وانما جاز لأبى نواس أن يكون ذلك النديم حين ولى الخلافة محمد الأمين

## فى زمرة الشعراء المادحين

ولما كان الرشيد قد أصبح بعـد نكبة البرامكة صاحب الأمر كله والمتصرف برأيه دون سواه ، والمطلق اليد فى خزائن الدولة والمتحكم فى رقاب الرعية ، فقد اقبل أبو نواس يتحين المناسبات الرسمية ليمدحه فيمن كان يمدحه من الشعراء المنقطعين لذلك . وهو وان لم يكن فى طبقتهم فى هذا الباب قد كانت له مع ذلك فى المديح أبيات يعدونها من غرر الشعر وفرائده

وقد نظم الشاعر فى انتصارات جيوش الخليفة فى آسيا الصغرى على جيوش الروم ــ حين قطع صاحبهم نقفور الجزية ــ قصيدة فى مدح الرشيد يقول فيها :

إنى حلفتُ عليك جهد أليّة(1) قسما بكل مُقصرٍ ومُحلقِ

لقد اتقيتَ اللهَ حقَّ تُقاته وجهدتَ نفسك فوق جهد المتقي

وأخفتَ أهلَ الشرك حتى إنه لتخافك النُّطفُ التي لم تُخلقِ

(1) الألية : القسم

وبضاعةُ الشعراء إن أنفقتها(١) نفقت، وإن أكسدتها لم تنفق

وفى سنة ١٨٩ تم للرشيد أخذ البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين فالمأمون فالمؤتمن ، واحداً بعد الآخر . فقال شاعرنا فى ذلك :

تبارك من ساس الأمور بعلمه ... وفضل هاروناً على الخلفاء

نزالُ بخير ما انطوينا على التقى ... وما ساس دنيانا أبو الأمناء

ولما ان شخص هارون الرشيد الى بلاد الروم لعشر بقين من رجب عام ١٩٠ واتخذ قلنسوة يلبسها مكتوبا عليها : ( غاز ـ حاج ) تبارى الشعراء فى ذكر ذلك ، فقال أبو المعالى الكلابى :

فمن يطلبْ لقاءَك أو يُرِدْهُ ... فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففى أرض العدوّ على طمرٍ(٢) ... وفى أرض الترفّه فوق كورِ(٣)

وكان شاعرنا أبو نواس ممن قالوا فى ذلك :

هارون ألفنا ائتلافَ مودةٍ ... ماتت لها الأحقادُ والأضغان

فى كل عام غزوةٌ ووفادةٌ ... تنبتّ بين نواهما الأقران(٤)

حجٌّ وغزوٌ مات بينهما الكرى ... باليعملات شعارُها الوخدان(٥)

فالشاعر كان عند باب الرشيد فى زمرة المادحين ، ولم يكن له قط بالنديم

على انه لم يكن موفقا فى هذا الميدان ، بل كان لغيره فيه قصب الرهان ، سواء أكان السبب قصور شعره أم غير ذلك من ماجريات أمره . فعزم على الخروج الى مصر

---

(١) انفقتها : روجتها

(٢) الفرس الجواد الطويل القوائم (٣) رحل البعير (٤) تنقطع حبال المطايا (٥) اليعملات النوق المطبوعة على العمل السريعة السير

# أبو نواس في مصر

كانت مصر من وفرة الخيرات التى يغلها واديها الخصيب بفضل نيلها المبارك ، أغنى ولايات الامبراطورية الاسلامية، وكانت جباية خراجها الركن الأهم لخزانة الخلافة • وقد بلغ من اهتمام الخلفاء بهذه الجباية وتعويلهم عليها وازدياد شرههم اليها أن أخرجها بعضهم من يد عاملهم على مصر ، وندبوا صاحب الخراج من قبلهم ليكون أوثق صلة بهم وأحرص على مصلحتهم

ويذكر التاريخ من أصحاب الخراج من بالغوا فى الزيادة على أصحاب الالتزام حتى ارتفعت جملة ما حمل الى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك من خراج مصر الى اثنى عشر ألف ألف دينار

ومهما يكن من انحطاط الخراج دون ذلك كثيرا على أيام العباسيين ، فانه ما برح ذا شأن خطير فى تدعيم خزانة الخلافة ببغداد كما هو ظاهر جلى فى رسالة محمد بن زياد الحارثى للرشيد اذ يقول : « مصر خزانة أمير المؤمنين التى يحمل عليها مؤنة ثغوره وأطرافه ، ويقوت بها عامة جنده ورعيته ، فليس أمرها بالصغير ولا فسادها بالهين ، ولا ما يلتمس به صلاحها بالامر الذى يأتى بالرفق ولا يصبر له على مشقة »

## عدم استقرار الولاة

ولقد عمد خلفاء بنى العباس الى الاكثار من تغيير الولاة

على مصر والمداولة بينهم حتى الثقات منهم ، مددا متقاصرة، وكانت هذه سياستهم مع عمالهم فى أطراف الأمبراطورية الاسلامية الواسعة ليأمنوا استفحال أمرهم فى الأطراف الموكولة اليهم والطمع فى استقلالهم بها

بيد أن ما ترتب على هذه السياسة من عدم الاستقرار جر على مصر ما جره لا محالة من اهمال مرافقها الحيوية من تدبير الرى والاستكثار من الترع وتقدير الأقنية واقامة الجسور وكرى الخلجان وسائر ما فيه صلاح الزراعة ، مع تأمين الطرق وتيسير التجارة • ولم يلبث هذا الاضرار بمرافق مصر من قلة الاستقرار أن ظهرت آثاره فى نقص خراجها أيام الرشيد • وقد كان الرشيد أكثر خلفاء بنى العباس تولية وعزلا لعماله على مصرحتى ندر فيهم منطالت مدته على العام ، ومنهم من لم‌تجاوز ولايته الشهرين فماكاد يبلغ الفسطاط حتى دعى الى بغداد،وكان من ذلك أن بلغت عدتهم فى اثنتى عشرة سنة ستة عشر واليا

## ولاية الخصيب على الخراج

وكان الرشيد بعد نكبة البرامكة قد أراد استعمال قوم لم يعملوا معهم ، فقلد فيمن قلدهم من العمال على الامصار الحسين بن جميل على ولاية مصر وذلك فى ١٩ شعبان سنة ١٩٠ ، وجعل على خراجها أبا النصر الخصيب بن عبد الحميد العجمى الذى تنسب اليه منية بنى خصيب المعروفة اليوم فى صعيد مصر بالمنيا • وكان الخصيب هذا رئيسا فى أراضيه ، فانتقل الى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازى ، ثم انتقل الى امارة الخراج على مصر

والذى عليه الرواة أن الخصيب كتب الى أبى نواس يستزيره وهو من خواصه فخرج اليه • وخرج فى وقت خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصيب ، ولم يعرفوا خبر خروج أبى نواس ، حتى اجتمعوا ببستان الرقة فى

الجانب الغربى من بغداد ، فقال بعضهم لبعض : « هـــذا أبو نواس يمضى الى الخصيب ، ولا فضل فيه لأحد معه ، فارجعوا عن قرب » . وبلغ أبا نواس ما عملوا عليــه من الرجوع ، فصار اليهم مسلما ، ثم قال لهـم : « قد بلغنى ما عزمتم عليـــه من الرجوع ، فلا تفعلوا وامضـوا حتى نصطحب ، فانى والله لا أبدا الا بكم » . فشكروه وسكنوا الى قوله

## فى الطريق الى مصر

ومضوا جميعا الى عقرقوف ، وتقع غربى بغداد على ستة فراسخ ، فلحقوا بالقافلة الراحلة منها الى مصر،وهى رحلة عظيمة المشقة ، بعيدة الشقة ، مسافتها خمسمائة وخمسون فرسخا . وقد بكرت القافلة فى المسير ، أول ما لاحت فى آخر الأفق من الفجر التباشير ، وتابعت سيرها ناشطـة غير مترفقة،فلم تتوقف الا بعض ساعة للاراحة فىالهاجرة. وما وافى المساء حتىكان الركب وراء الانبار فى وادى «عين اباع » . فأدلجوا فى الغســـق ما اسـتطاعوا ، ثم نزلوا للتعريس . وبعد هجعة من الليل ، استأنفت القافلة المسير فى الهزيع الاخـــير ، وعنـد انبلاج الصبح كانوا عند ماء « النقيب » فشربوا حتى ارتووا ، وأوردوه ابلهم ، وتزودوا منه ملء زقاقهم . ثم انطلقت القافلة فأوغلت بهم غربا فى برية الشام حتى أشرفوا على آثار « تدمر » القديمة وأطلال معابدها العظيمة

ودخلت القافلة الشام ، ولعلها عرجت على حمص ، فهى التى تلى تدمر من قريب . ويرجح ذلك ما رواه النضر بن أمية الحمصى الشاعر ، قال :

« لما خرج أبو نواس الى مصر ، كتب الناس الينا بذلك، فلم نزل نرقبه حتى قيل لنا قد قدم . فجئت الخان لأسأل

عن خبره ، فاذا انسان قاعد على درجه ، متشح بخلوقية(١) بستاك ، فدنوت منه ، فقلت : « يا فتى ، انسان قدم من العراق يقال له أبو نواس »،وكان معى ابن لى حسن الوجه جـــدا • فقال : « ما تجعل لمن يدلك عليه ؟ » • قلت : « حكمه » ، قال : « قبلة من هذا الغزال الذى معك » ، قلت له : « ويحك ! هذا ابنى » ، قال : « آدم خير منك،والناس يقبلون بنيه ويلاعبونهم » ، فقلت له : «أنت أبو نواس ؟»، قال : « أنا هو ، فمن أين عرفتنى ؟ » ، قلت : « بنـــور الايمان » ، قال : « لا والله ، ولكن بظلمة الكفر ، فمرحبا بك » • فما زلت أنادمه ، وما فارقته حتى ارتحل عن حمص وشيعته • »

وقد يطعن فى صحة هذه الرواية أنه لا شاهد فى شعر أبى نواس على تعريجه فى طريقه الى مصر على مدينة حمص، غير أنه غير مســتبعد مع ذلك أن يكون قد ورد ذكرها فى بيت سقط من سياق قصيدته المصرية

وأيا كان الامر ، فقد انحدرت القافلة فى الديار الشامية الى غوطة دمشق • وهنا اجتازت أرض « جولان » الصخرية وقد دميت منها أخفاف المطايا ، ثم لاقوا بعدها الويل فى مسراهم بالليل الى « بيسان » وهى بلدة حارة وبئة بالاردن بالغور الشامى بين حوران وفلسطين • ثم أمعنت القافلة فى فلسطين ، فجاوزوا بالرملة ثم بنهر أبى قطرس قريبــا منها . ومضوا متعجلين فلم يعرجوا على بيت المقدس لفرط استعجالهم بلوغ مصر • وأخيرا بلغوا غزة على الحدود بين فلسطين ومصر • وكان دخولهم الارض المصرية من ناحيــة الفرما حتى أتوا الفسطاط

## فى حضرة الخصيب

واتصـــل خبر قدوم أبى نواس بالخصيب ، فجلس له

(١) ثياب فارسية كانت معروفة بذلك الاسم

جلوسا عاما فى مجلس جليل . وأقبـــل أبو نواس ومعه جماعة الشعراء ، فدخل وحده اليه ، وبقى الشـــعراء فى دهليزه ، فسلم عليه وقال :

يا أيهذا الملك المؤملُ قد استزرت عصبة فأقبلوا

وعصبة لم تستزرهم طفّلوا رجوك فى تطفيلهم وأملوا

وللرجاء حرمة لا تجهل فافعل كما كنت قديماً تفعل

فاستحسن الخصيب قـــوله وكل من حضره ، وقال له الخصيب : « من شريكك ؟ » . فعرفه أبو نواس خبر الشعراء، فقال : « اجلس فقدر لهم صلاتهم على حسب مقاديرهم فى نفسك » . فقدر أبو نواس لهم صلاتهم ، وعرضها عليه ، فوقع باطلاقها ، فأطلقت من وقتها . وقال له : « أخـــرج ففرقها عليهم ، واصرفهم ، ففعل ذلك ، وعاد اليه

واحتفل الأمير بالشاعر ، وأكرمه غاية الاكرام وقربه ورفع موضعه . ولما استقر به المجلس استنشده وكان عنده جماعة من الشعراء . فقال أبو نواس : « هنا جمـاعة من الشعراء هم أقدم منى وأسن . فأذن لهم فى الانشاد ، فان كان شـــعرى نظير أشعارهم أنشدت والا أمســـكت » . فاستنشدهم الامير فأنشدوا المدائح فيه . فتبسم أبو نواس وقد رأى أشعارهم غير مقاربة لشعره . ثم قال : « أنشدك أيها الأمير قصيدة هى بمنزلة عصا موسى تتلقف ما يأفكون» فقال : « هات » . فأنشده قصيدة طويلة من بلاغاته مطلعها:

أجارةَ بيتينـا أبوكِ غيورُ وميسورُ ما يُرجى لديكِ عسيرُ

وفى القصيدة عدا المديح المعتاد وصف للقافلة السيارة ورحلته معها من العراق عابرا البيداء الى البلاد الشاميــة قاصدا مصر . وقد أتى الشاعر فى هذه القصيدة على ما تقدم بنا ذكره من المنازل التى مر بها والبلاد التى حل فيها

ولقد اهتز الخصيب لما جاء على لسان الشاعر من المديح .

ولما بلغ الى قوله فى مخاطبة جارته فى بغداد قبل رحلته :

تقول التى من بيتها خفّ مركبى :

« عزيزٌ علينا أن نراكَ تسيرُ

أما دون مصرٍ للغنى مُتطلبٌ ؟

بلى ، ان أسباب الغنى لكثيرُ »

فقلت لها — واستعجلتها بوادرٌ

جرت ، فجرى فى جريهن عبير :

« ذَريني أكثّر حاسديك برحلة

الى بلد فيها ( الخصيبُ ) أمير »

قال الخصيب : « اذن يكثر حسادها وتبلغ املها » ، وأمر له بألف دينار

فلما كان من غد ذلك اليوم ، دخل أبو نواس الى مجلس الخصيب كذلك ، وانشده قصيدة أخرى ، استهلها بالنسيب على طريقته ، ثم انتقل الى وصف الناقة التى استقلها فى قصده الى الممدوح على طريقة الاقدمين من شعراء العرب ، وأخيرا رفع عقيرته بهذه الخاتمة المشهورة :

| | |
|---|---|
| أنت الخصيبُ وهذه مصرُ | فتدفقا فكلاكما بحرُ |
| لا تقعدا بى عن مدَى أملى | شيئاً ، فما لكما به عذر |
| ويحقّ لى اذ صرتُ بينكما | أن لا يحلّ بساحتى فقر |
| النيل ينعش ماؤه مصراً | ونداكَ ينعش أهلَه الغمر |

فقال الخصيب : « اذن لا يخيب املك ، ولاينقطع مرادك » ثم امر له بألف دينار اخرى

ولشاعرنا فى مدح الخصيب اكثر من قصيدة ، وهى قاطعة فى الدلالة على صحة ما ردده شعراء البرامكة بعد نكبتهم وزوال دولتهم من كساد تجارة الشعر وانفضاض سوقه فى بغداد على حد قول سلم الخاسر فى رثائه لهم :

هوت أنجم الجدْوَى ، وشُلت يد الندى
وغاضت بحور الجود بعد البرامك

وهذا الكساد بعدهم هو الذى اضطر شاعرنا النواسى الى التغرب عن وطنه والنزوح عن العراق الى مصر طمعا فى نوال الخصيب والتماسا للغنى والوفر :

لم تدْرِ جارتنا ولا تدرى ... أنّ الملامةَ ربما تغرى
هبت تلومك غير عاذرةٍ ... ولقد بدا لك أوسعُ العذر
واستبعدتْ مصراً وما بعدت ... أرض يكون بها أبو نصر
ولقد وصلتُ بك الرجاء، ولى ... مندوحةٌ لو شئتُ عن مصر
فيما تنافسه الملوك من الـ ... ـحور الحسان ، وعاتق الخمر
ومحدِّث كثرت طرائفه ... عانٍ لدىّ ، لقلة الوَفر
انى لآمل يا خصيب على ... يدك السعادةَ آخرَ الدهر
وكذاك نعمَ السوق أنت لمن ... كسدت عليه تجارة الشعر
أنت المبرِّز يوم سبقهمو ... ان الجواد بعرفه يجرى
عَرَف الخليفة أن نعمته ... حلت بساحة طيب النشر
كاف اذا عصب الأمور به ، ... ماضى العزيمة طيب الذكر
فانقعْ بسيبك غُلة نزحت ... بى عن بلادى، وارتهن شكرى

ومع ذلك فقد حرص ابو نواس فى سياق هذه القصائد على ذكر امير المؤمنين الرشيد ، فهو اليوم الحاكم بامره دون غيره ، والمستبد بسلطته فى ارجاء دولته . ذلك فضلا عن طمع الشاعر فى أن لايخطىء عند عودته موضع رضاه وحظوته . ومن ذلك قول شاعرنا فى سياق قصيدته الاولى بين يدى الخصيب :

فمن يكُ أمسى جاهلا بمقالتى      فان أميرَ المؤمنين خبير
فما زالَ توليه النصيحة يافعاً      الى أن بدا فى العارضين قتير
اذا غاله أمرٌ ، فامّا كفيته      وامّا عليه بالكفاء تشير

## تجارة الشعر

ولم يقصر شاعرنا تجارة الشعر على أمير الخراج وحده ، فمدح اثناء مقامه فى مصر آل حديج وغيرهم . فمن حرموه منهم او قصروا فى حقه على حسب زعمه ، عاد فذمهم على عادة الشعراء المستجدين ، وذم من اجلهم المصريين اجمعين :

دم المكارم بالفسطاط مسفوح
والجود قد ضاع فيها وهومطروح
يا أهل مصر لقد غبتم بأجمعكم
لما حوى قصبَ السبق السماميح
أموالكم جمة ، والبخل عارضها
والنيل معْ جوده فيه التماسيح

على انه لا جدال فى أن النواسى قد اجتمعت له فى مصر جملة طائلة من المال . ويغنينا عن اكتناه ذلك واستنتاجه ، ما قرره الشاعر نفسه فى منطوق شعره :

يا سائلى كيف حالى ؟ تُنبيكه أشعارى
بمصر صرتُ غنياً عن سائر الأمصار
بها استقام طباعى وتمّ خلع عذارى

## مجون أبى نواس فى مصر

وهو هنا ماض كعهده ، فى باطله ولهوه . فكان يخرج أحيانا فى زى الشطار وتقطيعهم ، بطرة قد صففها ، وكمين واسعين ، وذيل مجرور ، ونعل مطبق ، يدور فى أسواق مصر فى طلب الندمان من الغلمان الحسان . ومن نوادره التى يفكه ابن منظور الأنصارى المصرى — صاحب لسان العرب — باعادة حكايتها والافاضة فى تفصيلها ، ما وقع للشاعر حين كان يختلف الى أسواق مصر يومذاك مع ثلاثة غلمان اقران أخدان ، حسان الوجوه كأنهم أقمار ، أصحاب ظرف وأدب ومروءة وحالة حسنة حتى لم يكن بمصر أحد يتقدم عليهم فى صباحة الوجوه ، أحدهم من ولد شبيب بن ربعى التميمى ، والآخر من ولد عطية بن الاسود الخارجى ، والثالث من أولاد الدهاقين . ولعل هذه النادرة — مع تعيينها الأسماء والأنساب — كأمثالها من النوادر مصنوعة موضوعة من قبيل التمهيد والتشويق لتكون بين يدى ما يروى للشاعر من شعر ماجن

والناظر فى ديوان ابى نواس ، المتتبع لاشعاره فى مفترق مواطنها ، يقع له هنا وهناك ما يستدل منه على زيارته لبعض الاديرة القبطية وشربه فيها ، وان كان لم ينص على اسم واحد منها أو يعين لنا موضعه :

هاتِ من الرّاح فاسقنى الراحا أما ترى الديكَ كيف قد صاحا
من كف قبطية مزنرة نجعلهـا للصبوح مفتاحا
تقول للقوم من مجانتها « بالله لا تحبسنّ الاقداحا »

## الشغب فى مصر

بيد أن الأحوال فى مصر لم تكن مما يطمأن اليه . فقد كانت لا تسكن فتنة حتى تنشب فتنة ، من زيادة الاسعار واشتداد الغلاء مع الشطط فى جباية الخراج . وكان يشترك فى هذه القلاقل الاقباط والمسلمون والنازلون من عرب قيس واليمانية . اذ كانت المعاملة المجحفة تعم الاهلين أجمعين ، ولا سيما المزارعين

ولقد تكرر فى خلافة الرشيد خروج عرب الحوف مما يلى فرع النيل الشرقى ، وتمردهم السافر وممانعتهم فى الخراج وطردهم للجباة وقطعهم الطريق على المسافرين وسلبهم أموال التجار واجتراؤهم أحيانا على السير نحو الفسطاط يواجهون جند الحكومة ويتحدون سلطانها فى قصبة الامارة وعقر دارها . حتى اضطر الخليفة أكثر من مرة الى تسيير الجيوش الكثيفة من الشام تحت امرة كبار قواده الاعلام لاخماد الفتنة واستخراج الخراج عنوة

ولا نحسب أبا نواس الا كان على علم قبل قدومه الى مصر بأخبار أهل الحوف وكثرة انتقاضهم وتمردهم ، بدليل ما ورد فى قصيدته الاولى من اشارة لمسير الخصيب صاحب الخراج الى أهل الجور أو — على ترجيح تصحيفها — أهل الحوف ، والقبض على ثوارهم وجعلهم فى الوثاق ، اذ يقول :

وأطرق حياتِ البلاد (١) لحيّةٌ
خصيبيةُ التصميم حين تسورُ

سموتَ لأهل الجوْر فى دار أمنهم
فأضحوْا وكلٌّ فى الوثاق أسـير

ولقد شهد شاعرنا أبو نواس طرفا من مشاهد هذا

---

(١) طرق القوم أتاهم ليلا ودهاهم ، ومنه الطارقة بمعنى الداهية

الشغب المتكرر من اهل مصر لاشتداد الغلاء وزيادة الخراج. فقد ماج الناس ذات يوم فى المسجد الجامع وكانوا قد تواعدوا ان يجتمعوا فيه . وبلغ ذلك الخصيب نفسه وهو على شربه وعنده ابو نواس. فقال الشاعر: « دعنى أيها الامير اكلمهم » فقال الامير : « ذاك اليك » . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد على المنبر ، واعتمد على عضادتيه ، وحول وجهه للناس وعليه ثياب مشمرات ، فقال :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتى
ألا فخذوا من ناصح بنصيب

ولاتثبوا وثب السفاة (١) فتحملوا
على حدٍّ حامى الظهر غير ركوب (٢)

فان يك باق إفك فرعون فيكم
فان عصا موسى بكفِّ خصيب

رماكم أميرُ المؤمنين بحية
أكول لحيات البلاد شروب

ويقال انه لما سمعها الجمع تفرقوا فلم يبق منهم احد وعاد أبو نواس الى مجلس الخصيب ، فأمر له بألف دينار ثالثة . وأكبر الظن ان الشاعر بعد الذى رآه راى العين من الشغب والخصام ، داخلته رهبة فأشفق على نفسه من اطالة المقام ، فلم يعتم أن استأذن الامير الجليل فى امضاء عزمه على الرحيل ، فأذن له بعد ان زوده من طرائف مصر

وقد أصدر الخليفة فى ٧ رجب سنة ١٩١ امره لواليه على مصر الحسين بن جميل بأن يتولى كذلك أمر الخراج .

(١) الحية (٢) يريد بهذا الوصف السيف

فانتهت بذلك امارة الخصيب . وعليه تكون امارة الخصيب على خراج مصر من ١٩ شعبان سنة ١٩٠ الى ٧ رجب سنة ١٩١ ، وتكون السنة التى قيل ان ابا نواس قضاها فى ربوع مصر واقعة فى هذه المدة

## مصر كما يراها ابو نواس

وكان ابونواس يستحب من مصر جوها السجسج ويقول غابطا لأهلها : « ان دنياكم مستوية لا حر ولا برد عليكم . وانكم تتصرفون فى حوائجكم سائر نهاركم فى أوله وآخره وفى وسطه ، وليس هذا لاحد غيركم » . الا انه كان ممتلىء القلب رعبا من النيل لما سمعه من مزعجات القصص والاخبار عن تماسيحه . ولا نشك فى انه قضى المدة التى قضاها فى مصر لم تنحدر به مركب فيه ، ولعله لم يعرف حتى النزهة على شواطئه وحوافيه . وكيف لايكون ذلك كذلك ، والشاعر يشهد على نفسه فى بعض شعره بانه من خوف التماسيح لم ير النيل رأى العيان ، اللهم الا فى القلال والكيزان :

أظهرتُ للنيل هجراناً ومقلية (١)
اذ قيل لى انما التمساح فى النيل
فمن رأى النيلَ رأىَ العين من كثب
فما أرى النيلَ الا فى البواقيل (٢)

كما انه كان يكره شراب مصر ولا يمكنه الخمر بها الا ماكان يحمل الى الخصيب ويخص به ، وكان الخصيب يدخره لنفسه ويضن به على من سواه ولو كان ضيفه ، حتى قال

(١) المقلية : البغض (٢) مفردها بوقال واصلها رومى Baucalis وهو اناء كالكوز بلا عروة

ابو نواس محتجا : « ما نرى استئثار الخصيب علينا بشرابه ! » ثم قال كالمحدث نفسه :

يُحَصّ « خصيبٌ » بالشراب وتُرتجى
لديه نوالا ، ان ذا لعجيبُ

وليس « خصيبٌ » بالخصيب لضيفه
ولكنه وعرُ المحلِّ جديبُ

ومما لاشك فيه ان لابى نواس بمصر قصائد لم يأتنا خبر عنها . وقد قال أحمد بن أبى طاهر ان المصريين يروون له أشعارا لم تقع الى أهل العراق . وروى عن ديك الجن الحمصى انه قال : « دخلت مصر بعد أبى نواس ، فوجدت له بها أشعارا ليست عند أهل العراق » . وفى رسالة تنسب الى أبى العباس فى شعر ابى نواس انه سقط من الشعر الذى قاله بالشام ومصر شىء كثير

## اشتياق الشاعر الى وطنه

على ان الثابت المحقق أن أبا نواس كان وهو فى مصر شديد الشوق دائم الحنين الى المعاد الى بغداد ، ولم يكن يحتبسه تلك المدة اليسيرة فيها الا طمعه فى عطاء الخصيب

اذا ذُكرتْ بغدادُ لى فكأنما
تحرك فى قلبى شَباةُ سِنانِ

وأوبةُ مشتاق بغير دراهم
الى أهله من أعظم الحدثان

ولعل الذى جعله يبرم بها ويجتويها ويستثقل ظلها ويستكره المقام فيها عدم استجادته لشرابها وجهله بمعاهد لهوها ومخالفته لاهليها فى ايثارهم الكتمان والتستر ، مع عدم كمال اللذة عنده الا بالتهتك والمجاهرة . فنراه فى مصر

لا يفتأ يذكر من بغداد وارباضها تلك الحياة اللاهية الصاخبة التى لا مشبه لهـا فى مظاهر اللذة والحبور الا ما اشتهر فى العصور الحديثة عن باريس مدينة النور :

ذَكرَ الكرْخَ نازحُ الأوطانِ
فصبا صبوةً ولاتَ أوان

ليس لى مُسعدٌ بعصر على الشو
ق الى أوجهٍ هناك حسان

نازلات من السراة فكرْخا
يا ، الى الشط ذى القصور الدوانى

إذ لِبابِ الأمير صدرُ نهارى
ورواحى الى بيوت القيان

واغتفالى المولى لأختلس الغم
زةَ ممن أحبه بالبنان

واعتمالى الكؤوس فى الشرب تسعى
مُترعات كخالص الزعفران



# أبو نواس في سجن المطبق

## فى بغداد

انصرف شاعرنا أبو نواس عن مصر ، بعد أن أصاب من عطاء أمير خراجها أبى نصر الخصيب غاية ما كان فى الامكان اصابته ، وبلغ من ذلك ما ليس يطمع فى المزيد عليه . ولم تكن مصر بعد ذلك من همه ولا أربه ولا موضع هواه . فقد كان المقام فيها مما لايطيب لشـــاعر مثله ألفت نفســـه من أساليب الحياة وألوان الحضارة الفارسية ومختلف النزعات الثقافية ما يفتقده هنا ويكاد لايقع على أثره . ولقد عاد الشاعر الى العراق فكانت تعاوده ذكريات عن مواضع حله وترحاله فى مراحل أسفاره فى الشام والجزيرة ، فيشتاقها ويحن اليها فى أشعاره ، الا مصر فلم يكن لها فى طيب ذكرياته نصيب ، على الرغم من عطايا الخصيب

وكان منصرف الشاعر عن مصر كما أسلفنا فى منتصف عام ١٩١ . وقد سلك فى عودته الطريق التى سلكها فى مقدمه أو قريبا من ذلك . ولكنه كان فى هذه المرة ميسور الحال ، كثير المال ، عامر الوفاض فهو ينزل على كل مدينة يمر بها ويكون لها فى واسع محفوظه شهرة بالملاهى والخمر

ويحكى انه لما انصرف من مصر ، مر فى اجتيازه الشام — بحمص ، فرأى كثرة خماريها ، وجودة الشراب فيها ، وترك الشاربين لها كتمان شربها ، فأعجبه ذلك وكان قد طال بمصر حرمانه منه ، فأقام بها مدة مغتبقا ومصطحبا . ثم

عاج على دير الرصافة ، وهى رصافة هشام ، فبات فيه ليلته وقضى سحابة اليوم التالى ، ويشهد بذلك قوله :

ليس كالدَّير بالرُّصافة دير
فيه ماتشتهى النفوسُ وتهوى
بتُّ به ليلة فقضيتُ أوطا
راً ، ويوماً ملأتُ قطريه لهوا (١)

ثم اجتاز بعانة ، من أعمال الجزيرة بين الرقة وهيت ، وهى مشرفة على الفرات ، فسمع اصطخاب الماء فى الجداول، فقال : « اذكرنى هذا قول الاخطل :

من خمر عانة ينصاع الفؤادُ لها بجدول صخبِ الآذىّ مَوّارِ

واقام فيها ثلاثا يشرب من شرابها ، ثم قال : « لولا قربها من قطربل ، ومجاذبة الدواعى اليها ، لاقمت بها أكثر من ذلك » ومضى فلما دخل الانبار تسرع الى بغداد ، ولكنه لم يتمالك حين بلغ ضاحية بغداد أن عدل الى قطربل وهو يقول : « ما قضيت حق قطربل ان أنا لم أبطؤ بها » . فأقام ثلاثا حتى أتلف فضلة كانت معه من نفقته ، وباع رداء معلما من أردية مصر ، ولعله مما أهداه الخصيب اليه من طرائف ، وقال عند انصرافه من قطربل :

طربتُ الى قُطْرُبّل فأتيتُها
بألفٍ من البيض الصحاح وعَيْنِ
ثمانين ديناراً جياداً أعُدُّها
فأتلفتها حتى شربت بدَيْنِ

---

(١) القطر : الشق والناحية ، والمراد بقطرى اليوم الصباح والمساء

رهنت قميصاً سابرياً وجبة
وبعت إزاراً مُعْلَمَ الطرفين

وقد كنت في قطربل اذ أتيتها
أرى أنني من أيسر الثقلين

فروحت عنها مُعسراً غير موسر
أقرطس في الافلاس من مئتين

يقول لي الخمار عند وداعه
وقد ألبستني الراح خف حنين

«ألا رح بزين يوم رحت مودعاً»
وقد رحت منه يوم رحت بشين

وعلى هذه الحال من الافلاس مع ازدياد الشوق الى استئناف حياة الباطل واللهو ، عاد شاعرنا الى بغداد ، وهو يطمع في توثيق الاتصال ببلاط الرشيد ، ويحلم بالنوال الذي ليس بعده نوال ، بعد أن صارت الى الخليفة خزائن المال ، وصار له الامر كله

## هرون الرشيد في أواخر عهده

ولكن الخليفة هرون الرشيد كان يزيد مع السن والعلة شدة وتزمتا ، وزاد على ذلك أن قد ذهب البرامكة فلم يغن عداتهم غناءهم ، ولم يقوموا مقامهم ، فكان هو الناهض وحده بأعباء الحكم وضبط الامور وتوجيه الجيوش لحرب الروم وقمع الفتن في الاطراف . فكان من ذلك ما اوحظ على الرشيد من السرعة الى الغضب وانزال النقمة .

وهذا التغير في حال الرشـيد ، كان قمينا بأن يصيب شاعرنا السكير الماجن بالخيبة المرة فى عهد بغداد الجديد ، كما كان نذيرا بما سوف ينزل به من عنت شديد . وبلغ من ذلك أن ندم أبو نواس على عودته الى العراق :

رجعتُ الى العراق برغم أنفي  وفارقتُ الجزيرة والشآما
على شاطى البليخ وساكنيه  سـلامُ مسلّم لقى الحماما

## حبس الشاعر لسكره ومجونه

فلقـد حبسه الخليفة فى المطبق (١) أكثر من مرة لشربه الخمر مجاهرا بها متهتكا فيها . فكان يقضى وقته يعبث مع من يكون معه فى الحبس ويلاعبه الشطرنج والنرد

واتهم أبو نواس أكثر من مرة بالزندقة ، ومن ذلك أنه كان قد انصرف من بعض المواخير سكران ، فمر بمسجد قد حضرت فيـه الصلاة . فدخل ، فقـام فى الصف الاول ، فقرأ الامام الآية : « قل يا أيهـا الـكافرون » ، فقال أبو نواس من خلفه « لبيك » . فلما قضيت الصلاة اندفع اليه المصلون ولببوه . وانتهى أمره الى أن دفع به حمدويه صاحب الزنادقة فحبسه أياما . ولولا علم حمدويه انه ماجن وليس هو بحيث يظن ، لكان قد قضى عليه

وكان لبعض الأمراء وأصحاب الكلمة ترات عند أبى نواس لهجائه لهم . ومن هؤلاء سليمان بن جعفر بن أبى جعفر المنصور . وكان أبو نواس قد هجاه وحاف عليه ، ولم يعدل بعدها الى مدحه ولم يرجع عن مكروهه . فاتفق أن جلس الرشيد مجلسا ، وأفاض من حضره فى ذكر المطبوعين من الشعراء المحدثين ، الى أن اتصل الذكر بأبى نواس ، فغمز عليـه سليمان بن جعفر ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! كافر

---

(١) سجن بغداد فى عهد العباسيين

بالله ، لا يرعوى من سكره ولا يأنف من فاحشة » . وقد كان نمى الى الرشيد من خبره شيء . فقال : « يا عم ! هل تأثر عنه من ذلك شيئا ؟ » . قال : « قوله يا امير المؤمنين :

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ ؟ لا قَدَرٌ صحَّ ولا جَبْرُ !
ما صحَّ عندى من جميع الذى يُذكر إلا الموتُ والقبرُ

ثم قوله ايضا :

باح لساني بمضمر السرِّ وذاك أني أقول بالدهرِ
وليس بعد الممات مرتجعٌ وإنما الموت بيضة العُقْرِ

فاستشاط الرشيد غضبا وطار شققا وقال : « على بابن الفاعلة » . فقال رجل من جلساء الرشيد : « ان اذن لى أمير المؤمنين انشدته من قول هذا الفاسق ماهو أشنع وافظع مما انشده ابو ايوب » . قال : « هات ! » قال : « قوله فى غلام نصرانى :

تمرُّ فاستحييكَ أن أتكلَّما
ويثنيك زهوُ الحسن عن أن تسلِّما
ويهتز فى ثوبيك كلَّ عشية
قضيبٌ من الريحان شَبَّ منعَّما
بحسبك أن الجسم قد شفَّهُ الضَّنى
وأن جفونى فيك قد ذرفت دما
أليس عظيماً عند كل موحِّدٍ
غزالٌ مسيحىٌّ يعذِّب مسلما

فلولا دخولُ النار بعد بصيرةٍ
عبدتُ مكان الله عيسى بن مريما

فازداد حنق الرشيد عليه فقال: « ياأمير المؤمنين! واشنع من ذلك » . قال: « هات! » فأنشده قوله فى غلام نصرانى آخر:

وملحّةٍ بالعذل ذات نصيحةٍ ترجو إنابة ذى مجونٍ مارقِ
بكرت تبصّرنى الرشاد وهمّتى غير الرشاد ومذهبى وخلائقى
فأجبتُها: « كُفّى ملامكِ إننى مختارُ دينِ أقسّةٍ وجثالق
والله لولا أننى متخوّفٌ أن أبتلى . . . . . . . . .

وقطع الانشاد . فقال له الرشيد: « بماذا ويلك! » . فاستعفاه ، فقال: « ويلك! بماذا » فقال:

. . . . . . بامام جورٍ فاسق

فضج المجلس باهله ، وانكر الرشيد نفسه ثم قال: «امض» فقال:

لتبعته فى دينه ودخلتُهُ ببصيرةٍ منى دخولَ الوامق
إنى لأعلم أن ربى لم يكن ليخصّهم إلاّ بدينٍ صادق

فقال الرشيد للفضل: « برئت من المنصور ان لم يبت هذا الكلب فى المطبق ، ولتنكرنى قولا وفعلا». وكان ابو نواس نمى اليه الخبر فساخ فى الارض . فوجه الفضل من ساعته من أخذ بأفواه السكك ، فوجد ، فأودع « المطبق» . ثم اعانه الفضل بن الربيع بعدها الى أن أطلق ، فقال فى ذلك:

الله فــــرّج لى برأ

ى «الفضل» من حلق الكبول

وأقالنى عثرت العثـــــــا

ر وقد أيست من المُقيل

والشاعر كلما تمثل ما كانت عليه حاله فى غيابة المطبق فى انتظار الموت وقد انقطع به الرجاء واستحكم اليأس ، ثم عاد الى نفسه فوجده طليقا معافى ، تملكه الشعور العميق الصادق بأن حياته دين عليه « للفضل » ، وانه أصبح ملك يمينه غير منازع وعبد معروفه :

أصبحتُ غيرَ مُدافَعٍ مَولا كا

والحظُّ لى فى أن أكون كذا كا

لله دَرِّى ! أىُّ رهنِ منيَّةٍ

بالأمس كنتُ ، وهالكٍ لولا كا

أصبحتَ معتــدًّا علىَّ بنعمةٍ

ما كان يُنعمهـــا علىَّ سوا كا

وكان خاتمة المطاف ما أبلغ الرشيد من قول شاعرنا يفتخر بقحطان التى يدعيها ، ويسب عدنان ويهجوها فى قصــيدة طويلة يقول فيها :

فافخرْ بقحطان غير مكتئبٍ فحاتمُ الجودِ من مناقبها

ولا ترى فارساً كفارسها إذ زلّت الهامُ عن منا كبها

واهجُ نزاراً وأفرِ جلدتها وهتك الستر عن مثالبها

وكانت العصبية لاتفتأ تهيج بين اليمانية والنزارية كما يعلم

قراء التاريخ العربى وكانت فى ذلك العهد تهيج بالشام خاصة، وقد بلغت فى بعض أطوارها هيجا تشيب لهوله الولدان ، وقتل فيها خلق كثير . وكان الخليفة يلاقى كل مرة عنتا فى اخمادها ، يوجه لذلك القواد والعسكر الكثيف ، وكانت مع ذلك لاتسكن حتى تعود . فلما بلغت الى سمع الخليفة قصيدة شاعرنا اشتد به الغضب . ولم يشفع للشاعر استثناؤه للنبى محمد دون سائر قريش « ذات المتاجر » فى هجائه للقبائل العدنانية ، ولا تنبيهه الى أن شطر الخليفة يمان من ناحية جدته :

أحبُّ قريشاً لحبِّ «أحمدها» واعرفُ لها الجزْلَ من مواهبها

انّ قريشاً اذا هى انتسبتْ كان لها الشطر من مناسبها

فأم مهدىِّ هاشم ـ أمّ موسى الخيـر ـ منا ، فافخر وسام بها

ان فاخرتنا فلا افتخار لها الا التجارات من مكاسبها

وانها ـ ان ذكرتَ مكرمةً ـ جاءت تجاراتها بغالبها

واذا كانت هذه الشفاعات لم تنفع الشاعر عند الخليفة، فذلك أن الأمر كان يعدو شخص الخليفة الهاشمى القرشى الى تعريض البلاد للفتن الداخلية

فأمر الخليفة بالشاعر المنكود فألقى فى غيابة « المطبق » انتظارا للموت فبقى فيه دهرا فجعل يتشفع بالوزير الفضل ابن الربيع وهو لايستطيع له شيئا . فقال متحسرا لما صار اليه ، متندما لما تورط فيه ، متسخطا على الفضل :

على مركَبى منى السلامُ ، وبزّتى
وغدواتِ لهوٍ قد فقدْنَ مكانى
فلو أن خِدْنىّ القريبيْن أبصرا
خضوعىَ للسجّان ما عرفانى

ولو بِي تراني والقيود تقودني

ومشي الى البوّاب بالنجشان (١)

لحى الله من أمسى يرشّح نصره

بفكّ إسار منه عنـــد عاني

ومالي وقحطاناً وبثّ مديحها

ونصبي لها نفسي بكل مكان

فإن أُمْسِ لا تُخشَى لسيفيَ فتكةٌ

فلا تأمنْ يا «فضلُ» فتكَ لساني

وإني لأرجو أن أراك كجعفر (٢)

ونصفاك فوق الجسر يقتسمان

وكتب الى الحسين الخادم مولى هرون متزلفا يرجو وساطته ، ويعلن لله توبته وانابته :

تلْقَى المراتبَ للحسين ذليلةً

وإذا سواه يرومها تتصعّبُ

إنّ الامام إذا اجتبـــاك لسرّه

لمُسدَّدٌ فيما أتى ومُصوّبُ

لم يَبْلُ مثلَكَ عفّةً فيما بلا

وحزامةً في كل أمر يحزُبُ

---

(١) النجش : الاسراع ، والمبالغة في الثمن بقصد التغرير وايقاع الغير

(٢) هو جعفر البرمكي الوزير وقد قتله الرشيد وصلبه ببغداد فجعل نصف جثته على الجسر الاعلى ونصفها على الجسر الاسفل ونصب راسه على الجسر الاوسط

وخلطتَ خوفَكَ الإله بخوفه
فعلمتَ ما تأتى وما تتجنّب

أبلغْ ـ هُديتَ ـ إلى الامام رسالةً
عنى بأنى بعدها أستعتب

وشهادتى أنى حليفُ عبادةٍ
فابلوا على الأيام ذاك وجرِّبوا

وكتب الى عبيد الخادم مولى الملكة زبيده :

جعلتُ عُبَيْداً دون ما أنا خائفٌ
وصيّرته بينى وبين يد الدهر

أشار اليه الناسُ من كل جانبٍ
وقالوا أبوعمرو لها وأبوعمرو

ثم التجأ الى الأمير الحسين بن عيسى بن ابى جعفر المنصور مستغيثا مستصرخا :

رَفَعَ الصوتَ فنادَى يا أبا عيسى الجوادا
كُنْ عماداً ـ يا ابنَ مَن كا ن غِياثاً وعمادا
وتداركْ جسداً قد مات أو قد قيل كادا
قُلْ له إن قال « هل تا ب ؟ » « نعم تاب، وزادا »
واضمن التوبة عَمَّنْ كلما أطراك عادا

ولما أعيته الحيلة ولم تنفع الشفاعة ، توجه الى الخليفة نفسه ضارعا مستغفرا ذاكرا محامده معددا مآثره :

بعفوك ـ لا بجودك ـ عذتُ لا بل
بفضلك يا أمير المؤمنينا
فلا يتمذّرنّ عليّ عفوٌ
وسعتَ به جميعَ العالمينا
فإنى لم أخنك بظهر عيبٍ
ولا حدّثتُ نفسى أن أخونا
براك الله للإسلام عزّا
وحصناً دون بيضته حصينا
فشفّعْ حسنَ وجهك فى أسيرٍ
يدين بحبك الرحمنَ دينا
اذا ما الهولُ حلّ بدار قومٍ
فليس لجار مثلك أن يهونا

ولكن الخليفة كان فى شغل عنه بتوجيه قواده هنا وهناك لمداركة الفتوق قبل اتساعها فى أطراف ملكه . ولقد شخص بنفسه مع اشتداد العلة عليه لحرب رافع بن ليث الثائر فى خراسان مصطحبا معه المأمون الذى جعلت له الولاية عليها ، وقد استخلف ابنه القاسم الملقب بالمؤتمن على الرقة وكان الخليفة قد اتخذها مقرا له ونقل اليها خزائنه فى ذلك الحين ، واستخلف على بغداد عاصمة الخلافة ولى عهده والخليفة من بعده محمدا الامين .

# نديم الأمين

كان محمد الأمين ببغداد ، حين ورد من صاحب البريد خبر وفاة والده العظيم هارون الرشيد فى غرة جمادى الأولى سنة ١٩٣ ، فى قرية بالقرب من طوس ، بعلة فى حشاه كانت لاتزال تعاوده وهو يغالبها ويكتمها الناس كلهم . وتسلم الخليفة الجديد الخاتم والقضيب والبردة ، وتحول من قصر الخلد وكان نازلا فيه الى قصر الخلافة بالمدينة وهو قصر ابى جعفر . وأمر الناس بالحضور يوم الجمعة ، فحضروا فصلى بهم والقى الخطبة التقليدية ، وتقبل البيعة من جلة اهل بيته والقواد ورجال الدولة . وتقبل عبد الله المأمون البيعة من الخراسانيين لأخيه ، ثم لنفسه من بعده ، وأقام على ما كان يتولى من عمل خراسان ، وتواترت كتبه الى الخليفة بالتعظيم والهدايا اليه من طرف تلك البلاد من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . وشخصت السيدة زبيدة من الرقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغيرها الى بغداد ، فتلقاها ابنها الأمين خارج المدينة فى جميع من كان بالحضرة من الوجوه ، وأنزلها معه فى قصر الخلافة

## الوزير الفضل بن الربيع

وكان الوزير الفضل بن الربيع مع الرشيد بطوس ، فلما مات الخليفة جمع الفضل جميع ما فى المعسكر مما أوصى به الخليفة الراحل للمأمون ، وانصرف بذلك كله الى بغدادوهو

يقول : « لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يدرى ما يكون من أمره » . وأغرى القواد والجند بالرحيل واللحاق بالأمين ، ففعل أكثرهم محبة منهم باللحوق بأهلهم ومنازلهم . فلما وافى الفضل بغداد عرف له الخليفة الجديد ما قدمه فاستوزره

## ثقافة الأمين

وكان الأمين قد تلقى فى صباه على الكسائى وعلى ابن المبارك الأحمر وغيرهما من المؤدبين ما يتلقاه أبناء الخلفاء من فنون العلم والأدب وقتئذ ، فأقرأوه القرآن ، وعرفوه الآثار ، وعلموه السنن ، ورووه الأشعار وبصروه بمواقع الكلم وبدئه ، مع ما يجب على الخليفة العباسى من تعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، وما الى ذلك مما يكون فيه صلاح أمره واستيثاق ملكه فى مستقبل عمره . وكان الأمين حسن الوجه ، تام القامة ، أبيض مسمنا ، صغير العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، شديدا فى بدنه . وكانت طبيعة اللهو هى الغالبة عليه ، فلم يغن فى ذلك حفاوة والده بأمر تنشئته وتعهد المؤدبين له بالتفقيه والتثقيف ، وظل على ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركته النساء والاماء فى رأيه . ولولا منزلة أمه زبيدة من هارون ، وميل بنى هاشم بأهوائهم اليه تعصبا لولد الهاشمية على ولد الفارسية ، لما جعل هارون ولاية العهد له قبل أخيه الأكبر المأمون

## الخليفة يلهو

فلما أن أفضت اليه الخلافة ، أصبح صبيحة السبت — أى بعد البيعة له فى بغداد بيوم — فأمر ببناء ميدان حول قصر الخلافة فى المدينة للصوالجة واللعب . ولما أن جاءت الكتب من خراسان وسائر الأطراف بالبيعة ، واستتبت له الأمور

واطمأن باله من ناحية الملك ، وجه فى طلب الملهين وضمهم اليه واجرى لهم الأرزاق ، وطلب الخصيان وابتاعهم وغالى بهم ، ورفض النساء الحرائر والاماء حتى رمى بهن ، وصير الخصيان لخلوته فى ليله ونهـاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضا سماهم الجرادية ، وفرضا من الحبشان سماهم الغرابية ، وكان يقضى أوقات لهوه وفراغه مع هؤلاء الخصيان فى المنادمة والشرب . وفى ذلك قال بعض الشعراء :

لهم من عمره شطرٌ وشطرٌ ... يعاقر فيه شرب ابنة الخندريس

وما للغانيـــات لديه حظٌّ ... سوى التقطيب بالوجه العبوس

إذا كان الرئيس كذا سقيما ... فكيف صلاحُنا بعد الرئيس

فلو علم المقيم بدار طوس [1] ... لعزَّ على المقيم بدار طوس

## تقريب الأمين لأبى نواس

وبديهى ، وقد جلس الخليفة هذا المجلس للشراب بين الندمان والخصيان ان يجرى فى الجماعة ذكر المجون والمجان ، وان تروى ــ فيما هم بسبيله ــ طرائف النوادر والأخبار ، وتنشد لطائف الأشعار . ولا نزاع فى ان النواسى كان اشهر خلعاء ذلك الزمان وأجراهم شعرا على كل لسان ، فلا جرم يتردد فى المجلس اسمه ويستعاد شعره . والخليفة لا شك عندئذ ذاكره ، فقد دخل عليه مع الكسائى فى بعض درسه ، وكان يغشى حضرته ويشترك فى منادمته ايام امارته . فلما أن سأل الخليفة عنه ، قيل له : « محبوس لما يزل فى المطبق » فقال : « ليس عليه بأس » . ومضى اسحق بن فراشــة وسعيد بن جابر أخو الخليفة فى الرضاعة الى ابى نواس فى

---

(١) يريد الرشيد لدفنه بطوس

محبسه فقالا له يطمئنانه : « ان أمير المؤمنين ذكرك البارحة فقال ليس عليه بأس » . فنظم الشاعر أبياتا بعث بها اليه يصف حاله ويمدحه ويستعطفه :

أرقتُ وطار عن عيني النعاسُ ونام السامرون ولم يؤاسوا

أمينَ الله ، قد مُلِّكْتَ مُلْكاً عليك من التقى فيه لباس

ووجهك يستهل ندًى فيحيا به في كل ناحية أناس

كأن الخلق في تمثالِ روحٍ له جسد ، وأنت عليه راسُ

أمينَ الله . إن السجن بأسٌ وقد أرسلتَ ليس عليك باس

فلما أنشدت الأبيات للخليفة في مجلسه بالعشية قال : « صدق ، على به » فجيء به في الليل فكسرت قيوده وأخرج حتى أدخل عليه ، فأنشأ يقول وهو ماثل بين يديه :

مرحباً مرحباً بخير إمامٍ صِيغَ من جوهر الخلافة نَحْتا

يا أمين الاله يكلؤك اللـ ـه مقيماً وظاعناً أين سرنا

إنما الأرض كلها لك دارٌ فلك الله صاحبٌ حيث كنتا

وسر الأمين به وخلع عليه وجعله من ندمائه

ومما يجب ذكره لأبى نواس شاهدا على طيب نفسه ، وسلامة صدره من الضغن الذى يعمى ويصم ، وارتفاعه بحكمه عن الهوى ، أنه لم يغير رأيه في الرشيد بعد موته ، ولم يخل من حزن عليه مع حبسه اياه ، ولم يجحد احسانا أسلفه اليه وأسداه . فنراه لا ينسى وهو يهنىء الخليفة الجديد ويظهر سروره به أن يبكى الخليفة الراحل ويذرى عليه دمعه :

جَرَتْ جوارٍ بالسعد والنحس

فنحن في مأتم وفى عُرْسِ

القلب يبكى ، والسنُّ ضاحكة ،

فنحن في وَحشة وفي أنس

يُضحكنا القائمُ الأمينُ ، ويُبْ

كينـــا وفاةُ الامام بالأمس

بَدْران ، بدرٌ اضحَى ببغداد بال

خُلْد ، وبدرٌ بطوس في رمس[1]

وقد عاد ثانية الى رثائه في قوله :

الناس ما بين مسرورٍ ومحزونِ

وذي سقامٍ بكفِّ الموتِ مرهونِ

مَن ذا يُسَرُّ بدنياه وبهجتِها

بعد الخليفةِ ذي التوفيق هارونِ

كما قال يعزى الوزير الخطير الفضل بن الربيع ، عن موت مولاه القديم بحياة مولاه الخليفة الجديد :

تعزَّ أبا العبـــاس عن خير هالكٍ

بأكرم حيٍّ كان أو هو كائنُ

حوادثُ أيامٍ تدور صروفُهــا

لهنَّ مَساوٍ مرةً ومحاسنُ

وَفي الحيُّ بالميت الذى غَيَّبَ الثرى ،

فلا أنت مغبونٌ ولا أنت غابن

---

(١) تنسب كذلك الى الشاعر أبى الشيص

## احتجاب الخليفة للهو

وكان الفضل ينزل فى بغداد فى الشارع الأعظم بازاء درب السقائين ، وقد صارت الامور كلها اليه وفوض اليه الخليفة ما وراء بابه ، فهو الذى يولى ويعزل ويحل ويعقد عنه . واحتجب الأمين ، وفى ذلك يقول شاعرنا يمتدح الفضل :

لعمرُك ما غاب ( الأمين محمدٌ )
عن الأمر يعنيه إذا شهد ( الفضلُ )
ولولا مواريث الخلافة أنهــــا
له دُونه ما كان بينهما فضــل
لئن كانت الأجسادُ فيهــا تباينت
فقولهما قولٌ وفعلهما فعــــــل
أرى ( الفضل ) للدنيا وللدين جامعاً
كما السهم فيه الريشُ والفُـوق والنصل

وذهب الأمين فى الاحتجاب حتى عن اخوته وأهل بيتــه وقواده واستخف بهم ، وامر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبــدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبــار وغيرها ، ونافس فى ابتياع فره الدواب وأخــذ الوحوش والسباع والطير . وحمل اليه ما كان فى الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وانقطع عن تدبير المملكة مشتغلا عنهــا باللهو واللعب ومعاشرة المجان ، وقسم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر فى جلسائه ومحدثيه وخصيانه على الخصوص ، حتى قال فى ذلك أبو نواس :

احمدوا الله كثيرا يا جميعَ المسلمينا
ثم قولوا ، لا تملوا «ربَّنا أبقِ الأمينا !»
صدَّر الخصيانَ حتى جعل التعنين دينا
فاقتدى الناسُ جميعاً بأمير المؤمنينـــا

## الغلاميات

ولما رات الملكة الوالدة زبيدة ما كان من تقديم ولدها أمير المؤمنين للخصيان ورفعه منازلهم مثل كوثر وغيره من خدمه وشدة شغفه واشتغاله بهم ، أرادت صرفه عن ذلك فاتخذت الجوارى المقـدودات الحسان الوجوه ، وعممت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، فماست قدودهن وبرزت أردافهن . ثم بعثت بهن اليه ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس فى مجالسه . فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وامتلأت بغـداد بهؤلاء الفتيـات اللواتى كانوا يسمونهن « الغلاميات »

## مجالس الغناء

وكان للأمين كأبيـه الرشيد تولع بالغناء ، مع الفارق فى وقار الوالد ونزق ولده . وكان يهيأ له فى قصر الخلد مجالس غناء يتغنى فيها ، فيرفع له دكان عال يفرش له ويبسط عليه بساط زرعى ، وتطرح عليه نمارق وفرش فى لون البساط ، ويصفف له من آنية الفضة والذهب والجوهر أمر عظيم . وتكون قيمة جواريه قد هيأت له مائة جارية صانعـة : فيصعدن اليه عشرا عشرا بأيديهن العيدان يعزفن عليها وهن صاعدات اليه ، وحين يستوين على الدكان يندفعن فى غناء

لحن من اللحون بصوت واحد ، ثم ينزلن ويتقدم عشر غيرهن، وهكذا دواليك فى جو فاتن ساحر بما يتمايل فيه من القدود المليحة وما يتجاوب به من اللحون الفصيحة

وكان يجزل العطاء لأساطين الغناء فى عهده أمثال اسحق الموصلى ومخارق وعلوية وغيرهم ، حتى ليروى أنه استقدم ابراهيم بن المهدى عمه فانحدر اليه فى زورق الى قصره ، وغناه صوتا طرب له الأمين فأمر أن يوقروا له زورقه ذهبا

وكان ابراهيم بن المهدى (١) يغنى الأمين احيانا بشعر أبى نواس فى مدحه كقوله :

يا كثيرَ النوحِ فى الدِّمَنِ ... لا عليها ، بل على السَّكَنِ
رشأٌ لولا ملاحتُـــهُ ... خَلَتِ الدنيا من الفِتَنِ
كلَّ يومٍ يسترقُّ له ... حسنُه عبداً بلا ثمنِ
يا أمينَ اللهِ عِشْ أبداً ... دُمْ على الأيام والزمنِ

ولقد استخف الطرب الأمين حتى قام من مجلســه ، واكب على عمه يقبل راسه . فقام ابراهيم من مجلسه يقبل أسفل رجليه ، وما وطئتا من البساط . فأمر الخليفــة له بثلاثة آلاف درهم . فقال ابراهيم : « يا سيدى قد أجزتنى الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم » . فقال الأمين : « وهل هى الا خراج بعض الكور ؟ ! »

## حفلات الرقص

كذلك استحدث الأمين حفلات للرقص كان يديرها بنفسه فى أبهاء القصر الملكى ، فاذا الصحن مملوء شمعا من الشمع الكبار وكأن الصحن من ذلك فى نهــار ، واذا الدار مملوءة غلمانا ووصــائف بحــلل الوشى والجوهر ، واذا الجوارى

---

(١) ورد فى العقد أنه ابراهيم الموصلى ، ويمنع من ذلك وفاته قبل خلافة الأمين

والمخنثون يزمرون ويضربون ، والقيان يغنين على الطبول والسرنايات ، والجميع فى شيء واحد ، ومحمـد فى وسطهم يرتكض رقصا . ولقـد شهد مخارق وابراهيم بن المهـدى احدى هذه الحفلات ، وكان الخليفة وجه من جاء بهما ركضا ، وقد جاء فى وصفهما لما مر بهما تلك الليلة ، انهما لم يبلغا القصر حتى جاءهما رسول الخليفة فقال : « قوما فى هـذا الباب مما يلى الصحن ، فارفعا أصواتكما مع السرناى اين بلغ ، واياكما أن أسمع فى أصواتكما تقصيرا عنه » . فأصغيا للغناء المردد :

هذى «دنانيرُ» تنساني وأذكرها

وكيف تنسى محبًّا ليس ينساها

والله،والله، لوكانت ـ إذابرزتْ ـ

نفسُ التيم فى كفّيه ألقاها

فانطلقا يشاركان ، وما زالا يشقان حلقهما مع السرناى ، ويتبعانه حذرا من أن يخرجا عن طبقتـه أو يقصرا عنـه . والخليفة الأمين يجول فى الكرج ما يسأمه ، يدنو اليهما مرة فى جولانه ، ويتباعد مرة ، ويحول الجوارى بينهما وبينه ، حتى الغداة

## مجالس الشراب

وكان محمد الأمين شديد المحبة للشراب قوى الاحتمال له ، يجد بندمائه فى الشرب ويسقيهم معظم الليـل وعلى الريق . وكان اذا انتشى صاح فى ندمائه « من منكم يكون حمارى » فكل واحد يقول « أنا » لأنه كان يركب الواحـد منهم عبثا ثم يصله . ولم يكن لأحد غلبة عليه فى الشرب غير ابى نواس .

## ابو نواس شاعر البلاط

ولقد أنشد ابو نواس الخليفة بوصفه شاعر البلاط قصائد عدة في مدحه . ولكن القارىء لها لا يلمس فيها من صدق الاعجاب بالممدوح ما يلمسه في هذه القصيدة التي قالها للأمين كما يقول النديم للنديم :

ونَدْمانٍ يرى غبناً عليه
بأن يُمسي وليس له انتشاءُ

إذا ناديتَه من نوم سكرٍ
كفاه مرةً منكَ النداء

فليس بقائلٍ لك « إيه ، دَعْني »
ولا مستخبرٍ لكَ « ما تشاء ؟ »

ولكن « ياا سْقني » ويقول أيضاً
« عليك الصَّرفَ إن أعياك ماءُ »

وذاك محمدٌ تفديه نفسي
وحقَّ له وقلَّ له الفداء

وقد اجازه الأمين عليها بكل بيت الف درهم

وكان ابو نواس في بعض الأحيان لا يتورع حتى في مدائحه الرسمية للخليفة الشاب ان يشير الى منادمته له وشربه معه . من ذلك قصيدته الاولى في مديحه وهي المطولة المشهورة التي مطلعها :

يا دارُ ، ما فعلتْ بكِ الأيامُ ضامتكِ ، والأيام ليس تُضامُ

وهو مطلع في وصف الرسوم والديار تجيء بعده أبيات

فى طى الفيافى وتجشم الأسفار من أجل الممدوح جريا على المذهب التقليدى . ولكن الشاعر النديم لا يلبث أن تغلب عليه نزعته فيجرى على طبعه ويخلص الى طريقته :

ملكٌ أغرُّ إذاشربتَ بوجهه ... لم يَعْدُكَ التبجيل والاعظامُ

فالبَهْوُ مشتملٌ ببدر خلافةٍ ... لَبِسَ الشبابَ بنورِ الاسلام

إن الذى يرضى الاله بهديه ... ملكٌ تردَّى الملكَ وهو غلام

## اشتغال الخليفة عن شئون الدولة

وليس أكثر مما يروونه من استغراق الخليفة محمد الأمين فى اللهو والشرب ، واظهاره الاهمال لشؤون الملك ، حتى كانت تمر السنة لا يفرغ فيها ساعة للنظر فى أخص الامور ، كأعمال الخراج والضياع ومتصرفات الحكام . دخل عليه يوما اسماعيل بن صبيح كاتبه فاذا هو عازم على الاصطباح ، وقد أحضر الندماء والمغنين وصفت الموائد ، واقبل الخليفة على مائدته وابتدأ . فقال اسماعيل بن صبيح : « يا أمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذى وعدتنى فيه أن تنظر فى أعمال الخراج والضياع وجماعات العمال ، وقد اجتمعت على أعمال منذ سنة لم تنظر فى شىء منها ، ولم تأمر فيها ، وفى هذا دخول خلل فى الاعمال » . فقال له محمد : « ان اصطباحى لا يحول بينى وبين النظر ، وفى مجلسى من لا انقبض عنه ، من عمى وبنى عمى وأخوتى ، وهم أهل هذه النعمة التى تجب أن تحاط ، فأحضر ما تريد عرضه ، فاعرضه على وأنا آكل ، لاتقدم اليك فيه بما تحتاج اليه ، الى أن يرفع الطعام ثم أتم النظر فيما يبقى ، ولا أسمع سماعا أو ابرم الباقى وأفرغ منه . فحضر كتاب الدواوين بأكثر ما فى دواوينهم ، وأقبل اسماعيل بن صبيح يقرأ عليهم ومحمد يأمر وينهى بأحسن أمر ونهى وأشده ، وربما شاور من حوله

فى الشيء بعد الشيء ، وكلما وقع فى شيء وضع بالقرب من اسماعيل بن صبيح . ورفعت الموائد ، ودعا بالنبيذ ، وكان لا يشرب فى القدح أقل من رطل واحد فى تتميم العمل ، ثم دعا بخادم له ، فناجاه بشيء أسره اليه ، فمضى ثم عاد ، فلما رآه نهض واستنهض سليم بن على وابراهيم بن المهدى ، فما مشوا عشر اذرع ، حتى أقبـل جماعة من النفاطين ، فضربوا تلك الكتب والاعمال بالنار ، وكان الفضل بن الربيع حاضرا . فلحق محمدا وقد شق ثوبه وهو يقول: « الله الله اعدل من أن يرضى ذلك » ومحمد يضحك

## وقوع الخلف بين الامين والمأمون

وكان الوزير الفضل بن الربيع تساوره المخاوف ، ان وافى الامين اجله وولى الخلافة المأمون أن يجزيه شرا بفعلته . فجعل يزين للأمين صرف ولاية العهد من بعده الى ابنـه موسى ، وهو يومئذ طفل صغير لايعرف حسنا ولا يعقل قبيحا ، ولا يخلو من الحاجة الى من يخدمه فى ليله ونهاره ويقظته ومنامه وقعوده وقيامه . ومن ثمة وقع الخلف بين الامين والمأمون ومكر كل واحد منهما بصاحبه ، واستشرى الفساد واشتدت العداوة بين الاخوين . فقطعت الدروب من بغداد الى خراسان وفتشت الكتب وصعب الامر . وفى شهر ربيع الاول عام ١٩٤ عقد الخليفة لابنه « موسى » على جميع ما استخلف عليه واسقط اسم المأمون من الخطبة فى بغداد وقبض على وكلائه . وكذلك فعل المأمون بخراسان. ونما الشر بينهما . وبقدر ما كان عند المأمون من التيقظ والضبط كان ما عند الامين من الاهمال والتفريط والغفول. وسارت الركبان بغدر محمد الامين بأخيه وقبح سيرته ، مع حسن سيرة المـأمون وما كان يظهره من الورع والدين . فاستوحش الناس من الامين وانحرفوا عنه . وفى سـنة ١٩٥ جهز الخليفة على بن عيسى بن ماهان ومعه عسكر كثيف

وسلاح كثير وأموال وافرة . وخرج معه الخليفة مشيعا مودعا. ثم تشاغل بعدها بلهوه وبطالته وتخلى عن كل تدبير للقائد والوزير . وشخص على بن عيسى الى حرب المامون فلاقاه قائده طاهر بن الحسين ظاهرمدينة الرى ، فاقتتلوا قتالا شديدا كانت الغلبة فيه لطاهر وقتل على بن عيسى

## اللهو والخمر فى ابان الخطر

وكان ذلك جميعه ، والامين فى غفلة سادر فى لذته ، منهمك فى لعبه متفرغ لصيده ونزهته . حتى ليروى انه حين ورد نعى على قائده ، كان فى وقته ذلك على شط دجلة يصيد السمك . فقال للذى أخبره : « ويلك ! دعنى ، فان كوثرا قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئا بعد » . على ان الامين لم يلبث أن افاق للخطر ، لما شاع الخبر بان المامون اعلن خلعه بعد ان اتاه كتاب قائده بالعز والنصر ، ودعا بالخلافة لنفسه فى جميع كور خراسان ومايليها ، فجعل الامين يتابع ارسال الجيوش والقواد واصطنع فى اموره شيئا من الجد

وجعل الامين يحمل على نفسه فيخرج لقواده وجنده وعامة رعيته بين الفينة والفينة ، وقد ساءت ظنونهم وكبر عندهم ما يرونه من احتجابه عنهم ، فكان يجلس لهم بعض الاحيان ساعة من نهار ، وبين يديه الفضل بن الربيع وزيره واسماعيل بن صبيح كاتب سره ، ليكون ذلك تسكينا لهم ومراجعة لآمالهم . وكان اذا جلس فى مجلسه هذا أذن للناس عامة ، فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا والشعراء فأنشدوا . بيد انه لم يكن أحد منهم يتعدى الى الاطناب والتطويل الا أمر بالسكوت ومنع من القول . وفى هذه المناسبات أنشد أبو نواس مدائحه القصار فى الخليفة الامين ، نذكر منها قوله :

ألا يا خيرَ مَنْ رأت العيونُ نظيرُك لا يُحَسُّ ولا يكونُ

فأنت نسيجُ وحدِك لا شبيهٌ | نحاشيه عليك ولا خدين
خُلِقتَ بلا مشاكلةٍ لشيءٍ | فأنتَ الفوقُ ، والثقلان دون
كأن المُلْك لم يك قبلُ شيئاً | إلى أن قام بالملك الأمين

## النزهة على الحراقات فى دجلة

وكان الخليفة قد أمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة « الاسد » و « الفيل » و « العقاب » و « الحيــة » و « الفرس » ، وأنفق فى عملها مالا عظيما ، وقد اتخذها للنزهة . وكان اذا خرج لركوبها اصطفت له الخيل وعليها الرجال على شاطىء دجلة ، وحملت معه المطابخ والخزائن . وفى مرة من هذه المرات كان ركوبه الى الشماسية فى الحراقة التى على مثال الاسد . فما رأى الناس منظرا ولا مسيرا كان أبهى وأحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه فقال :

سخّر اللّه للأمين مطايا | لم تُسخَّرْ لصاحب المحرابِ
فاذا ما ركابُه سِرْن بحراً | سار فى الماء راكباً لَيْثَ غاب
أسداً باسطاً ذراعيْه يعدو | أهرتَ الشِّدْق كالحَ الأنياب
لا يعانيه باللِّجام ولا السَّو | ط ولا غَمْزِ رجله فى الرِّكاب
عجِبَ الناسُ إذ رأوك على صُو | رة ليثٍ تمرُّ مرَّ السحاب
سبّحوا إذ رأوك سِرْتَ عليه | كيف لو أبصروك فوق العُقاب
ذاتِ زَوْرٍ ومِنْسَرٍ وجناحـ | ين تشقُّ العُبابَ بعد العُباب
تسبق الطَّيْر فى السماء إذا ما اســـتعجلوها بجَيْئةٍ وذهابِ
بارك اللّه للأمين وأبقا | هُ وأبقى له رداءَ الشباب

ولابى نواس غير هذه قصيدة أخرى فى حراقة على مثال الدلفين ، مطلعها :

قد ركب الدلفينَ بدرُ الدجى     مقتحماً فى الماء قد لججا

## ضيق الأمين بسوء سمعة شاعره

ولما كان ابو نواس فى مجاهرته بالمعاصى وتهتكه فى السكر قد شاعت له سمعة قبيحة ، واشتهر بشهرة فاضحة ، فقد اشفق ابراهيم بن المهدى من حرج ذلك على الأمين فى وقت هو أحوج مايكون فيه الى أهل الجد والرأى للخلاف الذى كان قائما بينه وبين المأمون . فلم يتمالك أن دخل على الامين وقال له : « ما رايت كالذى ظهرت به من التهتك وخلع العذار وتخلية نفسك وهواك ، حتى لقد نادمت أبا نواس وهو خليع الفكر مشهور بالمجون والتهتك » . فنظر اليه نظرة منكرة ، وقال : « الساعة ترى ، هاتوا أبا نواس » . فلما جاء سلم وجلس ناحية . فقال الخليفة : « ههنا » ، فأدناه حتى حكت ركبته ركبته . واقبل ابونواس ينشده ويحادثه ، فيفكه به وينبذه له من كل ضرب . ثم قام الشاعر لبعض حوائجه ، فاقبل الخليفة على عمه وقال : « يا ابراهيم ! من يصبر عن مثل هذا ، ولا يحتمل فيه كل شىء ، والله ، ان هذا يحسن منه كل ما يأتى به » . ويعترف ابراهيم بن المهدى أن الذى قاله الامين حق ، وانه ما راى فى الدنيا مثله

ولقد وجد دعاة المأمون فى منادمته للأمين واختصاصه به وجها من أوجه الحيلة للزراية على خليفة بغداد والعيب عليه باحتماله اياه . فكان وزير المأمون الفضل بن سهل ذو الرياستين يخطب بمساوىء الامين ويحرض الناس على قتاله ، وقد اعد رجلا يحفظ شعر أبى نواس فيقول : « ومن جلساء محمد الامين رجل ماجن كافر مستهزىء يقول كذا وكذا » وينشد قوله :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهرُ

وينشد قوله :

يا أحمدُ المرتجى في كل نائبةٍ

قُمْ سيدي نَعْصِ جبّارَ السموات

وغير ذلك من قبائح شعره ومجونه . ويذكر أهل العراق فيقول : « أهل فسق وفجور ، وخمور وماخور » . فيلعنهم من يحضر المجلس من اهل خراسان . فكتب عيون محمد الامين اليه بذلك ، فجزع لذلك وأراد التنصل من التبعة واسقاط الحجة ، بأن يظهر غضبه على الشاعر وينزل به نقمته . وكان قد اتصل به عنه أبيات أحفظته عليه ، منها قوله وهو سكران يشير الى ما أدى اليه الخلف بعد وفاة هرون الرشيد :

إسقنيها يا ذفافَهْ مُرَّةَ الطعم سُلافه

هاتها جهراً ودعني من أحاديث خرافه

ذَلَّ عندي مَن جفاها لرجاءٍ ومخافه

مثلَ مادلّتْ وضاعتْ بعدهارون الخلافه

ومنها قوله مفاخرا وهو بحال من العسر والحاجة :

وقد زادني تيهاً على الناس أنني

أراني أغناهُمْ وإن كنتُ ذا عُسْرِ

ولو لم أنلْ فضلاً ، لكانت صيانتي

فمي عن جميع الناس حسْبي من الفخر

ولا يطمعنْ في ذاك منّيَ طامعٌ

ولا صاحبُ التاج المحجّب في القصرِ

فبعث الامين باحضاره ، وعنده أعدى أعدائه سليمان بن جعفر بن أبى جعفر المنصور . فلما احضر الشاعر ومثل بين يدى الخليفة بادره : « يابن اللخناء العاهرة » وشتمه أقبح الشتم . وقال : « أنت تتكسب بشعرك أوساخ ايدى جميع الناس ، ثم تقول : « ولا صاحب التاج المحجب فى القصر » . أما والله لا نلت منى شيئا أبدا »

وطرده من حضرته ، وكاد ينتهى الأمر عند هذا الحد

ولكن الحزازة التى كانت بنفس الامير الهاشمى على الشاعر ما كانت لتجد فى ذلك شفاءها . فأقبل الامير على الخليفة كالمنكر ورفع اليه ان أبا نواس هجاه ولم يكف عن النيل منه ، ثم زاد : « وأنه زنديق كافر حلال دمه » وانشده من أشعاره المنكرة أبياتا . فأطرق الامين لحظة ثم قال متلطفا : « ياعم اقتله بعد قوله فى مدحى :

| | |
|---|---|
| صَدَق الثناء على الأمين محمد | ومن الثناء تكذُّبٌ وتخرُّص |
| قد يَنقص القمرُ المنير اذا استوَى | وبهاء وجه محمدٍ لا ينقص |
| واذا بنو العباس عُدَّ حصاهم | فمحمدٌ ياقوتها المستخلص |

ومضى الخليفة يتبع المقطوعة اخرى ثم أخرى وهو يردد « يا عم أأقتله بعد قوله ... » : « ياعم ! فكيف أعمل بقوله ... »

فغضب سليمان وقال : « والله لو شكوت من عبد الله — يعنى ابن الامين — ما شكوت من هذا الكافر ، لوجب أن تعاقبه . فكيف منه ؟ ! » . وانقطع سليمان عن الركوب اليه حتى خشى الامين أن يؤدى ذلك الى تغير الكثيرين من امراء بنى هاشم عليه ، وهو فيما هو فيه من خلاف مع أخيه المأمون . فوجه الى وزيره الفضل بن الربيع وامره بحبس أبى نواس فى المطبق مع الزنادقة

## فى المطبق مع الزنادقة

وقد حكى صاحب الشرطة انه لما حبس ابو نواس ، كان اكثر من يزوره فىحبسه المرد والشبان والخمارين، وأصحاب الريبة ، ويقول صاحب الشرطة انه عرف منهم وقتئذ من لم يكن عرفه من قبل ذلك فجعل عليهم الضرائب ، ثم فقد ذلك لما اطلق الشاعر لتفرقهم

ولما كانت الفرصة مواتية لكل مضطغن على ابى نواس ، موتور بهجائه ، أن يسعى به لدىالسلطان ويرميه بالحق أو بالباطل باحدى موجبات الحدود ، فقد كثر ما كان يرفع الى الامين من الاتهامات ، ينسبون فيها الزندقة والكفر الى الشاعر فجعل الخليفة أمر ذلك الى وزيره الفضل بن الربيع وكان واجدا عليه . فأتى بالشاعر وقال له : « رفع الى امير المؤمنين انك زنديق » فجعل يبرأ من ذلك ، ويحلف . وجعل الفضل يكرر عليه ، ثم أعاده الى الحبس

## استحكام اليأس بين جدران الحبس

وبقى ابو نواس فى المطبق دهرا وهو يترقب الموت بين لحظة وأخرى وقد تخلى عنه اصدقاؤه وثقاته ، وذلك حيث يقول :

أخـــــلائى أذمكم إليكم ... وكنت عدحكم قمناً خليقـا
إذا استبطأتـُكم عنـّفـْتمونى ... وقلتـُم: إنّ فيه لذاك ضيقـا
فأقسم لو تكونون الأسارى ... وكنت أنا المخلـّى والطليقا
إذاً لجهدت فوق الجهد حتى ... أطيقَ خلاصَكم أوْ لا أطيقا
فلا ـ والله ـ أذْخركم هجاءً ... وشتماً ـ ما بقيتُ ـ ولا عقوقا

وطال حبس ابى نواس فى المطبق ، حتى يئس من عفو الأمين ،

ولم تبق له بارقة أمل فى الخلاص الا بدخول المأمون . وذلك فى قوله :

يارب إن القوم قد ظلمونى
وبلا اقتراف معطل حبسونى
والى الجحود بما عليه طويتي
بالزور والبهتان قد نسبونى
ما كان إلا الجرىُ فى ميدانهم
فى كل خزى ، والمجانة دينى
لا العذر يُقبَل لى ، ويَفرَق شاهدى
منهم ، ولا يرضون حلف يمينى
أما الأمين فلست أرجو دفعَه
عنى ، فمَنْ لى اليومَ بالمأمون !

## شعاع من الأمل

وكان للفضل بن الربيع خال يعرض أهل السجون ويتفقدهم ويتعهدهم ، فدخل الى حبس الزنادقة الذى فيه أبو نواس ، ولم يكن يعرفه ، فقال له : « يا هذا انت مع الزنادقة ؟ » فقال له أبو نواس « معاذ الله » فقال له « فلعلك ممن يعبد الكبش ؟ » فقال له « أنا آكل الكبش بصوفه » فقال له « فلعلك تعبد الشمس ؟ » فقال له « انى لأتجنب القعود فيها بغضا لها » ، فجاء الى الفضل فقال له « يا هذا لا تحسنون جوار نعم الله بحبس الناس بغير جرم » فقال الفضل : « وما ذاك ؟ » فخبره الخبر ، فضحك منه ، ودخل على الخليفة فاخبره وشفع اليه فيه

## الافراج عن أبى نواس

وكان الأمير فى غير حاجة الى اللجاجة فى التشفع لشاعره ، بعد أن بلغته منه أبيات قالها فى استعطافه :

تذكرْ أمين الله ، والعهد يذكرُ
مقامى ، وإنشاديك والناس حُضَّرُ

ونثرى عليك الدرَّ يا درَّ هاشم !
فيامن رأى درًّا على الدر ينثر

أبوك الذى لم يملك الأرضَ مثلُه
وعمُّك موسى الصفوةُ المتخيَّر

وجدُّك مهديُّ الهدى ، وشقيقُه
أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفر

ومَن مثل منصوريْك : منصورِ هاشم
ومنصورِ قحطان إذا عُدَّ مفخر

فمن ذا الذى يرمى بسهميْك فى العلا
وعبدُ منافٍ والداك وحمْيَر

تحسنت الدنيا بوجهِ خليفةٍ
هو البدرُ إلاّ أنه الدهرَ مقمر

أيا خيرَ مأمولٍ يُرجَّى : أنا امرؤ ،
أسيرٌ رهينٌ فى سجونك مقبر .

مضت لي شهورٌ، مُذْ حبستُ، ثلاثةٌ
كأني قد أذنبت ماليس يُغفر
فان كنتُ لم أذْنب ، ففيم حبستني ؟
وإن كنتُ ذا ذنب فعفوك أكبر

فلا غرو اذا رأينا الخليفة الأمين يهش لما تقدم به الوزير من شفاعة فى الشاعر السجين ، حتى لم يتمالك أن قال « أخرجوه وأجيزوه ولو غضب ولد المنصور كلهم »

على أن الفضل بن الربيع رأى مع ذلك تدبير الأمر بما فيه مصلحة الدولة وحسن الدعاية للخليفة . فدعا بالشاعر فى حضرة الخليفة ، وحوله بنو هاشم وغيرهم ، وكان قد دعا بالنطع والسيف تهديدا له بالقتل . وأمر باستحلافه وأخذ العهد عليه أن يجتنب الخمر والسكر . وقال له الخليفة ؛ مظهرا الصرامة ليخفى من ورائها ابتسامة ، « فان شربتها ؟ » قال « دمى لك يا أمير المؤمنين » . وعاود الفضل الشفاعة فيه ، فأطلق سبيله ، وهو لا يصدق انه أطلق ، ومضى الى اهله يقول :

أهلي ، أتيتكمُ من القبر والناس محتبسون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت عيني إلى ولدٍ ولا وَفر

وكتب الى الفضل ، شاكرا له تناسى موجدته عليه وشفاعته فيه :

ما من يدٍ فى الناس واحدةٍ كيَدٍ أبو العباس أولاها
نام الثقاتُ على مضاجعهم وسَرَى إلى نفسى فأحياها
قد كنتُ خفتُكَ ، ثم أمّنني من أن أخافك ، خوفُك الله

فعفوتَ عنى عفوَ مقتـدرٍ وجَبَـت له نِقَمٌ فألغاها

## المتهتك فى مسوح المتنسك

ولزم ابو نواس بيته من خوف المطبق ، وظل على ذلك أياما يظهر التوبة ويتذرع بالنسك والتقوى . والى القارىء الصورة التى يمثلها لنفسه كما يريده الخليفة ووزيره على أن يكون ، وهى ــ وان تكن صـــورة ناسك متبتل ــ تكاد لاتخفى ما وراءها من التهكم على النسك والسخر بالناسكين:

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النُّسـ ـكَ وعوّدتنيه ، والخيرُ عاده

فارعوى باطلى ، وأقصر حبلى وتبدلتُ عفـــةً وزهاده

لو ترانى ذكرت بى «الحسن البصـ ـرى» فى حسن سمته ، أو «قتاده»

من خشوعٍ أزينه بنحولٍ واصفرار مثل اصفرار الجراده

المسابيحُ فى ذراعىَّ ، والمصـ ـحف فى لَبَّتى مكانَ القلاده

وإذا شئتَ أن ترى طُرفةً تعـ ـجب منها ، مليحةً مستفاده

فادعُ بى ، لاعدمت تقويم مثلى ، وتفطَّنْ لموضـع السجّاده

تَـرَ أثـراً من الصلاة بوجهى توقن النفس أنها من عبـاده

لو رآها بعض المُـرائين يوماً لاشتراها يُعِـدُّها للشهاده

ولقد طال ما شقيتُ ولـكن أدركتنى على يديك السعاده

## توبة المضطر

والظاهر أن تهديد الخليفة هذه المرة قد أفزعه وروعه . فقد ظل زمنا يرفض الخمر ، وكلما هم بالمخالفة ذكر موقفه بين النطع والسيف ، فقال يخاطب نفسه :

أطِعِ الخليفة واعص ذا عَـزْفٍ وتنحَّ عن طربٍ وعن قصفِ

عينُ الخليفةِ بي موكَّلةٌ | عَقَدَ الحذارُ بطرفه طرفي
صحّت علانيتي له ، وأرى | دينَ الضمير له على حَرْفِ
فلئن وعدتُك تركَها عِدَةً | إني عليك لخائفٌ خُلْفي

وهو يذكر فى أسف لا يخفى كيف كان يغدو الى حوانيت الخمر فيملأ زقة من صفوها قبل الزقاق ، ويحوز قبلها قصب السباق . ولكن ما الحيلة وهذا امر ملك العراق ، قد جعل هلاكه فى كف ساق :

أعاذلُ ، لا أموت بكف ساقِ | ولا آبى على ملك العراقِ
هجرتُ له التى عنها نهانى | وكانت لى كمُمْسكة الرماقِ
وقد يغدو إلى الحانوت زِقّي | فيأخذ عفوَه قبل الزِّقاقِ
وكُنَّ إذا نزعن إلى مداه | حوى قُدّامها قصب السباقِ

## المنادمة على غير شراب

وكان الفتيان يتعرضون لأبى نواس للشرب معه ، وهو يستعفيهم ويعتذر اليهم . فقال بعضهم « وان لم تشرب فآنسنا بحديثك » . فأجاب ، وحضر مجلس شرابهم . فلما دارت الكأس بينهم عادوا يعزمون عليه ويستهوونه ، « الم ترتح لها ؟ » قال « نعم والله ! ولا سبيل الى شربها » وانشأ يقول :

أيها الرائحان باللوم ، لُوما | لا أذوق المدام إلا شميما
نالنى بالملام فيها إمامٌ | لا أرى لى خلافَه مستقيما
فاصرفاها إلى سواى فانى | لست إلاّ على الحديث نديما
إنّ حظّى منها إذا هى دارت | أن أراها وأن أشم النسيما

فكأنى وما أزيّن منها قَعَدىٌّ يزيّن التحكيما
كلٌّ عن حمله السلاحَ إلى الحر ب ، فأوصى المطيق ألاّ يقيما

على أن الشاعر وان يكن قد أقلع عن الخمر لم يكف عن ذكرها واللهج بأوصافها :

لولا الأميرُ ، وأنّ العذر منقصةٌ
والعارُ بالعذر عندى أقبحُ العار

جاءت بحاتها من بيت خمّار
روحٌ من الكرم فى جسم من القار

فالريح ريحُ زكيٍّ الأذفر الدارى
والبردُ بردُ الندى ، واللونُ للنار

## شاعر الخمر يتغنى بالأطلال طاعة للأمر

ولكن هـذا لم يرض أولى الأمر ، فشددوا عليه فى ترك التغنى بالخمر . فكأنما قضى على هـذا الثائر على مذهب العرب فى الشعر ، الساخر من أوصافهم للطلول والقفر ، أن ينعتها وان يكن كارها لها :

أعِرْ شعركَ الأطلالَ والدِّمنَ القفرا
فقد طال ما أزرى به نعتُكَ الخمرا

دعانى الى وصف الطلول مسلّطٌ
تضيق ذراعى أن أجوز له أمرا

فسمعاً أميرَ المؤمنين وطاعةً
وان كنتَ قد جشمتنى مركباً وعرا

## احتيال الشاعر للتغنى بالخمر

ومع ذلك فقد كان الشاعر من بعد نعته للطلول يحتال للتغنى بالخمر . وانك لتحس وقتئذ فى نعوته للخمر من لهف اشتياقها ، وسعار تعطشه لها ، ما يحرك منك ــ وان كرهت ــ الاشفاق عليه والرحمة له :

| | |
|---|---|
| أدِرِ الكأس حانأن تَسقينا | وانقرِ الدفَّ إنه يُلهينا |
| غنِّنا بالطلول كيف بلينا | واسقنا نُعطك الثناء الثمينا |
| ودَعِ الوصف للطلول اذا ما | دارت الكأس يسرةً ويَميناً |
| من سلافٍ كأنها كل شىءٍ | يتمنى مُخَيَّرٌ أن يكونا |
| أكَلَ الدهرُ ما تجسّم منها | وتبقّى لبابُها المكنونا |
| فاذا ما اجتليتها فهبـاءٌ | يمنع الكفَّ ما يبيح العيونا |
| ثم شُجَّت فاستضحكت عن لآلٍ | لو تجمّعن فى يدٍ لاقتُنينا |
| فى كؤوس كأنهن نجوم | جاريات ، بروجُها أيدينا |
| طالعات من السقاة علينا | فاذا ماغربن يغربن فينا |
| لو ترى الشَّرْب حولها من بعيد | قلت قومٌ من قِرّةٍ يصطلونا |
| وغزال يديرها ببنانٍ | ناعمات يزيدها الغمزُ لينا |
| كلما شئتُ علّنى برضابٍ | يترك القلب للسرور خدينا |
| ذاك عيشٌ لو دام لى ، غير أنى | عِفتُه مكرهاً وخفت الأمينا |

## الغزل فى الساقى دون الخمر

على أن شاعرنا كان لا يعدم فى مجلس الشراب بعض التعزية عنها ، فثمة ــ على الأقل ــ الساقى المليح الغرير ،

اذا هو طاف بالخمــر فلم يشربهــا من يديه ، شربها لذيذة مسكرة من سحر عينيه :

أعاذل ، أعتبت الإمام وأعتبا ... وأعربت عما فى الضمير وأعربا

وقلت لساقينا «أجزها» فلم يكن ... ليأبى أمير المؤمنين وأشربا

فجوّزها عنى سلافاً ترى لها ... إلى الأفق الأعلى شعاعاً مطنّبا

إذا عبّ فيها شارب القوم خلته ... يقبّل فى داجٍ من الليل كوكبا

يدور بها ساقٍ أغنٌّ ترى له ... على مستدار الأذن صُدغاً معقربا

سقاهم ومنّانى بعينيه مُنيةً ... فكانت على قلبى ألذّ وأطيبا

## العودة للسكر بعد التوبة

وكان أبو نواس قديم عهد بالكوفة وله فيها أصدقاء يألفهم ولا يبرح يحن الى مجالسهم . ولا غرو ، فهو شديد العجب بالطنبور ، وهم كانوا كلما جاءهم يجمعون له ضراب الطنابير ، والكوفة كانت معدنهم . وكان أبو نواس يصحبهم الى بيت خمار بالحيرة يؤثره ، يقال له جابر ، لطيف الخلقــة نظيف الثياب ، نظيف الآلة ، يعتق الشراب سنين . وهنا كان أبو نواس يسكر فى الليلة الواحدة سكرات . ويروى الشاعر الكوفى ابن الصلصال فيما نحن بسبيله من معاناة أبى نواس نهى الخليفة اياه عن الشراب ، قال : قدم علينا أبو نواس مرة وقد نهــاه الأمين عن الشراب . فسأل عنى ، فقيل « هو بالحيرة » فوافانى ، وفى يدى شىء من شراب جابر ، عجيب الحسن والرائحة . فقال لى « يا أبا جعفر ، لا يجتمع هــذا والهم فى صــدر واحد ! » فوجهت فجمعت له من ضراب الطنابير جماعة ، واحضرته شيئا من ذلك الشراب ، فقال لى « ألم تعلم ما حدث على ؟ » قلت « وما هو ؟ » قال « نهانى

أمير المؤمنين عن الشراب وتوعدني عليه » . ثم انشدني قصيدته التي مطلعها :

أيها الرائح باللوم ، لوما لا أذوق المدام إلاّ شميما

الى أن انتهى الى قوله :

فكأني وما أزيّن منها قعدىّ يُزيّن التحكيما

كلّ عن حمله السلاح الى الحرب فأوصى المطيقَ ألاّ يقيما

فقلت له : « أقم معنا كما حكيت من فعل القعدية » . قال : « أفعل » . وأقمنا على ذلك ساعة ثم أنشدته شعرا يتضمن قوله :

لا تحسَّبن عقار خابية والهمّ يجتمعان في صدر

فبادر أبو نواس « هاتها في كذا وكذا من أم الأمين ! » . ومد يده فأخذ القدح ، وشرب معنا . ثم شخص الى بغداد ودخل على الأمين . فقال له « اين كنت ؟ » قال « عند صديقي الكوفي » وحدثه الحديث . قال الخليفة « فما صنعت حين أنشدك الشعر ؟ » قال « شربت والله يا امير المؤمنين » قال « احسنت وأجملت ، فاشخص الى الكوفة حتى تحمل الى صديقك هذا » . فقدم الى ، فحملني اليه . فلم أزل معه حتى قتل

وهكذا لم يلبث شاعرنا النواسي أن غلب عليه طبعه فنازعته الى الخمر نفسه . وكيف يتأتى لمثله التنكر لها والسلو عنها وانه ليحس بينه وبينها نسبا شابكا ورحما ماسة ؛ فهو تارة ابنها ، وهي تارة شقيقة روحه :

أنا ابنُ الخمر ، مالي عن عَداها ـ الى وقت المنية ـ من فِطام

---

لائمي في المدام ـ غيرَ نصوح ـ لا تلمني على شقيقة روحي

## السرف يفضي الى التلف

وكان شاعرنا مسرفا مضياعا لا تحتوى يده على عطاء مهما جل حتى يتلفه على الخمر والندمان . ولقد حمل ما حمل اليه أولا وآخرا من جوائز ممدوحيـــه من الملوك والأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، وترادف ما ترادف عليه من صلات محبى منادمته من السراة وأهل النعمة ، ولكنه لم يدخر من ذلك كله شيئا . وياليته وقف فى غرامه بالخمر واستهتاره بها عند اتلاف ما لديه فيها ، بل صار يزرى على من لا يفعل فعله من عشاقها وخاطبيها :

يا قهوة حرّمت إلاّ على رجل ... أثرى فأتلف فيها المال والنشبا

فلا غرو وقد نزفت ما عنده من مال ، أن تشتد به الحاجة ويعانى جهد الحال ، لاسيما والخليفة غير مقبل عليه كما كان

فهو يتوجه الى آل الفضل بن الربيع بالسؤال يستمنحهم ويستدر عطاءهم فيبطئون عنه ، ويشكو الشاعر من خلف الوعد وكثرة المطل ، فيثقل عتابه على نفوسهم ويلقى فى الحبس . فيكتب الشاعر الى الفضل فى حبسه معتذرا اليه ذاكرا بره طالبا عفوه :

أبا العباس ، ما ظنّى بشكرى ... ـ إذا ما كنتَ تعفو ـ بالذميم

وكنتَ أباً ، سوى أن لم تلدنى ، ... رحيماً أو أبرّ من الرحيم

لئن أصبحتُ ذا جرم عظيمٍ ... لقد أصبحتَ ذا عفوٍ كريم

ويتشفع بجعفر أخى الفضل قائلا :

فلا تجحدوا بى ودّ عشرين حجةً

ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

وفيما يرويه الرواة من هذه الأخبار أن أبا نواس صار الى

العباس بن الربيع فى حاجة فلم يقضها له ، فخرج من عنده وهو يقول :

لعمرك ما العباس من ولد الفضل فيرجى لعرف أو يغار على بذل
فتى كلما ناديته لملمة دعوت مثالا لا يمر ولا يحلى

فبلغه ذلك فشكاه لأبيه ، فأمر بكر بن المعتمر ، فأخذه وضربه وحبسه وقيده وأسلمه الى سجان فظ غليظ كان على المطبق أسمه « سعيد » فضيق عليه وآذاه . فكتب الشاعر السجين رقعة وانفذها الى بكر فيها :

وقيت بى الردى . زدنى قيودا
وثن على سوطا أو عمودا
ووكل بى وبالأبواب دونى
من الرقباء شيطانا مريدا
وأعف مسامعى من صوت رجس
ثقيل شخصه يدعى « سعيدا »
فقد ترك الحديد على ريشا
وأوقر بغضه قلبى حديدا

فضحك بكر من الأبيات ، ووقف الفضل عليها ، فأمر باطلاقه فخرج وهو يقول :

يافضل قد أوسعتنى عظة ما بعدها غلط ولا سهو

ومضى الشاعر المغلوب على أمره ، يتخفف من أثقال همه فى المتنزهات المونقة خارج بغداد ، بعيدا عن رجال الحكم وتناحر الأحزاب السياسية وجلبة الحرب الأهلية ، عاكفا

على الشراب لا يشبع منه ولا يفتر عنه ، كمن يتعوض مما فات ، أو يتزود لما هو آت :

أما يسرك أن الأرض زهراءُ والخمر ممكنة شمطاءُ عذراءُ
بادر فإن جنان الكرخ مونقة لم تلتقفها يد للحرب عسراء

## حصار بغداد

وكانت جيوش طاهر المأمونية قد تقدمت ونزلت حلوان وذلك على خمسة أيام من بغداد مدينة السلام . فاضطربت الناس من زيادة أمره ، وادبار أصحاب الأمين وهزيمتهم فى كل حال . وأيقنت القلوب بغلبة المأمون ، فسقط فى يدى الفضل بن الربيع وأصحابه . ورجع الخليفة الى قواده وبطانته يجمعهم ويشاورهم ويكرر عليهم « أحضرونى غناءكم كما أحضرت خراسان عبد الله غناءها » ، ويستحث فيهم قيام رجل مثل طاهر قائد خصمه ، ويقول فيه : « أما والله لقد حدثت بأحاديث الأمم السالفة وقرأت كتب حروبها وقصص من أقام دولها ، فما رايت فى ذلك كله حديثا لرجل منهم كهذا الرجل فى اقدامه وسياسته . وقد قصد الى واجترأ على ، فهاتوا اليوم ما عندكم » . ولكن جيوش محمد ما برحت تنهزم بين يدى طاهر ولم تقم لها قائمة

وأراد بعض الأمراء أن يستجيش للأمين جندا من الشام والجزيرة ممن أدبتهم الشدائد وضرستهم الحروب . فأبى سوء حظ الأمين الا أن تقوم فتنة فيهم بين الأبناء الجزريين وأهل الشام الزواقيل . فانفض أهل الشام الى بلادهم . ونادى قائد الأبناء الحسين بن على بن ماهان فى عسكره بالرحيل قاصدا بغداد ، فلما وصلها خلع الأمين فى ١١ رجب سنة ١٩٦ وحبسه واعلن البيعة للمأمون . ولكن كبار الأبناء ثاروا على قائدهم وأسروه ، واطلقوا الأمين ، واقعدوه فى مجلس الخلافة

وبينما كانت الأمور فى بغداد على هذه الحال من الاضطراب والفساد ، كان أمر المأمون على غاية ما يكون من النظام واحكام التدبير . وقد أرسل من قواده هرثمة بن أعين فتسلم من طاهر بن الحسين ما غلب عليه من الكور والمدن بشرقى بغداد وتحول طاهر الى الأهواز والبصرة فى غربيها ، ليكون الهجوم على بغداد من جهتين

ولم تلبث أن اجتمعت الجيوش المأمونية حول بغداد ، فحوصرت من عدة جهات ، وقطعت عنها الأزواد والتجارة ونصبت عليها المنجنيقات والعرادات وصارت المدينة ترمى فى كل وقت بالحجارة . فكثر الهدم والتحريق ، وخربت الديار ، وعفت الآثار ، وانتهبت الأموال وغلت الأسعار . وبلغت الشدة بالناس كل مبلغ . وانفض عن الخليفة المنكود الحظ طلاب الجاه وأرباب المراتب من خاصته ، والتجار ، واصحاب الأموال والودائع والذخائر . والعجيب ان الذين بقوا على الولاء وصمدوا للدفاع خلق من السوقة والعيارين وأهل السجون . وكانوا على مداخل المدينة يقاتلون نصف عراة ، فى أوساطهم التبابين والمآزر ، وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص يسمونها الخوذ ، ودرقا من الخوص والبوارى قد قيرت وحشيت بالحصى والرمل . وكان على كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . ولقد ارتضى بعضهم أن يكون مركبا للرؤساء يركبونهم بالمقاود واللجم والمذاب . وعلى هذه الحال كان يتقدم الرؤساء منهم وسائر المقاتلة الى حرب أصحاب الخيول الفره والجواشن والدروع والتجافيف والسواعد والدرق التبتية ، فهؤلاء عراة وهؤلاء بكامل العدة ، فكان يقتل منهم الخلق الكثير

ولقد سجل هذه الأحداث وقعة وقعة فى قصائد عدة ، زميل أبى نواس ومواطنه البصرى ، صاحب الأخبار الكثيرة معه ، عمرو بن عبد الملك العنزى الوراق ، وهو على مجونه

قد اشتغل بهذه الخطوب واهتم لها

## أبو نواس أثناء الحصار

وأما أبو نواس فانه فى وسط هذه الحروب والفتن لم يكن له هم ، وقد شغل عنه أولو الأمر ، الا أن ينغمس فى حياة الفجور والسكر . واذا كان لم يفكر فى خيانة الأمين والانحياز الى خصمه ، فانه كذلك لم يخطر له أن يحمل سيفا أو يعتقل رمحا فى القتال عنه . وانما كان ميدانه مجلس اللهو ، وآلات حربه مقارعة الأقداح والترامى بالزهر وقد استبدل بهيعة الوغى وسفك الدماء صوت المعازف وحمرة الخمر :

إذا عبّا أبو الهيجا ء للهيجاءِ فرسانا
وسارت رايةُ الموْت أمام الشيخ إعلانا
وشبّت حربها واشـ ـتعلت تُلهب نيرانا
جعلنا القوسَ أيدينـا ونَبْلَ القوس سوسانا
وقدّمنا مكانَ الرُّمـ ـح والمِطْرد رَيْحانا
فعادت حربُنا سِلْماً وعُدنا نحن خلّانا
بفتيانٍ يَرَوْنَ القتـ ـلَ فى اللذّة قُرْبانا
إذا ما ضربوا الطبلَ ضربنا نحن عيدانا
وأنشأنا كراديساً من الخِيرىِّ ألوانا
وأحجارُ المجانيق لنا تفّاحُ لُبنانا
ومَنْشاحَرْبنا ساقٍ سَبَا خمراً فسقّانا
يحثُّ الكاسَ كى تلـ ـحق أخرانا بأولانا

ري هـذاك مصروعاً وذا ينجرُّ سكرانا

فهذي الحرب، لا حربٌ تغمُّ الناسَ عدوانا

بهـا نقتلهم ، ثمّ بها ننشرُ قتـلانا

وهذه مقابلة اخرى من مقابلاته بين الحربين :

أحسنُ من رَمْيٍ بعرّادةٍ ومِنْ قِذَافِ المنجنيقاتِ

مُسامرٌ في مجلس حاضرٌ أمام أعـوادٍ ونايات

وقينةٌ تشدو على صحبها تُعطيك أسباب اللذاذات

فذاك يُسْلي الهمَّ لا معركٌ يرمى بأحجار المنيّـاتِ

واذا كان هـذا حال صاحبنا ، فالأمر ليس رأيا يرتئيه ومذهبا فى التفكير يذهب اليه ، وانما هو شيء فى أصل تكوينه وتركيب طباعه . واليك عذره وهو لا شك أدرى بنفسه :

يا « بِشْرُ » مالى والسيفِ والحَرَبِ

وإنَّ نجمى لِلَّهوِ والطربِ

فلا تثقْ بى فانى رجـــلٌ

أكُعُّ عنـدَ اللقاءِ والطلب

وإن رأيتُ الشُّراةَ قد طلعوا

ألجمتُ مُهرى من جانب الذَّنَب

ولستُ أدرى ما الساعدان ، ولا التر

س ، وما بَيْضَةٌ من اللَّبَب

همّى إذا ما حروبهـم غلبتْ

أىُّ الطريقين لى إلى الهرَب

لو كانَ قصفٌ وشربٌ صافيةٍ

وجدتَني ثَمَّ فارسَ العَرَبِ

وقد روى ابراهيم الطبرى أنه كان فى أيام الفتنة جالسا على بابه ، اذ مر به أبو نواس وقال : « قم حتى نأخذ من شأننا » فدخلا فجعلا يشربان . واقبل الداخل بعد الآخر يدخل اليهما فيقول : « كان كذا وكان كذا » فأنشأ أبو نواس:

| | |
|---|---|
| عندىَ للخمرة أسمـاءُ | لها دواءٌ ولهـا داءُ |
| يُصلحُها الماءُ إذا صُفقتْ | وربمـا أفسدها الماء |
| وقائل كانت لهم قصـةٌ | فيها أحاديثٌ وأنبـاء |
| قلت له : «أيُّ امرىءٍ جاهلٍ | فيك عن الخيراتِ إبطاء |
| اشربْ ودعنا من أحاديثهم | يصطلح الناس إذا شاءُوا » |

## الحرب الأهلية ومقتل الأمين

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين : المأمونية ، والمحمدية اربعة عشر شهرا . وكان القتال يشتد كل يوم عما قبله ، وصبر الفريقان جميعا . وانقطعت الموارد بالأمين فى أرزاق الجند ، فضرب الآنية من الذهب والفضة سرا وأعطى رجاله ثم شغب عليه من لم يعطهم من قادته وجنده وخذلوه ، واقتصرت حامية المخلوع وجنده على العراة أصحاب خسوذ الخوص ودرق البوارى ورماح القصب واعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر . وكانوا فى حربهم كالشياطين ، وقد اتخذوا تحت آباطهم المخالى فيها حجارة وقطع آجر يبتدرون بها الفرسان ويصرعونهم عن أفراسهم . فصار القتل أعم فى أصحاب طاهر ، والغرق والحريق فى العراة أصحاب المخلوع واشتد الأمر بالناس أى اشتداد وهم تحت وابل المنجنيقات

والعرادات ، ينتقل أهل السكك والدروب من موضع الى موضع ، حتى ضاق أهل بغداد بها ؛ وصار أكثرهم يسخطون على الأمين ما جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه. وكثر القتل فى الطرق والشوارع . ينادي هذا « يا للمأمون » ، وهـذا « يا للمخلوع » فيقتل بعضهم بعضا . وانتهبت الدور ، واعملت النار ، وعظمت الحال . وكان الفوز الأكبر والفرح الأعظم لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة ، وكبير وصغير بما يسلم معه ، الى عسكر طاهر فيأمن على دمه وماله

وشدد طاهر النكير وضيق الخناق . واقبل يقتطع من بغداد الشارع بعد الشارع ، فينحاز اليه من يصير فى حيزه من أهل تلك الناحية ، ويعاونونه فى حربه . واشتد الأمر على محمد المخلوع وجد به . فنصح اليه من نصح بالتسليم والح عليه الصعاليك من أصحابه بالخروج من المدينة بالليل الى بلاد الجزيرة وديار ربيعة ، لاستنفار الرجال وجباية الأموال ، ثم العودة للقتال . فما زال به دعاة التردد والهزيمة حتى أسلموه الى يد عدوه القائد طاهر بن الحسين ورجاله ، فأخذته سيوفهم حتى قتلوه

وهنا انقلب الكثيرون من مادحى الأمين فى أيام عزه ، الى القدح فيه والتشنيع به وتعديد مثالبه بعد موته ، يتقربون بذلك الى الغالب ويخطبون وده . ولكن أبا نواس لم يكن من هؤلاء ، بل كان صاحب الشعور الجميل كما يجمل بالشاعر أن يكون ، وكان مثالا على الوفاء بما روى له من رثاء

طوى الموتُ مابيني وبين محمدٍ

وليس لما تطوى المنيـــة ناشرُ

لئن عَمِرَتْ دورٌ بمَنْ لا أوَدُّه

لقد عَمِرَتْ ممن أُحبُّ المقابر

# الخاتمة

عاش أبو نواس ما عاش « طالب لذة » . ولو كان ذلك الانصراف منه الى اصابة اللذة والتهالك على مواقعتها من قبيل جنون الشباب وفورة الصبا ، لذهب ما به مع تقدم السن وتجاوز هذا الطور من العمر . ولكنه ظل على حاله من الخلاعة والمجون الى أن بلغ الخمسين والى ما بعد الخمسين . واذا ذكرنا أنه كان ناعما نحيل البدن تعوزه الضلاعة ومتانة التركيب منذ حداثته ثم أضفنا الى ذلك علو سنه وكهولته ، لم نصدق أن استهتاره باللذات وانغماسه فيها مما ينسب الى فيض القوة وغلبة الشهوة ، ولا سيما اذا تدبرنا ما قيل من أنه لم يكن مجدودا من النساء . فالأمر اذن لا يخلو من أن الرجل كان صاحب لذة من ناحية مزاجه قبل كل شيء ، وان فجوره كان فنيا ، أو ـ اذا شئنا اصطناع لغة الفلسفة ـ كان فجورا بالقوة لا بالفعل ، أو بلفظ أدق كان بالقوة أكثر منه بالفعل . فهو ـ مهما يقل عن نفسه ـ لم يكن أقبح أهل الأرض عملا ، وان يكن من أقبحهم قولا :

عَفٌّ ضميري ، هازلٌ لفظي ، وفي نظري عَرامه

ولقد كان فى وسع ابى نواس أن يتستر ويتكتم ويستعمل التقية والنفاق كغيره ، ويصيب فى السر والخفاء من اللهو وألوان اللذاذات ما يشاء . ومن المحقق الثابت أن أهل زمانه لم يكونوا يختلفون عنه كثيرا الا فى تسترهم ومجاهرته ، وسرهم وعلانيته ، كما تنطق بذلك وصية شيخ البرامكة يحيى الى ولده :

إنْصَبْ نهاراً فى طِلاب العُلا　　واصْبِرْ على فقْدِ لقاءِ الحبيب

حتى إذا الليلُ بدا مُقبلاً　　وغاب فيه عنك وجه الرّقيب

فبادر الليلَ بما تشتهى　　فاعا الليلُ نهارُ الأريب

كم من فتًى تحسبه ناسكاً　　يستقبلُ الليلَ بأمرٍ عجيب

ألقى عليه الليلُ أستارَه　　فبات فى لهوٍ وعيشٍ خصيب

ولذّة الأحمق مكشوفةٌ　　يسعى بها كلُّ عدوٍّ مريب

ولكن أبا نواس كان لا يعرف اللذة الا فى المجاهرة بهـا ، واعلام القاصى والدانى بشينها ، مع المبالغة والتهويل فى أمرها كأنما اللذة ليست هى التى تعنيه ، وانما استهتاره بها هو المعنى المقصود . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا الى أن هذه الآفة تكون أحيانا من علامات مركب النقص فى الضعاف القاصرين من أهل الاباحة المستهترين :

غدوتُ إلى اللذات منهتك السّتْر

وأفضتْ بناتُ السرِّ منى الى الجهر

وهان علىّ الناسُ فيما أرومه

بماجئتُ فاستغنيْتُ عن طلب العذر

---

ألا فاسْقِنى خمراً ، وقل لى هى الخمرُ

ولا تسقنى سرًّا إذا أمكن الجهرُ

وَبُحْ باسم مَن أهوى ودعنى من الكُنَى

فلا خير فى اللذاتِ من دونها ستر

---

أطيب اللذّات ما كا   ن جهاراً بافتضاحِ

والقارىء لمجون أبى نواس ينتهى لا محالة الى أن الشاعر يعترف على نفسه بأكثر مما يقترف ، ذاهبا مع خياله المريض الى أبعد ما تذهب اليه نزعات الشهوة ، مستغرقا فى تصور ما ليست له عليه قدرة . وهو بهذا الخلط بين الوهم والحقيقة يتعوض من عجزه فيما بينه وبين نفسه ، ويرضى غروره بما يزعمه عند من لف لفه من أبناء عصره . وأياما كان الحال فقد مضى صاحبنا فى غوايته ، سادرا فى جهالته ، مستكثرا من الفضائح ، يضع لهوه ولذته فوق كل اعتبار ، ولا يبالى ما يجب لسنه من الوقار

يقولون فى الشيب الوقارُ لأهله   وشيبى بحمد الله غير وقارِ

وكان كلما ادبر شبابه وتداعى عنفوانه وتقدم به العمر ، تركزت كل شهوته فى الخمر ، فاستهلك فى شربها والعكوف عليهـا :

لم يبْقَ لى فى غيرها لذّةٌ   كَرْخيّةٌ فى الكأس كالنارِ

---

قالوا: «شمِطْتَ» فقلتُ: «ماشمطتْ يدى

عن أن تحث الى فمى بالكاس »

فالشيخ متعلق بها ، مصر عليها ، غير آس على شىء يفوته غيرها . فهى شغله فى الحياة وطلبته ، وهى ما بعد الحياة همه وموضع تفكيره وموضوع وصيته :

خليـلىَّ بالله لا تحفرا   لىَ القبرَ إلا بقُطْرُبُّلِ

خِلالَ المعاصِر بين الكُروم   ولا تُدْنيانى من الشُنْبُل

لعلِّىَ أسْمَعُ فى حُفرتى   إذا عُصرتْ ضجّةَ الأرجل

على أن للشاعر مع هذا أبياتا فى الزهد لا نحسبه نظمها منافسة لأبى العتاهية أو غير أبى العتاهية فى هذا الباب من الشعر ، واظهارا لاقتداره فى كل غرض من أغراض النظم .
وانما الذى نراه ، أنه كان فى بعض هذه الزهديات صادقا كل الصدق فى شعوره ، وأن شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من المنساقين فى حياة الفسوق والشرب ، تنتابهم فى الحين بعد الحين فترات يذكرون فيها الله وموقف الحساب وما ينتظرهم من العقاب ، وقد تبتدر عبراتهم وتتصعد زفراتهم ، ولكنهم ماضون فى ضلالهم لا يستطيعون عنه صبرا :

بكيتُ ، وما أبكى على دِمَنٍ قَفْرِ
وما بى من عشقٍ فأبكى على الهجرِ

ولكنْ حديثٌ جاءنا عن نبيِّنا
فذاك الذى أجرى دموعى على النحر

بتحريم شرب الخمر والنهى جاءنا
فلما نُهى عنها بكيتُ على الخمر

فأشربُها صِرْفاً وأعلم أننى
أُعَزَّر فيها بالثمانين فى ظهرى

فموقف هذا المدمن السكير فى خمره ، موقف المؤمن المغلوب على أمره ، يشربها وهو عارف حق المعرفة ما يتعرض له من أجلها فى الدنيا وفى الآخرة :

الراحُ شىءٌ عجيبٌ أنت شاربها
فاشربْ وإن حمَّلتك الراحُ أوزارا

يا مَنْ يلوم على حمراء صافيـــة
ِصرْ فى الجنان ودَعْنى أسكن النارا

والقارىء لزهدياته يراه دائم التفكير فى الموت ، يتمثل حكمه الجارى على الأجيال والأشياء من قبل ومن بعد بغير انتهاء ، فيرى كل جهد الى ضياع ما دامت الغاية الفناء

وتسلط فكرة الموت والشعور بفناء كل شيء ووشك زواله من الأمور التى قد تؤدى الى الزهد فى نعيم هذه الحياة العاجلة ، كما قد تؤدى الى ضد ذلك تبعا لمزاج الشخص وما ركب عليه طباعه . ولقد كان من شعور شاعرنا بقصر المدة التى للأحياء على هـذه الارض ، وتيقظ حسه للأيام تعبر به سراعا ، وللعمر ينطوى بساطه تحت قدميه ، وعقد الحيـاة ينفرط بين يديه ، أن حرص على مبادرة اللذات والتمتع بها قبل الفوات :

رأيتُ الليالى مرصَدات ٌ لمدّتى فبادرت لذّاتى مبادرةَ الدهر

ولعله مما تجب ملاحظته ، أن أبا نواس لا يبرح حتى فى زهدياته تغلب عليه نزعته الحسية ، فاذا هو ذكر الموت والقبر اقترن ذكرهما بما يتمثله تحت التراب من الوجوه الوضاء ذات السمت والرواء

أيا رُبَّ وجهٍ فى التراب عتيقِ ويارب َّحسنٍ فى التراب رقيقِ
وما الحىُّ إلا هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسبٍ فى الهالكين عريق

وهو اذا زجـر نفسه عن الهـوى ، ووعظها بالشيب ، واستحثها على العمل الصالح لتفوز مع أهل الطاعة والتقوى بجنة المأوى ، لم يذكر من جنة المتقين الا نساءها من الحور العين :

أيةُ نار قَدَحَ القادحُ وأى جِدٍّ بلغ المازح

لله درُّ الشيبِ من واعظٍ وناصحٍ لو حذّر الناصح
يأبى الفتى إلا اتباعَ الهوى ومنهجُ الحق له واضح
فاسْمُ بعينيك الى نسوةٍ مهورهنّ العملُ الصالح
لا يجتلى الحوراءَ من خدرها الا امرؤٌ ميزانُه راجح
مَن اتّقى اللهَ فذاك الذى سيق اليه المتجرُ الرابح

ومن كان هذا مزاجه وهذه ارادة طباعه ، فكيف يرجى له أن يزهد ويتبتل ، ولاسيما اذا كان حوله من الغوايات والمغريات مثل ما فى بغداد وأرباضها فى ذلك العصر ، مما لا يحيط به وصف ولا يدخل تحت حصر :

قالوا « تَنَسَّكَ بعد الحج » قلتُ لهم
« أرى ، وأرجو ، وأخشى طيزناباذا
أخشى قُضَيِّبَ كرْمٍ أن ينازعنى
رأسَ القِطار وان أسرعت إغذاذا
ما أبعدَ النسك من قلب تقسَّمه
قُطْرُبُّلٌ ، فقُرى بُنّى ، فكلواذا
فان سلمتُ ــ وما قلبى على ثقةٍ
من السلامة ــ لم أسلَمْ ببغداذا

□

والى جانب هذه الغوايات الحسية غواية أدبية ، ان جازت هذه التسمية على حرص هذا الماجن على ما شاع له من شهرة وصيت فى القبائح والمنكرات . لقيه أبو العتاهية فى

المسجد وقال له : « أما آن لك ان ترعوى ؟ أما آن لك ان تنزجر وقد بلغت من السن والعلم ما فى دونه يتعظ العاقل اللبيب ، وأنت تعاقر بنت الحان ، وتصبو صبوة الشبان ! »
فرفع أبو نواس رأسه اليه وهو يقول :

أترانى يا عتاهى ... تاركاً تلك الملاهى !

أترانى مفسداً بالنسـ ... ـك بين الناس جاهى !

□

والذى يقرأ عن أبى نواس ما ركب من المحارم وما بلغ من مجاهرته بالمعاصى ، ويقرأ له شعره فى المجون وقبح خروجه أحيانا على حرمة الدين ، ويرى كيف كان يتعرض للقتل بجهده ، وما جره على نفسه من التعزير والضرب والحبس فى المطبق ، وهو لا يقصر عن باطله ولا ينزع عن جهله ، قد يتصور انه منكر من الملاحدة المعطلة افتتن بالنظر والفكر ، وذهب مذهب القائلين بالدهر ، أو هو ثائر مارد من العصاة العتاة على غرار ابليس ، يجترىء اجتراءه ويقف من التحدى موقفه . ولكن حقيقة الأمر لمن يتقصى أشعاره واخباره بخلاف ذلك وعلى الضد منه . فالرجل مؤمن مصدق بقلبه . ولا نقول انه لم يتشكك ، فقد عاش فى عصر من عصور الشك . ولكنه شك من النوع الذى قد يعرض للمؤمن فلا يخرجه الى الانكار ، ثم أن معظمه لا يعدو ما يجرى عليه ظرفاء كل عصر من مخالفة العامة واظهار الخروج على العرف ، يضاف اليه ذهابه مع الخلاعة والمجون الى غير حد . وقد جاء على لسان أصحابه ممن كانوا يعذلونه ويعيبون عليه مجونه روايات عدة كلها شاهد على ايمان الرجل وصحة اعتقاده .
وكان يقول اذا أطالوا توبيخه وتخويفه : « والله انى لأعلم ما تقولون ، ولكن المجون يفرط على ، وأرجو أن أتوب فيرحمنى الله عز وجل »

وظاهر من هذا أن أبا نواس لم يرتكب ما ارتكب من المعاصى وهو فارغ البال من خشية الله ، ولكنه مع ذلك لم يكن بالذى يستطيع تركها والاقلاع عنها التماسا لرضاه . وهى حال من التناقض توقع فى الحيرة ولا يتبين معها وجه الطريق . على أن العصر ــ بما كان شائعا فيه من مذاهب الجدل والكلام ــ لم يعدم ما يغالط به ويستند اليه ليمضى فى حياة اللذة التى كان عليها ، من غير حاجة الى التكذيب بالدين أو اليأس من الجنة . ذلك هو مذهب المرجئة القائل بأن الايمان يكفى فيه التصديق بالقلب . فليست أعمال الانسان ركنا من أركان الايمان . والمؤمن الذى يرتكب الكبيرة لا يعد كافرا ، بل يقال عليه فاسق فى كذا من غير اطلاق ، واذ كان غير معدود فى الكفار فهو لا يخلد فى النار . ثم ان الله لا يتخلف فى الثواب وعده ، لأن الثواب فضل فيفى الله به لأن فى خلفه نقصا . وأما وعيده بالعقاب فقد يتخلف ، لأن العقاب عدل ولله أن يتصرف فيه كما يشاء ، وليس فى الخلف فى الوعيد نقص . وفى ذلك يقول ابو نواس :

لا بأعمالنا نُطيق خلاصاً يومَ تبدو السِّماتُ فوق الجباهِ
غير أنّا ــ على الاساءة والتفــــريطِ ــ نرجو لحسنِ عفو الاله

ولقد عارض الخوارج والمعتزلة هذا الرأى أشد المعارضة . ولعل لهم فى ذلك العذر ، لا كراهة لما ينطوى عليه من التسامح ، بل لما قد يؤدى اليه من تهوين أمر المعاصى وخلع الطاعات عند العامة وأصحاب الخلاعات :

غادِ المدامَ وان كانت مُحرّمةً فللكبائرُ عند اللهِ غفرانُ

وقد ختم ابو نواس احدى قصائده فى وصف الخمر ، وطروقه للخمارات معرضا ببعض أصحابه من فلاسفة المعتزلة ، وهو ابراهيم النظام لمعارضته مثلهم لهذا المذهب فى العفو عن مرتكب الكبيرة :

فقُـلْ لمن يدّعى فى العلم فلسفةً :

« حفظتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ

لاتَحـْظـرِ العفوَ إن كنت امرأ حَـرِجاً

فان حَظـْرَكَـهُ بالدين ازراء »

من أجل ذلك كان العصر العباسى بما فيه من اللهو ، تروج فيه مذاهب الارجاء وخاصة فلسفة العفو . ولقد أكثر المجان الخلعاء من الشعراء القول فى ذلك ، وكانوا يتواصون بالاستكثار من المعاصى ليظهر عفو الله اجل واشمل :

تَـكَـثَّـرْ ما استطعتَ من الخطايا

فانك بالغٌ ربًّا غفـــورا

ستبصر ان قَـدِمتَ عليه عفواً

وتَلْـقَى سيِّداً مَلِكاً كبيرا

تعضُّ ندامةً كفيْكَ مما

تركتَ مخافةَ النار السُّرورا

ويروى أن الأمير العباس بن محمد الهاشمى كان يتشوق أبا نواس ويميل اليه ، فلما رآه وسمع منه ، ورأى ظرفه وكماله ، أقبل عليه وقال : « يا أبا على ، أريد أن أقول لك شيئا فأستحييك ، وأستحيى من نفسى فى ترك نصحك . وقد بلغنى أنك مكب على المعاصى ، مشتهر بالقبائح والمجون» . فقال أبو نواس : « أيها الأمير ! أما المجون ، فكل أحد يقدر أن يمجن ، وانما المجون ظرف ، ولست أبعد فيه عن حد الأدب ، ولا أتجاوز مقداره . أما المعاصى ، فانى أثق فيها بعفو الله عز وجل . ولو أن السندى يقول ما قال الله عز

وجل ، لوثقت به ، فكيف بقول رب العالمين وهــو يقول : ( يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، أن الله يغفر الذنوب جميعا ) . . »

ولا جرم أن يكون أشد القوم تورطا فى الآثام والمعاصى ، اكثرهم توجها الى الله ، وألهجهم بذكر عفو الله ، وأن عفوه وسع كل شيء ، فما من ذنب مهما عظم الا وعفوه أعظم .
ولا جرم تكون أشعار أبى نواس فى ذلك فوق الجميع وفرة وحرارة لهجة :

يا كبيرَ الذنب، عفو اللـــــه من ذنبك أكبرْ
ليس للانسان الا ماقَضَى اللهُ وقَدَّرْ
ليس للمخلوق تدبـــــيرٌ بل اللهُ المدبِّرْ
أعظم الأشياء فى أصــــغر عفو الله يصغر

ولقـــد اثرت الحياة التى عاشها أبو نواس فى صحتـــه ، وفعلت فعلها فى بنيته ، فدب الوهن الى قوته وغاض معين شرته ، ورث برد شبابه وذوى عوده ، وبادرته الشيخوخة قبل الأوان ، وأسرع اليه المشيب ولات حين مشيب :

شيّب رأسي الهوى على صِغَـر وليس شيبي من باطن الكِـبَـر

واذا عدَدْتُ سِنيَّ كَمْ هِيَ ، لم أجِدْ
للشيب عــذراً فى النزول براسي

ولم يلبث أبو نواس ان ضعف جسمه عن المقاومة ، على ما به من الحيوية والمراح . فجعلت تترادف عليــه الأسقام

والأوصاب ، وهو يغالبها بالشراب ويحمل عليها باللهو ، حتى اشتدت به العلة وأثقله المرض ومنعه عن الحركة . فلزم المسكين بيته ، وقضى اياما مثبتا فى فراشه لا يبرحه ، عميدا لا يقدر على الجلوس حتى يعمد من جوانبه بالوسائد . وكان أصدقاؤه يعودونه فى مرضه ، فيجدونه كل يوم أسوأ حالا من اليوم الذى قبله ، منقوف الوجه ، متغير اللون ، قد برى السقم جسمه ، واذهب لحمه وأوهن عظمه . وهو مع ذلك صاحى الذهن متنبه الحس ، لا ينى ينظم الشعر ويغمغم به فى وصف حاله ، ويكتب به الى أصحابه :

شِعْرُ حيٍّ أتاكَ فى لفظِ مَيْتٍ ... صار بين الحياة والموت وَقْفا

لو تأمَّلتَنى وأبصرتَ وجهى ... لم تجد من مثالِ رسمىَ حرفا

نَفَسٌ خافتٌ، وجسمٌ نحيلٌ ... أرمضتهُ الأسقام حتى تعفَّى

ولم يلبث الحسن بن هانىء الشاعر الماجن الخليع ان طفىء وعاجلته المنية . وكانت وفاته فى سنة تسع وتسعين ومائة ، وعمره تسع وخمسون سنة . ودفن فى مقابر الشونيزى فى التل المعروف بتل اليهود ، على شاطىء نهر عيسى ببغداد . وقد كتب صديقه ورفيق صباه الحسين بن الضحاك على قبره :

نازعَتنِيكَ الزمانُ يا حَسَنُ ... فخاب سهمى وأفلح الزمن

ليتك اذ لم تكن بقيتَ لنا ... لم تَبْقَ روحٌ يحوطها بدن

ومما يروى عنه فى مرض موته أنه التفت ذات مرة الى عواده فقال : « لا تشربوا الخمر صرفا ، فانى شربتها صرفا فأحرقت كبدى » . وكان لا يكف فى كل مرة — مع ضعفه وخفوت صوته — عن انشادهم شعرا له بعد شعر ، يظهر فيه التوبة ، ويطلب من الله الصفح والمغفرة :

دبَّ فيَّ الفناء سُفلاً وعُلْوا          وأراني أموتُ عُضْواً فعضوا

ذهبتْ شِرَّتي بجِدَّة نفسي ،          وتذكرتُ طاعةَ الله نِضْوا

ليس من ساعةٍ مضت بي الا          نقصتني بمرّها بيَ جُزْوا

لهفَ نفسي على ليالٍ وأيّا          مٍ سلكتُهنَّ لعباً ولهوا

قد أسأنا كلّ الاساءة ـ ياربِّ          ـ فصفحاً عنا الهي وعفوا

وقد مضى بعض أصدقائه الى بيته عقب وفاته ودفنه ، فدخل الى مرقده وثيابه لم تحرك بعد ، فاذا كل ما خلفه قمطر فيه دفاتر وجذاذات قراطيس فيها نسخ أشعار وغريب ألفاظ ، ونرد وشطرنج وعود وطنبور . فرفع وسادته ، فاذا برقعة مكتوب فيها :

يارب ، ان عظمتْ ذنوبيَ كثرةً

فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ

مالي اليك وسيلةٌ الا الرجا

وجميلُ عفوك ، ثم أني مسلمُ

# فهرس

صفحة

## وكلاء مجلات دار الهلال

| | |
|---|---|
| سوريا ولبنان : | شركة فرج الله للمطبوعات ــ مركزها الرئيسي بطريق الملكي المتفرع من شارع بكو في بيروت ( تليفون ٧٨ ــ ١٧ ) صندوق بريد ١٠١٢ ــ أو باحدى وكالاتها في الجهات الاخرى . ( الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهي تتولى تسليمها لحضرات المشتركين ) |
| العراق : | السيد محمود حلمي حلمي ــ صاحب المكتبة العصرية ــ ببغداد |
| اللاذقية : | السيد نخلة سكاف |
| مكة المكرمة : | السيد هاشم بن علي نحاس ــ ص.ب ٩٧ |
| البحرين والخليج الفارسي : | السيد مؤيد أحمد المؤيد ــ مكتبة المؤيد ــ البحرين |
| ساحل الذهب : | The Queensway Stores. P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A. |
| نيجيريا : | Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652; Lagos, Nigeria, W.C.A. |
| انجلترا : | مكتب توزيع المطبوعات العربية<br>Arabic Publications Distribution Bureau<br>15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26. |

# هذا الكتاب

أبو نواس من الأفذاذ القلائل فى الأدب العربى الذين كان لهم أثر بارز فى الابتكار والتجديد ، وحياة ثائرة أحدثت فى عصرهم دويا ، وتركت بعدهم ذكرا على الأجيال خالدا فتيا . ولقد اشتهر بالمجون والمزاح . . . ولكن مجونه ومزاحه كانا كما قال :

صار جدا ما مزحت به ... رب جـــد جره لعب

فعلى الرغم مما قال وقيل عنه . فقد كانت حياته دنيا جديدة ، امتلأت بالبدائع الفنية ، وعمرت بمختلف الصور الأدبية . وقد اهتم بها نقاد الأدب فى جميع العصور ، وعنى بها مؤرخو الآداب فى عصرنا الحديث ، حتى قال عنه الاستاذ جيب :

« برز أبو نواس على شعراء عصره وبزهم جميعا . والحق أنه لا يدانيه شاعر من حيث نصاعة الأسلوب ، وصدق العاطفة ، وحرية الفكر ، وبراعة البيان »

ولقد عنيت سلسلة كتاب الهلال بالعبقريات فى مختلف العلوم والآداب ، خصوصا من كانت حياتهم يكتنفها الغموض ولهذا اختارت هذا الكتاب النفيس الذى وضعه الشاعر الكبير عبد الرحمن صدقى ، وضمنه قصة حياة أبى نواس من نشأته الى وفاته . وقد نهج فيها منهج التراجم الحديثة ، فدرسها مرحلة مرحلة ، وجلى حياته الوجدانية والنفسية تجلية بارعة

كتاب الهلال

# البؤساء

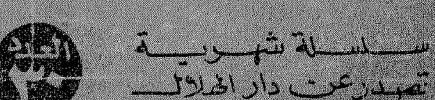
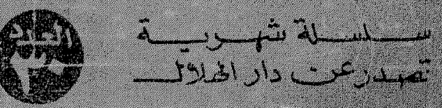
لفيكتور هيجو

الجزءان : الاول والثاني

تعريب

شاعر النيل

محمد حافظ ابراهيم



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL


سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

**العدد ٣٠ ـ ذو الحجة ١٣٧٢ ـ سبتمبر ١٩٥٣**

**No. 30 — September 1953**

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

( المبتديان سابقا ) القاهرة

**المكاتبات**

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

# كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

# البؤساء

## لفيكتور هيجو

تعريب

شاعر النيل

**محمد حافظ ابراهيم**

---

**الجزءان : الأول والثاني**

---

# اهـــداء

## إلى الأســتاذ الامام

انك موئل البائس ، ومرجع اليــائس .. وهــذا الكتاب ــ أيدك الله ــ قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين . وضـــعه صــاحبه تذكرة لولاة الأمور ، وســماه : كتاب « البؤساء » ، وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة : ( الرحمة فوق العدل ) ..

وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ،واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أرفعــه الى مقــامك الأسنى ورأيك الأعلى ، لأجمع فى ذلك بين خلال ثلاث : أولاها التيمن باسمك والتشرف بالانتمــاء اليك ، وثانيتهــا ارتيــاح النفس وســرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذى يعرف مهر الكلام ، ومقــدار كد الأفهــام ، وثالثتها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق ..

فليتقدم سيدى الى فتاه بقبوله ، والله المسئول أن يحفظه للدنيــا والدين ، وأن يساعدنى على اتمام تعريبــه للقارئين

# كلمة فى التعريب

هذا كتاب « البؤساء » ، وهو خير ما أخرج للناس فى هذا العهد ، وضعه صاحبه وهو بائس ، وعربه معربه وهو بائس فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة ، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه ، وعربه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه ..

ولولا أننى أشرب بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم ، لما وصل مبلغ علمى الى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعى فى قطرة من سيول قلمه . ولو أن لى قلما من أعواد أشجار الجنة ، وصحيفة من صحف ابراهيم وموسى ، وقد تلقتنى البلاغة من كل جهة بفضلها ، فسموت الى لباب مصاصها ، وأخذت منها حاجتى ، لما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء ..

فلقد كنت أنظر فيه نظرة المنجم فى الميقات ، وأستوزع الله بيان تلك المعجزات ، حتى اذا نفذ الفكر الى ما وراء سطوره ، واهتدى الخاطر الى مكامن حكمه ، دعوت أم اللغات ، وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية وتلك الفتاة الغربية ، وعمدت الى مد صلة النسب بين الغادتين اللتين انتهت اليهما بلاغة العرب وبلاغة الافرنج ، فاذا شمست احداهما وأزور جانبها ، أغريت بها سلطان العقل ، فلا يزال بها يروضها كما يروض الراكب المطية الصعبة ، حتى تسكن

الى أختها وترتاح الى جوارها . ولم تزل تلك حالى : أدخل بينهما دخـول المرود بين الجفن والجفن ، وأمشى بينهمـا مشية الحكيم فىالصلح بين القوم والقوم ، حتى ائتلف الذوقان وامتزج الروحان ، وضمت شمسيهما طفاوة ، واحتـوت بدريهما هالة ، وخلعت الأولى على الثانية جلالها ، وأعارتها الثانية نضارتها وجمالها ، وأصبحت تلك المعاني الافرنجية بعد أن صقلها اللسان المبين ، وجنـدرها الذوق الشرقى ، وهى تسكن فى هذه المعانى العربية

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شيء من مؤلفاتذلك الحكيم ، وهم أحوج الناس الى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثلذلكالفكر ، الذى كنت بينا أراه يسابح الاجرام فىأفلاكها اذا هو يدارج النمال فى مدابها ، وبينا ألمحه بين ذروة العلم وشرفة القصر ، اذا هو بين قاع البحر وعميق النهر . . فكم افلت من هجيرة واختبأ فى خميلة ، فمن تلهب جمرة القيظ فى صميم القائلة ، الى تراوح النجم فى الروضة ، ومن التردد بين زفير العاشق وحرقته ، الى التمشى بين نفس الحبيب وريقته

ولا يزال الـكتاب فى كل أمـة يلتمسون أن يعقل عنهم ما ألهموا أن يدخلوه فى مؤلفـاتهم من الحكم والأمثـال ، فيصدحون عنها الشرور بأقلامهم كمـا يصـدح(١) المطر ، ويستهبطون الحكمة من سمائها فيسكنونها بين سطورهم ، وينشدون لذلك الأمثـال فينثرونهـا فيمـا يتخيرونه من الأقاصيص التى تدعو الى العظة ، وتصفح النفوس عنركوب سبل الغواية

---

(١) أخرجها مثلا . وكان من وساوس العرب ـ اذا خشوا سقوط المطر ـ أن يعمد أحدهم الى خيمته أو عطفه ، فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها ، رجاء أن يخطىء المطر فى سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت هذه الصدحة مما استعان به المتنبى على تأييد دعواه فى النبوة

ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذى أعانى تعريبه اليوم فلقد قص علينا صاحبه أحسن القصص ، فكان مثله فيه كما قال عن نفسه : مثل المنجم الذهبى لا تصل الأيدى الى تبره حتى تكاد تحصى ثراه عدا

وقد خار الله لى أن أعربه ، فاستعنته فأعانني، واستهديته فهداني ، وسلخت اثنى عشر هلالا فى تعريب تلك الصفحات التى ترونها اليوم . وحاولت أن أصل بها تلك الرحم ، التى قطعتها يد الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال، الذين تجردوا لتعريب أساطير الأولين فوفوها قسطها من الاتقان، وألبسوها من البهجة لباسا ترضاه اللغة ويرضاه أبناؤها .

أرأيتك أيها الناظر فى كتاب كليلة ودمنة ؟ أكان يقوم وانت تذوق حلو تركيبه ، وتستمرىء لذة أسلوبه ، أن عبد الله ابن المقفع قد عربه عن الفارسية، لو لم يصل خبر ذلك اليك ؟ فسقيا لتلك الأقلام التى عربت فأعربت ، وسطرت فأعجبت وواها لهذه اللغة التى أصبحت بين أعجمى ينادى بوأدها ، وعربى يعمل على كيدها ..

ومن نظر فى بطون تلك الكتب التى تترجم اليوم ، رأى هذه الغادة الشرقية وهى على فراش موتها تندب خدرا قد ابتذلته الأقلام ، وسترا قد هتكته الأوهام ، وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبورا ، وخاطوا لها من تلك الصحف أكفانا ، وهيأوا من هذه الأقلام أعوادا ، وما هو الا أن يثنى ذلك الغربى بدعوته حتى يسرع الى جنازتها أهلها وذوو قرابتها ..

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر ، اللهم ان هذا خذلان منك فأدركنا برحمتك وهيىء لنا من أمرنا رشدا . .

أيكون بين أبناء اللسان العربى مثل من أرى اليوم من فحول البلاغة وملوك الكلام ، وأنا لا أعرف من هذه الزهور



شاعر النيل : محمد حافظ ابراهيم

قديمها وحديثها غير أسماء معدودات ، ولا أكاد أجيد وصف قصر من القصور أو آلة من الآلات ، ومخترع من المخترعات الا ما وقع تحت نظر العـرب فى تلك الجزيرة الجـرداء ، وما سمت اليه حضارتهم فى عهد الدولة الأندلسية ؟

أى رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، وأى غيث سقاه ، وجو حواه ، حتى أدخل فى لغته من الكلمات ما يخطئه العد ، ووقف فى وجوه المعـارضين فيها وقفـة البسفور فى وجوه الطامعين فى هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أو ليس رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟

تباركت أسـماؤك اللهم .. أيدعى البعير ــ وهو ذلك المركب الخشن ــ بهذه الأسماء التى تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لأسمائها مرادفا فى هذه اللغة ؟ فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الأبيضان أ بردا عظامى    المـاء والفت بلا ادام(١)

وهو فوق راحلة طالع عـلى قتب يكاد يدمى عجـانه تحت شمس لا تكاد تأكل ظلها فى مفازة

تمشى الرياح بها حيرى مولهة    حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

اذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول وسرد من الوصف ما يبلغ حـد الاعجاز ، وأردتنـا على أن نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخـوان ، ونتبوأ أريكة « الأوتوموبيل » تحت ذلك الظل الظليل ، فى مخـارف(٢) ضـفاف النيل على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك

---

(١) تقول العرب : الابيضان عن الماء والفت ، والاحمران عن اللحم والخمر
(٢) جمع مخرف وهو المنتزه

المركب الذلول الذى لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحائر لا نعرف له اسما يدل على مسماه ، ولا مرادفا فى اللغة يؤدى معناه ؟

فخذوا أيها القادرون على الاصلاح بيد اللغة ، وانظروا كم أدخل فيها آباؤكم الأولون من كلمة فارسية

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليه . وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما آمنين



## كلمة للمعرب في المؤلف

ولد « هيجو » والقرن الغابر صبي في مهده لم يدرج من حجر أمه ، ولم يفرق بين أمســـه ويومه ، فاصطحبا طفلين ثم افترقا ، وضرب الـــدهر بينهما بضرباته فالتقيا شيخين فانيين فاذا الأول سيد القرون ، واذا الثاني نادرة البطون ، هذا يمشي على قـــدمين من ليل ونهار ، ويطير بجناحين من كهرباء وبخار ، وذلك يتوكأ على عصوين من عظة واعتبار ، ويرتدي بثوبين من حكمة واختبار ، وقد جلس الأول على سرير دولة الأيام ، وأخذ الثاني بصـــولجان دولة الأقلام ، فالتقت دولة العجب ، بـــدولة الأدب ، واجتمعت بدائع الاختـــراع ،ببـــدائع اليراع ، فاخضل ظل هاتين الدولتين ، وامتد من المغربين الى المشرقين ، فظل الناس بين نعيم الحرية ونعيم المدنية

سبحانك اللهم ، هل كانت تعقل هذه الذرات ــ وهي في عالم السديم ــ أن سيرتقي بها الحـــال الى العيش في هـــذا النعيم ؟ فتبارك الله الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم

ولد هيجو واللغة الفرنسوية بمنزلة بين الضعف والحاجة ، والقوم بين أسر التقليد ، وذل التقييد ، والأدب لم يبق منه الا الذماء ، فأنبته أبوه نباتا حسنا ، فما كاد يشهد ستة عشر ربيعا حتى تحركت نفسه الى معالجة الشعر فقرض قصيدة دار لها فلك البلاغة ، ورددها لسان الكون ، رفعها الى المجمع

العلمي فاهتزت جوانبه عجبا ، وكادت تطير أعضاؤه طربا ، ولولا أنه كشف عن سره ، وأوضح عن بيـان عمره ، لأجزلوا ثوابه ، ورفعوا جنابه ، ولكنهم قارنوا بين شعره ، وعمره ، فاستنزروا أيامه واستغزروا بيانه، فظنوا أنه يسخر منهم، فلم يجيزوه الا يسيرا. وهبت بعد ذلك رياح سعوده، فأخذ بناصية القوافى ، وتنازل له سلطان الخيال فسبح فى ملكوته ما شاء الفكر ، وما زال يتنقل فى تلك العوالم الخيالية حتى نودي به أميرا على دولتى النظيم والنثير ، وشجر بينه وبين جماعة الشعراء الخلاف ، فرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم ، ورأى غير ذلك ، فلم يزل بهم يصابرهم ويطاولهم حتى ظهر عليهم، ورفع للشعر منارا أطلت منه الحقيقة بجلالها ، وأشرفت منه الطبيعة بجمالها

ولما صدع قيود الشعر ، وأطلق سراحه من سجن التقييد وقـد وقف اذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره ، نظر فاذا فن التمثيل يتضاءل تحت أستار الملاعب ، تضاؤل الحسناء تحت الأطمار ، لأخذ رجاله بأسباب التقليد ، وترسمهم أثر الرومان واليونان فيمـا وضعوه من الأقاصيص التى تمثل أدوار تلك الأزمان الغابرة ، ورأى أن الواضعين فيه لم يجيئوا بما ينقع الغلة ، فانبرى الى منازلة أولئك المقلدين ، وقامت بينهما حرب عقدت عجاجها الأقلام ، وأدارت رحاها الأفهام فما زال يكر عليهم بجيوش البيان ، وكتائب البرهان ، حتى خضعوا لقلمه ، وساروا تحت علمه

ولاحت بعد ذلك تباشير الاصلاح فى سماء الأدب ، وظهر كتابه الذى سماه نتردام دوبارى Notre Dame de Paris فطلع على الناس طلوع القمر على المدلج الحائر ، حشرت له فيـه اللغة جنودها من الألفاظ والمعانى ، فاستعرضها صفا صفا ، وتفقدها حرفا حرفا ، ثم أبرزها الى ميـدان التحرير على أحسن تعبئة وأكمل نظام ، وقد وفق بين قلبها وجناحيها كما يوفق القائد الخبير

ولما قضى من الأدب لبانته ، وأخذ من الشعر حاجته ، هجر الشعر الى السياسة ، وما هي الا جولة من جولات الفكر حتى دعته السياسة الى مواصلة الشعر ، ليوضح لها سبيل استهواء الأفئدة ، واستبطان الضمائر ، ويكون طليعتها فى اكتشاف ما يستكن فى قرارة النفس وخلجات الفؤاد

وبلغ هيجو من السياسة كوكبها(١) ، فركب سفين الحرية عرض بحارها ، فما زالت توفى به من بحر الى بحر ، وترمى به من عبر الى عبر ، وهو على ظهرها يطالع فى أفق الدهاء صحيفة الرجاء ، وقد وضع أمامه ابرة الأمل ، وجعل وجهته قطب العمل ، حتى بلغته شاطىء آماله ، وحمد مغبة أعماله

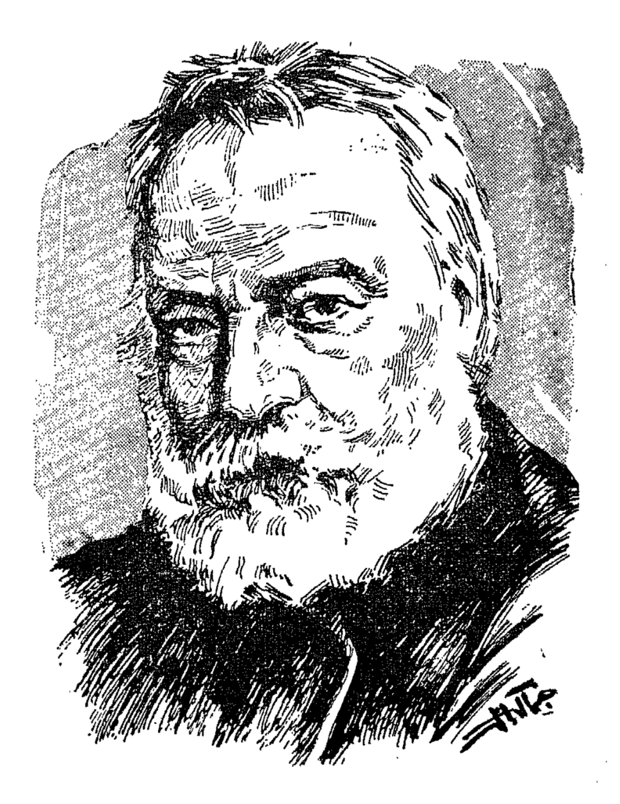
وما كاد يتنسم الأفرنس نسيم الحرية حتى هبت ريح الاستبداد من رقادها ، وصفت من جوانب العرش المالك ، فاحتملت هيجو على أكتافها واندفعت به ، حتى اذا بلغت سماء بروكسل عاصمة البلجيك ألقت به هناك فى منفاه الجديد

فنزل الرجل متماسكا لم يعتره الدهش ، ولم يتطرق الى عزمه الخمول ، وغادر باريس وقد أقسم أن لا يهبطها أو يهبط عرش الملك فيها ، وبرت يمينه .. فانه لم يطأ أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الألمان فى حرب السبعين

ولبث هيجو فى منفاه ، وكانت أيامه فيه أخصب أيام حياته فأسلس العنان لفكره ، وأوسع المجال لقلمه ، فوضع كتابه الذى سماه «نابليون الصغير» ، ونظم بعده كتاب «العقوبات» فنال فيه من نابليون الثالث ما لم ينله منه زوال ملكه ، وكان عليه أشد غضاضة من تسليم سيفه الى يد عدوه فى يوم خذلانه

---

(١) كوكب الشيء معظمه



فيكتور هوجو : مؤلف البؤساء

وجاء ذلك الكتاب مثـال ما يملى الحق على القريحـة ، وتوحى الموجدة الى اليراع ، ووضع بعده كتاب «المشاهدات» وكتاب « البؤساء » الذى نعربه اليـوم ، وكم له غيرها من مؤلفات جليلة ، ومنظومات بديعة ، منها ما صنعه فى صباه « كأوراق الخريف » « وأناشيد الشفق » ، ومنها ما وضعه بعد عودته الى الوطن ككتاب « العام الأسود » ، ومات هيجو وهو نادرة الفلك ، وواحد عطارد



# كلمة للمؤلف فى البؤس

مثل البائس الذى سجلته يد المقادير فى سجل العناء ، وطوحت به فى ظلمات هـــذا الوجود ، فمضى يتخبط فى ديجور الحياة ، يؤمه النحس ، ويمشى على أثره الشقاء ، تلعب به الايام لعب النكباء بالعود ويدب فى نفسه اليـــأس دبيب الآجال فى الاعمار ، كمثل الغريق ظفر به البحر الهائج فى يوم ريح صرصر عاتية ، فلبث معلقا فى خيط من الاجل تحت شقى مقص الفناء ، يفتح له الوهم بين كل موجتين قبرا ، ويمد له الخوف بين كل قطرتين بحرا ، يطفو به القدر ويرسب به القضاء ، فتلتقفه الموجة بعد الموجة ، وتلتقمه اللجة بعد اللجة ، وقد درجه البحر فى كفن من الزبد ، وحمله على نعش من الماء فوق أعناق أمواج كالجبال ، تعلو به تارة الى مجرى الافلاك ، وتسفل به أخرى الى مسبح الاسماك ، حنق عليه الماء والهواء ، وزهدت فى وجوده الأرض والسماء ؛ وكلما هم بالاستسلام للموت أدركه الحرص على البقـــاء فجعل يجالد تلك الامواج الثائرة ، ويصارع ذلك الجبار العنيد ، حتى اذا نزح التعب قواه ، طواه البحر فى جوفه طى السر فى الفؤاد : ذلك مثل البائس فى هذه الحياة الدنيا

اما ذلك المجتمع الانسانى فمثله كالسفين اخذت فى ذلك الخضم مجراها ، فانحطت عليها الاعاصير واصطلحت عليها الانواء ، وألقت بها فى تلك اللجج التى تضل فيها الظنون والاوهام سبيل النجاة ، يدنو منها القضاء فيفرق ، ويسبح

فيها الخيال فيغرق ، اذا تدجت فهى ليالى الشـقاء ، واذا ثارت فهى براكين الماء . ألقى بهذه الجارية تيار الماء والهواء ، الى حيث هذا الغريق تصافحه رسل الحمام ، فجعل يدعوها اليه مرة بالنداء وأخرى بالايماء ،لتستل حياته من يد الأجل. وكلما صاح ذهبت بصيحته هوج الرياح ، أو أشار قام بينه وبينها سد من الأمواج ، فهى لا تسمع نداءه ، ولا تنظر ايماءه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين



# الجزء الأول

# الفصل الأول

## جان فالجان

أشرف على مدينة ( دينى ) رجل يضرب فى الأرض على قدميه فدخلها وقد مال ميزان(١) النهار واكتهل اليوم الأول من شهر أكتوبر سنة ١٨١٥ وكان قد ركب نعليه عامة يومه فما أدركها حتى أخذ منه الجهد وأعياه النصب وأمله طول الشقة(٢) وحتى ملكه الجوع ونال منه الظمأ وجمع فى منظره بين تعب الحياة وتعب السفر فكانت النظرة اليه تدعو الى الريبة فيه . لذلك ما نظره أحد من سكان تلك المدينة ومرت به خلجة شك فى أمره

وكان ربعة فى الرجال بادنا(٣) شديد الحول يضرب لونه الى السمرة طويل شعر اللحية قصير شعر الرأس لقرب عهدها بالمقراض نيفت أعوامه على الأربعين ، عليه أسمال بالية وبيده عصا وقد احتقب(٤) خرجا ملأه بحاجه ولباناته

دخلها وهو أشعث أغبر ، وقد انتشرت على أديم وجهه طبقة نسجتها يد السفر من خيوط الشمس وطلتها بطلاء من العرق والغبار فسار فيها وقد أنكره كل من رآه ــ وكذلك ينكر ابن السبيل ــ وأخذ سمته الى دار المشيخة ، فمضى(٥) قدما فى احدى سبلها، حتى اذا قطعها عطف يسرة وعرج على تلك الدار ولبث فيها بعض ساعة ، وخرج فمر بجندى فحياه

(١) مالت الشمس الى الغروب . (٢) السفر الطويل . (٣) ذو البدن السمين . (٤) اى حمل . (٥) اى سار الى الامام

فصعر(١) الجندى خده وتثاقل فى رد تحيته ، فمضى الرجل فى طريقه ونظر الجندى يترسم(٢) مواقع أقدامه ، حتى غاب عنه سواده

ولعله كان قادما من الجنوب ـ فلقد طلع على تلك المدينة من ذلك السبيل الذى ركبه نابليون الأول قافلا من ( كان ) الى ( باريس ) منذ سبعة أهلة ـ وكأنه منذ أصبح ما تبلغ(٣) فما هو الا أن أفلت من دار المشيخة حتى تيمم النزل ، فلما دلف(٤) الى حيث يطبخ ألفى رب النزل هناك ، فسأله رب النزل وقد أحس بقدومه وان لم يمد اليه بصره : « ما سؤل الطارق ؟» فقال الرجل : «أكلة ونومة» ، قال : « لك سؤلك» ثم التفت اليه فما كاد يأخذه نظره حتى أخذه الشك فيه فعطف قائلا : « أو تصل يدك الى وفاء حق ما تطلب ؟ » فضرب الرجل بيده الى جيبه واخرج كيسا فهزه حتى أسمعه وسوسة(٥) ما بداخله ، وجلس الى النار يصطليها ـ وقد كان مقرورا(٦) وولى ظهره الباب . وجعل رب النزل يخالسه النظر فى الجيئة والذهوب ، والرجل غافل عنه ينكت الأرض بعود فى يده حتى كاد يأتى عليه(٧) الجوع فصاح بصاحبه : « اما آن ان آكل وليس هنا من هو أحوج منى الى الطعام وما لى بد من تناول ما أمسك به النفس ؟ » فقال له رب النزل : « انى ليحزننى أن تنصرف عنى وأنت طاو ، فلقد سبقك الى شراء ما ترى قوم نزلوا بنا منذ اليوم ، وما منهم الا من هو أحرص منك على الطعام » فقال الرجل : « لن أبرح الأرض حتى أصيب ما أتبلغ به ، فلقد سايرت الشمس من شروقها الى غروبها وقضيت يومى طاويا وما بلغت هذا المكان حتى أدمى السير قدمى، ومن العجز أن أبتغى عنه حولا » . فقال له صاحبه وهو يحاوره : « لقد

---

(١) شمخ بأنفه وتكبر . (٢) ترسم الاثر اقتفاه . (٣) تبلغ أكل الخبز .
(٤) دلف مشى . (٥) يقال وسوسة الحلى ووسوسة الدراهم صوتها .
(٦) المقرور الذى اصابه القر وهو البرد . (٧) اتى عليه أى أهلكه

بالغت فى محاسنتك كى لا أجبهك(١) بالرد ، وكرهت أن أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع فأبيت الا الاصرار فاغرب عنى أيها الرجل ولا تلحف(٢) فى السؤال فأنا أعلم بك منك ولو شئت لزدتك فقد زهدنى فيك ما أقرأ عنك فى تلك الرقعة التى تراها بيدى وصاحبها لا تغيب عنه وساوس صدرك وانك لقريب العهد به ، ذلك ربالدار التى عرجت عليها حينأحلتك المدينة فاذهب غير معقبوحسبك ما سمعت يا جان فالجان » فعالج الرجل الكلام فاستعصى عليه لفرط الدهش ، فأهوى بيده الى متاعه فاحتمله وخرج يتعثر فى ذيل الخيبة ، وركب الطريق الأكبر ومضى على وجهه يقتاده القضاء والقدر

ولو أنه نظر وراءه لرأى بباب النزل قوما تكاد تنهبه أبصارهم ، وما منهم الا من قاف(٣) أثره بنظرة من الشك ولكن الرجل لم يلتفت فقلما يسكن البائس الحزين الى تلك اللفتة التى تريه النحس على عقبيه ، فواصل السير وقد أنساه طريف الحزن تالد التعب ، ولكنه ما لبث أن تنبه فيه هاجع الجوع ، فأشفق أن يدهمه الظلام قبل أن يبلغ مكانا يعصمه من القرة(٤) ويذود عنه الطوى ، فما زال يتيامن ويتياسر حتى لمح ضوءا فقصده فاذا هو علىباب نزل حقير فوقف أمامه وهو يكبره ، الجوع يدفعه والخوفيمنعه ، حتى صحت عزيمته على الولوج فلما صار بصحن الدار وبصربه ربها ، صاح من الطارق ؟ فقال الرجل ، عابر يطلب قوتا وكنا ، ودخل حيث يسمع الصوت فوجد قوما جلوسا ينتظرون نضج الطعام ، وشم ريح القتار فكادت تثب أحشاؤه الى القدر ، فقال له صاحبه : « دونك النار فاصطل ريثما ينضج الطعام » . فانتحى ناحيتها وجلس اليها ومد أمامها قدمين أدماهما التعب

---

(١) جبهه بالرد واجهه به . (٢) الحف فى السؤال أى ألح . (٣) قاف بمعنى اقتفى . (٤) القرة البرد

وما كاد يحتويه هذا المكان حتى احتوى الشك من فيه فقد نظروا رجلا ترتسم على وجهه آلام الحياة مطرقا حزينا اذا امررت عليه النظر امرارا رأيت فيه سهولة السطيع ، واذا أدمنته فيه تبينت فيه الجفاء

وكان بين أولئك الجلوس رجل قد بصر به ضحوة النهار وقد ركب الطريق بين ( براسكاس واسكابلون ) فرابه أمره حين دنا منه وهو فارس فطلب اليه ذلك البائس أن يردفه لينفس عنه كرب السير فكان جوابه أن استحث جواده هربا من شر تلك الطلعة وقد أراد الله أن يكون ذلك الفارس بين أولئك القوم الذين كانوا ببـــاب النزل الاول وقوفا يشيعون ذلك الطريد بنظرات تقعد همة ( الفوتوغرافيا ) عن تصوير ما فيها من الاستخفاف والازدراء وبين أولئك الجلوس الذين رابهم أمره فى النزل الثانى ، فأومأ الى رب النزل فلما دنا منه همس فى أذنه بكلمات ملأته نفورا من ذلك القادم فانفتل اليه ، وقال له : « ما كان أخلقك بالتحول عن هـــذا المكان » فأجابه الرجل : « أو قد علمت بحادثة ذلك النزل ؟» قال : « نعم وسنشفعها بأختها » فاستقبل الرجل الباب ولما صار بالطريق اذا هو بصبية يرجونه بالمدر وقد تعقبوه منذ هبط المدينة ، فخشى أن يصيبه عنت منهم ان هو تغافل عنهم ، فأشار اليهم بعصاه يوهمهم بالاذى ، فنفروا عنه نفور القطا ، فانطلق حتى اذا صار أمام السجن خطر له أن يأوى اليه ليلته وقال لن اجمـــع على نفسى بين الجوع والسهاد ولقد أرانى الى الراحة أجوع منى الى الطعام وهذا جو خليق أن يهلكنى قره ولن أعدم أن اجد فى هذا السجن مكانا يعصمنى منه

فلما تمكن منه هذا الخاطر طرق الباب فقال السجان : « من الطارق ؟ » قال : « غريب لا مندوحة له عن الالتجاء الى السجن » قال : « ومتى كان السجن دارا للضيافة ؟ فان

كنت أمسيت وقد اعياك الامر فهذا باب اقتراف الجرائم لايزال مفتوحا وهو لايلبث أن ولجت فيه أن يقتادك الى هنا »
فانصرف الرجل مخذولا وليس وراء ما به من البؤس غاية ، وتغلغل فى المدينة فمر فى طريق ضيق على عطفيه حديقتان عليهما سياج وفى وسط احداهما دار صغيرة تعلو الارض بطبقة ، باحدى نوافذها سراج يضيء الليل فما هو الا أن رآه حتى أسرع اليه فلما بلغه نظر من تلك النافذة فاذا رب الدار بين زوجه وولده وهو أهنأ ما يكون بالا، فقال أستضيفهم فلعلى أن أصادف منهم جانبا رحيما ، ثم خفض من جزعه ونقر بأصبعه على زجاج النافذة نقرة الجبان ، فلم يسر اليهم الصوت ، فخلع عن منكبيه رداء الفزع ونقر نقرة مطمئنة ، فقالت المرأة لزوجها : « كأنى أسمع نقرا على زجاج النافذة» فتسمعا جميعا فسرى اليهما الصوت فقام الرجل الى السراج فحمله واستقبل الباب ففتحه فأخذ بصره رجلا تذعر منه الابالسة ، فقال رب الدار : « من الذى أرى ؟ » قال : « غريب يستضيفك ولك الحكم فى الاجر » ، فقال له وقد دب الشك فيه : « ان كنت ذا مال كما تزعم فهذه الفنادق فما منعك أن تغشاها » ، قال : « غشيتها فلم أجد فيها مكانا » فقال له وقد تملكه الشك : « ان ما تقول لشبيه بالباطل وليس هـذا بابان المواسم ، وانى لارى رجلا غير ميمون الطلعة ولقد راعنى منك ما يروع المرء من قاتله وكأنى أسمع صوتا يقطر منه الدم وأكبر ظنى انك ذلك الرجل » فقال له : « لا تعجل فى الحكم على ما ليس لك به علم ، فما أنا الا ابن السبيل قطعت فى يومى اثنى عشر فرسخا وقد أجهدنى الكد والنصب بدنى التعب وأخذ منى الطوى ، فهل لك فى أن تسعفني بكسرة من الزاد ولك أجر المحسنين ، فان لم تفعل ، فشربة من الماء ؟ » فقال : « بل شربة من حميم » وأغلق فى وجهه الباب ، فوقف الرجل وقد كاد يأتى عليه اليأس لولا أن بصر فى ضوء الشفق بشيء شبيه بالكوخ فى

وسط الحديقة المجاورة لذلك البيت فقال : «ما لهذا الكوخ بد من ساكن ولكنى آتيه فلعلى أجده خاليا فأفنى فيه دولة الظلام واستجن(١) فيه من ذلك البلاء المتساقط » فقصده فاذا هو وجار (٢) لكلب وقد غاب عنه صاحبه ، فانبطح فيه الرجل على وجهه واستحالت عليه الحركة لضيق المكان ، وكان متاعه لايزال على ظهره ولم تقو يده على ازالته لفرط ما ناله من الاين والنصب ، فلبث قطعا من الليل وليس به حراك حتى اذا أمله حمل ما على ظهره عمد الى نزعه فأخذ يعالجه بيده ، وانه ليفعل ذلك اذ فاجأه رب الوجار ، فتسلل الرجل من مكانه وغادره لذلك القادم وأشفق أن يثير غضبه بتثاقله عن الخروج فينشب فيه أنيابه وهو فى ذلك المضيق لايستطيع دفعا عن نفسه ، وخرج من البستان وهو أشد مايكون جزعا من الحياة شريدا يطويه البرد وينشره الطوى ، تعذر عليه حتى الوصول الى السجون وعزت عليه حتى مراقد الكلاب

فلما صار فى الطريق قال : « لقد قصدت الفنادق فذادونى عنها ــ فالتجأت الى السجن فكذلك ، فاستضفت الناس فكذلك ، ولقد زهدت فى حتى الكلاب ، فليس لى الا التحول عن هذه المدينة »

ثم سار مقنع الراس كاسف البال واستقبل الفضاء وكان ليله بهيما ضرير النجم شديد القر ساقط النواحى متهم الصباح فانطلق حتى اذا بلغ مزرعة حديثة العهد بالحصد رفع رأسه ومد بصره فاذا ظلمات يقصر فيها قاب العين ، وقد زاد فى ظلام الليل ما تلبد فى سمائه من تلك السحب الكثيفة فكانت السماء أشد ظلمة من الارض . فانقلب الرجل على عقبيه وأم المدينة وكانت ذات سور وأبواب فرأى الابواب وقد أغلقت فحاول التسور فأعياه الامر ، فما زال

---

(١) استجن اى استتر . (٢) الوجار الجحر

يطوف بالسور حتى عثر على ثغرة فيه فانحدر منها الى المدينة ، ومضى على وجهه تترامى به الطرقات وتتقاذف به الازقة حتى مر ببيعة فوجد على بابها مقعــدا من الحجر فسقط عليــه لا يعى من فرط التعب واضطجع عليــه .
وما كاد يحتويه ذلك المضجع حتى خرجت من تلك البيعة امرأة صالحة فقالت له وقد رأته ممددا كالجذع : « ماخطبك أيها النائم ؟ » فقال لها : « وهل يدعو ما أنا فيه الى السؤال ألا ترين انى أنام ؟ » فقالت له وقد أخذتها رأفة عليــه : « أتفترش الصخر ؟ » قال : « مر بى تسعة عشر حولا ولا أفترش غير الاخشاب ، وأنا الليلة أفترش الصخور ولولا اننى صفر اليدين لاكتريت لى مكانا . على أننى طرقت الأبواب فلم أظفر بكريم » فقالت : « هل أدلك على بيت ما طرقه قبلك طارق وجبه بالرد ؟ » ، وأشارت له الى بيت صغير على كثب منه فأخذ الرجل سمته اليه

□

وكان هذا البيت لعابد بمدينة ( دينى ) وقد أفرد له المؤلف فى صدر الكتاب بابا قصره على ذكره ومناقبه ، ومبلغ ما فيه أن الرجل مسماح كريم عفيف الازار طاهر المهــد سريرته فى بياض صحيفته فعال للخير مناع للشر ، وكان يقطن هذا البيت مع أخت له على خلق كريم وهى امرأة نصف لا عجوز شمطاء ولا فتاة هيفاء وكانت لهما خادم من ذوات الاسنان تعد من العمر ستين عاما

وبينا كان الرجل آخــذا طريقه الى ذلك البيت كانت كانت الخادم تحدث مولاتها :

« لقد هبط المدينة رجل مريب ما رآه أحد الا وذعر من رؤيته وقد مشى بحديثه الكبير والصغير فورد الاندية وولج الاخبية وأجمع الناس على وجوب التحرز منه حين نظروا فى

وجهه سيما الفتك والشرور فلا ينجلي هذا الليل الا عن حادث جلل وها هو يطوف تحت راية الليـــل فى الازقة والطرقات حتى اذا عن له صيد أو آنس من أحد غرة وثب عليه فسلبه نفسه ومتاعه ولا آمن ونحن فى هذا البيت أن يصول علينا الذئب صولته ، ولا أظن تهاون العسس فى الامور الى هذا الحد الا لما أمسكه حاكم البلد فى نفسه من الضغينة على رئيس الشرطة ، وما وقره رئيس الشرطة فى صدره من الموجدة على ذلك الحاكم يحاول كلاهما القاء تبعة الحوادث على صاحبه ، ولقد وجب على كل من له مسكة من العقل أن يقيم من نفسه حارسا على نفسه حتى تنحسر فترة الشقاق بينهما وأنا غادية الى السوق لشراء مزلاج(١) لهذا الباب وداعية أحد النجارين لاصلاح عضادته »

وانها لتحدثها كذلك اذ دخل سيدها وقد ألم بطرف من الحديث ، فنظر اليها نظرة المستطلع ، وسألها ســـؤال المستخبر : « لقد وعيت طرفا من حديثك فما عسى أن تكون تلك النازلة التى توشك أن تحل بنا ؟ » فاندفعت الخادم تحدث مولاها بما تعلمه من أمر ذلك الرجل ، وكلما آنست منه ارتياحا الى حديثها تغلغلت فى الاغراق واسترسلت فى المغالاة وقالت : « ولقد عود مولاى طراقه على الدخول فى هذا البيت قبل الاستئـــذان ، وقد علموا منه ذلك فهم يغشونه بالليل والنهار ولا يكلفهم ذلك غير دفع هذا الباب ! » وما كادت تنتهى من مقالتها حتى سمعوا طرقا فقال العابد : « أتيت أهلا أيها الطارق » فاندفع الباب بعنف ولاح رجل على عتبة الدار وأخذ يخطو الى صحنها بقدم مطمئنة وصدر لا يبرحه القلب . وأن عهدنا بهذا القادم لقريب ، فما هو الا أن تراءى حتى كادت تنقطع نياط قلب الخادم من الهلع ، فهمت بالصياح فخانها الصوت فلبثت فاغرة الفم غائبة الرشد .

---

(١) الترباس عند العامة

اما الاخت فقد حفز الخوف احشاءها حفزا فنظرت الى أخيها فاذا هو مثلوج الصدر جليد القلب رابط الجأش طلق المحيا ، فثاب اليها رشدها وعاودها السكون ومرت كأن لم تكن تلك الجازعة الهلوع ، واما ذلك الرجل ، فقد وقف فى صحن الدار وانشأ يقول :

« انني مجرم طويت فى السجن رداء شبابى ، وسلخت فيه مائة وثمانين شهرا حتى استوفيت عمر العقاب ، ولم تشرق علي شمس الحرية الا منذ أيام أربعة ، فهبطت تلك المدينة وقد شمر النهار ، فقصدت الفنادق ، فحالت بيني وبينها تلك الورقة الصفراء التي يحملها حديث العهـــد بمغادرة السجون ، فطرقت الابواب فلم اصادف رجلا كريما ولا قلبا رحيما . فقلت آوى الى السجن ، فأنا أقرب النـــاس عهدا به فنهرني السجان ، فدلفت الى وجار كلب فطاردني حتى طردني ، فقلت أنطلق الى الفضاء فأنام تحت حراسة النجوم ، فتقنعت بالسحاب وكأنهـــا عافت النظر الى تلك الطلعة المنحوسة . وأشفقت من سقوط المطر ، فعدت معقبا الى المدينة ، ولم أصب من رحمة فى الارض ولا فى السماء ، فحالت بيني وبينها الابواب حين بلغتها ، فما زلت أطوف بالسور حتى ظفرت بصدع فيه وانحدرت منه الى المدينة وهمت على وجهى فى الطرقات حتى مررت ببيعة فاذا على بابها مقعد من الحجر فانطرحت عليه ، واني لكذلك اذ مرت بى امرأة من الصالحات فنفضت اليها جملة الحال ، فأرشدتني الى هذه الدار ، وها انذا قد بلغتها . ولقد عودني الشقاء على أن أجتزىء بالشربة واكتفى بالكسرة ، فهل أنا مصيب عندكم ما امسك به النفس ؟ فلقد ظللت يومى طاويا وقطعت اثنى عشر فرسخا وأنا راكب هـــذين النعلين ، فان فعلتم — وما أظنكم تفعلون — فلكم ما تشاؤون من الاجر ، فاني على الدفع قدير ! »

فنظر العابد الى الخادم ، وقال لها : « هيئى له مكانا على المائدة» ، ثم أخذ يحد البصر على ذلك الرجل ، كمن يحاول أن ستشف ما فى قرارة نفسه ، فمضى الرجل قدما حتى أقترب من السراج وضرب بيده الى جيبه فانتزع منه تلك الورقة الصفراء ( اجازة الاطلاق ) وكأنه لم يصدق أذنه لقرب عهدها بسماع غير الذى سمعت ، فالتفت الى العابد ، وقال له : « دونك الورقة التى ما صحبتنى الى مكان الا سبقنى النحس اليه وانى لأتلو عليك ما فيها فقد تعلمت القراءة فى مدرسة السجن » . وأخذ يتلوها :

« ان جان فالجان مجرم أطلق سراحه بعـــد أن لبث فى السجن تسعة عشر حولا ، قضى خمسة منها قصاصا على السرقة ، وقطع الباقى جزاء معالجته الفرار من السجن مرارا وانه لفتاك جسور »

ثم قال :

« لذلك ترانى ما حللت فى مكان الا وأنكرنى من فيه وأوجس خيفة منى فياليت شعرى أكذلك تكون معى أم أنت من المحسنين ؟ »

فنظر العبـــد الى الخادم وقال لها : « مهدى له سريرا » وخاطب الرجل قائلا : « نزلت رحبا فاجلس الى هذه النار واصطل وما هى الا لحظة حتى يحضر الطعام فاذا فرغت من تناوله أخذت مضجعك فى ذلك السرير » . فصـــدق الرجل فى هذه المرة أذنيه وأشرقت أسارير وجهه وسرى عنه ما كان فيه من الغم ، وخرج به فرط السرور الى الهذيان فجعل يقول : « أسرر وحشية وغطاء وما لجنبى عهد بها منذ تسعة عشر حولا ؟ ولقد كان قائما بنفسى أن لا أرى منك غير الذى رأيت من أصحاب الفنادق ، فما بالك تبالغ فى محاسنتى كأنى بعض بنى الانسان ولقد كنت أنهر الساعة كما تنهر الكلاب ، فما أرق شمائلك أيها الرجل فتالله

لأضاعفن لك الاجر . فيا ترى ما اسم هذا النزل وكم ينبغى أن أدفع ؟ »

فقال العابد : « ان الذى يؤويك لم يكن بنزل كما تزعم ، ولكنه بيت ذلك الذى يخاطبك » فقال الرجل : « لقد خيم الحزن على بصرى فلم ألمح اشارتك التى تحملها ولعلك عابد بتلك البيعة القريبة ، فلا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، فأنت حقيق بمؤاساة البؤساء »

ثم رد الرجل ورقته الصفراء الى جيبه ، وألقى على الارض متاعه وأسند الى الحائط عصاه وانتحى ناحية النار وجعل يقول : « ولا أخالك تكلفنى على ذلك أجرا » . فأجابه صاحبه وهو يحاوره : « لا بل فاحفظ عليك دراهمك فلسنا فى حاجة الى شىء منها »

وكره العابد الخوض معه فى مثل هذا الحديث فحول مجراه قائلا : « ولعلك ياسيدى مقرور ، فان ليلتنا باردة الهواء » فتمشى السرور فى قلب الرجل حينما استأذنت تلك الكلمة على سمعه ، وتنزهت لها روحه من داخل الجسد ، وأصابت منه تلك اللفظة ( سيدى ) موقع الماء من ذى الغلة الصادى

ولا يزال المصاب فى شرفه على ظمأ الى نهلة من موارد الاحترام ، حتى اذا ظفر بها أصبح مبرود الغليل

وانتقل العابد من حديثه الى مخاطبة الخادم فقال : « أرى سراجنا مريض الفتيلة ضئيل النور » . فألمت بقصده وأسرعت الى مخدع نومه وعادت تحمل شمعدانين من فضة ووضعتهما على المائدة

فقال الرجل للعابد : « لقد أكرمتنى الكرامة كلها وحادثتنى محادثة القرين وجلست معى على بساط المساواة ، على أنى لم أكتمك شيئا من أمرى وعندى ان ما فعلت معى لكثير على مثلى » فقال العابد : « لم تكن الدار بدارى ، ولكنها دار للمسيح ولا يسأل هذا الباب داخله كائنا من كان عن اسمه ،

ولكن يسأله عن ألمه وأنت رجل قد أضر بك الالم ونال منك الجوع والظمأ ، فالتجأت الى تلك الدار وليس لى فى ذلك من فضل ، وانما الفضل لله فهيا الى المائدة فقد حضر الطعام »

فأخذ الرجل عليها مجلسه وجلس اليه العابد يؤاكله ويؤنسه حتى فرغ من أكله وحانت ساعة الانصراف الى النوم فأخذ بيده الى المضجع الذى هيأه له ومر فى طريقه على حجرة العابد ، فنظر فيها نظرة ألمت بجميع ما بداخلها وحين بلغ به رب الدار مضجعه حياه وهم بالانصراف ، فتعلق به الرجل ، وزمهر فى وجهه بعينين نم انساناهما عما كان يخفيه فى قرارة نفسه من الغدر ، فقال له وقد شبك ذراعيه ووقف أمامه وقفة تمشى لها القلوب فى الصدور : « وما يؤمنك أن لا أنالك بسوء وقد جعلتنى بحيث لا يحول بينى وبين الفتك بك حائل ؟ » . فأجابه العابد : « ومتى أغنى الحذر عن المرء شيئا وهذا أمر قد فرغ الله منه ؟ »

ثم غادره وانكفأ الى مخدعه ولم يلتفت اليه . وبعد أن قضى فيه صلاته تحول عنه الى البستان وأخذ يطوف فى نواحيه وهو يتأمل فى نظام الفلك وقدرة الصانع ويطلق الفكر فى تلك الاشياء المستسرة فى ضمير الدجى

أما الرجل فما صدق أن يتوارى عنه حتى اهوى الى السراج فأطفأه وانطرح على ذلك السرير ، وليس به حراك وغط فى نومه ، وما كاد ينصرم من عمر الليل نصفه حتى انقلب العابد الى مخدعه وأخذ مضجعه فيه ونام ولم تبق فى هذه الدار عين ولم يأخذ النوم بمعاقد أجفانها . ولما اكتهل الليل أو كاد تيقظ الضيف من نومه !

▭

وقد آن أن نسطر للقراء تاريخ ذلك الرجل :

كان جان فالجان من أسرة رقيقة الحال تعمل فى الارض ببلدة ( برى ) وكان ابوه يشذب الشجر ، ولم تكن له حرفة سواها فتربى هذا البائس فى معهد الجهل ، فلم يجلس الى مؤدب ولا معلم ولم يرتضع بلبان العلوم والمعارف فمر فدما جهولا . ولما يفع ورث عن أبيه تلك الحرفة وكان طويل التفكير عن غير حزن ، وفقد أبويه وهو صغير فماتت أمه محمومة ومات على أثرها أبوه .. هوى من رأس شجرة كان يشذبها فدق عنقه ، فاحتضنته أخته وكان لها سبعة من البنين والبنات فلم يزل مكفى المؤونة عندها حتى مات زوجها وليس بين ولدها كاسب وأكبرهم يومئذ فى الثامنة من عمره فلم ير جان فالجان بدا من القيام بمعاش أخته وأولادها فجعل يعمل لبطنه وبطونهم ويكدح فى طلب الرزق وأجره فى أيام موسم حرفته لايزيد على ثمانية عشر صلديا ، فاذا انقضت تلك الأيام انطلق الى جماعة الحاصدين فى المزارع فأصاب رزقا له ولأهل بيته . وما زال يكافح الايام ويناضل البؤس وهو لا تصل يده الا الى ما تدعو اليه الحاجة لحفظ الحياة حتى نزلت بهم سنة من السنين حبس شتاؤها الناس عن الخروج فى طلب وجوه الرزق ، فأملق الرجل املاقا شديدا ونزلت به الضائقة وحضره العوز ، فأمسوا ذات ليلة ولم يجدوا ما به يتبلغون ، فصاحت تلك السبعة الاطفال من ألم الجوع ، والتصقت بطونهم بالظهور من فرط الطوى . فكبر الامر على جان فالجان وغادر الدار وخرج هائما على وجهه يطلب لهم ما يقتاتون به فمر بخباز قد أغلق حانوته وتهيأ للنوم فى مخدع له بداخلها ، وكان بابها من زجاج وخلفه حواجز من الحديد ينفذ من أثنائها الساعد فوقف أمامه ونظر من زجاج الباب فاذا رغفان الخبز على قيد ذراع منه ، وذكر أمر الغلمة فساقه قائد الاضطرار الى ارتكاب جريمة السرقة لأجل أن ينتزعهم من مخالب

الجوع ، فصدع الزجاج بقبضته وأهوى بيده الى الخبز . وانه ليحاول اختلاسه اذ أدركه الخباز وقد تنبه من نومه مذعورا على دوى تلك الصدمة . فتخبل الرجل فى أمره وطرح الخبز واخذ يعدو طلبا للنجاة . وطفق يعدو والخباز على أعقابه حتى لحق به وتعلق بأثوابه وقد خدشه الزجاج فى يده وساعده خدوشا كانت هى الشهود على جريرته ، فسيق الى المحاكمة ، وكان كلفا بالصيد فى الغابات مدمنا لحمل بارودته ، فلما قبضوا عليه ، وكان محتقبا لها ، شبه لهم انه بعض خطفة الصيادين وهم قوم قد مقتهم الشعب لوهم دينى رسخ فى عقيدته يلحقهم بقطاع السبيل ، لذلك وفوا هذا البائس قسطه من الاذى وزجوا به فى السجن خمس سنين !

وفى اليوم الذى نودى فيه بنصر ديمونتبوت كان جان فالجان يرسف فى قيوده وقد سلكوه مع رفقة له فى سلسلة طويلة الذرع . ساروا به الى سجن تولون وقلبه يقطر حزنا على هؤلاء الذين خلفهم بعده لا ترعاهم عين ولا تواسيهم يد ولما وصل الى السجن ألبسوه ملابس المجرمين ولم يبق له أثر من ماضيه حتى اسمه فقد محته يد الشقاء وأصبح لايدعى بغير نمرة ٢٤٦٠١ .

ولا يعلم الا الله ما الذى حل بعده بتلك الارملة وأولادها وقد خلفهم على مدرجة من سيول الحوادث يعبث الجوع بأحشائهم ويلعب اليأس بأرواحهم وليس لهم من معين ولا نصير وقد ركب كل منهم رأسه وهام على وجهه من فرط الجوع وتغلغل فى ظلمات هذا الوجود ولحق بمن ابتلعتهم تلك الظلمات من البؤساء وتشتتوا فى البلاد وجر عليهم الدهر ذيل النسيان فنسيهم . حتى ذلك السجين فى سجنه انساه اياهم كر الغداة ومر العشى ، وتتابع البلاء وتوالى الشقاء ولم يجر على لسانه ذكر أخته فى أيام بؤسه وما ذكرها غير

مرة وقد نقل اليه بعضهم طرفا من خبرها بعد ان لبث فى السجن بضع سنين لايعلم من أمرها شيئا ، نقل اليه انه رآها بمدينة باريس تساكن البؤس فى دار ولم يبق لها من اولادها غير واحد وقد انقطعت الى العمل فى احدى المطابع فنظرها وهى مبكرة اليها وفى يدها ولدها وقد بلغ الرابع من عمره ، وكانت فى دار المطبعة مدرسة للأطفال فأدخلت فيها ذلك اليتيم فهى تغدو به كل يوم اليها وتتركه فى فناء الدار حتى تحين ساعة الدرس ، وكانت تنطلق لمزاولة العمل فى المطبعة قبل هذا الحين بساعة ، فيلبث ذلك اليتيم فى فناء الدار وحيدا فينزوى فى ركن من أركانها وينكمش تحت ذيل الانكسار ، وطالما شاهده من مر به وهو يقضقض من البرد وفى عينيه كسل الكرى وقد تأخذ حارس الباب الشفقة عليه فيدعوه الى كنه حتى يفتح باب المدرسة

هذه هى المرة التى سمع فيها بذكر أخته وآلمته ذكرى تلك الانفس التى كان يحبها ولكنه ما لبث أن عاد الى حاله من النسيان فقد كان فى قلبه جرح لفراقهم وقد اندمل ذلك الجرح لطول العهد واشتغاله بما هو فيه من العذاب والشقاء

وما كاد يطوى أجل السنة الرابعة حتى وقف عليه الدور فى الهروب ، فأفلت من السجن وقد أعانه رفاقه على ذلك وكانوا قد تمالأوا فيما بينهم على الفرار بالتعاقب ، ولما ظن نفسه ناجيا لبث يومين هائما فى فضاء تلك الحرية الموهومة لايهتدى الى سبيل

ولم يستمرىء ذلك البائس لذة الاطلاق والحرية ، ومتى كان حــرا من بات مقلقل الشخص ، مروع العين ، منزعج الضمير ، طاوى الحشا يفرق من الفىء ، ويفزع من لاشىء ، يخيفه الليل تسطو غياهبه فتنسج على بصره غشاوة تمنعه عن التحرز من الوقوع فيما عساه أن يكون قد مد له من

الشراك ، ويزعجه النهار يغرى به الرقبـــاء ويهدى اليه العيون ؟ فهو ما مر بهطير الا وفزع،ولا نبحه كلب الا وجزع ، ولا دقت ساعة ولم يدق لها قلبه ، ولا لاح شبح ولم يطر له لبه ، فاذا أغفى سلت عليه سيوفها الاحلام ، واذا تيقظ راشت اليه سهامها الاوهام

فما زال يذوب فرقا بين تلك الهواجس والوساوس حتى سلمه ظلام الليل الى ظلام السجون غرثان ظمآن لم يصب فى يوميه كسرة من الخبز ولا شربة من الماء وقد امتدت أعوام سجنه الى ثمانية بعد خمسة فدخل السجن وثوب شقائه قشيب جديد بعد أن كان خلقا رديما ، وقد كان غادره ولم تبق له فيه الا سنة واحدة وعاد اليه وقد ولدت له تلك السنة ثلاثا

وما زال يعالج الهروب فلا يسرح الفرصة اذا عرضت ولا يحجم عن الدور اذا آن ، وهو كلما ظن انه ناج أدركه عثار الجد فرده الى السجن ومد فى أجل بقائه فيه حتى قطع على تلك الحال تسعة عشر حولا

وخرج من السجن ، وهو كالحجر الصلد ، لا تنال منه النوائب ولا تأخذ منه الآلام ، بعد ان كان ذلك الرعديد الهلوع ، دخل فيه وهو بادى اليأس جزوع ، وخرج منـــه وهو كظيم

□

وما كان جان فالجان خبيثا ولكنه كان فدما جهولا على انه ما لبث أن تلقن فى مدرسة الدهر العليا دروســـا الحقته بمصاف الحكماء قام بتهذيبه فيها أساتذة الايام والليالى فعلمه القيد السكون ، وعلمته الاغلال الصبر كيف يكون ، وارشده قرع العصا الى الاستقامة ، وسقاه التعب والنصب

مرارة الندامة ، وانتزعت مضاجع الخشب من جنبيه ذلك الطمع ، وصهرت حرارة الشمس ما كان فى نفسه من الجشع

فجلس الى نفسه يحاسبها ، وجرد من نفسه حكما على نفسه ، وجعل ينظر الى ماضيه نظرة الحكيم العاقل ، الى ضلالة الاحمق الجاهل ، فعلم انه أتى امرا نكرا ، وان ما نابه من القصاص لخليق أن يحل به . وقال فى نفسه لقد كانت لى مندوحة عن السرقة فلو انى سألت الناس هذا الخبز لما أبوا علي اعطاءه ، ولو أنى أخذت بالأناة فى الأمر لوجــدت لى منصرفا عن ارتكاب هذا العار ، اما بالسؤال وان كان ذلا ، واما بالعمل وان كان عزيزا ، ولكنى تعجلت وكان الاخلق بى أن أعتصم بحبل الصبر

فمن النزر أن يموت المرء جوعا على انه ما خلق الا ليعيش بين السعادة والشقاء ، فان كان نصيبه فى الحياة الالم كان حقيقا باحتماله وان عظم ، فمــا كل ألم يكون للموت رائدا

فلقد عققت نفسى وعققت تلك الارملة وأولادها وحاولت الفرار من وجه البؤس فواجهت العار ، وانى وان زلت بى القدم فلست بأول الخاطئين ، فهذا سبيل كل مضطر عديم

ولا أزال أرى انهم نظروا الى هذا الجرم من غير وجهه فأكبروا الفعل وافرطوا فى العقاب وأخذوا جانب شريعتهم فى القصاص ولم يأخذوا جانب المجرم فى الرحمة ونظروا فى ميزان حكمهم الى كفة الجزاء ولم ينظروا فى كفة العفو عند التوبة

فلسوف يسألونك عن تلك الحظوظ التى رموا بها فى مجرى النحوس ، وتلك الانفس التى ألقوا بها فى يد البؤس والشقاء

وانى لا أرى مقارنة بين الضرر الذى لحق بصاحب الخبز وبين الضرر الذى نزل بى من وراء ذلك الحكم ، فانه وان لم يأت من طريق الظلم فقد جاء من طريق القسوة والافراط

وكان جان فالجان يحاكم نفسه وهو واجد على تلك الهيئة الحاكمة وقد أخرجه حنقه عن حد الرشد ، ولقد يكون الحنق جنونا

وما ظنك أيها القارىء برجل لم يصب من ذلك المجتمع الانسانى خيرا ولم يأنس منه غير هذا الوجه العبوس الذى كان يكمن فى أثناء ذلك العدل الموهوم ؟ فهو ما دنا منه دان الا ليدنى اليه أذاه ولامسه انسان الا ليمسه منه الضر ، ولا طرقت أذنه بعد موت أبويه كلمة تستروح منها روائح الرفق ولا وقع عليه نظر تمازجه الرحمة

فما زالت تهادى به الخطوب وتقاذف به الآلام وهو يتململ على سيال البلوى حتى أيقن ان الحياة حرب وانه وحده هو المهزوم فيها ، وان ليس ما يعتد به من السلاح غير ما أمسكه فى نفسه من الحقد على العالم بأسره ، فهو سلاحه الذى أعده لمناوأة الايام ومنازلة الانام وكان يشحذه فى أيام سجنه ويبالغ فى الحرص عليه ، وقد رأى ان قوة ذلك السلاح لا تكون الا فى قوة الذكاء ، فعمد الى الدخول فى مدرسة السجن وقد تفتق العلوم بعض الاذهان الى استنباط وسائل الاذى وطرق الانتقام

وبعد أن فرغ من الحكم على نفسه وعلى العالم بأسره انتقل الى الحكم على تلك القوة التى دفعت هذا العالم الى فعل الشر وكان بقاؤه فى السجن تلك المدة الطويلة وهو يرزح تحت أثقال الهموم يسمو بنفسه آنا الى السماء ويهبط بها آنا الى الارض ، فيرى عن يمينه نور اليقين وعن يساره ظلام الشك . ولم يكن ذلك الرجل خبيثا عند دخوله الى السجن ولكنه أحس بسريان الخبث فى نفسه حين جلس للحكم على هيئة العالم وشعر بدبيب الكفر فى قلبه حين جلس للحكم على تلك القوة السماوية

وهنا يجب أن يقف بنا التأمل برهة ونتساءل : هل يدخل

فى باب الامكان أن يخرج الانسان من طباعه دفعة واحدة ، فيخالف غريزته ويناقض نحيزته ، ويتحول عن جبلتـه وينزع عن سجيته

وهل لبنى البشر سلطان على النفوس يحولها عن الفطرة التى جبلت عليها ، فيرد منها الى الخيانة ما فطر منها على الطيبة

وهل يرتبط شقاء الحظوظ وعثار الجدود بفساد النفوس فاذا حمق حظ المرء ، واج به عثار جده خبثت نفسه وساءت فعاله

وهل يخضع القلب لسلطان الحوادث خضـوع الاعضاء فتدعوه الى الانكماش امامها كما يدعو العبء الثقيل الظهور الى الانحناء ، وهل لايوجد فى نفوس البشر نور سـماوى لايذهب بسنائه الشك ولا تطمسه الضلالة ، فيبقى ساطعا فى تلك النفوس يلوح منه نور اليقين وتنبعث منه اشعة الهدى

تلك أسئلة يدرك الحكماء عندها الحصر ويعجز الباحث فى علم الاعضاء عن الاجابة على أخيرها ، فلو انه نظر جان فالجان وهو فى سجن تولون ، وقد وافت ساعة الراحة من عناء الاشغال ، فانتقل من ألم الجسم الى الم الفكر لراى رجلا يقطر حزنا ويذوب كمدا ، يزدهيه الصمت ويغوص به الفكر فى بحار من التأمل . انشبت فيه الشرائع اظفار الظلم فجعل ينظر الى العالم بعين الحقد والحرد ، واخرجته المدنية عن حد الرحمة فجعل ينظر الى السماء بعين السخط

ورأى مريضا داؤه فى النفس لا فى الجسد ، وقد عز عليه الشفاء . ولوقف عمله عند حد التوجع له ، ولصرف نظره عن تلك القروح التى تسكن فى هذه النفس المجروحة بسهام الشرائع الجائرة

ولراى راى ذلك الفيلسوف ( دانتى ) فعمد الى محو كلمة الامل التى رسمتها يد القدر على جباه البشر

وياليت شعرى اكان يحس ذلك البائس بذلك الوجدان الذى نحس به له ، وهل سمت مداركه الى معرفة كنه ذلك الشقاء الذى أتيح له

ولما حانت ساعة اطلاقه من القيود ورن فى أذنه قولهم له انك حر منذ اليوم ، دبت فى نفسه الحياة وشعر باشعة من الامل تمحو من ظلام ذلك اليأس الذى سكن فى نفسه منذ تسعة عشر حولا ، ولكنه ما لبث أن عاودته نزوات الألم حين علم ان اطلاقه سيكون مشفوعا بتلك الورقة الصفراء وانقبض لتلك الجولة من الفكر وجه أمله ، وايقن انه لازال فى قيد لا تصل يده الى صدعه ، وان هذا الحكم قد وكل به زبانية من العذاب ، فهو فى أسر السجون مثـــله فى تلك الحرية الموهومة لا تزال تكلؤه عين البؤس والشقاء

واخذ يفكر بعد ذلك فى الثروة التى جمعها أيام محنته مما كان يصيبه من الأجور على عمله فى السجن ، فظن انه اصبح ربا لثلثمائة وثلاثين غرشا ونسى ان ايام العطلة من كل احد وما يلتحق بها من ايام المواسم قد قرضت من رأس ماله ستة وتسعين غرشا فلم يطرح من حسابه ذلك القــدر العظيم ، ولا تسل عما حل بنفسه من الجزع حين الم بهذا الخسار وذلك الغبن المبين

وفى اليوم التالى ليوم تسريحه من السجن مر بمدينـــة ( كراس )على معمل للزهور به قوم يعملون وكانوا فى فقر الى المعونة لعدم الفسحة فى الوقت وطلب سرعة الانجاز فى العمل فعرض على رب المعمل نفسه فالحقه بأولئك العملة

وكان جان فالجان لا يعرف التعب ولا يأنف الملال فعكف يعمل بخبرة ومهــارة وسأل فى اثناء ذلك عن الأجر الذى

يصيبه العامل فى يومه فقالوا له ثلاثون صلديا ، ولكن رب العمل لم ينقده على عمله غير النصف حين علم انه يحمل تلك الورقة الصفراء

فقـال جان فالجان فى نفســه تلك هى الخطوة الاولى فى سبيل هــذه الحياة الجديدة ، وهذا كله ببركة تلك الورقة الصفراء ، فلعنة الله على كل ذى لون أصفر غير الذهب

فانى وان كنت قد نجوت من السجن فلا أظن نفسى ناجيا من جور ذلك الحكم

هذا ما حل به من الغبن فى مدينــة كراس ، ولم ينس القارىء ما اصابه فى مدينة دينى

□

ولما كان السحر تيقظ الضيف من نومه ، أيقظه لين الفراش ونعومة الملمس ، وقطع غرارة ذلك السرير الذى لم يكن له به عهد منذ عشرين حولا وقد حن جنباه الى مضـاجع الخشب واشتاق رأســه تلك الوسادة من القش وكان قد هجع ثلثا من الليــل فسرى عنه التعب فهب وقد عاوده النشـاط وكانت عادته أن لا يهجع الا قطعا من الليل فلمـا تنبه أخذ ينظر يمنة ثم يسرة ثم اهوى رأسه الى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد

ومن قضى يومه بين الألم والاضطراب ثم أخذ مضجعه بعد ذلك كان النوم الى الحلول بمقلته أسرع منه الى سواه ، ولكنه اذا تيقظ فقلما يجد النوم الى عينه سبيلا

كذلك كان جان فالجان فقد استعصى عليه النوم وادركه الأرق وانتابته الهواجس والافكار وجعل يتنقل به سيال الفكر من مكان الى مكان وقد مرت أمامه تلك الحوادث الغابرة مرور الصور المتحركة ، وهو كلما نزلت برأسه فكرة أدركتها

على الأثر أختها فلا تفتأ تطاردها حتى تغلبها على مكانها ، فما زال رأسه مسرحا لسوانح الأفكار وميدانا لسوابق الأوهام حتى نزل به فكر فألقى فيه عصا التسيار وأقسم لا يبرح أرجاءه وكان مبعثه من تلك الأوانى الفضية التى لمحها ذلك الشقى على مائدة العابد عند تناول العشاء ، ولمح الخادم وهى تضعها فى أحد الأركان من مخدع نومه على مقربة من سريره

فسولت له نفسه أن يذهب بها وقد قومها بضعف ماكان يمتلكه يومئذ من المال وكلما حاول أن يثنى عنانه عن ركوب طريق العار أبى طمعه الا أن يقف به على رأس ذلك الطريق فلبث ساعة وهو يحارب تلك العزيمة ويكافح شيطان هذه النفس الخبيثة ، حتى تغلب عليه الطمع وزين له الشيطان اختلاس تلك الأوانى فثار من مرقده وهم بمزاولة ذلك العمل

ثم عاوده التردد فجلس على سريره وهو من نفسه فى حرب عوان ومد يده فتحسس متاعه والتمسه فى الظلام فمسح عليه بيده وقد كان على قيد ذراع منه . ومن رآه وهو على هذه الحال فى جوف تلك الحجرة تحت أستار ذلك الظلام رأى رجلا خرج به فرط التأمل عن حد الشعور بما حوله وقرأ على وجهه سطورا من الشؤم رسمتها عليه يد الشر الذى كان يجول فى نفسه

ولولا أن دقت ساعة الحائط فانتشلته من قرار تلك اللجة التى نزل الى قاعها غواص الفكر ، للبث كذلك حتى الصباح

فثار من مكانه وخلع نعليه وكان لم يخلعهما عند النوم والتمس عصاه واحتقب متاعه وتهيأ للعمل وأخذ سمته الى مخدع العابد وعلق أنفاسه وأخرس صوت أقدامه ومشى على أطراف أصابعه حتى اذا بلغ الباب تسمع فلم يسمع شيئا فدفعه بطرف البنان وهو أشد ما يكون احتراسا كأنه

هرة تحاول غشيان ذلك المكان فلان له الباب ودار على عقبه بحركة لم يسر الى السمع صوت لها

فلبث غير بعيد ودفعه دفعة ثانية كان فيها اشد جراة منه فى الاولى فازداد لينا حتى فتح له طريقا يسع مروره لولا منضدة من الخشب كانت معرضة فيه ، قد دعته الى طلب الزيادة فى انفراجه

فألم جان فالجان بحرج الموقف ولم ير بدا من الاقدام فدفع الباب مرة ثالثة اشد من اختها وكان الباب على ظمأ الى قطرات من الزيت ، فصر لتلك الصدمة صريرا ، دوى له فى هذه الظلمة صوت جاف فاحتوته الرعدة وكادت تقف ضربات قلبه من الهلع ولبث كمن أخذته الصيحة وقد نفخ فى الصور ، ومثل له الفزع ذلك الباب وقد تحول الى كلب عقور رابه سواد مقبل فجعل ينبح نبيحا يكفى لايقاظ أهل الكهف ، فكيف بأهل ذلك البيت ، وظن انه لا محالة هالك ، وخال عروقه وهى تنبض فى صفحتيه مطارق تطرق الحديد وأن أنفاسه تصفر تصفير الرياح فى بطون الكهوف والمغاور ، وان ذلك الباب قد زلزل الارض زلزالها فزعزع اركان المنزل وان هذا الصوت النكير قد انذر الناس بالكبسة ، فما هو الا أن يتنبه العابد وهاتان المرأتان حتى يقع فى قبضة العسس فيعيدوه الى سيرته الاولى

ولبث حيث كان لا يقدر على الحركة وهو كأنه بعض الأنصاب حتى سكت عنه الروع ورأى الأمر أيسر مما كان فى نفسه فمد بصره داخل الحجرة ، فاذا العابد يغط فى نومه ، واصغى بأذنيه ، فاذا الدار فى سكون الرموس

فخفض من جزعه ودعا اليه الاقدام وخطا خطوة فاذا هو داخل الحجرة فجعل ينقل اقدامه باحتراس كراهة ان يصطدم بشىء من الأثاث . وانه ليختلس الخطى اذ برز القمر من وراء غمامة كانت تغشاه ورمى جرمه على تلك الحجرة

فأنارها فنظر جان فالجان نفسه على قيد شبر من سرير ذلك النائم

وكأن الطبيعة لم تزحزح هذا النقاب عن وجه القمر فى تلك الفترة الا لتوضح لعيون الكون عمل ذلك الجانى لعله يذكر او يخشى فلقد كان القمر منذ زمن لا يتعدى شطر الساعة مقنعا بغمامة سوداء وقد انجلت عنه فى اللحظة التى اوشك فيها أن يعثر هذا الشقى بأعواد السرير

ومن راى ذلك المضطجع على فراشه ؛ راى رجلا قد قام على رأسه حارسان من المهابة والجلال يتألق فى وجهه نور اليقين ويجول فى محياه ماء البشر وترتسم على وجهه آيات الرضا والقبول ، وتكتسى شفتاه بابتسامة الأمل الفسيح ، ويتأرج من أردانه ريح التوكل

وقد راع هذا الواقف جلال ذلك الموقف فجعل ينظر بعين الاكبار الى ذلك الجسد الذى سكن فيه التقى ، وتلك الروح التى باتت تسنح فى عالم الاسرار وتسبح فى ذلك الملكوت السماوى

وكانت لله مشيئة فى ذلك الراقد ، فقد أفاض عليه من انوار الهدى ومنحه من آيات المهابة والجلال ما جعله مهيبا فى اليقظة والمنام لذلك كان جان فالجان وهو مقيد فى مكانه بقيد من الخشية ينظر اليه وقد تمشت العظة فى نفسه وامتلأت عينه جمالا وأفعم صدره جلالا

ولا يعلم الا الله ما كان يمتزج بأجزاء نفسه من الانفعال وهو يدمن النظر الى ذلك الراقد الذى تنتشر على وجهه طبقة من النور السماوى تمازجها نفثة من الروح الالهى الذى أنار الله به بصيرته وأضاء سريرته فتلألأ فى وجهه ، والوجه مرآة الضمير

وزادت بهجة البدر فى بهجة ذلك النائم فكان يراه جان

فالجان فى نور فوق نور ولم يزل واقفا فى مكانه ولم يحول بصره عنه ، وما شك من رآه فى أنه يتردد بين ان يهوى بعصاه الى تلك الجمجمة فيشجها أو يهوى بفمه الى تلك اليد فيقبلها

كل ذلك والعابد غارق فى نوم لم تقطعه عليه تلك النظرات المريبة حتى حانت من جان فالجان التفاتة فرأى الصليب وهو باسط ذراعيه وكأنه يومىء الى أحدهما بالوقاية والى الثانى بالمغفرة ، فأغرته تلك اللفتة الى الاسراع فى العمل

فاندفع يمشى الى الأمام حتى وقف عند تلك الأوانى الفضية وهى فى سفطها فتناوله ورجع أدراجه ومر بجانب السرير بقدم مطمئنة وجأش رابط ، حتى اذ جاوز الباب انحدر الى الحديقة فألقى بالسفط على الارض بعد أن نقل الى خرجه ما كان فيه وتسور الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازى عليه سواد

ولما توفى الليل هب العابد من نومه وخرج يجول فى حديقته وكانت تلك عادته عند كل صباح فلمح الخادم وهى تهرول اليه وتنادى : « أيعلم مولاى تولى الله حراسته أين سفط الأوانى الفضية ؟ »

فأشار العابد اليه وكان مطروحا على مقربة منه ، وقال لها : « اليس هو هذا ؟ » . قالت : « كأنه هو ولكن أين أوانيه ؟ » . قال : « هذا ما لست أدرى » . فصاحت الخادم : « كان الذى خفت أن يكون فلقد فقدت تلك الأوانى وأكبر ظنى أن ذلك الرجل الذى غشينا بالأمس هو الذى ذهب بها »

ثم طفقت تجرى الى حجرة الرجل وعادت على الأثر وهى تقول : « نعم ذهب بها فلا بورك له فيها » ، ولاحت منها التفاتة فرأت آثار أقدامه مطبوعة على أرض البستان ، فجعلت ترسمها بالنظر حتى انتهت بها الى احدى زواياه

فشاهدت آثار تسلقه على الحائط ، فقالت : « من هنا أخذ طريقه ومن هنا ظهر الحائط »

وما زالت تبدى وتعيد وسيدها صامت اللسان وما زاد على أن قال : « ومتى كنا نحن أصحابا لتلك الأوانى ؟ الم تكن هى من نصيب الفقراء وقد حبسناها عنهم ؟ ولقد أصاب الرجل فى فعلته فان هو الا بعضهم وقد وقف به نصيبه عليها فلا تجزعى فليس فى الأمر ما يدعو الى الجزع وهذه أوانى القصدير أو صحاف الخزف تكفينا مؤنة الأسف على ضياعها »

ثم غادرها وانكفأ الى حجرته وما كادت تحتويه حتى سمع طرقا على الباب ، فقال : « أتيت أهلا أيها الطارق » فانفتح الباب وظهر على عتبة الدار ثلاثة من الرجال قد أخذوا بخناق رابع بينهم !

فمد العابد بصره فاذا ثلاثتهم من الجند واذا صاحبه بالأمس يكاد يذوب بينهم فرقا

فقال لصاحبه وقد هبت من شمائله روائح الكرم : « لقد نسيت عند انصرافك عنا أن تقرن هذين الشمعدانين الى تلك الأوانى الفضية ، وأنت تعلم أنك ربهما منذ الأمس . وما أنساك أن تذكرهما الا شيطان العجلة . فخذهما فلعلك أن تصيب من ثمنهما ما تصلح به من شأنك ! »

ثم التفت الى الجند ، وقال لهم : « لقد آذيتمونى فى ضيفى انه خير مما تظنون »

والتفت بعدها الى صاحبه ، فقال له والبشر يجول فى محياه : « اذا شئت زيارتنا منذ اليوم ، فلا تجعل طريقك على البستان فان لك لمندوحة عن احتمال مشاق الصعود والهبوط ، وهذا بابنا لا يغلق فى وجه الطارق ، وما هى الا أن تدفع الباب حتى تكون فى وسط الدار ». ولما تم انصراف

القوم ، قال له : « لقد جعلت لى عهد الله أن تنفق ما اخذت فى رياضة نفسك على البر والتقوى فلا تنكث مع الله عهدك » . فلبث الرجل مبهوتا عند سماع ذكريات ذلك العهد الذى لم يأخذ على نفسه القيام به فقال له العابد : « اعلم اننى اشتريت نفسك بعد ان سللتها من يد الهلاك ثم وهبتها لله فلا تكن عليها من المسرفين »

وخرج الرجل من المدينة كمن يحاول الفرار ومضى على وجهه تقاذف به الطرقات وتهادى به الحقول ولا يشعر لفرط ما نزل به اكان يقبل او يدبر ولا يعلم أنه كان يضرب فى قطعة من الارض لا يتعداها

▭

وهكذا قضى سراة يومه فى أودية التيه والضلال ولم يشعر بألم الجوع وان كان لم يذق طعاما ، فسار وهو يكاد ينشق غيظا ولا يعلم الا الله على أى شىء قد امسك هذا الغيظ فى نفسه ولعله سرى اليه من ندامته على ماضيه أو من خذلانه فى حاضره . وكأنه كان يحس برقة قد ادركت فؤاده واخذت تقرض من أطراف غلظته فتضعضع نفسه كلما شعر بانزعاج تلك الغلظة التى أسكنها فى فؤاده ذلك الظلم الغابر وايدها فيه هذا الجد العاثر . وجعل يتساءل فى كل آن عما عساه أن يحل محلها ويؤثر العودة الى السجون على البقاء على تلك الحال التى لا يعلم مأتاها

كان على عطفى طريقه سياج تطل منها زهور قد أخطأتها أيدى الجناة فجعلت تهيج فيه ذكرى الصبا كلما تنسم منها ذلك الارج الفياح الذى لم يكن له عهد به منذ ابتدأت ايام محنته

وقد بلغت من نفسه تلك الذكرى ما لم يبلغه البؤس

والشقاء وكذلك قضى يومه على غير استواء

ولما كان الاصيل وقد رسمت الشمس على سطح الارض ظلال الحصى كان جان فالجان مضطجعا فى جوف خضراء ليس فيها سواه وقد مر براسها طريق معبد ينتهى بمدينة (دينى) تلك التى لاقى فيها صنوف الشقاء

وانه يفكر فى أمره وفى تلك الاسمال التى كانت مثار النفور لكل من يراه اذ أحس بوقع أقدام ، فاستوى جالسا فاذا هو يرى سوادا مقبلا فتبينه فاذا هو غلام يعد من العمر اثنتى عشرة سنة وهو يحتقب جرة له ويحمل حيوانا صغيرا جعله وسيلة لرزقه ، وقد شهد ما كان عليه من الاطمار البالية بعراقته فى الفاقة ، وهو يغنى بصوت رخيم ، ويلاعب الجو بقطع من الفضة كانت مبلغ ثروته فى حياته

فانه ليلهو بقذفها فى الجو والتقاطها اذ هوت كبراها الى الارض وأخذت تجرى على رأسها الى حيث كان جان فالجان مستترا عن نظر ذلك الغلام خلف تلك العواسج

فما هى الا أن انتهت اليه حتى كان أسرع من السهم فى ممره الى وضع قدمه عليها ليحجبها عن نظر ربها الذى كان يحرص عليها حرص الموت على النفوس ، ويترسم اثرها بنظر يكاد ينهبها وهى تجرى على الارض نهبا

ولما علم بمقرها وثب اليه فاذا هو يرى عنده رجلا ، فلم يأخذه الروع ولم يعتره الدهش

وكان الطريق اذ ذاك خاليا من المارة ولا يسمع فى هذا الجو الفسيح الا قطقطة (١) سرب من القطا يسبح فى الجو على قيد مرمى السهم

فوقف الغلام فى وجه الرجل وقد ألقى الشرق(٢) فى شعر رأسه سلوكا ذهبية ونشر على سحنة ذلك الفاتك طبقة تعلوها حمرة النجيع(٣) ، وقال له بصوت يمازجه ارتياح

---

(١) صوت لطير القطا

(٢) بمعنى الشمس (٣) بمعنى الدم

الغلمة وسكينة الأبرياء : اين قطعتى ؟ فمد الرجل بصره اليه وقال : « من أنت ؟ » قال : « أنا ( فرجى ) الصغير »

فانتهره الرجل ونكس رأسه وتصامم عن سماع كلامه وأخذالاول يلحف فى السؤال والثانى يبالغ فى السكوت حتى ضاق الغلام ذرعا وأهوى الى ذلك الشيخ واخذ بمجامع طوقه وجعل يعالج تحويل قدمه عن تلك القطعة الفضية

فزمهر الرجل فى وجهه ، ومد يده ليلتمس عصاه ، فأثارت تلك الحركة نخوة الغلام فأغلظ فى القول حتى أحفظ(١) ذلك الشيخ فثار من مكانه واهابه يكاد يتمزق غيظا وصاح به : ان لم تنج بنفسك فلا نجوت بها بعد اليوم ! »

فارتاع الغلام لوعيد ذلك الفاتك وأطلق للريح ساقيه وجعل يعدو ولا يلوى على شىء حتى غاب سواده وقد غابت الشمس

ولبث الرجل فى مكانه حتى سطت عليه غياهب الظلام وهو غائص فى لجج من الافكار وكأنه كان ينظر الى أصل شجرة كانت هناك وقد وقف نظره عليها ولم يتحول ، ولولا قشعريرة سرت الى جسمه من قرة ذلك المساء لما عاد الى نفسه من غيبوبة هذا الفكر الطويل ولما أحس بوخز القر ، هم بالتحول عن هذا المكان فأصلح عليه أثوابه وانحنى ليأخذ عصاه ، فأخذ نظره تلك القطعة الفضية وقد كادت تسوخ فى الارض فاحتوته الهزة وجعل يغمغم ويهذى وكأن أجفانه قد شدت الى تلك القطعة بأهدابها وكأنما هى ترميه بنظرات تخترق أحشاءه

ومرت عليه فترة وهو على تلك الحال ثم أخذ يغالب اضطرابه حتى ثاب اليه السكون فاندفع الى الأمام وانقض عليها انقضاض القضاء

ولما صارت فى يده أخذ يستقرىء بنظره ذلك الفضاء ويدور بعينه فى أرجائه وما شك من رآه وهو على تلك

---

(١) اغضب

الحال فى انه ضار من الوحش يلتمس مربضا يستكن فيه على أنه ما كان يرى فى تلك الأنحاء الا ضبابا قد أعاره الشفق لونه الوردى وقد مد الظلام على الأرض رواقا يقصر فيه قاب العين

فشرع فى السرى وقد لبس الدجى وتغلغل فى هذا الفضاء وطفق يهرول فى مشيته وركب تلك الطريق التى نجا منها ذلك الغلام المغبون وما هو الا أن خطا فيها بعض الخطوات حتى وقف بغتة ورفع عقيرته ينادى باسم ذلك الغلام رجاء أن يسمعه فينقلب اليه ، وكان يتسمع فلا يسمع شيئا فما زال يعدو ويصيح وقد ابتلع هذا الظلام شخصه ومزق ذلك السكون صوته حتى يأس من لحاقه

ولو كان الغلام حيث يسمع ذلك الصوت النكير لما سكن الى اجابته ولضاعف من عدوه وبالغ فى اختفائه طلبا للنجاة من غائلته

وان اليأس لينهب فؤاده نهبا اذ بصر بشبح يخوض فى احشاء هذا الليل البهيم ، فدانا فاذا به رجل يحمل شارة الرهبان وقد امتطى جوادا ، فاستوقفه وسأله بلهفة الحائر « ألم تعثر فى طريقك أيها الراهب بغلام صغير ؟ » فقال : « كلا » قال الرجل : « انى أنشد غلاما فقيرا وأحسبه يدعى فرجى » قال : « لم أر احدا » فضرب الرجل بيده الى جيبه وانتزع منه قطعتين من الفضة وقال للراهب : « خذ هاتين وانفقهما فى سبيل الله وفى مواساة ذوى المتربة وانني أدعوك بالله أن تقودنى الى السجن فانا بعض المجرمين » فما كادت تستأذن هذه الكلمات على سمع الراهب حتى همز جواده فمر به مرور الطيف وغادر ذلك البائس فى مكانه وهو كأنه بعض الأنصاب . فلم تكن الا لحظة حتى استأنف السرى وطفق يعدو ويصيح كأنه خولط فى عقله وجعل كلما مر بجذع أو شجرة مثل له الوهم انه يرى

انسانا جاثما أو واقفا فيعطف عليه عقله عطفة المستخبر عن ذلك الغلام

كذلك كانت حاله حتى بلغ مكانا تلتقى عنده سبل ثلاث وقد درج القمر من حجر أمه . فجعل يدعو باسم الغلام وصوته يذهب فى هذا الفضاء وقد انقطع عن اجابته كل شيء حتى الصدى فعجز عن التماسك وانحلت عزائمه وقد ناء به كلكل الفضاء فسقط على حجر هناك وقال وهو مكب براسه على ركبتيه : « اشهد انى بائس » !

وجال الدمع فى عينين لم يسبح انسانهما فيه منذ عشرين عاما ، وكأنه كان ينبع من ذلك القلب الذى صدعته الخطوب

□

خرج هذا الرجل من عند العابد وقد علمنا ما كان من أمره وأنه لم يكن له من نفسه ما يحاسبه على عمله

فما وجدت العظات الى قلبه سبيلا ، ولا كان لتلك الأخلاق الفاضلة سلطان على اخلاقه ، ولا وصل ذلك القول الكريم الى فؤاده ، ولا ظفرت حكمة العابد بعلاج تلك النفس التى نفرت من الهدى نفارها من طبائع الأبرار ، وتحصنت فى معقل من الضلال لا تبلغه العظة ، ولا تعمل فيه الزواجر

وكانت رنة تلك العظات لا تزال تفتق طبلتى أذنيه . فى نفسه منها ما يقع ، فيبالغ فى صدها ، وتبالغ فى كيده ، حتى أوشكت أن تأتى على قوة الشر فيه ، وتستل من قرارة نفسه ذلك الحقد الكمين

وقد بدأ يشعر فى هذه المرة بأن صفح العابد عن زلته كان طليعة لكتائب المقادير التى خذل امامها عناده ، وانه ليجنى على نفسه ان هو أبى الا الاصرار على ذلك العناد والحفاظ والتمسيك لذلك الحقد الذى وقره فى صدره على جنس البشر ، وقد وجب عليه ان يخرج من تلك الحرب

اما قاهرا أو مقهورا ، تلك الحرب التى قامت بين نفسين اتخذت من تقوى الله جندها ونفس جعلت حزب الشيطان حزبهـا

ولما تعذر عليه المخرج وضاق به الأمر ثار من مكانه واخذ يسرى على ضوء ذلك النور الذى اوشك أن ينير سريرته

ويا ليت شعرى هل كانت تعـاوده اذ ذاك ذكرى تلك الليلة التى قضاها فى مدينة ( دينى ) وهل كان يسمع صوت ذلك الهـاتف السماوى الذى بات ينـذره بعقباه ويكل له الخيار بين خلتين : أما نزوع عن الغواية فسمو الى مقـام الأبرار ، واما استرســال فى الضـلالة فهبوط الى قرار الفجار ، ويوضح له سبيل الحياة بين امرين : اما سـعادة ذلك العابد ، وأما بؤس خير منـه بؤس المصـفد فى قاع السجون

وسبيله فى الأولى ان يحلل بحرارة التوبة ما علق بأجزاء نفسه من بقايا ذلك الشر فيصبح ملكا نقيا ، وفى الثانية أن يلوثها بحمأة الغى والضلال فيمسى طريدا شقيا

▭

وهنا نفتح المجال لتلك الأسئلة التى عرضناها على القارىء منذ العهد القريب ولا زلنا نقول أن الخطوب تفتق الأذهان ولكنا لا نعلم علم اليقين أكان لها أثر حتى اليوم فى فؤاد ذلك الرجل ولعلهـا كانت تحضره حين اضطرابه فتزيده حيرة وخبـالا

فلقد أحدث فى نفسه صنع الجميل على أثر خروجه من السجن وقرب عهده بالشقاء ما يحدثه الضوء الباهر وقد قرع عينا حديثة العهد بحالك الظلام

ولما تجلت له تلك الحياة الجديدة فى أعلى مجاليها وتراءى له آتيها يرفل فى ثياب البهجة والبهاء ، أزعجه ذلك المرأى فلم

يستطع عليه صبرا وقد بهر نور الفضيلة ذلك البائس فرد منه الطرف وهو كليل

وما كان جان فالجان اليوم هو ذلك الغصوب الذى سلب الغلام قطعته بالأمس وغلبه على امره ولا هو بصاحب تلك الفعلة الشنعاء

وانما صاحبها هو ذلك الحيوان المفترس الذى دفعته الفطرة الوحشية الى ارتكابها بينما كانت نفسه تسبح فى سماء الحياة الجديدة التى اكبرتها

فلقد فعل بالغلام ما فعل مسوقا بقوة الشر التى مزجتها باجزاء نفسه مخالطته للأشرار فى ايام سجنه ولا يدرى أغيا كان يفعل أم رشادا

وحين انست عينه بذلك النور وسكنت نفسه الى صحبة التقى وردت الى طبعها رد الحسام الى قرابه علم انه اتى عظيما وارتكب جسيما فكادت تتزايل اعضاؤه رهبة وتسيل نفسه جزعا

وفعلت به تلك الصدمة فعلها ومزقت ذلك الغشاء الذى نسجته على بصيرته أيدى الخطوب ، وفصلت فى نفسه بين الحق والباطل فعلت بالأول وسفلت بالثانى كأنها ذلك الجوهر الكشاف الذى يلقى به فى المزيج ليباعد بين أجزائه فتراه وهو يطفو ببعضها ويرسب ببعضها الآخر

وقبل أن يلم بما الم به أو يدرك ماتى تلك الحال التى وصل اليها طفق يجرى خلف ذلك الغلام ليرد اليه ما سلبه اياه حتى اذا يئس من لحاقه وقف ينظر الى ماضيه فأنكرت نفسه نفسه

انكرت نفسه الجديدة تلك النفس التى صحبته منذ عشرين عاما ، وشبه له انه فى عالم الأحلام ، وانه يرى أمامه طيفا يمثل له انسانا قد نحست طلعته ولؤمت غريزته وخبثت طينته ، قد قبض بيده على عصا وحمل على ظهره حقيبة

السلب وقد كتبت يد البؤس على جبينه ذلك الاسم المقوت ( جان فالجان )

وخرج به هول ذلك الموقف عن حد الادراك فرسخ فى نفسه أنه يرى ذلك الشبح رأى العين وانه يرى امامه ( جان فالجان ) فجعل يقارن بينه وبين ما يرى وكأنه ينظر فى مرآة قد رق ماؤها

وأنه ليجرع كأس الغضاضة من يد تلك المقارنة اذ لمح ضوءا سرى فى جوف ذلك الليل ، فحسبه للوهلة الأولى ضوء مصباح ، ولكنه ما لبث أن رآه ينمو ويتشكل فى صورة البشر حتى كمل انسانا سويا ثم أخذ يدانيه شيئا فشيئا حتى تبين فيه وجه ذلك العابد وما هو الا نور الفضيلة قد تمثل فى صورة ذلك الرجل الكريم

فجعل ينظر بعين بصيرته الى هذين التمثالين القائمين امامه ويقف بنظره على العابد تارة وعلى ( جان فالجان ) تارة اخرى

وبدأ يتضاءل أمام عينيه تمثال ذلك الجانى حتى انمحى رسمه وبقى العابد وحده فى ذلك الهيكل النورانى

فراع الرجل جلال ذلك الموقف وتزاحمت دموع الرهبة فى عينيه على الخروج

فما زال ينتحب انتحاب الطفل ويبكى بكاء الثكلى حتى سطع من خلال دموعه فجر الحقيقة وبزغت على اثره تلك الحياة الجديدة التى لم يستمرىء لها لذة قبل اليوم ، وتراءت له صحيفة أعماله وقد سجلت فيها مخازيه ، فجعل يقرأ فيها سطور ماضيه فنظر جريمته الأولى وعلى يمينها التوبة والاستغفار وتمثلت له غلظة قلبه وفظاظة طباعه وذلك الانتقام الذى أضمره للناس فى يوم تسريحه

ثم رأى كل ما اقترفه على العابد وما جناه على الغلام

كل اولئك كان عليه مسطورا ووجد ما عمل حاضرا ولا يظلم ربك احدا

فسرى وهو ماخوذ بهذا الوجدان الجديد ولا يدرى له وجهة حتى اذا افجر(١) وعاد الى رشده راى نفسه راكعا على عتبة ذلك العابد

▭

ذكرنا فى المقدمة ما كان لفكرة ذلك المؤلف من سرعة الانتقال وقلنا انه بينما نراه يسابح الاجرام فى افلاكها اذ هو يدارج النمال فى مدبهـا

وقد سرت عدوى ذلك الانتقال من فكره الى يراعه . فانى لأعانى من تعريب ذلك الكتاب ما اعانى،اذا به قد انتقل طفرا من سرد تلك العظات ، الى الخوض فى السياسة

ولا بدع فقد كان حامله كثير التطلع الى فلك السياسة دائب الرصد لاجرامه،مسلس العنان لجواديه : فكره،ويراعه

فما كاد يأتى على ذلك الفصل السابق حتى تدفق فى سرد حوادث سنة ١٨١٥ فملأ صحيفتين باسماء لم يجر لها ذكر من قبل ولن يكون لها حديث من بعد . فراينا أن نغفل ذكرها وأحببنا أن يكون الكتاب غفلا من تلك الأحاديث المبتورة التى لم يكن لها اثر فى غير ذهن واضعها ، وأن القارىء ليخرج من قراءتها وما فى يده شىء منها ما لم يكن ملما بحوادث تلك السنة واقفا على تاريخ هذه الأمة ، ومن لنا بمثل ذلك القارىء الخبير

---

(١) افجر الرجل اذا ادركه الفجر

# الفصل الثانى

## فانتين

ولدت تلك البائسة فى قرية (مونتراى سيرمير)ولا تعرف لها اما ولا أبا ولا من يمت اليهـا بحبل القرابة ، ولا يعرف النـاس من أمرها أكثر من ذلك . فوردت سجل العنـاء وأنظرتها الخطوب حتى بلغت سن الطفل الدارج،وانها لتدرج ذات يوم فى الطريق وهى تنتعل أديم الأرض(١) اذ مر بهـا بعض السابلة(٢) وسماها ( بفانتين ) ومن ثم أصبحت تدعى بذلك الاسم الذى أصابها كما كان يصيب ذلك المطر المنهمل جبينها

ولما بلغت العـاشرة من عمرها ــ ولا أدرى كيف بلغتها ــ خرجت تطلب وجـوه الرزق وتلتمس أسـباب القوت فى ضواحى تلك القرية

فما زالت تكدح فى طلب العيش حتى يفعت او كادت تيفع ، فعافت نفسها البقاء على تلك الحال،وساقها قائد الاضطرار الى الانزعاج عن الوطن ، فشخصت الى باريس ، والقت نفسها فى معترك تلك الحياة الجديدة ، فما زالت تعمل لبطنها، وهى تطرق ابواب الارتزاق حتى ظمأ فؤادها الى نهلة من موارد الغرام

وكانت على جمال تولت عفة النفس حراسته ، وقد غنيت

(١) بلا حذاء . (٢) عابر السبيل

ببهجتها عن بهجة الحلل،وامهرها الحسن بما لم تمهر به اترابها
امهرها بالنفيسين : المسجد فى شعرها واللؤلؤ فى ثغرها

فما زالت تطوف على تلك الموارد ورائدها الفؤاد ، حتى
وقف بها على منهل قد رق ماؤه ، فاذا بها ترى فيه وجه
ذلك الانسان الذى غلبها على قلبها،فأرضعها أفاويق الآمال،
وارشفها رضاب الأمانى ، حتى اخذت عفتها تتسلل قطرة
قطرة ، وحتى جلس منها ذلك الخبيث مجلس الرجل من أهله

وكانت فى مبدأ امرها ، حيث كان الغرام طفلا والعفاف
فتيا ، تغالب كيد ذلك الهوى ويغالبها ، وتجهد جهدها فى
الميل عن ذلك الساحر ، ولكنها ما كانت تميل عنه أصبعا
الا لتميل اليه ميلا

كذلك كانت حالها حتى اصبح الحب وقد غلبها على أمرها
وسقطت بين ذراعى ذلك الأثيم فافترشها ما شاء

ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء اذا لم تحصن
نفسها ، وغادرها وهى جفن سلاح(١)

وكان لها صواحب ثلاث ، ولذلك الغادر أصحاب ثلاثة ،
وقد جمع اللهو بين هذين الفريقين وضرب عليهما بالقداح ،
فخرجت لكل واحد من فريق الرجال واحدة من فريق
النساء

وكان الرجال فى بلاد مختلفة وقد هبطوا باريز فى أيام
العطلة السنوية

وما كان ينصرم اجل تلك العطلة حتى انصرم حبل
الوداد ، واختفى أولئك الأربعة فى يوم واحد

وانفرط على اثر اختفائهم عقد التئام الفريق الثانى ،
فبقيت فاتنين وحدها بلا انيس غير ذلك الجنين الذى كانت
تحمله فى احشائها ، فانقطعت عن الناس وانزوت فى بيت
الأحزان ، وجعلت تعانى من الم الفراق ما تعانى

---

(١) حبلى

وزكا حب ذلك الغائب فى فؤادها . وخرجت ذات يوم تستكتب الناس له كتابا تدعوه اليها ، وأبطأ خبره عنهـا ، فشفعت كتابها بثان وعززته بثالث

وما زالت تستكتب النـــاس وترتقب الجواب ، حتى احتواها اليأس وبلغ منها القنوط ، فأقبلت على نفسها تلومها وباتت تحز الودج(١) أسفا على حالها ، ووضعت حملها فاذا هو طفلة فسمتها ( كوزيت )

وأقامت ما شاء الله حتى نزلت بها الضائقـة وحضرها العوز ونضبت موارد الرزق

وكانت لهـا فضلة مما كانت تتعجل به فى أيام لهوها ، فما زالت تنفق منهـا وتأكل مما كانت تصيبه من ثمنها ، حتى امست وليس فى يدها ما تستعين به على سد حاجتها

وقد زهدتها أيام قرب الحبيب فى مزاولة العمـل الذى كانت تصيب من ورائه الرزق لتوفر أسباب العيش وعدم الحاجة الى العمل ، ففتر ذلك النشاط الذى ولدته فيهـا الضرورة ووهى العزم وفنى الحزم

واصبحت ترى الأرض فى ناظرها وهى اضيق من كفة الحابل(٢) ، فعزمت على التحول من باريس والعودة الى مسقط رأسها ، وقالت : لعلى أجد هنالك ما أصون به أديم هـذا الوجه من الأخلاق وأستعين به على تربية هذه اليتيمة

ولمـا صحت عزيمتها على ذلك جمعت اليهـا ما بقى من حاجتها وباعت فوفت مطالب الغرماء وحفظت بعض الدراهم ثم احتملت طفلتهـا وخـرجت تمشى على استحياء وهى كاسفة البال سيئة الحال وليس وراء ما بها من الهم غاية

وتنكر لها كل شىء فودت بجدع الأنف لو أن ظهر الأرض من الانس أعرى من سراة الأديم(٣) . فسارت ولو رآها أقرب

---

(١) الودج عرق فى العنق ينتفخ عند الغضب ، والمراد شدة الندم
(٢) كفة الحابل حبالة الصائد
(٣) سراة الاديم ، ظهر الجلد . والغرض الا يكون فى الارض انسان

الناس عهدا بها لغابت عنه معرفتها لفرط ما نزل بهـا من الهزال ، واختـرم جسمها من السقم ، وان كانت لا تزال عليها مسحة من ذلك الجمال الغابر

□

اخذت طريقها الى بلدتها وجعلت كلما اخذ منها التعب تنتحى ناحية من الطريق ، وتجلس ريثما تنفس عنها كرب المسير وتغلو طفلتها

ونزل بصدرها نازل من السعال دعتـه الرضـاعة الى النزول بذلك الصدر الضعيف ، فضاعف من وصبها وزاد من المها .. وما زالت ترمى بهـا المرامى حتى وقف بهـا السير على نزل(١) حقير بقرية ( منتفرمى ) كان قائما على راس طريق يدعى بطريق الخبازين اسس فى صدر القرن الرابع عشر وزالت معالمه اليوم

وكان هذا النزل للذئب من ذئاب الانس يدعى «تيناردييه» وكانت من تحته ذئبة هى احد الذئاب واضراها تدعى باسمه وهما يقطنان مع أولادهما فى ذلك النزل

ولعل ذلك الذئب كان ممن شهدوا موقعة ( واترلو ) فقد يرى الناظر بأعلى ذلك الباب لوحا كبيرا قد نقشت عليـه هذه الكلمات : « هلموا الى جندى واترلو »

ورسمت بأسفل اللوح صورة رجل يحمل على ظهره رجلا آخر عليه شارة القواد تلمع على كتفيه النجوم ويشرق فى أثوابه الدم . وهما تحت جو اشبه الأشياء بجو المواقع ، عقد الدخان فوقه سماء مكفهرة الأرجاء

وقد طرحت أمام ذلك الباب عجلة عاتية من تلك العجلات التى كانت تستخدم فى ذلك المهـد لحمل الاثقـال وجلب

---

(١) النزل : الفندق

الأشجار من الغابات. وكأنها لم تطرح فى ذلك المكان الا لتصدأ او لتزحم الطريق ، أو لتجعلها تلك الذئبة الضارية أرجوحة لوليدتيها

وقد ستر الوحل أخشاب تلك العجلة وكسا الصدأ حديدها ، فأقامت فى الطريق وهى كأنها بعض أولئك الرؤساء الدينيين الذين قاموا عثرة فى سبيل الشرائع الغابرة

واتفق أن وقفت ( فانتين ) على ذلك النزل حين كانت تلك الذئبة تلاعب طفلتيها ، وقد وضعتهما فى الأرجوحة ، وهما كأنهما قمران فى طفاوة(۱) أو زهرتان فى كمام

وكانتا متعانقتين فى هزة ذلك المهاد ، وصفراهما بين ذراعى كبراهما ، وقد سلخت الكبرى منهما ثلاثين شهرا ، واوشكت الصغرى أن تهل العشرين

وجلست امامهما على كثب منهما تشارفهما وتتغنى بشىء من الكلام المقفى . وانها لتشدو كذلك اذ وقفت فانتين على راسها وقالت : « لعلك أم هاتين الزهرتين ؟ » . فلم تحر جوابا ولم تلتفت ولعلها لم تسمع صوت تلك السائلة ، فقد استطرد بها جواب الطرب فى ميدان الغناء . فعاودت فانتين السؤال بصوت كان خليقا بالوصول الى مسمع تلك المندفعة فى غنائها . فالتفتت اليها ، فاذا هى ترى فتاة قد انصب بدنها السير وكدها الهم والضير ، ونال منها البؤس وبلغ منها الشقاء . وقد كاد يمسح الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامنا فى محاجرها من ذلك السحر الحلال. فانتقلت حمرة وجنتيها الى عينيها، وهاجر سواد لحظها الى حظها، وامتد اصفرار شعرها الى لونها، ودب سقم جفنها الى صدرها، وسرى نحول خصرها الى جسمها ، والتقى فى مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال ، واجتمع فى قدها ذلك الهيف وذاك الهزال

(۱) الطفاوة دارة القمر وهالة نوره . والكمام جمع كمامة وهى غطاء الزهرة

وقــد أدمى ادمان وخز الابر سبابتها أيام كانت تخيط لتعيش ، وذهب الفقر بزينتها ، فليس عليها من الثياب غير ما يحصنها من البرد ويقيها الحر

□

تلك فانتين التى كانت تقف على جمالها العيون ، ولو أنها تبتسم اليوم ، لرأى الناظر ذلك اللؤلؤ المنظوم فى ثغرها ، ولكن الحزن والشقاء لم يدعا للابتسام سبيلا الى ذلك الثغر الذى كان منطبقا على ثناياه انطباق المحارة على الجوهرة

وكانت تحمل على ظهرها تلك الحقيبة التى أودعتها كل ما تملك وتحمل بين ذراعيها طفلة ساذجة الطرف عبلة(١) الساق وضاءة الجبين . لها من صدر أمها مهاد ، ومن ذراعها وساد ، أخذ الكرى بمعاقد أجفانها ، فنامت نوما هنيئا بين ذراعين قد صيغتا من الشفقة وصدر قد صور من الحنان

فقالت لها ربة النزل وقد رفقت فى القول : « نعم همــا ريحانتاى » ثم دعتها الى الجلوس بجانبها على عتبة الدار ، وأنشأت تحدثها عن نفسها وعن بعلها ، وجعلت تحاسنها فى القول وتلين لها فى الكلام ، ولم يكن ذلك اللين من شأنها ولا تلك الرقة من طباعها ولكن ربما وجدت الرحمة مسربا الى تلك الأفئدة الغليظة عند ذكر صغارها

وكانت تلك المرأة شقراء اللون جهمة الوجه وهى فوق الطويلة ودون البادنة يزدهيها شىء من الخلاعة ، ويشوب لسانها نوع من التزويق ، شأن أرباب الفنادق ، ولا أحسبها فى ذلك العهد الا وقد جاوزت حد الثلاثين

ولو أنهــا انتصبت قائمة لراع ( فانتين ) طول قامتهــا ولذهب بارتياحها وسكونها الى محادثتها ، ولا بدع فانهــا

---

(١) عبلة الساق مفتولتها

لم تكن الا حرث جندى وفراش وحشى(١)

ولما فرغت من حديثها ، أخذت فانتين تنفض اليها جملة حالها ، غير أنها كتمتها أمرها ، وألقت فى روعها أنها أرمل قد مات عنها بعلها . وأن الحرفة التى كانت تزاولها قد كسد سوقها فى باريز فغادرتها وخرجت تضرب الأرض رجاء أن تصيب رزقا لها ولطفلتها ، وانها قضت عامة يومها وهى تعانى تعب السير على قدميها ، وأن ابنتها قد أخذت من ذلك التعب بنصيبها

وما كادت تأتى على ذلك الحديث حتى انحنت على طفلتها تقبلها وتضمها اليها ، فانتبهت الطفلة لحرارة تلك القبلة ، وجعلت تدور فى هذا الفضاء بعينين قد جال فى انسانيهما الوقار وكمنت فيهما السكينة ، وقد نم نظرها عن سر تلك الفطرة السليمة التى لم يكن مثلها بجانب ما ندعوه فينا بالفضيلة الا كمثل السماء صفا اديها بجانب الشفق شابته الشوائب ، وما يدريك لعلها كان يقوم بنفسها فى هذه الفترة انها ملك من الملائك يطل من سماء عصمته على أعمال هذا الورى

وما هى الا جولة فكر حتى تغيرت حالها وجعلت تبتسم ابتسام الظافر وهمت بالانزلاق من حجر أمها مدفوعةبتلك الارادة التى لا يقف فى سبيلها شىء عند أولئك الأطفال ، وقد حاولت أمها أن تحبسها عن مقصدها فما استطاعت لها ردا . ولما صارت على الأرض أخذت تدب حتى انتهت حيث الارجوحة والوليدتان ، فوقفت تنظر ، وكأنها تعجب مما ترى ، وقامت الأم الى بنتيها فأنزلتهما الى الأرض ، وقالت لثلاثتهن هيا العبن جميعا . وربطت السن بينهن عرى الائتلاف فطفقن يمرحن ويلعبن وينكتن فى الأرض نكتا

وكانت تلك القادمة الجديدة أكثرهن مهارة وأبرعهن يدا فى حفر تلك النكت

---

(١) اى كانت زوجة جندى او زوجة رجل متوحش

وجلست ربة النزل الى فانتين تحادثهـا وتحاسـنها وما زالت بها حتى خلبتها ، وانست منها الارتياح الى سماع حديثها ، فأقبلت عليهـا بوجهها وجعلت تسائلها عن بنتها وهى تخبرها

وبينما تتحادث الأمان فى ناحيـة ، وتلعب الصـغار فى ناحية أخرى برزت احدى بنات الأرض من خدرها وخرجت تسعى من بعض تلك النكت ، فراع الصـغار منظر تلك الحشرة وجزعن لرؤيتها جزعا شديدا وأشفقن منها وقـد ضمهن الخوف الى بعضهن فتقاربن حتى التصقت جباههن واستولى عليهن الدهش جميعا

وحانت من ربة النزل التفاتة فلمحتهن على تلك الحال وقد تجمعن ، فظنت ذلك لداعية الانعطاف والميل ، فقالت: « لفانتين وهى تحدثها الا تنظرين الى هؤليـات الأخوات الثلاث ؟ »

فوصلت تلك الكلمةالى فؤاد فانتين قبل سمعها فأمسكت بذراع صاحبتها وقالت لها : « لقد كدت تلمين بما كان يقوم بنفسى منذ رأيتك ، فانى قد عولت على مغادرة ابنتى بهذا النزل . أفلا تكفلينها ؟ »

فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم ، واشـارت برأسها اشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول

فقالت فانتين : « ولا احسبك الا ستعجبين من امرى ، ولكن الحاجة تدعونى الى ذلك ، فقد استحال على أن اجمع بين السعى وراء العمل وبين اصطحاب تلك الطفلة فأنا غادية الى التماس بعض وجوه الرزق وتاركة (كوزيت) بين ذراعى امهـا الجديدة وباعثة لك فى كل شـهر بما يقوم بنفقتها ، وآخذة على نفسى القيام بدفع اثنى عشر درهما فى كل شهر لكفالتها فانظرى ماذا تأمرين »

وما هى الا أن انتهت مـن ذلك الحديث حتى سمعت فى صحن تلك الدار صوتا شبيها بصوت انفجار البارود وقائلا

يقول لها : « أولى لك أيتها القادمة أن تدفعى أربعة عشر درهما ، وقد استحال غير ذلك » !

فقالت فانتين : « كذا فليكن » ، ثم نظرت الى صاحبتها نظرة المستخبر عن صاحب ذلك الصوت ، فألمت تلك الذئبة بمقصدها ، فقالت : « انه صوت زوجى وهو رب النزل وصاحب الأمر والنهى فيه ، فلا تجملى له سبيلا الى رفض ما تطلبين مهما اشتط فى الطلب وكلفك ذلك من المؤونة »

وقال الذى هى فى داره : « لن نقبل الكفالة،او تعجلى بدفع نفقة ستة أهلة ، وتتركى عندها من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر »،ثم لبث غير بعيد وخرج اليها باسطا يده فنقدته الدراهم وقضت عندهم سواد الليل

ولما كان الفجر قامت فانتين فودعت طفلتها وخلفت تلك الحمامة فى وكر الصقور . وسارت ومدامعها تسابق خطواتها

□

وما كادت تغادر ذلك النزل حتى غادرته الرحمة على اثرها وأصبحت ( كوزيت ) بين زوجين لو قسم ما فى فؤاديهما من الغلظة على أفئدة البشر لما وجدت الرحمة الى القلوب سبيلا

وقالت المرأة لزوجها : « ما لنا ولتلك القنبرة (وكذلك كانوا يدعونها ) نغذوها ولا تعمل ؟ وانى لأرى لديها من الثياب ما يقوم ثمنه بوفاء بعض ما أثقل كاهلنا من الديون،فان رأيت أن نجمع تلك الثياب ونبيعها ! »

فقال الرجل : « ومن الرأى أن تعجلى ببيعها اليوم ، فان غدا لموعد المقاضاة وليس فى أيدينا ما يسد مطالب الغرماء »

وطلعت شمس الغد على تلك اليتيمة بالبؤس والشقاء

فلبست ثياب الذل ، وطرحت رداء الدل،وكانت كلما شبت يوما شب معها البؤس عاما ، حتى اصبح الثرى مهـادها والمدر وسادها ، وتبدلت من حضن أمها حضن التراب ومن لين ذراعها خشونة الجماد

أين عين فانتين ترى ذلك الطمر(١) الذى تضل الأبر سبيلها فى شقوقه ، وينتهى العد دون خروقه ، تضحى(٢) فيه وتخصر(٣) وتنطوى تحته وتنشر ، تبكر بكور الغراب الى كنس الدار والفناء ، وتنطلق ، والصبح والليل خيطان ، الى حمل الماء ، تنطلق الى النهر والنهر بعيد ، وتستقبل القر والقر شديد ، وتقطع الطريق وهى طويلة ، وتحمل الجرة وهى ثقيلة ؟

أين عين فانتين ترى تلك اليتيمة وهى تحت الخوان تؤاكل الجرو والهرة ، وتلقف الكسرة بعد الكسرة ، وطعامها دون الهر وفوق الكلب ( والهر ينتقى ما طاب ، والكلب يلتهم كل ما أصاب )

ولم تزل تلك القنبرة رهينة الألم والعذاب ، يعدون أنفاسها . فاذا تنفست قالوا لها : « لقد أفسدت علينا الهواء » ويرقبون حركاتها ، فاذا تحركت قالوا لها : « لقد كدرت علينا صفو السكون » حتى ضؤل جسمها واضمحل رسمها

ولؤم صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة من أمها ، فما زال يطلب المزيد حتى كلفها ذلك فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، فكانت تعمل عامة اليوم ، وتجعل ما تصيبه من الاجر لتلك النفقة الفادحة

وكان الخبيث قد ألم بباطن الأمر ، فقال لامرأته ذات يوم : « انى لأعلم من أمر فانتين ما لا تعلمين ، ان هى الا بغى قد غلبت على أمرها، وما جاءتها تلك الطفلة الا من طريق السفاح .

---

(١) الثوب البالى (٢) يصيبها حر الضحى (٣) يصيبها البرد

ولا اري شيئا هو أصلح لحالنا من انتهاز هذه النهزة والتماس الزيادةفىالنفقة لعلنا نصيبمنوراء ذلكما نوفىبه الديون،وانى ليعرض لى أن فانتين لا ترى بدا من الاجابة رجاء أن يختفى أمرها ولا أحسبها الا ستخضع خضوع المضطر . ! »

وسقطت الكتب على فانتين سقوط القضاء ، وكلها فى طلب الزيادة فى النفقة ووصف ذلك النعيم التى ترتع فيه طفلتها ، وكانوا كلما أفرطوا عليها فى العذاب بعثوا لأمها بما يسكن من نفسها حتى أرسلت لهم قوتها وكل ما تصل يدها اليه ، فصلح شأن أصحاب النزل ووفوا الديون واصبحوا ببركة وجود ( كوزيت ) وكدح تلك الأرملة وهم فى سعة من الحال وبشاشة من العيش

وما كان خبث نفسيهما وحده كافلا للسعادة فان النزل قبل حلول ( كوزيت ) لم يكن شيئا مذكورا فحلت بحلولها البركة وبسم لهم ثغر الزمان

ولبثت عندهم كوزيت ثلاث سنين تعانى من ألم الشقاء ما تعانى وهم يمرحون من وراء عذابها فى بحبوحة النعيم

ولو قدمت فانتين بعد مرور تلك السنوات لتفقد حال طفلتها لأنكرت رؤيتها ، ولغابت عنها معرفتها لفرط ما نزل بها من البؤس وما نابها من الشقاء

وكانوا يتحدثون فى تلك القرية بأمرها فيقولون أن أصحاب النزل على ما هم فيه من الكفاف وخشونة العيش يغشون طفلة لقيطة ويربونها احتسابا ، فنعم العمل ونعم الأجر والثواب

وبعد أن غادرت فانتين طفلتها بذلك النزل كما قدمنا ركبت طريق قريتها التى ولدت فيها حتى اذا أشرفت عليها بعد الجهد والعناء نظرت فاذا القرية على غير ما تعهد ، تسيل بها أودية الرخاء ويبسم ثغر السعادة

وقد قامت فيها المصانع وشيدت دور التجارة ،

وأصبحت حركة الأشغال ، لدوام اتصالها وسرعة انتقالها ، وهى أشبه شيء بحركة الأرض . وكانت قد هجرتها منذ اثنتى عشرة سنة ، ولما عادت وأبصرت ما هى فيه من رخاء العيش وبشاشة الحال قالت فى نفسها : «لقد كانت سعادة هذا البلد بمقدار شقائى . فانى ما كنت أهبط دركا فى مهاوى الشقاء حتى كان يعلو درجة فى مراقى الهناء »

ولقد صدقت فانتين فى حديثها لنفسها فان هذا البلد قد أدر الله لأهله اخلاف الرزق ، ودخلت فيه السعادة بدخول رجل هبطه عند انطواء أجل سنة ١٨١٥ تحت جنح من الدجى ، فكتم الليل أمره

وشبت نار فى احدى الدور عند قدوم ذلك الغريب ، فهب الناس لاطفائها . فاندس الرجل فى غمارهم وغامر بنفسه فى النار ، وكان أول المتوقعين عليها ، حتى استل من فمها طفلين أوشكا أن يبيتا رزقا لها وكانا لكبير الشرطة ، فأكبروا فعله ، وملأوا أذنيه حمدا وثناء ، ولم يسألوه عن أجازة المرور ، ولم تمر بهم خلجات من الشك فى أمره وان كان غريبا

وبقى مادلين (١) وكذلك سمى نفسه ـ فى تلك القرية واتخذها وطنا له ، ولا يعلم أهلها من أمره غير ما كان يلوح على محياه من سيما الخير والصلاح . وكان قد وقف على أبواب الخمسين من عمره وأصبح كثير الاطراق كلفا بالعزلة ولم يكن يملك يوم هبط القرية غير دراهم معدودة ، فدخل فى مصنع للتجارة كان قائما هناك وأحسبه دخل فيه أجيرا ، فأقبلت دنياه ـ وناهيك اذا أقبلت ـ حتى أصبحت فضته ذهبا وأمسى تراب عمله تبرا

ولم تكن الا دورة من دورات الفلك حتى أصبح ربا لذلك المصنع . فأثرى الرجل اثراء يكاد يدفعه العقل لو لم يقع

(١) مادلين هو جان فالجان بطل الرواية

تحت العيان ، فأقام للأجراء دارا ، وشاد للأجيرات اخرى، وأجرى عليهما الأرزاق ، وفرش الحجرات بفاخر الأثاث ، وكان لا يدخل فى عمله غير الصالح من الرجال والصالحة من النساء . فاستقامت له الأمور وتقلبت به أحوال جميلة حتى اصبح ذا وفر كبير . فكانوا يقـدرون ما أودع فى خزائن المصارف بخمسة وعشرين ألف قطعة ذهبية

وما آلت اليه تلك الوفرة حتى أنفق مثيلها فى صـالح الأعمال ومواساة البؤساء . وشاد فى القرية مدرسة للذكور واخرى للأناث ، وأجرى عليهما الرواتب ، ووسع فى نطاق دار المرضى ، وكان لا ينهر سائلا ولا يرد عاملا .. فاختفى من تلك القرية أثر الشقاء ، فكنت اذا غشيت دارا رأيت من بها فى هناء ، واذا طرقت حانوتا وجدت صاحبها فى رخاء

كل ذلك كان بفضل الانكماش فى الأعمال ، وبركة الكسب من الحلال

وما بلغ ( مادلين ) ذلك المبلغ الذى ترى الا بطرح الأثرة ومصارعة الجشع ...

ولقد بلغ به من حب الخير أن أقام ملجأ للعجزة وللمعدمين الذين أمسوا من سقط المتـاع ( ولا عهد لبلاد الفرنسيس قبل ذلك اليوم لمثله ) . وجعل فى مصنعه خزينة لمساعدة عماله الذين أقعدهم الكبر وقطعتهم العاهة

ولم يزل نجمه فى سعود ، وهمته فى صعود ، حتى نبه ذكره ، وعم خيره ونمى خبره الى بيت الملك

فارتاح الملك الى سماع ما أنهوه اليه من أمره ، ورأى ان يجعل له ثوابا على ذلك العمل المبرور ، فأمر باقامته شيخا على ذلك البلد

ولما بلغته ارادة الملك بالغ فى الضراعة بالتماس الاقالة ، حتى أقالوه ، فعجب الناس من أمره ، فمنهم من أخـذها عليـه ، ومنهم من عدها له ، فقال قوم انه النزق ، وقال آخرون انها القناعة

وجرت حركات الدهر فوق تلك الحركة التجارية حتى اتسعت هالتها ، فجدد الملك ارادته باقامة « مادلين » شيخا لبلده ، وجدد مادلين طلب الاعفاء . !

كل ذلك والرجل تزداد نباهة ذكره ، ويسمو علو قدره، حتى حيته العظماء ودعته الأندية العالية ، وحتى مشى اليه الكبير والصغير بالرجاء الى الخضوع لتلك الارادة ، فأكره على ذلك المنصب اكراها

وكان بعض سقاط القوم يبسطون فيه الألسن ، ولا يحفظون له غيبا ، فقالوا حينما رأوه يجمع فى أول أمره الأموال انه تاجر يطلب الاثراء

وقالوا حين رأوه يستثمر ما جمعه أن به لجشعا ، وزعموا حين بدت لهم منه كراهة الترف والظهور انه افقى لا يألف النعيم ولا يعرف قدر السعادة

وحكموا حين بدا لهم منه رفض الدنيا انه مائق يجمل به الفقر ولا يليق بوجهه الغنى

□

ولبث « مادلين » فى يومه مثله فى امسه لم يغير المنصب من نفسه ولم يلهه الاشتغال به عن الاشتغال بما هو فيه ، فبقى على عهدنا به من مداومة الاطراق ، وحب العزلة عن النـــاس

فاذا رأيته رأيت شيخا آذن ليل شعره بالرحيل ، وقد لوحته الشمس ، وجال فى عينيه الوقار ، ولاحت عليه سحنة الفلاسفة

وكان يجلس للنظر فى أمور الناس ، فاذا فرغ من ذلك انكفأ الى حجرته فقضى لبانته من مأكله ومشربه وانكب على مطالعة الكتب . وقد رأى أن يعوض ما فاته من تحصيل

العلوم فى أيام صباه ، فعكف على الدرس فى أيام شيخوخته وان كان الفقر قد منعه فى أوليات عمره من مزاولة التعلم ، فقد ساعده الغنى فى أخرياته على تناوله ، ورأى من الكتب صـــدرا حليما ، وودا مقيما ، فسكن الى صحبتها وارتاح الى عشرتهـــا

وكان ينطلق اذا شمر النهار الى المزارع والغابات ومعه آلة صيد قـــد اتقى الله فى استعمالها ، فما هاج بها غرابا ساقطا ولا غال طائرا لاقطا . ولكنه كان يحملها لرد الغوائل، فيصحبها فى وقت أمنه لتؤمنه فى وقت خوفه

وكان مع ذلك ماهرا فى التسديد ، حاذقا فى التصويب يصوب على الشىء ويرمى ، فيضع الرمية من الهدف حيث يشـــاء

وهو فتى القوة ، قوى الساعد ، يرفع الجواد على كاهله، ويمسك بذنب الفرس ، ويخلد به الى الأرض فيتحلحل اذا كان قويا ، ويقعى اذا كان ضعيفا ، ويستقبل الثور الهـــائج فيأخذه بقرنيه

وهو على ما فيه من القوة والبأس ، رقيق القلب يجد من الألم لغيره ما يجده لنفسه ، فما مرت به جنازة الا وكان أول المشيعين لها ، ولا امتحن انسان بمكروه الا وكان أول المعزين له . وتراه عند انطلاقه الى الجنائز يختلط بجماعة القسيسين فينوح نوحهم ، ويرتل ترتيلهم ، وكأن نفسه تسبح فى غير هـــذا العالم وعينـــه تشخص لغير ما يدركه الحس ، وكأن أسلاكا من الالهام الالهى قد امتدت بين أذنيه وبين أسرار ذلك الأبد ، فجعل يلقى بسمعه الى تلك الأصوات التى باتت تشدو بحزن على حفافى هاوية الفناء

وكم من يد له على الفقراء وصنيعة مع البؤساء يغشى دورهم وهم غير شاهدين ، فيلقى لهم بالنقود تحت الوسائد وفوق الفراش ، ثم ينسل تحت الليل كراهة أن يرى ، كأنه يرتكب اثما أو يعالج اختلاس شىء

ويعود رب الدار ، فيرى فيها اثر (مادلين) فيظن اللصوص قد ارتقبوا غيبته فجاسوا خلال داره ، فلا يزال يتفقد حاله حتى يعثر بتلك النقود فيأخذها وهو يقول لقد أرادوا سلب نعمتي ولكن أبى الله ألا أن اسلبهم مالهم ، وما ذاك الا لأمر نزل بهم فأذهلهم عنه

وكذلك كان يجيء بالحسنة وقد كفى الفقير مؤونة السؤال ووفر عليه غضاضة ذلك الموقف . ولا تسل عند اللقاء عن طلاقة وجهه التى كانت تستتر تحتها هموم صدره وعن محاسنته للمعدمين . فهو كما يصفونه غني لم يخرج به الغنى عن حد التواضع ، وسعيد لم تقف به السعادة على التبسط والانشراح

☐

وفى أوائل سنة ١٨٢١ اجاب عابد ( دينى ) دعوة ربه وقد نيف على الثمانين من عمره ، فنعتـه الصحف وطار خبر نعيه حتى وقع فى مسامع مادلين ، فوجد عليه وجدا شديدا وظهر من غده ، وعليه شارة الحداد . فتساءل الناس عن نبأه ومشى بعضهم الى بعض وجعلوا يقولون لقد كنا فى ليل من الشك فى أمر هذا الرجل ، حتى اضـاء لنا حسبه الوضاح ، فما هو الا من تلك الأسرة الشريفة ، ولا ريب أن نسبه يتصل بذلك العابد التقى

وأقاموا على ذلك اليقين أياما حتى تعرض له بعضهم بالسؤال فقال وقد اخذ عليه طريقه : « انى اراك تحمل شارة الحداد منذ نعى الناعي عابد مدينة ( دينى ) فهل انت ممن يمت اليه بحبل القرابة ؟ »

فقال ( مادلين ) وقد كان ينطق الحزن فى احشائه : « كلا ، وانما كنت فى أول أمرى خادما عنده ! »

وكان العابد قبل موته قد كف بصره ، فلبث كذلك بضع

سنين لا يجد ألما لفقدان نور البصر وقد بقى له نور البصيرة وبقيت اخته بجانبه لا تنحرف عن سراط طاعته ، ولا تنفك عن ملازمتـــه . فهى لا تريم عن مخدعه ، الا لامضـــاء أمره أو قضاء حاجته . وكانت تحرص على رضاه حرص المرء على حدقة عينه ، حتى رأى أنه قد استعاض عن عينه بعين ذلك القلب الذى بات لا يغفل عن رعايته

ولبث ذلك البصير أميرا لدولة القلوب ، وكان يقول فى نفسه : لو تم الكمال لشىء فى هذه الحياة الدنيـــا ، لأوشك امرى أن يتم كماله ، فانى أرانى لا ينقصنى شىء من السعادة

اللهم انك ان كنت قد استرجعت منى هبة النظر ، فقد جعلت أفئدة من الناس تأوى الى

اللهم ان من آوت اليه الأفئدة ، كان خليقـــا أن يصبح حامدا ويمسى مشكورا

وكذلك كان أمره فى أواخر أيامه ، وأخته لا تزال بجانبه يشاهدها قلبه ، وان لم ترها عينـــه ، وتتحسس روحـــه روحها فى ظلمة هذه الدار الفانية حتى تعثر بهـــا فتنجاب للقائهما تلك الظلمة ويبدو كوكب الصفاء

نعم كذلك كان أمره حتى انتقل من نعيم دنياه الى نعيم أخراه ، وبلغ خبر منماه ( مادلين ) كما ذكرنا فوجد عليـــه موجدته ، وأقام على حزنه حتى انصرمت أيام الحداد

☐

وما زال الزمن يحلل من حقد مبغضيه ويستل الوساوس من صدورهم ، حتى أصبح وليس فى القرية من يرتاب فى أمره ، فسكنت اليه النفوس النافرة ، وعطفت عليه القلوب الصوادف ، وبات موضع الحاجة ، ومحل الأمل ، ومهبط الثقة ينتجعه المضطر ، ويستعدى به المظلوم على الظالم ، ويفد اليه المتخاصمان من الأطراف للمقضاة فيصل بين المتقاطعين ،

ويوفق بين المتدابرين ، ويحكم بالتوفيق ، فلا ينحرف عن الحق كأن قانون الطبيعة البشرية قد طبع فى نفسه ، فطالعه ضميره وانطلق به لسانه

عطفت عليه القلوب الصوادف الا قلبا واحدا كان يبالغ فى الميل عنه كلما بالغت قلوب الناس فى الميل اليه

وكان هذا القلب فى صدر رجل من كبار الشرطةقد هبط تلك القرية منذ العهد القريب فشهد ( مادلين ) وهو فى مبتسم زمانه وعز سلطانه وقد استقر فى الذروة من الجاه وبلغ الغاية من الغنى فكان كلما مر به أحس بدبيب الكراهة فى نفسه بصورة قد أعجزه ادراك مأتاها

ولا عجب فان لبعض النفوس اشرافا على خافيات الأمور يولد فيها من الشعور الحقيقى ما تنبسط له مرة وتنقبض أخرى

وهو كذلك الشعور الذى يقع أحيانا فى نفوس البشر فيحدث فيها عاطفة الميل أو النفور عند النظرة الأولى ، ويقف فيها موقف المستبد لا يخضع لسلطان العقل ؛ ولا يجيب نداء الضمير ، فيقاطع بينها ويباين بين طبائعها ويوحى اليها عند اللقاء ، فترى النفس التى ركبت فيها طبائع الكلب تركب نفرتها عند رؤية كل نفس قد ركزت فيها طبائع الهر

أقول ذلك ولو كانت نفوسنا مما يقع تحت الحس لرأيت كل واحدة منها ممسكة بذراع أختها من نفوس تلك العجماوات

ولعلمت أن لكل انسان حيوانا يمثل طباعه ويكيف أطواره ولأدركت أن هذه الوحوش وتلك الأطيار لم تكن الا تماثيل أعمالنا فمنها ما يمثل الفضيلة ومنها ما يمثل الرذيلة ، وهى وان لم تدركها الأبصار قد علمت بوجودها النفوس الهاما من الخالق الذى جعلها لها تذكرة واعتبارا

أما الآن وقد سلمت معنا أيها القارىء ان لكل انسان حيوانا يمثل طباعه ، فقد سهل علينا أن نمثل لك نفس ذلك الرجل الشرطى وأعنى به ( جافير )

زعم بعضهم أن الكلب اذا وقع على الذئبة اولدها جروا وان الذئبة تخشى ان هى انتظرته حتى يشب أن يعطف على صغارها فيغتالها فلذلك تنحى عليه وهو صغير .. فلو أننا جئنا بذلك الجرو ، وأسكناه فى هيكل بشرى لتبين فيه القارىء شخص ( جافير )

ذلك هو الرجل الذى ما فتىء يتعقب ( مادلين ) ويسير على أثره مسير القضاء فى حجب الغيب ، فهو اذا لمحه ماشيا كاد بصره ينهب مواقع أقدامه ، واذا سمعه محدثا كاد سمعه يختطف ألفاظه قبل أن تبرح فاه ، وكلما وقع تحت بصره قال فى نفسه : ترى أين نظرت هذا الرجل ؟.. ،جعل يطالب الذاكرة كمن يحاول تذكار شىء درج فى أثناء النسيان ، وينتهى بقوله : لن يغلبنى هذا الرجل على امرى وان بالغ فى اخفاء أمره ..

وكان ( جافير ) مقيما بتلك القرية كبيرا لجماعة الجواسيس من الشرطة ، والشرطة كما تعلم قوم يعرفون بسيماهم تلوح بمعاطفهم مخائل السلطة، وتهب من اردانهم ريح الخساسة وكذلك كان جافير ولكنه لم يكن خسيسا

وكان مولده بسجن النساء حيث كانت امه سجينة ، وهى من هؤلياء النسوة اللاتى يحترفن باستطلاع الحظوظ من أوراق اللعب ، وكان أبوه سجينا بسجن الرجال . فشب ابن السجينين فى حجر البؤس والشقاء ، ولما بلغ أشده نظر فرأى بينه وبين ذلك المجتمع الانسانى سدا قد استحال عليه أن يجاوزه . وعلم أن هذا المجتمع لا ينبذ وراء ذلك السد الا أحد رجلين : رجل ناصبه العداوة فعمل على كيده ، ورجل منحه الوداد فعمل لمناصحته

وقد وجب أن يكون جافير أحد هذين الرجلين فشمست

نفسه عن الأول ، وسكنت الى الثـانى . فانتظم فى سلك رجال الشرطة وأخلص فى العمل وحرص على الطاعة حتى عهد اليه بأمر التفتيش ، وأصبح كبيرا لفرقة من الجواسيس

وكان يمقت الأشرار مقتا شديدا ويتفانى فى الايقاع بهم ، وان كان هو من سلالتهم

وقبل أن يسترسل بنا القلم فى تصوير خلق ذلك الرجل فقد رأينا أن نصور للقارىء خلقه فنقول :

كان جافير ذا سحنة خاصـة به ، وكانت له لحية قـد أغرى الموسى ببعضها وحرص على استبقاء بعضها ، فأخصب عاليهـا وأجـدب سـافلها واسـتهلت ذراها عنـد العارضين ، واكتثت أصولهـا عند العنفقة(١) وكان أفطس الأنف غائر المنخارين يخال الناظر الى غؤور منخريه وبروز شعر لحيته أنه يرى كهفين قد أقاما بين غابتين ، وكان اذا تبسم وقل أن يقع منه ذلك أراك ثغره أصول أنيابه ، فهو اذا ضحك فنمر ، واذا غت(٢) من ضحكة فمقور اتخـذت العبوسة مسكنا لها بين عينيه ، وأطلت النفرة من محاجره، وستر شعر رأسه جبينه وحاجبيه

□

ذاك خلق الرجل نصوره للقارىء واما خلقـه فقد كان قائما على خلتين كريمتين ، احترام السلطة الحاكمة ، ومقت المستخفين بها

غير أن المغالاة فيهما قد خرجت به عن حـد الاعتـدال فأنكر الناس منه ذلك

فكان يرى أن كل ما يقع من جرائم القتل والسلب داخل

---

(١) شعيرات بين الشفة السفلى والذقن

(٢) غت الضحك أخفاه

فى باب الاستخفاف بتلك السلطة ، ويسترسل فى الثقة بكل عامل فى الحكومة وزيرا كان أو حاجبا

وينظر بعين النفور والبغضاء لكل من ولج باب المخالفة ، وهو لم يقع منه ذلك الأمر فى حياته

ويقول وهو يعتقد ما يقول أن القضاة بهم عصمة عن الزلل فهم لا يخطئون ، وأن رجال الحكومة لهم اشراف على الأمور فهم لا يخدعون . ويزعم أن التوبة لا تغسل الحوبة ، وأن المرء اذا أجرم مرة عاش دهره مجرما لا تنفعه الانابة ولا يلوى بجريمته العقاب

كذلك كان يبالغ فى الخلتين ولا يستثنى أحدا فى الحالتين

وهو مع ما ذكرنا عنه وقور صبور كثير التفكير خاشع القلب عالى النفس مهيب فى العين قد أرصد حياته لشيئين لا ثالث لهما : السهر ، والمراقبة

وكان يعمل على كمال اليقين من انتفاع الناس بعمله ويراقب الله فى ذلك العمل ، ولا ينحرف شعرة عن أوامر الدين ونواهيه ، فهو فى حرفته كالراهب فى عبادته

والويل ثم الويل لمن وقع فى مخالبه ولو كان من ذوى قرابته ، فانه ليرد أباه الى السجن اذا قبض عليه وهو فار ، وليعارض فى رجوع أمه الى بلدها الا بعد انقضاء سجنها

وانه ليفعل ذلك وهو أروح ما يكون نفسا وأهدأ ما يكون ضميرا ظنا منهانه انما يرضىبذلك شريعة الأرض ولا يسخط شريعة السماء

وكان عيشه بين التقشف والعزلة عن الناس فما صادفه انسان مرة متراوضا ، ولا لمح عليه أثر الترف والنعيم ، كأنه لم يخلق لغير الكد والعناء بين المراقبة والاختفاء

وكنت اذا رأيته فى حين تجسسه رأيت رجلا قد غاب جبينه تحت قلنسوته ، واستترت عيناه تحت حاجبيه ، واختفت يداه تحت كميه ، وانزولت عصاه تحت ردائه ، حتى اذا عن له صيد أو سنحت له فرصة انتفض فظهر لك

ما اختفى من أمره كأنما خــرج من كمين أو وثب من ظلمة الى نور

قلنا انه لا عيب فى ذلك الرجل غير تلك المغــالاة ، فهو يغالى حتى فى معاملته لنفسه . اللهم الا ساعات معدودة من أيام حياته ، كان يرى فيها نفسه راضية عن نفســه فيهون عليها بعض الشيء من تلك المعاملة

وآية رضاه عنها أن يعمد الى لفيفة من الطباق(١) فيشعلها وكان ذلك مبلغ ارتياحه لنفسه وغاية رضاه عن مغبة عمله

ذلكم ( جافير ) ومن ذا الذى ينكر خطر ( جافير ) ؟؟ هو حــرب المجرمين ، وفخ الهاربين ، وفضيحة المختفين ، اذا لفظ اسمه امام أشد العتــاة انقلب على عقبيه مذعورا ، واذا لاح شبحه أمام احد الفارين تقيد فى مكانه بقيد من الرهبــة

فويل لك يا ( مدلين ) من هذه العين التى ترسم أثرك ، وتلك الاذن التى تتسقط خبرك ، ولا أحسبك الا واجدا فى نفسك ما يجده لك ذلك الرجل فى نفسه

فأنت بالذى فى قلبك عالم بما فى قلبه ، وان كنت قــد تحفظت ما شئت ، وصابرت ما استطعت ، وتكلفت السكون عند لقائه وتحاميت طريق صحبته وجفائه ، وزكنت منه على مثل ما زكن منك ، وسألت ضميرك عنه بمقدار ما سأل ضميره عنك

ولبثت تلك الحرب الخفية قائمة بين هاتين النفسين وكلما فتح جافير بابا من الدهاء أبطله عليــه مادلين بقوة الصبر والجلد حتى تزعزعت عزيمة الأول ولزم بيته ثلاثة أيام ، وكاد يأكل مقراض اليأس خيــوط آماله ، وأوشــك أن يعتقد بحلول الفشل فى مساعيه واعماله

واتفق ذات يوم أن خرج احد سائقى العجلات ومعه عجلة

---

(١) المعروف الآن بالدخان أو التنباك

يجرها جواد . فانطلق بها فى طريق كثير الوحل ، ففارت فيه قوائم الجواد وأكب لوجهه ، وسقطت فوقه العجلة ، فبترت عظم ساقيه ، وانقلب السائق تحتها فاستقرت فوق صدره فجعل يستغيث ويستنجد وهو مشفق أن يبتلعه الوحل . فهب الناس لجهة الصوت ووقفوا ينظرون اليه ، ولا يقدم احد على الأخذ بيده

واقبل ( مادلين ) مهرولا فنظر الرجل تحت العجلة يسوخ فى الطين شيئا فشيئا ، وهو كلما اضطرب طلبا للخلاص كان اضطرابه مساعدا على وأده فى الطين حيا ، فأشار اليه مادلين بالسكون ثم التفت الى الجماعة وقال : ايكم قوى العضل جليد القلب يدخل تحت تلك العجلة فيرفعها بظهره واجره على ذلك خمسة ذهبا ؟ فوجم القوم جميعا ؛ فقال مادلين : انى أرى الوقت ضيقا وارى أجل هذا الرجل أضيق منه فلا تخنسوا عن مساعدته ولمن يفعل ذلك منكم عشرة ذهبا وان ابى الا المزيد فعشرون

وما كاد يأتى على تلك الكلمة حتى سمع من ورائه رجلا يقول : « ان القوم لا تنقصهم الارادةولكن تنقصهم القوة ! »

فالتفت مادلين ليرى القائل فاذا به جافير ، ولم يكن لمحه عند قدومه

فحدق فيه جافير وعطف قائلا : « وليعلم سيدى الشيخ انه ليس على ظهر الارض من يقوى ظهره على رفع تلك العجلة ، اللهم الا اذا كان من العمالقة أو من أولئك السجناء الذين قضوا شطرا من حياتهم فى سجن تولون ! »

فغض مادلين من بصره واستشعر الخوف لأول مرة ، وعلم أن جافير لم يقل ذلك الا تعريضا وتقريعا له ، ولكنه غالب نفسه حتى ملكها . ثم التفت الى الجماعة ليرى ايهم أقدم على هذا العمل ، ولما لم يجد معينا جثم على الأرض ؛ ولم تكن الا جولة فكر ، حتى رآه القوم تحت العجلة منبطحا على وجهه وقد حاول أن يجمع بين مرفقيه ويقرب بين

ركبتيه ليعتمد غليها فى رفع تلك العجلة ، فعالج ذلك مرتين ولم يفلح فخفقت قلوب الجماعة اشفاقا عليه ، وظنوا أنه لا محالة هالك ، فصاحوا به : أولى لك أن لا تطرح بنفسك ذلك المطرح من التغرير ، وانا ننـاشدك الله أن تستبقى حيـاتك

وقال له سائق العجلة وهو تحت كلكل الموت : انى أدعوك بالله أن تنجو بنفسك،فانى ميت ولا عاصم اليوم من أمر الله

كل ذلك ومادلين صامت لا ينبس ، والقوم باهتون من عمله ، والعجلة لا تنفك عن الهبوط حتى تعذر عليه الخلاص وانقطع خيط الأمل من نجاته

وان القوم ليحفز اليأس أحشاءهم واذا بهم يرون العجلة وقد تحلحلت ، وجعلت تهتز فوق ذلك الطود الذى رسخ تحتها وأخذت تصعد بعد ذلك الهبوط ، وسمعوا صـوتا قـد صحله(١) التعب يدعوهم الى نجـدته ويقول لهم : أعينونى بقوة فقد أمكننى الله منها

وكان ذلك صـوت مادلين فأوفض(٢) القـوم اليهـا ؛ وانتزعوها من مكانها ، وأفلت السـائق من مخالب الموت ، والموت خزيان ينظر . وكان هذا السائق يدعى ( فوشلفان ) وهو من أعداء مادلين الذين أكل الحقد صـدورهم ونهش الحسد قلوبهم

وقد كان فى أول أمره جنديا ثم صار تاجرا فأثرى ثم أملق حتى صار من سائقى العجلات . وكان يبيت وهو يتقلب على جنب الحرد(٣) من الحسد كلما فكر فى مادلين وفيما صار اليه أمره من الثروة والجاه ، ويقول لنفسه : لقـد قدم مادلين وأنا تاجر وهو أجير فأصبح بحيث يحسد وأمسيت بحيث أكمد

---

(١) بح بتشديد الحاء من التعب
(٢) أسرع القوم
(٣) الحرد بفتح الحاء وكسر الراء المغيظ

ومن هنا كان مبعث حقده عليه ومثار حسده له

ولما سار مادلين من تحت المجلة بعد انزلاجها عن مكانها وهو باهت اللون ناضح الجسد ملطخ الثياب ممزقها تحامل ( فوشلفان ) حتى اقترب منه ، وانكب على ركبته يقبلها وجعل يدعو له

كل ذلك والقوم يبكون من هول ما شهدوا وينظرون الى ذلك الوجه الذى بانت فيه آثار الجهد والعناء ، ولاحت عليه سيما السرور والارتياح ، وجافير يكاد ينشق غيظا فى مكانه ومادلين يلقى عليه نظرات مطمئنة ويلمحه لمحات معنوية

ولما انقضى ذلك المشهد وذهب كل لوجهة أمر « مادلين » بفوشلفان فحمل الى مصنعه وأفرد له فيه مكانا ووكل به اثنتين من الممرضات ، وأوصى بالعناية به وجعل يعوده طرفى النهار حتى أبل من مرضه

ثم وجه اليه برقعة وقع له فيها بأربعين قطعة من الذهب وكتب بها أنه قد اشترى عجلته وجواده بهذا القدر من المال ( وان كان الجواد قد نفق على أثر سقوطه والعجلة قد تحطمت منذ ذلك اليوم )

ولما أبل فوشلفان من مرضه كان لا يزال يشكو بعض الألم باحدى ركبتيه ، فحال ذلك بينه وبين الرجوع الى حرفته ، فلذلك أقامه مادلين حارسا لبستان دير النساء بباريس

وبعد تلك الحادثة بقليل وجهت الحكومة الى مادلين ببراءة وظيفته . وكان جافير كلما لمحه حاملا لتلك الشارة التى تأذن له بالتصرف المطلق فى شؤون وظيفته ، كادت تطير شظايا نفسه حسدا

وشعر من نفسه بذلك الشعور الذى يقع فى نفس الكلب اذا وجد ريح الذئب مختفيا تحت ثياب ربه . ومن ثم جعل يتحامى طريقه ولا يلقاه الا مكرها على لقائه

فكان اذا لقيه لقيه لقاء المحتشم المستكين ، واذا خاطبه خاطبه خطاب المتحفظ الرزين

هذا ما كان من امر جافير ومادلين . ولقد طال عليك ايها القارىء انتظار حديث فانتين وطال عليها الوقوف أمام تلك القرية

قدمت فانتين بلدتها ، وما نسيت ما كان من أمرها ، فوقفت تنظر اليها ، وقد تنكر لها كل شيء ولم تر من تعرفه ولا من يعرفها فسارت تعروها دهشة الغريب حتى وقف بها نصيبها على باب مصنع مادلين فارتاحت لرؤية وجه ذلك الباب كأنما هي ترى وجه صديق لها ، وعرضت نفسها على رب المصنع ، فأمر بضمها الى قسم النساء فكانت تصيب الكفاف من الرزق لجهلها بتلك الحرفة الجديدة ، وكان أجرها في اليوم لا يتجاوز حد القوت ولكنها قد بلغت على كل حال منـاها وأمست تعيش من كسب يدها . ففرحت بصيانتها لماء وجهها وحفاظها لعرضها وانكمشت في العمل حتى برعت فيه ، وزادوا لها في الأجر ، فأمكنها أن تكترى لها مكانا صغيرا وأن تبتاع بعض الأثاث بالقرض والنسيئة ، فبدأت بشراء مرآة كانت تنظر فيها عند كل صباح الى نضرة شبابها فتطرب كلما تمثل لها عسجد شعرها وتراءى لؤلؤ ثغرها ، وكادت تنسى هموم ماضيها ولم يعد لها من هم غير التفكير في طفلتها وفيما سيكون أمرها في مستقبل أيامها

وكانت تحرص كل الحرص على ارسال النفقة في حينها وتبالغ في كتمان أمرها وتحتجز من الناس غاية الاحتجاز وتتحفظ مـن أن تسـقط منهـا لفظة تشـير الى ذكر « كوزيت » أو محل وجودها أو أن تخوض في حديث يجر الى ذكر الزواج ، ولـكن أبى النحس الا أن يلازم طالعهـا فانها كانت كلما ارادت ارسال النفقة الى طفلتها في كل شهر اسـتدعت أحـد الكتاب ، فاستكتبته كتابا الى أصحاب النزل ، وذلك لجهلها بالكتابة كما قدمنا ، فكانت تستدعيه

عنـد قدوم الليل والليل أكتم للسر ، فولد ذلك فى نفوس صواحبهـا بالمصنع بعض الشـكوك ، ولفت أنظارهن الى مراقبتها فجعلن يتحدثن فيما بينهن بأمرها ، ويقلن ما لهذه الرسائل بد من سبب ، وما بال هذا الكاتب لا يأتى الا اذا اتى الليل ، وما بال فانتين كاسفة البال تنزوى فى طريقها عن الناس وتتحامى فى المصنع الاختلاط بنا

ولا تعجب أيها القارىء فان أشد الناس مراقبة للناس من كان أبعدهم نفعا من وراء تلك المراقبة ، فهو يراقب لغير نفع يجلبه أو مال يكسبه ، ولكنها غريزة فيه تثيرها الرغبـة فى الوقوف على أحوال غيره ، فتراه ينفق المال ويستخدم الرجال ويمالىء كل من كانت له صلة بمن يراقبه من حاشيته وخدمه وأصحابه ، ويكد ذهنـه وينتصب بدنه ويصرف النفيس من وقته فى تسقط الخبر وتلمس اللفظ ، ويجمع كيده لاستبطان الأمر ويرصـد نفسـه لاستطلاع السر ، فيخالط السوقة ويجالس أهل المنزلة التى هى دون منزلته فيعقد لهم مجالس الشراب وينفق عليهم ما يضن بانفـاق بعضه فى سـبيل البر وطريق الخير ويكمن تحت الليل فى زوايا الطرقات لا يبالى بسقوط الجليد ولا يعبأ بوخز القر ، ويجلد على احتمال تلك المشاق حبا فى الاستطلاع ورغبة فى الاكتشـاف ، حتى اذا الم ببعض الأمر وانكشف له جانب السر ، جلس الى أصـحابه فى الأندية يحـدثهم وهو يميل بسفالته تيها ، ويثنى عطفه كبرا كأنه قـد اهتدى بأبحاثه تلك الى اكتشـاف سر من أسرار الكون

كذلك كان حال فانتين مع تلك النسـوة اللائى يعملن بذلك المصنع فانهن قد أفرطن فى مراقبتها فعددن انفاسها ورقبن حركاتها وذهبن مع الظنون فى أمرها . لمحنها مرة وقد وقف الدمع فى عينها موقف الحائر فانتحت ناحية من المكان وجعلت تمسحه فى خفيـة فتغامزن عليها بالعيـون وأصـبح الشك عنـدهن يقينـا ولم يكن علم الله بكاؤها

الا لذكرى طفلتها وما كان منها مع ذلك الرجل الذى غلبها علـى أمرها . وما زلن يوالين البحث حتى اهتـــدين الى معرفة العنوان الذى تكتب به ، واجتمعن بذلك الكاتب الذى كانت تستخدمه فى الكتابة ، فانطلقن به الى احدى الحانات ، وكان الرجل خفيف الحال مدمنا للراح يبيع ما فى فؤاده من السر بكأس الخمر ، فحططن عليه بالشراب حتى استفرغن ما عنده من أسرار تلك الكتب ، فعلمن أن « لفانتين » طفلة وأنها غادرتها بنزل فى قرية ( منتفرمى ) وما يكتفين بما وصل اليهن من ذلك العلم ، بل بعثن منهن رسولا يرى الطفلة رأى العين ، وكان هذا الرسول شيخة من ذوات الاسنان نسجت الشيخوخة على وجهها طبقة من التشويه ، فزاد ذلك فى دمامة خلقتها وكان زوجها راهبا قد فر من أحد الأديرة فتزوج بها ثم مات عنها منذ زمن طويل فلبثت بعده أرملا الى هذا العهد ، وكانت تعيش من فضلة قد بقيت لها

تلك ( ما دام فيكتريان ) التى كانت رسولهن الى قرية « منتفرمى » وهي التى قالت لهن عند عودتها : لقد أزلت الشك باليقين ورأيت الطفلة رأى العين وأنفقت على ذلك مئة وأربعين قرشا

□

واستغرقت تلك المؤامرة زمنـــا طويلا حتى اســتوفت « فانتين » عمر العـــام وهى بذلك المصنع . وفى ذات يوم دخلت عليها كبيرة دار الأجيرات فناولتها مائتى قرش ، وقالت لها ان رب المصنع يأمرك بالتحول عن هـــذا المكان وان أحسنت الى نفسك فلا تسكنى القرية بعد اليوم

فجمدت « فانتين » فى مكانها وحاولت الكلام فخانهـــا الصوت ونظرت الى وجه التى تحدثها فلم تلمح فيـــه للعطف مجالا فخرجت تمشى على استحياء وهى أسوأ ما تكون حالا ،

وكان ذلك فى الشهر الذى لؤم فيه صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة منها فانكفأت الى حجرتهــا وجلست تفكر فيما سيؤول اليه أمرها ، وكانوا قد أشاروا عليها بمواجهة الشيخ « مادلين » لتنفض اليه جملة حالها لعلها أن تصيب منه قلبا رحيما ، فمنعها الحياء من ذلك ، وقالت فى نفسها لقد أمر بابعادى لأنه عادل وجاد على بمائتى قرش لأنه كريم، وما عسى أن يفعل الرجل معى أكثر من ذلك وقد وقع فى نفسه ما أنهى اليه من أمرى ؟

وكان « مادلين » بريئا من ذنبهــا ولم يكن مــن عادته الدخول الى دار الاجيرات فلم يشرف على أعمالهن ، وقــد عهد بذلك الى واحدة منهن عرف فيها الاستقامة وصــفاء السريرة فأقامهــا رقيبــة على الأجيرات ومنحها التصرف المطلق فى أمورهن . وكانت تلك المرأة بمنزلة مــن الأمانة والرفق فى العمل واسداء المعروف ولكنها لم تبلغ المرتبــة التى اذا عرف أهلهــا بوجود الذنب ذكروا العفو عن المذنب فهى التى باشــرت التحقيق فى أمر « فانتين » وهى التى حكمت عليها وقامت بامضاء ذلك الحكم وطلبت من مادلين التصديق عليه

كل ذلك يجرى بالمصنع فى قسم النساء ومادلين لا يعلم منه شيئا ، ولا عجب فان أمثال هــذا الرجل من أصحاب النفوس الزكية والقلوب النقية يتركون النظر فى شؤونهم الى من يرون فيه الاخلاص ولا يحاسبونه يوما ما يأتيه من ذلك العمل

□

ولما غادرت فانتين المصنع على أثر تلك المؤامرة لم تر بدا من البقاء فى القرية لأنها قد ابتاعت أثاث منزلهــا بالقرض والنسيئة ، وقــد بلغ التــاجر ما نزل بها فأنذرها بســوء

العاقبة ان هى غادرت القرية قبل وفاء دينه ، وكذلك كان حالها مع ربة المنزل الذى استأجرت فيه قاعتها . على أنها قد قسمت بينهما ما أحسن به عليها مادلين واستمهلتهما فى المقاضاة فيما تبقى عليها وردت الى التاجر بعض ذلك الأثاث وحفظت منه ما لم تر بدا من حفظه وعولت على العمل ، فطرقت جميع الأبواب والتمست أن تكون خادما بأحدها ، فلم يكن نصيبها غير الرد والاعراض ، فعادت الى منزلها تتعثر فى ذيول الخيبة ، وما زالت تطالب فكرتها فى استنباط عمل تعيش من ورائه ، حتى فتق لها الذهن أن تعاود حرفة الخياطة ، فكانت تخيط الأقمصة لعساكر الحرس فتصيب فى يومها اثنى عشر صلديا تحفظ عشرة منها لنفقة (كوزيت) وتنفق اثنين فى احراز مسكة الحوباء(١)

وكانت تساكنها بتلك الدار عجوز من البائسات قد مارست صنوف الشقاء ، وتقلبت بها أحوال العسر والمتربة فجعلت فانتين تجلس اليها فى كل يوم وتأخذ عنها دروس العيش فى الخلة(٢) والضيق

وليعلم القارىء أن وراء العيش القليل منزلة أخرى ، وهى العيش من لا شىء وأن هؤلاء البؤساء الذين شبوا وشابوا بين شظف العيش ونكد الحياة لهم فنون وأساليب فى الانتفاع باليسير من المال فتراهم يتلمسون من وراء الدانق منافع عديدة ويقضون بالسحتوت الواحد حاجا متنوعة

ولقد أصبحت فانتين بفضل تلك الدروس بارعة فى فن الحياة فاستغنت عن النار فى الشتاء وعن اللحوم فى الطعام

وعرفت كيف تجعل من ثوبها غطاءها ومن غطائها ثوبها ، وأدركت كيف تقتصد ضوء شمعتها فتأخذ طعامها على ضوء الشفق أو على أشعة النور الذى ينفذ من طاق جارها

---

(١) الحوباء النفس

(٢) الخلة بفتح الخاء الحاجة

وكانت تقول لجارتها وهى تحدثها : « انى لأقضى عامة النهار وثلثى الليل وأنا أخيط ، فأكاد أصيب بذلك ما أتبلغ به من الخبز اليسير ، وانى بحمد الله حزينة القلب كسيرة الخاطر

ومن كان حاله كحالى من الهم ، كان خليقا أن لا يتناول غير القليل من الزاد ، فأنا أتبلغ بذلك الخبز اليسير وأتأدم بهذا الهم الكثير ، وأجد منهما غذاء أمسك به النفس ، وأحفظ به الحيـاة » !

وفى تلك الضائقــة التى يخرج احتمالها عن طاقة البشر كانت تمر بفانتين ذكرى طفلتها،فتجد لذلك سرورا لا يعادله عندها شيء فيدعوها الشوق اليهــا الى طلب استحضارها من ذلك النزل ولكنها تراجع نفسها بقولها : «اى ذنب جنته تلك الصغيرة حتى يقضى عليها أن تشاطرنى هذا البؤس ، وهب أن هذا الذى أنا فيه لم يكن بؤسا فمن أين لى نفقة الطريق ووفاء ما عــلى من الديون لأصحاب النزل حتى استخلصها من أيديهم ؟ ان هذا الأمل بعيد »

وكانت تلك المرأة التى علمتها دروس الحيــاة مــن ذوات النفوس العالية ، وأهل العفة والقناعة تسدى المعرفة الى الفقير والغنى ، وتفعل الخير لأجل الخير ، ولا تعلم من الكتابة غير رسم امضائها وتقول أن الله موجود ولا تعرف غير ذلك

وكم من فضائل كامنة فى نفوس أمثال هؤلاء الذين نزل بهم الدهر الى الحضيض ستعلو بهم ذات يوم الى عنــان السماء ، فان لكل يوم غدا

ولبثت فانتين كثيرة الخجل شديدة الحياء من نظر الناس اليها ، وهى على تلك الصورة من خفة الحال ومظهر العوز والاحتياج ، فلزمت بيتها زمنا طويلا ، وكانت اذا دعتهــا الحاجة للخروج لابتياع شيء أو قضاء أمر مشت فى الطريق وهى كاسفة البال تود لو ساخت بهــا الأرض لتختفى عن أنظار المارة ،وكانت تشــعر كأنهم يترسمون بالنظر مواقع أقدامهــا ويشيرون بالأصابع الى رث ثيابهــا ، فتغض من

نظرها ، وتحتث قـدميها للهروب مـن تلك النظرات التى اخترقت اهابها وأدمت فؤادها . ولو كانت تلك البائسة بباريس لما لفتت اليها نظرا ولا استوقفت ناظرا .ولأرخت عليها ظلمة الفقر سدولا تحجبها عن العيون ، ولكن فى أمثال تلك القرى الصغيرة قل أن يجد الناس ما يشغلهم عن مراقبة النـاس

ومرت على فانتين ثلاثة أهلة وهى تروض نفسـها على احتمال ذلك الازدراء كما راضتها على احتمال مرارة الشقاء حتى نضب ماء الحياء من وجهها وزال ذلك الشـعور من نفسها ، وصارت تمشى فى الطريق وهى طارحة رداء الخجل لا تبالى بتلك النظرات ولا تحفل بهذه اللفتات ، وكانت تلازم ثغرها ابتسامة الله أعلم بما يمتزج بها من غضاضة الحياة ، وتنأى بجانبها عن الناس شامخة الأنف عالية الرأس

وكانت كلما لمحتها مدام ( فيكتريان ) حاسبها الله وهى تمرح فى قد(١) تلك الخلة والضيق ، وتمشى هـذه المشية فى الطريق ، حمدت مغبة عملها وأثنت على نفسها اذ حالت بين تلك البائسة وبين الهناء وردتها بفضل سعايتها الى ذلك الشقاء ، ومن الناس من لا يجد سروره الا فى ألم غيره

نفوس فطرت على الشر فلا يصفو لها مورد السعادة ما لم تشبه شائبة من الأذى

□

قلنا أن فانتين كانت تقضى عامة النهار وثلثى الليل وهى عاكفة على العمل فلم تزل تلك حالها حتى أوهن الافراط من عزمها وزاد فى ذلك السعال الذى كان جالسا فى صدرها فاشتدت بها الضائقة اشتدادا يغرب معه الصبر

ولكنها كلما مشطت عند الصباح شعرها بذلك المشط

---

(١) القد هو القدر ، والقامة

الذى اسقط الدهر أسنانه ، فكان أشبه الأشياء بثغر الأدرد(١) فنظرت جمال فرعها المرسل ارسال الحرير ، اختلست رقدة من عين الدهر ومدت يدها لمصافحة السرور

وكانت قد خرجت من المصنع فى أخريات الشتاء فانصرم الشتاء وانطوى على أثره الصيف ودار الفلك دورته ، فاذا الشتاء التالى يقرع باب فانتين قرعا ينذرها بيوم قصير وجو مطير وضباب مقيم وأفق مظلم ونهار يعثر صباحه بمسائه ، وليل يجهل أوله آخره وشمس رمداء ، وسماء مكفهرة الأرجاء ، وعيش كثير المؤونة ، وفصل هو حرب الفقير وهلاك الضعيف ، يقل فيه العمل وتكثر النفقة فتطلب المعدة الغذاء والجسم الرداء ، ويتلمس المقرور النار ويضيق بصاحب الكفاف رحب الدار

فصل يحول الأفئدة الى صخور ، ويرد السائل الى جماد قد دهم فانتين وهى بين الخلة (٢) والقلة فزاد فى دينها وكساد حرفتها ، فسقطت عليها مطالب الغرماء سقوط القضاء ، وألح صاحب النزل قاتله الله فى طلب النفقة والتماس الزيادة فيها حتى زهدت فانتين فى حياتها وحبب اليها قرب يومها

وجاءها منه ذات يوم كتاب يذكر فيه أن ابنتها أصبحت عارية الجسد ، وأنها ان لم تتداركها بارسال أربعين قرشا لابتياع لباس لها ، فهى هالكة لا محالة . فوقع ذلك الكتاب فى نفس فانتين وأحزنها طول يومها ، ولما كان المساء انطلقت الى حانوت حلاق ، فوقفت أمامه ونزعت ذلك المشط الذى كان يمسك شعرها ، فانسدل على ظهرها وستر أردافها ، فصاح الحلاق : لله ما أجمل ذلك الشعر ! فقالت فانتين :« انظر كم تدفع من الثمن اذا بعتكه » قال : « أربعون قرشا »

---

(١) درد الرجل ذهبت اسنانه ، فهو أدرد

(٢) بين الحاجة والجدب

قالت : « عجل بقصه » فقام الرجل الى مقصه ، واهوى به على شعرها وأعطاها الثمن فاشسترت به لساعتها لبساسا وبعثت به الى طفلتها . فساء ذلك صاحب النزل وأغضبه لأنه كان يطمع فى الدراهم لا فى اللباس . فأعطاه الى احدى بنتيه وبقيت كوزيت فى جلدها تقضقض من البرد وترتعد من الجليد ، كل ذلك وأمهـا تظن أنهـا باتت تمرح فى ذلك الكساء الجديد ، ولا علم لها بما تقاسيه من ذلك الألم الشديد

□

وكانت فانتين كلما احست بألم فراق شعرها،وجدت لذلك بعض العزاء لأنها لم تفقد ذلك الشعر الا لتحفظ حياة تلك الطفلة

وتمر بها ساعات تذكر فيهـا حسن شـعرها فينقبض صدرها ويمتلىء حقدا على ما يحيط بها ويمتد ذلك الحقد حتى يتناول ( مادلين ) ذلك الذى كانت تشـاطر النـاس محبته بالأمس ، وقد أصبح اليوم من ابغض النـاس اليها لكثرة ما سمعت من انه هو الذى أمر بابعادها ، وأنه أصل شقائها وسبب بلائها

وكانت كلما مرت أمام ذلك المصنع تكلفت السـرور والابتسام وجعلت تغنى غناء رخى البال رضى الحال توهم بذلك أهل المصنع أنها اليوم أنعم بالا منها بالأمس ، وما خفى عن اصحاب المصنع أمرها فقد قالت احدى عجائز الأجيرات حين لمحت فانتين وهى على تلك الحال : « ويل لهذه الفتاة من سوء المصير »

وما زال الشقاء يجر على فانتين الشقاء حتى حـدثت نفسها أن تتخذ لها عشيقا جديدا ، وقررت أن يكون أول من تلقـاه فى طريقها كائنـا من كان . فوقف نصيبها على موسيقار ، رقيق الحال غليظ القلب عاطل يتكفف ،وسائل

يستكف لا يعرف العشق ولا يفقه معنى المداعبة ، فطارحته فانتين حديث الغرام فلم تره يحن الى شيء من ذلك ، على انه ما لبث أن هجرها بعد ان ضربها ونهرها

فخلا فؤادها من كل حب الا حب طفلتها ، فكانت تراها في ظلمة ذلك اليأس كنجمة تلمع في سماء آمالهـا ، نقول « آمالهـا » لأنها كانت تخلو بنفسها فتحدثها بتلك الآمال التي تلوح لها بوارقها في جو الخيال

ولو وقف بؤسها عنـد هذا الحد لأطاقت حمله ، ولـكن صاحب النزل كان يزيد في ألمها ويروعها كل يوم بطلب جديد

كتب لها أن ابنتها مريضة محمومة ، وأنها أن لم تسارع بارسال قطعتين من الذهب لوقايتها وعلاجها فانه يخشى عليها عادية الموت . ولا تسل عما حل بها حين اخذ نظرها ذلك الكتاب فقد خرج بها من الألم عن حد الادراك،فجعلت تضحك وتهذى ، وخرجت تطفر في الطريق طفر الأطفال ، وتضحك ضحك الأبله المعتوه وتقول لنفسها : « قطعتان من الذهب . .اللهم غفرانك . . ان هؤلاء القوم لا يعقلون ! . . »

ولم تزل كذلك حتى وقفت على لفيف من الناس قـد التفوا حول طبيب الأسنان يعرض عليهم أسرار صـناعته وما يلتحق بعلاج الأسنان وتنقيتها ونزع المتآكل من الأضراس وغير ذلك . فاندست فانتين في غمارهم وهي لا تزال على ذهولهـا تضحك ولا تعي ، فصـاح الطبيب حين لمح لؤلؤ ثغرها : « أتبيعينني أيتها الفتاة ثنيتيك بقطعتين من الذهب» قالت فانتين : « وما الثنيتان أيها الطبيب ؟ » قال : « هاتان اللؤلؤتان اللتان تلمعان بمقـدم ثغرك » فصاحت فانتين : « غفرانك اللهم ان هذا لهو الضلال المبين » وكانت بجوارها عجوز درداء(١) تسمع كلام الطبيب فقالت تكلم نفسـها : « قطعتان من العظم بقطعتين من الذهب ؟ لله ما أسعد تلك الفتـاة ! » . على أن فانتين لم تكد تسمع كلام ذلك الطبيب

(١) سقطت اسنانها

حتى رجعت أدراجها وقد سترت لؤلؤ ثغرها بمرجان شفتيها ووضعت اصبعيها فى أذنها كيلا يصل كلامه الى سمعها ، وهو مع ذلك يصيح فى أثرها : « أيتها الحسناء تمهلى فى الأمر واستوزعى فؤادك يلهمك القبـــول ، واعلمى أنك لم تغبنى فيمـــا عرضـــناه عليك من الثمن فاذا كان المساء فاغشينا بدارنا بمكان كذا » . فوقع كلامه فى أذنها برغم أصابعها ، وزاد فى نفورها ، فانطلقت حتى اذا بلغت دارها عطفت على جارتها العجوز ، وهى أشد ما تكون غيظا ، فأخبرتها خبر الطبيب وما كان منه ، وقالت : « لقد بعنا الشعر لأنه يعود فينمو ، ولكن ما حيلتنا فى الأسنان ومفقودها كما تعلمين لا يعود وهى حلية الثغر ونقطة دائرة الجمال » ، ثم غادرتها وانكفأت الى حجرتها ، وعكفت على خياطتها ولم تكد تستقر فى مكانها حتى ندرت الابرة من يمينها ، فقامت مسرعة الى ذلك الكتاب المشؤوم وأعادت قراءته ورجعت الى جارتهـــا تسائلها عن معنى تلك الحمى ونتائجها ، فقالت لها : « انها مرض من الأمراض يعترى الكبير والصغير وهو اليوم أكثر وقوعا فى الأطفـــال » فقالت فانتين : « وهل يجر هـــذا المرض الى القبر ؟ » فقالت : « نعم يجر الى القبر اذا تخلت عن المريض العناية » فخرجت فانتين من عنـــدها وقرأت الكتاب مرة ثالثة ولبثت بقية يومها نهبا للهواجس . ولمـــا توفى الليل النهار رآها بعضهم وقد أخذت طريقها الى دار ذلك الطبيب ، فانتزع اللؤلؤتين وحباها بالقطعتين . ودخلت جارتها فى صـــباح الغـــد مبكرة اليها فألفتها جالسة فوق سريرها وهى شاحبة اللون ، ساهية الطرف ، تنطق بوجهها آثار السهر ، ويدل تضعضع حالها على أثر نزاع قام بينها وبين ليل كان أطول من شعرها ، وأسود من حظها ، وعلى القرب منهـــا شمعدان قـــد فنيت شمعته ، وخلفت على جوانبه شباكا من دموع أسالها اللهيب وجمدها القر

وتقف جارتها أمام ذلك المنظر الذى يقطع نياط القلوب

جزعا وتنادى : « ويلى عليك أيتها البائسة تشعلين الشمعة كلها فى ليلة واحدة فما عسى يكون قد نزل بك من الأمر ، ومالى أراك كأنك قد انتفضت من كفن أو أفلت من ظلمة رمس ! » فالتفتت اليها فانتين وقد أهرمتهـا تلك الليلة الماضية ، فأخذت من سباتها وبلغت منهـا ما لم يبلغه كر الغداة ومر العشى عشرة أعوام كاملة ، فتقول لها : « ليس بى بحمد الله من شىء ، ومن هو أولى براحة البال منى ؟ قـد أمكننىالله من انقاذ طفلتى من يد الموت بهذا الذهب» . وتنظر جارتها وهج الذهب بجانبها ، فتصيح : « اللهم انها ثروة ، فمن أين لك هذا ، وقد عهدتك بالأمس لا تعرفين وجـه الفضة ؟ » ، فتبسم فانتين ابتسامة تنم عنلعاب دام قد لوث ركنى شفتيها وثغرة مظلمة فى وسط ذلك الثغر المضىء ، فتعلم جارتهـا كما علم القارىء أن تلك الثغرة المظلمة هى مكان تينك اللؤلؤتين

□

وانطوى خداع صاحب النزل ( برئت منه المروءة ) على فانتين ، فوجهت اليه بطلبته ولم تكن طفلتها مريضـة كما يرجف ، ولكنه شرك قـد مـده لاصطياد دراهمها حتى سلبها عسجد شعرها ، ولؤلؤ ثغرها ، وأصبحت عطلا من الحلى والجمال ، فكسرت تلك المرآة التى كانت تجد فى النظر اليها بعض الهناء أيام صحبتها شعرها ، وتحولت عن قاعتها بالطبقة الثانيـة الى قاعة أخرى بسطح المنزل قـد أعدت لسكنى البائسين ، وكانت ذات سقف مسنم يرتكز وجهاه على وجه الأرض اذا دخل فيها ساكنها البائس انحنى تحت سقفها انحناءه تحت أثقال العيش وأعباء الحياة

ولم تكن تشتمل على غير خشبة قد طرحت علىالأرض

وخلقــة(١) كانت تسميها غطاء ، وكرسي قــد نزع تقــادم العهد أحشاءه ، وجرة كنت ترى الماء فيهــا تارة ســائلا وأخــرى جليدا ، وزهرية قد جف طينها وذبل زهرها ؛ وفتاة قــد نزعت نقاب الحياء وعافت زينة النساء تخرج فى الطريق وعليها ثوب خلق رديم ممزق الأديم قــد أهملت رتق فتوقه ، وأغفلت سد خروقه . وما أدرى أكان ذلك لضيق فى وقتها ولعــدم اعتناء منهــا بأمرها ، وهى تنتعل حذاء قد كشر عن نابه ، تحت جورب قد نصل عن خضابه يحيط بخصرها نطاق بال مرقع،يكاد اذا تنفست فيه يتقطع

وتنكفىء الى غرفتها وقد بضع الهم من فؤادها بضعة ، وعبست الخيبة فى وجه أملها،واشتد الأمر وضاق،وتقابلت حلقات الوثاق ، وسطا عليها سعالها سطوة الجبار ، ولزمها ملازمة غرمائها بالليل والنهار ، فتقضى فحمة الظلام ، منفرة المنام سميرة الآلام ، حاضرة الدموع غائبة الهجوع ، وتفنى شمعة النهار بين وخز الابر ووكز الفكر وقد قدر عليهــا الله الرزق فأجراه لها من سم خيــاطها ، وهبطت أســعار الأجور فنزل أجرها فى اليوم من اثنى عشر صلديا الى تسعة فاستحال عليها امساك الرمق بهذا القدر اليسير . على أن طفلتها وحــدها كانت تكلفها فوق ذلك ، ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لقلنا خطب يهون ، ولكن صاحب النزل قد خرج عن أفق الاعتدال فأرسل يطلب منها اربع قطع ذهبية ويقول لها فى كتابه : « لقد عنينا بأمر طفلتك وصبرنا منك على ما تعلمين فان لم تسارعى بارسال هذا القدر من المال نبذنا ( كوزيت ) بالعراء ، وطرحنا بها فى مساقط القضاء ، فهى ان أخطأها برد الشتاء ، فليس يخطئها نازل البلاء ، ولقد أبلت اليوم من مرضها ، ولكنه ابلال يعقبه الموت ان فاتك فى أمرها الفوت »

فما الجرح ينكأ به الجرح بأوجع فى نفس الجريح من ذلك

---

(١) قطعة قماش بالية

الكتاب فى نفس فانتين ، فانها قالت بعد تلاوته : « اللهم انك تعلم اننى بعت الشعر والأسنان بيعة وكس ، وصبرت حتى ملنى الصبر ، وقد كانت لى صبابة عيش تكفينى السؤال فما زالت ترتشف منهـــا الحاجات حتى انضبتها ، اللهم لم يبق الا العرض ، وقد أمست تساومنى فيه الأيام، فلا راد لقضائك ، ولا مذهب من ورائك » ..!

▭

أبى قدر الله الا أن تمزق الفاقة ثوب ذلك العفـاف وأن لا تركب فانتين غير سبيل الخسارة ، فابتذلت خـدرها ، وباعت عرضها ، وعرض منهـا البؤس على هـذا المجتمع الانسانى أمة فاشتراها . عرضـها عليـه فى سـوق الألم فابتاعها بكسرة من الزاد ، وكان فيها من الزاهدين ، فأف لتلك المدنية غلبت الناس على أمرهم ، وزادت فى أسرهم . نفس حرة تباع بكسرة ، وعرض مغبون فيه يتساومون ، ولا زلنا نسمع على هذه المدنية آيات المدح والثناء ، وتطن فى آذاننا أصوات المرجفين فى أنحـاء البـلاد ، برفع الرق والاستعباد ، عن رقاب العباد . أين كتاب السـيد المسيح وأين ما جاء فيه من الحكم الصريح ؟ . طليتم وجـه مدنيتكم بطلاء مـن كلماته ، وأفرغتم فؤادها مـن حكمه وعظاته ، فتنـاول حكمه منكم الظواهر ، ووقف عن تنـاول ما فى السرائر .. أوهمتم الناس بانطواء أجل الرق ، وفاتكم أنه وان خف حمله عن أعناق الرجال ، فقد باتت تنـوء بثقله أعناق النساء

تملق المرأة فتجوع وتعرى ، فتركن الى الصبر والتجمل فيضيق عن ذلك ضعفها ، فتفزع الى السعى وراء الرزق من أشرف وجوهه فيقعد بها الدهر ، فتبيع الناس نفسها ، فيتنافسون فى المساومة ، حتى اذا ظفروا بامتـلاك تلك

النفس المعروضة فى سوق الشقاء ، سجلوا عليها فعلتهـا تلك فى باب الزناء ، وتغاضوا عن تسجيلها فى باب الرق وهو بها أحق وهي به ألصق

ويل للمرأة من الرجل يسترقها . وما يدريه ما المرأة . هى وعاء النسل وظرف الحمل ، هى زينة الحياة ، وزهرة الجناة ، هى بيت الجمال وموطن الدلال . هى مسكن الضعف ومهبط العطف ، فبالله ما أكثر مخازى الرجال

ذلك مثل فانتين فى ابتذالها لخدرها بعـد أن نزلت من المكروه منزلة ينقطع العقل عن تقديرها ويجمد الذهن عن تصويرها ، وبعد أن أنذرها الدهر بالانسلاخ عن هيئة العالم وأنذرها العـالم بالخروج عن دائرة الوجود ، فتسكعت فى الضـلالة وتبسطت عـلى الاثم ، وتمرغت فى حمأة الغى ، فخوى هيكلها من روح الشعور ، وكتب اليأس على لوح صدرها المثلوج قول ذلك الحكيم : « لا رغبة ولا رهبة » ، فأصبحت لا تخشى نازلا ، وأمست لا ترجـو نائلا ، وباتت لا تبالى لأنها ما انتفعت بأن تبالى

مر بها زمن وهى تصابر القضاء ، وتنازع الشقاء، وتعانق الخطوب وتصافح الكروب ، وتصبر على ذلك صبرا ، كان أشبه بعدم المبالاة من الحمام بالمنام ، فلم تنتفع بصبرها ، ولم تخرج من عسرها ، فمـا عساها تحذر اليـوم وهى كالاسفنجة سكن الماء أحشاءها وغمر أنحاءها سـيان أن طاف بها المحيط أو سقط عليها الندى . !

☐

توجـد بعامة القرى الصـغيرة ، وخاصـة القرية التى تسكنها اليوم ( فانتين ) طبقة من نشء الشبان العـاطلين الذين يعيشون من وراء دخلهم السـنوى ، وان احـدهم ليظهر بين أهل القرية بمظهر من الترف والنعيم لن يبلغـه

ساكن باريز ، أو ينفق أضعاف ما ينفق ذلك القروى ، وقد جمعت هذه الطبقة فى قريتنا تلك من أمثال هؤلاء العاطلين عددا كبيرا فتراهم يجلسون فى صدور المجالس ، وقد نفخ شيطان العظمة فى معاطسهم ، فجعلوا يتفاخرون بما ملكت ايمانهم : فمن تياه بكثرة رجاله ، ومن مدل بوفرة ماله ، ومن معجب بحسن سمعته وهندامه ، ومن مولع بالتفنن فى أساليب كلامه : يتحرش أحدهم برجال الشرطة فيحفظهم بتعنته حتى يجر الأمر الى المشاجرة ، فيقال فلان لا يعبأ برجال الحكومة،وينطلق الآخر الى التصيد والاقتناص كى ينوه بذكره فيقال انطلق النبيل الى الصيد ومنهم من يتورن(١) ويتزين فهو أين خطر تأرج المكان بعطره واشتغل الناس بذكره ، ومنهم مدمن الخمر ومدمن الجلوس فى الأندية حيث يفد السائحون

نعم وفيهم المتغالى فى التقليد ، والمولع بالجديد ، والذى لا يرى نفسه ظريفا الا اذا قاد خلفه كلبا وازدرى بنوع النساء ، فتأنق فى التعريض بهن واستهتر فى تقريعهن

وكان الظرفاء فى هذا العهد يغالون فى البزة ويتأنقون فى الزى ، وشارتهم يومئذ أردية زيتونية اللون مفضضة الأزرار ، وأحذية تحيط بأعقابها أهلة من الحديد وبكل منها مهماز للجواد شأن الفرسان وعلى رؤوسهم قبعات عالية البنيان كزة الأطراف ، فوق شعر جعد كثيف ، وبأيديهم عصى غليظة كأنها الجذوع دع الشوارب الطوال ، والزيق المرتفع ، ومنديل الرقبة المرسل على الصدر

أذكر من بين تلك الطبقة المفتونة شابا لم ينظر مدى عمره سماء باريز ولم يبرح دهره أرض تلك القرية ــ نشأ بين أفراد تلك الطبقة ففعل شرواهم وذهب مذاهبهم ، وكان مثله

---

(١) تورن أى تعطر فأسرف فى التعطر

كمثلهم : دخل قليل وعقل يسير ، وسفه يوازنهما ، ونزق يعادلهما

اتفق أن وقف ذلك المغرور ذات ليلة أمام أحـد الأندية وفى فمه لفيفة من الطباق ، وقد انتشرت على وجه الأرض طبقة من البرد

وتمر أمامه فانتين وهى عارية الأكتاف ، وعليهـا ثوب قصير تتجمل به النساء فى المراقص ، وكانت تلك عادتها منذ نصف عام

تعتمد الليل وتركب ذلك الطريق ، فتقبل فيـه وتدبر بعض ساعة كأنها حرسى يحفظ السبيل ، أو جندى أذنب فكان عقابه السير فوق ذلك الجليد جيئة وذهوبا ، ويتعمد ذلك المغرور كلما مرت أمامـه اغاظتها ويتحرى اهانتها فيعبس وجهها بكسفة مـن دخان لفيفته ويرسل عليها شواظا من الاهانة والسباب فيقول : ما أبشع هذا الوجـه وما أخلق حامل ذلك الثغر الأدرد بالانزواء عن أعين الناس ، وتسمع فانتين ما يقول وكأنها لا تسمع فتنطلق فى طريقها وتواصل سيرها فيـه اقبـالا وادبارا ، وهو فى مكانه يكاد يقطر غيظا

ويحركه ذات مرة سكونها ، فينطلق خلفها انطلاق الذئب خلف الفريسة ، وهو يفت من ضحك المغيظ ويدانيها ، فيهوى بيده الى الأرض ، فيقبض قبضة من البرد وينقض عليها فيدسه بين ثوبها وظهرها ، وينتشر البرد من ملتقى الكتفين الى مستدق الصلب ، فتزأر فانتين زئير اللبؤة ، وتنفتل انفتال النمر ، وتنشب أظافرها فى وجهـه ، وهى تصيح من فرط الألم بصوت قد صحله ادمان الخمر وأبحه الحزن ، ويفزع الناس لجهة الصـوت فرادى وثنى ، فيرون رجلا عارى الرأس يضطرب فى يد امرأة مسلوبة الشـعر والشـعور ، والرجل يحرص على الانفلات والمرأة تحرص على امساكه،وقد رنحته لطما ولكما وأتحفته بأنواع السباب

والشتائم ، فلم تبق فى اللغة كلمة تشير الى بذاءة أو لفظة تدل على لعنة الا ورمته بها من ذلك الثغر الأدرد

ويقف الناس حولهما صفوفا وهم بين ضاحك وصارخ ومصفق بيديه ، وكلهم يتساءلون عن مثار تلك المعركة القائمة ، ويبرز من تلك الصفوف رجل طويل القامة، فيجذب المرأة من نطاقها ، ويصيح بها : « انطلقى على أثرى ». وترفع فانتين عينها وترى شخص ( جافير ) فيخفت صوتها وتصفر احداقها وتتزايل أعضاؤها وتمشى خلفه بين الذلة والانكسار، وينتهز الشاب تلك النهزة فيختفى وينقضى ذلك المشهد

سار جافير يخترق الصفوف وعلى أثره فانتين وأخذ سمته الى مخفر الشرطة، فلما بلغه أمر بالباب ففتح وبالشمعة فأوقدت وانتزع من جيبه ورقة وأنشأ فيها يسطر، وانزوت فانتين فى أحد الأركان كالكلبة راعها مروع ، ووقف حول المخفر بعض المولعين بحب الاطلاع ممن شهدوا الحادثة وجعلوا يشرئبون بأعناقهم من وراء النافذة رجاء أن يلموا بجانب الأمر

وكانت شريعة ذلك العهد تقضى بوضع تلك الطبقة من النساء تحت التصرف المطلق لرجال الشرطة ، فهم يلعبون بهن ما شاء الهوى ، ويصادرونهن فى حرفتهن المنكودة وحريتهن الموهومة

فأكب جافير على الكتابة وهو اشد ما يكون غيظا وما نسى القارىء ما كان من وصف أخلاق ذلك الرجل الذى ما نم قط ظاهره على باطنه ولا وجد التأثر الى نفسه سبيلا ، ولكنه قد غلب فى هذه الفترة على أمره فلاحت بوجهه ملامح الانفعال فأجمع كيده ومثل أمامه مدى سلطته ، ونفث فى يراعه سم غيظه ، فكان يكتب وحنقه فى عنفوان شبابه وجرم تلك البغى يتجسم أمام عينيه ، حتى اذا فرغ من كتابته وتوقيعه نادى بثلاثة من الشرطة وأمرهم أن

يقودوا فانتين الى السجن ، وقال لها : « ستلبثين هنـــاك ستة أشـــهر »

فارتعـــدت فرائصـــها وهمت بالنهوض فخانهـــا العزم فترامت تزحف بجسمها على بلاط قد طلته نعال الشرطة بطلاء من الوحل،وجعلت تضرع اليه وتستدر رحمتهوتقول : « ستة اشهر ؟ اللهم غفرا . ان فى ذلك لهلاكا لطفلة ليس لها سواى من عائل ، فاتق الله فى ضعفى وراقبه فى حياة تلك الطفلة ، ولو أنك المت ببدأ الأمر لتضاءل فى عينيك منتهاه، فاصرف نظرك تلقاء ظلامتى فان كنت قد أجرمت بعدها فعلى اجرامى ، وانى لأستعدى بك على ذلك الشاب الذى وترنى على غير معرفة منى به ــ لمحنى أسبهل(١) فى الطريق فجعل يتحرش بى وأنا أصابره حتى اذا أعياه الأمر عمد الى قبضة من البرد فدسها بين ثوبى وظهرى على غفلة منى ، فوجدت لذلك ألما أخرجنى عن حـــد الرشـــد ، ففعلت به ما فعلت ، وأنا بمنزلة بين الألم والذهول ــ وما ظنك أيهـــا الحاكم العادل بامرأة مريضة يباغتها مباغت بمثل ذلك الأذى تحت هذا الليل فى هذا الشتاء ؟ أتراها كانت تحلم أم تطيش ؟ فان كان بعض الطيش قد أدركنى ، فانما وقع ذلك لفرط الألم ، وضعف التحمل

ألا شاهد ممن وقفوا على الحقيقة يأتى فيظهر براءتى ؟ . ألا يعود ذلك الشاب الذى اختفى ، فأعتذر اليه من فعلى ، وان كان هو البـــادى بالاساءة ؟ .. ألا منقذ لى من هـــذا السجن الذى سيجر الى طرد طفلتى من النزل ، فتموت تحت العراء ؟ فيا ليت شعرى كيف أغذوها ، وأنا لا أكسب فى السجن نصف ما قرره أصحاب النزل لقوتها ؟ فلك الله أيتها الطفلة المنكودة ولى الله من بائسة نزل بها العسر الى تلك المنزلة من الحياة . فوالله ما كان هذا الفحش من أمرى،

---

(١) اسبهل اى اقبل وادبر فى الطريق لغير شىء وهو ما يسميه العامة « ضرب بلطة »

ولكن هى الحاجة ترمى بصاحبها الى مرامى الهلاك، فلا تفرط علينا وكن من الراحمين »

تقول ذلك بصوت خنقه البكاء وانفاس قطعها الشهيق . كأنها محتضر قد أخذه النزع ، وهى عارية العنق مفتولة اليدين وقد أشرق محياها اشراقا ظهرت معه فى أعلى مجالى الجمال - ولا بدع فان الآلام اذا بلغت مداها انبعث من أثنائها نور سماوى وانبسط على وجوه أصحابها فبدلها تبديلا

ولما فرغت من ضراعتها تماسكت حتى امكنها النهوض ، ثم دنت منه فقبلت طرف ردائه . ولو أنها ضرعت كذلك الى رجل قد قد من حجر الصوان قلبه ذاب لها رأفة ، ولكنها قد صادفت رجلا بلا قلب ، فهو لا يعطفه التوسل ، ولا ينال منه التذلل

أوتدرى أيها القارىء ماذا كان جوابه لها بعد الذى سطرناه تحت نظرك ؟ كان جوابه أن قال لها : « لقد وعيت حديثك فانطلقى الى السجن فبه حكمت عليك ، وقد استحال غير ما حكمت ، فلو أن ذلك الديان يتجلى اليوم لفصل القضاء لما قضى عليك بغير ما قضيت »

قال ذلك ثم ولاها ظهره فجمدت فى مكانها وتحرك الجند وانهم ليهمون بجرها وما تصل ايديهم اليها ، اذ وثب من جانب المخفر الأيمن رجل ملثم فحسر عن لثامه وصاح بهم : « مكانكم ايها الجند ! » فمد جافير بصره ، فاذا به يرى مادلين، فحياه تحية الكاره لرؤيته وقال بصوت الكاظم لغيظه : « عفوا سيدى الشيخ » . وما وقعت تلك الكلمة فى سمع فانتين حتى انتفضت فى مكانها فدفعت عنها الجند مهرولة الى مادلين ، ولما تبينت وجهه صاحت به وهى تفرق فى الضحك : « أهذا هو أنت ؟ » ثم بصقت فى وجهه وانقلبت الى مكانها ، فمسح مادلين وجهه وقال لجافير : « خل أيها المفتش سبيل هذه المرأة »

كل ذلك يجرى وجافير ينظر وهو متهم لنظره ويسمع

وهو مكذب لسمعه ، وقد قرعت نفسه قارعتان ذهبت أولاهما بصوابه وفلت الاخرى غرب ارادته ، فلبث فى مكانه برهة أعوزه فيها النطق وافترست طائر حلمه الدهشة والذهول — نظر امرأة تبصق فى وجه شيخ جليل والمرأة من البغايا والرجل من أولى الأمر فاتهم للوهلة الاولى نظره وشهد بعد ذلك الرجل يمسح وجهه وهو أروح ما يكون بالا ، ويأمر باخلاء سبيل تلك المرأة فلم يصدق سمعه

ولم تكن فانتين أقل ذهولا منه ، فانها لم تكد تسمع قول مادلين حتى دنت الى الباب وجعلت تعالج فتحه وتتهيأ للخروج ، وهى تقول كمن يكلم نفسه :

— أيسرحونني فلا أسجن ؟ ومن ذا الذى يستطيع ذلك ولقد سمعت بأذني الأمر بالسجن ، ووعيت ما سمعت ؟ فلئن كنت قد طرق سمعى بعده أمر بالافراج فقد كذبتنى الأذن ، اللهم الا اذا كان جافير هو الآمر ، أما ذلك الشيخ المريب فليس له من الأمر شيء ، وما أدرى ما الذى حداه الى الحضور ، أو ما كفاه طردى من مصنعه وخروجى عن أفق العفة والصيانة وهبوطى الى تلك المنزلة ؟ ولقد كنت أعمل فى مصنعه ، فأصيب رزقى بين العفة والكفاف ، فأبى الا أن يكون أداة للسعاية بى ، فأخرجنى حين لا موئل ولا وجه للرزق ، وحملنى بظلمه على ركوب تلك الطريق . ويعلم الله أنى ركبتها وأنا كارهة لركوبها ، ولكنها سبيل مضطر عديم ، ولولا ما حملنى أصحاب النزل من الديون واشتطاطهم فى طلب النفقة لتلك الطفلة ، وكساد الحرفة التى أزاولها ، لتماسكت وان زعزعنى الدهر ، وبالغت فى تطفيف قوتى الأيام والليالى

ويسمع مادلين شكواها فيضرب بيده الى جيبه وينتزع منه كيسه ، ويجده خاليا ، فيرده الى مكانه ويقول لها : « خبرينى كم مبلغ ديونك أيتها الفتاة ؟ » فتقول له : «اليك

عني أيها الرجل فلست بمحدثة معك ذكرا » ثم تلتفت الى جافير فتحاسنه فى الخطاب ، وتنتقص أمامه من قدر مادلين، وتشرح له سوء مغبتها ان هو أصر على حكمه وتستنزل عفوه ، وتعوذ به من عقابه ، وتنتهى بقولها : « ولا أحسبك بعد الذى عرفت من أمرى الا غافرا زلتى متجاوزا عن خطيئتى » ثم تولى الى الباب وتضع يدها على غلقه

وتوقظ تلك الحركة جافير فيعود الى نفسه ويخرج من جمود كان فى أثنائه كالصنم ، ويصيح بالجند بصوت تمازجه نغمة القادر : « يا ويلكم ! أتفلت هذه الفاجرة من أيديكم وأنتم لا تشعرون ؟ ومن ذا الذى أمركم بتسريحها بعد أن أمرتكم بسجنها ؟ يا ويلكم ! ردوها فلتقضين فى السجن ايامها رغم المعارضين ! »

وكان مادلين مصغيا كل الاصغاء لما دار بينهما من الحديث، فالتفت الى جافير ، وقال له : « اعلم أيها المفتش انى أنا الذى آمر بتسريح هذه المرأة ، فلا سبيل لك عليها منذ الساعة ، فانى مررت بمكان الحادثة بعد انصرافكم ، وتسقطت الخبر فأخبرنى بعض من شهد المبدأ والنهاية أن ذلك الفتى هو البادىء بالاساءة ، ولولا تهاون الشرطة لكان هو الحقيق بموقف هذه الفتاة »

فقال جافير وهو يتكلف الكظم لغيظه ويغالب اضطراب نفسه : « ان تسريحها ليدخل فى باب الاستحالة ، فانها أهانت فتى شريفا وآذت شيخا جليلا ، فلئن كانت قد أعذرت فى الاولى فما عسى يكون عذرها فى الثانية ؟ »

قال مادلين : « أما عن الاولى فقد صدقتك الخبر ، وأما عن الثانية ، فان الأمر لمختص بى ، والعقاب متعلق بارادتى ، فاما عفوا بعد واما جزاء ! »

قال جافير : « عفوا يا سيدى ان الأمر لا يقتصر على شخصك ، ولكنه يتناول العدل كله ، وبمثل هذا العمل

وأشباهه ينكس العدل رأسه ويخترم سياج الشريعة »

قال مادلين : « اعلم أن العدل نوعان : عدل يجـرى به الوجدان ، وعدل تجرى به الشريعـة . ومن كان صادق الوجدان ، كان خليقا بالتوفيق الى سبيل الحق . ولقد وفقنى الله الى استبطان أمر هذه الفتاة ، وألهمنى الوجدان براءتها ، فلا يستطردن بك جواد العناد فى سبيل ايذائها ، فانك لن تنالها بسوء وأنا من الشاهدين »

قال : « انى لأرانى غير قادرعلى فهم ما أسمع وما أرى » !

قال : « فلتكن قادرا على الخضوع والتسليم » . . !

قال : « انى لأخضع للواجب وهـو يدفعنى الى وجوب الاصرار على سجن هذه الفتاة ستة اشهر » !

قال : « بل يدفعك الى اخلاء سبيلها ، فلا تسجن يوما واحدا »

قال جافير : « أما وقد وقفت بى عنـد حد اليأس من اقناعك ، فانى لا أرى بدا من الانحراف عن صراط الطاعة ، ولا يكبرن عليك أمر مخالفتى اياك ، فانى لأمادك حبل المقاومة فى شأن هذه البغى ، وما وقع لى قبـل اليـوم أن اقاوم مشيئة الرئيس . ولكن المامى بواقعة الحال وتثبتى من الأمر ودخول الحادثة فى دائرة اختصاص الشرطة التى انا كبيرها — كل أولئك يدفعنى الى سجن هذه الفتاة » !

وما كاد ينتهى من قولته حتى تقطب وجه مادلين بعد ذلك الانبساط وهبت من شمائله روائح السلطة فقال له بصـوت سبقتـه الى مخارجه الخشونة وامتزجت بأجزائه الحدة : « لقد أسمعتنى أن الحادثة تدخل فى دائرة اختصاص الشرطة التى أنت كبيرها . واسمعك السـاعة ان المـادة التاسعة واخواتها الحادية عشرة والخامسة عشرة والسادسة بعد الستين من قانون العقوبات ، تقضى بأن اكون القاضى

المطلق . فبناء على صريح تلك المواد احكم ببراءة فانتين وآمر بتسريحها

« وأزيدك بى علما وأذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ فهون على نفسك وابرح هذا المكان فحسبك ما سمعت »

فاستقبل جافير هذه الضربة الاخيرة بصدر رحيب كما يستقبل الباسل من الجنود أسنة الرماح وانحنى حتى كاد يقابل الارض بوجهه ، وخرج وما ينظر ما بين يديه غما . ومر ( بفانتين ) فالتصقت بعضادة الباب لتخلي له السبيل ، ولبثت فى مكانها ، كأنها بعض الأنصاب ، وذهلت وحق لها ان تذهل لمنظر تلك المعركة التى قامت بين رجلين علقت باذيال الاول نجاتها وكمن تحت رداء الثانى هلاكها ــ هذا يصعد بها الى مراقى الهناء ، وذلك ينزل بها الى درك الشقاء وهى بينهما كالأكرة اذا قذف بها الثانى الى ظلمة اليأس ، ردها الاول الى نور الأمل . كأن أحدهما ملك يكلأها ، وثانيهما شيطان يحاول أن يتخبطها بمس منه . وقد أنزل الله النصر على الملك فكان من الظافرين

وعجيب أن يكون هذا الملك هو ذلك الشيخ الذى استرسلت فانتين فى كراهته وظنته أصل شقائها ، وسبب بلائها . على أنها ما لبثت بعد الذى قد رأته من محاسنته لها وعطفه عليها وتحريه سرورها بتسريحها ووقوفه فى وجه جافير تلك الوقفة التى قطعت على ارادته السبيل أن أخذت تحاسب نفسها وتقول : « لى الويل لشدما كنت أنفر من ذلك الرجل ، وأحمل ضب الضغن وأعزو الى فعله سوء ما وصل اليه أمرى من الفحش والتبذل ولقد وترته الساعة وترة يضيق عنها الحلم فصفح وهو قادر على غير الصفح ، ولم يفتر نشاطه عن الذود عنى والمناضلة دونى . فلا أحسبنى بعد ذلك الا واهمة فى أمره جاهلة مقدار خطره ــ أو ليس

الذى قد غلب جافير على أمره بقادر على أن يحول بلفظ منه بينى وبين الهناء ، فأموت فى السجن حزينة ، وتموت بموتى تلك الطفلة اليتيمة ؟ اللهم ان هذا هو الخلق الكريم وتلك هى النفس الزكية ! »

كذلك كانت تحاسب نفسها وحقدها يتحلل فى صدرها ووجدها يستل من قرارة نفسها ذلك النفور الذى سكن فيها ، حتى أصبح النفور ميلا والبغض حبا ، وحتى أدركتها الندامة على سالف فعلها وسوء ظنها بذلك الشيخ الجليل ، فكاد يأتى على نفسها الخجل والحياء

□

ولما برح جافير موقفه الحرج التفت مادلين الى فانتين وقال لها وهو يغيض من عبرته ، ويخفى من حسرته : « لقد وعيت ما تقولين وما كنت أعلم شيئا من أمرك ، فما منعك أن تنفضى الينا جملة حالك يوم أنذروك بالخروج من المصنع ؟. ولو فعلت لأنصفناك . ولكن أبى الله الا أن يجرى القدر بما شاء ، فأنت منذ اليوم مكفية المؤونة بى ، فانى كافلك وجامع بينك وبين طفلتك ورادك الى طاعة الله بحفاظك على عرضك، وموف ديونك وبالغ بك أقصى ما تودين من العيش فلا تبخعى (١) نفسك أسفا على أثر ماضيك، فان صح ماتقولين ولا اخالك الا صادقة فيه ، فانك لم تخدشى وجه العفاف ، ولم تعقى الفضيلة ، وما كنت أمام ذلك المطلع على الأفئدة الا طاهرة الذيل عفيفة الازار »

وما انتهى مادلين من قولته حتى تمثل لها مستقبل حياتها، فرأت جنة يميس فيها النعيم وتجرى من تحتها أنهار السعادة ، ورأت نفسها وسط تلك الجنة تتبوأ مقاعد العفاف، وتتكىء على أرائك الصيانة وبجانبها طفلتها الوحيدة

---

(١) أى لا تهلكى نفسك

وتزاحمت على نفسها جيوش الأمانى فخرج بها السرور عن حد الادراك وترامت على يد مادلين تقبلها ، ثم غابت عن الوجود فأمر بها مادلين ، فحملت الى دار المرضى التى أقامها بجوار داره . فأنيمت فيها ، وأوصى بالعناية بها وانصرف الى عمله

وكانت الحمى تتمشى فى عظام تلك المغبونة فى نفسها فمر بها قطع من الليل وهى تهذى وتصيح ، ثم أخذها النوم فنامت حتى أظهر(١) النهار أو كاد ، وشعرت عند يقظتها كأنها تسمع بجانب سريرها ترديد أنفاس ، فكشفت جانب الستار ، فاذا هى ترى مادلين باسطا ذراعيه شاخصا ببصره كالراهب المتبتل يضرع الى شىء فوق رأسه ، فأرسلت بصرها حيث يرسل بصره ، فعلمت أنه يضرع الى صليب كان معلقا بأعلى الحائط فأكبرت رؤيته ، وظهر لها فى هذا الموقف ، كأنه هيكل من النور عليه حلة من التقى فكرهت أن تقطع عليه صلاته وأمسكت برهة ، ثم قالت له بصوت يكاد يخفيه الحياء : « ما الذى يصنع سيدى هناك » فأجابها وهو يومىء الى الصليب : « جئت أصلى لذلك الشهيد فى السماء » . ولو أنصف لقال : « لتلك الشهيدة فى الارض »

وكان مادلين منذ الليلة الغابرة لا ينفك عن تعهدها والسؤال عنها فما يستقر فى حجرته الا ريثما يعود لتنسم أخبارها فبات بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ، ولا ينصرم عمرها ، وانتابته الهواجس فما احتواه مضجع ولا التقى له جفن بجفن

□

وننتقل بالقارىء من حجرة مادلين الى حجرة جافير ، فيرى رجلا قد أقامه الحقد ، وأقعده الحرد(٢) ، يكاد ينشق

(١) أظهر النهار اذا كان وقت الظهيرة
(٢) الغضب الشديد

غيظا ويقطر غضبا على أثر تلك الضربة التى تلقاها بصدره الرحيب فى مخفر الشرطة ، ويراه وهو ينفث نفثة المصدور ، ويململ تململ الموتور قد امسك يراعا وانشأ يسطر كل ما املت عليه الموجدة وأوحى اليه الضغن

وفى صباح تلك الليلة بكر جافير الى صندوق البريد ، فوضع فيه بيده ذلك الكتاب الذى سطره بحجرته ، وعنون غلافه الى كبير الشرطة بباريس

وما قرأ هذا العنوان قارىء وكان ممن يعرفون جافير وكتابته ، الا تنبأ أن الكتاب لا يشتمل على غير التماس الاقالة على أثر حادثة الأمس

ولما استنار مادلين دفائن ( فانتين ) وعلم بحقيقة أمرها ، وألم بأطراف تلك المؤامرة التى كانت سببا فى خروجها من المصنع ونزولها الى تلك المنزلة من الحياة ، سارع بارسال كتاب الى أصحاب النزل يطلب فيه أشخاص ( كوزيت ) ووجه اليهم بقدر من المال يبلغ مثلى ما كانوا يطالبونها وانذرهم بمرض الوالدة ولزوم المسارعة باحضار الولد

□

وسقط هذا الكتاب على صاحب النزل سقوط الندى ، فقال لزوجه وهو يتهلل فرحا :

لقد در ضرع تلك البقرة العجفاء ( يعنى فانتين ) ، واكبر ظنى انها ترتع اليوم فى ربيع عشق جديد فمن العجز تسريح هذه الفرصة ، وما لنا لا نمسك الطفلة حتى نحتلب رسل ذلك الضرع . وهذا كتاب عاشقها الجديد ينطق عن ولع ويخبر عن كرم . وانى لأتنسم منه ريح الأصرار ، وأرى بين سطوره جداول يجرى فيها الكسب وتسيل السعادة ، فاحرصى منذ اليوم على تلك القنبرة ، واحذرى ان تطير فان فى امساكها اطلاقا لأرزاقنا » ، ثم قام الى دفتر ، فزور فيه

كل ما زعم انه انفقه على ( كوزيت ) من اجر الطبيب ، وثمن الدواء ، وما زال يرصد الخبيث من ارقام الحساب ما يملى عليه الطمع ، حتى نيف مجموع ما سطر على مبلغ ما ارسل مادلين

وفى اليوم التالى وجه مادلين الى أصحاب النزل بمبلغ آخر وطلب اليهم المسارعة بارسال الطفلة فقال الرجل لزوجه : « ألم انبئك بما سيكون من أمرهم ، اذا نحن أحسنا حفظ هذا الكنز الثمين ، فانظرى كيف لم يجد له عزما على الانتظار فثنى بارسال النقود قبل أن نجيبه على كتابه ، فلنمسكن الطفلة حتى حين » !

وكانت فانتين لا تزال على فراش المرض ينطفىء سراج حياتها شيئا فشيئا ، ويدنو منها الموت يوما يوما ، وقد اثارت تلك القبضة من البرد دفين دائها القديم ، ففتك السعال بصدرها فتكا كاد يهدم جدرانه ، ولولا تعلقها برؤية طفلتها للقيت ربها منذ حين

وما خفى على الطبيب أمرها ، فانه أنذر مادلين بقرب اجلها وقال له: « انى أراها هامة اليوم أو غد ، فان كان لها ولد ، فلا تحولوا بينهما وعجلوا باستدعائه ان كان من الغائبين ، فانكم لا تفرغون من ذلك حتى تفرغ من نفسها »

فجزع مادلين جزعا شديدا ، واشفق أن تموت الوالدة ، قبل أن ترى الولد ، فقام لساعته الى ورقة وكتب فيها الى اصحاب النزل عن لسان فانتين يقول :

« اذا أتاكم رسولى حامل هذا ، فادفعوا اليه ( كوزيت ) وهو يدفع لكم تلك الديون التى تزعمون مطالبتى بها »

وارتأى أن يكون هو الرسول الى أصحاب النزل فوضع الكتاب فى جيبه وصحت عزيمته على السفر . فبكر من غده الى دار حكمه ، وجلس لانجاز شغله واراد أن لا يترك وراءه من خدمة الحكومة ما يشغله عن خدمة فانتين فتسلف الأعمال ، وانجز فى يومه ما يطالبه به الغد

وانه ليتصفح الأوراق وينظر فى الشؤون اذ جرت جوار

بالنحوس ، وعدت عواد بالشرور ، ووقع فى حساب القدر ما لم يقع فى حساب مادلين ، فقيل له أن جافير بالباب يطلب الاذن بالدخول . فوالله ما لفظ أمامه هذا الاسم حتى مرت به خلجة من الشك تمازجها نزوة من الألم فتطير ، وتضعضعت حاله وكاد يعجز عن المداراة ، ولكنه رد النفس على مكروهها فاستقرت ، وأذن لجافير بالدخول ، وكان اذ ذاك جالسا بقرب المدفأة ينظر فى أوراق محاضر المخالفات ويعلق عليها ما شاء تعليقه

ودخل جافير فوقف وسلم سلام الخاشع المستكين : ولبث واقفا وراء ظهر مادلين صامت اللسان ساكن الشخص ينتظر الاذن بالكلام . . كل ذلك ومادلين لم يرفع بصره ، ولم يحرك جسمه كأنه لا يشعر بوجود ذلك الواقف

ولو أن أحد أولئك الذين أوتوا علم السحنة يأتى الساعة وينظر الى جافير وهو راسخ فى مكانه ، وكان يكون من المخالطين له ، والواقفين على أسرار طبائعه ، والعالمين بتقلبات هذا المخلوق الذى بينا نراه فى لباس الجندى المحارب ، اذ هو فى ثياب الزاهد الراهب ، لركن عند رؤيته ، وتفرس فى مخائل سحنته أن هذا الجاسوس الصادق والناقل الأمين ، قد نزل به نازل وحالت بينه وبين نفسه حوائل ، وقال لأمر ما وقف عدو مادلين أمامه وقفة المستسلم المستكين ، وعهدى به يتحين له الفرصة ويتمنى الغصة

□

وفى الواقع كانت سحنة جافير تنم عما فى ضميره فما مر بخلجان قلبه شيء ولا سرى بقرارة نفسه وسواس ، الا وشفت عنه سحنته كما يشف الزجاج عن الماء

قلنا انه دخل على مادلين فسلم منحنيا ووقف محتشما وما زال واقفا خلفه موقف الجندى فى صفوف النظام

لا تنبعث له جارحة ولا تطرف عين ، وقد فارقت محاجره تلك النفرة وانجابت عنها ظلمة الشك ، فامتزج بأشعة بصره نور الاخلاص وجال فى محياه ماء الخشوع ، ونطقت ملامح وجهه عن صبر لم تشبه مرارة ، وسكون لم تعره كلفة ، حتى التفت اليه مادلين فرأى رجلا تبدو عليه سيما الانكسار ، وتقرأ فى عينيه آية الحزن ، قد احتشم احتشام الجندى أمام القائد ، والمجرم بين يدى القاضى ، فقال له : « ما خطبك أيهـا المفتش ؟ »

فلبث جافير برهة وهو صامت كأنه يدعو اليه حصاته ؛ ثم اندفع قائلا بصوت تسمع فيه رنة من الحزن تشوبها عزة من الشمم :

جئت انهى الى سيدى خبر جريمة قد وقعت منذ اليوم

قال مادلين : « وما عسى أن تكون تلك الجريمة ؟ »

قال : « ان أحد عمال الحكومة الأدنياء قد رمى بعض سراة القضاة فى شرفه ، وطعن عليه فى سمعته ، فدفعنى الواجب الى رفع الأمر اليك » . قال : « أتعلم من هما . . . ؟ »

قال : « ما أعلمنى بهما . أما المقترف فأنا ، وأما المقترف عليه فأنت »

وما وقع فى سمع مادلين الخبر حتى وقع فى نفسـه شىء من الضجر ، فتململ فى مكانه ، واندفع جافير فى حديثه فقـال :

ــ انى لأطلب اليك رفع أمرى الى الحكومـة لأنال مـن عقابها ما يكفر عن خطيئتى ، ولا تعجبن لعدم التماسى الاقالة ، فاننى ان فعلت ذلك خرجت خروجا . ولا يلحقنى معه العار . ولكننى خليق بأن أنزل منزلة المجرم الأثيم فأخرج ملوما مدحورا

« ولقد كنت معى بالأمس غائب اللين حاضر الجفاء ، وأنت من الحق أعزل ، فلتكنه معى اليوم وأنت شاكى سلاح الحق ثاو بحسن الفضيلة »

قال مادلين : « لقد جعلتني بحيث أرى أنك أتيت عظيما وارتكبت جسيما ولا أذكر بيني وبينك أمرا يدعوك الى قول ما أسمع منذ اليوم ، ولقد أطلت فى اتهامك لنفسك ، وبالغت فى وصف اجرامك فما عسى تكون تلك الفعلة التى تزعم أنك فعلتها ؟ »

قال جافير : « رميتك فى شرفك وخدشت وجه سمعتك فالتمست من كبير الشرطة بباريس أمساكك وسجنك . وذكرت له فى شقة رفعتها اليه انك مجرم قديم ، وأنك ضالة الشرط التى تنشدها منذ حين ، ولقد كتبت ما كتبت وقسطى ممتلىء من المرة(١) الصفراء ، وغضبى يفور فوران المرجل على أثر حادثة تلك البغى التى غلبتنى عليها ،ووقفت دونها تلك الوقفة التى قطعت على ارادتى السبيل »

▭

ويرجف قلب مادلين عند سماع قوله ( مجرم قديم ) ولكنه يتماسك. واستطرد جافير فى حديثه فقال : «وما حملنى على اتهامك أيها الشيخ الا آيات شهدتها وعلامات تحققتها : رأيتك شديد العضل قوى الساعد سديد الرماية اذا رميت ، ولمحت بأحد فخذيك فدغا ، وقد تبينت منك الأولى يوم العجلة ، وما نسيت ما كان من دخولك تحتها ، وانقاذك حياة ذلك الشيخ الفانى ، وتحققت الثانية بتتبع آثارك وتسقط أخبارك وشهدت الثالثة فى مشيتك ، فالقى فى روعى أنك ( جان فالجان ) »

وتسقط شعبة من مهجة مادلين لذكر ذلك الاسم ويندر (٢) من أنامله اليراع الذى يمسكه فيقول وهو يغالب

---

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء مادة الصفراء التى توجد فى مرارة الانسان

(٢) ندر الشيء سقط . يندر اليراع من انامله يسقط

اضطرابه : « ومن هو ذلك الرجل ؟ » . فيجيبه جافير « هو أحد أولئك الشطار الذين يعيثون فى الارض ، ولقد رأيته منذ عشرين حولا فى سجن تولون ، وهو أشبه الناس بك ، ثم زعموا أنه بعد انصرام أيام سجنه عالج السرقة فى بيت أحد العباد ، وجنى فى الطريق على غلام صغير ، فاغتصب منه ما أدرى أى شىء ، ثم انه اختفى بعد ذلك ، فجدت الشرطة فى طلبه ، وجد فى اختفائه حتى اذا شجر بينى وبينك الخصام فى أمر ( فانتين ) وخرجت من موقفى امامك بذلك الخذلان ، حملنى الغيظ منك على أخذك بهذا الرجل ، ومثل لى الحنق أنك جان فالجان وكانت تلك الآيات التى ذكرتها لك من أكبر البواعث على اتهامك فلا تكن من الراحمين »

قال مادلين وهو يبتسم ابتسامة الله اعلم بما يكمن فى اثنائها من المضض : « وماذا كان جوابهم على كتابك ؟ »

قال : « كان جوابهم على كتابى أن رمونى بالنزق والجنون وحسبونى محمقا ، ولقد أصابوا فى رأيهم فى كما اصبت عين الخطأ فى رأيى فيك »

قال : « لقد احسنوا فى جوابهم ، واحسنت فى رجوعك عن وساوسك » . قال : « وأعجب من ذلك أن الشرطة قد امسكت طريدها وعثرت على ضالتها ، ووقع جان فالجان فى قبضة الحكومة وهو اليوم بالسجن ينتظر حلول العقاب »

فأخذت مادلين الرعدة وصاح من فرط ما به ، وما يريد أن يصيح : « وكيف كان ذلك ؟ »

قال : « قبضوا عليه وقد ظهر حائطا باحدى الحدائق ، واقتضب فرعا من التفاح ، فسيق الى المخفر والفرع لايزال فى يده ، ثم أودعوه سجن الاحتياط ، وكادت تختفى حاله فلا تدخل جريمته تلك فى غير باب العقاب التأديبى ، لولا أن أراد الله له سوء العاقبة

« فاتفق أن سجن الاحتياط هذا كان عتيق البناء يريد أن ينقض على من فيه ، فأمر قاضي التحقيق بتحويل أهله الى السجن العام ، وكان بذلك السجن رجل من أهل التشطر الذين شبوا وشابوا فى أعماق السجون ، قد أكل سجن تولون شطرا من عمره واوشك هذا السجن أن يأكل شطره الثانى - شهدوا منه فى آخر أيامه شيئا من الاستقامة ، وحسن السيرة ، فأقاموه سجانا ولما جيء بأهل سجن الاحتياط ولمح بينهم سارق العود صاح به : « ألا ترى أنى أعرفك أيها الرجل ؟ ألست جان فالجان رفيقى بالأمس فى سجن تولون ؟ »

فقال الرجل : « اتق الله يا أخى .. فما أنا بصاحبك الذى ذكرت وانما أنا ( شاماتيو ) .. »

ثم ظهرت عليه الحيرة وعراه الدهش وتظاهر بالبله والجمود - وقد يحسن أمثال هؤلاء انواع المكر والخداع - فبعث كلام السجان الشك فى نفوس الشرطة ففحصوا عن أمره وراجعوا لوح اعماله فاهتدوا الى معرفة الارض التى نبت فيها ، والحرفة التى كان يزاولها ، فاذا هو مشذب للشجر قد اختفى اثره وانقرضت أسرته وكان آخر عهد الناس به فى قرية ( فافيرول ) وأجهدت الشرطة نفسها فى الوقوف على أثر تلك الأسرة فلم تفلح فعمدوا الى البحث عمن كان معه فى السجن فى ذلك العهد فعثروا على اثنين ممن حكم عليهم بالخلود فى السجون ، فأشخصوهما الى حيث يوجد ، فلم يلبثا ان عرفاه كما عرفه ذلك السجان

« وصادفت الشكوى التى رفعتها بشأنك فراعهم منى هذا الأمر فكتبوا الى ما كتبوا ورمونى بالنزق والتسرع ، فكبر على الأمر وقلت فى نفسى لعلهم خدعوا فى امر هذا الرجل فتالله لأذهبن لأراه رأى العين ، فرغت روغة فاذا انا هناك فنظرت جان فالجان ورايت نفس الرجل الذى شهدته

فى سجن تولون منذ عشرين حولا ولم يعد عندى مجال للشك ولا مسرب للوسواس ، وعلمت أنى جنيت عليك جناية يضيق عنها العفو ، فلو أننى كنت موفقا فى العمل وكنت أنت مكان ذلك الرجل لسجل عليك الخلود فى السجن. وانك لتعلم كيف يكون عقاب العائد الى الجريمة وخاصة ان كان من أولئك المراقبين »

□

قال مادلين وهو يتعلل بالتشاغل بالنظر فى بعض الأوراق ويقهر نفسه على التجلد والثبات : « ما انا ولهذا الحديث فان بنا من الاشتغال بشؤوننا ما لا نفرغ معه الى الاشتغال بأمر الغير ـ اذهب يا جافير الى فلانة التى تبيع الخضر بزاوية المكان الفلانى ، ومرها أن ترفع ظلامتها الينا » ، ثم أمره بأوامر أخر ، فقال جافير : « وددت لو كانت لى فى الوقت فسحة ، فأقوم بامضاء أمرك فانى على عزم الرحيل فى هذا المساء لأشهد غدا مع الشاهدين ، فان غدا ليوم سيكون له ما بعده يبرم فيه أمر جان فالجان ، ويعلو الحق على الباطل وتفلت الناس من شر ذلك الشيطان الرجيم »

فاسود فى عين مادلين ما بينه وبين جافير وقال وهو يتكلف السكينة : « أفى غد يخاصمون هذا الرجل ؟ » قال : « نعم » . قال : « وكم يمتد أجل ذلك الخصام ؟ » . قال : « يوما أو بعض يوم » . قال : « حسبك » . ثم أذن له بالخروج فلبث جافير فى مكانه وقال : « انى لأطلب اليك الاقتصاص منى »

فرفع مادلين رأسه وقال : « انى أرى فيك حصافة وارى لك عقلا ومن كان مثلك كان حقيقا بالتكريم ، وكان سبيله أن يعان على أمره ، وأن يؤخذ بيده فى زلته ، فلقد

عن لنا أن نقرك فى وظيفتك ورأينــا أن الأمر أيسر مما فى نفسك ، فدع عنك هذا الاغراق فى الطلب واستغفر لذنبك ان كنت من الخاطئين » . فرفع اليه جافير طرفا قد جال فى انسانه الاخلاص ونطق عما يكمن فى نفسه من الوجدان. وقال بصوت قد استمد السكون من جأشه ، واستعار الرقة من شعوره : « اننى لمجرم حقيق أن يؤخذ بجريرته ؛ فلا أرى فى موضعا للسماح » . قال مادلين : « ان كنت قد أجرمت فمــا وقع اجرامك على غــيرى وما كان لأحد أن يخاصمك وأنا من الصافحين »

قال : « عجبت لمثلك كيف يصفح عن مثلى ، وقد حاولت الايقاع بك وعملت على كيــدك وسلب نعمتــك ، فخنت الاستقامة وعققت الفضيلة وأحفظت العدل ، ولو أننى فعلت ذلك عن غير رغبة فى الانتقام اوجدت لنفسى السبيل الى جميل العذر وقلت انى شرطى ، وللشرطى أن يشتبه ولا تثريب عليه اذا اخطأه التوفيق ، ولـكننى فعلته متعمدا ورميتك متقصدا ، وانى أشهد اننى كنت دائى القسوة نائى الرحمة لا أعرف التجاوز عن الخطيئة ولا أعرض تلبيب (١) كل من انحرف قيــد انملة عن صراط الشريعــة ، فكيف ارضى اليوم لنفسى ما كنت آباه بالأمس على غيرها . ونفسى كما تعلم أكثر النفوس حرمة على ، واولاهن منى بحسن المناصحة . . أرأيتك كيف يجمل بى أن انصب بدنى فى سبيل اصــلاح الغــير ، وانام عن تقويم ما اراه لنفسى من الاعوجاج ؟ انى اذن لمن الظالمين !

« على انى لا اود ان يخرج بك كرم طباعك عن سبيل السداد ، فأنتصر منك بك ، كما انتصرت بك تلك البغى من ذلك الشاب . ولا نلبث على هذا القياس ان تشتبه علينا الأمور فيختلط السيد بالمسود والعبد بالمعبود فكن ماشئت

---

(١) اخذه بتلبيبه : جره

رءوفا بالعباد ، واجمع الي تلك الرأفة صحبة العدل ، فان في ذلك ردعا للنفوس ، وعزا للشريعة وخـــذني باقراري ولا تطمع مجرما في غير العقاب ، فلكم كنت أقول لنفسي وهي تجد في طلب الظالمين : جدي أيتها النفس فوالذي أنت بيده لئن انحــرفت شــعرة عن سواء السبيل لأكونن بك اول الموقعين » !

قال مادلين وقد فعلت به تلك الكلمات فعلها : « سننظر في أمرك » ثم مد يده للسلام . فتقهقر جافير وهو يقول : « عزيز على أن تصافح يدك الكريمة تلك اليد الأثيمة » ، ثم ركع امامه خاشعا واستقبل الباب . ولما بلغه انفتل اليــه ثانيا وقال : « سأقوم بشؤون وظيفتي حتى يأتي الخلف » . ثم ولى وجهه وغادر مادلين في مكانه يلقي بسمعه الى وقع تلك الخطوات المطمئنة

لم تكن تلك الحوادث التي نسطرها للقــارىء الــكريم بواضحة الأثر في القرية التي وقعت فيهــا ، ولــكن بعض ما علق بالأذهان من حدوثها قد ترك لهــا شبه الذكر في النفوس

فلو أننا أغفلنا ذكرها لخرج الــكتاب ، وفيــه من الفراغ ما نلام معه على عدم الاتيان بما يسده ، فها نحن أولاء نذكر ما وصل الى علمنا من خبر ذلك الأثر ، وان كان فيه بعض ما لا يحتمل الوقوع ، ولكنا نثبته هنا ارادة الوصول الى الحقيقة :

ذهب مادلين الى فانتين يعودها ، في عصر اليوم الذي وقع له في صباحه مع جافير ما وقع ، وكان من عادته أن يغشاها في حجرتها فوقف في هذه المرة ، وسأل عنها قبل الدخول ممن كانت تمرضها

وكان ببابها اثنتان من الممرضات الراهبات تدعى احداهما ( بربيتي ) والاخرى ( سمبليس ) وكانت الاولى من ســكان

الأطراف بالريف ، ثم أصبحت راهبة لا لرغبة فى الزهد أو نزوع الى خدمة الدين ، ولكن لمجرد الاحتراف بما تصيب منـه الرزق ، فدخلت فى بيت الله دخـول الخادم فى بيت المخدوم ، واحترفت بذلك كما تحترف سواها من النساء بحرفة الطبخ ، ولم يدعها الوجود فى الدير الى فوق ماكانت عليه من الخشونة والتقشف بطبعها ، شأن سكان الأطراف الذين لا يعرفون الترف ولا يألفون النعيم ، ومن قارن بين حال الراهب وعيش الفقير وجد بين تقشف الاول وخشونة الثانى نسبا قريبا وصلة غير مقطوعة ، فلو شاء الناسك أن يصبح راعيا وأراد الراعى أن يمسى ناسكا لوجد كلاهما الى قصده سبيلا ممهدا وما هو الا أن يدخل أحدهما فى ثوب صاحبه

وكانت تلك الراهبة شديدة القبض على دينها ذات لون يضرب الى الحمرة واقدام فى الأمور ، وصلاح فى العمـل ، دائمة التسبيح كثيرة الترتيل وحشية اللهجـة ، وكان بأخلاقهـا بعض الشدة فهى جافيـة الطبع تغلظ القـول للمريض ، وتمزج له الأدوية بتلاوة الأوراد والأدعية ، وتدعو للمحتضر دعاء يمتزج به الغضب كأنها تستعجله قبل حينه بما يرجمه فمها من ذلك الدعاء

□

أما الثانية فكانت ذات لون يغلب عليه البياض ، فهى بجانب أختها كالشمعة بجانب الذبالة ، ولقد وفق ( فانسان دى بول ) الى وصف الراهبات فى تلك الكلمة التى جمعت بين عزة الحرية وذلة العبودية ، قال :

« التواضع قناعهن ، وخوف الله شعارهن ، والطـاعة حرزهن ، قد اتخذن البيع للتهجد ، ودور المرض للتعبد ، وللمخاوف الطرقات ، وللرياضة الحجرات »

ذكرنا تلك الكلمة الجامعة فى سياق الحديث عند ذكر ( سمبليس ) ونزيد عليها فنقول :

يقف الناظر الى تلك العذراء موقف الذاهل اذا سأله عن عمرها سائل ، فقد كتم وجهها سر ماضيها . ولم يشأ أن ينم على آيتها فلم تنطق ملامحه على أثر لزوال الشباب ، ولا عن خبر لقدوم الهرم . وهى قليلة الاكتراث ، كثيرة الاناة ، قد جمعت فى طباعها بين اللين والجفاء ، فانها لتلين حتى يكاد يعقدها العاقد ، وتشتد حتى يخافها المعاند . . كثيرة الصمت ، قليلة تزويق الكلام . تكره الفضول فى الحديث ، فلا تنطق الا بمقدار ، وتحب الصدق حبا بغض اليها الكذب فى الجد والمزاح

□

تلك هى صفات ( سمبليس ) وما كتبنا غير ما أملاه علينا لسان فضلها ، وقد اشتهرت بذلك فى عالم الدين ، حتى ضرب أحد الرؤساء بصدقها المثل فى كتاب بعث به الى رفيق له فقال :

انه ليجرى على لسان أكثرنا تقى ، وأبعدنا عن المظنة شىء من الكذب ، فيحمل منه ذلك على سبق اللسان بما لم يجر به الوجدان ــ ولا يدخل فى باب الامكان ان تسقط من ( سمبليس ) سقطة من هذا النوع ، فتكذب فى شىء كائنا ما كان ، فانها تعتقد أن الذى يمين فى الصغيرة ، لا يلبث أن يستطرد به جواد المين فى الكبيرة ، وتزعم أن الكذب من أسماء الشيطان ، فهو عندها أحد اثنين : أما ابليس ، وأما الكذب

فلعل ذلك البياض الذى نراه بوجهها هو أثر ما أودعه الله من النور فى سريرتها ، سريرة لو تمثلت لكأيها القارىء ، لرأيت لوحا من البلور لا يعلق به الذر ولا يقف عليه الغبار

تلك هى الراهبة التى كانت تمرض فانتين وتبالغ فى

محاسنتها وهى التى أوصاها مادلين بالعناية بها ، وسألها عنها قبل الدخول فى هذه المرة

ولما غادرها ودخل على فانتين وجدها ترتقب رؤيته ارتقاب المقرور شروق الشمس ، فقالت حين لمحته وهى تغالب كبد الحمى ويغالبها : « أين كوزيت ؟ » . فقال وهو يبتسم : « انها قادمة على الأثر » ثم جلس عندها يلاطفها حتى استوفى عمر الساعة . وكانت لا تلوح بوجهه وهو يحادثها سيما الارتياح لما وقع فى نفسه من كلام الطبيب الذى كان ينذره بقرب حينها

□

ولما قضى لبانته من النظر اليها انكفأالى حجرته ، فتناول قلمه ، وخط به فى ورقة بعض الأرقام ، ثم خرج وأخذ سمته الى دار رجل يكرى الخيل والعجلات فغشيه فى منزله وطلب اليه أن يكريه جوادا أصيلا ، فقال الرجل : « وما تصنع به ؟ » قال : « أطوى عليه عشرين فرسخا »

قال : « انها لشقة طويلة فلعلك تبتغيه مشدودا فى عجلة ؟ » . قال : « نعم » . قال : « وكم يكون ثواؤك بعد الوصول ؟ » . قال : « ربما تجشمت السفر فىاليوم التالى» . قال : « لتطوى فى الجيئة ما طويت فى الذهاب ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ان عندى جوادا كهمك أيها السيد وهو الأبلق الصغير . وقد كان صعب الشكيمة لا يستقر فوق منكبيه راكب ولا يدانيه انسان ، فما زلت به حتى رضت جماحه واسلست قياده فهو اليوم يسابق الافكار الى المقاصد ، ولكنه يرغب عن السرج ، وينزع الىالجر فمن شاء أن ينتفع به فليرغب عن ظهره الى جره »

قال مادلين : « أتراه يحسن العدو ويطيل الشوط »

قال : « انه لينهب المسافة التى تريد قطعها نهبا ويطويها

خببا ، ولا يجد لذلك تعبا . على شريطة أن تنفس عنه فى أثناء ذلك بعض التنفيس ، وأن يكون معك من يشارفه عند أخذ علوفته ليرد عنه غارة أولئك الخدام بالنزلات ، وأن لا تحمل معك فى العجلة شيئا ثقيلا ودع رفق القائد الذى يقوده وعنايتك بالاشراف عليه . وأما أجره فى اليـــــوم فلا ينقص عن ثلاثين فرنكا. وذلك سواء فى السفر والاقامة»

قال مادلين : « قبلنا شرائطك ، فابعث به غدا عند تنفس الصباح » ثم ألقى اليـــه ثلاث قطع من الذهب . وقال : « هاك أجره ليومين » وخرج من عنده ، ولكنه ما لبث أن عقب اليه وسأله قائلا : « كم تقدر ثمن العجلة والجواد اذا ساومك فيهما مساوم ؟ » . قال : « أتنوى ابتياعهما ؟ » . قال : « بل أريد أن أقف على الثمن خشية الطـوارق فى الطريق » . قال : « أربع وعشرون قطعة من الذهب » . قال : « هاكها » ثم خرج ولم يعقب ، ولبث صاحب الجواد فى مكانه يحز الودج أسفا على ما فاته من طلب المضاعفة فى الثمن ، وجعل يقول : « ليتنى طلبت اليـــه أكثر من ذلك القدر ، فانى لأجد منه ريح الاضطرار ، ولـكنها فرصة عرضت فسرحتها عنى بوادر العجلة »

□

ذهب مادلين الى مخدعه فلبث فيـــه بعض ســاعة ، ثم أخذ مضجعه ونام وشباب الظلماء فى عنفوان . وكان له صراف يقطن فى حجرة بأسفل مخدعه ، فلما انتصف الليل أو كاد شعر هذا الصراف بحركة فوق راسه قــد قطعت عليه نومه ، فاستيقظ وجعل يتسمع فسرى اليه صوت وقع لأقدام تقبل ، وتدبر فى الحجرة التى فوقه ، فتبينها فاذا هى أقدام سيدة ، وما وقع له قبل الليلة أن يسمع فى حجرة مادلين حركة قبل الصباح ، فعجب لوقوع ذلك فى

مثل هذه الساعة من الليل ، وقال لعلها لأرق نزل به ، وزاد فى عجبه أن سمع صريرا بأدراج الدولاب ، فاستوى فى سريره قاعدا وطرد من عينيه ما علق بهما من كسل النعاس

ونظر من النافذة فلمح على الجدار الذى يقابله انعكاس أشعة فترسمها بالنظر ، فاذا هى مرسلة من طاق الحجرة التى لسيده ، فأدمن اليها النظر ، فألفاها حمراء تضطرب على الجدار اضطرابا كأنما كان مصدر انبعاثها نارا تشب لا سراجا يضىء

وكانت لا تلوح بها صورة ولا يتراءى فيها خيال ، فعلم أن زجاج النافذة التى باتت تنبعث منها كان مرفوعا ، ولما تحقق ذلك أهوى برأسه الى الوسادة ، وجعل يعالج النوم من جديد

فاستغرق هزيعا من الليل ، ثم تنبه فاذا هو يسمع وقع تلك الأقدام المطمئنة ويرى تلك الأشعة ولكنها قد عرتها الصفرة وعراها السكون ، فأيقن فى هذه المرة أنها لم تكن منعكسة عن غير ضوء السراج

واليك أيها القارىء ما وقع منذ الليلة فى حجرة مادلين . وما لنا لا نقول فى حجرة ( جان فالجان ) . وما غاب عنك أننا لا نعنى بهذين العلمين الا مسمى واحدا

# كلمة فى سريرة الانسان

نظرنا قبل اليـوم نظرة فى مرآة تلك السريرة ثم صورنا للبصر ما لمحته عين البصيرة . وها نحن أولاء ننظر فيهـا النظرة الثانية ، وان كان من وراء ذلك هزة للنفس ورجفة للفؤاد

يقف أحدكم على شاطىء البحر المحيط ، فتكبره عينه ؛ وتعظمه نفسه فاذا انتقل بنظره الى السماء أصغرت عينه البحر واكبرت نفسه السماء

وانه ليتضاءل فى عينه المشـهدان ، ويصغر فى نفسـه الكونان اذا ما نظر بعين الوجدان فى مرآة سريرة الانسان ، فانك لا تجد مشـهدا يحرك النفوس وتقف دونه مدارك الافهام كذلك المشهد ، فهو اذا أضاء ذهب سناؤه بالبصر واذا أدجى أعيت ظلمته الفكر ، وقل أن تستقر فيـه عين البصيرة عـلى شىء تلم بكنهه ، أو تخترق حجاب سـره لامتداد أمده وفرط غموضه

فلو أنك حاولت وصفا لأدنى سرائر البشر ، وعمدت فى ذلك الى قرض الشعر والاستعانة بالخيال لاعوزك الوصف وأعجزك الوصول . اللهم الا اذا نزعت الى جمع ما قيل من القصائد والأناشيد منذ خط القلم الى أوان العدم ، وأذبت الجميع فى بودقة الفكر ، ثم استللت منها سبيكة شـعرية يتناول حسـنها ما وراء النفوس ، ويجلو رونقها صـداء الخواطر

فالسريرة هى ميدان الشهوات ، ومهبط المخزيات ، بل قارورة الغرور ، وتنور الأحلام ، وموطن المطامع ، ومسرح الأباطيل ، ألا ترى أنك لو ظفرت بأحدنا وقد لاحت عليه سيما التفكر والانشغال ، ثم نظرت فى صورته وكنت ممن يكشف لهم الغطاء عمـا يجول فى قرارة النفس ، وخلجان الفؤاد ، أما كنت ترى تحت ذلك السكون العميق حربا قائمة وخيالات مشتبكة ؟!

نعم انه ليتمثل لعينك فى ضمير هذا الفؤاد ويتراءى لك بين دفتى ذلك الحيزوم ما سطره( هومير ) وذكره ميلتون، وتوهمه ( دانتى ) . ولقد طال بنا الوقوف أيها القارىء على ذلك المشـهد العظيم ، ونحن نتهيب طرقه ونكبر الدخول فيه ، ولكنا سنشد منا ، ونقدم على فتحه ، وموعدنا الجزء الثانى ان شاء الله تعالى



# الجزء الثاني

# الفصل الثالث

## عاصفة تحت جمجمة
## أو
## « فورة »

قدمنا بين يدى القارىء ما كان من أمر ( جان فالجان ؛ منذ ابتز ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال(١) هذا الرجل الى رجل آخر ، وكيف فعلت فى نفسه كلمات العابد أفاعيلها فاختطفته الى المعبود . وأخرجته من مسلاخ(٢) الشرة(٣) والضغينة ، وأسكنته فى اهاب من الفضيلة

بدأ بالمبالغة فى الاختفاء والتنكر ، وثنى ببيع تلك الآنية الفضية ولم يبق منها على غير الشمعدانين(٤) . ولعله أبقى عليهما ذكرة لذلك الصنيع

وجعل ينسل فى سر(٥) من الناس من قرية الى قرية حتى مسح أرض فرنسا ، ودوخ بها كل مكان والقى عصاه بقرية ( منترأى سيرمير ) وأدر الله له أخلاف (٦) الرزق فاثرى ، ثم مكن لنفسه حتى جعلها بمنجاة من المطاردة

ولبث ما شاء الله يرى أن السعادة فى يقظة الضمير . فكان كلما بضع (٧) الندم على ماضيه من فؤاده بضعة شعر فى نفسه بوفر تلك السعادة . ولقد تكفلت حسنات الشطر الثانى من حياته بغسل حوبات (٨) الشطر الاول

---

(١) تحول (٢) جلد (٣) الشر (٤) فارسى معرب (٥) اى خفاء (٦) الثدى للمرأة والاطباء للكلبة والاخلاف للناقة (٧) قطع (٨) الحوبة الذنب

وكان رأســه مضطربا لفكرتين لا ثالثة لهما : أن يخفى اسمه وأن يقف حياته على الفرار من المخلوق والرجوع الى الخالق . وقد امتزجت هاتان الفكرتان بعقله امتزاجا حتى حالتا الى شيء واحد ، أصبح له السلطان المطلق على ارادته، فاستقرتا فى قرارة نفسه وتناولتا ما وراء وجـدانه ، فهما اللتـان دعتـاه الى الانزواء فلبى ، والى البر فمضى ، والى التقشف فأطاع

وتمر به لمحات يقع فيها بينهما العراك فتدفعه الأولى الى أمر وتثنيه الثانية عنه ، ولكنه ما كان يحجم لمحة عن ايثار ثانيتهما على أولاهما ، فهو يؤثر الفضيلة وان جرت الى هتك ستره ، على طمأنينة نفسه وثلوج صدره فى اختفاء أمره

ألم تر اليه كيف غامر بنفســه يوم العجلة فأنقذ (فوشلفان) ( وجافير ) يلقى عليه نظرات تكاد تخرق شغاف قلبه ، وكيف لبس الحداد على العابد ، وان طارت حوله فى ذلك الشبهات

فقد قام بنفســه أن أول فرض عليه انما يجب القيام به لغير شخصه . على أنه لم يشهد مشهدا لهذا العراك كان أشد هولا وأعظم مراسا من ذلك الذى مر به حين دخل عليه ( جافير ) ولفظ أمامه ذلك الاسم الذى درج فى أثناء النسيان، فاضطربت له نفسه من داخل الجسد واستخذى عند سماعه وعجب لذلك الجد الذى لا يفارقه العثار ، وهجم عليه أمر لا قبل له به ، فمرت به تلك الهزات التى تؤذن بفورة النفس، فانحنى انحنـاء الدوحة تدانيها العاصفة أو الجندى يتهيأ للاقتحـام . وهم وهو ينصت لـ ( جافير ) أن يطرح رداء التنكر ، ويطير الى ذلك السجن الذى أودعوه ( جان ماتيو ) فيقتلعه منه ويحل محله ، ولكنه لم يلبث أن عاودته الأثرة ، فأكبر هذه النزعة النبيلة ، وتراجع أمام تلك البطولة

ولو كان ممن تزكو (١) عنده العوارف لزكت عنده عارفة

---

(١) زكت العارفة أى أثمر الجميل

العـابد ، ولغيرت منـه تلك السنون التى طواها بين الزهد والتوبة ، ولغبر (١) يمشى قدما بقدم مطمئنة وصدر مثلوج الى تلك الهاوية المفتوحة امامه فهناك عند قرارها قد القيت مفاتيح الجنة التى كان ينشدها

نعم كان الأخلق به أن يكون ذلك الرجل ، ولكنه لم يكنه. واليك ما كان يجول فى نواحى نفسه

غمره عند الوهلة الأولى شعور المحافظة على النفس ، فخفض من جزعه وتصام عن نداء ضميره وأهاب (٢) بحلمه حتى اذا ثاب اليه اضمر فى نفسه وهو ينظر الى ( جافير ) أن يتلوم (٣) بعض التلوم فى الحكم على مصيره

ولبث سراة (٤) يومه وعلى ظاهره من السكون طلاء وفى باطنه من الجزع صلاء (٥) فلم يفكر فى ذات غيبه (٦) ولا فى الأخذ بالحيطة مما عسى ان ينزل به من العوادى . ولا بدع فقد تخونه الحزم وقرعه ( جافير ) بقارعة اطارت صوابه وزلزلت أركان نفسه وكان مبلغ علمه بحالته انه أصبح تحت كلكل كارثة لا يدرى متى تفلته

□

انكفأ الى حجرة ( فانتين ) يعودها وجلس على مقربة من فراش آلامها وأطال الجلوس ، فقد كان على نية سفر لا يعرف أمده . على أنها نية مبهمة لم يضرب فيها رأيا ولم يستشر عزما ، فقد مرت به الفكر أبابيل (٧) وهو لفرط خياله لا يكاد يميز بين صورها

وما ادرى أكانت به نفسه أم كان به ذلك السجين أم تلك المحتضرة أم وليدتها المنبوذة بذلك النزل ، فكان يقول فى نفسه ما ضرنى الا أريم (٨) مكانى فأرقب مواقع القضاء فى

---

(١) مضى (٢) صاح (٣) يتأنى (٤) طول (٥) الصلاء النار
(٦) ذات الغيب المستقبل (٧) جماعات (٨) ابرح

الحادث وأنا وادع لا تسمو الى الخطوب ولا تلتفت الظنون ، وهذه عجلة ( سكوفير ) تحت يدى فمتى أحسست الشر ركبت عليهـا النجاة

حضر بعد ذلك وقت طعامه فأصاب منه اصابة مقدرة . ثم دخـل مخدعه وهو مذهوب به ، فخلا الى نفسه وانعم التفكير وجعل يقلب وجوه الرأى فتعاظمه الأمر واخـذت عليه أفواه السبل وسدت مسارح النجاة

ساورته المخاوف وفاعته (١) الأوهام ، فقام الى البـاب فاستوثق منه والى المزلاج فأثبته حتى ظن انه فى مأمن من الطارق والطارىء ، ثم أقام خلفه المتاريس طلبا للمزيد فى الأمن .وأطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن الى النور ثم قال فى نفسه الا أزال مرئيا (عن أى عين ياترى كان يريد أن يتوارى) ؟

يا ويله ! ان ذلك الذى كان يجـد فى الفرار منه ويقيم فى طريقه الحوائل ويستنجد بالظلام ما زال معـه فى حجرة واحـدة

ذلك هو ضميره وتلك هى عينه

ولعله كان يعالج خدعة نفسه حين ظن انه كان فى عزلة وأمن ، وأن الباب والمزلاج يحولان بينـه وبين ما يخشى . فجمع أشتات نفسه حتى خال أنه صار جميع (٢) الفؤاد ثم عصب راسه بيديه واعتمد بمرفقيه على منضدة كانت امامه وانشأ يحدث نفسه :

ــ أين أنا ؟ وما عسى أن يكون ما أنا فيه ؟ ترى هل كذبتنى العين حين رأت ( جافير ) ؟ وهل خاننى السمع حين أفرغ فيه اسم ذلك الرجل ( جان متيو ) ؟ أتراه يشبهنى الى حد أن أخذوه بى ، فويل لى . لقد كنت بالأمس آمنا فى سربى ، وارانى اليوم فى قلق لا أدرى متى ينطوى أجله

فانظر على أى سيال من الألم قد بات يتململ هذا البائس

---

(١) فعلت فعل الافعى (٢) غير متفرق الفؤاد

الذى ضاق محيط عقله عن جولات تلك الأفكار التى تدافعت فى رأسه كالأمواج حتى انه ليدافعها عنه باليدين . وكان يحاول أن ينتزع من كل أولئك يقينا يجد له بردا على قلبه ، ولكنه لم ينتزع غير الحيرة والمضض

وكاد يلتهب رأسه فقام الى النافذة ففتحها ونظر الى السماء ، فاذا بها ضريرة النجم(١) ساقطة النواحى(٢) فعاد وارتمى على مقعده

ومر به قطع من الليل وهو على تلك الحال ، ثم أطافت برأسه صور مبهمة أخذت تتجمع وتتبين حتى لفتت اليها تأمله فلمحها بعين الحقيقة لمحة ألمت ببعض أطرافها فعاد الى نفسه بعض الشيء ، وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة التى نزل اليها انما هى من صنع يده ــ حال حقيقة باللوم لا يلابسها المرىء (٣) ولا يستقر عليها العيوف

ومن نظر فى أمر هذا البائس ، وقر فى نفسه انه على زهده وتقشفه لم يأت حتى الساعة شيئا مذكورا ، اللهم الا ذلك الثقب الذى ثقبه ووأد فيه اسمه ، وود لو نسجت عليه الأيام طبقات من النسيان لا ينفذ اليها شعاع من الذكرى

فكان اذا خطر له أن سيأتى يوم يذكر فيه هذا الاسم ذاكر ، نسف ذلك الخاطر نفسه فى نهاره ، ونزف انفاسه فى ليله ، واغرى به سهادا تقض (٤) عليه معه المضاجع ؛ وتطارحه الوساوس . ولطالما كان يقول لنفسه ان هذا اليوم اذا أوفى عليه ليذهبن بما يحيط به من راحة ونعيم ، حتى انه ليشفق أن يذهب بتلك النفس الجديدة التى ربها (٥) بالتقوى وتعهدها بالاحسان

نعم لقد غمر هذا الفكر شعوره ، وشغل ارجاء نفسه . فلو أن قائلا قال له : ان هذا اليوم لا بد آت وان تلك الكلمة ( جان فالجان ) لا بد أن تثب من مكمنها ، وتترآى أمامك

---

(١) يحجبها السحاب (٢) شديدة الظلمة (٣) ذو المروءة
(٤) تمتلىء عليه قضا وقضيضا ، أى حصى · (٥) ربها بمعنى رباها

فى هيكل نورانى يهتك ستار الظلمة الذى أسدلته على نفسك . فاذا جاءك هذا اليوم فلا تبتئس به ، فلن يضيرك أن تسمع ذلك الاسم فانه سيرفع منك ، ولا يهولنك أن ترى ذلك النور فانه سيزيد فى الظلمة التى تنشدها ، ولا ذلك الستار الممزق فانه سيكون أكتم لسرك ، ولا ذلك الزلزال المروع فانه سيصبح أدعم لبنائك ، فاكشف عن حياتك تبلغ مناك من كتمان أمرك ، وقف أمام طيف ( جان فالجان ) وقفة تخرج منها أنبل نفسا ، وانبه ذكرا وأجمل امرا

لو أن قائلا قال له ذلك ، لنأى عنه بجانبه ، ولظن أنه يعالج المستحيل . على أن الذى كان يظنه داخلا فى باب الاستحالة قد دخل فى باب الامكان ، وجرت به الأقدار فوقع

أخذ حلمه يتكشف رويدا رويدا وأخذ هو يزداد علما بحقيقة أمره

خيل اليه أنه قد أفاق من خفقة ــ وما أدرى من اى خفقة أفاق ــ وأنه قد راى نفسه ينزلق فى جوف الليل على منحدر قد وقف به على حفاف(١) هاوية ، وأنه قد حاول أن ينحرف عنها ، فأثبته الخوف وقيده الوهم . وأنه قد راى تحت راية ذلك الليل خلقا(٢) اراد أن يتبينه فتنكرت له معارفه حتى أنكره ، فألقى فى روعه أن الاقدار قد شبه لها ذلك الخلق فظنته ( جان فالجان ) فأخذته به وساقته ظلما الى تلك الهاوية التى لم يكن لها بد من أحد رجلين : اما هو، واما ذلك المأخوذ به ، فعجز عن المقاومة وترك الأقدار تجرى على أذلالها(٣)

ولما تجلى له نور الحقيقة أنشأ يصارح نفسه ويقول ان مكانى فى السجن لا يزال بحمد الله خاليا يطالعنى منذ ذهبت بورقة ذلك الغلام ، وانى لأشعر كأن قوة باطنة تسوقنى اليه فهو مدركى وان أمعنت فى الهرب ، ولشد ما يرمضنى(٤) أن يقيموا فيه بديلا منى ، وان هو الا عاثر قد رمى به نحس

(١) اى حافة (٢) مخلوقا (٣) تجرى فى أعنتها (٤) يقيمنى على الرمضاء

طالعه فى أيديهم ، فأخذوه بى فأصبحت بفضل ذلك آمنا فى سربى ، فأنا مقيم هناك فى لباس ( جان ماتيو ) وأنا مقيم هنـــا فى لباس ( مادلين ) ولكن أيسعنى فى مروءتى أن أترك هذا البائس يدفن فى السجن كما تدفن التوابيت دفنـــا لا قيام معه ، ولكن تحت جنادل الخزى والعار ؟. أم كيف يجمل بى أن أتدلى هنا فى النعم ، وهو يتدلى هناك فى النقم ؟!

وعلى أثر ذلك تحركت نفسه حركة يقعد عنها الوصف حركة لا تمر بنفس الحى فى مدى حياته غير مرات معدودات

فقد اختلجت سريرته اختلاجا بعث ما كان كامنـــا فى فؤاده من الهواجس . وقع ذلك على اثر مزيج قـــد جمع فى نفسه من الفرح واليأس والازدراء . تلك هى احـــدى ضحكات السرائر

قام بعد ذلك الى المصباح فأضاءه من جديد وطرح عن منكبيه رداء الفزع ، فلما سكت عنه الروع ، قال لنفسه ما لى أرانى على غير استواء وأنا بمنجاة من المكروه ؟. وكنت أفرق(١) من طريق واحد طالمـــا قدرت أن تدهمنى منـــه الدواهى ، ولكنه قد سد بحمد الله فأصبح ( جافير ) لا يجد الى سبيلا وأصبحت فى مأمن مـــن شر ذلك الرجـــل الذى ركبت فيه غريزة كلب الصيد ، فكم وقفته على أثرى حتى كاد يكشف عن أمرى ـــ على أنها قد خانته هذه المرة فجرته على أثر غيرى ، فلينقلب على عقبيه وليشتغل به عنى ، وليـــدعنى أستروح روائح الأمن ، فقد طال عهـــدى بها . وليقبض على ( جان فالجانه ) الجديد وليبرح المدينة متى شاء فكل أولئك لم اكن عنه مسئولا ، فحسبى ما كابدت من ألم وعانيت من جزع ، فلو أن رائيا رآنى الساعة لمـــا شك فى أنى قريب عهد بالافاقة من سقم ، او بالافلات من براثن حادث

---

(١) اخـــاف

واذا تأنقت الأقدار في مكروه ذلك الانسان فتلك مشيئتها، واني للمرء أن يدفع القدر عن غيره اذا هو اعجزه ان يدفعه عن نفسه ، واني لا أرى مبررا لما كنت فيه من الجزع ، فان الأمل الذي كنت أتنسمه طوال السنين ، والشيء الذي كان يملأ على أحلامي قد ظفرت به ، ذلك هو الأمن وهو بغيتي، فمالي لا أشكر الله على تلك النعمة ، فلعله قد ارتاح(١) لي وتقبل مني ، وأراد ان أجري في طريقي ، فقد اخذت نفسي بصحبة الفضيلة ، ورددتها الى التقى حتى قرت ، ورضتها على البر حتى سكنت ، فكيف أنسى يوم دخلت على ذلك العابد فنفضت اليه جملة ما مر بي ، فأفرغ في أذني كلمات وعيتها حتى الموت ، فلأمضين على هذا السنن فتلك مشيئة الله . صحت عزيمته على ذلك بعد أن سكن خلجان سريرته ، وبعد ان كاد يستل خيط نخاعه من طول ما ساءل نفسه وفكر

□

لبث غير بعيد ثم قام يتمشى في مخدعه وما شاع في نفسه سرور ، ولا قر له قرار كما كاد يتوقع أن يكون . وما هي الا بعض الخطوات حتى عاوده ما كان فيه

والفكر كالبحر . فمن استطاع أن يرد البحر عن العود الى شاطئه ، استطاع أن يرد الفكر عن العود الى مناطه . وعلة البحر في ذلك يعرفها الملاح وهي المد والجزر . وعلة الفكر يعرفها المذنب وهي الندم . فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط !

نعم عاد الى ما كان فيه من حوار نفسه ، فكان هو المناجي . وكان هو المصغي . وكم حاول الا يكونهما . ولكن قوة باطنة ساقته سوقا ، وألحت عليه بوحيها : أن فكر في ذلك الذي سيق الى الموت قبل اليوم بألفي سنة !

---

(١) أي غفر لي

وقبل ان نجري بك شوطا بعيدا ايها القارىء ، يجمل بك ان تصبر قليلا على الاسهاب في أمر لم نر بدا من بسطه :

من المألوف أن يناجي المرء نفسه . وليس بين أهل الفكر من لم يطعم(١) تلك المناجاة ــ وانها لسر من أجمل الأسرار واخفاها ينتقل فيها الحديث من الفكر الى السريرة ، ثم ترده السريرة الى الفكر . فاذا علمت هذا حلا لك ان تفهم الأسلوب الذي طال ترديده في هذا الباب من قولنا : « ثم قال ــ ثم صاح ــ قال لنفسه ــ كلم نفسه ــ صاح في باطنه » . وصيحة الباطن لا تقطع سكوت الظاهر ، فقد تقع ضجة في الباطن يتناول الكلام فيها كل ما في الجسم من عضو وجانحة غير الفم

تلك حقيقة من حقائق النفس وان لم يقع عليها الحس أو يدركها اللمس

تساءل اين هو من الأمر ؟ وما عسى أن يكون ذلك العزم الذي اعتزمه ؟ فأقر في نفسه ان كل ما أصر عليه انما هو باطل وان الاستسلام للقدر في هذا الموطن لمن احدى الكبر وكبر عليه أن يدع ذلك القدر في وهمه ، وأولئك الناس في ضلالتهم، وهاله ان يجمد عن الحق وهم في الباطل يتدفقون. ورسخ في اعتقاده أن السكوت في مثل هذه المواطن انما هو اشتراك في الاثم ، وأن الاحجام عن المفاداة ، خليق أن ينزل به الى أحط منازل الآثام

منذ سنين ثمان لم يذق ذلك المسكين طعم هذه المرارة ، فتزلزلت نيته التي نواها وجلس الى نفسه يحاسبها وهو أقسى ما يكون ، وجعل يقول : « ان لكل حي غاية يعمل على ادراك مداها . وقد كانت لي غاية أرى اني قد بلغتها ، فلم أخفق مرة في التنكر وخدعة الشرطة . ولكنها غاية خاوية من روح الفضيلة . أمن أجلها يا ترى فعلت ما فعلت؟ لقد كان خيراً لي أن أعمل على بلوغ المقصد الأسمى فأنجو

(١) يذق

بالروح لا بالجسد ، وأنزل منازل الأبرار . فلن أعق نفسي بعقوقي ذلك العابد . فمالي أفتح باب الماضي على مصراعيه وقد أمرني العابد أن أوصده ؟ فسواة لي . لقد أصبحت لصا تتعوذ منه أبالسة الشطار ، فانهم ربما سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه ، فكم من سليب قد نجا بحشاشته

« أما أنا فقد سرقت من ذلك البائس وجوده ، وابتززت حياته وسللت راحته واغتصبت حتى مكانه تحت الشمس وما كان القاتل بدوني في قبح الصنيع ، على اني لم أحسن القتلة ، فهو اليوم في سجنه ميت حي

« ذلك لعمري أبشع ألوان الاجرام . فمالي لا أفتديه بنفسي فأسترد ذلك الاسم وأعود كما كنت ( جان فالجان ) المجرم الأثيم

« فاذا طبت بذلك نفسا بعثت بين الخلق من جديد وخرجت من هذا الجحيم خروجا لا يعقبه رجوع . فاذا فررت منه الى السجن ، فانما أفر من جحيم الروح الى جحيم الجسد ، وشتان ما بين العذابين ، ولئن لم أفعل لأكونن من الخاسرين ، وليس بمغن عني ما قدمته بين يدي آخرتي من عمل دنياي ، اذا ما عدل بي طبعي الى الخور فحال بيني وبين ما اعتزمته

« وهذا العابد لا افتأ أراه كأنه حي وكأنه مني أدنى(1) ظلام ينهبني بنظره نهبا . وكأنه يؤثر أن يراني في لباس ( جان فالجان ) وان كان من نسج الاجرام على أن يراني في لباس ( مادلين ) وان كان من نسج التقوى ، واذا جاز على الناس تنكري فلن يجوز عليه

« فما نظروا الا الى الوجه وما نظر الا الى الضمير ، فقد استحال الا الذهاب الى ( أراس ) وانقاذ ذلك المكذوب عليه ،

---

(1) أقرب شيء

ولئن أقدمت على ذلك لأقدمن على ما يحجم عنه الناس ـ تلك هى المفاداة وان عزت على النفس ، وذلك هو النصر وان كان أليما . فلنخط هذه الخطوة فقد شاء القدر الا أكون نقيا فى نظر الله حتى أكون دنسا فى نظر الناس » !

رفع عقيرته بذلك وهو لا يشعر . ثم قام الى كتبه فنسقها والى وثائق ديون كانت له على بعض المعسرين من التجار ، فألقى بها فى النار ثم كتب كتابا وغلفه

ولو أن أحدا كان معه فى الحجرة لاستطاع ان يقرأ هذا العنوان ( مسيو لافيد بمصرفه شارع أرتو ) وقام بعد ذلك الى خزانة اسراره ، فازعج منها درجا التقط منه محفظة

ولو رأيته على تلك الحال وهو يعالج هذا العمل وقد خرج به التأمل عن حد الشعور بما يحيط به لما خفى عليك ما كان يخفيه فى قرارة نفسه ، ولرأيت انه كان يحرك شفتيه وتارة يرفع راسه ويقف بنظره على الحائط وقفة المستطلع كمن يحاول كشف سر أو استجلاء غامض

ضم اليه الكتاب الذى كتبه ، والمحفظة التى التقطها وعاد الى السير فىمخدعه وفكره لم يبرح راسه ولم ينحرف عن مجراه . فكان كلما تنقل ببصره راى أمامه لوح المقدور وفيه سطر قد خط بأحرف من النور : اذهب فامط عنك اللثام وانتسب

وعلى الأثر تراءت له الفكرتان اللتان جعلهما ملاك حياته وقد سكنتا فى هيكلين متباينين أخذا يدنوان منه تحت الليل ( وما نسى القارىء أن أولاهما لم تكن غير التنكر وأن ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع الى الخالق ) فجعل يضاهى بينهما ويقيس ويقدر حتى خلص الى الحكم بأن الأولى انما ركبت من الأثرة (١) وحب العاجلة (٢) فهى اذن من وحى الشيطان . وأن الثانية انما صورت من الاحتساب وحب الآجلة فهى اذن من وحى السماء . ورأى هذه وهى

---

(١) حب الذات (٢) حب الدنيا

تنهض من الظلمة وتلك وهى تنبعث من النور فرزق التمييز بين نزعة الشر ونزعة الخير

ثم اشتبكتا أمامه فى نزال فجعل يفكر فى أمرهما . وانه لكذلك اذ نظر اليهما بعين عقله ، فاذا بهما قد أخذتا تربوان وتعظمان حتى صارتا كتماثيل العماليق . وفى هذه اللمحة احس فى باطنـــه وفى ذلك الملكوت النفسى الذى لا يعرف مداه نضـــالا قد قام بين ملك من المـــلائكة وشيطـــان من الشياطين وسط كتائب من الظلمة والنور . وكان يُوتى(١) اليـــه أنه فى حراسة ذلك الملك فشد (٢) منه أن رآه من الظـــــاهرين (٣) ومر كأن لم يكن ذلك الجازع ، وأيقن أن السريرة والقدر أوفيا على ساعة الابرام فى أمره

فقال فى نفسـه : لقد أوضح العابد سبيلى فى الطور الاول من حياتى الجديدة . وها هو ذا ( جان ماتيو ) يوضحه لى فى طورها الأخير

وعاودته حمى الفكر بعد أن هدأت هدأة فمرت برأسه الف فكرة وكلها تصيح به أن أمض فى عزيمتك ولكنه لم ينج فى أثنائها من خلجة شك مرت بنفسه ، فقال : اراني متعجلا فى الأمر ، وما كان ( جان ماتيو ) ممن يعتد بهم ، ان هو الا لص من الســارقين

ثم عاد فقال لنفسـه : « اذا كان هذا الرجل من السـارقين كما يزعمون ، فان عقابه لا يتعدى عمر الشهر فى السجن . فما له كتب عليه أن يطوى فيه حياته ؟ فلولا أنهم أخذوه بى وحل به شؤم أسمى الذى لبسـه كارها ، لما حشروه فى زمرة المجرمين لانتزاعه تفاحتين أو ثلاثا من شجرة لغيره ، وما كان نائب الملك ليصنع به ما صنع ، لولا أن علم أن له سوالف غير محمودة ، وأنه يحمل ذلك الاسم الممقوت »

ثم خطر له أن يذهب فيكشف عن نفسه لعلهم يمهرون هـــذه البطولة بالعفو عنـــه . دع تقديرهم لحسن سيرته

---

(١) يخيل اليه (٢) قواه (٣) الغالبين

وما خلف وراءه من الخيرات فى هذا البلد. ولكن هذا الخاطر لم يلبث ان محته ابتسامة مرة قد خطفت على شفتيه ، فقد قال لنفسه على الأثر :

ـ ان قطعة الفضة التى انتزعتها من ذلك الغلام انتزاعا ستلبسنى ثوب المجرم العائد ، وعقابى على ذلك لا يحتمل التاويل فهو سجن الأبد

ثم نفض عنـــه غرور دنياه وقطع ما بينه وبين الأرض واتجــه الى السماء يستنزل المعـونة والعزاء . وقال :

« سبيلى أن اقوم بالواجب فلست أتوقع شرا مما انا فيه . فهبنى تركت الأقدار تجرى على اذلالها ، ولبثت فى القرية بين سيجان من العز والشهرة وحسن الأحدوثة التى أعلم دون غيرى انها متبلة(١) بالجريمة ، فاى نفس زكية ترضى بامثال تلك النعم اذا ما علقت بهـــا اللعنة ؟ على أننى اذا طبت نفسا بالاحتساب ، وقضيت العمر فى السجن مقيدا مغلولا فى لباس من العار لا يستمطر رحمة القلوب ، بلغت بذلك مرتبة الرضى !

« وهذا امر قد فرغ منه القدر ، وما خلقت لأنقض فى الأرض ما أبرم فى الســـماء .. فأنا اليـــوم بين امرين : اما فضيلة تحتها عار ، واما عار تحته فضيلة »

وتعاقبت عليه الأفكار وأطافت به الهواجس ، فما نهنهت من عزمه ولا كفت من غربه . ولكنها كدت ذهنه وأفظعته بكراتها حتى وهى عن احتمالها ، فجعلت عروقه تطرق فى صفحتى وجهه كالمطارق ، وانه لكذلك اذ آذنت ساعة البيعة ( الكنيســة ) بانتصاف الليل ، واجابتها ساعة باحدى دور المدينة ، فجعل يعد الاثنتى عشرة دقة للساعتين ، ويضاهى بين جرس(٢) الجرسين فذكر على الأثر انه رأى عند احـــد باعة الفلزات(٣) جرسا عتيقا معروضا للبيع وعليـــه اسم

(١) متبلة ـ بتشديد الباء ـ اى مخلوطة بالجريمة ـ من تبل الطعام ـ بتشديد الباء ـ جعل فيه التابل الذى يطيبه (٢) الجرس صوت يجرس (٣) الخردوات أو ما ينفيه الكير من خبث الحديد

( انطون البين )

ثم أحس البرد فزاد فى نار المدفأة ، وغاب عنه ان يغلق النافذة ، ثم وقع فى ذهوله من جديد وحاول جهده أن يذكر ما كان يجول فى نفسه قبل انتصاف الليل فغمره النسيان، ولكنه لم ينشب أن خرج منه الى الذكر فقال : « لقد ذكرت انى عقدت النية على الذهاب واماطة اللثام » . وخطرت له ذكرى ( فانتين ) فلمح بين ظلمات هذه الهواجس وميض نور لم يكن يتوقع رؤيته ، فتغيرت حوله وجوه المناظر . وصاح : « ويل لى ! لقد أعمانى حب الأثرة فلم أفكر فى غير نفسى ، وأرانى قد قصرت همتى على أمرين اما التنكر وفيه نجاة الجسد ، واما الظهور وفيه نجاة الروح . ولقد خاصمت نفسى الى نفسى ، فكنت قاضيا قد جمع بين العزة والهون ، وكنت مجرما قد ضم بين النبل والخسة . وهذا لعمر الله لون من الوان الأثرة ولو ملت الى الايثار لبدأت بغيرى

« فهبنى ذهبت اليوم ، وكشفت عن نفسى فساقونى الى السجن وخلوا سبيل ( جان ماتيو ) ، فماذا يحل بعدى بهذا البلد الذى أغاثه الله بى ، فاقمت فيه المصانع ، وأيقظت الصناعة وشيدت دورا للعاملين واخرى للعاملات ، وكفلت الايتام وحبست الأرزاق على الزمنى ، وكنت لهم بمنزلة الوقود من التنور واللحم من القدر .. فهم يستمدون منى حياتهم ، وأنا محور تجارتهم وموئل عفاتهم ومثابة(١) ارزاقهم وبى أخصب عيشهم واخضرت أعوادهم، ولم يكونوا من قبل شيئا مذكورا !.

« دع تلك البائسة المضعوفة التى أصبحت هامة(٢) اليوم أو غد بعد أن ابتذلت خدرها ، وهوت من سماء طهرها ، وأنا الذى أخرجها عن أفق العفة ، وكنت أذنا للسعاية بها

(١) محل (٢) يقال فلان اصبح هامة اليوم اى حضر أجله

فطرحتها من المصنع حين لا موئل ولا عائل ، فاكلت بثدييها وكنت لها من الظالمين

« وتلك الطفلة المنبوذة وقد عاهدت الأم على نجاتها فما أصنع بعهدى معهـا اذا نزحت اليـوم ، فماتت الأم وأصبحت الطفلة تحت رحمة الاتفاق ، يقذف بها القـدر فتلقفها الغير . فلننظر ما ينجم من الضرر فى حالتى اللبث والذهاب » !

ثم وقف عند هذه النظرة فعراه ضرب من الحيرة أعقبته رعدة مرت كأن لم تكن. فتمكن من نفسه وقال : « ليذهب ذلك الرجل الى السجن فقد سرق . ومالى أحسن به الظن فأدفع عنـه الاثم ، فلأمكثن هنـا وأثمر هذا المال ، فاذا أحسنت عليه القيام ولد لى فى مدى عشر سنين الفى ألف انفقها فى وجوه البر ، وليس بى أن أعمل لنفسى ، فلست ممن يتربحون فى الجميل ، فاذا استبحر البلد وماج بأهله ولدت القرية مدينة وولدت الدسكرة(١) قرية واطلع العراء ضيعة(٢) فتحيا الصناعة وتنمو المصانع وتكثر المناسج ، وتسعد الأسر ، فيموت البؤس وتموت بموته الآثام ، فلا قتل ولا سرقة ولا فسق ولا فجور،وتنعم تلك البائسة بقرب طفلتها

« لقد كنت محمقا حين قطعت بالسفر ، وما كانت آفتى فى ذلك الا الأثرة ، ولو اننى ذكرت غيرى لما هممت بركوب ذلك الخطل ، وانها لضلة قد ثنى الله عنها عنانى

« أأستحيى نفسا أثيمة ، واميت انفسا زكية ، واتوقع على هذا أجرا ؟. بسل(٣) على أن تموت ( فانتين ) وهى على ظمأ الى رؤية طفلتها ، وأن تهلك الطفلة ولا تعرف لها أما

« كل ذلك من أجل مجرم لا اراه الا خليقا بما حل به من العقـاب ، ولا أحسب الا أنه رب سـوالف فى السـوء ،

---

(١) عربة (٢) الأرض المزرعة أو الأفدنة (٣) حـرام

فلا يضيره ان يقطع المرحلة الأخيرة من عمره سجينا كان او طليقا

« ولو ان لتلك الطفلة كافلا غيرى لما حزبنى الأمر . فاذا اجرمت باللبث ههنا ، فعلى اجرامى ، وان هى الا غمزات من الندم أجد لها مسا فى الفؤاد ، فلأصبرن على سعيرها ففيه نعيم لأناس ليس لهم دونى من ولى . وهاأنذا وطنت النفس على عيش ظاهره الرحمة وباطنه العــذاب . ذلك هو عين الاحتساب ..! »

ثم طفق يمشى فى مخدعه وقد تبسطت فى هذه المرة نفسه ورضى عن عقباه وشحذ عزيمته على المضى فيما رسمه

انما تلتمس الحقائق فى دياجير أغوار الفكر ، فمثلها كحجر الماس لا يلتقط الا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل ـ خيــل اليــه أنه هبط الى تلك الاغوار فسلك فى اشدها حلوكة وابعدها مدى ، ثم جعل يتحسس بيديه فى تلك الدجية(١) حتى ظفر بحجرة من ذلك الماس أو بحقيقة من تلك الحقائق ، وانه ليقبض عليها اذ تفجر منها نور كاد يعشى بصره ، فصاح : « ها أنذا قد وجدتها ، وها هو ذا فى يدى مفتاح طلسمها

« فأنا ( مندلين ) وسأكونه ما حييت ، فلا يسرنى أن أكون ( جان فالجان ). ومالى أقول جان فالجان وأنا لا أعرف خلقا قد ركب عليه هــذا الاسم ، فان كان حيــا كما يزعمون فليتول أمر نفسه ولا أحسب هــذا الاسم الا طائر شؤم له سبحات تحت الليل ، فاذا عن له رأس قد انتواه القدر وقف فوقه فاضطرب ثم انقض عليه فطاح به »

---

(١) مفرد دجى

ثم نظر فى مرآة له صغيرة وقال : « لقد رفعت عنى هذه العزيمة ، فصرت بعدها غيرى قبلها »
ثم خطا خطوات ووقف يخاطب نفسه :

« لتصنع العواقب صنعها فقد قضى الأمر ، واستحال غير الاقدام ، على انى لا أزال ارى آصرة من الولد تربطنى بهذا الاسم فمن الكيس قطعها . وأشياء فى هذا المخدع ربما وقفتهم على اثرى ومهدت السبيل للشك فى امرى .. وهن وان كن صوامت فانهن أفصح عند الشهادة لسانا من الناطقين ، فمن خطل الراى أن ابقى عليهن »

ثم ضرب بيده الى جيبه فأخرج كيسا التقط منه مفتاحا أولجه فى ثقب قفل لا يكاد يرى لدقته فلكم خدع مكانه عين الناظر لكمونه بين خطوط دكناء رسمت متناسبة الأوضاع على ورق كسى به الحائط . فانفرج الحائط عن مخبأ كانت تواريه مرآة مضللة نصبت بين زاوية الجدار وحجاب المدفأة لتصرف عين الناظر . وكان فى ذلك المخبأ اهدام بالية ومعطف أزرق وسراويل(١) رث وجراب عتيق وعصا غليظة مقمعة بالحديد . ذلك هو متاعه الذى كان يحمله يوم مر بمدينة ( دنى ) سنة ١٨١٥ وكان يخفيه عن نظره هربا من ذكرى السجن ويظهر الشمعدانين حبا فى ذكرى العابد

ثم رمى الباب بنظرة عجلى كأنه يخشى الغرة برغم الوثوق من الايصاد ، وأهوى كاللمح على ذلك المتاع دون ان يسعده بنظرة منه فاحتضنه ، والقى به فى النار ، ذلك المتاع الذى طالما قدسه ، ولم يبال الخطر فى الابقاء عليه

وما هى الا لمحة حتى أشرق المكان بنور احمر رقصت أشعته على الجدار الذى يسامته ، فعلم ان النار قد أتت على متاعه الا عصاه فقد بقى فيها ذماء (٢) دل عليه شرر كانت لا تزال ترمى به الى وسط الحجرة

---

(١) سراويل مفرد والجمع سراويلات (٢) بقية

وسطع ريح الجراب وهو يحترق بما فيه من الخلقان ، وظهر على أثره فى الموقد شيء لماع لو دانيته لرأيت أنه لم يكن غير تلك القطعة الفضية ــ قطعة الفلام ( سافوبار ) ووقع نظره على الشمعدانين وقد أضاءتهما النار فانعكس لهما على الموقد ما أدرى أى لون من ألوان الأشعة ، فصاح وهذا أيضا لا معناة (١) للابقاء عليهما ، ثم ألحقهما بمتاعه فلم يلبثا أن صهرا وحالا الى سبيكة منكرة ــ ثم خطا الى الموقد فانحنى عليه واصطلى قليلا وتنفس وقال : « نعم الدفء »!

ولم يكد يحمد مغبة أمره حتى شعر كأن صوتا فى داخله يصيح به : «جان فالجان» ! » . فقفف(٢) شعر رأسه واستطير فؤاده وكان كمن يسمع صوت الويل ، ثم أخذ يتسمع واذا به ينـاديه : « هنيئا لك لقـد أكملت صـنعك ، أتلفت الشمعدانين ــ نجوت من الم الذكرى ــ نسيت العابد ــ نسيت معه الماضى ــ سقت (جان ماتيو) الى الهلاك ــ هنيئا لك لقـد نجوت ــ فكن شيخا وقورا ودع اسمك يحمل البلاء الى غيرك فيمضى فداء لك ــ كن عريض الجاه خصب الفناء ــ عل من شئت من الناس ، واكفل من شئت من الأيتام . ولا تنس وأنت مستقر فى الذروة من الجاه ومتدل فى الجزيل من النعم أن تذكر ذلك الذى يلبس فى السجن لباسك ويخطر فى قيودك واغلالك ، فليهنئك ما قدمت يداك»

فتفصد جبينه عرقا ووقف ساهم الوجه سادر البصر قد شدت أهدابه الى بقايا الشمعدانين . كل ذلك والصوت لا ينقطع عن مناداته : « جان فالجان ! انك لا تعدم أن ترى حولك قنابل (٣) من الناس ترتفع أصواتهم بالدعاء لك والثناء عليك ، فلا تنس وأنت فى مظهر سلطانك ذلك الصوت الخفى الذى لا يحجبه عن سمع الله حجاب ، واتق دعوة تنهض

(١) يقال معنى الشيء ومعناته ومعنيه (٢) قفف ــ بتشديد الفاء ــ شعر رأسه أى وقف (٣) جماعات

من ظلمة السجن الى جوانب العرش فتجب فى طريقها دعواتهم وتقطع سبيل العروج الى السماء فتمسى ومالك غير اللعنة من خلاق (۱) ولبئس عقبى الدار »

وأخذ ذلك الصوت الذى كان يحدثه كالهامس فى أذنه يعلو ويعظم ، حتى صار له دوى كاد يفتق طبلتي مسمعيه، وبعد أن كان يشعر أنه صوت من أصوات الضمير قام بنفسه أن الذى يكلمه لم يكن غير حى من الأحياء تحتويه الحجرة فرمى بصره يطلبه فى أركانها ، وصاح وهو لا يعى : « من المتكلم ؟ » . ثم ضحك ضحكة من به مس ــ وقال : « لشد ما وهمت فليس هنا غيرى »

وما كانت الحجرة خالية كما كذب نفسه ، ولكن الذى كان فيها لم يكن ممن تقع عليه العيون ــ ثم عاود المشى بخطى رتيبة (۲) تبعث الأسى وتثير الشجن فكانت تقطع عليه سلك التفكير ، وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته غراره (۳) فيثب من فراشه مروعا مذعورا

على أن هذا المشى كان يروح عنه ويشمله فى آن . وقد تدفع الملمات صاحبها الى الحركة رجاء أن يصيب فىطريقه من يشد منه برأى أو ينفس عنه بنصح

وأجازت به آنة نكر فيها نفسه ومكانه ثم نبهه فزع ملأ جوانب صدره ، فتراجع مخذولا أمام كلتا العزيمتين اللتين اعتزمهما ، وبدا له قبح ما أضمر فأيقن أن لا خير فى الأولى ولا أجر فى الثانية. وقال : « ما أشأم هذا الاتفاق الذى رمى ( بجان ماتيو ) بين أيديهم فأخذوه بى وأنظرنى ههنا حتى مكنت لنفسي فملكت يومى وبلغت من الثروة ما بلغت » . ثم التفتت نفسه التفاتة الى حاضره وأخرى الى ماضيه وقال : « أكشف عن نفسى » .. قالها ونفسه تكاد تسيل

---

(۱) أى نصيب (۲) الشىء الرتيب الذى يقع متشابها على وتيرة واحدة (۳) الغرار النوم القليل

جزعا ـ «سلام على عيش لبسته مضطرا وخلعته كارها. فلقد آن للنفس أن تودع ما فيه ، فتستبدل(١) الاذلال بالاجلال والضيق بالسعة والنصب بالدعة ، وللعين أن تستبدل عبوس السجان ببسمات الشكر عند الاحسان ، وللأذن أن تستبدل رنات السلاسل بتغريد البلابل عند اقبال الربيع فى وشيه البديع ، وللرجل أن تستبدل الحجل فى القيود بالتنقل بين المروج والنجود (٢) وللأنف أن يستبدل ريح صدأ الحديد بأريج الزهرات والورود ، وللجنب أن يستبدل خشونة المضاجع بلين فراش المخادع ، وواها من وحشة سجن الوحدة والتقلب فى الوان الشدة ، وفى ذمة الله أيتها الدار فما كان أخصب أيامك وأقصر أعوامك . وأنت أيها الخادم العجوز فما كان أيمن صباحك وأبرك صلاحك . وقد آن لى وأنا العاثر المجدود أن أستدبر عيشا أخضر ، لأستقبل عيشا أغبر ، وألبس رداء أحمر ، نسجته يد البلاء الأكبر ، وخاطه الشقاء لمن يسوقه القضاء . اللهم غفرا . أفى مثل هذه السن وقد نيفت على الخمسين أرد الى السجن وأنا أعلم الناس بما فيه من عذاب وهوان ؟ الا انى لو كنت فى عهد الشباب لاضطلعت بخطبه . أما وقد أخذت منى الأيام فلا طوق على مصابرة الشدائد

« ينهرنى الحرس ، أخاطب (٣) بالكاف ، تأخذنى سياط السجانين ، دع عصا كبيرهم : أمسى عارى القدمين فى حذاء من الحديد . أمد ساقى لمطرقة القين (٤) انكشاف فى الصباح والمساء ليبلو قيودها ويمتحن أغلالها ، أصبح هدفا لأعين

---

(١) يقال استبدل الطربوش بالعمامة اذا اراد ترك العمامة فالباء تدخل دائما على المتروك قال الله تعالى أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير

فى هذه الصفحة وحدها قد اضفنا كلمات من عندنا دعانا اليها حسن المقابلة فى المعانى واطراد القول

(٢) جمع نجد أى المرتفع من الأرض

(٣) علامة الاحتقار (٤) الحداد

الزوار ، فكلما مر بى احدهم قالوا : هذا هو جان فالجان الشهير الذى كان شيخا ( لمنتراى سيرمير )

« فاذا جاء الليل عادوا بنا الى السجن ونحن نسبح فى غدران من العرق ، وقد كدنا الموكلون بعذابنا ، فندخل اثنين اثنين بين أيد تعمل فى أقفيتنا وسياط تقدح فى ظهورنا فما أمرها من حياة . انى أكاد أتهم القدر . اتراه تجرد من الروحانية وانغمس فى البشرية فحل فى هيكل شرير حضرت فى استنباط الأذى قريحته وأقفر من الرحمة فؤاده ؟ ! »

ثم رجع الى هواجسه الاولى ووقف عند تلك العقدة التى أعياه حلها : أيقيم هنا فيصبح شيطانا أحلته الجنة أم يذهب الى هناك فيصبح ملكا أحله السعير ، فتأوه وقال : « ربى كيف الخلاص ؟ »

ثم اكتنف العذاب نفسه وشاع فيه الألم وأخذ فكره يختلط عليه ، فمر به ما ادرى اى صنوف البله ولعله أثر من آثار مواقع اليأس فى النفوس . وذكر وهو فيما هو فيه كلمة ( رومان فيل ) ، فقال : « ترى متى سمعت هذه الكلمة ؟ . . سمعتها منذ عهد فى أغنية صغيرة تقع فى بيتين من الشعر وانى لأحسب ( رومان فيل ) اسما لغاب صغير بضاحية من ضواحى باريس يؤمه العشاق من الشباب فى شهر أبريل ، يجنون زهرات الزنبق »

وسرى اضطراب باطنه الى ظاهره فجعل يترنح فى مشيته كأنه وليد قد خرج من الحبو الى المشى ، فترك يمشى وحده فهو لا يكاد يتماسك فجعل يكافح أشد الكفاح ليثوب اليه رشده ويخرج من ذلك البله ، حتى اذا تمكن من نفسه او كاد ، اراد أن يعزم العزمة الأخيرة . اما الكشف عن نفسه واما السكوت على حاله ، ولكنه لم يرزق التمييز

وطاحت هواجسه بثمرات فكره وأخذت تصوراته المبهمة تضطرب أمامه ثم تحولت بالتعاقب الى دخان تذهب به

الرياح ، فاحس انه انى وقف أو وقفته الضرورة فان بضعة منه هالكة لا محالة ، فعليه أن يشهد ، أما احتضار سعادته ، واما احتضار فضيلته ، وعاوده التردد فعاد الى موقفه الاول

☐

هكذا كانت تضطرب هذه الروح المعذبة تحت سيال من الكرب والبلاء

قبل عهد هذا البائس بثمان عشرة مائة من السنين ، هناك عند تلك الزيتونة المباركة التى كانت تعبث بها هوج(١) رياح الأبد ، وتحت ذلك الفلك الحالى بالكواكب ، كان ذلك السر الغامض الذى أعجز العقول ادراك كنهه ، ذلك الذى حل فى صورة قد ركبت من الكمال والهدى ومن آلام هذا الورى ، يعاف هو أيضا شرب الكأس المرهوبة التى طالما نحاها عنه بيده ، كلما خالها تفيض بكسف من ظلمات ، تسلسلت منها ظلال تجزع عند وردها النفوس



(١) جمع هوجاء وهى الرياح الشديدة .

# الفصل الرابع

## ألوان الألم فى النوم

أقبل السحر وهو لا يزال يمشى فى حجرته فاستشعر التعب ، فلقد مرت به خمس ساعات على التعاقب لم ينفس فيها عن نفسه فارتمى على مقعد . وما هو الا أن احتواه حتى غط فى النوم ، وسنحت له رؤيا شبيهة بتلك الرؤى التى تمثل للمهموم فى نومه ما كان عليه فى يقظته ، مغالية فى تلوين وجوه الألم . ولقد نال منه هذا الحلم ما لم تنله اليقظة فلم يكد يفيق حتى خط بيده ما كان مركوزا فى نفسه من وحى ذلك الكابوس

وليس من الأمانة أن نمر به ولا نذكره فيصبح تاريخ الليلة وهو أبتر — ونحن مثبتوه هنا لم نخرم منه حرفا

## الرؤيا

رأيت كأننى فى قفر لا نبت فيه ، وكأننى كنت بحيث لا ليل ولا نهار ، وكأن أخى كان يماشينى فى ذلك القفر ، ذلك الأخ الذى طويت معه عهد الحداثة ، ثم افترقنا وطال الأمد حتى نسيته

سرنا وقد رمانا الطريق ببعض السابلة ، ثم خضنا فى حديث جر الى ذكر جارة كانت لنا فى ذلك العهد — كانت تعمل أمام نافذة مفتوحة تطل على الطريق ، وكأننا ونحن نتحدث فى ذلك القفر نجد مس البرد المصبوب علينا من

تلك النافذة .. وهفا بنا فارس فى لون الرماد على فرس فى لون التراب عارى الجسد أصلع الرأس جميعه ، حتى ان الناظر الى جمجمته ليكاد يعد فيها فروع أوداجه . وبيده مخصرة فى لدونة فرع الكرم ، وفى ثقل عود الحديد ـ هفا بنا ولم يسلم ..!

فقال لى أخى : « اعطف بنا على هذا الطريق الأجوف . وكان طريقا سماؤه فى لون ارضه لا يرى السالك فيه أجمة ولا خضراء ، وانى لأحدثه وانا لاه عنه بما أنا فيه ، اذا به قد راغ روغة واختفى . ثم رفعت لى قرية فيممتها فخرصت (١) عليها انها قرية ( رومانفيل ) فركبت اول طريق لقينى فاذا به قفر ، عدلت عنه الى ثان فلما بلغت الزاوية التى تربطه باخيه اذا أنا برجل قائم عند حائط ، فسألته عن اسم القرية التى أظلتنى فلم ينعم بالجواب . وفتح باب دار ولج فيه ذلك الرجل فتعقبته فاذا أنا برجل قائم وراء الباب فسألته لمن البيت فأعرض عنى ولم يجب ، وكان للدار بستان دلفت اليه فاذا أنا برجل قائم تحت شجرة فسألته لمن البستان فأعرض عنى ولم يجب . فهمت على وجهى فى تلك القرية التى اقفرت من الانس سبلها وفتحت أبواب دورها فما رمانى الطريق بانسى ولا أحسست حركة فى دار من تلك الدور ـ غير أنى كنت ارى عند كل جدار وخلف كل باب وتحت كل شجرة رجلا قائما قد أخذ نفسه بالسكوت . فانحدرت الى المزارع ، فلم أكد أنقل فيها بعض الخطى حتى رأيت وقد نظرت خلفى زمرة تتعقبنى ، واذا بكل أولئك الذين رأيتهم قياما قد ترسموا أثرى ، ورأيت كأنهم يمشون الهوينى ، ولكنهم على تريثهم كانوا أوسع منى خطى واخف حركة ، وما هى الا لمحة حتى لحقوا بى وتكنفونى وكانوا جميعا فى لون التراب ، فسألنى أحدهم

(١) اى تظنيت ، خمنت ، حزرت

واحسبه أول رجل لقيته عند هبوطي القرية : « أين تمضي ويلك ــ أولست قد مت من عهد بعيد ؟ » . وبينا أتهيأ الجواب اذا بهم قد اختفوا جميعا

□

ثم هب من نومه وكأنه قطعة من الجليد وقد خمدت نار المدفأة وذابت الشمعة الا قليلا ، وكان الليل لا يزال ليلا فقام الى النافذة ونظر نظرة فى السماء ، فاذا بها لا تزال ضريرة النجم . وكانت النافذة تطل على فناء الدار والطريق

وبينا هو ينظر الى السماء اذا به قد سمع صوتا جافيا وضجة عنيفة على وجــه الارض . فخفض بصره فرأى نجمين احمرين يشعان أشعة تترامى فى جوف ذلك الليل ، وكان لا يزال فى بقايا خياله ــ فقال : « دفعت الليلة الى عجائب ، ترى أعافت النجوم سبحاتها فوقنا فهوت تسبح تحتنا ؟ » . ثم قامت ضجة ثانية كان من أثرها فى نفسه أن عاد الى صوابه فنظر نظرة أخرى ، فاذا بالنجمين الأحمرين لم يكونا غير مصباحى عجلة قد شد اليها جواد أبيض ، فسأل نفسه : « لأمر ما بكرت هذه العجلة ! »

وفوجىء بطرق على الباب ــ فأزعجته هذه الفجاءة وصاح بصوت خشن : « من الطارق ؟ » فكان الجواب : « تلك أنا يا سيدى الشيخ » فعرف صوت خادمه العجوز ، فقال : « وما تريدين ؟ » . فقالت : « انهــا الساعة الخامســة يا سيدى » . قال : « وما شأني بذلك ؟ » . قالت : « لقــد حضرت العجلة » . قال : « أية عجلة ؟ » . قالت : « تلك التى تقدم سيدى بتهيئتها فى هـــذه الساعة وها هو ذا السائق يطلب لقاءك » . قال : « ويحك اى سائق ؟ » . قالت : « سائق السيد سكوفير » ، وما كادت تذكر هــذا

الاسم حتى احتـوته رعدة ، وكأن برقا من الذكرى قد خطف امام عينيه . ثم سكت سكوتا طويلا . ولو رأته الخادم وهو على تلك الحال لتمشى قلبها فى صدرها من هول ما ترى. وعاوده البله فجعل يلهو وتعبث أنامله بتلك الشباك التى نسجتها الشمعة من دموعها. وخاطرت الخادم بتذكيره فقالت: « سيدي الشيخ ، كيف اجيب السائق ؟ » . فقال لهـا : « قولى له انى سأوافيه الساعة »

□

وكان البريد بين أراس ومنتراى سيرمير يحمل فى ذلك العهد على عجلات ذات ترسين مطوقين بجلد اسمر وفى كل عجلة مقعدان : مقعد للسائق ومقعد للمسافر . ولم تكن تلك العجلات التى انقرض اليوم نوعها على شىء من الرواء . وقد كان أيسر عيب بها أنها حدباء . فاذا لاحت للناظر عند مطرح البصر وهى تزحف تحت الأفق زحفا ، حسب أنها من تلك الدواب التى دقت خصورها وثقلت أعجازها . وكان البريد الذى يغادر أراس فى كل ليلة لا يبرحها حتى يوافيها بريد منتراى سيرمير

وفى هذه الليلة نفسها كان البريد الهـابط الى منتراى سيرمير من طريق هيدسان قد صدم عند منعطف الطريق عجلة صغيرة قد شد اليها جواد أبيض وفيها انسان مدثر ، فرجتها الصدمة رجة اشفق معها حامل البريد على ذلك الرجل فسأله الوقوف ، ولكن الرجل قد انطلق فى طريقه وهو يركض جواده ملء فروجه (١) فقال حامل البريد : « ويل له ، لقد استطرد به الشيطان » . ولم يكن الذى مر يعدو غير صاحبنا الذى بات على حال حقيقة بالرحمة .

---

(١) اى ملء ما بين اقدامه ، والمعنى انه اسرع بجواده

فلو أنك سألته الى اين تمضى ؟ ومالك هكذا تسرع ؟ لأجاب : لا ادرى .

انه خرج تحت مشيئة الاتفاق . فاما الى ( أراس ) واما الى غيرها . ومرت تهوى به العجلة فى جوف الليل وكأنها مدفوعة الى هاوية ، وكان يشعر أنه قد بات نهبا لقوتين متباينتين لا قبل له بهما : هذه تدفعه وتلك تجذبه ، ولا يعلم الا الله وحده ما كان يجول فى مناحى نفسه . ومن ذا الذى سلم من ان يضل ولو مرة واحدة فى ظلمات مغاور الغيب ؟ فسار وما عزم عزما ولا وقف عند رأى رضيه ولا سكنت سريرته لأمر أبرمه . فكان فى أخرى هواجسه مثله فى اولاها ، ما زال واقفا حيث كان . ثم عاوده ما كان يتمشى فى نفسه حين ركب العجلة ، فقال : « مهما كانت العاقبة فمن العجز ألا آخذ بالحيطة . وليس للمرء أن يقطع بوقوع امر من الأمور ، ولكن له ان يطرحه تحت نظر فكره فيستبطنه بحثا واستقراء . ومن نصب نفسه للحكم على الأشياء وهو غير مكثب (١) فقد اخطأ مواقع الرأى واطلع من الذر جبالا ، ولعلى اذا لقيت ( جان ماتيو ) وجدت الأمر أيسر مما فى نفسى ، ورأيته أهلا لما نزل به . أما (جافر) فما كان ليكبد (٢) لى وقد صرف الله عنى عنانه وصبه على ( جان ماتيو ) فصوب اليه الظنون والشبهات ، ونعوذ بالله من عنادها ، فانها ما نزلت بصدر الا تعصى على صاحبه انتزاعها . فلا خوف اذن من ذلك الداهية » ولا أكذب نفسى فالساعة مرهوبة ، ولكن باب الرجاء لا يزال مفتوحا ومصيرى لا يزال بحمد الله فى قبضة يدى أصرفه كيف اشاء

واشتد به بعد ذلك القلق فكان يؤثر فى قرارة نفسه أن يعود على أن يذهب . وكان كلما انقبض صدره صب

---

(١) اى قريب (٢) اى يصعب على

سوطه على ذلك الجواد الذى كان يحضر (١) احضارا يطوى فى الساعة فرسخين ونصف فرسخ . وجعل كلما اندفع فى طريقه نمت عنده شهوة الرجوع

ولما تنفس الصبح أو كاد ، كان فى الفضاء وقد اختفت مدينة مونتراى سيرمير فنظر الى أفق قد ابيضت ذؤابته ، وبرزت صحيفة وجه فجر ولدته ليلة من ليالى الشتاء ، اصباحها أشبه الأشياء بامسائها . لا تكاد ترى تباشيره ، ولكن أخيلة (٢) التلال والأشجار قد أضافت الى ما كان فى نفس هذا البائس ما يعلم الله من ضروب الحزن والأسى ، وكان كلما مر بدار من تلك الدور المنعزلة على لقم (٣) الطريق قال فى نفسه : ما لهذه الدار بد من ساكن ينام ملء جفونه

وكان لخبب الجواد وجرس جلجله ووقع العجلة على البلاط ، ايقاع حسن ونغم متماثل يدخل الأنس على نفس الخلى ويزيد فى أسى نفس الشجى

فبلغ قرية ( هيدسان ) وقد أضحى ، فوقف أمام نزل رجاء أن ينفس عن الجواد ويعلفه . وكان جوادا كما قال عنه صاحبه من أصل بولونى عظيم السليل (٤) سحيرا (٥) ادك (٦) أهنع (٧) مفتوح اللبان . دقيق عظم الساق . صلب الحافر . فهو وان لم يكن أصيلا كان عصلبا (٨) متينا . فعل فعل كرام الخيل فطوى خمسة فراسخ فى مدى ساعتين ، وما نضح كفله بماء ، ولا رمت أعطافه بحميم

وكان لا يزال مشدودا الى العجلة حين حضر غلام النزل يحمل اليه العلف ، وحانت منه التفاتة الى العجلة اليسرى ، فصاح بالرجل : « أوأنت على سفر بعيد ؟ » . قال : « مالك ولهذا ؟ » . قال : « هل قطعت شقة طويلة ؟ » . قال : « خمسة فراسخ » . فأجاب الغلام وهو يدمن النظر الى

---

(١) أى يجرى جريا سريعا (٢) جمع خيال (٣) جوانب (٤) أى كبير الرأس . (٥) كبير البطن (٦) عريض الكفل (٧) قصير العنق (٨) اى قوى الأعصاب

العجلة : « لئن كانت قد قطعت بك خمسة فراسخ ، لمن المحال ان تقطع بك ربع فرسخ آخر ، انظر الى ما حل بها من العطب » فوثب الرجل ونظر حيث ينظر الغلام. فقال الغلام وهو يحاوره : « أولى(١) لك ، فما كان أخلقها ان تطرحك وجوادك فى حفرة من حفر الطريق » . ثم أشار الى مكان العطب : فاذا العجلة اليسرى قد اخترمها البريد حين صدمها فى منتراى سيرمير ، فقصف اصبعين من أصابعها ، وكاد محورها يفلت المحوى (٢) فقال الرجل : « ابغنى نجارا له خصيصاء بهذا العمل » . فقال : « انه على خطوتين منا » . وكان النجار على عتبة داره ، فجىء به فجعل ينظر الى العجلة وقد انقبضت أسارير وجهه كأنه مطبب ينظر الى ساق مهشمة . فقال الرجل : « أتعالج اصلاحها فى الحال ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ومتى أسافر ؟ » . قال : « غدا » . فأجاب الرجل : « غدا ؟ » وقد ملكه الدهش. فقال النجار : « ان اصلاحها يستوفى عمر النهار كله . فهل أنت من أمرك على عجل ؟ » . قال : « ما أحوجنى الساعة الى السفر » . قال : « وددت لو تهيأ لك ذلك » . قال : « أصلحها ولك حكمك (٣) » . قال : « ليتنى أستطيع ذلك فأفوز بوعدك » . قال : « انى مسوق الى السفر فاذا أعياك اصلاحها فابغنى غيرها » . ثم قال : « أهنا مركبة للكراء ؟ » قال : « عندى مركبة يقبضنى عن اكرائها ما أراه بعجلتك من العطب ويلوح لى أنك غير حريص على مال غيرك » . قال : « بعنيها » . قال : « أما البيع فلا » . قال : « انى ندى الكف وان اشتط البائع » . قال : « تحت يدى عجلة لأحد الفلاحين يستخدمها فى السادس (٤) والثلاثين من

---

(١) نجوت وما كدت تنجو، هكذا شرحها لنا المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى وهو من امضغ العرب للشيح والقيصوم (٢) المحوى بتشديد الواو المسمار القلاووظ (٣) اى ما تشاء من الاجر (٤) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا قيام الساعة ، يريد انه لا يستخدمها مطلقا

كل شهر ، فان شئت اكتريتها على شريطة 'لا يراك ربهـا وأنت منطلق بهـا ، ولـكنها عجلة عاتية لا يستظل بهـا جواد واحد ، ومن لك الساعة براسين من الجيـاد ؟ » . قال : « من مرابط خيـل البريد » . قال الرجـل : « وما وجهك ؟ » (١) . قال : « مدينة أراس » . قال : « أوحتم من الحتم أن تبلغها اليوم ؟ » . قال : « نعم » . قال : « الا يستوى عندك ان تبلغها فى فجر هذه الليلة ؟ » . قال : « لا » . قال : « هل تحمـل جوازا للسفر ؟ » . قال : « نعم » . قال : « انك اذا تهيأ لك أن تحصل على جوادين من مربط خيل البريد فما أنت ببالغ أراس قبل الغد ، فان خيول البرَيد فى هذه المراحل منثورة فى المزارع ، ونحن فى ابان الحرث وهم يجمعون له الخيل أنى أصابوها . فاذا لجأ سيدى الى ذلك كان عليه أن يلبث نصف يوم عنـد كل مرحلة ، دع ما يعرض له من العقبات » . قال : « اسرح جوادى هذا من عجلتى وأمتطيه فابغنى سرجا » . قال : « وهل يصبر جوادك على صحبة السرج ؟ » . قال : « لقد ذكرت منى ناسيا . انه لا يصبر على صحبته » . قال : « هل من سبيل الى جواد نبيـل يبلغ بى اراس من غير تنفيس (٢) » . وقال : « انك لن تظفر به ، وهبك وجدته فان ربه ليضن به ولو ملأت يديه ذهبا » . فشـاع السرور فى نفسه وقال : « ان للعناية ليدا فيما أرى ، أوليست هى التى أتلفت العجلة ، وقطعت على السبيل ؟ وقد أنذرتنى فلم يلونى انذارها عن القصد ، والتمست المخرج مما أنا فيه ، فما ثنانى برد ولا قعد بى نصب ، ولا أرهقتنى نفقة ، فأصبحت وقد عدانى اللوم ، فاذا استحـال على المضى فى طريقى فتلك مشيئة القدر » . ثم تنفس ملء رئتيه تنفس الحر الطليق ،

---

(١) الوجه القصد ، الجهة ، السبيل (٢) اى فى مشوار واحـد كما تقول العـامة

وخيل اليه أن السهم الذى ضل نصله فى فؤاده قد انتزعه منه نازع ، فوجد لذلك روحا لم يجده منذ رأى وجه جافير
وقال : « لقد علم الله أنى صنعت ما يكاد يخـــرج من الطوق فأخطأنى التوفيق ، فلا أملك من أمرى بعد هذا كله الا الرجوع على هاتين النعلين »

ولو كان حديثه مع النجار فى خلوة لما وصل الى اذن حى ولبث مكتوما ، ولكنه كان على الطريق المعبد . ومن شأن مثله أن يلفت المار الذى يستهويه حب الاستطلاع فيقف ناشرا اذنيه لتسقط الخبر ، فلا يكاد المحدث يمر فى حديثه حتى يرى حوله حلقة من الناس ، وما منهم الا من هو فارغ لذلك . وكذلك وقع ( لجان فالجان ) فبينا هو يحاور النجار واذا بطائفة من السابلة قد التفت حوله ، وكان بينهم غلام لا تكاد تأخذه العين ، قد تسلل من الجماعة وطفق يعدو حتى اختفى وما كاد يهم ( جان فالجان ) بالرجوع حتى عاد الغلام يصطحب امرأة عجوزا

قالت العجوز : « ان غلامى هذا قد نقل الى أنك فى حاجة الى مركبة ». وما كادت ترمى بتلك الكلمة حتى ندى بالعرق جبينه ، وشعر كأن اليد التى سرحته منذ قريب توشك أن تقبض عليه من جديد . فلبث غير بعيد ثم أجاب : « نعم أيتها المرأة الصالحة ، فأنا فى حاجة الى مركبـــة أكتريها ، ولكنهم يزعمون أنى أحاول المحال ». قالت : «لقد وجدتها». قال : « أين ؟ » . قالت : « عندى » . فاحتوته قشعريرة وقال فى نفسه : « كان الذى خفت أن يكون »

وكانت مركبة عتيقة من الخيزران قد علاها الوحل وأكلها الصدأ وفعل فيها الجو فعله . ولم تكن بأحسن حالا من مركبته المعطوبة . ولكنها لم تأب على ما فيها أن تقله الى أراس ، فلم يجد عنها مزحلا ، فاكتراها على حكم ربتها وشد اليها جواده وانطلق فى سبيله . وبينا كانت العجلة تجرى

به كان يجرى فى نفسه حديث غريب : « لقد أحسست منذ هنيهة سرورا بعثته تلك الحوائل التى قامت بينى وبين المضى فى طريقى وأرى الساعة انه سرور كاذب. الويل لى. أيسرنى الاحجام عن مقصد أنا الذى وجه اليه نفسه مختارا والقعود عن سفر أنا الذى حمل نفسه عليه مسوقا بارادته ؟ »

ولم يكد يمضى فى طريقه حتى سمع صوتا يهيب به أن قف ، فأوقف العربة ارتجالا وقد عرته هزة المحموم المختلج ولعلها احدى هزات الأمل . واذا بغلام العجوز يناديه : « أنا الذى هيأ لك الحصول على العجلة » . قال : « وما تريد ؟ » . قال : « أجرى على ذلك » . قال وقد فارقته تلك الأريحية التى طالما تهزه الى اسداء الجميل : «اعزب ولا كرامة» ثم ساط الجواد فانطلق يعدو ، وأراد أن يعوض ما أضاعه من الزمن فى هيدسان ، فحط على جواده بالسوط . فلقى عناء من الجر وكان قد خرج به غب (١) سماء فكابد من الوحل وثقل المركبة ما كاد يأتى على قواه ، فلم يطو غير خمسة فراسخ فى مدى ساعات أربع حتى بلغ سانت بول . وهناك نفس عنه فى نزلها وقاده الى الاسطبل ووقف يعلفه. وأقبلت ربة النزل فقالت : « ألا يأكل سيدى ؟ » فقال : « ما أحوجنى الى الطعام » . وكانت امرأة صبوحة الوجه فارهة الجسم ، وأقبلت خادم ، فهيأت له الخوان وهو يسارقها النظر وقد وجد لها فى نفسه محلا فأهوى الى الخبز ، فمضغ منه لقمة واحدة وكف يده . وكان على المائدة التى بجواره سائق عجلة يأكل. فقال له : « ما لهذا الخبز مرا ؟ » وكان المانيا فلم يفقه قوله ولم يجبه . وانكفأ بعد ذلك الى الاصطبل يراقب الجواد ، فلما فرغ من علفه شده ، وانطلق به الى مدينة ( تنك ) وكانت على خمسة فراسخ من أراس. فسار وقد غرق فى هواجسه وجعل يتأمل وجوه الشجر

---

(١) اى عقب مطر

وسطوح الأكواخ ومناظر الخلاء التى كانت تلوح له كأنها قد وقعت فى غشية أو سبات

وان لوجوه الارض لتسلية ترفه عن النفس وتصرفها عن التفكير ، ولكنه قد مر بألف وجه منها وما زال كاسف البال وفاته قولهم : من سافر فقد تجدد ، وما يدريك لعله كان يقارن فى نفسه بين تقلب الأجواء وذلك الوجود البشرى الذى لا يستقر فيه شىء على حال فكل ما فيه قد جبل على الفرار منا . الم تر الى الليل والنهار كيف يتعاقبان ، والى الشروق والغروب كيف يتناوبان . والمرء يرى ما يمر به فيسرع باسطا يديه ليمسكه فيفلته ، وكل حادث ينتابنا هو لبنة فى طريقنا لا تلبث أن تسلمنا الى الكبر ، وكلما احسسنا تلك الهزات الخفية وقف بنا النظر على باب الغد وما وراءه غير الغامض من الغيب ، دع جواد الحياة الذى يستطرد بنا زمانا ثم يقف على غرة من راكبه ، فيأتى من جوف الغيب من يرجله عنه ثم يسرحه

وطلع الشفق على مدينة تنك فى آن ، وكان النهار قصيرا فانطلق حتى اذا مر برصاف يرصف الحجارة قال الرصاف وهو ينظر الى جواده : « أرى جوادا مكدودا » ثم نظر الى الرجل وقال : « لعلك تريد أراس ؟ » . قال : « نعم » ، قال : « انك لن تبلغها على هذا الجواد » . قال : « كم بينى وبينها ؟ » . قال : «سبعة فراسخ» . قال : «ان دليل البريد لايقول بقولك» . قال : « انهم يصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنى لك المضى فيه ، وما أخلقك بالعروج على طريق آخر ، فعليك أن تتياسر ثم تركب طريق جارنس ثم تعبر النهر هناك ، فاذا بلغت كامبلان فتيامن واركب المحجة (١) الى اراس » . قال : « أخشى الضلال فى هذا الليل البهيم » . قال : « أولست من

(١) الطريق

أهل هذا البلد ؟ » . قال : « انى غريب » . قال : « عد الى تنك واقض الليلة فى نزلها واستبدل بهذا الجواد الذى نزح التعب قواه جوادا يقلك الى أراس » . قال : « استحال غير السفر فى هذه الليلة » . قال : «استأجر جوادا ودليلا » . فعمل بمناصحته وقفل الى تنك وعاد يعدو بجواد جديد يصحبه غلام من النزل

وغاب فى أحشاء ليل قد كسر على الارض جناحيه . وكان الطريق ، وعرا والعجلة تجلجل (١) فوق نكت الارض وهو فوقها مقلقل الشخص يهيب بالغلام : « ايه ايه ولك ضعف الأجر » . فصاح الغلام : « لقد عطب العريش ، فكيف نمضى ونحن بين طريق وعر وليل خليق أن تصد محارمه (٢) عن السرى ، فهل لك أن تعود الى تنك وانا الضمين أن تبلغ أراس عند منبلج الصباح » . فقال : « أمعك حبل وسكين » . قال : « نعم » . فاهوى الى شجرة فاقتضب منها فرعا أقامه مقام العريش وانطلق فى سبيله

وكان الوادى فى ظلام دامس والضباب ( دان مسف (٣) فويق الارض هيدبه) ينبعث من التلال كأنه كسف من الدخان وقد شاع فى سواد السحب بياض ، وهبت ريح البحر فى جوانب الأفق فكان لهبوبها أشبه الأصوات بصوت الأثاث عبث به عابث

فتمخخ (٤) البرد عظامه وكان طاويا منذ العشية ، فذكره القر والطوى تلك الليلة التى قضاها منذ سنين ثمان فى ضواحى مدينة ( دينى ) وقد ذكرها كأنه يذكر أمس الدابر . وسرى الى سمعه جرس ساعة على بعد فقال للغلام : «ما هذه

---

(١) أى تتحرك مضعضعة (٢) أى مخاوفه (٣) مأخوذة من قول الشاعر: يصف سحابا قريبا من الأرض : دان مسف فويق الارض هيدبه * يكاد يدفعه من قام بالراح (٤) تمخخ أخرج مخها

الساعة ؟ » . فقال : « انها الساعة السابعة وسنبلغ أراس فى الثامنة ، فليس بيننا وبينها غير فراسخ ثلاثة »

ونزلت برأسه فكرة لم يسبق لها فى النزول ، فقال : « ويل لى ما أضيع ما جشمت نفسى فى يومى هذا من التعب أما كان الأخلق بى أن أعلم علم تلك القضية وموعد النظر فيها » ثم قدر فى نفسه تقديرا لذلك الموعد وقال : « ان الجلسات لا تعقد قبل الضحى ، والنظر فى هذه القضية لا يفتقر الى الكثير من الزمن ، ان هو الا سؤال وجواب فشهادة أو شهادتان . فكلمة للمدافع . فحكم لا يتعدى التغريم ، ولعلى أبلغ الجلسة قبل الفوات »

كل ذلك والغلام يسوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة مونت سان ألواى وقد سطمت غياهب الظلام

□

ولنعد بالقارىء الى « فانتين » :

فى الوقت الذى تجرى فيه هذه الحوادث كانت فانتين رضية البال ، وكانت قد طوت ليلة مذكورة ، كابدت فيها من الحمى ومزعجات الأحلام ما يهد الحيل (١)

ولما أصبحت كانت لا تزال تهذى ، وعادها الطبيب فوجدها فى فورة من النفس فطلبت اليه أن ينذرها عند قدوم مادلين

ولبثت فى تلك الضحوة كاسفة البال لا تكاد تفتح فاها . وجعلت تلهو بطى غطائها طيات مقدرة ، وتحرك شفتيها كأنها تذرع (٢) بفكرها مسافة من المسافات ، وقد غارت عيناها وجمد بصرها ، وانطفأ ضياؤه أو كاد . وكانت تفتح

---

(١) الحيل والحول ، بفتح الحاء فيهما : القوة (٢) تقيس بالذراع

بين الفينة والفينة عينيها عن مثل لمعة الكوكب ، ولا عجب فاذا دنت ساعة الشدة فان مددا من السماء يملأ نفوس أولئك الذين فقدوا مدد الارض

وكانت كلما سألتها الراهبة : كيف أنت ؟ قالت : « احمد الله ولا أطلب الا رؤية مادلين » !

منـــذ بضعة اشهر وفى ذلك الحين الذى ابتذلت فيـــه فانتين خدرها فتمزقت عفتها ، وغاض حياؤها ، كنت ترى فانتين وكأنها ظل لفانتين . أما اليوم وقد فنى جسمها فقدكنت ترى فانتين وكأنها طيف لفانتين ( والظل للجسم والطيف للروح ) ولقد كان لتشويه خلقها أثر فى خلقها فانظر الى تلك المرئية التى لم تشهد غير خمسة وعشرين ربيعـا ، كيف هبط أكثر لحمها فتجعد جبينها ورهل خدها ، وشحب لونها ، وبرز منكباها ، وتجردت عظـام نحرها ، وانبرت اعضاؤها ، وأصبح جلدها وكأنما طلاه بالطين طال . ونبت شعرها الأشقر وقد نصل لونه وجالت فيه طلائع المشيب ، فأف من المرض فانه يرتجل الشيخوخة وانه لأنجب مطايا الكبر

وعند الظهر عادها الطبيب فسأل عن مادلين ولمـا علم بغيابه حرك رأسه حركة أعربت عن الأسف

وكان مادلين يأتى فى عصر كل يوم وما تخلف مرة عن ذلك الموعد . والوفاء من شمائل الطيبة ، وقد كان الرجل طيبا

وعاودتها عنـــد العصر فورة النفس فسألت عن ساعة زمانها عشر مرات فى مدى عشرين دقيقة ، ثم استوت فجأة فى سريرها ، تلك التى كانت لاتنبعث لها جارحة من المرض والهزال . ثم شبكت ذراعين قد أنحلهما السقم ، وأرسلت من صدرها تنهدا خيل معه الى الراهبة أنهـا رفعت به عن صدرها ثقلا ، ورمت الباب بنظرة من يرقب قدوم انسان .

ولكن الباب لم يرمها بأحد فلبثت برهة وهى تنظر اليـه ، وكأنها معلقة الأنفاس والراهبة لا تجرؤ على سؤالهـا . ثم ألقت برأسها على الوسادة ومرت الساعة تلو السـاعة ولم يزرها زائر

وما رآها على تلك الحال راء الا وعلم بما يجول فى فكرها ولكنها صابرت آلامها ، فلم تشك ولم تتوجع

وسمعتها الراهبـة قبيل الغروب وهى تقول بصـوت خافت : « اننى هامة اليوم أو الغد ، فما كان أخلقه اليوم بزورة الوداع ».ثم طفقت تغنى ــ وكأن صوتها نفحة من نفحات النسيم ــ أغنية عتيقة تدعى بأغنيـة الأرجوحة ، كانت تنغم بها فانتين لانعاس طفلتها فى عهدها الاول ، وقد كان صوتها يقطر حزنا ، وايقاعها مشجيا لا يملك السامع معه الدموع من أن تسيل ، فبكت حتى تلك الراهبـة التى درجت على الزهد والتقشف

ولما اعتمت علت وجهها آيات الذهول وارسلت الراهبة صبية تسأل عن مادلين فعادت على الأثر وأسرت لها أن مادلين قد سافر وحيدا فى فجر هذا اليوم ولا يدرى خلق بالوجه الذى يريده

وقد رآه قوم على طريق أراس وزعم قوم أنه قد ركب طريق باريس وكان هو هو ، لم يلمحوا على ظاهره ما ينم على باطنه . وبينما هما يتساران على مقربة من سريرها وقد استدبرتاه واذا بفانتين وكأن نافضا من الحمى تمازجه حركة المعافى فى بدنه قد حركها فى سريرها . فهبت رغم ذلك الهزال المروع هزال الموت وجثت على ركبتيها واعتمدت على الوسادة بمرفقيهـا وأرهفت للسمع أذنيهـا وفرجت برأسها ما بين سجفى كلتهـا (١) وصاحت بهمـا : « انكما تخوضان فى حديث وان لمادلين فيه لشأنا » . ونادتهمـا

(١) الناموسية

بصوت تخالطه البحة والخشونة ، كان من اثره فى نفسيهما أن ظنتا أن المتكلم رجل من الرجال ، فالتفتتا مذعورتين فقالت لهما : « مالكما لا تنطقان ؟ » . فقالت الصبية بصوت خافت : « ان البوابة تقول انه لا يعود الليلة » . وقالت الراهبة على اثرها : « اهدئى أنت ونامى » . فأجابتهما بصوت فيه رنة من الجلال ونبرة من الأسى : « انه لا يعود ، أراكما تتساران فى شىء تحاولان كتمانه عنى ، ولا بد لى من الوقوف عليه » ، فالقت الصبية فى أذنى الراهبة كلمات فاحمر وجه الراهبة وهالها ان تكذب ، ثم ترددت بعض الشىء ، وقالت فى نفسها ان انا صدقتها فى مثل هذا الموطن فقد قتلتها ، وان أنا كذبتها فقد قتلت كرامتى . ثم لبثت غير بعيد ، وقالت لفانتين بصوت المتمكن من نفسه : « ان مادلين قد سافر اليوم »

فاستوت المريضة فى سريرها وسرت بنفسها عقبة من السرور ومرت بعينها خطفة من بارقة الأمل وصاحت : « انه سافر ليرى كوزيت » ، ثم ضمت يديها واستقبلت السماء بوجهها وأخذت تصلى . ولما فرغت من صلاتها قالت للراهبة : « الآن حلا لى النوم امضاء لأمرك فلا تنزلى أمرى على الجراة عليك اذا رفعت صوتى فى الحديث ، فما فاتنى أن ذلك كان خروجا عن أفق الأدب وانما استخفنى السرور ! ثم أخذت مضجعها بعد أن لثمت صليبها ، وقالت لها الراهبة : « اهدئى ونامى » فضمت يديها الناديتين على يدى الراهبة التى هالها وفر العرق الناضح من جسم المريضة

وأنشأت فانتين تقول : « سافر الى باريس وما كان اغناه عن ذلك ومونت فورمى على يسار ذلك الطريق فلعله يتحرى مفاجأتى بذلك النبأ السار ، فقد قال لى بالأمس حين جر الحديث الى ذكر كوزيت اننى سأراها قريبا واخذ

توقيعى على كتـــاب الى أصحـــاب النزل ولا أحسبهم الا فاعلين وما كانوا ليحبسوا عنى كوزيت وقد وفوا أجورهم فحبسهـــا عنى افتيـــات على أولى الأمر ، فلا تومئى الى بالسكوت فأنا الساعة فى عافية لا عهد لى بمثلهـــا وسعادة لا حد لها . أو لست خليقة بعد أعوام خمسة أن أرى وجه طفلتى ولا أحسبها وقد بلغت السابعة الا صبية حسناء ولقد صبرت على بعدها طوال السنين ، وللصبر حد ولو أن لى عمر الأبد لهان ذلك البعاد

« فما أطيب عنصر ذلك الرجل الذى غامر بنفسه فى ذلك البرد القارس لانقاذ طفلتى ، ولعله يعود فى الغد من مونت فورمى ، وهى بلدة قد قطعت طريقها على قدمى منذ عهد طويل فكان بعيد الشقة علىّ وان كان يسيرا على العجلان ؛ فيا ترى كم بيننا وبينها ؟

فأجابت الراهبة التى لا علم لها بتلك الشقة : « انه سيعود باذن الله فى الغد » . فقالت : « سأرى بنيتى فى الغد . ان الأمل بلقائها قد ألبسنى ثوب العافية، فلست مريضة كما تزعمون ، ولكنى مفتونة ، فلو أنى دعيت الساعة الى الرقص لأبدعت فيه »

وكانت فى هذه الآونة وردية اللون قد ابتسمت قسمات وجهها ، فكنت ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمع من البسمات وما أشبه سرور الأمهات بسرور الأطفال

ثم ألقت برأسها على الوسادة وجعلت تدور بعينيها فى أرجاء الحجرة وقد بدت عليها سيما الارتيـــاح ، فأطبقت الراهبة الستائر على كلتها رجاء أن يأخذها النعاس . وعاد عند العتمة الطبيب فلم يحس حركة فى المكان فعزا ذلك الى نوم المريضة فخافت (١) من مشيته ودنا من سريرها وأزاح

(١) أى مشى على أطراف أصابعه

الستار فرأى على ضوء الساهرة (١) وجها هادئا وعينين لم يرنقهما النوم ، فابتدرته قائلة : « انهم سينيمونهـا هنـا بجانبى على سرير صغير » . فعجب الطبيب من أمرها وظنها تهذى فانتحى بالراهبة ناحية فنفضت اليه جملة الأمر . ثم عاد الى سرير المريضة . فقالت : « اذا تيقظت بنيتى ألقيت عليها تحية الصباح ، واذا نامت صنع بى تنفسها الهادىء ما لا يصنعه الدواء ، فأتجه الى العافية » . فقال لها الطبيب : « يدك » فمدت يدها وهى تبتسم وتقول : « ألا ترى أنى نجوت ؟ » فدهش الطبيب حين جس نبضها ورأى الحياة تجرى فيه جريانا . فقــال : « انه من صنع السرور الذى أدخله على نفسها الأمل بلقاء بنيتها » ثم أوصى بالسكوت وأمر بدواء يلطف من حدة الحمى اذا هى عاودتها فى ليلها ، وقال للراهبة عند انصرافه : « اذا أسعدها الطالع برجوع مادلين فى الغد فقد نجت »

وكائن من سرور مسح من مرض ، وانه اسر من الأسرار التى سيكشفها العلم فى مقتبل الزمان

□

ولما كانت العتمة ، وقف المسافر الذى تعقبناه على باب النزل ( بأراس ) وسرح الجواد الذى استأجره وقاد بنفسه الجواد الأبيض الى الاصطبل ثم عاد الى النزل وجلس فى احدى قاعاته وارتفق (٢) على منضدة وكان قد استوفى عمر يوم وليلة فى سفر كان يقدر له نصف يوم ، وما كان ذلك من صنعه ولكنه صنع القدر

ولو أنك قرأت ما فى نفسه لتجلت لك فيها آيات الرضى . ودخلت عليه فى هذه الأثناء ربة النزل ، وقالت : « أيرغب

---

(١) الساهرة وجمعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القراية عند العامة
(٢) اعتمد بمرفقيه

سيدى فى العشاء والنوم ؟ » . فأومأ اليها برأسه ايماءة الرفض ودخل على أثرها غلام الاصطبل وقال : « ان جوادك مكدود » فابتدره قائلا : « أوليس فى طوقه السفر غدا ؟ » . قال : « انه لا يستطيع الحركة قبل يومين » . قال : « أين مكتب البريد ؟ » فقيد اليه ، فأخرج جواز السفر وطلب العودة الى مونتراى سيرمير فى نفس البريد الذى قدم معه وكان المقعد المجاور لمقعد السائق لا يزال خاليا ، فأجيب الى طلبه ودفع النفقة وأنذر بالسفر قبيل السحر

ثم غادر النزل وجعل يمشى فى المدينة ويتنقل فى طرقاتها على غير هدى وكبر عليه أن يسأل المارة ، فعبر النهر وخلص الى زقاق ضيق فضل السبيل ومر به فلاح يحمل فانوسا (١) فبدا له أن يسأله عن الطريق ثم نظر الى الخلف والأمام كراهة أن يسمعه انسان ، ولما أمن ذلك سأله : « أين دار المحكمة ؟ » وكان الرجل من ذوى الأسنان . فقال له : « يلوح لى أنك غريب فاتبعنى فان طريقى عليها » . فانطلقا حتى اذا كانا على كثب من الغرض أنشأ الفلاح يحدثه : « ان كنت رب قضية فقد جئت بعد الفوت ، على أنى لا أزال أرى ضوءا بنوافذ قاعة الجلسة ، ولعلها لم ترفع ، فان كنت شاهدا فقد جئت فى الوقت » . قال : « انما جئت لاستشارة محام » . فقال الفلاح : « هاك الباب فاذا دخلت فارق الدرج »

فمضى الرجل على ارشاد صاحبه فاذا هو فى قاعة فسيحة قد غصت بالناس ، وطائفة من المحامين هنا وثم يتهامسون ، وان رؤيتهم وهم فى ملابسهم السوداء لمما تنقبض لها النفس ، فقل أن تخرج كلمة من أفواههم يستروح منها السامع روائح الرفق أو يجد ريح البر ، فلا يكاد يسمع الا نعيبا يؤذن بحلول العقاب

---

(١) الفانوس فى الأصل النمام وقد استعمل للشمع لأنه ينم عليه

فاذا مررت بهم حسبت أنك امام خلية دونها خلايا النحل ــ خلية تطن فيها العقول طنينا حتى ليؤتى لك وقد اخذتك الوحشة أنك فى معبد مظلم تعمره الأرواح . وكانت القاعة على ترامى أطرافها لا يضيئها إلا سراج واحد فمشى الرجل فيها وقد شد منه ذلك الظلام الذى عجز عن تبديده السراج ، فلم يستح أن يسأل أول محام لقيه : « فيم القوم ؟ » . قال : « قضى الأمر » . فارتاع وقال : « قضى الأمر ! »

نطقها بمرارة لفتت اليه المحامى . فقال : « العلك قرابة (١) له » . قال : « لا شأن لى ولا قرابة ، فهل حكم بالادانة ؟ » . قال : « استحال غير ذلك » . قال : « أتراه سجن الأبد ؟ » . قال : « نعم » . قال بصوت لا يكاد يسمع : « لقد عرفت اذن شخصيته » . قال : « أية شخصية ؟ لقد كان الأمر جليا . امرأة قتلت ولدها فحق عليها العقاب ! » . قال : « أعن امرأة تتكلم ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ما لهم وقد فرغوا من أمرها لا يزالون فى مقاعدهم ؟ » . قال : « انهم ينظرون منذ ساعتين فى شأن آخر » . قال : « وما عسى أن يكون ؟ » . قال : « مجرم عائد من أرباب السوالف وأضياف السجون لا يحضرنى اسمه قد أخذوه بسرقة جديدة ، ولعلهم لا يتلومون فىالحكم عليه ، فسحنته سحنة الفاتك ، ولو كنت قاضيا لكفتنى النظرة اليه مؤونة التحقيق فى أمره » . قال : « الا يتسنى لى الدخول ؟ » . قال : « ان القاعة مكتظة بالناس وقد رفعت الجلسة فاذا عادوا الى النظر فربما تهيأ لك الدخول فى غمار الناس » . قال : « ومن اين أخلص اليها ؟ » . قال : « من ذلك الباب الكبير »

ثم غادره المحامى وهو على غير استواء ، وكان ابرا من

---

(١) اى قريب

الثلج ونصالا من النار قد اعتورت فؤاده وخزا وطعنا ولم يدر أكان مأتاها الألم أم السرور . وجعل يقترب من الناس وهم قنابل (١) قنابل يتحدثون فسمعهم يقولون : « ان هذا الرجل قد سرق تفاحا ، فهو وان لم تثبت عليه السرقة فقد ثبت أنه من المجرمين العائدين وقد انقضى استجوابه وشهدت الشهود ، ولم يبق الا دفع المحامي ورد النائب وربما استوفى ذلك من الليل نصف عمره ولا نظنه يفلت من العقاب . فالمدعى فتى ذكي الفؤاد أديب ينظم الشعر ويعرف كيف يوفى الاتهام حقه » . فدنا من الباب فوجد عنده حاجبا فسأله : « متى يفتح ؟ » فقال : « لا يفتح » . قال : «كيف والجلسة على وشك الانعقاد بعد رفعها » . قال : « قد عقدت الجلسة والقاعة قد ضاقت بمن فيها » . قال : « ألا أجد فيها مكانا أصف فيه قدمي ؟ » قال : « لا » ، ثم عطف قائلا : « ان خلف الرئيس مكانا أو مكانين لا يؤذن بحلولهما لغير الخاصة » . ثم ولاه ظهره فنكس الرجل رأسه ومشى مشية الحائر وهبط بعض الدرج وهو من نفسه فى حرب عوان ثم أخرج من جيبه بيضاء (٢) خط فيها : « مادلين شيخ مونتراى سيرمير » ثم صعد الدرج وشق الصفوف وأتى الحاجب وقال له بصوت الآمر : « احمل هذه الى الرئيس » فأخذها الحاجب وألقى عليها نظرة عجلى ومضى طائعا

□

منذ سنين سبع ومادلين نابه الذكر قد اقترن اسمه بالثناء ، وملأت شهرته جوانب الأفق فجازت حدود بلده الى ما جاوره من البلدان فتعالم (٣) الناس فضله وأخصب

---

(١) جماعات جماعات (٣) أى علم (٢) أى ورقة بيضاء

به الزمان والمكان فنمت فى عهده صناعة الخرز الأسود وكانت له يد على الصناعات ، فمد المصانع بالمال حتى حسد بلده عليه

وكان رئيس الجلسة فى أراس ممن يعظمون مادلين ويبجلونه ، فلم يكد يحمل الحاجب اليه رقعته حتى أذن له ، فعاد الحاجب فسلم وانحنى حتى كاد يمس الارض بجبهته وحتى تبين مادلين اعظامه فى حماليق عينيه ، وقال له : « ليدخل سيدى غير مأمور » ومشى أمامه مشية العبد القن

ذلك الذى كان يوليه ظهره غير مكترث اه ثم مد له يده برقعة الرئيس ، فتناولها واقترب من المصباح وقرأ على ضوئه : « أن رئيس المحكمة بآراس يهدى تحية يمازجها الاجلال الى الشيخ مادلين »

ثم تبع الحاجب فلم يلبث أن رأى نفسه وحيدا فى قاعة المداولة وكانت قاعة لا تسر النظر يضيئها شمعتان قد نصبتا على منضدة أقيمت على بساط أخضر . وذكر قول الحاجب عند انصرافه : « انك يا سيدى فى قاعة المجلس ؛ فاذا أدرت ذلك الزر النحاسى الذى تراه بالباب وجدت نفسك فى قاعة الجلسة خلف كرسى » ، ففعلت فى نفسه تلك الكلمات فعلها واختلطت بما كان يدور فى رأسه من الذكريات المبهمة التى بعثها فيه ما صادفه فى ذلك المشى وما مر به فى تلك الدرج . وأوفت الساعة المرهوبة فحاول أن يجمع أشتات نفسه فلم يغن شيئا ، وتضعضع فى ساعة هو أحوج ما يكون فيها الى التماسك تلقاء تلك الحقيقة الأليمة . وكم قطع فى مثلها سلك التفكير وملكت على المرء المذاهب ، فقد كان فى الموطن الذى يجلس فيه القضاة فيدينون ويبرئون . وجعل ينظر نظر الأبله الى تلك القاعة الساكنة المروعة التى يقضى بها على أرواح العباد . وكان به

وهو ينظر اليها أن اسمه سوف يدوى فى جوانبها وأن المقدور عليه سوف يحلق فى سمائها

وجعل يتنقل ببصره بين جدرانهــا وبين نفسه ويقول : «ترى ما هذه القاعة وترى من أنا ؟» وكان قد طوى يوما وليلة وفعلت فيه رجات المركبة فعلها ، ولكنه لم يستشعر ألمــا ولم يحس جوعا ، ودنا من اطار أسود معلق على الجدار فيــه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج ، خطهــا جان نيكولا ( باش عمدة باريس ) وأحد الوزراء ، رصد فيهــا أسماء النواب والوزراء الذين اقتضبوا من دورهم اقتضابا وسيقوا الى السجن ، ولو أن امرأ تفرس فيه لأدرك للوهلة الاولى ان الرسالة قد أخذت من نفسه محلا ، على أنه قد قرأها ثلاثا ولم يملك الفهم ، ولا عجب فقد كان يفكر فى فانتين وكوزيت

وانفتل وهو فى تلك الغمرة فأخذ بصره قبضة البــاب الذى يفصله عن قاعة الجلســة . فأدمن اليه نظرا هادئا ثم بان فيه الخوف ، ثم أطل من محاجره الفزع ثم تلاه الجزع فندى بالعرق جبينه ، وأتى على أثر ذلك بحركة يخطئها الوصف . حركة يمازجها السلطان كأنها تناديه : « ما الذى يحملك على كل هذا ؟ » ثم انفتل ثانيا فوقع نظره على الباب الذى دخل منه فاندفع اليه ففتحه ، ونجا من تلك القاعة الى ممشى طويل جم المنعطفات كثير الليات به طائفــة من النوافذ تقطعه درج للهبوط ، تضيئه سرج ضئيلة النور كأنها السواهر

فتنفس الصعداء وأصغى ، فاذا هو فى سكون الرموس فانطلق يعدو كمن يطارده مطارد ، حتى اذا غاب فى أحشــاء تلك المنعرجات وقف يتسمع للمرة الثانية فلم يرعه مروع ، فجعل ينفس عن نفسه كرب العدو ، فأسند ظهــره الى الحائط فوجد مس البرد من حجارته ، فاعتدل مقفقفا

ولما وجد نفسه قائما وحيدا فى جوف هذا الظلام نهبا

للبرد والهواجس جعل يفكر . على أنه قد فكر فحمة (١) الليل وسراة النهار ، فلم يسمع غير صوت واحد يناديه : « وا أسفاه ! » . ومرت به فترة وهو على تلك الحال ، ثم امال راسه وأرسل ذراعيه وتأوه آهة الرجل الحزين ، ورجع أدراجه . وجعل يمشى مشية المتثاقل كأن لاحقا لحق به فى فراره فصده عن قصده ورده الى حيث كان ، فدخل القاعة التى برحها وأخذ نظره قبضة الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة ، وكانت من النحاس المصقول ، فبدت له كأنها كوكب من كواكب النحس فجعل ينظر اليها نظرة الشاة الى عين النمر ، وأخذ يدانيها ثم اندفع وهو لايدرى الى الباب وأهوى بيده الى القبضة فأدار زرها فاذا بالباب وقد انفلق عنه ، واذا به فى قاعة الجلسة فخطا خطوة واقفل خلفه الباب ووقف ينعم النظر فيما يرى

وكانت قاعة فسيحة تربو ظلمتها على نورها ، يملأ جوانبها الضجيج وتارة يغمرها السكون قد طرحت فيها قضية جان تحوطها خطورة تشوبها المسكنة ، ويتمشى فى اثنائها انقباض فى الصدور .

وفى الجانب الذى وقف فيه جلس قضاة لا تنم معارف وجوههم على شىء من الاكتراث ، عليهم اردية بالية ، وهم بين قارض لظفره ومغمض لعينيه

وفى الجانب الآخر لفيف من الناس فى أخلاق (٢) الثياب وقد نثر بينهم محامون فى شتى الأزياء ومختلف الأوضاع وعلى ضواحيهم (٣) أحراس تهب من أردانهم ريح القسوة ويعبق أرج الشرف . وكانوا تحت سقف قد كسته الأقذار وفوق أخشاب قد بلغ منها القدم ، أمامهم مناضد تكسوها أجوائخ صفراء كانت فى ميعة صباها خضراء ، وحولهم أبواب قد طلاها تداول الأيدى بطلاء من القار ، تضىء لهم سرج من

---

(١) اى طول الليل والنهار (٢) الثياب البالية
(٣) اى بالقرب من اكتافهم ومناكبهم ، احراس جمع حرس

سرج الحانات قد علقت فى مسامير مرشوقة فى الحائط تبعث من الدخان فوق ما ترسل من الأضواء

وقد نصب على كل منضدة شمعدان من النحاس أقيمت فيه شمعة

وقد كان الظلام المخيم فوق ذلك المشهد المهيب يولد فى نفس الناظر شعورين من وقار واكبار ، شعورا بعظمة المخلوق ، ومظهره القانون ، وشعورا بعظمة الخالق ، ومجلاه العدل

□

وقف مادلين ولم تأخذه عين فقد كانت العيون مصوبة الى هدف واحد ، مقعد من الخشب بجانب باب صغير فى طول الحائط على يسار الرئيس قد جلس فيه رجل بين حارسين وشموع تزهر

وكان هو الرجل . . !

رآه مادلين ولم يجشم عينيه مؤونة البحث كأنه كان معه على ميعاد . وقد خيل اليه أنه يرى فيه نفسه ولكن فى سن عالية ، وما كان الشبه بينهما قاصرا على السحنة ، ولكنه كان فى الموقف والمنظر وذلك الشعر القاف وذلك النظر الشزر الذى لا يفارقه القلق ، وتلك الأهدام البالية التى كان يجول فى أمثالها يوم دخل مدينة دنى يحمل فى نفسه ضبا من الضغن(١) ويخفى فيها ذلك الكنز الذى اقتناه فى أعوام سجنه

ذلك الكنز الذى جمعه على بلاط السجن من وحى الشر، لا من يتيمات الدر . فارتعد وقال : « اللهم غفرا ، أكذا تكون العقبى ؟ » وكان ذلك الرجل قد بلغ الستين أو جازها يلوح عليه ضرب من البله على حواشيه جفوة واستيحاش

ولما فتح مادلين الباب صر صريرا نبه القضاة ففسحوا له

---

(١) أى يحقد حقداً شديدا

مكانا ، ولفت الرئيس فحياه ، وحياه على أثره المدعى العام فلم يكد يلمح تلك التحايا لأنه وقع فى ذهول قد افترس طائر حلمه

قضاة وكتاب ، وشرط ، وجمع مشرئب الأعناق على ظماء الى الاستطلاع . انه شهد هذا المشهد قبل اليوم بسبع وعشرين سنة ، وها هو ذا يشهده اليوم

وما كان ما يراه من عمل الذاكرة أو صنع الخيال ، ولكنه من صنع الحقيقة . قضاة وشرط وجمع من الأحياء قد ركبوا من لحم وعظم فهم يتحركون . وضح ذلك لعينيه وبرزت له صور الماضى فى أبشع ألوانها وأروع مظاهرها ، وأشكل عليه الأمر فأغمض عينيه وصاح فى أغوار نفسه ان هذا لن يكون

ولعبت به الأقدار ، وأرته من تهاويلها ما زاد فى خبال عقله حتى كاد يخالط فيه . فرأى كأن هناك رجلا قد شق منه ، وقد تواطأ الناس على أن ذلك الرجل لم يكن غير ( جان فالجان )

ثم رأى ويا هول ما رأى

رأى شبه مسرح قد قام فيه شبحه بتمثيل أبشع أطوار حياته

وقد أخذت لذلك التمثيل عدته ، فكان يرى نفس المشهد فى نفس ساعة الليل التى حكم فيها،وكأن القضاة هم قضاته وكأن الأحراس هم الأحراس ، والحضور هم الحضور الا أنهم رفعوا فوق رأس الرئيس صورة المسيح ، ولم تكن تزين قاعات الجلسات فى عهد محاكمته ، فحوكم لشقوته فى يوم لم تشهده عين المسيح

وسقط على كرسى كان خلفه سقوط الحجر ، فزعا من أن تقع عليه العيون . وأغيث بشبه عمود من الأوراق المكدسة فوق منضدة القضاء ، فاستتر به فبلغ أمنيته وجلس يرى من حيث لا يرى ثم جعل يتمكن من نفسه

شيئا فشيئا حتى وضحت له الأمور على حقائقها ، وخرج من الذهول الى الرشد

وكان همه أن يرى جافير فرمى بصره بين الشهود فحالت منضدة الكاتب بينه وبين ما يريد ، وأعانها ذلك الظلام الذى لم ترقق من حواشيه تلك السرج

وساعة دخل كان المحامى قد فرغ من دفعه وشحذ الاسماع الى الاصغاء وقد مرت على مخاصمة المتهم ثلاث ساعات . والحضور يرون أمامهم رجلا ينوء شيئا فشيئا بثقل ذلك الشبه الغريب الذى أوشك أن يحل فى لباسه . ولقد كان الرجل مجهولا ، كان أحد أولئك البائسين الذين تنتشر على وجوههم طبقات من البله أو من تصنع البله ، فهو اما أن يكون من أشد الناس بلها أو من أوفاهم قسطا فى الذكاء

كان أفقيا قد أخذوه بفرع من التفاح الناضج اقتضبه من شجرة فى بستان « بيرون »

فيا ترى من هو هذا الرجل ؟

جرى التحقيق وشهدت الشهود وتألقت فجات من النور فى ظلمات ذلك الأفق ، أفق التحقيق

وقال الاتهام اننا لم نقع على سارق هين الأمر ، يختلس الثمر ، أو أحد أبناء السبيل ، ولكننا قد ظفرنا بمجرم فار وقبضنا على شاطر عيار من قطاع السبيل وفاتك من شر الفتاك ، ذلك « جان فالجان » الذى جد الشرطة فى تعقبه منذ عهد طويل

ذلك الذى استوفى عمر العقاب فى سجن تولون ، وقطع يوم سرح منه السبيل على غلام من سكان سافوأى اسمه « بيتى فيرجى » وقد دخلت جريمته تلك تحت طائلة المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، وانا لنرجىء أخذه بها حتى يثبت لنا شخصه . . . وقد ركب هذا الفاتك جريمة جديدة فهو اذا ممن تعودوا الاجرام . فخذوه اليوم بجريمته الجديدة

وكانت عوامل الدهش تنتاب المتهم امام هذه التهمة وذلك الاجماع من الشهود

وتبدر منه بوادر من الحركات والاشارات تأويلها النكران. فهو وان خانه النطق ، أو تعصى عليه الكلام فقد قام فى جسمه من فرعه الى عقبه خطيب ينادى : انى مأخوذ بجريمة غيرى ، وآفتى فى ذلك شبه غير ميمون

وقد وقف وقفة الأبله بين صفوف من الذكاء كأنها جنود قد اصطفت للنزال ، وقد قبضت عليه يد لا تفلته وأنشأ القضاة ينسجون له مستقبلا من خيوط الوعيد

وغبرت تمشى اليه التهمة على جسر من ذلك الشبه المشئوم ، وكان قلق الجمهور عليه أشد من قلقه على نفسه فلبثوا يتوقعون الحكم بالادانة ويطالعون له الموت من ثنايا ذلك الحكم

فياترى من كان ذلك الرجل ومن اية طينة قد ركبت تلك البلاهة ؟ أتنزل البلاهة بالناس الى هذا الحد ، أم كان ذلك من صنع المكر والخداع . أتراه قد جاز حدود الذكاء أم نزل الى أحط مراتب البله ؟

تلك أسئلة قد شطرت الحضور شطرين ، وسرت عدوى ذلك الى المحكمين ، فقد كان من أمره ما يزعج وما يشغل البال ، وما كان العجب من سوء حاله ، ولكنه كان من غموضه

جود المحامى فى الدفع وتأنق ما شاء فى تخير اللفظ وكان يخطب بلغة الأقاليم ، وهى لغة قد ألفتها المحاماة زمنا طويلا تزعم أنها اللغة البليغة ، وجرى المحامون عليها أجيالا فى باريز وفى ضواحيها من المدائن . وقد آلت اليوم الى لغة دراسية ولع بها الخطباء من أرباب المناصب كرجال النيابة واشباههم . راقهم منها لفظ يرن فى الأذن رنينا يمازجه الجد وأسلوب يمشى الى السمع مشية تصحبها الجلالة

فكانوا اذا ذكروا الزوج قالوا : «البعل» ، والزوجة قالوا :

« الحليلة » ، والملك قالوا : « « رب التاج والصولجان » ..
واذا ذكروا باريز قالوا : « أم الفنون ومهد المدنيـــة » .
فالمدعى العام فى لغتهم « خطيب الاتهام المصقع » ، والمرافعة « الصيحات التى تسمعها المحكمة » ، وعصر لويز الرابع عشر « العصر الكبير » ، والأسرة المالكة « دماء ملوكنا الكريمة » ، والقائد « الجنــدى العظيم » ، وخطأ الصحف الســيارة « الكذب الذى تنفث سمه فى أنهارها » ..

بدأ المحامى دفعه بتفسير سرقة التفاح وصعب عليه أن يمر فيه بذلك الاسلوب الرائع ، ولا عجب فقد وقع ذلك ( لبوسيه ) نفسه ، فقد أرتج عليه وهو يؤبن ميتا عظيما ففزع الى الاحتماء بوصف دجاجة سنحت له وخرج من مأزقه ذلك بين التهليل والاعجاب خروج الظافر

أثبت المحامى أنه لم يقم دليل محسوس على سرقةالتفاح لأن المتهم لم تأخذه عين وهو يظهر(١) الحائط ويعالج كسر الفرع ، ولكنه فوجىء وهو يلتقط ذلك الغصين ( وقال الغصين بتصغير غصن ، تهوينا للأمر ) واعترف بأنه وجده مطروحا على الارض فالتقطه ، ولم تأتونا بما ينقض ذلك ، ولعل احد السابلة قد مر بذلك البستان ، فتسور الحائط واقتضب ذلك الفرع ثم أحس خطرا فألقى به على الأرض ، ونجا بحشاشة نفسه

لقد وقعت السرقة ولكن المتهم لم يكن بصاحبها.انكم قد أخذتموه بسابقة أمره لأنه ممن تعودوا الاجرام ، ( وفاته أن ذلك الأمر الذى سلم به فى عرض دفاعه لم يبلغ فى التحقيق مبلغ اليقين ، فجاء ذلك التسليم ويلا على المتهم ) ثم مضى فى دفعه ، وقال : « أنه كان مقيما فى ( فافرول ) يرتزق من تشذيب الشجر وحقيقة اسمه ( شان ماتييه )وأحسبهم قد حرفوه الى ( جان ماتييه )

ثم مر بشهادة الشهود مرا ولم يدفعها ، وكان يتكىء فى

(١) يتسور

أقواله على انكار المتهم حتى انتهى الى قوله : « فلو سلمنا أنه هو « جان فالجان » ، فهـل يقوم هـذا دليلا على أنه سارق التفاح ؟ ان هى الا قرينة من القرائن ، وما أبين ما بينها وبين الدليل القاطع .. لقد أساء المتهم الى نفسه بذلك الانكار المطرد، فأنكر كل شىء ــ أنكر جرائمه وشخصيته وكل ما صوب اليه فى ماضيه وحاضره ، ولو أنه اعترف بماضيه لاكتسب بذلك عطف القلوب

نصح اليه المحامى أن يقلع عن ذلك الانكار ، فأبى وأصر وظن أنه يخرج من تبعة كل شىء اذا هو أنكر كل شىء ولا عجب فقد كان بليد الذهن ، ومر به من صنوف البلاء فى السجن وبعد السجن ما يبلد الذهن السليم ، على أن طريقته التى جرى عليها فى الدفع عن نفسه لم تكن مبررة للحكم عليه

وختم المحامى دفعه بالتضرع الى المحكمين أن ينزلوه منزلة الفار من السجن لا منزلة المجرم العائد

ورد المدعى العام على المحامى ردا رق مبناه وخشن معناه . شأن أمثاله من المدعين ، فأثنى على صدقه وأطرى منهجه وعرف كيف ينتفع بذلك الصدق ، وأخذ المتهم بنزول(١) محاميه عن التمسك بانكار شخصيته ، وسجل عليه ذلك النزول ، فأضاف الى الاتهام حجة قد دعمت من حججه ، وتدرج فى قوله بلباقة حتى وقف على منبع الاجرام وأنحى باللوم على تجرد المدرسة الروائية من روح الشرف . وكانت اذ ذاك فى فجر ظهورها وقد دعاها النقاد فى الصحف بالمدرسة الجهنمية ، وعزى ــ وهو على شىء من الحق ــ جريمة ( جان ماتيبه ) أو ( جان فالجان ) الى تأثير ذلك الأدب الخلاب الذى راع العقول

وانتقل بعد أن قضى لبـانته ونضبت مواد القول الى .

---

(١) يقال نزل عن حقه ولا يقال تنازل عن حقه ، فان التنازل لا يكون الا فى ميدان القتال أو بين اثنين

« جان فالجان » نفسه ، فأفاض فى وصفه افاضة كانت أشبه شيء بما جاء فى قصة « تيرامين » ولم يكن لذلك القول مكان فى تلك المأساة ، ولكنه أسلوب طالما لجأت اليه البلاغة القضائية

وما زال يقرع الأسماع بتلك القوارع حتى أدخل الرعب على نفوس القضاة والحضور ، ومر المدعى فى رده بتلك الكلمات الخلابة التى استثارت فى صباح المخاصمة حماس الصحيفة الوحيدة التى كانت تظهر فى سماء تلك المقاطعة

وكان مما قال فى « جان فالجان » : « رجل شأنه ذاك طريد جوال . لا مرتزق له . تعود الاجرام ، ولم تفلح السجون فى تقويم اعوجاجه وتنقية نفسه . فلقد جنى يوم خرج منها على الغلام « بيتى فرجى »

وقبض عليه بعد ذلك متلبسا بالسرقة على قيد خطوات من الحائط الذى ظهره ، وفى يده ما سرق ، فأنكر التلبس والتسور والسرقة ، وانكر حتى شخصيته وفى يدنا مائة دليل ودليل على ذلك ولا نريد سردها ــ دع أربعة من الشهود على رأسهم جافير كبير الشرطة ولا تسألوا عن نزاهته ، وثلاثة من أخدانه فى الاجرام ، فكيف يدفع اجماعهم على معرفة شخصه ، ان هو الا رجل جامد الشعور ، غليظ الكبد

وقد كان المدعى يخطب والمتهم ملق بسمعه وقد فغر الدهش فاه ونال منه العجب مما يسمع ــ وكان يحرك رأسه يمنة ويسرة كلما اشتدت لهجة الاتهام فى تلك المواطن التى تعجز فيها البلاغة عن امساك سيلها ، فيترامى بموجات من سب وتحقير ، كانت تلف المتهم لف العاصفة . وكان فى حركات رأسه تلك ، ضرب من احتجاج فصيح فى صمته بليغ فى حزنه

وقد لفت المدعى القضاة الى ذلك الموقف موقف البله الذى اخذ المتهم نفسه بتمثيله ليخدع القضاء ويستنزل

الرحمة ، فلم تجز حيلته علينا وكشفت لنا عما كان يخبئه في غور قلبه من خبث لا أمد له ، وختم قوله بطلب الجزاء العادل . ثم وقف المحامي وهنأ المدعى ، واطرى خطبته التى جازت حد الاعجاب ثم القى بكليمات حضرته واخذ يتضعضع حتى فقد كل تكأة له ، وحتى شعر كأن الارض تميد تحته ميــدانا

وحانت ساعة انتهاء المخاصمة فاومأ الرئيس الى المتهم بالوقوف ، وسأله السؤال المألوف ، أعندك ما تقول ؟ فوقف وهو يلاعب قلنسوته بيديه وكأنه لم يسمع . فأعيد السؤال واظنه سمع فى هذه المرة ، فقد رؤى فهمه فى عينيه وكان كمن استيقظ من سبات

فجعل ينفض عنه الكسل ويدور بنظره يحدق فى الحضور حتى وقفت عينه على المدعى العام ، فانفجر بالكلام انفجار البركان ، وقد كان الكلام فى فيه يكاد يقتتل اقتتالا ، يستبق الخروج بعضه البعض :

ــ كنت عاملا فى صناعة النحاس فى باريس لدى السيد « بالو » وكان العمل شاقا . يعمل العامل طرفى النهار فى هواء طلق فى أفنية البيوت ، أو حجر مستطيلة سقوفها من الخشب ، ولا يتاح له أن يعمل مرة فى مصنع مقفل لا يأذن للهواء . فاذا كان الشتاء ووجد العــامل منــا مس البرد وتخوف على أعضائه اليبس ، نزع الى تحريكها فترة من الزمن التماسا للدفء ، فيحفظ(١) هذا اصحاب المصنع علينا ويقولون انه وقت ضائع .. وما ظنك بعامل يصهر الحديد وهو على أرض من الثلج ؟ ان هذا الا فناء عاجل . فترى العامل وقد أخلق كما يخلق الثوب ، ولبس فى صباه لباس الهرم

ولا يكاد يدرك الأربعين حتى تدركه السن فتنزف قواه

---

(١) يغضب

ويرغب عنه ويمسى سخرية لشرار العمال ، فينبزونه بأقبح الألقاب . فكانوا يدعونني وقد طويت الثالثة والخمسين بالشيخ الأبله والعجوز العاجز

وكانت وظيفتي في يومى ثلاثين صلديا . وما حط من أجرى فى دعواهم غير السن . وكانت لى ابنة تكدح هى الاخرى فى طلب العيش فتعالج غسل ثياب الناس . فكان جهدنا يفيء علينا بعصارة تمسك الحياة. تبذل يومها فى الكد ما تتقى المطر بسقف يحجبها أو ثوب يسترها ، جاثمة فى مهاب الانواء . وكان عليها أن تغسل ولو جمد الماء . . فان من الناس من لا يجد لباسا غير جلده حين يخرج من ثوبه لغسله ، فلا يزال قائما على يديها يتنجزها فاذا أنس منها تريثا أو وجد تعللا ، عدل بالثوب الى سواها . فما فتئت المسكينة تطوى ساعاتها مضطربة فى المغاسل بين الحار والبارد — دع ما كانت تعانى من مضارة زوجها لها ، حتى أتى على نفسها الشقاء

ثم أمسك عن الكلام وقد كان يهدر بصوت جهير أبح أجش ، وكنت تطالع فى جفوة لفظه وثورة قوله ، سلامة الضمير ونقاء الجنان

وقد انتابه فواق(١) كان يحبس أنفاسه ، فجعل يستعين على تأدية ما فى نفسه بحركات كنت تخاله معها حطابا يشق جذعا من الجذوع . وما كاد ينتهى حتى أغرب الجمهور فى الضحك،فلبث ينظر اليهم وهو يجهل مثار ذلك — وما نشب ان فعل شرواهم (٢) وشاركهم فى ضحكهم ، فكان مشهدا مؤثرا تعلوه الكآبة . فصاح الرئيس وكان يقظا رحيما ، فذكر المحكمين أن السيد ( بالو ) الذى فزع المتهم الى شهادته لا يعلم له مقر منذ أفلس واختفى . ثم التفت الى المتهم وقال له : « أعرنى سمعك واعلم أنك فى موطن أنت فيه

(١) الزغطة (٢) أى مثلهم

أحوج ما تكون الى التفكير ، فقد انصبت عليك الشبهات ، وقامت حولك دلائل لا تلبث أن تجرك الى سوء المصير . فأجب اجابة صريحة عن أمرين : هل ظهرت حائط البستان واقتضبت فرع التفاح ؟ هل أنت جان فالجان ؟ »

فحرك رأسه حركة تعرب عن فهم ما ألقى عليه ، واتجه الى الرئيس وقال :

« أما عن الأمر الأول » ثم سكت والقى بنظرة على قلنسوته،وأخرى على السقف ، فحمى المدعى العام وقال له :

«ويل لك ! مالك لاتجيب على ما يلقى عليك ؟ ان اضطرابك ليدينك فلست بجان ماتييه كما تحاول أن تكون ، وانما أنت ذلك المجرم الفار جان فالجان . فقد ذهبت الى ( افرون ) وولدت فى ( فافرول ) وكنت بها مشذبا للشجر ، وظهرت حائط بستان ، واقتضبت منه فرعا من التفاح ، وللمحكمة تقرير مصيرك »

وكان المتهم قد أهوى على مقعده تخاذلا ، والمدعى يخطب حتى اذا انتهى من خطابه استوى قائما وصاح به :

« ما أخبثك أيها الرجل ! وهذا كل ما أريد أن أقوله لك، وقد كان يعوزنى القول

« لست من السرقة ولا أنا بذلك الرجل الذى يصيب ما يتبلغ به فى كل يوم .. اننى أتيت من ( الى ) فخرجت أضرب فى البلاد غب سماء (١) وقد كسا الغيث وجوه الارض ببساط من الرمل الأصفر ، هاجه الحاج السيل من بطون المناقع (٢) وطمر به الزرع حتى ما تقع العين على غير أعواد دقيقة من الحشائش على عطفى الطريق . وكنت التقطت من الارض فرعا مهشوما به تفاح ـ التقطته وما كنت أدرى أننى التقط الشقاء . وقد لبثت فى السجن ثلاثة أشهر ، وأنا أنقل من مكان الى مكان ، وهذا مبلغ ما عندى من القول

---

(١) أى عقب مطر (٢) المستنقعات

« انهم يرمونني بالتهم ويطلبون منى دفعها ، ويدفعنى الحارس على طيبة فيه الى الكلام ، يغرينى بذلك همسا ، وانا لا ادرى كيف أفصح عما فى نفسى . انني لم أصب من العلم ولم يثقفنى مثقف ، فأنا فقير الادراك ، ولكنهم قد أغمضوا العيون عن ذلك فأخطأوا حقيقة أمرى

« أف لكم ! لقد ذهب بكم المكر الى حد اقطع بمعرفة المكان الذى ولدت فيه . على أنى لا أزال أجهل مولدى وليس لكل من يهبط الى هذه الدنيا بيت يولد فيه ، ولو تهيأ ذلك للان العيش وطابت الحياة ، وأكبر ظنى أن والدى قد كانا من أولئك الذين يعيشون فى الطرقات والمسالك

« وجل ما اذكره أننى كنت أدعى وانا حدث ( بالصغير ) واليوم أدعى ( بالشيخ ) ولا اعرف لى اسما غير هذين ، فأولوا قولى ما بدا لكم أن تؤولوا

« ولا أكذب الله فقد كنت فى (الافرون) وكنت فى (فارول) وليس من الحتم أن من كان فيهما يكون من اهل السجون . لقد أعنتمونى بترهاتكم ، فعلام يتعقبنى الناس كما يتعقب الموتور واتره ؟! »

فاتجه المدعى العام الى الرئيس وقال :

« لقد أحكم المتهم تمثيل ما أخذ نفسه به من التبله ، يحاول ايهامنا انه أبله ، ولكنه يعالج المحال بذلك الانكار ، وأظن أن المحكمة لا ترى بأسا فى مواجهته بالشهود مرة أخرى ، وسؤالهم على مسمع منه »

فقال الرئيس : « انى أذكر المدعى العام ان جافير وهو كبير الشرطة قد دعاه عمل من أعماله فى المقاطعة المجاورة فأذنا له بعد الشهادة ، وكان ذلك بين سمع المدعى وبصره والمحامى عن المتهم شاهد غير غائب ، وما ارتفع منهما صوت بالاعتراض »

فقال المدعى : « لم يغب عنى ذلك ولكنى أذكر المحكمين ان جافير قد شهد قبل ذهابه شهادة لا يزال اثرها فى النفوس

وجافير رجل قد تعالم الناس صدقه ونزاهته وانى لملق عليكم بما قال :

« لست فى حاجة الى اقامة البراهين المحسوسة أو الادلاء بالحجج الملموسة ، فانى أعرف هذا الرجل حق العرفان ، فما هو ( بجان ماتيه ) كما يزعم وانما هو ( جان فالجان ) ذلك الفتاك العيار ، والمجرم الأثيم ـ سرح من السجن بعد أن انطوى أجل عقابه ، فخرج منه والعدل فى أسف على خروجه

«لقد قطع فى السجن تسعة عشر عاما عالج فى مداها الهروب مرارا . وسطا بعد ذلك على غلام صـغير ثم ظهر حائط بستان ، وأكبر ظنى أنه سرق آنية ذلك العابد الكريم ليلة آواه فى مدينة « دنى » وأذكر أننى رأيته فى سجن تولون أيام كنت أقوم بعمل الشرطة هناك . فأنا به أعرف من أمه التى ولدته »

وفعلت تلك الشهادة فى نفوس الحضور فعلها ، والح المدعى على أثرها بطلب الشهود فألقى الرئيس كلمة على أحد الحجاب فانطلق يعدو . وما هو الا أن غاب حتى فتح باب قاعة الشهود ورمى الحضور برجل بين رجلين. واذا الحاجب ومعه حرسى من الأحراس يقودان ( بريفيه ) احد الشهود الثلاثة وكان من عتاة الأشرار وقد كره الحاجب أن يصحبه وحيدا فاستظهر(١) عليه بأحد الأحراس . فدخلوا وقلوب الحضور تخفق خفقة قلب واحد

وكان ( بريفيه ) مجرما عريقا قد جاز الستين تلوح عليـه سيما الأنذال وترد عليك منه سحنة المتهالكين على ذات(٢) اليد . وهما خلتان قد تكون بينهما رحم ، وقد غير منـه ما كابده فى السجن من الأذى حتى قال الموكلون به انه يريغ (٣) أن يكون رجلا نافعا ، وأثنى المتصدقون على خلال تعبده

---

(١) أى استعان (٢) المـادة (٣) اى يحاول

ولكن يجب أن نذكر أن ما ظهر من الانقلاب فى طباع هذا المجرم انما وقع فى عهد العودة ، عودة البربون

فقال له الرئيس : « بريفيه ، انك رجل قد ركبت من المنديات ما سجله عليك القضاء ، فأصبحت غير أهل للحلف غير أنك وان جردتك من ذلك يد العدل ، فقد أبت رحمة الله أن تقفر نفسك من الشرف والانصاف ، فحبتها مزقة منهما ، فأنا أستحلفك بما بقى فى نفسك من ذلك الحباء ان كان له كما أرجو بقية ، وأريدك على أن تتبصر قبل الجواب فى هذه الساعة الحاسمة . فكلمة منك تطيح بحياة هذا الرجل وأخرى منك تنير لنا منهج العدل ولا يضيرك أن تخرج من موقفك هذا اذا بدا لك أنك تكن على الحق »

ثم صاح بالمتهم أن قف وقال لبريفيه : « انظر اليه واجمع أشتات ذكرياتك وانطق بوحى نفسك اذا كنت لا تزال مصرا على أن هذا الرجل لم يكن غير ( جان فالجان ) رفيقك فى سجن تولون »

فأجاب ( بريفيه ) وقد ألقى نظرة على الجمهور : « انى أول من عرفه فهو ( جان فالجان ) رفيقى فى سجن تولون

« دخل فيه سنة ١٧٩٦ وخرج سنة ١٨١٥ . وقد سرحت بعده بعام واحد ، وانى أراه يتباله منذ اليوم . ولعل ذلك من فعل السن ، ولقد كان فى السجن ساهى الطرف كثير الاطراق »

فأومأ الرئيس اليه بالجلوس ولبث المتهم واقفا

وجيء بالشاهد الثانى ( شنيل ديفيه ) وكان لا يزال فى لباس المجرمين ، وقد أشخص من السجن للشهادة

وكان قصيرا خفيف الحركة ، ضئيلا ، كثير تجاعيد الجبهة ، أصفر اللون ، حاد الوجه اذا رأيته رأيت شبه محموم ، نحيل الأعضاء ، مضعوف الجسم قد ركبت فى رأسه عينان تقرأ فيهما آيات القوة ، وكان رفاقه فى السجن يلقبونه بـ ( أنكر الله )

فألقى عليه الرئيس تلك الكلمات التى ألقاها على سابقه وحين ذكره بما كان من ماضيه الذى سلبه حتى حق الحلف رفع رأسه وحدق فى وجوه الحضور

فقال له الرئيس : «ألا تزال مصرا على معرفة هذا الرجل ؟ »
فقهقه الشاهد وقال : « كيف لا أعرف رجلا سلكت معه فى سلسلة واحدة بضع سنين ؟! »

وجىء بالشاهد الثالث « كوش باى » وكان مجرما قد حكم عليه بسجن الأبد وهو فلاح من ( لورد ) كان يرعى القطعان فى رؤوس الجبال ، ثم حال الى قاطع سبيل ، وكان فى معارف وجهه ما ينطق بأنه يفوق المتهم بلها ، وهو من أولئك الذين بنيت طبيعتهم بناءة الضوارى فنبذهم المجتمع وقذف بهم فى بحور السجون . فحرك منه الرئيس بكلمات قاسية ، وألقى عليه قولا ثقيلا ، ثم سأله السؤال المعهود . فأجاب المتهم : « هذا هو جان فالجان وكنا ندعوه لفرط منته(١) بجان لجريك »

ففعلت تلك الشهادة فعلها فى الحضور وزاد فى أثرها ذلك الوضوح الذى ألبسها لباس اليقين

فضاقت القاعة بأهلها وسرت فيها همسات الأسف على المتهم ، ثم جعلت تشتد وتمتد كلما ألقيت شهادة من تلك الشهادات

وكل هذا والمتهم ملق بسمعه وهو ساهم الوجه سادر النظر ، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان يحرك عند انتهاء الشهادة رأسه ، ويقول على مسمع الحرس : « شىء حسن » . فقال له الرئيس : « ما قولك ؟ » قال : « شىء حسن ! »

فعلا الضجيج فى القاعة وضج حتى المحكمون وقالوا : « هلك والله الرجل ! »

---

(١) المنة القوة

فصاح الرئيس بالحاجب أن ادع الناس الى السكينة . وعلى أثر ذلك سرت حركة بقرب الرئيس وارتفع صوت ينادى : « انظروا هنا أيها الشهود »

فملك السامعين الروع وهالهم ذلك الصوت الجهير الذى كان ينبعث من ذلك الحلق الحزين

فالتفتوا الى مصدره فاذا بهم يرون رجلا قد خرج من صفوف الخاصة الجالسين خلف القضاة ووثب الى وسط القاعة . وما هو الا أن تراءى حتى صاح الرئيس والمدعى العام وصاح لصياحهما عشرون صوتا : « السيد مادلين ! »

وما كان الا هو وقد أضاء وجهه المصباح المنصوب على منضدة الكاتب ، فوقف وقلنسوته فى يده . وهو فى لباس لم يتطرق اليه العبث

وكان أصفر اللون قد سرت به هزة وحال لون شعره فقد دخل مدينة آراس وشعر راسه أرمد(١) فلم يكد يطوى بها ساعة حتى صاح به المشيب ، فشاب الرجل فى مدى ساعة واحـدة

فاشرأبت الأعناق وتطلعت النفوس وشحذ الشعور ومرت بأهل القاعة فترة من الحيرة ، وحق لهم أن يحاروا ، فقد سمعوا صرخة نفس ثائرة ، ورأوا أمامهم رجلا هادىء الطبع ساكن الجأش ، فلم يقع فى نفوسهم أن هذا الواقف المتمكن من نفسه هو صاحب تلك الصرخة المروعة

ولم يكن اجل حيرتهم طويلا فقد اتجه الرجل الى الشهود وناداهم بأسمائهم وصاح بهم : « أتنكرون هذا الوجه ؟ »

فعل ذلك قبـل أن ينبس الرئيس بكلمة ، أو يتمكن الحرس من الحركة

فبهت الذين شهدوا وأنكروه بايماءة من الرؤوس . ثم التفت الرجل الى المحكمين ، وقال : « سرحوا هذا المتهم وخذونى فأنا جان فالجان »

---

(١) اى بلون الرماد

فعلقت الأنفاس وأخذت القوم رجفات الدهش ثم علاهم خشوع البلى ، وكأنهم عوجلوا بقارعة سماوية فملكهم الفزع الأكبر ، وكذلك تفعل جلائل الخطوب وعظائم الأمور

وانتشرت على وجه الرئيس طبقة من العطف والحزن معا ، فرمى المدعى بنظرة عجلى وهمس فى آذان الجالسين معه للقضاء ، ثم رفع رأسه يخاطب الجمهور : « ابغونى طبيبا » وقال المدعى : « هذا السيد مادلين قد نزل به ما نزل وانا لنجد(١) له وجدا شديدا ، ونعلم أنه نبيل القدر زكى المشاعر ، فاذا راى الرئيس أن يأمر بحمله الى داره »

فابتدر مادلين الكلام وقاطع المدعى بصوت يمازجه السلطان ، ونطق بكلمات نثبتها هنا ولا نخرم منها حرفا ، فقد وعاها أحد من شهدوا الحادث ودونها على أثر انطوائه ، وقد مر بها أربعون عاما وهى لا تزال فى آذان من بقى حيا من أولئك الشاهدين :

« أشكر لك أيها المدعى ، فما انا بمجنون كما تزعمون . انكم على وشك أن تضلوا ، فسرحوا هذا المتهم وخذونى فأنا المجرم الذى تنشدون

« وليس هنا سواى من ينظر بغير غطاء ، فهاكم الحقيقة خالصة غير مشوبة

« انى وقفت هذا الموقف لذات الله العلى ، وهو حسبى فخذونى . فقد طبت بذلك نفسا

« انى أردت الحسنى فتنكرت حتى أثريت ، وأصبحت شيخا لمنتراى سيرمير ، والقيت بنفسى بين الأخيار ، فلم يفسح لى الحظ بينهم مكانا ، فجئت وفى النفس أشياء لا يسعنى سردها ، فلا أثقل عليكم ببسط ما صنعت فى أيام توبتى فان الغد ببسطه كفيل

« انى سرقت مولاى العابد وسطوت على ذلك الغلام

---

(١) اى نحزن

الصغير ، فحق لهم أن يصموا جان فالجان بأنه فاتك أثيم ، وما كان له الخطء(١) كله وان كان من الخاطئين — وليس لحقير مثلي أن يعترض على العنـــاية أو ينصب نفســه لمناصحة الناس ، ولا أكذب الله ، فأن العار الذى عالجت نضحه عن نفسى كان أمرا ادا

« ولا يفوتنكم فى هذا الموطن أن السجن قد كان لى شر أستاذ ، فهو يخبث النفس ، ويمزق شمل الفضيلة ، ولقد صدق من قال : « ان السجون تخلق الأشرار »

« فلقد كنت قبله فلاحا قدما (٢) فأطلع منى السجن شريرا ، وكنت عودا من الحطب ، فصيرنى شعلة ، ثم ردت الى الرحمة ما سلبتنيه القسوة ، فنجوت بنفسي ، ولكن بعد الفوت . فاذا دق عن أفهامكم ما ألقيه الساعة عليكم ، فهناك فى رماد المدفأة تجدون القطعة الفضية التى سلبتها من ذلك الغلام

« واليك أيها المدعي أسوق الكلام ، انى ليعرض لى أنك غير مصدقى ، وأقرأ ذلك فى حركات رأسك ، فأناشدك الله ألا تأخذ هذا المتهم . الويل لى ! أليس هنا من يعرفنى ؟ انى ليحزننى غياب جافير ولو كان حاضرا لوضح الحق »

□

ليس فى طوق كاتب أن يصور ما كان فى كلمات هذا الرجل من نبرات الكآبة ورنات الأسى التى كانت تصحبها عبقة من الحسنى . ثم انفتل الى الشهود الثلاثة ، وقال : « بريفيه ألا تزال تنكرنى ؟ »

فاعترت بريفيه الرعدة وجعل يصعد فيه بصره ويصوبه، ومر الرجل فى كلامه فقال : « ياشانيلديوه ، ألست كنت تدعى فىالسجن بـ ( أنكر الله ) ؟ ولي فيكآية . . حرقبكتفك اليمنى ، حاولت أن تمحو به الثلاثة الأحرف التى وسمت

(١) الذنب (٢) الفدم الساذج

بها ، فلم يغن ذلك عنك شيئا ، وثبتت الأحرف فى مكانها . أرأيتك ؟ ألم أقل حقا ؟ » . . . قال : « بلى ! »

ثم تحول ذلك المسكين الى القضاة والحضور وعلى فمه بسمة ما ذكرها رائيها الا وجد لها غمزا على قلبه ، بسمة قد جمعت بين حلاوة الظفر ومرارة القنوط

فذهب بأهل القاعة وحالوا الى عيون تنظر ، وأفئدة تخفق . فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ، ولا تلمح أشراطا ولا مدافعين ، وقد أنسى كل غرضه : نسى الرئيس أنه جاء للرياسة ، والمدعى أنه قام للاتهام ، والمحامى أنه مثل للدفع ، والحرس أنهم أقيموا للحراسة ، فلم ينبس خلق بكلمة ، ولم يفزع ذو سلطان الى سلطانه

ولا عجب فان للمشاهد السامية خواص تملك على رائيها المشاعر وتحيل شهودها الى نظارة(١) يخرج بهم فرط ما هم فيه عن حد الشعور ، فلا يكادون يتساءلون حتى فى أنفسهم عن مأتى ذلك اللألاء الذى يذهب سناه بأبصارهم ، فهم فى داخلهم مأخوذون برائع ما يشاهدون فى خارجهم

وضح الصبح وتكشفت ظلمة الشك عن جان فالجان فأنار ظهوره السبيل ، وكشف عن ذلك الحادث ، وأدرك ذلك الحفل الحاشد ما كان من حقيقة الأمر ــ أدركه بأسرع من خطفة البارق أو نبضة الكهرباء

رجل يفتدى بنفسه رجلا آخر ــ لله ما أنبل هذه النفس

ثم قال الرجل : « اننى لا أريد أن اطيل عليكم أمد ما أنتم فيه فقد عزمت على الذهاب لأنهم يأبون أن يأخذونى ؛ وعندى ما يدعونى الى الرجوع ، والمدعى العام يعرف من أنا ، ويعرف أين يجدنى متى حلا له ذلك »

قال ذلك وغبر يمشى الى الباب بقدم مطمئنة ، فما رفع صوت ولا امتدت ذراع لسد سبيله ــ مشى وقد حل فيه

---

(١) المتفرجون

خفى من العناية ما حل فى انسان الا تراجعت أمامه الصفوف واصطف الوقوف

فلما بلغ الباب وجده مفتوحا ، فالتفت الى المدعى وقال : « أنا رهن أمرك » . وعطف قائلا :

« أيها الحضور الا ترون أنى جدير بالرحمة ، ولعلى كلما فكرت فى أنى كنت على وشك القيام بهذا الصنيع وجدتنى حقيقا بالغبطة »

ثم خرج فصفق(1) الباب كما فتح ـ ولا يعدم صاحب العمل الجليل أن يجد له فى المجتمع نصيرا

وعاد القوم بعد فترة الى انفسهم ، فأمر المحكمون بتسريح « جان ماتيو » فخرج وهو يقول فى نفسه : « ما أشد جنون هذا الناس ! فانى لا أكاد أفقه شيئا من جميع ما مر بى فى هذا الحادث . . »

## « عود الى فانتين »

تنفس الصبح فقامت فانتين ، وكانت قد سهرت الليل كله ، ولزمتها الحمى فحمة ذلك الليل ، وكانت تلمح من خلال آلامها صورا من وجوه السعادة بقرب طفلتها ـ فانتهزت الراهبة نهزة نومها وكانت قد ساهرتها وخرجت تهيىء لها جرعة من الكينا . وبينا هى عاكفة على عقاقيرها وقواريرها وقد ألقى الشفق على الارض ضبابا يقصر فيه قاب العين ، واذا بها قد التفتت التفاتة أوشكت معها أن تصيح

رات مادلين وهو منها أدنى شىء ، فصاحت : « أسيدى الشيخ أرى ؟ »

فقال : « نعم ، وكيف حال المريضة » قالت : « ليس بها الساعة من بأس وقد كنا نتوقع لها بالأمس شرا » ، ثم أعلمته علمها وقالت : « ولولا أن فكرة رفهت عنها لما طلع عليها هذا الصباح ، فقد حملت غيابك على الذهاب لتفقد طفلتها »

---

(1) صفق الباب اى رده

ولم تجرأ الراهبة على سؤاله أين كان ؟ ولكنها لم يغب عنها أن ملامحه لم تكن تنطق بأنه قادم من ذلك الوجه

فقال لها : « أحسنت فى تركها على زعمها » ، فقالت : « وما عسى أن تقول لها اذا رأتك وحيدا ؟ » قال : « ان الله يلهمنا الجواب »

وكان الصبح قد وضح نوره ، فرات الراهبة فى مادلين ما راعها ـ رأت شعره الأرمد ، قد حال كله الى شعر أبيض . فصاحت به : « أى خطب نزل بك فشيبك ؟! »

ثم وافته بمرآة صغيرة كان الأطباء يستخدمونها فى التحقق من الموت ، يضعونها على فم المريض فتكدرها أنفاسه ان كان لا يزال حيا . فأخذها مادلين ونظر فيها نظرة ، وقال : « حسن . . ! »

فجمدت الراهبة فى مكانها وعطف مادلين قائلا : « أليس من الميسور ان أراها الساعة ؟ » فقالت : « انك لم تأت بطفلتها فخير لها ألا تعلم بقدومك ، ومتى جئت بها علمت من نفسها بأن غيابك انما كان لذلك ، فتنجو المريضة من آلامها وننجو نحن من نسج الكذب »

فلبث غير بعيد ثم قال بلهجة الجاد الساكن : « أريد أن أراها الساعة فربما كنت عجلا » ، فلم تفطن الراهبة لما كان فى كلمة « ربما » من المعنى الغامض الغريب فغضت من بصرها وقالت محتشمة : « ليدخل سيدى وليعلم انها نائمة »

فتقدم الى(١) الخادم باصلاح باب لم يكن مطمئنا فى مكانه، كراهة ان تتأذى المريضة بصريره . ثم دخل مخدعها وهو يخافت من مشيته ودنا من سريرها وفرج عنها الستائر فاذا هى نائمة . وكان نفسها يشخص من صدرها شخوصا يبعث الأسى . وتلك آية ذلك المرض العضال التى طالما فجعت نفوس الأمهات السواهر على أولادهن الذين أبرم فيهم حكم الموت

---

(١) تقدم الى أى أمر

وكان هذا التنفس الشاق يكدر ذلك الصفاء العجيب المنبسط على وجهها ــ ذلك الصفاء الذى كان يبدل فى نومها من مرأى ذلك الوجه ــ وكان اصفرارها قد بلغ حد البياض وأمست خدودها قرمزية ، وكانت أهدابها الطويلة ( وهى البقية التي بقيت من جمال البكارة والشباب ) لا تزال تختلج فوق ذلك الطرف الساجى . وقد اهتز جسمها من فرعها الى قدمها ، كأن أجنحة خفية قد ركبت فيه وأوشكت أن تنشر للطيران . حتى ليخيل للناظر اليهـا أنه يحس ترويحها وان لم تقع عليها عينه

فلا يقوم بنفسه أنه يرى مريضة قد يئس منها ــ فهى الى من يصوع (١) للطيران أقرب منها الى من ينهيأ للنزول الى القبر

ألم تر الى الغصن كيف يضطرب كلما امتدت يد لقطف زهره ــ ألا يلوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه وكأنه يختلسها فى آن ، فهو يعطى ويمنع فى وقت معا ؟

كذلك الجسم البشرى فقد تنتابه تلك الهزات حتى تحين الساعة التى تمتد فيها يد الموت الخفية لاقتطاف (٢) الروح

وقف مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعض الأنصاب وجعل يتنقل ببصره بين المريضة والصليب كما كان يفعل منذ شهرين ، ليلة زارها للمرة الأولى . وكان المنظر واحدا فى جميع وجوهه الا أن شعره فى هذه المرة كان قد عمه الشيب

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها كما ذكرنا واصبعه على فمه كأنه يأمر أحـدا بالسكوت . ففتحت المريضة عينيها وسألته سؤال العطيف وهى تبتسم : « أين كوزيت ؟ »

---

(١) صوع أى تهيأ للطيران

(٢) اقتطف مثل قطف وقد إنكرها بعضهم حتى وجدناها فى شعر الأعشى فى الجاهلية وفى شعر جرير فى الاسلام فهى عربية بدوية ، قال الأعشى :

لمـا أمالوا الى النشـاب أيديهم     ملنا ببيض فظل الهمام يقتطف

قالت ذلك وما أخذها دهش ولا استخفها فرح ، فقد كانت هى الفرح بعينه ، وعجيب أن يفرح الفرح

ألقت هذا السؤال : « أين كوزيت » وليس فى نفسها ظل للشك ولا فى خاطرها جولة للقلق ، فألجم اليقين المتجلى فى ذلك السؤال ، لسان مادلين فلم يحر جوابا

ثم مرت فى حديثها : « لقد كنت عالمة بوجودك رغم سلطان النوم ، وكانت عيناى تتعقبانك أنى سرت ــ رأيت كأنك كنت محلقا فى سماء من المجد يطيف بك نور سماوى . على أنى أعاودك السؤال : « أين كوزيت ؟ » لم لم تنمها بجانبى حتى اذا ما فتحت عينى فتحتها على تلك الطلعة البهية ؟ »

فأجابها بكلام لا يرتاح له العقل ثم لم يلبث أن نسيه على أثر القائه . وأغاثه حضور الطبيب الذى ابتدرها عند دخوله بقوله : « اهدئى فان ابنتك هنا » . فبرقت عيناها بريقا أضاء وجهها وضمت يديها ضمة تمثل فيها أجلى معانى التضرع الى الله وأحلاها . ثم صاحت : « الى بها » وكانت تظن أنها لا تزال طفلة تحمل ــ وهم من أوهام الامهات مبعثه العطف والحنان

قال الطبيب : « لم يحن الوقت فانك لا تزالين فى بقايا علتك ، فلا آمن عليك صدمة اللقاء . فمتى أبللت جئناك بها » . فقاطعته بحماسة : « لقد شفيت وأعيد عليك القول أنى شفيت ، فيا لله ما أحمق هذا الطبيب فانه يريد أن يحول بينى وبين ابنتى ! »

فقال الطبيب : « أرأيت كيف غلب عليك الغضب ؟ وما دام هذا شأنك ، فلا سبيل الى رؤيتها أو تملكى صوابك »

فطأطأت رأسها وقالت وفى صوتها رنة من الأسف : « انها حمقة أرجو ان تغتفرها لى ، ولا تنزل أمرى على الجرأة عليك ، فتأخذنى بما سبق به لسانى . فلقد خرج بى ما أنا فيه عن حد الرشد . فان كنت تخشى على مغبة اللقاء فأنا صادعة بأمرك ، صابرة مع الرضى ، مرتقبة ذلك الوقت

الذي يؤذن لي فيه برؤيتها . . على أن رؤية ابنتي لن تحدث في نفسي ما تتوقع أنت حدوثه ، وغايتي أن احدثها الساعة بعض الحديث . لقد رأيت الليلة صورا بيضاء ولمحت أناسا يبتسمون لي ـ وها أنا ذا استشعر العافية وأحمد الله فقد مسح ما بي من الألم . ولكني سألبث مكاني كأني مريضة امضاء لأمرك وارضاء لهؤلياء الأخوات المقيمات هنا ، حتى اذا آنسوا مني السكينة وتيقنوا من ابلالي جاءوني بابنتي »

جلس مادلين على كرسي بجانب السرير فحولت وجهها اليه وهي تغالب كيد الألم ويغالبها لتظهر بمظهر السكينة وتدعو القوم الى تذليل المصاعب التي يقيمونها في طريقها لرؤية طفلتها . ولكنها على تجلدها لم تقو على الامساك عن سؤال مادلين ، فألقت عليه ألف سؤال وسؤال :

« لعلها سفرة ميمونة

« لله ما أنبل نفسك فقد أنقذت طفلتي

« خبرني بربك أكانت جلدة على المسير

« أتراها تنكرني عند اللقاء ، فقد طال عهدها بي

« ان الأطفال كالأطيار لا يكادون يذكرون في يومهم ما رأوه بالأمس

« ترى كيف كان لباسها وغذاؤها في ذلك النزل

« لقد كانت تؤلمني ذكرى ذلك في أيام بؤسي ، أما اليوم فقد أصبحت بفضل حدبك (١) عليها قريرة العين رخية البال

« ألا يتسنى لي أن أراها الساعة

« ألا ترى أنها جميلة

« ألا تأذن لي برؤيتها ؟ وان لم تفعل فمن ذا الذي يأذن لي سواك »

فأخذ مادلين يدها بين يديه وقال لها : « ان كوزيت

---

(١) الحدب الحنان

مثال للصحة والجمال وسترينها بعد قليل فاهدئى واسترى ذراعيك بغطائك عسى أن تخف وطأة السعال »

وكان سعالها يزحم دفاعه فى حلقها كل كلمة من كلماتها

فلم تبد فانتين شيئا من التململ خشية أن تزلزل كل آهة من آهاتها تلك الثقة التى تحاول بثهـا فى نفوسهم ، فجعلت تفوه بأقوال لا تنم على الألم

كل ذلك ومادلين ممسك بيدها ، ونفسـه تكاد تسيل جزعا

خرج الطبيب وبقيت الراهبة فى مكانها وقد خيم عليهم السكوت ، فمزقته فانتين بصيحة : « انى أسمعها .. انى اسمعها » . ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالاصغاء ، وعلقت انفاسها وجعلت تسمع

كان فى الفناء ولد يلعب ــ ولد البوابة أو ولد من شئت من العاملات

تلك احدى المصادفات التى ما زال الانسان يجـدها فى ثنايا الحوادث المحزنة ، كأنما هى جزء مما تهيئه يد الغيب من عدد التمثيل على مسارح تلك الحوادث

وكان هذا الولد صبية تذهب وتجىء وتجرى دفعا لغائلة البرد وتلمسا للدفء ، وهى تضحك وتارة تغنى ــ وكذلك كان

وأى شىء من الأشياء قد خلا من أن تشوبه شائبة من لعب الاطفال

تلك هى الصبية التى سمعتها فانتين وظنتها « كوزيت» وصاحت : « تلك هى بنيتى وذلك هو صوتها » !

وانقلبت الصبية من حيث أتت وغاب صوتها ، فلبثت فانتين فترة وهى ملقية بسمعها ، ثم فارق وجهها الاشراق، وقالت بصوت سمعه مادلين : « قاتل الله الطبيب فقد حال بينى وبينك »

وبعد قليل عاودها أملها البسام ، فأنشأت تحدث نفسها وراسها مطروح على الوسادة :

« سنصبح من السعداء ، ويكون لنا بستان جميل ، تمرح فيه كوزيت وتجرى على الأعشاب تطارد الفراش فاذا شبت وبلغت سن التناول . . . (١) ولكن متى تبلغ هذه السن ؟ » ثم جعلت تعد على أصابعها ، وتقول : « انها اليوم فى السابعة من عمرها » وبعد خمس سنين يكون لها قناع أبيض ، وتبدو فى هندام الفتاة !

« لله ما أحمقنى فانى أفكر فى الشىء قبل أوانه » ثم أخذت تضحك . . وكان مادلين يصغى الى تلك الكلمات وكأنه يصغى الى هبات النسيم ، وقد غض بصره وغاص فكره فى تأملات لا قرار لها

وانقطعت فانتين بغتة عن الكلام فنبه ذلك مادلين فرفع رأسه فاذا بها فى صورة مروعة . وكانت لا تتكلم ولا تتنفس ، وقد قامت فى سريرها نصف قومة وبرزت كتفها النحيلة من قميصها واصفار وجهها ، ووقفت بنظرها على مشهد مروع فى الجانب الآخر من المخدع ، واتسعت من الرعب حدقتاها

فصاح مادلين : « ويلك ، ما بك ؟ » فلم تجب ولم تحول بصرها ، ولكنها مست ذراعه باحدى يديها وأشارت اليه بالثانية أن ينظر وراءه فالتفت ، فاذا به يرى جافير

□

واليك ما مر من الحوادث قبل ذلك :

خرج مادلين من قاعة الجلسة وقد انطوى النصف الاول من الليل ، وانقلب الى النزل فى الساعة التى تهيأ فيها البريد

(١) التناول المقدس اول حفل دينى تشهده الفتاة المسيحية لتنصيرها

السفر ، فأخذ مقعده فيه وبلغ منتراى سيرمير قبل الصباح . وما هى الا أن احتوته حتى أودع صندوق البريد كتابا الى لافيد الصراف ثم انطلق يعود فانتين

ولما غادر قاعة الجلسة فى أراس وعاد الحضور الى أنفسهم، وقف المدعى العام وجعل يتوجع لمادلين على ما أصابه من ذلك المس ، واصر على طلبه ، وقال ان هذا الحادث الغريب الذى ستكشف الايام عن سره لم يزلزل من عقيدته ولم يغير وجه التهمة المصوبة الى ( جان ماتييه ) . ولكن أقواله لم تنزل من نفوس السامعين منزلتها . وسقطت الحجة من يده فتلقفها المحامى واطرد له القول فقال :

ــ لقد انقلب الأمر رأسا على عقب ، وأصبح المحكمون لا يرون أمامهم الا رجلا بريئا

وأخذ الرئيس جانب المحامى ، وانحاز له المحكمون فسرحوا ( جان ماتييه )

ولم يكن للمدعى بد من أحد الرجلين : فطلب القبض على مادلين حين أفلته ( جان ماتييه ) ثم كتب على المكان (١) أمر القبض ، وخلا بالرئيس لتوقيعه ، فتردد الرئيس بعض الشىء ، وكان على طيبة نفسه وحدة ذهنه يتعصب الملكية وقد كان مادلين ذكر امامه يوما كلمة ( الأمبراطور ) ولم يذكر بجانبها كلمة ( بونابرت ) فغاظه ذلك وحقدها عليه . وذكر له لشقوته تلك السالفة ، فهان عليه توقيع الأمر

وابرد المدعى به بريدا خصيصا الى جافير بمنتراى سيرمير وتقدم اليه بالاسراع ، وكان البريد فارسا فذهب يعدو مرسل العنان

وكان جافير قد غادر قاعة الجلسة حين فرغ من شهادته كما قدمنا ، وعاد الى منتراى سيرمير واتفق أن هب من نومه ساعة وصل البريد . وكان البريد شرطيا من حذاق

---

(١) اى فى الحال

الشرطة فأنهى اليه الأمر ، ووقفه بكلمتين على جملة ما مر من الحوادث . فقام جافير الى امضاء هـذا الأمر ساعة استولى عليه . ولو ان أحدا رآه وهو يلج باب الدار التى فيها فانتين ومادلين وكان ممن يجهلون نبأ هذا الرجل ، لما قام بنفسه أن أمرا خطيرا قد حركه ، ولما تبين من وجهه غير لمحته المألوفة (١) فلقد كان هادىء السمى ساكن النفس بادى الجد وهو يرقى الدرج

ولكن لو رآه فى هذه الساعة أحد ملابسيه الواقفين على غريب طباعه ، لذعر من رؤيته . فقد كان زر بنيقته(٢) منحرفا الى جهة الأذن اليسرى بدلا من أن يكون محررا الى القفا

وكانت تلك آية على هياج غريب فى نفسه . فقد كان الرجل نظاميا فى واجبه ولباسه الرسمى . فهو لا يترخص مع المجرم كائنا من كان ، ولا فى أحكام لباسه الرسمى وتفقد أزراره من جميع ضواحيه . فانزعاج الزر من مكانه حادث لا تأذن له بالوقوع الا فورة فى النفس ، كانت أشبه الأشياء بالزلزال فى الارض

وكان قد اصطحب اربعة من الجنـد وكبيرا لهم ، وأمر سائرهم بالتربص فى الفناء

ولما سأل البوابة عن مادلين لم تتردد فى أن تدل عليه ، فقد ألفت أن يسألها عنه الجنود وهم شاكو السلاح . ولما بلغ مخدع فانتين أدار المفتاح ودفع البـاب دفعا لينا كأنه ممرضة تحرص على راحة مريضها أو مسترق للسمع . ثم دخل ولو أحسنا القول لقلنا لم يدخل .. فقد وقف فى حرم الباب ، وقلنسوته على رأسه وأزرار لباسه الرسمى مطمئنة فى عراها ، وقد علق فى أثنائها يده اليسرى ، وكان

---

(١) لمحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملمح الوجه ولكن ملمح النظر أى محل سقوطه
(٢) ياقة القميص

رأس عصاه مطلا من خلف مرفقه . فلبث كذلك دقيقة أو بعض دقيقة ولم يشعر به أحد ، واتفق أن رفعت فانتين عينيها فلمحته وأنذرت به مادابين

وفى اللحظة التى التقى فيها النظران ، حال جافير وهو جامد فى مكانه الى صورة مفزعة !

وما من شعور بشرى فى نفس هذا الرجل هو أقدر على التمثل فى صورة الفزع من شعور الفرح ، وقد طغى عليه فقد قلب سحنته الى سحنـــاء مارد يريد أن ينقض على طريدته . وكان يقينه من القبض على جان فالجان بعد لأى ، قد فضح ما كان كامنا فى نفسه وبسط على ظاهره ما كان يضطرب فى زوايا باطنه . وأصبحت الفضاضة التى كان يجدها فى نفسه حين أخطأ ترسم الأثر ، ولم يصب الشاكلة فى أمر « جان ماتييه » وقد محاها زهو دخل فى نفسه حين علم أن فراسته لم تخطىء وأن شعوره لم يخنه فى تعقب جان فالجان . وتجلت فى جبهته الكزة (١) دمامة منظره عند ظفره ، فكان ذلك أبين ما يقرأ من آيات الشناعة فى سحنة بلغت مناها

وفى هذه الآونة كان جافير ، وقد رفعه الفلك وناجاه الملك ، لا يشعر بحقيقة موقفه حق الشعور ، لكنه لم يخل من شعور مبهم بنجحه وضرورة الحاجة اليه

فقـــد كان يمثل فى ذات نفسه تلك القوات العلوية من العدل والحقيقة والنور ، وهى تعمل متساندة على سحق قوة الشر

فكان كأنه يحس أن حواليه مدى لا حد له من السلطان والعقل ونفاذ الرأى والايمان باكبار حرمة القانون والقضاء المبرم والقصاص الاجتماعى ، وكل ما فى ذلك الفلك من قوة

---

(١) الكزة بتشديد الزاى الضيقة

ولا عجب فقد كان يحمى النظام ويستنزل صواعق القانون ، وينتقم للمجتمع وينفذ المشيئة ، ويمضى القدر وينهض فى المجد نهوضا . ولم يخل نصره وان كان مبينا من بقية للتحدى والكفاح

وقف فى أوج السماء مشرق الوجه مزهوا وقفة جبار من طواويس الملائكة تجلت فيه بهيمية (١) دونها بهيمية البشر

وما أخذته عين وهو يزاول أعماله المخيفة ، الا أخذها من خلال ظلالها بريق سيف الاجتماع وهو يلمع فى قبضته

وكان يشعر بسعادة فى استنكار ما يرى ، وقد وطىء باخمصيه هام الجرائم ، وقيد بعقبيه العصيان والفساد والشرور ، وكان يتفجج نورا وهو يستأصل من الفساد والشر .. وقد تجلت فى تلك النفس الطاهرة العنصر ، البشعة المنظر ، عظمة لا يختلف فيها اثنان . ولم يعلق بهذا الرجل المخيف دنس ، ولا طارت حوله دنية

ان الاستقامة والاخلاص وسلامة الفطرة ومحض اليقين وتمثل الواجب ، كل أولئك الفضائل اذا حاد بها صاحبها عن قصد السبيل تراءت لك فى صور منكرة ، ولكنها على نكرها ودمامتها لا تزال كاسية بالعظمة

فاجلال تلك الصفات طبيعة من طبائع النفس البشرية

ان لكل شىء آفة ، وآفة الفضيلة العدول بها عن القصد

للمتعصب فى دينه وهو فى عنفوان فورته فرح شريف النزعة وان لم يعرف الرحمة ، يلازمه ما ادرى أى لألاء ، لألاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة

---

(١) لم نقل بهمية وقلنا بهيمية اتباعا لأئمة الكتاب فى الفلسفة والأخلاق والأدب كابن جنى وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت أذواقهم منها كما نفرت من طبعية فقالوا بهيمية حتى أن سيبويه رأس النحاة قد قال ان فيهما لغية وأرجو أن تصبح لغة باذن الله

وكان جافير وقد بلغ مناه ، على حال يرثى لها ــ وكذلك الجاهل اذا فاز ــ فما كان لعين أن تستريح الى ذلك الوجه الذى تجلى فيه كل ما يمكن أن يكون فى طبب من خبيث

□

لم تكن فانتين قد لمحت جافير منذ اليوم الذى انتزعها فيه مادلين من يديه انتزاعا ، ولم يقو عقلها المضعوف على ادراك شيء . غير أنها لم تخل من الشك فى أمره لغشيانه مخدعها . وكان أكبر ظنها أنه انما يريدها . فخانها العزم ولم يستطع نظرها القرار على ذلك الوجه المنكر ، وأحست الحين ، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين صيحة اليأس : « نجنى منه » . فأجابها بصوت يقطر سكينة ورقة : « اهدئى أنت فانه انما جاء يريدنى »

ثم التفت الى جافير ، وقال له : « انى لأعلم ما تريد » !

وصاح به جافير : « اذن فهيا »

نطقها بوحشية زحمت فى حلقه مخارج الأحرف وطمست على معالمها ، فخرجت وهى بالزئير أشبه منها بالكلام . ولم يجر جافير على الطريقة المألوفة فلم يفض معه فى حديث ، ولم يعمد الى ابراز أمر الاستدعاء . فقد كان يعد جان فالجان محاربا خفيا يفلت كل من يطارده !

قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام ، فلبث خمس سنين يجالده ويصارعه ، فلم يقو على صرعه ، ولم يكن أمر القبض بدء ذلك العراك ، ولكنه كان الختام ــ فما زاد على أن قال له : « اذن فهيا » !

قالها ولم يخط خطوة ولكنه ألقى على جان فالجان نظرة كالمحجن (١) ــ تلك النظرة التى اعتاد أن نجذب بها اليه

---

(١) المحجن آلة يجذب بها الشيء كالخاطوف وغيره

جذب العنف أولئك المنكودين من البائسين ــ تلك النظرة التى نفذت الى نخاع فانتين قبل اليوم بشهرين كاملين

وعند تلك الصيحة فتحت فانتين عينيها ، فرأت مادلين بحيث كان ، فشد ذلك منها بعض الشيء ، ثم أجالت تلك المسكينة نظرا حائرا ، فلم تر فى المخدع غير مادلين وغير الراهبة ، فقام بنفسها أنه لا يريد بتلك الصيحة سواها

رأت فى تلك اللحظة شيئا غريبا لم تكن لتراه حتى فى عنفوان هذيانها ، رأت عينا (١) من الشرطة يلبب (٢) شريفا من سروات الناس ، والعين شامخ الأنف والشريف منكس الرأس . فخيل اليها أن الدنيا قد شمرت للزوال

وكان جافير قد أخذ فى الحقيقة بتلابيب جان فالجان فصرخت فانتين : « سيدى الشيخ » . فضحك جافير حتى بدت نواجذه ، وقال : « ليس هنا من ينادى بسيدى الشيخ » . فلم يعالج جان فالجان أو يزحزح عن خناقه يد جافير ، ولكنه قال له : « جافير » ، فقاطعه جافير قائلا : « قل سيدى المفتش » ، فقال له : « سيدى أن لى معك كلاما »

فقال له : « ارفع به صوتك ، فكذلك أكلم » . قال : « انه رجاء » . قال له : « أجهر بصوتك كما أمرتك »

قال : « انه رجاء يحسن أن لا يسمعه سواك »

ثم داناه وألقى فى أذنه : « أرجئنى ثلاثا أبحث فيها عن بنية هذه المسكينة وأدفع لأصحاب النزل نفقة ايوائها ولك أن تصحبنى اذا شئت »

فقال جافير : « أراك تمزح وما عهدتك قبل اليوم محمقا »

وسقطت تلك الكلمات الى أذن فانتين ، فاضطربت فى سريرها وصاحت : « ويلاه أليست بنيتى هنا كما

---

(١) جاسوس (٢) يأخذ بتلابيبه أو بخناقه اى يجمع ثيابه عند صدره ونحره ويجره منها جرا

يزعمون ؟ » . ثم صاحت : « ايتها الأخت اين بنيتى ، وأنت أيها السيد مادلين ؟ » . فضرب جافير برجله وصاح بها : « اياك ان تنبسى ايتها الشقية . أرانى اليوم فى بلد ينادى فيه المجرم بالقاب التسويد وتكرم فيه البغى كأنها من فضليات الحرائر »

ثم نظر الى فانتين ، ويده تزيد فى تضييق الخناق على جان فالجان ، وقال لها : « ألم أقل أن ليس هنا شيخ ولا سيد ، وانما هنا لص مجرم وفاتك أثيم يدعى جان فالجان ؟ »

فاستوت فانتين فى سريرها وتنقلت بنظرها من جان فالجان ، الى الراهبة ، الى جافير ، ثم فتحت فاها تريغ الكلام فلم يرم حلقها بغير الشخير ، ثم اصطكت أسنانها وانبسط ذراعاها كأنها غريق يبحث عن شيء حوله ، ثم هوت على الوسادة ، فصدم رأسها سناد الوساد ـ واسلمت على أثر تلك الصدمة الروح

فوضع جان فالجان يده على يد جافير ، وهى ممسكة بطوقه ، وبسط قبضتها ، وكأنها يد طفل ثم قال له : « لك الويل ، لقد قتلتها »

فصاح به جافير : « دع عنك هذا فما جئنا لنسمع ذاك المنطق ، فان لم تنطلق معى فليس الا القيد ، والا دعوة الجند »

وكان فى احدى زوايا المخدع سرير عتيق من الحديد تستريح اليه الراهبات فى السهر ، فاندفع اليه جان فالجان وانتزع فى أقل من رجع البصر سناد الوساد رغم رسوخه فى مكانه ، وأى شيء يتعصى على تلك الساعد ؟ ثم اتخذ منه جنة وسلاحا ولوح به فى وجه جافير ، فتراجع مذعورا الى الباب . ثم مشى به مشية المطمئن الى سرير فانتين ولما بلغه التفت الى جافير ، وقال له : « أنصح لك الا تدانينى » !

فأوجس جافير خيفة ، وبدا له أن يذهب لدعوة الجند

لكنه خشى أن يجد جان فالجان نهزة للفرار فأسند ظهره الى عضادة الباب ، ونظره مصوب الى غريمه . فارتفق جان فالجان على قمة السناد ، وجعل يتأمل فانتين وهى هامدة ولبث غارقا فى تأملاته . وما كان ليفكر فى شىء من أشياء هذه الحياة ، غير انك كنت تقرأ فى معارف وجهه أبلغ آيات الرحمة . ثم انحنى فوقها وجعل يسارها — ترى أى كلام كان يلقيه عليها ؟ وما عسى أن يقول ذلك الرجل الممتحن لتلك المرأة الميتة

لم يقع ما قال فى أذن الحى فهل وقع فى أذن الميت . وما يدريك لعل فى الأوهام المؤثرة شيئا من الحقائق السامية

روت الراهبة سمبليس ، تلك التى شهدت وحدها ذلك المشهد ولا مغمز فيما تروي — أنها قد رأت رأى العين أثناء تلك المسارة بسمة قد خطفت على فم الميتة وبريقا قد لمع فى تلك الأحداق ، التى غمرتها دهشة أهل القبور . ثم اخذ فى يديه رأس فانتين ووضعه برفق على الوسادة كما تضع الأم رأس طفلها وأغمض بعد ذلك عينيها ، وقد علا وجهها اشراق سماوى — والموت انتقال من عالم الظلمة الى عالم النور

ولما فرغ من شأنها ركع أمام سريرها وتناول يدها فقبلها ثم التفت الى جافير وقال له : « دونك ما تريد » ! . .

▭

سيق مادلين الى سجن المدينة وفشا نبأ اعتقاله فى أنحائها ، فأقام الناس وأقعدهم ومشى بعضهم الى بعض يتساءلون . وانحازوا عنه حين علموا أنه مجرم عتيق ولم ينشبوا أن نسوا حتى عوارفه ، وقطموا باجرامه قبل أن يقع اليهم تفصيل ذلك الحادث بآراس . فمضى النهار وما تكاد تسمع فى مناحى المدينة الا هذا اللفظ :

ألا تدرى ؟ — انه مجرم سرح بعد العقاب — من هو ؟ —

شيخ البلد ــ ويحك ما تقول ؟ السيد مادلين ؟ ــ نعم ــ لا تقل هذا ــ انه لم يكن يدعى مادلين ــ ان له اسما آخر . لله ما أشنعه ، لقد كان يدعى ما أدرى (بيجان) ! ( جووان ) !

ــ وهل اعتقل ؟

ــ نعم

ــ أفى السجن ؟

ــ فى سجن المدينة ويتوقع نقله واشخاصه الى دارالمحكمة ليسأل عن سرقة قد ركبها على الطريق المعبد فى عهده الاول

ــ انى لا أسكن الى هذا النبأ ، فقد كان الرجل طيبا كاملا ، وكان من الزاهدين ، ألم تر كيف تأبى على وسام الشرف يوم انعم به عليه ؟ ألم تقع عليه عينك وهو يوالى اسداء الحسنات ؟. فما سأله سائل الا أعطاه ، ولا مر بمعدم الا نفحه ولا بمحزون الا واساه

ــ لقد كنت ألمح من وراء تلك الاعمال ماضيا غير محمود

وقالت عجوز منا لمشتركين (١) فى « علم السلام (٢) » : « لم يثر هذا النبأ فى نفسى حزنا على ذلك الرجل ــ ان فى هذا لبلاغا لأولئك « البونابارتيين » (٣) »

وهكذا قد انمحى بين عشية وضحاها شبح مادلين من الأذهان ولم يبق على عهده فى المدينة كلها الا ثلاثة أو أربعة منهم بوابته القديمة

وكانت قد دخلت عند دخول الليل غرفتها وقبعت فيها كاسفة البال تفكر فيما نزل بذلك الرجل الكريم

وقد أقفل المصنع على أثر ذلك الحادث وأقفر طريقه ولم يبق فى الدار غير الراهبة ( بربيتى ) وأختها ( سامبليس ) كانتا تتناوبان السهر على تلك الميتة

---

(١) قلنا من المشتركين ولم نقل من المشتركات اتباعا للأفصح قال الله تعالى « وكانت من القانتين »

(٢) « علم السلام » جريدة يومية كانت تظهر فى ذلك العهد

(٣) نسبة الى نابليون بونابرت

وعنـد الساعة التى اعتاد فيها مادلين العودة الى داره قامت البوابة وأخرجت من درج لها مفتـاح باب مخدعه وعلقته فى مسمار مرشوق بالحائط ، ونصبت الشمعدان فى مكانه المعهود ، كما كانت تفعل فى كل مساء ، ثم أخذت فى التفكير

فعلت كل ذلك بدافع العادة لا بدافع الارادة . ومر بها ساعتان وهى على تلك الحال ، ثم عادت الى نفسها ولم تنشب أن صاحت :

« الهى من ذا الذى علق هنا هذا المفتاح ؟ »

ووقع فى نفس هذه اللحظة أن فتح زجاج النافذة . وامتدت يد من فرجته،فالتقطت المفتاح وأنارتالشمعدان. فرفعت عينيها وهى مفتوحة الفم وقد وقفت فى حلقهـا صيحة . . انها تعرف تلك اليد ، ولا تنكر تلك الذراع ، ولم يكن كم ذلك الرداء عنها بالغريب

انه السيد مادلين ــ فمر بها بضع ثوان وهى معقودة اللسان ــ كما حكت عن نفسها وهى تروى ذلك الحادث ــ ثم انحلتعقدته فصاحت : «سيدىالشيخ ! لقد ظننتك . . » ثم أمسكت عن الكلام كراهة أن يبدر منها ما يكون فيـه تحقير لذلك الرجل الذى كان لا يزال عظيما فى نفسها

فأسرع مادلين وأتم لها جملتها فقال : « فى السجن . . نعم كنت فيه فكسرت احدى عوارض النـافذة وهبطت من على سطح هناك ، وهاأنذا كما ترين أعود الى مخدعى ، فاذهبى أنت الى الراهبة « سامبليس » وقولى لها انى فى حاجة اليهـا ! » فانطلقت العجوز تعدو ، ولم يوصها بشىء ، فقد كان يعلم أنها عليه أحرص منه على نفسه

ولا يعلم خلق كيف خلص هذا الرجل الى ذلك الفناء ، وهو لم يعمل فى الباب الكبير مفتاحا

لقد كان يكون معه المفتاح ( القلابة (١) ) الذى يستخدم لفتح أبواب الجوانب . لكن من الحتم ان يفتش السجين عند دخوله فى السجن وينزع منه ما يحمل من أداة . فهل عمى الموكلون بسجنه عن ذلك المفتاح ـ لقد لبث هـذا الأمر غامضا

صعد فى الدرج الى مخدعه ثم ترك الشمعدان على الدرجة العليا ، وفتح المخدع بلا تحرج فصر الباب صريرا ، ولكنه لم يباله ، وولج فى الظلام

وجعل يتقرى بيديه ويتلمس النافذة حتى أصابها فأغلقها وأحكم اغلاقهـا . ثم عاد فحمل الشمعدان وأنار المخدع

وكان من الحزم أن يأخذ بتلك الحيطة فقد كانت النافذة مطلة على الطريق . ثم ألقى نظرة عجلى على ما فى ذلك المخدع من متاع فكان على غاية من النظام ، ولم يبق فيه ما يدل على أثر تلك الليلة غير قطعة الغلام وقد اسودت من النار وغير بقايا عصاه

فأخذ وريقة بيضاء خط فيها هذه الكلمات : ـ

ـ هاكم بقية عصاى وقطعة الغلام الفضية التى ذكرتها أمام المحكمة

ثم لفهما فى تلك الوريقة ووضعها بحيث تأخذها عين الداخل

ولف بقايا الشمعدانين فى خرقة وجعل يحزمها وهو أهدأ ما يكون نفسا . وكان يمضغ كسرة من الخبز الأسود ولعله حملها معه حين فر من السجن . وقد وجد منها فتاة على بلاط المخدع ، وجده المحققون حين حضروا لمعاينة داره بعد اختفائه

طرق عليـه البـاب فأذن للطارق ، فدخلت الراهبـة

---

(١) القلابة كلمة عامية يعبرون بها عن المفتاح الصغير الذى يفتح جميع الأبواب واخترت هذه الكلمة لانطباقها على المعنى المراد . فكلمة قلابة تفيد انها تقلب السنة جميع الأقفال

« سامبليس » وهى صفراء اللون محمرة الحدق

ولا يسلم المرء وإن كان جلداً صبوراً من أن يتسرب اليه الوهن أمام بأس الأقضية والمقادير

وكانت حوادث ذلك اليوم المشهود قد ردت الراهبة الى طبعها من الضعف والخور فجزعت وبكت ، وكذلك تبكى النساء

فمد لها جان فالجان يده بورقة ، وقال لها : « أيتها الأخت أرجو أن تحملى هذه الورقة الى القس » وكانت الورقة مطوية ، فألقت عليها الراهبة نظرة ، فقال لها : « لك أن تقرئى ما فيها »

فقرأت : « أرجو سيدى القس أن يقوم على ما خلفته هنا من المال ، وأن ينفق على دفن المرأة التى قضت فى هذا اليوم ، وأن يرصد ما تبقى للفقراء والمساكين

حاولت الراهبة أن تنطق فخانها النطق ثم تمكنت بعد الجهد من أن تقول :

« ألا يريد سيدى الشيخ أن يتزود من تلك البائسة بنظرة الوداع ؟ »

فأجاب مادلين : « انهم على أثرى وربما أدركونى هنالك فعكروا عليها صفو نومها الأبدى ! »

وما هو الا أن قالها حتى سمعوا ضجة ووقع أقدام على الدرج . وسرى اليهم صوت البوابة وهى تقول :

« أقسم بالله أن أحداً لم يدخل ، وأننى لم أرم مكانى من الباب بياض النهار وسواد الليل » وسمعوا صوت رجل يقول : « وما هذا النور بالمخدع ؟ » ، فعرفوا منه صوت جافير

وكان باب المخدع يوارى عند فتحه الزاوية اليمنى من ذلك المكان فأطفأ جان فالجان شمعته واختبأ فى تلك الزاوية

وسقطت الراهبة على ركبتيها بجوار المنضدة ، وفتح الباب وظهر جافير على العتبة ، وجعلت الراهبة تصلى

وكانت قد نصبت شمعتها على المدفأة ، فلمح جافير على ضوئها الضئيل تلك المصلية ، فسمر فى مكانه

وجافير كما تعهد ، بما بنى عليه طبعه وبما كسبه من البيئة التى يعيش فيها والمضطرب الذى يتقلب فيه ، كان على جانب عظيم من اكبار السلطة فى شتى مظاهرها . فهو يعظم سلطان الدين كما يعظم سلطان القوانين ، وينزل الراهب منزلة المعصوم من الخطأ ، والراهبة منزلة المعصومة من الخطيئة

تلك أرواح مسورة فى هذه الدنيا بسور له باب واحد ، لا يفتح الا لتخرج منه كلمة حق

ولما لمح جافير الراهبة ، هم عند الوهلة الأولى بالانصراف ثم ذكر واجب مهنته فوقف وتجاسر على سؤالها وهو يعلم أنها امرأة صدق ، ومكانها من نفسه مكانها : « أيتها الأخت ، هل أنت وحدك فى هذا المخدع ؟ »

فرفعت عينها ، وقالت : « نعم » . فقال جافير : « أعذرينى على هذا الالحاح .. ألم ترى رجلا فى هذه الليلة ، فانى أتعقب مجرما يدعى جان فالجان قد فر من السجن » . قالت : « لا ! »

فانحنى جافير وسلم ، وعاد من حيث أتى وهو بها أوثق ما يكون

كذبت الراهبة ثم كذبت : كذبت مرتين على التعاقب

ايه أيتها العذراء الطاهرة . انك لم تكونى من أبناء دنيانا .. وقد مر بك سنون وأنت تلابسين الطواهر من أخواتك العذارى ، والأطهار من اخوتك الملائك ، ولسوف تسألين عما جرى على لسانك من الكذب، ولكن فى دار النعيم

وبعد هذا الحادث بساعة أو شيعها(١) رؤى رجل يهرول بين الشجر ، وقد ركب طريق باريس ولم يكن غير جان فالجان

---

(١) قريبا منها

وقد ارتدى رداء عامل ولم ندر من أين أتى به ، ولعله رداء العامل الذى مات فى المصنع منذ أيام

وقد آن لنا أن نشيع فانتين بكلمة :

« ان لنا أما واحـدة

« هى الأرض

« وقد رجعوا فانتين الى امها . . . »

وقال القس :

« ليس من البر أن أنفق من مال هذا المجرم على دفن تلك البغى ، ولـكن البر أن أرصـده للنفقة على الفقراء والمساكين »

ثم تجوز (١) فى دفن تلك البائسة وألقى بها فى مقـابر الصدقة ، فاختلطت عظامها بذلك الرفات : رفات من سبقها ومن يلحقها من الأموات

وغابت فى غياهب تلك الحفرة التى لم تكن لأحد وهى لكل أحد

وذهبت روحها الى مقرها ومستودعها . وسبحان من يعلم وحده أين ذلك المستقر

وهكذا أنيمت فانتين فى ظلمة تلك الحفرة ، وانطوت فى رماد تلك الأمشاج ، فكان لحدها أشبه شىء بسريرها

---

(١) تساهل

## وكلاء مجلات دار الهلال

| | |
|---|---|
| **سوريا ولبنان** : | شركة فرج الله للمطبوعات — مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بكي فى بيروت ( تليفون ٧٨ — ١٧ ؛ صندوق بريد١٠١٢ — أو باحدى وكالاتها فى الجهات الاخرى . ( الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين ) |
| **العراق** : | السيد محمود حلمى — صاحب المكتبة العصرية — ببغداد |
| **اللاذقية** : | السيد نخلة سكاف |
| **مكة المكرمة** : | السيد هاشم بن على نحاس — ص.ب ٩٧ |
| **البحرين والخليج الفارسى** : | السيد مؤيد احمد المؤيد — مكتبة المؤيد — البحرين |
| **ساحل الذهب** : | The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A. |
| **نيجريا** : | Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A. |
| **انجلترا** : | مكتب توزيع المطبوعات العربية<br>Arabic Publications Distribution Bureau<br>15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26. |

# هذا الكتاب

هذا الكتاب : تأليف ، وترجمة . . .

أما التأليف ، فهو لأديب فرنسا الأشهر فيكتور هيجو ، الذى أودع فيه من أدب براعته ، وفن براعته ، وجمال روايته ، وسمو بلاغته ، وقوة نقده ، ودقة تصويره ما يسحر ويمتع ، ويأخذ بالنفوس والألباب ، ويدفع القارىء الى الأسى والاشفاق على هؤلاء البؤساء الذين يعيش معهم فى هذا الكتاب .

وأما الترجمة ، فهى لشاعر النيل محمد حافظ ابراهيم . وحسبنا به أديبا نابغا ، وشاعرا عبقريا ، تزهو به مصر فى تاريخها الحديث ، فقد أودع ترجمته نفسه وروحه ونبوغه ، فكانت ذخيرة أدبية ، تذكر له الى جانب ديوانه البليغ ، وقد تسمو فى تقديرها الى أن تقف مع ديوانه فى كفتى ميزان . . أحدهما يدل على عبقرية حافظ الشعرية ، وثانيهما يدل على عبقريته النثرية ومقدرته فى علم اللغة وصناعة الكلام

